البحر المحيط

تصنيف

أثير الدين أبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان

الغرناطي الأندلسي

٦٥٤هـ/٧٤٥هـ

حقق هذا الجزء

ماهر حبوش

الجزء العاشر

دار الرسالة العالمية

بسم الله الرحمن الرحيم

مكتبة لسان العرب

الطبعة الأولى

٢٠١٥م / ١٤٣٦هـ

الرسالة العالمية

دار الرسالة العالمية

شركة الرسالة العالمية م.م.

Al-Resalah Al-A'lamiah m. Publishers

الإدارة العامة

Head Office

دمشق - الحجاز

شارع مسلم البارودي

بناء خولي و صلاحي

2625

(963)11-2212773

(963)11-2234305

الجمهورية العربية السورية

Syrian Arab Republic

info@resalahonline.com

http://www.resalahonline.com

فرع بيروت

BEIRUT/LEBANON

TELEFAX: 815112- 319039- 818615

P.O. BOX:117460

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأعراف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ
لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ
﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم
بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ
﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ
فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدۡ
خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ
ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ
﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ
يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ
لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ
ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ
ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ
لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ

أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ
بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا
ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا
وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ
وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ
لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾
يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا
سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ
أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾».

المفردات

«كم» اسمٌ بسيطٌ، لا مركَّبٌ من كافِ التشبيه و«ما» الاستفهامية حُذِفَ ألفُها لدخول حرفِ الجرِّ عليها وسكِّنت ـ كما قالوا: لِمَ، ثم[1] قالوا: لِمْ ـ تركيباً لا ينفكُّ، كما رُكِّبت في «كأين» مع «أيّ». وتأتي استفهاميةً وخبريةً، وكثيراً ما جاءت الخبريةُ في القرآن، ولم يأتِ تمييزُها في القرآن إلَّا مجروراً بـ «مِن». وأحكامُها في نوعيها مذكورةٌ في كتب النحو.

القيلولة: نومُ نصفِ النهار، وهي: القائلةُ، قاله الليث. وقال الأزهريُّ[2]: الاستراحةُ في نصف النهار إذا اشتدَّ الحرُّ وإنْ لم يكن نومٌ.

وقال الفرَّاء: قالَ يَقِيلُ قيلولةً وقَيْلاً وقائلةً ومَقِيلاً: استراح وسطَ النهار.

العيش: الحياة، عاش يعيشُ عيشاً ومَعاشاً وعِيشةً ومَعيشةً ومَعيشاً؛ قال رؤبة:

إليكَ أشكو شدَّةَ المعيشِ ... وجَهْدَ أعوامٍ نَتَفْنَ ريشي[3]

غَوَى يَغْوِي غَيّاً وغوايةً: فَسَدَ عليه أمرُه، وفَسَد هو في نفسه، ومنه غَوَى

(١) قوله: قالوا لم ثم، ساقط من المطبوع، ووقع في النسخ عدا (يه): بم، بدل: ثم، والمثبت من (يه)، وهو المناسب للسياق. ينظر الإنصاف في مسائل الخلاف ١/ ٢١١.

(٢) في تهذيب اللغة ٩/ ٣٠٦، وقول الليث منقول منه.

(٣) ديوان رؤبة ص ٧٨-٧٩، والرواية فيه: أشكو إليك.

[...]: تَحَيَّرَ مِن شُرْبِ لبنِ أمِّه حتى فَسَدَ جوفُه وأَشْرفَ على الهلاك. وقيل: أصلُه الهلاك. ومنه: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

[...]: جمع شمالٍ، وهو جمعُ تكثيرٍ[1]، وجَمْعُه في القِلَّة على أَشْمُلٍ؛ قال الشاعر:

يـأتـي لـهـا مـن أَيْـمُـنٍ وأَشْـمُـلِ[2]

وشمال يُطلَقُ على اليد اليسرى وعلى ناحيتها. والشمائلُ أيضاً جمع شمال، وهي الريح. والشمائل أيضاً: الأخلاق، يقال: هو حَسَنُ الشَّمائل.

ذَأَمَه: عابَه، يذْأَمُه ذَأْماً بسكون الهمزة، ويجوز إبدالُها ألفاً، قال الشاعر:

صحبتُك إذ عيني عليها غشاوةٌ ... فلمَّا انجلَتْ قطَّعتُ نفسي أَذِيمُها[3]

وفي المَثَل: لن تَعْدَمَ الحسناء ذاماً[4]. وقيل: أَرَدْتَ أن تَذِيمَه فمدَهْتَه[5]. وقال الليث: ذَأَمْتُه: حَقَرْته[6]. وقال ابنُ قتيبةَ وابنُ الأنباريِّ: ذَأَمَه: ذَمَّه[7].

دَحَره: أَبْعَدَه وأقصاه، دُحوراً، قال الشاعر:

دَحَرْت بني الحصيب إلى قديدٍ ... وقد كانوا ذوي أَشَرٍ وفَخْرِ[8]

---

(١) قوله: تكثير، تحرف في المطبوع إلى: تكسير.

(٢) الرجز لأبي النجم العجلي، وهو في ديوانه ص ٣٤٩، والكتاب ٣/ ٢٩٠ و٦٠٧، وبعده: وهي حيالَ الفرقدَيْنِ تعتلي.

(٣) البيت للحارث بن خالد بن العاص المخزومي، وهو في مجاز القرآن ١/ ٣١، والزاهر لابن الأنباري ٢/ ٣، وتفسير الطبري ١/ ٢٧١ و١٠/ ١٠٢، واللسان (غشا)، وورد في بعض المصادر برواية: ألومها، وعليه أكثر الرواة كما قال الطبري.

(٤) جمهرة الأمثال ٢/ ٣٩٨، والزاهر ٢/ ٣، والمستقصى ٢/ ٢٥٦، ومجمع الأمثال ٢/ ٢١٣، واللسان (ذيم). وجاء في أكثر المصادر: لا تعدم. وأول مَن قاله: حُبَّى بنت مالك بن عمرو العدوانية، وتنظر قصتها في المصادر المذكورة

(٥) قالها المنذر أو النعمان لرجل ذكر رجلاً عنده. وجاء في (ح) والمطبوع: فمدحته، وهي رواية. ويروى أيضاً: تذمَّه. بدل: تذيمه. ينظر أمالي القالي ٢/ ٩٧، وسر صناعة الإعراب ٢/ ٦١٠، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨١، واللسان والتاج (قري).

(٦) ينظر العين ٨/ ٢٠٣.

(٧) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ١٦٦، والزاهر ٢/ ٣.

(٨) المحرر الوجيز ٢/ ٣٨١.

وَسْوَسَ: تكلَّم كلاماً خفيّاً يكرِّرُه، والوَسْوَاس: صوتُ الحَلْي شُبِّه الهمسُ به، وهو فعلٌ لا يتعدَّى إلى منصوبٍ نحو: وَلْوَلَتْ ووَعْوَعَ[١]. قال ابنُ الأعرابي: رجل موسوِسٌ بكسر الواو، ولايقال: موسوَس بفتحها[٢]. وقال غيره: يقال: موسوَسٌ له وموسوَسٌ إليه[٣]. وقال رُؤْبةُ يصف صيَّاداً:

وَسْوَسَ يدعو مُخْلِصاً ربَّ الفَلَقْ لمَّا دنا الصيدُ دنا من الوَهَقْ[٤]

يقول: لمَّا أحسَّ بالصيد وأراد رَمْيَه وَسْوَسَ في نفسه: أيُخْطِئُ أم يُصيب؟ قال الأزهري: وَسْوَسَ ووَزْوَزَ معناهما واحدٌ[٥].

نَصَحَ: بَذَلَ المجهود في تبيين الخير، وهو ضدُّ غشَّ، ويتعدَّى بنفسه وباللام: نصحتُ زيداً ونصحتُ لزيدٍ، ويَبْعُدُ أن يكون يتعدَّى لواحدٍ بنفسه ولآخَرَ بحرفِ الجرِّ، وأصله: نصحتُ لزيدٍ الرأيَ[٦]، من قولهم: نصحتُ لزيدٍ الثوبَ، بمعنى: خِطْتُه، خلافاً لمن ذهب إلى ذلك.

ذاق الشيءَ يذوقُه ذَوْقاً: مسَّه بلسانه أو بفمه، ويُطلق على الأكل.

طَفِقَ بكسر الفاء وفتحها، ويقال: طَبِقَ بالباء، وهي بمعنى «أَخَذ» من أفعال المقاربة.

خَصَفَ النعلَ: وَضَعَ جلداً على جلدٍ، وجَمَعَ بينهما بسَيْرٍ، والخَصْفُ: الخَرْزُ.

---

(١) وَعْوَعَ: عوى وصوَّت، والوعوعة من أصوات الكلاب وبنات آوى. اللسان (وعع). وينظر الكشاف ٢/ ٧٢.

(٢) تهذيب اللغة ١٣/ ١٣٦.

(٣) الكشاف ٢/ ٧٢.

(٤) الأول في ديوان رؤبة ص ١٠٨، وتهذيب اللغة ١٣/ ١٣٦، ولم نقف على الثاني، وجاء بدله في الديوان: سرًّا وقد أوَّنَ تأوين العُقُق.

(٥) في (ب) ووزن، وفي (ح): وزوَّر، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الدر المصون ٥/ ٢٧٦، ولم نقف عليه عند غيره.

(٦) قوله: الرأي، من (يه)، وسقط من باقي النسخ. وينظر الدر المصون ٥/ ٢٨٠.

الرِّيش معروفٌ، وهو للطائر، ويُستعمل في معانٍ يأتي ذكرُها في تفسير المركَّبات. واشتقُّوا منه؛ قالوا: راشَه يَرِيْشُه. وقيل: الرِّيشُ مصدرُ راشَ.

النَّزْعُ: الإزالةُ والجَذْبُ بقوَّةٍ.

* * *

التفسير ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ هذه السورةُ مكيةٌ كلُّها؛ قاله ابنُ عباس والحسنُ ومجاهدٌ وعكرمةُ وعطاءٌ وجابر بنُ زيد والضحَّاكُ وغيرُهم. وقال مقاتل: إلَّا قولَه: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ إلى قوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الآيات:١٦٣-١٧٢] فإن ذلك مدنيٌّ. ورُوِيَ هذا أيضاً عن ابن عباسٍ(١). وقيل: إلى قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا﴾ [الآية: ١٧١].

واعْتِلاقُ هذه السورةِ بما قبلها هو أنه لمَّا ذَكَرَ تعالى قولَه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٥] واستَطْردَ منه لِمَا بعده وإلى قوله آخِرَ السورة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:١٦٥]، وذَكَر ابتلاءَهم فيما آتاهم، وذلك لا يكون إلا بالتكاليف الشرعية، ذَكَر ما تكون به التكاليفُ، وهو الكتابُ الإلهيُّ، وذَكَر الأمرَ باتِّباعه كما أَمَر في قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾.

وتقدَّم الكلام على هذه الحروفِ المقطَّعةِ أوائلَ السورة في أول "البقرة"، وذِكْرُ ما حَدَسَه الناسُ فيها، ولم يقم دليلٌ على شيءٍ من تفسيرهم يُعيِّنُ ما قالوا، وزادوا هنا لأَجْلِ الصاد أنَّ معناه: أنا اللهُ أعلمُ وأفصِّلُ؛ رواه أبو الضُّحى عن ابن عباس(٢). أو: المصوِّرُ؛ قاله السدِّيُّ(٣). أو: اللهُ الملكُ النصيرُ؛ قاله بعضهم. أو: أنا اللهُ المصيرُ إليَّ؛ حكاه الماورديُّ(٤). أو: المصيرُ كتابٌ، فحذف الياء

(١) ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٢، وزاد المسير ٣/ ١٦٤، والكلام منه. وقول ابن عباس الأول أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن ص ٣٣، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٣٥٨، والبيهقي في الدلائل ٧/ ١٤٤.

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٢، والبيهقي في الأسماء والصفات (١٦٧) بلفظ: أنا الله أفصل.

(٣) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٢ بلفظ: «المص» هي هجاء: المصوِّر.

(٤) ينظر النكت والعيون ٢/ ١٩٩، وفيه: ويحتمل عندي أن يكون المراد: المصير إلى كتاب =

والراء ترخيماً، وعبَّر عن المصير بـ«المص»؛ قاله التبريزيُّ. وقيل عنه: أنا اللهُ الصادق.

وقيل: معناه: «ألم نشرح لك صدرك»؛ قاله الكرماني، قال: واكْتَفَى ببعض الكلام.

وهذه الأقوالُ في الحروف المقطَّعة لولا أنَّ المفسِّرين شحنوا بها كتبهم خَلَفاً عن سلفٍ لضَرَبْنا عن ذِكْرِها صَفْحاً، فإنَّ ذكرها يدلُّ على ما لا ينبغي ذِكْرُه من تأويلاتِ الباطنية وأصحابِ الألغاز والرموزِ.

ونهيُه تعالى أن يكون في صدره حرجٌ منه -أي: من سببه- لِمَا تضمَّنه من أعباء الرسالة وتبليغِها لمن لم يؤمِنْ بكتابٍ ولا اعْتَقدَ صحةَ رسالةٍ، وتكليفِ الناس أحكامَها، وهذه أمورٌ صعبةٌ، ومُعايِنُها[١] يشقُّ عليه ذلك.

وأسند النهيَ إلى الحرج، ومعناه نهيُ المخاطَبِ عن التعرُّض للحرج، وكان أبلغَ من نهي المخاطَب لِمَا فيه من أنَّ الحرج لو كان ممَّا يُنْهَى لنهيناه عنك، فانْتَهِ أنت عنه بعدم التعرُّضِ له، ولأنَّ فيه تنزيهَ نبيِّه ﷺ بأنْ ينهاه فيأتيَ التركيبُ: فلا تَحْرَجْ منه؛ لأنَّ ما أنزله الله تعالى إليه يناسِبُ أن يُسَرَّ به وينشرحَ لِمَا فيه من تخصيصه بذلك وتشريفِه، حيث أهَّله لإنزالِ كتابه عليه، وجَعَلَه سفيراً بينه وبين خَلْقِه، فلهذه الفوائد عَدَلَ عن أن ينهاه ونَهَى الحرجَ.

وفسِّر الحرجُ هنا بالشكِّ، وهو تفسيرٌ قَلِقٌ، وسمِّي الشكُّ حَرَجاً لأنَّ الشاكَّ ضيِّقُ الصدر كما أنَّ المتيقِّن منشرِحُ الصدر، وإنْ صحَّ هذا عن ابن عباس[٢]، فيكون ممَّا تَوَجَّهَ فيه الخطابُ إليه لفظاً وهو لأمَّته معنىً، أي: فلا تشكُّوا أنه من عند الله.

وقال الحسن: الحرج هنا: الضِّيقُ[٣]، أي: لا يَضيق صدرُك من تبليغ ما أُرْسِلْتَ به خوفاً من أنْ لا تقومَ بحقِّه.

= أنزل إليك من ربك، فحذف باقي الكلمة ترخيماً وعبر عنه بحروف الهجاء لأنها تذهب بالسامع كلَّ مذهب. اهـ. وهو قريب مما سيرد بعده.

(١) قوله: ومعاينها، تحرف في المطبوع إلى: ومعانيها.

(٢) ولم يصح، فقد أخرجه الطبري ١٠/ ٥٤ عنه بإسناد ضعيف جدًا.

(٣) النكت والعيون ٢/ ١٩٩، وزاد المسير ٣/ ١٦٥.

وقال الفرَّاء: معناه: لا يضيق صدرُك بأنْ يكذِّبوك، كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦](١).

وقيل: الحرجُ هنا الخوف، أي: لا تَخَفْ منهم وإن كذَّبوك وتمالَؤوا عليك.

قالوا: ويحتملُ أن يكون الخطابُ له ولأمَّته.

والظاهر أنَّ الضمير في «منه» عائدٌ على الكتاب، وقيل: على التبليغ الذي تضمَّنه المعنى. وقيل: على التكذيب الذي دلَّ عليه المعنى. وقيل: على الإنزال. وقيل: على الإنذار.

قال ابن عطية: وهذا التخصيصُ كلُّه لا وجهَ له؛ إذ اللفظُ يعمُّ جميعَ الجهات التي هي من سبب الكتاب ولأَجْلِه، وذلك يستغرقُ التبليغَ، والإنذارَ، وتعرُّضَ المشركين، وتكذيبَ المكذِّبين، وغيرَ ذلك، و«فلا يَكُنْ في صدرك حرجٌ منه» اعتراضٌ في أثناء الكلام، ولذلك قال بعض الناس: إنَّ فيه تقديماً وتأخيراً. و«لتنذر» متعلِّقٌ بـ«أُنزل». انتهى(٢).

وكذا قال الحوفيُّ والزمخشريُّ أنَّ اللام متعلِّقةٌ بقوله: «أنزل»(٣)، وقاله قبلهم الفرَّاء(٤)، ولَزِمَ من قولهم أن يكون قولُه: «فلا يكُنْ في صدرك حرجٌ» اعتراضاً بين العامل والمعمول.

وقال ابنُ الأنباري: التقدير: فلا يكن في صدرك حرجٌ منه كي تنذر به، فجعله متعلِّقاً بما تعلَّقَ به «في صدرك»، وكذا علَّقه به صاحب «النظم»(٥)، فعلى هذا لا تكون الجملةُ معترضةً.

(١) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٧٠.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٢.
(٣) الكشاف ٢/ ٦٦.
(٤) في معاني القرآن ١/ ٣٧٠.
(٥) كتاب النظم لأبي علي الحسن بن يحيى بن نصر، كما في تفسير الثعلبي ٦/ ٤٨٨، وكشف الظنون ٢/ ١٤٦٧، ووقع في تفسير البغوي ٤/ ٥٠٣، وزاد المسير ٩/ ١٦٤: الحسين، بدل الحسن. وقوله وقول ابن الأنباري في تفسير الرازي ١٤/ ١٦.

وجوَّز الزمخشريُّ وأبو البقاء[١] الوجهين، إلَّا أنَّ الزمخشريَّ قال: فإنْ قلتَ: بمَ يتعلَّقُ قولُه: «لتنذر»؟ قلتُ: بـ«أُنزل»، أي: أُنزل إليك لإنذارك به، أو بالنهي لأنه إذا لم يَخَفْهُم أَنْذَرَهم، وكذلك إذا أَيْقَنَ أنه من عند الله شجَّعه اليقينُ على الإنذار؛ لأنَّ صاحب اليقين جَسُورٌ متوكِّلٌ على عصمته[٢]. انتهى.

فقوله: أو بالنهي، ظاهِرُه أنه يتعلَّقُ بالنهي، فيكون متعلِّقاً بقوله: «فلا يكن»، و«كان» عندهم في تعليق الجارِّ والمجرور والعملِ في الظرف فيه خلافٌ، ومبناه على أنه: هل تدلُّ «كان» الناقصةُ على الحدَث أم لا؟ فَمَنْ قال: إنها تدلُّ على الحدث، جوَّز فيها ذلك، ومَن قال: إنها لا تدلُّ عليه،لم يجوِّز ذلك[٣].

وأَعْرَبَ الفرَّاءُ وغيرُه «المص» مبتدأً، و«كتابٌ» خبره، وأعرب أيضاً «كتاب» خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: هذا كتابٌ[٤].

و«ذكرى» هو مصدرُ «ذَكَر» بتخفيف الكاف، وجوَّزوا فيه أن يكون مرفوعاً عطفاً على «كتابٌ»، أو خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: وهو ذكرى. والنصبَ على المصدر على إضمارِ فعلٍ معطوفٍ على «لتنذر»، أي: وتُذَكِّر ذكرى، أو على موضع «لتنذر»؛ لأنَّ موضعه نصبٌ، فيكون إذ ذاك معطوفاً على المعنى كما عُطِفَت الحالُ على موضع المجرور في قوله: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ [يونس:١٢]. ويكون مفعولاً من أَجْله، وكما تقول: جئتُك للإحسان وشوقاً إليك. والجرَّ على موضع «أنْ»[٥] الناصبة لـ«تنذر» المنسبِكِ منها ومن الفعل مصدرٌ، التقدير: لإنذارك به وذكرى. وقال قومٌ: هو معطوفٌ على

(١) الكشاف ٢/٦٦، والإملاء ١/٢٦٧.
(٢) الكشاف ٢/٦٦.
(٣) قال السمين في الدر المصون ٥/٢٤٣: ليس في عبارته (يعني الزمخشري) ما يدل على أنه تعلَّق بـ«يكن»، بل قال: بالنهي، فقد يريد: بما تضمنه من المعنى، وعلى تقدير ذلك فالصحيح أن الأفعال الناقصة كلَّها لها دلالةٌ على الحدث إلا «ليس».
(٤) معاني القرآن للفراء ١/٣٦٨-٣٦٩، والوجه الثاني نقله عن الكسائي ثم قال: وهو وجهٌ، وكأنه إذا أضمر «هذا» أو «ذلك» أضمر لحروف الهجاء ما يرفعها قبلها؛ لأنها لا تكون إلا ولها موضع.
(٥) قوله: أن، ليس في (أ) و(ح) و(د١) و(ع) والمطبوع.

الضمير من «به»[(١)]، وهو مذهبٌ كوفيٌّ.

وتَقارير النصبِ والجرِّ هو على معنى: وتذكير، مصدر «ذكَّر» المشدَّد؛ لأنَّ «ذكرى» - كما قلنا - هو مصدرُ «ذكَر»، لا مصدرُ «ذكَّر» المشدَّد[(٢)].

وقال أبو عبد الله الرازي[(٣)]: النفوسُ قسمان: جاهلةٌ غريقةٌ في طلب اللذَّات الجسمانية، وشريفةٌ مشرقةٌ بالأنوار الإلهية، مستشعرةٌ[(٤)] بالحوادث الروحانية، فبُعِثَتِ الأنبياءُ والرسل في حقِّ القسم الأول للإنذار والتخويف،[فإنهم] لمَّا غرقوا في بحر الغفلة ورقدةِ الجهالة[(٥)] احتاجوا إلى موقظٍ ومنبِّهٍ، وفي حقِّ القسم الثاني لتذكيرٍ وتنبيهٍ؛ لأنَّ هذه النفوسَ بمقتضى جواهرها الأصليةِ مستشعرةٌ بالانجذاب[(٦)] إلى عالَم القُدس، والاتِّصالِ بالحضرة الصَّمَدية، إلَّا أنه ربما غَشِيَها من غواشي عالَم الحسِّ[(٧)]، فيَعْرِضُ [لها] نوعُ ذهولٍ، فإذا سمعتْ دعوةَ الأنبياء واتَّصلَ بها [أنوارُ] أرواحِ رُسُلِ الله تذكَّرت مركزَها، وأبصرت منشأها، واشتاقت إلى ما حصل هناك من الرَّوْح والرَّاحة والرَّيْحان، فثبت أنه تعالى إنما أنزل الكتابَ على رسوله ليكونَ إنذاراً في حقِّ طائفةٍ وذكرى في حقِّ أخرى. انتهى.

وهو كلامٌ فلسفيٌّ خارجٌ عن كلام المتشرعين، وهكذا كلامُ هذا الرجل، أعاذنا الله منه.

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ لمَّا ذكر تعالى أنَّ هذا الكتابَ أُنزل إلى الرسول أَمَرَ الأمَّةَ باتِّباعه، و«ما أُنزل إليكم» يشملُ القرآنَ والسنَّةَ؛ لقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

---

(١) التقدير: لتنذر به وبأنْ تذكِّر، وقد حسَّنه كونُ «ذكرى» في تقدير «أنْ» والفعل، ولو صرَّح بـ«أنْ» لحسُن معها حذف حرف الجر، فهو أحسن من: مررتُ بك وزيدٍ. ينظر الدر المصون ٥/ ٢٤٥.

(٢) قوله: لأن ذكرى كما قلنا هو مصدر ذكَر لا مصدر ذكَّر المشدد، من (ب) و(د٣) و(يه).

(٣) في مفاتح الغيب ١٤/ ١٧، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في تفسير الرازي: مستعدة.

(٥) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: الجاهلية.

(٦) في تفسير الرازي: مستعدة للانجذاب.

(٧) في تفسير الرازي: ربما غشيَها غواشٍ من عالم الجسم.

ونهاهم عن ابتغاءِ أولياءَ من دون الله كالأصنام والرُّهبان والكُهَّان والأحبارِ والنارِ والكواكب وغيرِ ذلك.

والظاهرُ أنَّ الضمير في «مِن دونه» عائدٌ على «ربّكم»، وقيل: على «ما». وقيل: على الكتاب، فالمعنى: لا تَعْدِلوا عنه إلى الكتب المنسوخة.

وقيل: أراد بالأولياء الشياطينَ، شياطينَ الجنِّ والإنس، فإنهم الذين يَحْمِلون على عبادة الأوثان والأهواء والبِدَع، ويُضِلُّون عن دين الله.

وقرأ الجحدري: «ابتغوا»، من الابتغاء. وقرأ مجاهدٌ ومالك بنُ دينار: «ولا تَبْتَغوا» من الابتغاء أيضاً[(١)].

والظاهرُ أنَّ الخطاب هو لجميع الناس، وقال الطبريُّ[(٢)] وحكاه: التقدير: قل اتَّبعوا، فحذف القولَ لدلالة الإنذار المتقدِّم الذِّكرِ عليه.

وانتصب «قليلاً» على أنه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ، و«ما» زائدةٌ، أي: تتذكّرون تذكُّراً قليلاً، أي: حيث تَتْرُكون دينَ الله وتتَّبعون غيره. وأجاز الحوفيُّ أن يكون نعتاً لمصدرٍ محذوفٍ، والناصبُ له: «ولا تتَّبعوا»، أي: اتِّباعاً قليلاً[(٣)].

وحكى ابنُ عطية عن الفارسيِّ أنَّ «ما» موصولةٌ بالفعل، وهي مصدرية[(٤)]. انتهى، وتَمَّمَ غيرُه هذا الإعرابَ بأنَّ نَصْبَ «قليلاً» على أنه نعتٌ لظرفٍ محذوفٍ، أي: زماناً قليلاً تَذَكُّرُكم، أَخْبَرَ أنهم لا يَدَعون الذكر، إنما يَعْرِضُ لهم في زمانٍ قليلٍ، و«ما تذكَّرون» في موضع رفعٍ على أنه مبتدأٌ، والظرفُ قبله في موضع الخبر.

وأَبْعَدَ من ذَهَبَ إلى أنَّ «ما» نافية.

وقرأ حفصٌ والأخوان: «تذكَّرون» بتاءٍ واحدةٍ وتخفيفِ الذال، وقرأ ابنُ عامر: «يتذكَّرون» بالياء والتاء وتخفيفِ الذال، وقرأ باقي السبعة بتاءِ الخطاب وتشديدِ الذال[(٥)].

---

(١) القراءتان في المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٣، والثانية في القراءات الشاذة ص ٤٢.
(٢) في تفسيره ١٠/ ٥٦-٥٧، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٣.
(٣) قال الآلوسي: ويضعفه أنه لا معنى حينئذٍ لقوله تعالى: «تذكَّرون». روح المعاني ٩/ ١٤.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٣.

(٥) السبعة ص ٢٧٨، والتيسير ص ١٠٨-١٠٩. والأخوان هما حمزة والكسائي.

وقرأ أبو الدَّرْداء وابنُ عباسٍ وابنُ عامرٍ في روايةٍ بتاءين. وقرأ مجاهدٌ بياءٍ وتشديدِ الذال[١].

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤﴾ «كم» هنا خبريةٌ، التقدير: وكثيرٌ من القرى أهلكناها، وأعاد الضميرَ في «أهلكناها» على معنى «كم»، وهي في موضعِ رفعٍ بالابتداء، و«أهلكناها» جملةٌ في موضع الخبر. وأجازوا أن تكون في موضع نصبٍ بإضمارِ فعلٍ يفسِّره «أهلكناها» تقديره: وكم من قريةٍ أهلكناها[٢] أهلكناها.

ولابدَّ في الآية من تقديرِ محذوفٍ مضافٍ؛ لقوله: «أو هم قائلون»، فمنهم مَن قدَّره: وكم من أهل قريةٍ، ومنهم مَن قدَّره: أهلكنا أهلَها. وينبغي أن يقدَّر عند قوله: «فجاءها» - أي: فجاء أهلَها -لمجيء الحالِ من «أهلها» بدليل: «أو هم قائلون»؛ لأنه يمكن إهلاكُ القرى بالخسف والهدم وغيرِ ذلك، فلا ضرورة تدعو إلى حذف المضاف قبل قوله: «فجاءها».

وقرأ ابنُ أبي عبلةَ: «وكم من قريةٍ أهلكناهم فجاءهم»[٣] فيقدَّرُ المضافُ: وكم من أهل قرية.

ولابدَّ من تقديرِ صفةٍ للقرية محذوفةٍ، أي: من قريةٍ عاصيةٍ.

وتَعَقُّبُ مجيءِ البأس وقوعَ الإهلاك لا يُتصوَّرُ، فلابدَّ مِن تجوُّزٍ: إمَّا في الفعل بأنْ يُراد به: أَرَدْنا إهلاكَها -أو: حَكَمْنا بإهلاكها- فجاءها بأسُنا بعد ذلك. وإمَّا أن يَختلف المدلولان بأنْ يكون المعنى: أهلكناها بالخذلان وقلَّةِ التوفيق فجاءها بأسُنا بعد ذلك. وإمَّا أن يكون التجوُّز في الفاء بأنْ تكون بمعنى الواو، وهو ضعيفٌ، أو تكونَ لترتيب القول فقط، فكأنه أخبر عن قرىً كثيرةٍ أنه أهلكها، ثم قال: فكان من أمرها مجيءُ البأس.

---

(١) القراءات الشاذة ص ٤٢.

(٢) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: أهلكنا، وسقطت من (ب) و(ح) و(د٣)، والمثبت من (يه)، وهو الموافق لما في الدر المصون ٥/ ٢٤٨.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٣.

وقال الفرَّاء: إنَّ الإهلاك هو مجيءُ البأس، ومجيءُ البأس هو الإهلاك، فلمَّا تَلَازَمَا لم يبال أيهما قدّم في الرتبة، كما تقول: شتمني فأساء،و: أساء فشتمني؛ لأنَّ الإساءة والشَّتْمَ شيءٌ واحدٌ[١].

وقيل: الفاءُ ليست للتعقيب، وإنما هي للتفسير، كقولهم: توضَّأ فغسل كذا ثم كذا.

وانتصب «بياتاً» على الحال، وهو مصدرٌ، أي: فجاءها بأسنا بائتينَ أو قائلين.

و«أو» هنا للتنويع، أي: جاء مرَّةً ليلاً كقوم لوطٍ، ومرَّةً وقتَ القيلولة كقوم شعيب، وهذا فيه نشرٌ لِمَا لُفَّ في قوله: «فجاءها».

وخُصَّ مجيءُ البأس بهذين الوقتين لأنهما وقتان للسكون والدَّعَة والاستراحة، فمجيءُ العذاب فيهما أقطعُ وأشقُّ، ولأنه يكون المجيءُ فيه على غفلةٍ من المُهْلَكين، فهو كالمجيء بغتةً.

وقوله: «أو هم قائلون» جملةٌ في موضع الحال، ونصَّ أصحابُنا أنه إذا دخل على جملةِ الحال واوُ العطف، فإنه لا يجوزُ دخولُ واوِ الحال عليها، فلا يجوز: جاء زيدٌ ماشياً أو وهو راكبٌ.

وقال الزمخشريُّ: فإنْ قلتَ: لايقال: جاء زيد هو فارسٌ، بغير واوٍ، فما بالُ قوله تعالى: «أو هم قائلون»؟ قلتُ: قدَّر بعضُ النحويين الواوَ محذوفةً، وردَّه الزجَّاجُ وقال: لو قلتَ: جاءني زيدٌ راجلاً أو هو فارسٌ، أو: جاءني زيدٌ هو فارسٌ،لم يُحْتَجْ فيه إلى واوٍ؛ لأنَّ الذكر قد عاد إلى الأول[٢]. والصحيحُ أنها إذا عُطِفَتْ على حالٍ قبلها حُذِفت الواوُ استثقالاً لاجتماع حرفي عطفٍ؛ لأنَّ واو الحال هي واوُ العطف استُعيرت للوصل، فقولك: جاء زيد راجلاً أو هو فارسٌ، كلامٌ فصيحٌ واردٌ على حدِّه، وأمَّا: جاءني زيدٌ هو فارسٌ، فخبيث[٣]. انتهى.

---

(١) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٧١ بنحوه، واللفظ دون المثال لابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٤.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣١٧.

(٣) الكشاف ٢/ ٦٧.

فأمَّا بعضُ النحويين الذي اتَّهمه الزمخشريُّ فهو الفرَّاء[١].

وأمَّا قولُ الزجَّاج في التمثيلين: لم يُحْتَجْ فيه إلى الواو لأنَّ الذكر قد عاد إلى الأول. ففيه إبهامٌ، وتعيينُه: لم يَجُزْ دخولُها في المثال الأول، ويجوزُ أن تدخل في المثال الثاني، فانتفاءُ الاحتياج ليس على حدٍّ سَواءٍ؛ لأنه في الأول لامتناع الدخول[٢]، وفي الثاني لكثرة الدخول لا لامتناعه.

وأمَّا قولُ الزمخشريِّ: والصحيحُ. . إلى آخره، فتعليلُه ليس بصحيح؛ لأنَّ واو الحال ليست حرفَ عطفٍ فيَلْزَمَ من ذكرها اجتماعُ حرفي عطفٍ؛ لأنها لو كانت للعطف للزمَ أن يكون ما قبلَ الواو حالاً حتى تَعْطِفَ حالاً على حالٍ، فمجيئُها فيما لا يمكن أن يكون حالاً دليلٌ على أنها ليست واوَ عطفٍ، ولا لُحِظَ فيها معنَى واوِ عطفٍ، تقول: جاء زيدٌ والشمسُ طالعةٌ، فـ«جاء زيدٌ» ليس بحالٍ فتَعْطفَ عليه جملةً حاليةً، وإنما هذه الواوُ مغايِرةٌ لواو العطف بكلِّ حالٍ، وهي قِسْمٌ من أقسام الواو، كما تأتي للقَسَم وليست فيه للعطف إذا قلت: واللهِ ليَخْرجَنَّ[٣].

وأمَّا قوله: فخبيثٌ. فليس بخبيثٍ، وذلك أنه بناه على أنَّ الجملة الاسمية إذا كان فيها ضميرُ ذي الحال فإنَّ حذفَ الواوِ منها شاذٌّ، وتَبعَ في ذلك الفرَّاءَ، وليس بشاذٍّ بل هو كثيرٌ وقوعُه في القرآن، وفي كلام العرب نَثْرِها ونَظْمِها، وهو أكثر من

---

(١) في معاني القرآن ١/ ٣٧٢.

(٢) قوله: لأنه في الأول لامتناع الدخول، وكذلك قوله قبل ذلك: لم يجز دخولها في المثال الأول. قد تعقَّبه السمين في الدر ٥/ ٢٥٢ بأن المصنف قد نقل امتناع ذلك ولم يحك خلافاً في المسألة، لكن قد أجاز الفراء أن يقال: أو وهم قائلون، وأنه لو قيل ذلك لكان صواباً، وهذا مصرحٌ بالخلاف له. وينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٣٧٢، وفيه: لكان جائزاً.

(٣) ينظر الدر المصون ٥/ ٢٥٢، فقد ذكر السمين أن الزمخشري قد سبقه في تسمية هذه الواو حرفَ عطف الفراءُ وأبو بكر ابن الأنباري، وذكر نصَّ كلاميهما ثم قال: فهذا تصريح من هذين الإمامين بما ذكره أبو القاسم (يعني الزمخشري)، وإنما ذكرت نصَّ هذين الإمامين لأُعْلِم اطِّلاعه على أقوال الناس، وأنه لا يأتي بغير مصطلح أهل العلم كما يرميه (أي: المصنف) به غير مرة. اهـ. قلت: وكلام الفراء في معاني القرآن ١/ ٣٧٢، وقد صرح المصنف في الارتشاف ٣/ ١٦٠٤بنسبة القول بأن أصلها العطف للمتأخرين، ممَّا يدل على أنه لم يطَّلع على كلام الفراء في هذه المسألة.

رملِ يَبْرِين[١] ومَهَا[٢] فلسطين، وقد ذكرنا كثرةَ مجيءِ ذلك في «شرح التسهيل»[٣]، وقد رجع عن هذا المذهبِ الزمخشريُّ إلى مذهب الجماعة.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾ قال ابن عباس: «دعواهم»: تَضَرُّعُهم إلّا إقرارُهم بالشرك[٤].

وقيل: «دعواهم»: دعاؤهم؛ قال الخليل: تقول: اللهمَّ أَشْرِكْنا في صالح دَعْوَى المسلمين، ومنه: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ [الأنبياء: ١٥][٥].

وقيل: ادّعاؤهم، أي: ادَّعَوا مَعَاذيرَ تُحَسِّنُ حالَهم وتقيمُ حجَّتَهم في زَعْمِهم.

قال ابن عطية: وتَحتَمِلُ الآيةُ أن يكون المعنى: فما آلَتْ دعاويهم التي كانت في حالِ كفرهم إلا[٦] إلى اعتراف، ومنه قول الشاعر:

وقد شهدتْ قيسٌ فما كان نَصْرُها ... قتيبةَ إلا عضَّها بالأباهم[٧]

وقال الزمخشريُّ: ويجوز: فما كان استغاثتُهم إلّا قولَهم هذا؛ لأنه لا مستغاثَ

---

(١) قرية كثيرة النخل والعيون العذبة بحذاء الأحساء من بني سعد، وهناك الرمل الموصوف بالكثرة. معجم البلدان ١/ ٧١ و٥/ ٤٢٧.

(٢) في (ب): ومهر، وفي (ح): ومنها. وجاء في تفسير القرطبي ١٢/ ٣٥٢: وتيهاء، وهو الأشبه.

(٣) لم يَرِدْ في القسم المطبوع منه، وينظر الارتشاف ٣/ ١٦٠٦. وينظر كذلك شرح المفصَّل لابن يعيش ٢/ ٦٥-٦٦، وقد ردَّ فيه ابن يعيش أيضاً على الزمخشري قوله في المفصل بشذوذ خلوِّ الجملة الاسمية من الواو، وذكر (يعني ابن يعيش) أن اللازم في الجملة الاسمية الحالية أن يؤتى فيها بما يعلِّقها بما قبلها لئلا يُتوهَّمَ أنها مستأنفة، وذلك يكون بأحد أمرين: إما الواو كقولك: جاء زيدٌ والأمير راكبٌ، وإما الضمير نحو: أقبل محمدٌ يدُه على رأسه.

(٤) أي: كان في تضرعهم إقرار بالشرك. ينظر تفسير الرازي ١٤/ ٢١، وخبر ابن عباس فيه بلفظ: فما كان تضرُّعهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا: «إنا كنا ظالمين» فأقروا على أنفسهم بالشرك.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٤، وينظر الكتاب ٤/ ٤٠.

(٦) قوله: إلا، ساقط من (أ) و(ح) و(د١) و(ع) والمطبوع.

(٧) المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٤، وسلف البيت عند تفسير قوله تعالى: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

من الله بغيره، من قولهم: دعواهم يا لَكَعب[1].

قالوا: و«دعواهم» اسمُ «كان»، و«إلا أن قالوا» الخبر. وأجازوا العكسَ.

والأولُ هو الذي تقتضي نصوصُ المتأخِّرين أنْ لا يجوزَ إلا هو، فيكون «دعواهم» الاسمَ و«إلَّا أن قالوا» الخبرَ؛ لأنه إذا لم تكن قرينةٌ لفظيةٌ ولا معنويةٌ تبيِّنُ الفاعلَ من المفعول وَجَبَ تقديمُ الفاعل وتأخيرُ المفعول، نحو: ضَرَبَ موسى عيسى، و«كان» وأخواتُها مشبَّهةٌ في عملها بالفعل الذي يتعدّى إلى واحدٍ، فكما وجب ذلك فيه وجب ذلك في المشبَّه به وهو «كان»، و«دعواهم» و«إلَّا أنْ قالوا» لا يظهر فيهما لفظٌ يبيِّن الاسمَ من الخبر ولا معنىً، فوجَبَ أن يكون السابقُ هو الاسمَ واللاحقُ الخبرَ.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ أي: نسألُ الأممَ المرسَلَ إليهم عن أعمالهم وعمَّا بلَّغه إليهم الرسلُ، كقوله[2]: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] ونسألُ الرسلَ عمَّا أجاب به مَن أُرْسِلوا إليهم، كقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩].

وسؤالُ الأمم تقريرٌ وتوبيخٌ يُعْقِبُ الكفارَ والعصاةَ عذاباً، وسؤالُ الرسل تأنيسٌ يُعْقِبُ الأنبياء ثواباً وكرامةً. وقد جاء السؤالُ منفيًّا ومُثْبَتاً بحسب المَواطن أو بحسب الكيفيات، كسؤال التوبيخ والتأنيس، وسؤالُ الاستعلام البحتِ منفيٌّ عن الله تعالى إذ أحاط بكلِّ شيءٍ علماً.

وقيل: المرسلُ إليهم الأنبياءُ والمرسلون الملائكةُ. وهذا بعيدٌ.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ أي: نسردُ عليهم أعمالَهم قصةً قصةً بعِلْمٍ منَّا لذلك واطِّلاعٍ عليه، وما كنَّا غائبين عن شيءٍ منه، بل عِلْمُنا محيطٌ بجميع أعمالِهم ظاهرِها وباطِنِها.

وهذا مِن أعظم التوبيخ والتقريع، حيث يُقِرُّون بالظلم، وتَشْهدُ عليهم أنبياؤهم، ويقصُّ الله عليهم أعمالَهم، قال وَهْبٌ: يقال للرجل منهم: أتَذْكُرُ يومَ فعلتَ كذا؟

(١) الكشاف ٢/ ٦٧.

(٢) في المطبوع: لقوله، وهو تحريف.

أتذكُرُ حين قلتَ كذا؟ حتى يأتي على آخِرِ ما فَعَلَه وقالَه في دنياه.

وفي قوله: «بِعِلْم» دليلٌ على إثبات هذه الصفةِ لِلّهِ تعالى، وإبطالٌ لقول مَن قال: لا عِلْمَ لِلّه.

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ اختلفوا: هل ثَمَّ وزنٌ وميزانٌ حقيقةً، أم ذلك عبارةٌ عن إظهار العَدْلِ التامِّ والقضاءِ السَّويِّ والحسابِ المحرَّر؟

فذهبت المعتزلةُ إلى إنكارِ الميزان، وتَقَدَّمَهم إلى هذا مجاهدٌ والضحَّاك والأعمش وغيرهم[١]، وعبَّر بالثِّقَل عن كثرة الحسنات، وبالخِفَّة عن قلَّتها.

وقال جمهورُ الأمَّة بالأول، وأنَّ الميزان له عمودٌ وكفَّتان ولسان، وهو الذي دلَّ عليه ظاهرُ القرآن والسنَّة، ينظر إليه الخلائقُ تأكيداً للحجة وإظهاراً للنَّصْفة وقطعاً للمعذرة، كما يسألُهم عن أعمالهم فيعترفون بها بألسنتهم، وتَشْهَدُ عليهم بها أيديهم وأرجلُهم، وتشهدُ عليهم الأنبياءُ والملائكةُ والأشهاد، وأمَّا الثقلُ والخفَّةُ فمِن صفات الأجسام. وقد ورد أنَّ الموزون هي الصحائفُ التي أُثبتت فيها الأعمال، فيُحْدِثُ الله تعالى فيها ثقلاً وخفَّةً.

وما ورد في هيئته وطوله وأحواله لم يصحَّ إسنادُه.

وجُمعت الموازينُ باعتبارِ الموزوناتِ، والميزانُ واحدٌ؛ هذا قولُ الجمهور.

وقال الحسن: لكلِّ أحدٍ يومَ القيامة ميزانٌ على حِدَةٍ[٢]. وقد يعبَّر عن الحسنات بالموازين، فيكون ذلك على حذف مضافٍ، أي: فمن ثَقُلت كفةُ موازينه، أي: موزوناته، فيكون «موازين» جمعَ موزونٍ لا جمعَ ميزان، وكذلك: ومَن خفَّت كفةُ حسناته.

---

(١) ينظر قولهم في تفسير الرازي ١٤/ ٢٥، وتفسير القرطبي ٩/ ١٥٦. وأخرج الطبري ١٠/ ٦٨ عن مجاهد أن الوزن هو القضاء، والحقّ هو العدل.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٦.

و«الوزن» مبتدأ، وخبرُه ظرفُ الزمان، والتنوين للعوض من الجملة، والتقدير: والوزنُ كائنٌ يوم أن نسألَهم ونقصَّ عليهم، وهو يومُ القيامة، و«الحقُّ» صفةٌ لـ«الوزن».

ويجوز أن يكون «يومئذ» ظرفاً للوزن معمولاً له، و«الحقّ» خبرٌ.

ويتعلَّق «بآياتنا» بقوله: «يظلمون»؛ لتضمُّنه معنى: يكذبون، أو لأنها بمعنى: يجحدون، وجَحَدَ يُعَدَّى بالباء، قال: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ [النمل: ١٤].

والظاهرُ أنَّ هذا التقسيم هو بالنسبة للمؤمنين -مَن أطاع ومَن عَصَى- وللكفار، فتوزَنُ أعمال الكفار. وقال قوم: لايُنْصَبُ لهم ميزانٌ ولا يحاسبون؛ لقوله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وإنما توزَنُ أعمالُ المؤمنين طائِعِهم وعاصيهم.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ تقدَّم معنى «مكَّنَّاكُم» في قوله في أول «الأنعام»: ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الآية: ٦] والخطابُ راجعٌ للذين خُوطِبوا بقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وما بينهما أُوْرِدَ مَوْرِدَ الاعتبارِ والاتِّعاظ[1] بذكرِ ما آلَ إليه أمرُهم في الدنيا وما يَؤُول إليه في الآخرة.

والمعايش: جمعُ مَعيشة، ويحتمل أن يكون وزنُها: مَفْعِلة ومَفْعُلة بكسر العين وضمِّها، قالهما سيبويه[2] وقال الفرَّاء: مَعْيَشة بفتح عين الكلمة[3].

والمعيشة: ما يُعاشُ به من المطاعم والمشارب وغيرهما ممَّا يُتَوصَّلُ به إلى ذلك، وهي في الأصل مصدرٌ تَنَزَّلَ منزلةَ الآلات. وقيل: هو على حذفِ مضافٍ، التقدير: أسبابَ معايشَ، كالزَّرْع والحصد والتجارة وما يجري مجرى ذلك، وسمَّاها معايشَ لأنها وصلةٌ إلى ما يُعاش به.

---

(١) قوله: والاتعاظ، تحرف في المطبوع إلى: والإيقاظ.
(٢) في الكتاب ٤/ ٣٤٩.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٧، وينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٣٧٣، وقد ضبطت في مطبوعه مفعِلة بكسر العين.

وقيل: المعايش وجوهُ المنافع، وهي إمَّا ما[١] يُحْدِثُه الله ابتداءً كالثمار، أو ما يُحْدِثُه بطريقِ اكتسابٍ من العبد، وكلاهما يوجبُ الشكر.

وقرأ الجمهور: «معايش» بالياء وهو القياسُ؛ لأن الياء في المفرد هي أصلٌ، لا زائدةٌ فتُهْمَز، وإنما تُهْمَزُ الزائدةُ نحو: صحائف، في صحيفة.

وقرأ الأعرجُ وزيد بنُ عليٍّ والأعمشُ، وخارجةُ عن نافعٍ، وابنُ عامرٍ في روايةٍ: «معائش» بالهمز[٢]، وليس بالقياس، لكنهم رَوَوْه وهم ثقاتٌ فوَجَبَ قبولُه، وشذَّ هذا الهمزُ كما شذَّ في منائر جمع منارةٍ وأصلُها مَنْوَرة، وفي مصائب جمع مُصيبةٍ وأصلُها مَصْوبة، وكان القياس: مَنَاوِر ومَصَاوِب، وقد قالوا: مَصَاوِب، على الأصل، كما قالوا في جمع مَقامة: مَقَاوِم، ومَعونة: مَعَاوِن.

وقال الزجَّاج: جميعُ نحاة البصرة تزعُم أنَّ همزها خطأٌ، ولاأعلم لها وجهاً إلا التشبيهَ بـ: صحيفة وصحائف، ولا ينبغي التعويلُ على هذه القراءة[٣].

وقال المازنيُّ[٤]: أصلُ أَخْذِ هذه القراءةِ عن نافع، ولم يكن يدري ما العربيةُ، وكلامُ العرب التصحيحُ في نحو هذا. انتهى.

ولسنا متعبِّدين بأقوال نحاة البصرة، وقال الفرَّاء: ربما همزت العربُ هذا وشِبْهَهُ، يَتوهَّمون أنها فَعيلةٌ فيشبِّهون مَفْعَلةً بفَعِيلةٍ[٥]. انتهى.

فهذا نقلٌ من الفرَّاء عن العرب أنهم ربما يهمزون هذا وشِبْهَه، وجاء به نَقْلُ القَرَأة الثقات: ابنِ عامر وهو عربيٌّ صُراحٌ، وقد أخذ القرآن عن عثمان قبل ظهور اللَّحن، والأعرجِ وهو من كبار قرَّاء التابعين، وزيد بنِ عليٍّ وهو من الفصاحة والعلم بالمكان الذي قلَّ أن يُدانِيَه في ذلك أحدٌ، والأعمشِ وهو من الضبط

(١) قوله: إما، ساقط من (أ) و(ح) و(د٢) و(ع) والمطبوع.
(٢) القراءات الشاذة ص ٤٢ عن الأعرج ونافع، والكشاف ٢/ ٦٨ عن نافع، وذكرها عن الأعمش ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٥٥ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ [الحجر: ٢٠].
(٣) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٢٠-٣٢١ بنحوه.
(٤) في كتابه «التصريف» كما في المنصف شرح التصريف لابن جني ١/ ٣٠٧.
(٥) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٧٣-٣٧٤.

والإتقان والحفظ والثقة بمكانٍ، ونافع وهو قد قرأ على سبعين من التابعين، وهم من الفصاحة والضَّبط والثقة بالمحلِّ الذي لا يُجْهَلُ، فوَجَبَ قبولُ ما نقلوه إلينا، ولا مبالاةَ بمخالفةِ نحاة البصرة في مثلِ هذا.

وأمّا قولُ المازني: أصلُ أَخْذِ هذه القراءة عن نافع. فليس بصحيحٍ؛ لأنها نُقلت عن ابنِ عامرٍ وعن الأعرج وزيد بن عليٍّ والأعمش.

وأمَّا قوله: إن نافعاً لم يكن يدري ما العربيةُ. فشهادةٌ على النفي، ولو فَرَضْنا أنه لا يدري ما العربيةُ - وهي هذه الصناعةُ التي يُتَوصَّلُ بها إلى التكلّم بلسان العرب - فهو لا يلزمه ذلك؛ إذ هو فصيحٌ متكلِّمٌ بالعربية ناقلٌ للقراءة عن العرب الفُصَحاء، وكثيرٌ من هؤلاء النُّحاة يُسيئون الظنَّ بالقَرَأة[1]، ولا يجوزُ لهم ذلك.

وإعراب «قليلاً ما تشكرون» كإعراب «قليلاً ما تذكّرون».

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ لمّا تقدَّم ما يدلُّ على تقسيم المكلَّفين إلى طائعٍ وعاصٍ، فالطائعُ ممتثِلٌ ما أَمَرَ اللهُ به مجتنِبٌ ما نَهَى عنه، والعاصي بضدِّه، أَخَذَ ينبِّه على أنَّ هذا التقسيمَ كان في البدء الأول مِن أَمْرِ الله للملائكة بالسجود، فامْتَثَلَ مَن امْتَثَلَ وامتنع مَن امتنع، وأنه أَمَر تعالى آدمَ ونَهَى فحَكَى عنه ما يأتي خبرُه، فنبَّه أولاً على موضع الاعتبار وإبرازِ الشيء من العدم الصرف إلى الوجود، والتصويرِ في هذه الصورة الغريبة الشَّكْلِ المتمكِّنةِ[2] من بدائع الصنائع.

والظاهرُ أنَّ الخطاب عامٌّ لجميع بني آدم، ويكون قولُه[3]: «ثم قلنا» إمَّا أن تكون فيه «ثم» بمعنى الواو فلم تُرتِّبْ، ويكون الترتيبُ بين الخلق والتصوير، أو تكون «ثم» في «ثم قلنا» للترتيب في الإخبار لا في الزمان، وهذا أسهلُ مَحْمَلٍ في الآية، ومنهم مَن جعل «ثم» للترتيب في الزمان.

---

(١) في المطبوع: بالقراء.

(٢) في (ب): المتضمنة.

(٣) في (أ) و(ح) و(د١) و(ع): ويكون على قوله.

واختلفوا في المخاطب:

فقيل: المرادُ به آدمُ، وهو من إطلاق الجمع على الواحد.

وقيل: المراد به بَنُوه.

فعلى القولِ الأول يكونُ الخطاب في الجملتين لآدم، لأنَّ العرب تخاطب العظيم الواحد بخطاب الجمع، وقيل: الخطابُ في الأولى لآدم وفي الثانية لذرِّيَّته، فتحصُل المُهلةُ بينهما، و«ثم» الثالثةُ لترتيب الإخبار، ورَوَى هذا العوفيُّ عن ابن عباس[(١)]. وقيل: «خلقناكم» لآدم «ثم صوَّرناكم» لبنيه -يعني في صُلْبه عند أَخْذِ الميثاق- «ثم قلنا»، فيكون الترتيبُ واقعاً على بابه.

وعلى القول الثاني، وهو أنَّ الخطاب لبني آدم، فقيل: الخطابُ على ظاهره وإن اخْتَلَف محلُّ الخلق والتصوير:

فروى الحارث عن ابن عباس: «خلقناكم» في ظهر آدم «ثم صوَّرْناكم» في الأرحام.[(٢)]

وقال ابن جبير عنه: «خلقناكم» في أصلاب الرجال «ثم صوَّرْناكم» في أرحام النساء.[(٣)] وقاله عكرمةُ وقتادةُ والضحاك والأعمش.[(٤)]

وقال ابن السائب: «خلقناكم» نُطفاً في أصلاب الرجال وترائبِ النساء «ثم صوَّرناكم» عند اجتماع النُّطف في الأرحام.[(٥)]

وقال مَعْمَرُ بن راشد حاكياً عن بعض أهل العلم: «خلقناكم» في بطون أمَّهاتكم، و«صوَّرناكم» فيها بعد الخلق بشقِّ السَّمْع والبصر[(٦)].

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٧٥-٧٦، وأخرجه أيضاً من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٢) زاد المسير ٣/ ١٧٢، وفيه: عبد الله بن الحارث عن ابن عباس، وهو الصواب، وكذا أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار ٩/ ٣١٩.

(٣) المصدر السابق، وأخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار ٩/ ٣١٩، والحاكم ٢/ ٣١٨.

(٤) أخرجه عن عكرمة والأعمش الطبريُّ ١٠/ ٧٧-٧٨، ولم نقف عليه عن قتادة والضحاك.

(٥) النكت والعيون ٢/ ٢٠٢، وزاد المسير ٣/ ١٧٣.

(٦) المصدران السابقان، وأخرجه بنحوه الطبري ١٠/ ٧٩.

و«ثم» على هذه الأقوال في قوله: «ثم قلنا» للترتيب في الإخبار.

وقيل: الخطاب لبني آدم، إلَّا أنه على حذف مضافٍ، التقدير: ولقد خلقنا أرواحَكم ثم صوَّرنا أجسامكم؛ حكاه القاضي أبو يعلى في «المعتمد»[١]. ويكون «ثم» في «ثم قلنا» للترتيب في الإخبار.

وقيل: التقدير: ولقد خلقنا أباكم ثم صوَّرنا أباكم ثم قلنا، فـ«ثم» على هذا للترتيب الزمانيِّ والمهلةِ، على أصل وضعها. وقيل: هو من تلوين الخطاب، يخاطَبُ العينُ ويراد به الغير، فيكونُ الخطابُ لبني آدم والمرادُ آدمُ، كقوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة:٤٩] ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:٥٥] ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ [البقرة:٧٢] هو خطابٌ لمن كان بحضرة الرسول ﷺ من بني إسرائيل والمرادُ أسلافُهم، ومنه قولُ الشاعر:

إذا افتخرتْ يوماً تميمٌ بقَوْسِها ... وزادتْ على ما وطَّدَتْ من مناقبِ
فأنتم بذي قارٍ أمالَتْ سيوفُكم ... عروشَ الذين استَرْهَنوا قوسَ حاجِبِ[٢]

وهذه الوقعةُ كانت لآبائهم.

وتقدَّم تفسير: «قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلَّا إبليس» في سورة البقرة فأَغْنى عن إعادته.

وقوله: «لم يكن من الساجدين» جملةٌ لا موضع لها من الإعراب، مؤكِّدةٌ لمعنى ما أخرجه الاستثناءُ من نفي سجود إبليس كقوله: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ بعد قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ في «البقرة»[٣].

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ الظاهرُ أنَّ «لا» زائدةٌ تفيدُ التوكيدَ والتحقيقَ، كهي في قوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ [الحديد:٢٩] أي: لأنْ يعلمَ، وكأنه قيل: ليتحقَّق علمُ أهلِ الكتاب، و: ما منعك أن تحقِّق السجودَ وتُلْزِمَه نفسكَ إذ أمرتُك، ويدلُّ على زيادتها قولُه تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥] وسقوطُها في هذا دليلٌ على

(١) زاد المسير ٣/ ١٧٣.
(٢) البيتان لأبي تمام، وهما في ديوانه ١/ ٢٠٧-٢٠٨.
(٣) الآية (٣٤).

زيادتها في «ألَّا تسجد»، والمعنى أنه وبَّخه وقرَّعه على امتناعه من السجود وإن كان تعالى عالماً بما مَنَعَه من السجود، و«ما» استفهاميةٌ تدلُّ على التوبيخ كما قلنا.

وأنشدوا على زيادةِ «لا» قولَ الشاعر:

أفـعَـنْـكَ لا بـرقٌ كـأنَّ وميضَـه غـابٌ تَـسَـنَّـمـه ضِـرامٌ مُـثْـقَـبُ[١]

وقولَ الآخر:

أبى جودُه لا البخلَ واسْتَعْجَلَتْ به نَعَم من فتىً لا يمنعُ الجودَ قاتِلَه[٢]

وأقول: لا حُجَّةَ في البيت الأول؛ إذ يَحْتَمِلُ أن لاتكون فيه «لا» زائدةً؛ لاحتمالِ أن تكونَ عاطفةً وحُذِفَ المعطوفُ، والتقدير: أَفَعنْكَ لا عن غيرك.

وأمَّا البيتُ الثاني فقال الزجَّاج: «لا» مفعولةٌ، و«البخل» بدلٌ منها، وقال أبو عمرو بن العلاء: الرواية فيه: لا البخلِ، بخفض اللام، جَعَلَها مضافةً إلى البخل لأنَّ «لا» قد يُنْطَقُ بها ولا تكون للبخل[٣]. انتهى.

وقد خرَّجْتُه أنا تخريجاً آخَرَ، وهو أن ينتصب «البخل» على أنه مفعولٌ من أَجْلِه و«لا» مفعولةٌ[٤].

وقال قوم: «لا» في «أن لاتسجد» ليست زائدةً، واختلفوا:

فقيل: يقدَّرُ محذوفٌ يصحُّ معه المعنى، وهو: ما منعك فأحْوَجَك أنْ لا تسجد.

وقيل: يُحمَّل قولُه: «ما منعك» معنىً يصحُّ معه النفيُ؛ فقيل: معنى: «ما منعك»: مَن أَمَرك، ومَن قال لك أنْ لا تسجد، وما ألجأكَ وما دعاك أن لا تسجد.

---

(١) البيت لساعدة بن جؤية الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٧٢، والصاحبي لابن فارس ص ١٧١، وجاء في الديوان: غابٌ تَشَيَّمه، وهما روايتان كما في اللسان (شيم)، وتحرف قوله: تسنَّمه، في (أ) و(ح) و(د١) و(ع) إلى: تقسمه. والغاب: شجر. والضرام: النار في الحطب الدقيق الذي تضطرم فيه. وتشيمه: دخله. ومثقَب: موقَد. قاله شارح الديوان.

(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٨٣، ومعاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٢٣، والخصائص ٢/ ٣٥، وسلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٢٣، وتفسير الطبري ١٠/ ٨٣، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٧٨.

(٤) والتقدير: أبى جوده «لا» لأجل البخل، أي: كراهة البخل. الدر المصون ٥/ ٢٦٢.

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ هذا ليس بجوابٍ مطابقٍ للسؤال لكنه يتضمَّنُ الجوابَ؛ إذ معناه: مَنَعني فَضْلي عليه لشَرَفِ عُنْصُري على عُنْصُرِه.

وهذا يقتضي عنده أنَّ النار خيرٌ من الطين، وإذا كان كذلك فالناشئُ من الأفضل لا يسجدُ للمفضول؛ قالوا: وذلك أنَّ النار جسمٌ مُشْرِقٌ عُلْويٌّ لطيفٌ خفيفٌ حارٌّ يابسٌ مجاورٌ لجواهر السماوات ملاصِقٌ لها، والطين مظلمٌ كثيفٌ ثقيلٌ باردٌ يابسٌ بعيدٌ عن مجاورة السماوات. والنارُ قويةُ التأثير والفعلِ، والطينُ ليس له إلا القبولُ والانفعالُ، والفعلُ أشرفُ من الانفعال. والنارُ مناسِبةٌ للحرارة الغريزية وهي مادةُ الحياة، والطين ببردِه ويبسِه مناسِبٌ للموت. وإذا تقرَّر هذا فالمخلوقُ من الأفضل أفضلُ، فلا يؤمَرُ الأفضلُ بخدمة المفضول، ألا ترى أنه لو أُمر مثلاً مالكٌ وأبو حنيفةَ بخدمة مَن هو دونهما في العلم لكان ذلك قبيحاً في العقل[١].

ثم قالوا: أخطأ إبليسُ من حيث فضَّل النارَ على الطين، وهما في درجةٍ واحدةٍ من حيث هما جمادٌ مخلوقٌ، والطينُ أفضلُ من النار من وجوه:

أحدها: أنَّ مِن جوهر الطين الرَّزانةَ والسُّكونَ والوَقارَ والأناةَ والحِلْمَ والحياءَ والصَّبر، وذلك هو الداعي لآدمَ عليه السلام -بعد السعادة التي سَبَقَتْ له- في[٢] التوبة والتواضُع والتضرُّع، فأَوْرَثَه المغفرةَ والاجتباءَ والهدايةَ. ومِن جوهر النارِ الخفَّةُ والطيشُ والحدَّةُ والارتفاعُ والاضطرابُ، وذلك هو الداعي لإبليس -بعد الشقاوة التي سبقت- إلى الاستكبار والإصرار، فأَوْرَثَه الهلاكَ واللَّعنةَ والعذابَ؛ قاله القفَّال.

ثم ذكروا وجوهاً عشرةً يظهر بها فضلُ التراب على النار.

ثم قالوا: لا يدلُّ مَن كانت مادتُه أفضلَ على أنه تكونُ صورتُه أفضلَ؛ إذ

---

(١) تفسير الرازي ١٤/ ٣٢-٣٣.

(٢) كذا في النسخ والمطبوع، والذي في كتب التفسير: إلى. ينظر تفسير الطبري ١٠/ ٨٦-٨٧، وتفسير الثعلبي ٨/٣، وتفسير البغوي ٢/ ١٥٠، وتفسير القرطبي ٩/ ١٦٥. وعبارة الطبري: . . .الداعي لآدم بعد السعادة التي كانت سبقت له من ربِّه في الكتاب السابق إلى التوبة. . .

الفضيلةُ عطيةٌ من الله تعالى، ألا تراه تعالى يُخرج الكافرَ من المؤمنِ والمؤمنَ من الكافر، وأنَّ الحبشيَّ المؤمنَ خيرٌ من القُرَشيِّ الكافر، وإذا كانت المقدِّمة غيرَ مسلَّمةٍ لم ينتج، والمقدِّمتان أن تقول: إبليسُ ناريُّ المادةِ، وكلُّ ناريِّ المادة أفضلُ من ترابيِّ المادة، فإبليسُ أفضلُ من ترابيِّ المادة، والمقدِّمةُ الثانيةُ ممنوعةٌ فلا تنتج.

وقال ابن عباس والحسن وابن سيرين: أولُ مَن قاس إبليسُ. قال ابن عباس: فأخطأ، فَمَن قاس الدِّين برأيه قَرَنَه الله مع إبليس. وقالا: وما عُبدت الشمسُ والقمر إلا بالمقاييس[(١)].

وقال بعض العلماء: أخطأ قياسه، وذهب علمه[(٢)]أنَّ الروح الذي نُفخ في آدمَ ليس من طين.

واستَدَلَّ نفاةُ القياس على إبطاله بقصة إبليس، ولا حجةَ فيها؛ لأنه قياسٌ في مورد النصِّ فهو فاسدٌ، فلا يدلُّ على بطلانِ القياس حيث لا نصَّ.

واستُدِلَّ بقوله: «إذ أمرتُك» على أنَّ مُطْلَقَ الأمر يدلُّ على الوجوب ويدل على الفور؛ لذمِّ إبليس على امتناعه من السجود في الحال، ولو لم يدلَّ على الوجوب ولا على الفور لم يَسْتَوْجِب الذمَّ في الحال ولا مطلقاً.

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ لـمَّـا كـان امتناعُه من السجود لسببِ ظهورِ شفوفه[(٣)] على آدم عند نفسه قابَلَه الله بالهبوط المُشْعِرِ بالنزول من عُلْوٍ إلى سفلٍ.

والضمير في «منها» لم يتقدَّم له مفسِّرٌ يعود عليه؛ فقيل: يعود على الجنة، وكان إبليسُ من سكَّانها

وقال ابن عباس: كانوا في جنةِ عَدْنٍ لا في جنة الخلد، وخُلِقَ آدمُ من جنة عَدْنٍ[(٤)].

---

(١) تنظر أقوالهم في المصادر المذكورة في التعليق السابق.
(٢) كذا في النسخ والمطبوع: علمه، والذي في المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٩ (والكلام منه): عليه، وهو الأشبه.
(٣) أي: فضله. ينظر اللسان (شفف)، وجاء في النهر على هامش البحر ٤/ ٢٧٤: شرفه.
(٤) ذكره بنحوه الرازي ١٤/ ٣٥.

وقال ابنُ عطية: أُهبط أوّلاً وأُخرج من الجنة وصار في السماء؛ لأنَّ الأخبار تظاهرت أنه أَغْوَى آدمَ وحواءَ من خارج الجنة، ثم أُمِرَ آخِراً بالهبوط من السماء مع آدمَ وحواءَ والحيةِ، وهذا كلُّه بحسَب ألفاظ القصة، والله أعلم[١]. انتهى.

وقيل: يعودُ على السماء؛ قال الزمخشري: «فاهْبِطْ منها»: من السماء التي هي مكانُ المطيعين المتواضعين من الملائكة إلى الأرض التي هي مقرُّ العاصين المتكبِّرين من الثَّقَلَيْن[٢].

وقيل: يعود على الأرض، فإنه[٣] كان له ملكُها، أَمَره أن يهبط منها إلى جزائر البحار فسلطانُه فيها، فلا يدخل الأرضَ إلَّا كهيئة السارق يخافُ فيها حتى يَخْرُجَ منها. وهذا يَحتاجُ إلى صحةِ نقلٍ.

وقيل: يعود على صورته التي كان فيها؛ لأنه افْتَخَر أنه من النار فشوِّهت صورتُه بالإظلام وزوالِ إشراقه، قاله أبو روق[٤].

وقيل: عائدٌ على المدينة التي كان فيها. ذكره الكرمانيُّ، ويحتاجُ إلى تصحيحِ نقلٍ.

وقيل: يعود على المنزلة والرتبة الشريفة التي كان فيها في محلِّ الاصطفاء والتقريب إلى محلِّ الطَّردِ والتعذيب.

ومعنى «فما يكون لك»: لا يصحُّ لك، أو: لا يتمُّ، أو: لا ينبغي.

والضميرُ في «فيها» يعود على ما عاد عليه «منها»، ولا مفهوم لهذا الظرف[٥]، بل التكبُّرُ منهيٌّ عنه في كلِّ موضعٍ.

وقيل: هو على حذف معطوفٍ دلَّ عليه المعنى، التقدير: فيها ولا في غيرها.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٣٧٩.
(٢) الكشاف ٢/ ٦٩.
(٣) في (أ): فإن، وفي المطبوع: فكأنه.
(٤) تفسير القرطبي ٩/ ١٦٩، وأبو روق اسمه: عطية بن الحارث الهمداني.
(٥) من قوله: والضمير في فيها، إلى هذا الموضع ساقط من (أ) و(ح) والمطبوع، والمثبت من (ب).

وقيل: المعنى: ما للمتكبِّر أن يكون فيها. وكرَّر معنى الهبوطِ بقوله: «فاخْرُجْ»؛ لأنَّ الهبوط منها خروجٌ، ولكنه أَخبر بصَغَارِه وذلَّته، وهو أنه[1] جزاءً على تكبُّره قوبِلَ بالضِّدِّ ممَّا اتَّصفَ به، وهو الصَّغارُ الذي هو ضدُّ التكبُّر، والتكبُّرُ تَفَعُّلٌ منه، لا أنه[2] خُلق كبيراً عظيماً، ولكنه هو الذي تَعَاطَى الكِبْرَ، ومن كلام عمر: ومَن تكبَّر وعَدَا طورَه وَهَصَه الله إلى الأرض[3].

﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ هذا يدلُّ على إقراره بالبعث وعِلْمِه بأنَّ آدم سيكون له ذريةٌ ونسلٌ يَعْمُرون الأرضَ ثم يموتون، وأنَّ منهم مَن يُنْظَرُ، فيكون طلبُه الإنظارَ بأنْ يُغْوِيَهم ويوسوسَ إليهم، فالضميرُ في «يبعثون» عائدٌ على ما دلَّ عليه المعنى؛ إذ ليس في اللفظ ما يعود عليه.

وحكمةُ استنظارِه وإن كان ذلك سبباً للغواية والفتنة أنَّ في ذلك ابتلاءَ العباد بمخالفته وطواعيته، وما يترتَّبُ على ذلك من إعظام الثواب بالمخالفة وإدامةِ العقاب بالطواعية. وأجابه تعالى بأنه من المنظَرين، أي: من المؤخَّرين.

ولم يأتِ هنا بغايةٍ للإنظار[4]، وجاء مغيَّاً في «الحجر» وفي «ص» بقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر:٣٨، وص:٨١] ويأتي تفسيره في «الحجر» إن شاء الله.

ومعنى «من المنظَرين»: من الطائفة التي تأخَّرت أعمارُها كثيراً حتى جاءت آجالها على اختلافِ أوقاتها، فقد شمل تلك الطائفةَ إنظارٌ وإن لم يكونوا أحياءً مدةَ الدهر. وقيل: «من المنظرين» جمع كثير مثل «قوم يونس».

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ الظاهر أنَّ الباء للقَسَم و«ما» مصدريةٌ، ولذلك تُلقِّيَت الأَلِيَّةُ[5] بقوله: «لأقعدنَّ». قال الزمخشري: وإنما أقسم بالإغواء لأنه كان تكليفاً، [والتكليف] من أحسن أفعالِ الله لكونه تعريضاً لسعادة

(١) في النسخ عدا (ح): وهوانه، والمثبت من (ح)، ومثله في النهر على هامش مطبوع البحر ٤/ ٢٧٤.
(٢) قوله: لا أنه، تحرف في (يه) والمطبوع إلى: لأنه.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٧١١٥).
(٤) تحرفت في المطبوع إلى: للانتظار.
(٥) الأليَّة: اليمين. القاموس (ألي).

الأبد، فكان جديراً أن يُقْسَمَ به[١]. انتهى.

وقيل: الباء للسبب، أي: بسبب إغوائك إياي. وعبَّر ابنُ عطية عنها بأنْ يراد بها معنى المجازاة، قال: كما تقول: فبإكرامك لي يا زيدُ لأُكْرِمَنَّك، قال: وهذا أَلْيَقُ بالقصة[٢].

قال الزمخشري: فإن قلتَ: بم تعلَّقت الباءُ؟ فإنَّ تعليقها بـ«لأقعدنَّ» تصدُّ عنه لامُ القسم، لا تقول: واللهِ بزيدٍ لأَمُرَّنَّ.

قلتُ: تعلَّقت بفعل القسم المحذوف، تقديره: فبما أغويتني أقسمُ بالله لأقعدنَّ، أي: بسبب إغوائك أُقسم[٣]. انتهى، وما ذكره مِن أنَّ اللامَ تصدُّ عن تعلُّقِ الباء بـ«لأقعدن» ليس حُكْماً مُجْمعاً عليه، بل في ذلك خلافٌ.

وقيل: «ما» استفهامية، كأنه اسْتَفْهَم عن السبب الذي أغواه، وقال: بأيِّ شيءٍ أغويتني؟ ثم ابتدأ مُقْسِماً فقال: لأقعدنَّ لهم. وضعِّف بإثباتِ الألف في «ما» الاستفهامية، وذلك شاذٌ أو ضرورةٌ، نحو قولهم: عمَّا تسألُ؟ فهذا شاذٌّ، والضرورةُ كقوله:

على ما قام يَشْتُمني لئيمٌ[٤]

ومعنى «أغويتني»: أَضْلَلْتَني؛ قاله ابنُ عباسٍ والأكثرون[٥].

أو: لَعَنْتَني؛ قاله الحسن[٦].

أو: أهلكتني؛ قاله ابنُ الأنباري[٧].

أو: خيَّبْتني؛ قاله بعضهم.

---

(١) الكشاف ٢/ ٧٠، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٠، وفيه: . . .أليق المعاني بالقصة.

(٣) الكشاف ٢/ ٦٩-٧٠.

(٤) وعجزه: كخنزير تمرَّغ في رماد، والبيت لحسان، وهو في ديوانه ص ١٩٩.

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٩١ عن ابن عباس وابن زيد.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٠.

(٧) زاد المسير ٣/ ١٧٥.

وقيل: أَلْفَيْتني غاوياً.

وقيل: سمَّيتني غاوياً؛ لتكبُّري عن السجود لمن أنا خيرٌ منه.

وقيل: جَعَلْتني في الغَيِّ، وهو العذابُ.

وقيل: قضيتَ عليَّ من الأفعال الذميمة.

وقيل: أدخلْتَ عليَّ داءَ الكبر.

وقال الزمخشري: فبسبب إغوائك إياي لأقعدنَّ لهم، وهو تكليفُه إياه ما وقع به في الغيِّ ولم يَثْبت[1] كما ثبتت الملائكةُ مع كونهم أفضلَ منه ومن آدم نَفْساً ومناصِبَ، وعن الأَصَم: أمرتني بالسجود فحَمَلني الأنَفُ على معصيتك، والمعنى: فبسبب وقوعي في الغيِّ لأجتهدنَّ في إغوائهم حتى يَفْسُدوا بسببي كما فَسَدْتُ بسببهم[2]. انتهى.

وهو والأصمُّ فسَّرا على مذهب الاعتزال في نفي نسبةِ الإغواء حقيقةً -وهو الإضلال- إلى الله، وكذلك مَن فسَّر «أغويتني» بمعنى: ألفيتني غاوياً، أو: سمَّيتني غاوياً[3]، وهو فرارٌ من ذلك.

وقوله في الملائكة: إنهم أفضلُ من آدمَ نَفْساً ومناصبَ. هو مذهبُ المعتزلة.

وقال محمد بن كعب القُرَظيُّ: قاتَلَ الله القَدَرية لَإبليسُ أعلمُ بالله منهم[4]. يريد في أنه عَلِمَ أنَّ الله يَهْدي ويُضِلُّ.

وجاء رجلٌ من كبار الفقهاء يُرْمَى بالقَدَر. فجلس إلى طاوس في المسجد الحرام، فقال له طاوس: تَقُومُ أو تُقام؟ فقام الرجل، فقيل له: أتقولُ هذا لرجلٍ فقيه؟ فقال: إبليسُ أفقهُ منه؛ قال: «ربِّ بما أغويتني»، وهذا يقول: أنا أُغوي نفسي[5].

---

(١) قوله: ولم يثبت، من (ب) و(د٣) و(يه).

(٢) الكشاف ٢/ ٦٩.

(٣) قوله: أو سميتني غاوياً، من (ب) و(د٣) و(يه).

(٤) أخرجه الطبري ١٠/ ٩٣.

(٥) أخرجه الثعلبي ٢/ ٩، وأورده الزمخشري في الكشاف ٢/ ٧٠، والقرطبي ٩/ ١٧١-١٧٢.

وجَعَل الزمخشريُّ هذه الحكايةَ من تكاذيب المُجْبِرة، وذكرها ثم قال كلاماً قبيحاً يوقَفُ عليه في كتابه[(١)].

وعبَّر بالقعود عن الثبوت في المكان والثابتِ فيه، قالوا: وانْتَصَبَ «صراطك» على إسقاط «على»؛ قاله الزجَّاج وشبَّهه بقول العرب: ضُرِبَ زيدٌ الظَّهْرَ والبَطْنَ[(٢)]، أي: على الظهر والبطن. وإسقاطُ حرف الجرِّ لا ينقاسُ في مثل هذا، لا يقال: قعدتُ الخشبةَ، تريدُ: قعدتُ على الخشبة.

قالوا: أو على الظرف، كما قال الشاعر:

فيه كما عَسَلَ الطريقَ الثعلبُ[(٣)]

وهذا أيضاً تخريجٌ فيه ضَعْفٌ؛ لأنَّ «صراطك» ظرفُ مكانٍ مختصٌّ، وكذلك «الطريق»، فلا يتعدَّى إليه الفعلُ إلا بوساطةِ «في»[(٤)]، وما جاء خلافَ ذلك شاذٌّ أو ضرورةٌ، وعلى الضرورة أنشدوا:

كما عَسَلَ الطريقَ الثعلبُ

(١) ينظر الكشاف ٢/ ٧٠، وينظر كذلك بهامشه ردَّ ابن المنيِّر عليه في «الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال».

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٢٤.

(٣) وصدره: لَدْنٌ بهزِّ الكفِّ يَعْسِلُ مَتْنُه، والبيت لساعدة بن جُؤيَّة الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٩٠، والكتاب ١/ ٣٦، وتفسير الطبري ١٠/ ٩٦، والكشاف ٢/ ٧٠، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨٠، وتفسير القرطبي ٩/ ١٧٢. قال الأعلم في تحصيل عين الذهب ص ٧٣: وصف في البيت رمحاً لين الهز، فشبَّه اضطرابه في نفسه أو في حال هزه بعَسَلان الثعلب في سيره، والعَسَلان: سير سريع في اضطراب. واللدن: الناعم اللين. ويروى: لذٌّ (وهي رواية الديوان) أي: مستلذٌّ عند الهز لِلِيْنِه. وقوله: يعسل متنه فيه، أي: في كفه.

(٤) الظرف المختص: هو ما له اسمٌ من جهةِ نفسه كالدار والمسجد والحانوت. وقيل: هو ما كان لفظُه مختصًّاً ببعض الأماكن دون بعض. وقيل: ما كان له أقطارٌ تحصره ونهاياتٌ تحيط به. فلا يتعدَّى إليه الفعل إلا بواسطة «في» إذا أريد معنى الظرفية، كـ: جلست في الدار، و: صلَّيت في المسجد، و: نمت في السوق، ولا تقول: صليت المسجدَ. واستُثني منه ما كان بعد دخلتُ وسكَنْتُ ونزلتُ، نحو: دخلت الدار، و: سكنت الغرفة، و: نزلت الخان، وينظر تفصيل هذه المسألة في شرح الكافية للرضي ٢/ ١٦، والارتشاف ٣/ ١٤٣٥، وهمع الهوامع ٢/ ١٥١-١٥٢. ووقع في (أ) والمطبوع: بواسطة، بدل: بوساطة.

وما ذهب إليه أبو الحسين بنُ الطَّراوة من أنَّ «الصِّراط» و«الطريق» ظرفٌ مبهمٌ لا مختصٌّ(١) ردَّه عليه أهلُ العربية.

والأَوْلَى أن يضمَّن «لأقعدنَّ» معنَى ما يتعدَّى بنفسه فينتصبَ «الصراط» على أنه مفعولٌ به، والتقدير: لأَلْزَمنَّ بقعودي صراطَك المستقيم.

وهذا الصراطُ هو دينُ الإسلام، وهو المُوْصِلُ إلى الجنة -ويضعف ما رُوي عن ابن مسعود وعون بنِ عبد الله أنه طريقُ مكة(٢)، خصوصاً على العقبة المعروفة بعقبة الشيطان يضلُّ الناسَ عن الحجِّ- ومعنى قعودِه: أنه يعترضُ لهم على طريق الإسلام كما يعترض العدوُّ على الطريق ليقطعه على السابلة، وفي الحديث «إنَّ الشيطان قعد لابن آدم بأَطْرُقه نهاه عن الإسلام(٣)، وقال: أتتركُ دينَ آبائك؟ فعصاه وأسلم، فنهاه عن الهجرة وقال: تدعُ أهلكَ وبلدك؟ فعصاه فهاجر، فنهاه عن الجهاد وقال: تُقْتَلُ وتَتْركُ ولدَك؟ فعصاه فجاهد، فله الجنة»(٤).

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾(٥) الظاهرُ أنَّ إتيانَه من هذه الجهات الأربع كنايةٌ عن وسوسته وإغوائه له، والجِدِّ في إضلاله من كلِّ وجهٍ يُمكن، ولمَّا كانت هذه الجهاتُ يأتي منها العدوُّ غالباً ذَكَرها، لا أنه يأتي من الجهات الأربع حقيقةً.

وقال ابن عباس: «مِن بينِ أيديهم»: الآخرةُ أشكِّكُهم فيها، وأنه لا بَعْثَ، «ومِن خَلْفِهم»: الدنيا أرغِّبُهم فيها وأزيِّنُها لهم. وعنه أيضاً وعن النخعيِّ والحكم بن

---

(١) ينظر قوله في شرح التسهيل لابن مالك ٢/ ١٦٩، والارتشاف ٣/ ١٤٣٨، ومغني اللبيب ص ٧٥٠، والهمع ٢/ ١٥٣. والظرف المبهم هو ما كان صالحاً لكل بقعة ك: مكان، وناحية، وجهة، وجانب، وأمام، وخلف. المغني ص ٧٥٠.

(٢) أخرجه من طريق عون بن عبد الله عن ابن مسعود ﷺ الفاكهي في أخبار مكة (٢٤٦٣)، وأخرجه من قول عون بن عبد الله الطبري ١٠/ ٩٤.

(٣) وقع من هذا الموضع خرم في (ح) حتى آخر السورة.

(٤) أخرجه بنحوه أحمد (١٥٩٥٨)، والنسائي ٦/ ٢١، وابن حبان (٤٥٩٣) من حديث سبرة ﷺ.

(٥) جاء في هامش (د٣) ما نصه: قال في التحرير: «ثم لآتينهم» قرأ الجمهور بالمد، وقرأ ابن محارب: «ثم لأتينهم» بغير مدٍّ، وهي لغة. انتهى.

والقراءة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤٢، وابن محارب هو مسلمة.

عتيبة عكسُ هذا. وعنه: «وعن أيمانهم»: الحقّ «وعن شمائلهم»: الباطل. وعنه أيضاً: «وعن أيمانهم»: الحسنات، «وعن شمائلهم»: السيئات.

وقال مجاهد: الأوَّلان حيث يُبْصِرون والآخَران حيث لا يُبْصِرون.

وقال أبو صالح: الأوَّلان الحقُّ والباطل، والآخران الآخرةُ والدنيا[١].

وقيل: الأوَّلان بفُسْحةِ الأمل وبنِسْيان الأجَل، والآخَران فيما تَيَسَّرَ وفيما تَعَسَّر.

وقيل: الأوَّلان فيما بقي من أعمارهم فلا يطيعون، وفيما مضى منها فلا يندمون على معصيةٍ، والآخَران فيما ملَكَتْه أيمانُهم فلا ينفقونه في معروف، ومِن قِبَلِ فقرهم فلا يمتنعون عن محظور[٢].

وقال أبو عبد الله الرازي[٣] حاكياً عمَّن سمَّاه هو حكماء الإسلام: «من بين أيديهم» القوة الخياليَّة، وهي تَجمعُ مُثُلَ المحسوسات وصُوَرَها، وهي موضوعةٌ في البطن المقدَّم من الدماغ، «ومن خلفهم» القوة الوَهْمية، وهي تَحْكُم في غير المحسوسات بالأحكام المناسبة للمحسوسات، وهي موضوعةٌ في البطن المؤخَّر من الدماغ، «وعن أيمانهم» قوةُ الشهوة، وهي موضوعةٌ في البطن الأيمن من القلب[٤]، «وعن شمائلهم» قوة الغضب، وهي موضوعةٌ في البطن الأيسر من القلب، فهذه القوى الأربعةُ هي التي يَتَولَّد عنها أحوالٌ توجبُ زوالَ السعادة الروحانية، والشياطينُ الخارجةُ ما لم تشعر[٥] بشيءٍ من هذه القوى الأربعِ لم تَقْدِرْ على إلقاء الوسوسة، فهذا هو السببُ في تعيين هذه الجهات الأربع، وهو وجهُ تحقيق[٦]. انتهى، وهو بعيدٌ من مناحي كلام العرب والمتشرِّعين.

---

(١) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٠/٩٦-١٠٠، وزاد المسير ٣/١٧٦-١٧٧.

(٢) النكت والعيون ٢/٢٠٧، وزاد المسير ٣/١٧٧.

(٣) في تفسيره ١٤/٤١.

(٤) في تفسير الرازي: وهي موضوعة في الكبد، وهي من يمين البدن.

(٥) في تفسير الرازي: تستعن، وهو الأشبه.

(٦) في تفسير الرازي: وهو وجهٌ حقيقي شريف.

قال: وعلى هذا لم يحتج إلى ذكر العُلْوِ والسُّفْلِ؛ لأنَّ هاتين الجهتين ليستا بمقرِّ شيءٍ من القُوَى المُفْسِدةِ لمصالح السعادة الروحانية[١]. انتهى.

وقال ابن عباس: لم يقل: من فوقهم؛ لأن رحمة الله تنزلُ عليهم من فوقهم[٢]، ولم يقل: من تحتهم؛ لأنَّ الإتيان من تحتهم فيه توحُّشٌ.

وقال الزمخشري[٣]: فإن قلتَ: كيف قيل: «من بين أيديهم ومن خلفهم» بحرف الابتداء، و«عن أيمانهم وعن شمائلهم» بحرف المجاوَزَة؟

قلتُ: المفعولُ فيه عدِّي إليه الفعلُ تعديتَه إلى المفعول به، فكما اختلفتْ حروفُ التعدية في ذلك اختلفتْ في هذا، وكانت لغةً تؤخَذُ ولا تقاس، وإنما يفتَّشُ عن صحة موقعها فقط، فلمَّا سمعناهم يقولون: جلس عن يمينه وعلى يمينه وعن شماله وعلى شماله، قلنا: معنى «على يمينه» أنه تمكَّن من جهة اليمين تمكُّن المستَعْلي مِن المستَعْلَى عليه، ومعنى «عن يمينه» أنه جلس متجافياً عن صاحب اليمين منحرفاً عنه غيرَ ملاصِقٍ له، ثم كَثُر حتى استُعْمِلَ في المتجافي وغيره كما ذكرنا في تعال[٤]، ونحوُه من المفعول به قولُهم: رميتُ عن القوس، وعلى القوس، ومن القوس، لأنَّ السهم يَبْعُدُ عنها ويَسْتَعْليها إذا وُضع على كبدها للرَّمي، ويبتدئُ الرميُ منها. فكذلك قالوا: جلس بين يديه وخَلْفَه، بمعنى «في[٥]» لأنهما ظرفان للفعل، و: مِن بين يديه ومِن خَلْفِه، لأنَّ الفعل يقع في بعض الجهتين، كما تقول: جئتُه من الليل، تريد بعض الليل. انتهى، وهو كلامٌ لا بأسَ به.

---

(١) لم يرد بهذا السياق في تفسير الرازي، وإنما ورد فيه ١٤/ ٤٢ معناه دون لفظه.
(٢) أخرج هذه القطعة من الخبر دون ما بعدها الطبري ١٠/ ١٠١.
(٣) في الكشاف ٢/ ٧١.
(٤) قوله: تعال، تحرف في (أ) و(ب) و(د١) و(ع) والمطبوع إلى: فعال. والمثبت من (د٣) و(يه)، وهو الموافق لما في الكشاف، وقد قال الزمخشري عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]: «تعال» من الخاص الذي صار عامًّا، وأصله أن يقوله من كان في مكان عالٍ لمن هو أسفل منه، ثم كثر واتُّسع فيه حتى عمَّ.
(٥) في الكشاف: فيه.

وأقول: إنما خصَّ بين الأيدي والخلف بحرف الابتداء الذي هو أمكنُ في الإتيان؛ لأنهما أغلبُ ما يجيءُ العدوُّ منهما فينالُ فرصته، وقدَّم بين الأيدي على الخلف لأنها الجهةُ التي تدلُّ على إقدام العدوِّ وبسالتِه في مواجهة قَرْنه غيرَ خائفٍ منه، والخلفُ جهةُ[١] غَدْرٍ ومُخاتَلةٍ وجَهالةِ القَرْنِ بمن يغتالُه ويتطلَّبُ غِرَّتَه وغفلتَه.

وخصَّ الأيمان والشمائل بالحرف الذي يدلُّ على المجاوَزة لأنهما ليستا بأغلبِ ما يأتي منهما العدوُّ، وإنما يتجاوزُ إتيانُه إلى الجهة التي هي أغلبُ في ذلك. وقدِّمت الأيمانُ على الشمائل لأنها الجهةُ التي هي القويةُ في ملاقاة العدوِّ، وبالأيمان البطشُ والدفعُ، فالقرنُ الذي يأتي من جهتها أبسلُ وأشجعُ، إذ جاء من الجهة التي هي أقوى في الدَّفْع، والشمائلُ جهةٌ ليست في القوَّة والدفع كالأيمان.

قال ابن عباس: «شاكرين» موحِّدينَ[٢].

وعنه وعن غيره: مؤمنين؛ لأنَّ ابنَ آدم لا يشكرُ نعمة الله إلا بأنْ يُؤْمِن[٣].

وقال مقاتل: شاكرين لنعمتك[٤].

وقال الحسن: ثابتين على طاعتك، ولا يشكُرُكَ إلَّا القليلُ منهم.

وهذه الجملة المنفيَّةُ يحتمل أن تكون داخلةً في حَيِّز القسم معطوفةً على جوابه[٥]، ويحتملُ أن تكون استئنافَ إخبارٍ ليس مُقْسَماً عليه، أَخبر أنَّ سعايته وإتيانَه إياهم من جميع الوجوه يفعل ذلك.

وهل[٦] هذا الإخبارُ منه كان على سبيل التظنِّي؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: ٢٠] أو على سبيل العلم؟ قولان.

---

(١) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: من جهة، والمثبت من (ب) و(د٣) و(يه)، وهو الموافق لما في الدر المصون ٥/ ٢٦٩ نقلاً عن المصنف.
(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ١٠١.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٣٨١.
(٤) زاد المسير ٣/ ١٧٧.
(٥) أي: «لأقعدنَّ»، أقسم على جملتين مُثْبَتتين وأخرى منفية. الدر المصون ٥/ ٢٧٠.
(٦) قوله: وهل، تحرف في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع إلى: وهو، وسقط من (يه) والمثبت من (ب) و(د٣).

وسبيلُ العلم: إمَّا رؤيتُه ذلك في اللوح المحفوظ، أو استفادتُه من قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] أو من الملائكة بإخبارِ اللهِ لهم، أو بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة:٣٠] أو بإغوائِه آدمَ، وذريَّتُه أضعفُ منه. أو يكونُ قُوى ابنِ آدمَ تسعةَ عَشَرَ قوةً، وهي: خمسُ حواسَّ ظاهرةٌ وخمسٌ باطنةٌ، والشهوةُ، والغضبُ، وسبعٌ سابقةٌ وهي: الجاذبةُ، والممسِكةُ، والهاضِمةُ، والدافِعةُ، والقاذِفةُ، والناميةُ، والمولّدة، وكلُّها تدعو إلى عالَم الجسم إلى اللذَّات البدنية، والعقلُ قوةٌ واحدةٌ تدعو إلى عبادة الله، وتلك في أول الخلق، والعقلُ إذ ذاك ضعيفٌ[(١)]. أقوالٌ ستة.

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ الجمهورُ على أنَّ الضمير عائدٌ على الجنة، والخلافُ فيه كالخلاف في «فاهبط منها». وهذه ثلاثُ أوامرَ: أمرٌ بالهبوط مطلقاً، وأمرٌ بالخروج مُخْبَرَاً أنه ذو صَغارٍ، وأمرٌ بالخروج مقيَّداً بالذمِّ والطرد.

وقال قتادة: «مذؤوماً»: لعيناً. وقال الكلبي: مَلُوماً. وقال مجاهد: مَنْفيًّا. وقيل: ممقوتاً[(٢)].

و«مدحوراً»: مبعَداً من رحمة الله، أو: من الخير، أو: من الجنة، أو: من التوفيق، أو: من خواصِّ المؤمنين. أقوالٌ متقاربةٌ.

وقرأ الزهريُّ وأبو جعفر والأعمشُ: «مَذُوماً» بضم الذال من غير همزٍ[(٣)]، فتَحْتَمِلُ هذه القراءةُ وجهين:

أحدهما وهو الأظهر: أن تكون من «ذأم» المهموز، سهَّل الهمزةَ وحَذَفها وأَلْقَى حركتَها على الذال.

---

(١) قوله: وتلك في أول الخلق. . . .إلخ، جاء بدلاً منه في تفسير الرازي ١٤/ ٤٣ (والكلام فيه بنحوه): وتلك القوى التسعة عشر تكون في أول الخلقة قويةً، ويكون العقل ضعيفاً جدّاً، وهي بعد قوتها يَعْسُرُ جَعْلُها ضعيفةً مرجوحةً، فلما كان الأمرُ كذلك لَزِمَ القطعُ بأنَّ أكثر الخلق يكونون طالبين لهذه اللذات الجسمانية، مُعْرِضينَ عن معرفة الحقِّ ومحبَّتِه، فلهذا السبب قال: «ولا تجد أكثرهم شاكرين».

(٢) تفسير الطبري ١٠/ ١٠٢-١٠٣، والنكت والعيون ٢/ ٢٠٨.

(٣) القراءات الشاذة ص ٤٢، والمحتسب ١/ ٢٤٣، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨١.

والثاني: أن يكون من «ذامَ» غيرِ المهموز يَذِيمُ، كـ: باع يبيع، فأَبْدَلَ الواوَ بياءٍ، كما قالوا في مَكِيلٍ: مَكُول.

وانتصب «مدحوراً» على أنه حالٌ ثانيةٌ على مَن جوَّز ذلك، أو حالٌ من الضمير في «مذؤوماً»، أو صفةٌ لقوله «مذؤوماً».

﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ قرأ الجمهور: «لَمن» بفتح اللام، والظاهر أنها اللامُ الموطِّئةُ للقسم، و«مَن» شرطيةٌ في موضع رفعٍ على الابتداء، وجوابُ الشرط محذوفٌ يدلُّ عليه جوابُ القسم المحذوفِ قبل اللامِ الموطِّئة.

ويجوز أن تكون اللامُ لامَ الابتداء، و«مَن» موصولة، و«لأملأن» جواب قسمٍ محذوفٍ بعد «مَن تبعك»، وذلك القسمُ المحذوفُ وجوابُه في موضعِ خبرِ «مَن» الموصولة.

وقرأ الجحدريُّ، وعصمةُ عن أبي بكر عن عاصم: «لِمَن تبعك منهم» بكسر اللام[(١)]، واختلفوا في تخريجها:

فقال ابن عطية[(٢)]: المعنى: لأَجْلِ مَن تَبِعَكَ منهم لأملأنَّ. انتهى، فظاهرُ هذا التقديرِ أنَّ اللام تتعلَّقُ بـ«لأَمْلأنَّ»، ويمتنع ذلك على قول الجمهور أنَّ ما بعد لام القسم لا يعمل فيما قبله.

وقال الزمخشري[(٣)]: بمعنى: لِمَن تبعك منهم الوعيدُ، وهو قولُه: «لأملأنَّ جهنم منكم أجمعين» على أنَّ «لأملأنَّ» في محلِّ الابتداء و«لِمَن تبعك» خبره. انتهى، فإنْ أراد ظاهرَ كلامه فهو خطأٌ على مذهب البصريين، لأنَّ قوله: «لأملأنَّ» جملةٌ هي جوابُ قسمٍ محذوفٍ، فمِن حيث كونُها جملةً فقط لا يجوز أن تكون مبتدأةً، ومن حيثُ كونُها جواباً للقسم المحذوف[(٤)] يمتنع أيضاً؛ لأنها إذ ذاك من هذه الحيثية لا موضعَ لها من الإعراب، ومن حيث كونُها مبتدأةً لها موضعٌ من

(١) القراءات الشاذة ص ٤٢، والكشاف ٢/ ٧١، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨٢.

(٢) في المحرر ٢/ ٣٨٢.

(٣) في الكشاف ٢/ ٧١.

(٤) قوله: المحذوف، ساقط من المطبوع.

الإعراب، ولا يجوز أن تكون الجملة لها موضعٌ ولا موضعَ لها بحالٍ؛ لأنه يَلزمُ أن تكون في موضع رفع لا في موضع رفعٍ، داخلاً عليها عاملٌ غيرَ داخلٍ عليها عاملٌ، وذلك لا يُتصوَّر[١].

وقال أبو الفضل عبدُ الرحمن بنُ أحمد بن الحسن الرازيُّ: اللام متعلِّقةٌ من الذأم والدَّحر، ومعناه: اخرج بهاتين الصفتين لأَجْلِ أتباعك. ذَكَر ذلك في كتاب «اللوامح في شواذِّ القراءات».

ومعنى «منكم»: منك وممن تبعك، فغلَّب الخطاب على الغيبة، كما تقول: أنت وإخوتُك أُكرِمُكم.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ أي: وقلنا: يا آدم، وتقدَّم تفسيرُ هذه الآية في «البقرة»، إلَّا أنَّ هنا «فكُلا من حيث شئتما» وفي «البقرة»: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [الآية: ٣٥] فالواوُ جاءت[٢]على أحدِ مَحامِلِها، وهو أن يكون الثاني بعد الأول[٣]. وحُذف «رغداً» هنا على سبيل الاختصار وأُثبت هناك؛ لأنَّ تلك مدنيةٌ وهذه مكيةٌ، فوُفِّي المعنى هناك باللفظ.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: فَعَلَ الوسوسةَ لأَجْلهما،

(١) تعقب هذا الكلامَ السمينُ في الدر ٢/ ٢٧٤-٢٧٥ بأنه بعد أن قال الزمخشري: بمعنى: لِمَن تبعك الوعيدُ، وهو «لأملأن». كيف يَحْسُنُ أن يُتردَّدَ بعد ذلك فيُقالَ: إن أراد ظاهر كلامه؟! كيف يريده مع التصريح بتأويله هو بنفسه؟ وأما قولُ الزمخشري: على أن «لأملأن» في محل الابتداء. فإنما قاله لأنه دالٌّ على «الوعيد» الذي هو في محل الابتداء، فنَسَب إلى الدالِّ ما يُنْسَبُ إلى المدلول من جهة المعنى.
وأيضاً قولُ أبي حيان: ومن حيث كونها جواباً للقسم المحذوف. . . .إلخ، كلامُ متحمِّلٍ على الزمخشري؛ لأنه إنما يريد الجملة القسمية برمَّتها، فاستغنى عنها بذكر الملفوظ به منها وهو «لأملأن». . . ، وينظر تتمة كلامه ثمة.

(٢) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: قالوا وجاءت، وهو تصحيف. وينظر التعليق الذي بعده.

(٣) أي: أن الفاء في قوله: «فكلا» جاءت لبيانِ أنَّ ما في البقرة من قوله: «وكلا» كان جمعاً مع الترتيب؛ لأن الواو تفيد الجمع المطلق، بينما الفاء تفيد الجمع على سبيل التعقيب. ينظر تفسير الرازي ١٤/ ٤٥، وتفسير أبي السعود ٣/ ٢٢٠.

وأمَّا قوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ﴾ [طه: ١٢٠] فمعناه: ألقى الوسوسةَ إليه.

قال الحسن: وصلت وسوستُه لهما في الجنة -وهو في الأرض- بالقوة التي خَلقَها الله له[1]. قال ابن عطية[2]: وهذا قولٌ ضعيفٌ يردُّه لفظُ القرآن.

وقيل: كان في السماء وكانا يخرجان إليه.

وقيل: من باب الجنة وهما فيها[3].

وقيل: كان يدخل إليهما في فم الحية.

وقال الكرماني: ألْهمهما. وقال ابن القشيريِّ: أَوْرَدَ عليهما الخواطرَ المزيَّنةَ. وهذان القولان يخالفان ظاهرَ القرآن؛ لأنَّ ظاهره يدلُّ على قولٍ ومحاوَرةٍ وقَسَمٍ.

والظاهرُ أنَّ اللام لامُ «كي»، قَصَد إبداءَ سوءاتهما، وتنحطَّ مرتبتُهما بذلك، ويَسُوؤهما بكشفِ ما ينبغي سترُه، ولا يجتنبان نهيَ الله، فيكون هو وهما سواءً في المخالفة: هو أُمر بالسجود فأبى، وهما نُهِيَا فلم ينتهيا.

وقال قوم: إنها لامُ الصيرورة؛ لأنه لم يكن له علمٌ بهذه العقوبة المخصوصة فيقصدَها.

قال الزمخشريُّ: وفيه دليلٌ على أنَّ كشفَ العورة من عظائم الأمور، وأنه لم يَزَلْ مستهجَناً في الطباع مستَقْبَحاً في العقول[4]. انتهى، وهو على مذهبه الاعتزاليِّ في أنَّ العقل يُقبِّح ويحسِّن.

والظاهرُ أنه يراد مدلولُ سوءاتِهما نفسِهما وهما الفَرْجُ والدُّبُر؛ قيل: وكانا لا يريانهما قبلَ أكل الشجرة، فلمَّا أكَلا بَدَتا لهما.

وقيل: لم يكن كلُّ واحدٍ يرى سَوْءَةَ صاحبه.

وقال قتادة: كَنَى بسوءاتهما عن جميع بدنهما، وذَكَر السوءة لأنها أقبح ما يظهر من بني آدم.

---

(١) تفسير الرازي ١٤/ ٤٦، وفيه: جَعَلها، بدل: خَلقَها.

(٢) في المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٤، وقد ذكر قول الحسن بنحوه ودون نسبة.

(٣) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: بها.

(٤) الكشاف ٢/ ٧١.

وقرأ الجمهور: «وُوري». وقرأ عبد الله: «أُورِيَ» بإبدالِ الواوِ همزةً[١]، وهو بدلٌ جائزٌ. وقرأ ابنُ وثَّاب: «ما وُرِي» بواوٍ مضمومةٍ من غيرِ واوٍ بعدها[٢]، على وزن: كُسِيَ.

وقرأ مجاهد والحسن: «مِن سوَّتِهما» بالإفراد وتسهيلِ الهمزة بإبدالها واواً، وإدغامِ الواو فيها. وقرأ الحسن أيضاً، وأبو جعفر بنُ القَعْقاع، وشيبةُ بن نِصَاحٍ: «من سوَّاتهما» بتسهيلِ الهمزة وتشديد الواو. وقرئ: «من سَوَاتهما» بواوٍ واحدةٍ وحَذْفِ الهمزة[٣]، ووَجْهُه أنه حَذَفَها وأَلْقَى حركَتَها على الواو.

فَمَنْ قرأ بالجمع فهو مِن وَضْعِ الجمعِ موضعَ التثنية كراهةَ اجتماعِ تَثْنِيَتَيْنِ[٤]، ومَن قرأ بالإفراد فمِن وَضْعِه موضعَ التثنية. ويحتملُ أن يكون الجمعُ على أصل وضعه باعتبارِ أنَّ كلَّ عورةٍ هي الدُّبر والفَرْجُ، وذلك أربعةٌ، فهي جمعٌ.

و«إلا أن تكونا مَلَكين» استثناءٌ مفرَّغٌ من المفعول من أَجْلِه، أي: ما نهاكما ربُّكما لشيءٍ إلَّا كراهةَ أن تكونا مَلَكين، ويقدِّره الكوفيون: إلا أن لا[٥] تكونا. وإضمارُ الاسم وهو «كراهة» أحسنُ من إضمار الحرف وهو «لا».

وقال الزمخشريُّ: وفيه دليلٌ على أنَّ الملائكة بالمنظر الأعلى، وأنَّ البشرية تَلْمَحُ مرتبتها[٦]. انتهى

وقال ابنُ فُوْرَك: لا حجةَ في هذه الآية على أنَّ الملائكة أفضلُ من البشر؛ لأنه يحتمل أن يريدَ: ملكين في أن لا يكون لهما شهوةٌ في طعام[٧]. انتهى.

---

(١) الكشاف ٢/ ٧٢.
(٢) القراءات الشاذة ص ٤٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨٤.
(٣) تنظر هذه القراءات في القراءات الشاذة ص ٤٢، والمحتسب ١/ ٢٤٣، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨٤، والإملاء ١/ ٢٧٠.
(٤) في المطبوع: مثلين.
(٥) قوله: لا، ساقط من (ب) والمطبوع.
(٦) الكشاف ٢/ ٧٢، وجاء في مطبوعه: الملكية، بدل: الملائكة.
(٧) المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٥.

وقرأ ابنُ عباس، والحسنُ بنُ عليٍّ، والضحَّاك، ويحيى بنُ أبي[١] كثير، والزُّهْريُّ، وابنُ حكيم عن ابن كثير: «مَلِكَين» بكسرِ اللام[٢]، ويدلُّ لهذه القراءة: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

و«من الخالدين»: من الذين لا يموتون، ويَبْقَون في الجنة ساكنين.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ لم يَكْتفِ إبليسُ بالوسوسة -وهو الإلقاءُ في خفيةٍ سراراً[٣]- ولا بالقول، حتى أَقْسَمَ على أنه ناصحٌ لهما. والمقاسَمةُ مفاعَلَةٌ تقتضي المشارَكةَ في الفعل، فتُقْسِمُ لصاحبك ويُقْسِمُ لك، تقول: قاسَمْتُ فلاناً: حالَفْته، وتَقاسَمَا: تَحالَفَا. وأمَّا هنا فمعنى «وقاسمهما»: أَقْسَمَ لهما؛ لأنَّ اليمين لم يشاركاه فيها، وهو كقول الشاعر:

وقاسَمَها بالله جَهْداً لأنتم ... أَلذُّ من السَّلْوَى إذا ما نَشُورُها[٤]

وفاعَلَ قد يأتي بمعنى أَفْعَلَ، نحو: باعَدْتُ الشيءَ وأَبْعَدْتُه.

وقال ابن عطية: «وقاسَمَهما»، أي: حَلَفَ لهما، وهي مفاعَلَةٌ؛ إذ قبولُ المحلوفِ له وإقبالُه على معنى اليمينِ كالقَسَمِ وتقريرِه، وإنْ كان باديَ الرأي يُعْطِي أنها من واحدٍ[٥].

وقال الزمخشري: كأنه قال لهما: أُقْسِمُ لكما إني لمن الناصحين، وقالا له: أتُقْسِمُ بالله إنك لمن الناصحين، فجُعِلَ ذلك مقاسَمةً بينهم، أو أقسم لهما بالنصيحة

(١) قوله: أبي، ساقط من المطبوع.

(٢) ينظر القراءات الشاذة ص ٤٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨٥، وزاد المسير ٣/ ١٧٩. وقوله: وابن حكيم عن ابن كثير، فيه نظر، فقد أخرجها الطبري ١٠/ ١٠٨ من طريق يعلى بن حكيم عن يحيى بن أبي كثير، فحصَلَ في كلام المصنف أيضاً تكرار، ولعل سببه اختلاف المصدر، فقد ذكرها ابن عطية عن ابن عباس والضحاك ويحيى بن أبي كثير، ووقع في زاد المسير: يعلى بن حكيم عن ابن كثير. وكلاهما من مصادر المصنف.

(٣) في (يه): مراراً، وفي المطبوع: سرا.

(٤) البيت لخالد بن زهير الهذلي ابن أخت أبي ذؤيب، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٥٨. السلوى: العسل. ونشورها: نجتنيها.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٥. وقوله: يعطي، تحرف في المطبوع إلى: يعني.

وأقسما له بقبولها، أو أُخْرِجَ قسمُ إبليسَ على وزن المفاعَلَة لأنه اجتهد فيها اجتهادَ المُقاسم(١). انتهى

وقُرِئَ: «وقاسَمَهما بالله»(٢).

و«لكما» متعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديره: ناصحٌ لكما، أو: أعني، أو بـ«الناصحين» على أنَّ «أل» موصولةٌ، وتُسُومِحَ في الظرف والمجرور ما لا يُتَسَامحُ في غيرهما، أو على أنَّ «أل» لتعريفِ الجنس لا موصولةٌ. أوجُهٌ مَقُولةٌ(٣).

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ﴾أي: استَنْزَلَهما إلى الأكل من الشجرة بغروره، أي: بخداعه إياهما، وإظهارِ النُّصح، وإبطانِ الغشّ، وإطماعِهما أن يكونا مَلَكين أو خالِدَين، وبإقسامه أنه ناصحٌ لهما، جُعِلَ مَن يغترُّ بالكلام حتى يصدِّقَ فيقعَ في مصيبةٍ كالذي(٤)يدلَّى من عُلوٍ إلى أسفلَ بحبلٍ ضعيفٍ فينقطعُ به فيهلك.

وقال الأزهري: لهذه الكلمة أصلان:

أحدهما: أنَّ الرجل يُدلي دَلْوَه في البئر ليأخُذَ الماء فلا يجدُ فيها ماءً، وُضعت التَّدليةُ موضعَ الطمع فيما لا فائدةَ فيه، فيقال: دلَّاه، أي: أطْمَعَه.

الثاني: جَرَّأهما على أكل الشجرة، والأصل فيه: دلَّلهما من الدالّ والدَّالَّة وهما الجرأة(٥). انتهى، فأبدل من المضاعَفِ الأخير حرفَ علَّةٍ، كما قالوا: تَظنَّيْتُ، وأصله: تظنَّنْتُ.

ومِن كلام بعض العلماء: خَدَعَ الشيطانُ آدمَ فانْخَدَعَ، ونحن مَن خَدَعَنا بالله عزَّ وجلَّ انْخَدعْنا له. ورُوي نحوُه عن قتادة وعن ابن عمر(٦).

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أي: وَجَدَا طعمَها آكلَيْنِ منها، كما قال

---

(١) الكشاف ٢/ ٧٣.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٥.
(٣) في (يه): مقبولة.
(٤) في النسخ والمطبوع: بالذي، والمثبت من النهر على هامش البحر ٤/ ٢٧٩.
(٥) تهذيب اللغة ١٤/ ١٧٢ بنحوه، وتفسير الرازي ١٤/ ٤٩، وعنه نقل المصنف.
(٦) أخرجه عن قتادة الطبري ١٠/ ١٠٩-١١٠، وعن ابن عمر ابنُ سعد في الطبقات ٤/ ١٥٦، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٩٤، وينظر المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٥، والكشاف ٢/ ٧٣.

تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ [طه: ١٢١] وتطايرت عنهما ملابسُ الجنة فظهرت لهما عوراتُهما، وتقدَّم أنهما كانا قبل ذلك لايَرَيَانِها من أنفسهما، ولا أحدُهما من الآخَر.

وقال ابنُ عباس وقتادةُ وابنُ جبيرٍ: كان عليهما ظفرٌ كاسٍ، فلمَّا أَكَلَا تَقَلَّص[١]عنهما فبدت سوءاتُهما، وبقي منه على الأصابع قَدْرَ ما يتذكَّران به المخالَفَةَ فيُجدِّدان النَّدَم[٢].

وقال وهب بنُ منبِّهٍ: كان عليهما نورٌ يستُر عورةَ كلِّ واحدٍ منهما، فانْقَشَعَ بالأكل ذلك النور[٣].

وقيل: كان عليهما نورٌ فنقص وتجسَّد منه شيءٌ في أظفار اليدين والرجلين تذكرةً لهما ليستغفرا في كلِّ وقتٍ وأبناؤهما بَعْدَهما، كما جرى لأويسٍ القرنيِّ[٤]حين أَذْهَبَ الله عنه البَرَصَ إلَّا لَمعةً أبقاها ليتذكَّر نِعَمَه فيشكر.

وقال قوم: لم يقصد بالسَّوْءَة العورةَ، والمعنى: انكشف لهما مَعايِشُهما وما يسوؤهما. وهذا القولُ ينبو عنه دلالةُ اللفظ ويخالفُ قولَ الجمهور.

وقيل: أكلت حوَّاءُ أوَّلَ فلم يُصبها شيءٌ، ثم آدمُ فكان البُدُوُّ.

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ أي: جَعَلا يُلْصِقان عليهما من ورق الجنة[٥]، أي: جَعَلَا يُلْصِقان وَرَقةً على ورقةٍ ويُلْصِقانهما، بعدما كانت كُسَاهما حُلَلَ الجنة ظلَّا يستتران بالورق، كما قيل:

(١) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: تبلس، وفي (ب) و(د٣) و(يه): تقلس، والمثبت من المصدر على ما يأتي.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٦ ولم يذكر ابن جبير، وينظر ما روي عن ابن عباس وقتادة في تفسير الطبري ١٠/ ١١١ و١١٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٤٥٢ و١٤٥٩، وهي روايات واهية، وينظر الكلام عليها في حاشية تفسير الطبري (تحقيق أحمد شاكر) ١٢/ ٣٥٣ و٣٥٤، وحاشية القرطبي ٩/ ١٧٩.

(٣) أخرجه الطبري ١٠/ ١١٤.

(٤) أخرج حديثه مسلم (٢٥٤٢) عن عمر رضي الله عنه.

(٥) قوله: أي جعلا يلصقان. . .، من (د٣)، وليس في باقي النسخ.

لِلَّـهِ درُّهـمُ مـن فـتـيـةٍ بَـكَـروا مِثْلَ الملوك وراحوا كالمساكين[١]

والأَوْلَى أن يعود الضمير في «عليهما» على عورتيهما، كأنه قيل: يخصفان على سوءاتهما من ورق الجنة، وعاد بضمير الاثنين لأن الجمع يراد به اثنان، ولا يجوزُ أن يعود الضميرُ على آدمَ وحواءَ لأنه تَقرَّرَ في علم العربية أنه لا يتعدَّى فِعْلُ الظاهِرِ والمُضْمَرِ المتَّصل إلى المضمَرِ المتَّصل المنصوبِ لفظاً أو محلّاً في غيرِ بابِ ظَنَّ وفَقَدَ وعَلِمَ ووَجَدَ، لا يجوز: زيد ضَرَبَه، ولا: ضَرَبَه زيدٌ، ولا: زيدٌ مرَّ به، ولا: مرَّ به[٢]زيدٌ، فلو جعلنا الضمير في «عليهما» عائداً على آدمَ وحواءَ لَلَزِمَ من ذلك تعدِّي «يخصف» إلى الضمير المنصوب محلّاً وقد رَفَعَ الضميرَ المتَّصلَ وهو الألف في «يخصفان»، فإنْ أُخِذَ ذلك على حذفِ مضافٍ مرادٍ جاز ذلك، وتقديره: يخصفان على بدنيهما.

قال ابن عباس: الورقُ الذي خَصَفا منه وَرَقُ الزيتون[٣].

وقيل: ورق شجر التين[٤].

وقيل: ورق الموز.

ولم يَثْبُت تعيينُها لا في القرآن ولا في حديثٍ صحيحٍ.

وقرأ أبو السَّمَّال: «وطَفَقَا» بفتح الفاء[٥].

وقرأ الزهري: «يُخْصِفان» مِن أَخْصَفَ[٦]، فيحتمل أن يكون أَفْعَلَ بمعنى فَعَلَ، ويحتمل أن تكون الهمزةُ للتعدية من خَصَفَ، أي: يخْصِفان أنفسَهما.

وقرأ الحسن والأعرج ومجاهدٌ وابنُ وثَّابٍ: «يَخِصِّفان» بفتح الياء وكَسْرِ الخاءِ

---

(١) سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]

(٢) قوله: ولا مر به، ساقط من المطبوع.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) أخرجه الطبري ١٠/ ١١٣ عن ابن عباس.

(٥) القراءات الشاذة ص ٤٢.

(٦) المحتسب ١/ ٢٤٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨٦، والكشاف ٢/ ٧٣. ووقع ضبطها في مطبوع القراءات الشاذة ص ٤٢: «يَخَصِّفان»، وسترد هكذا قريباً عن الحسن.

والصادِ وشدِّها. وقرأ الحسن فيما رَوَى عنه محبوبٌ كذلك إلَّا أنه فَتَح الخاء، ورُويت عن ابنِ بُريدة وعن يعقوب. وقرئ: «يُخَصِّفان» بالتشديد من خَصَّفَ على وزن فعَّل[(١)] وقرأ عبد الله بن يزيد: «يُخُصِّفان» بضمِّ الياء والخاء وتشديدِ الصَّادِ وكَسْرِها. وتقريرُ هذه القراءات في علم العربية.

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ لمَّا كان وقتُ الهناءِ شُرِّف بالتصريح باسمه في النداء فقيل: «ويا آدم اسكن»، وحين كان وقتُ العتاب أخبر أنه ناداه ولم يصرِّح باسمه. والظاهرُ أنه تعالى كلَّمهما بلا واسطةٍ، ويدلُّ على أنَّ الله كلَّم آدَمَ ما في «تاريخ ابن أبي خيثمةَ»[(٢)] أنه ﷺ سُئِلَ عن آدم فقال: «نبيٌّ مكلَّمٌ».

وقال الجمهور: إنَّ النداء كان بواسطة الوحي. ويؤيِّده أنَّ موسى عليه السلام هو الذي خُصَّ من بين العالَم بالكلام، وفي حديثِ الشفاعة أنهم يقولون له: «أنت الذي خصَّك الله بكلامه»[(٣)].

وقد يقال: إنه خصَّه بكلامه وهو في الأرض، وأمَّا آدم فكان ذلك له في الجنة، وقد تقدَّم لنا في قوله: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] أنَّ منهم محمداً ﷺ كلَّمه الله ليلةَ الإسراء ولم يكلِّمه في الأرض، فيكون موسى عليه السلام مختصَّاً بكلامه في الأرض.

وقيل: النداءُ لآدم على الحقيقة، ولم يُرْوَ قطُّ أنَّ الله كلَّم حواءَ. والنداءُ هو دعاءُ الشخص باسمه العَلَمِ، أو بنوعه، أو بوَصْفِه، ولم يصرَّح هنا بشيءٍ من ذلك.

والجملة معمولةٌ لقولٍ محذوفٍ، أي: قائلاً: أَلَمْ أَنْهَكُما، وهو استفهامٌ معناه العتابُ على ما صدر منهما والتنبيهُ على موضع الغفلة.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٦، والقراءة الأخيرة عزاها ابن عطية لعبد الله بن بريدة، وهي عنه في القراءات الشاذة ص٤٢.

(٢) في الورقة الأولى منه، كما في المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٦، وسلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وإسناده ضعيف جدًّا.

(٣) أخرجه بنحوه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وذكره بلفظ المصنف ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٦.

وفي قوله: «ألَم أنهَكُما عن تلكما الشجرة» «ولا تقربا هذه الشجرة» إشارةٌ لطيفةٌ، حيث كان مباحاً له الأكلُ قارّاً ساكناً أُشيرَ إلى الشجرة باللَّفظ الدالِّ على القُرْبِ والتمكُّنِ من الأشجار، فقيل: «ولا تقربا هذه الشجرة»، وحيث كان تعاطَى مخالفةَ النهي وقَرُبَ إخراجُه من الجنة واضطرابُ حاله فيها وفرَّ على وجهه فيها، قيل: «ألم أنهكما عن تلكما» فأُشيرَ إلى الشجرة باللَّفظ الدالِّ على البعد والإنذارِ بالخروج منها.

و«أقُلْ لكما» إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧] وهذا هو العهدُ الذي نسيه آدمُ على مذهب مَن يَحْمِلُ النسيانَ على بابه

قال ابن عباس: بيَّن العداوة حيث أبى السجود وقال: «لأقعدنَّ لهم صراطَكَ المستقيم»[١].

رُوي أنه تعالى قال لآدم: ألم يكن لك فيما منحتُك من شجرِ الجنة مندوحةً عن هذه الشجرة. فقال: بلى وعزَّتِكَ، ولكنْ ما ظننتُ أنَّ أحداً مِن خَلْقِكَ يحلفُ كاذباً. قال: فوعزَّتي لأُهْبِطنَّك إلى الأرض ثم لا تنال إلا كدَّاً. فأُهبط، وعلِّم صنعةَ الحديد، وأُمر بالحرث، فَحرَثَ وسَقَى وحَصَدَ ودَرَسَ وذرَّى وعجنَ وخبزَ[٢].

وقرأ أبيٌّ: «ألم تُنْهَيَا عن تِلْكُما الشجرةِ وقيلَ لكما»[٣].

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ قال الزمخشري: وسَمَّيا ذنبهما -وإنْ كان صغيراً مغفوراً- ظلماً وقالا: «لنكوننَّ من الخاسرين» على عادة الأولياء والصالحين في استعظامهم الصغيرَ من السيئات[٤].

---

(١) تفسير الرازي ١٤/ ٥٠.

(٢) قطعة من خبر طويل أخرجه الطبري ١٠/ ١١١-١١٢ عن ابن عباس ﷺ موقوفاً، وفي إسناده الحسن بن عمارة الكوفي، قال عنه أحمد: متروك، وقال ابن معين: ليس حديثه بشيء. وذهب ابن المديني إلى أنه كان يضع الحديث. ينظر الميزان ١/ ٤٦٩.

(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٩٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨٧.

(٤) الكشاف ٢/ ٧٣.

وقال ابن عطية: اعترافٌ من آدمَ وحوَّاءَ عليهما السلام، وطلبٌ للتوبة والسِّتْرِ والتغمُّدِ بالرحمة، فطَلَبَ آدمُ هذا وطلب إبليسُ النَّظِرةَ ولم يَطلب التوبة فوُكِلَ إلى رأيه، قال الضحاك: هذه الآيةُ هي الكلماتُ التي تلقَّى آدمُ من ربِّه[١].

وقيل: سَعِدَ آدمُ بخمسة أشياء: اعْتَرفَ بالمخالفة، وندمَ عليها، ولام نفسَه، وسارَعَ إلى التوبة، ولم يَقْنَطْ من الرحمة. وشَقِيَ إبليسُ بخمسة أشياء: لم يُقِرَّ بالذنب، ولم يندم، ولم يَلُمْ نفسَه، بل أضاف إلى ربِّه الغوايةَ، وقنط من الرحمة.

«ولنكوننَّ» جوابُ قسمٍ محذوفٍ قبل «إنْ»، كقوله: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ﴾ [المائدة: ٧٣] التقدير: والله إنْ لم يغفر لنا، وأكثر ما تأتي «إنْ» هذه ولامُ التوطئة قبلها، كقوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ ثم قال ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦٠].

﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ تقدَّم تفسير مِثْلِ هذا في «البقرة»[٢].

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ هذا كالتفسير لقوله: «ولكم في الأرض مستقرٌّ ومتاعٌ إلى حين» أي: بالحياة إلى حين الموت، ولذلك جاء «قال» بغيرِ واوِ العطف؛ إذ الأكثرُ في لسان العرب إذا لم تكن الجملة تفسيريةً أو كالتفسيرية أن تُعطف على الجملة قبلها، فتقول: قال فلانٌ كذا وقال كذا، وتقول: زيدٌ قائم وعمروٌ قاعدٌ، ويَقِلُّ في كلامهم: قال فلانٌ كذا قال كذا، وكذلك يقلُّ: زيدٌ قائمٌ عمرٌو قاعدٌ، وهنا جاء «قال اهبطوا -الآية- قال فيها تحيون» لمَّا كانت كالتفسير لمَا قبلها، وتمَّمَ هنا المقصودَ بالتنبيه على البعث والنشور بقوله: «ومنها تخرجون»، أي: إلى المُجازاة بالثواب والعقاب، وهذا كقوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

وقرأ الأخوان وابنُ ذكوان: «تَخرُجون» مبنيّاً للفاعل هنا وفي «الجاثية» و«الزخرف» وأوّلِ «الروم»، وعن ابن ذكوان في أوَّل «الروم» خلافٌ، وقرأ باقي السبعة مبنيّاً للمفعول[٣].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٧.
(٢) الآية (٣٦). وكلمة «مثل» من (ب)، وليست في باقي النسخ والمطبوع.
(٣) ينظر السبعة ص٢٧٩ و٥٨٥، والتيسير ص١٠٩و١٧٥. والأخوان هما حمزة والكسائي.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ مناسَبةُ هذه الآيةِ لِمَا قبلها هو أنه تعالى لمَّا ذكر قصة آدمَ وفيها سَتْرُ السَّوءات، وجَعَلَ له في الأرض مستقرًّا ومتاعاً إلى حين[١]، ذكر ما امتنَّ به على بَنِيهِ وما أنعم به عليهم من اللباس الذي يواري السَّوْءات والرِّياش الذي يمكن به استقرارُهم في الأرض واستمتاعُهم بما خوَّلهم.

وقال مجاهد: نزلت هذه الآيةُ والثلاثُ بعدَها فيمَن كان من العرب يتعرَّى في طوافه بالبيت[٢].

وذكر النقَّاشُ أنها كانت عادةَ ثَقيفٍ، وخُزاعةَ، وبني عامر بنِ صَعْصَعةَ، وبني مُدْلجٍ، والحارثِ وعامرِ ابنَيْ عبدِ مَناةَ نسائهم ورجالهم[٣].

و«أنزلنا» قيل: على حقيقته من الانحطاط من عُلْوٍ إلى سفلٍ، فأنزل مع آدم وحواءَ شيئاً من اللباس مثالاً لغيره، ثم توسَّع بنوهما في الصنعة استنباطاً من ذلك المثال. أو أنزل من السماء أصلَ كلِّ شيءٍ عند إهباطهما. أو أنزل معه الحديدَ فاتُّخذ منه آلاتُ الصنائع. أو أنزل المَلَكَ فعلَّم آدمَ النَّسْجَ. أربعةُ أقوال.

وقيل: الإنزال مجازٌ من إطلاق السَّبب على مُسَبَّبه، فأنزل المطر وهو سببُ ما يتهيَّأ منه اللباسُ. أو بمعنى: خَلَقَ، كقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ [الزمر: ٦]. أو بمعنى أَلْهَم.

وقال الزمخشريُّ: جَعَلَ ما في الأرض مُنْزَلاً من السماء لأنه قُضِيَ ثَمَّ وكُتِبَ، ومنه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ ﴿٦﴾﴾[٤].

وقال ابنُ عطية[٥]: «أنزلنا» يحتملُ أن يريدَ التدريجَ، أي: لمَّا أَنْزلَ المطرَ فكان عنه جميعُ ما يُلْبَس قال عن اللباس: «أنزلنا»، وهذا نحوُ قولِ الشاعر يصف مطراً:

---

(١) قوله: إلى حين،من (ب).

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ١٢٠.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٨، وكلمة: مناة، تحرفت في مطبوعه إلى: مناف.

(٤) الكشاف ٢/ ٧٤.

(٥) في المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٨.

أقبل في المستنِّ من سحابِهِ أسْنِمَةُ الآبالِ في رَبَابِهِ[١]

أي: بالمال، ويحتمل أن يريد: خَلَقْنا، فجاءت العبارة بـ«أنزلنا»، كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥] وقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾وأيضاً فخلْقُ الله وأفعالُه إنما هي من عُلوٍ في القَدْرِ والمنزِلة. انتهى.

واللباس يعمُّ جميعَ ما يُلْبَسُ ويَسْتُر، والريشُ عبارةٌ عن سعة الرزق ورفاهيةِ العيش ووجودِ اللُّبْسِ والتمتُّع.

وأكثرُ أهلِ اللغة على أن الريش ما يَسْتُر من لباسٍ أو معيشةٍ، وقال قوم: الأثاث[٢].

وقال ابن عباس والسدِّي ومجاهدٌ: المال. وقال ابن زيد: الجَمال[٣].

وقال الزمخشريُّ[٤]: لباسُ الزينة؛ استُعير من ريش الطائر لأنه لباسُه وزينتُه، أي: أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يواري سوءاتكم، ولباساً يَزِينُكم؛ لأنَّ الزينة غرضٌ صحيحٌ، كما قال تعالى: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨] ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ [النحل: ٦] انتهى، وعطفُ الرِّيش على «لباساً» يقتضي المغايَرةَ وأنه قسيمٌ للِّباسِ لا قِسْمٌ منه.

وقرأ عثمانُ وابنُ عباسٍ والحسنُ ومجاهدٌ وقتادةُ والسُّلَميُّ وعلي بن الحسين وابنُه زيدٌ وأبو رجاءٍ وزرّ بنُ حبيش، وعاصمٌ في روايةٍ، وأبو عمرٍو في روايةٍ «ورياشاً»[٥]، فقيل: هما مصدران بمعنىً واحدٍ؛ راشَه اللهُ يَرِيشُه رِيشاً ورِياشاً: أَنْعَمَ عليه.

---

(١) كذا وقعت رواية الرجز في المحرر الوجيز، وجاء في الكامل للمبرد ٢/ ٩٩٤، والفائق للزمخشري ٢/ ٢٧٩ بالعكس، أي: ذُكِرَ الرَّبابُ في الأول والسَّحاب في الثاني. قال المبرد: أراد أن ذلك السحاب ينبت ما تأكله الإبل فيصير شحوماً في أسنمتها، والرباب: سحاب دُوَيْنَ المعظم من السحاب.

(٢) قوله: الأثاث، تحرف في (ب) والمطبوع إلى: الإناث، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في المصادر. ينظر أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٠، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨٩.

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٠/ ١٢٣-١٢٥، وتفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٤٥٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨٩.

(٤) في الكشاف ٢/ ٧٤.

(٥) تنظر هذه القراءة في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٠، والقراءات الشاذة ص٤٣، والمحتسب ١/ ٢٤٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨٩. وهي خلاف المشهور عن عاصم وأبي عمرو.

وقال الزمخشري: جمعُ ريشٍ، كشِعْبٍ وشِعابٍ[(١)]. وقال الزجَّاج: هما اللباسُ. وقال الفرَّاء: هما ما يستر من ثيابٍ ومالٍ، كما يقال: لِبْسٌ ولِباس[(٢)]. وقال معبدٌ الجهني: الرِّياش: المعاش[(٣)]. وقال ابن الأعرابي: الريش: الأكلُ والشرب، والرياش: المال المستفاد. وقيل: الريشُ: ما بَطَن، والرياش: ما ظَهَر.

وقرأ الصاحبان والكسائيُّ: «ولباسَ التقوى» بالنصب[(٤)] عطفاً على المنصوب قبله. وقرأ باقي السبعة بالرفع، وقرأ بعض النحاة: «ولبوس» بالواو ورفع السين[(٥)]، فقيل: هو على إضمارِ مبتدأ محذوفٍ، أي: وهو لباسُ التقوى؛ قاله الزجَّاج[(٦)]، و«ذلك خير» على هذا مبتدأ وخبر.

وأجاز أبو البقاء أن يكون «ولباسُ» مبتدأ، وخبرُه محذوفٌ، تقديره: ولباسُ التقوى ساترٌ عوراتِكم[(٧)]. وهذا ليس بشيءٍ.

والظاهر أنه مبتدأٌ ثانٍ و«خير» خبرُه، والجملةُ خبرٌ عن «ولباسُ التقوى»، والرابطُ اسمُ الإشارة، وهو أحدُ الروابط الخمسِ المتَّفقِ عليها في ربط الجملة الواقعة خبراً للمبتدأ إذا لم يكن إياه.

وقيل: «ذلك» بدلٌ من «لباس». وقيل: عطفُ بيان. وقيل: صفةٌ، وخبرُ «ولباسُ» هو «خير».

وقال الحوفي: وأنا أرى أن لا يكون «ذلك» نعتاً لـ«لباسِ التقوى»؛ لأنَّ الأسماء المُبْهَمَةَ أعرفُ ممَّا فيه الألفُ واللامُ وما أُضيف إلى الألف واللام، وسبيلُ

---

(١) الكشاف ٢/ ٧٤.
(٢) ينظر معاني القرآن للزجاج ٢/٣٢٨، وللفراء ١/ ٣٧٥.
(٣) أخرجه أبو الليث السمرقندي في تفسيره ١/ ٥٣٦.
(٤) السبعة ص٢٨٠، والتيسير ص١٠٩. والصاحبان هما نافع وابن عامر.
(٥) قوله: وقرأ بعض النحاة. . .، إلى هنا، من (ب) و(د٣) و(يه).
(٦) أجازه في معاني القرآن ٢/ ٣٢٨-٣٢٩، وأجاز أيضاً أن يكون «ذلك» صفة «لباس»، و«خير» خبره، وسيرد قريباً.
(٧) الإملاء ١/ ٢٧١.

النعت أن يكون مُساوِياً للمنعوت أو أقلَّ منه تعريفاً، فإنْ كان قد تقدَّم قولُ أحدٍ به فهو سهوٌ.

وأجاز الحوفي أن يكون «ذلك» فَصْلاً لا موضعَ له من الإعراب، ويكون «خيرٌ» خبراً لقوله: «ولباس التقوى». فجَعَلَ اسمَ الإشارة فصلاً كالمضمَر، ولا أعلم أحداً قال بهذا.

وأمَّا قولُه: فإنْ كان تقدَّم قولُ أحدٍ به فهو سهوٌ، فقد ذكره ابن عطية، وقال: هو أنبلُ الأقوال، ذكره أبو عليٍّ في «الحجّة»[١]. انتهى، وأجازه أيضاً أبو البقاء[٢]، وما ذكره الحوفيُّ هو الصوابُ على أشهر الأقوال في ترتيب المعارِف.

وقرأ عبد الله وأبيٌّ: «ولباسُ التقوى خيرٌ» بإسقاط «ذلك»[٣]، فهو مبتدأ وخبرٌ.

والظاهرُ حَمْلُه على اللباس حقيقةً؛ فقال ابن زيد: هو سترُ العورة. وهذا فيه تكرارٌ؛ لأنه قد قال: «لباساً يواري سوآتكم».

وقال زيدٌ بن عليٍّ: الدِّرع والمِغْفَرُ والساعدان؛ لأنه يُتَّقى بها في الحرب.

وقيل: الصوف ولبس الخشن، وروي: اخْشَوْشِنُوا وكُلوا الطعامَ الخَشِن[٤].

وقيل: ما يقي من الحرِّ والبرد.

وقال عثمان بن عطاء: لباس المتقين في الآخرة.

وقيل: «لباسُ التقوى» مجازٌ؛ فقال ابن عباس: العملُ الصالح. وقال أيضاً: العفَّةُ.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٣٨٩، والحجة ٤/ ١٢. وأجازه الزجاج أيضاً كما ذكرنا قبل تعليقين.

(٢) في الإملاء ١/ ٢٧١.

(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٧٥، والقراءات الشاذة ص٤٣.

(٤) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج الطحاوي في شرح مشكل الآثار ٥/ ٣٣٩ عن عمر رضي الله عنه أنه قال: اخشوشنوا واخشوشبوا واخلولقوا وتمعددوا كأنكم معدٌّ...، وله روايات أخرى، كما في مصنف عبد الرزاق (١٩٩٩٤)، ومسند أحمد (٣٠١)، وصحيح ابن حبان (٥٤٥٤). ومعنى اخشوشنوا: البسوا الخشن. واخشوشبوا: كلوا الغليظ من الطعام. ينظر غريب الحديث للحربي ٢/ ٥٤٥-٥٤٦.

وقال عثمان بن عفان وابنُ عباس أيضاً: السمتُ الحسن في الوجه.

وقال معبدٌ الجهنيُّ: الحياء.

وقال الحسن: الورعُ والسَّمْتُ الحَسَن.

وقال عروةُ بن الزبير: خشية الله.

وقال ابن جُريج: الإيمان.

وقيل: ما يَظْهَرُ من السَّكينة والإخبات.

وقال يحيى بن يحيى: الخشوع(١).

والأحسنُ أن يُجْعَلَ عامًّاً، فكلُّ ما يَحْصُلُ به الاتِّقاءُ المشروعُ فهو من لباس التقوى.

والإشارة بقوله: «ذلك من آيات الله» إلى ما تقدَّم من إنزال اللباس والرياش ولباسِ التقوى، والمعنى: من آيات الله الدالَّةِ على فضله ورحمته على عباده، وقيل: مِن مُوْجِبِ آيات الله.

وقيل: الإشارة إلى «لباس التقوى»، أي: هو في العبر آيةٌ ـ أي: علامةٌ وأمارةٌ ـ من الله أنه قد رضي عنه ورَحِمَه، لعلهم يذكرون هذه النعم فيشكرون الله عليها.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ أي: لا يَسْتَهوِينَّكم ويَغْلِبْ عليكم، وهو نهيٌ للشيطان، والمعنى نَهْيُهم أنفسهم عن الإصغاء إليه والطواعيةِ لأمره، كما قالوا: لا أَرَيَنَّك هنا، ومعناه النهيُ عن الإقامة بحيث يراه. و«كما» في موضع نصبٍ، أي: فتنةً مِثْلَ فتنةِ إخراج أبويكم، ويجوز أن يكون المعنى: لا يخرجنَّكم عن الدِّين بفتنته إخراجاً مِثْلَ إخراجه أبويكم.

---

(١) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٠/ ١٢٥-١٢٨، والنكت والعيون ٢/ ٢١٤، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٤/ ٢٣٣، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٨٩، وتفسير البغوي ٢/ ١٥٥، وزاد المسير ٣/ ١٨٣، وتفسير القرطبي ٩/ ١٨٦.

وقرأ يحيى وإبراهيم: «لا يُفْتِنَنَّكم» بضم الياء من «أَفْتَنَ»[١]. وقرأ زيد بن علي: «لا يَفْتِنكم» بغيرِ نونِ توكيدٍ.

والظاهرُ أنَّ «لباسهما» هو الذي كان عليهما في الجنة، وقال مجاهد: هو لباسُ التقوى[٢]. و«سوآتهما» هو ما يسوؤهما من المعصية، و«ينزع» حالٌ من الضمير في «أَخْرَجَ» أو من «أبويكم»؛ لأنَّ الجملة فيها ضميرُ «الشيطان» وضمير الأبوين، فلو كان بَدَلَ «ينزع»: نازعاً، تعيَّن الأول؛ لأنه إذ ذاك لو جوِّز الثاني لكان وصفاً جرى على غيرِ مَن هوَ له، فكان يجبُ إبرازُ الضمير، وذلك على مذهب البصريين[٣].

و«ينزع» حكايةُ أمرٍ قد وقع؛ لأنَّ نزع اللباس عنهما كان قبل الإخراج، ونَسَبَ النَّزْعَ إلى الشيطان لمَّا كان متسبِّباً فيه.

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ أي: إنَّ الشيطان -وهو إبليس- يُبْصِركم هو وجنودُه ونوعُه وذرِّيتُه من الجهة التي لا تُبْصِرونه منها، وهم أجسامٌ لطيفةٌ معلومٌ من هذه الشريعة وجودهم، كما أنَّ الملائكة أيضاً معلومٌ وجودهم من هذه الشريعة، ولا يُسْتَنْكَر وجودُ أجسامٍ لطيفةٍ جداً لا نراها نحن، ألا ترى أنَّ الهواء جسمٌ لطيفٌ لاندركُه نحن وقد قام البرهانُ العقليُّ القاطعُ على وجوده. وقد صحَّ تصوُّرُهم في الأجسام الكثيفة، ورؤيةُ بني آدمَ لهم في تلك الأجسام، كالشيطان الذي رآه أبو هريرةَ حين جَعَلَ يحفظُ تمرَ الصدقة[٤]، والعفريتِ الذي رآه الرسولُ وقال فيه: «لولا دعوةُ أخي سليمان لربطتُه إلى ساريةٍ من سواري المسجد» الحديث[٥] وكحديث خالد بن الوليد حين سُيِّر لكَسْرِ ذي الخُلَصة[٦]، وكحديثِ

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٣.

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ١٣٤.

(٣) ينظر تفصيل هذه المسألة في الدر المصون٤/ ٣٩.

(٤) أخرجه البخاري (٢٣١١).

(٥) أخرجه البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه مسلم (٥٤٢) من حديث أبي الدرداء ﷺ.

(٦) كذا ذكر، والصواب أن القصة ليست في كسر ذي الخلصة، وإنما هي في هدم العزَّى، وقد أخرجها النسائي في الكبرى (١١٤٨٣)، وأبو يعلى (٩٠٢).

سَوَاد بنِ قارِبٍ مع رَئِيَّة من الجنّ[١]، إلّا أنَّ رؤيتهم في الصور نادرةٌ كما أنَّ الملائكة تبدو في صورٍ كحديثِ جبريل[٢]، وحديثِ المَلَكِ الذي أتى الأعمى والأقرعَ والأبرص[٣]، وهذا أمرٌ قد استفاض في الشريعة فلا يمكنُ ردُّه، أعني تصوُّرَهم في بعض الأحيان في الصور الكثيفة.

وقال الزمخشري: وفيه دليلٌ بيِّنٌ على أنَّ الجنَّ لا يُرَوْنَ ولا يَظْهَرون للإنس، وأنَّ إظهارَهم أنفسَهم ليس في استطاعتهم، وأنَّ زَعْمَ مَن يدَّعي رؤيتهم زُورٌ ومَخْرقةٌ[٤]. انتهى.

ولا دليلَ في الآية على ما ذَكَرَ؛ لأنه تعالى أثبت أنهم يَرَوْننا من جهةٍ لا نراهم نحن فيها، وهي الجهةُ التي يكونون فيها على أصل خلقتهم من الأجسام اللطيفة، ولو أراد نفيَ رؤيتنا على العموم لم يتقيَّد بهذه الحيثية، وكان يكون التركيب: إنه يراكم هو وقبيلُه وأنتم لا ترونهم.

وأيضاً فلو فرضنا أنَّ في الآية دلالةً لكان من العامِّ المخصوص بالحديث النبويِّ المستفيض، فيكونون مَرْئيِّين في بعض الصور لبعض الناس في بعض الأحيان.

وفي كتاب «التحرير»[٥] أنكر جماعةٌ من الحكماء تكرُّرَ[٦] الجنِّ والشياطين وتصوُّرَهم على أيِّ جهةٍ شاؤوا.

---

(١) أخرج قصته أبو يعلى في معجم شيوخه (٣٢٩)، والحاكم في المستدرك ٣/٦٠٨-٦١٠. وأصل القصة في صحيح البخاري (٣٨٦٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما دون تسمية صاحب القصة. وينظر تاريخ الإسلام للذهبي ١/ ٥٩٠-٥٩٤، والإصابة ٤/ ٢٩٣-٢٩٥.

(٢) هو الحديث المشهور في الإيمان والإسلام والإحسان، أخرجه البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه مسلم (٨) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) الكشاف ٢/ ٧٤-٧٥.

(٥) هو كتاب «التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير» لشيخ المصنف محمد بن سليمان المقدسي المعروف بابن النقيب.

(٦) في (د٣) و(يه): تطور.

وقوله: «إنه يراكم» تعليلٌ للنهي وتحذيرٌ من فتنته، بأنه[١] بمنزلة العدوّ المُدَاجي يَكيدكُم ويغتالُكم من حيث لا تَشعرون، وفي الحديث: «إنَّ الشيطانَ يَجْري مِن ابنِ آدمَ مَجْرَى الدَّمِ»[٢] إشارة إلى أنه لا يفارقه، وأنه يَرْصُد غفلاته فيتسلَّطُ عليه.

والظاهر أنَّ الضمير في «إنه» عائدٌ على «الشيطان»، وقال الزمخشريُّ: والضمير في «إنه» ضميرُ الشأن والحديث[٣]. انتهى، ولاضرورةَ تدعو إلى هذا.

و«قبيلُه» معطوفٌ على الضمير المستكنِّ في «يراكم»، ويجوز أن يكون مبتدأً محذوفَ الخبر، أو معطوفاً على موضع اسم «إنَّ» على مذهبِ مَن يجيز ذلك.

وقرأ اليزيديُّ: «وقبيلَه» بنصب اللام[٤] عطفاً على اسم «إنَّ» إنْ كان الضمير يعود على «الشيطان» وقيل[٥]: مفعول معه، أي: مع قبيله.

وقرئ شاذًا: «من حيث لا ترونه» بإفرادِ الضمير، فيحتمل أن يكون عائداً على الشيطان وقبيلِه إجراءً له مجرى اسم الإشارة، فيكون كقوله:

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبَلَقْ كأنه في الجلد تَوْليعَ البَهَقْ[٦]

أي: كأنَّ ذلك. ويحتمل أن يكون عاد الضمير على «الشيطان» وحده لكونه رأسَهم وكبيرهم وهم له تبَعٌ، وهو المفرَدُ بالنهي أولاً.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: صيَّرنا الشياطين ناصِرِيهم وعاضِدِيهم في الباطل. وقال الزجَّاج: سلَّطناهم عليهم يزيدون في غيِّهم، فيتابعونهم على ذلك، فصاروا أولياءَهم[٧].

---

(١) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: فإنه، والمثبت من (ب) و(د٣) و(يه)، وينظر الكشاف ٢/ ٧٤.
(٢) أخرجه البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٥) من حديث صفية ﵂. وأخرجه مسلم (٢١٧٤) من حديث أنس ﵁.
(٣) الكشاف ٢/ ٧٥.
(٤) القراءات الشاذة ص٤٣.
(٥) قوله: وقيل، تحرف في المطبوع إلى: وقبيله.
(٦) الرجز لرؤبة، وهو في ديوانه ص١٠٤. قال صاحب الخزانة ١/ ٨٨: البَلَق: سواد وبياض. والتوليع: استطالة البلق. والبهق: بياض مخال لِلَون الجسد وليس ببرص.
(٧) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٢٩-٣٣٠ بنحوه.

وقيل: جعلناهم قُرَناءَ لهم.

وحكى الزهراويُّ أنَّ «جَعَلَ» هنا بمعنى «وَصَفَ»، وهي نزغةٌ اعتزالية[١].

وقال الزمخشري: خلَّينا بينهم وبينهم،لم نكُفَّهم عنهم، حتى تولَّوهم وأطاعوهم فيما سوَّلوا لهم من الكفر والمعاصي، وهذا تحذيرٌ آخَرُ أبلغُ من الأول[٢]. انتهى، وهو على طريقةِ الاعتزال.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾أي: إذا فعلوا ما تفاحَشَ من الذنوب اعتذروا، والتقدير: وطُلبوا بحجةٍ[٣] على ارتكابها قالوا: آباؤنا كانوا يفعلونها فنحن نقتدي بهم، «والله أَمَرَنا بها» كانوا يقولون: لو كره الله منَّا ما نفعلُه لنَقَلَنا عنه. والإخبارُ الأولُ يتضمَّنُ التقليد لآبائهم، والتقليدُ باطلٌ إذ ليس طريقاً للعلم، والإخبارُ الثاني افتراءٌ على الله تعالى.

قال ابن عطية: والفاحشةُ وإن كان اللفظُ عامًّا هي كشفُ العورة في الطَّواف، فقد رُوِيَ عن الزُّهريُّ أنه قال: في ذلك نزلت هذه الآيات. وقاله ابنُ عباس ومجاهدٌ[٤]. انتهى، وبه قال زيد بنُ أسلم والسدِّي[٥].

وقال الحسن وعطاء والزجَّاج: الفاحشة هنا الشرك[٦].

وقيل: البَحيرةُ والسائبةُ والوصيلةُ والحامي.

وقيل: الكبائر. والظاهرُ من قوله: «وإذا فعلوا فاحشةً» أنه إخبارٌ مستأنَفٌ عن هؤلاء الكفارِ بما كانوا يقولون إذا ارتكبوا الفواحش، وقال ابن عطية[٧]: «وإذا فعلوا» وما بعده داخلٌ في صلة «الذين لا يؤمنون» ليقع التوبيخُ بصفةِ قومٍ قد جُعلوا

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩١، ووقع في (أ): نزعة، وهو موافق لما في مطبوع المحرر.
(٢) الكشاف ٢/ ٧٥.
(٣) في (ب): الحجة.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩١، وأخرجه عنهم الطبري ١٠/ ١٣٧-١٣٨.
(٥) زاد المسير ٣/ ١٨٤، وأخرجه عن السديِّ الطبريُّ ١٠/ ١٣٨.
(٦) زاد المسير ٣/ ١٨٥ عن الحسن وعطاء. والذي في معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٣٠: معنى الفاحشة: ما يشتد قبحه من الذنوب.
(٧) في المحرر الوجيز ٢/ ٣٩١.

أمثالاً للمؤمنين[١] إذ أَشْبَهَ فِعْلُهم فِعْلَ الممثَّلِ بهم.

وقال الزمخشري: وعن الحسن: إنَّ الله تعالى بَعَثَ محمداً ﷺ إلى العرب وهم قَدَرِيَّةٌ مُجْبِرةٌ يحملون ذنوبهم على الله تعالى، وتصديقُه قولُ الله عز وجل: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾[٢] انتهت حكايتُه عن الحسن، ولعلها لا تصحُّ عن الحسن. وانظر إلى دسيسة الزمخشريِّ في قوله: وهم قدريةٌ. فإنَّ أهل السنَّة يجعلون المعتزلةَ هم القدريةَ، فعَكَسَ هو عليهم وجَعَلهم هم القدريةَ، حتى إنَّ ما جاء من الذمِّ للقَدَرية يكون لهم، وهذه النسبةُ من حيث العربيةُ هي أَلْيَقُ بمَن أثبت القَدَرَ لا بمن نفاه، وقولُ أهل السُّنَّة في المعتزلة: إنهم قدريةٌ، معناه أنهم يَنْفُون القَدَرَ ويزعمون أنَّ الأمر أُنُف[٣]، وذلك شبيهٌ بما يقول بعضُهم في داودَ الظاهريِّ: إنه القياسيُّ. ومعناه: نافي القياس.

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي: بفعلِ الفحشاء، وإنما لم يَرُدَّ التقليدَ لظهور بطلانه لكلِّ أحد؛ للُزومه الأَخْذَ بالمتناقضات. وأَبطل تعالى دعواهم أنَّ الله أمر بها؛ إذ مُدركُ ذلك إنما هو الوحيُ على لسان الرسل والأنبياء، ولم يقع ذلك.

وقال الزمخشري: لأنَّ فعلَ القبيح مستحيلٌ عليه لعُدْمِ الدَّاعي ووجودِ الصَّارِف، فكيف يأمر بفعله؟ ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ إنكارٌ لإضافتهم القبيحَ إليه، وشهادةٌ على أنَّ مَبْنَى أمرِهم على الجهل المُفْرِط[٤]. انتهى، وهو على طريقة المعتزلة.

وقال ابن عطية: وبَّخهم على كذبهم، ووَقَفَهم على ما لا عِلْم لهم به ولا روايةَ لهم فيه، بل هي دعوى واختلاق[٥].

❁ ❁ ❁

(١) في المحرر: جعلوا مثالاً للموبَّخين.
(٢) الكشاف ٢/ ٧٥.
(٣) بضم الهمزة والنون، أي: مستأنف لم يسبق به قدرٌ ولا علم من الله تعالى، وأنه يعلمه بعد وقوعه. شرح مسلم للنووي ١/ ١٥٦.
(٤) الكشاف ٢/ ٧٥.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩١.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ
مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا
وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ
مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا
بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ
لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي
فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ
أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ
خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا
فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ
ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا
الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ
السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن
جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي
صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا
أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا
قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا
وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ
أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا
مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا
كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ

وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا
رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا
وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾
هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ
فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ
عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ
ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ
أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ
ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ
قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

المفردات

بدأ الشيءَ: أنشأه واخترعه.

الجَمَلَ: الحيوان المعروف، وجَمْعُه: جِمالٌ وأَجْمُلٌ، ولا يُسمَّى جملاً حتى يبلغ أربعَ سنين. والجُمَّل: حَبْلُ السفينة. ولغاتُه تأتي في المركَّبات.

سَمُّ الخِيَاط: ثُقْبُه، وتضمُّ سينُ «سم» وتُفتح وتُكسر، وكلُّ ثقبٍ في أَنْفٍ أو أذنٍ أو غيرِ ذلك فالعربُ تسمِّيه سمًّا. والخِيَاط: المِخْيَط، وهما آلتان ك: إزار ومِئْزر، ولحاف ومِلْحف، وقِناع ومِقْنع.

الغِلّ: الحقد والإِحْنَةُ الخفيَّةُ في النفس، وجمعُها: غِلال، ومنه الغُلول: أخْذٌ في خفاء.

نعم: حرفٌ يكون تصديقاً لإثباتٍ محضٍ، أو لمَا تضمَّنه استفهامٌ، وكَسْرُ عينها لغةٌ لقريشٍ، وإبدالُ عينها بالحاء لغةٌ، ووقوعُها جواباً بعد نفيٍ يراد به التقريرُ نادرٌ.

الأعراف: جمعُ عُرْفٍ، وهو المرتفعُ من الأرض، قال الشاعر:

كُـلٌّ كِـنَـازٍ لـحـمُـه نِـيـافِ
كـالـجـبـلِ الـمُـوْفـي عـلـى الأعـرافِ[1]

---

(١) الرجز في مجاز القرآن ١/ ٢١٥، وتفسير الطبري ١٠/ ٢٠٩، وتفسير الثعلبي ٢/ ٤٢، =

وقال الشمَّاخ:

فظلَّت بأعرافٍ تعالى[١] كأنها رماحٌ نحاها وجهةَ الريح راكِزُ[٢]

ومنه: عُرْفُ الفرس وعُرْفُ الديك، لعلوِّهما.

السِّتَّة: رتبةٌ من العدد معروفةٌ، وأصلُها: سِدْسة، فأَبْدَلوا من السين تاءً، ولزم[٣] الإبدالُ، ثم أدغموا الدالَ في التاء بعد إبدالِ الدالِ بالتاء، ولزم الإدغام. وتصغيره: سُدَيْس وسُدَيْسة.

الحثُّ: الإعجال، حَثَثْتُ فلاناً فاحْتَثَّ؛ قاله الليث، وقال: فهو حثيثٌ ومحثوث[٤].

* * *

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ قال ابن عباس: «القسط» هنا: لا إله إلا الله[٥]. لأنَّ أسباب الخير كلَّها تنشأ عنها. وقال عطاء والسدِّي: العدل، وما يَظْهر في المعقول كونُه حسناً صواباً[٦]. وقيل: الصدق والحقّ.

= والمحرر الوجيز ٢/ ٤٠٤، وزاد المسير ٣/ ٢٠٥، واللسان (نوف). وروايته في المصادر عدا المحرر: كالعَلَم، بدل: كالجبل، وهما بمعنى. والكناز: المجتمِعُ اللحم القويَّةُ. والنياف: الطويل في ارتفاع. اللسان (كنز) و(نوف).

(١) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: تعادى. وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) ديوان الشماخ ص٢٠١، ومجاز القرآن ١/ ٢١٥، ونفسير الطبري (تحقيق محمود شاكر) ١٢/ ٤٤٩، وتفسير الثعلبي ٢/ ٢٤، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٠٤. وجاء في الطبري: تغالى، وفي الديوان والمجاز: تفالى. ورواية الديوان: وظلت تَفَالى باليفاع كأنها، فلا شاهد فيه. وتفالت الحمر: احتكَّت كأن بعضها يَفلي بعضاً. اللسان (فلا). والبيت في صفة حمر الوحش بعد أن عادت من رحلتها الطويلة في طلب الماء. وهو في الاختيارين للأخفش ص٦، والأساس واللسان (سبب) برواية: مسبَّبةٌ قُبُّ البطون كأنها. . . ، يصف سِمَنها وجودتها، فَمَن نظر إليها سبَّها وقال: قاتلها الله ما أجودها!

(٣) في (ب): ولزموا.

(٤) تفسير الرازي ١٤/ ١١٧.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ١٥٦، وتفسير الرازي ١٤/ ٥٧.

(٦) تفسير الرازي ١٤/ ٥٧، وتحرفت كلمة المعقول في (أ) و(ب) و(د١) و(ع) إلى: القول. وأخرجه عن السدي الطبري ١٠/ ١٣٩ مختصراً بلفظ: العدل.

﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ «وأقيموا» معطوفٌ على ما ينحلُّ إليه المصدر الذي هو «القسط»، أي: بأنْ أقْسِطوا وأقيموا، وكما ينحلُّ المصدر لـ«أنْ» والفعلِ الماضي، نحو: عجبتُ من قيام زيدٍ وخَرَجَ، أي: من أنْ قام وخَرَجَ، ولـ: «أنْ» والمضارع نحو:

لَلُبْسُ عباءةٍ وتَقَرَّ عيني[(١)]

أي: لَأَنْ ألبسَ عباءةً وتقرَّ عيني كذلك ينحلُّ لـ«أنْ» وفعلِ الأمر، ألا ترى أنَّ «أنْ» توصَلُ بفعلِ الأمر نحو: كتبتُ إليه بأنْ قُمْ، كما توصَلُ بالماضي والمضارع، بخلافِ «ما» المصدرية فإنها لا توصَلُ بفعلِ الأمر، وبخلافِ «كي» إذا لم تكن حرفَ جرٍّ[(٢)] وكانت مصدريةً فإنها توصَلُ بالمضارع فقط.

ولمَّا أشْكَلَ هذا التخريجُ جعل الزمخشريُّ «وأقيموا» على تقديرِ: وقل، فقال: وقُلْ أقيموا[(٣)]. فيَحْتَمِلُ قولُه: وقُلْ أقيموا، أن يكون «أقيموا» معمولاً لهذا الفعل [غير][(٤)] الملفوظِ به، ويَحتمِلُ أن يكون قولُه: «وأقيموا» معطوفاً على «أَمَر ربِّي بالقسط» فيكون معمولاً لـ«قلْ» الملفوظِ بها أولاً، وقدَّرها ليبيِّن أنها معطوفةٌ عليها. وعلى ما خرَّجناه نحن يكون في حيِّز[(٥)] معمولِ «أَمَر».

وقيل: «وأقيموا» معطوفٌ على أمرٍ محذوفٍ تقديره: فأقْبِلوا وأقيموا.

وقال ابن عباس والضحاك واختاره ابن قتيبة: المعنى: إذا حضرت الصلاةُ فصلُّوا في كلِّ مسجدٍ، ولا يقُلْ أحدكم: أصلِّي في مسجدي[(٦)].

---

(١) وعجزه: أحبُّ إليَّ من لُبْسِ الشُّفوف، والبيت لميسون بنت بحدل الكلبية، وسلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩].
(٢) في المطبوع: إذا لم تكن حرفاً.
(٣) الكشاف ٢/ ٧٥.
(٤) زيادة يقتضيها السياق، وينظر الدر المصون ٥/ ٢٩٦.
(٥) في (أ) و(د١) و(د٣) و(ع) والمطبوع: خبر، وسقط هذا الموضع من (ب). والمثبت من (يه)، وهو الموافق لما في الدر اللقيط على هامش البحر ٤/ ٢٨٧، وهو الصواب.
(٦) زاد الميسر ٣/ ١٨٥، وذكره عن الضحاك الثعلبي ٢/ ١٦. وقول ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن ص١٦٧.

وقال مجاهد والسدِّيُّ وابنُ زيد: معناه: توجَّهوا حيث كنتُم في الصلاة إلى الكعبة[١].

وقال الربيع: اجعلوا سجودَكم خالصاً لِلّهِ دون غيره[٢].

وقيل: معناه: اقصدوا المسجد في وقتِ كلِّ صلاةٍ، أَمْراً بالجماعة؛ ذكره الماوَرْديّ[٣].

وقيل معناه: إذا كان في جواركم مسجدٌ فأقيموا الجماعةَ فيه ولا تتجاوَزوا إلى غيره، ذكره التبريزي.

وقيل: هو أمرٌ بإحضارِ النية لله في كلِّ صلاةٍ والقَصْدِ نحوَه، كما تقول: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ الآية [الأنعام: ٧٩] قاله الربيع أيضاً[٤].

وقيل: معناه إباحةُ الصلاة في كلِّ موضعٍ من الأرض، أي: حيثما كنتُم فهو مسجدٌ لكم يلزمُكم عنده الصلاةُ وإقامةُ وجوهِكم فيه لله، وفي الحديث: «جُعِلَتْ لي الأرضُ مسجداً، فأيُّما رجلٍ أدركتْه الصلاةُ فليصلِّ حيث كان»[٥].

وقال الزمخشريُّ: أي: اقْصِدوا عبادتَه مستقيمين إليه غيرَ عادِلِينَ إلى غيرها، «عند كلِّ مسجد» في وقتِ كلِّ سجودٍ وفي كلِّ مكانِ سجودٍ، وهو الصلاة[٦].

«وادْعُوه مُخْلِصينَ له الدِّين» قيل: الدعاءُ على بابه أمر به مقروناً بالإخلاص لأنَّ دعاءَ مَن لا يُخْلِصُ الدِّينَ لله لا يجاب. وقيل: معناه: اعبدوه. وقيل: قولوا: لا إله إلا الله.

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ قال ابن عباس ومجاهدٌ والحسن وقتادة: هو إعلامٌ بالبعث، أي: كما أَوْجَدَكم واخترعكم، كذلك

---

(١) تفسير الطبري ١٠/ ١٤٠-١٤١، وزاد الميسر ٣/ ١٨٥.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) في النكت والعيون ٢/ ٢١٧.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩١.

(٥) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٦) الكشاف ٢/ ٧٥، وفيه: . . . مستقيمين إليها غير عادلين. . .

يُعيدكم بعد الموت[1]. ولم يذكر الزمخشريُّ غيرَ هذا القول؛ قال: كما أنشأكم ابتداءً يعيدكم، احْتَجَّ عليهم في إنكارهم الإعادةَ بابتداءِ الخلق، والمعنى: إنه يعيدُكم فيجازيكم على أعمالكم، فأَخْلِصوا له العبادة[2]. انتهى.

وهذا قولُ الزجَّاج، قال: كما أحياكم في الدنيا يحييكم في الآخرة، وليس بَعْثُكم بأشدَّ من ابتداءِ إنشائكم، وهذا احتجاجٌ عليهم في إنكارهم البعث[3]. انتهى.

وقال ابن عباس أيضاً، وجابر بنُ عبد الله، وأبو العالية، ومحمد بن كعب، وابنُ جُبيرٍ، والسدِّيُّ، ومجاهدٌ أيضاً، والفرَّاء، ورُوي معناه عن الرسول: إنه إعلامٌ بأنَّ مَن كُتب عليه أنه من أهل الشقاوة والكفر في الدنيا هم أهلُ ذلك في الآخرة، وكذلك مَن كُتب له السعادةُ والإيمان في الدنيا هم أهلُ ذلك في الآخرة، لا يتبدَّلُ شيءٌ ممَّا أَحْكَمَه ودبَّره تعالى[4]. ويؤيِّد هذا المعنى قراءةُ أبيٍّ: «تعودون فريقين فريقاً هدى وفريقاً حقَّ عليهم الضلالة»[5].

وعلى هذا المعنى يكون الوقفُ على «تعودون» غيرَ حَسَنٍ؛ لأنَّ «فريقاً» نصبٌ على الحال، و«فريقاً» عطفٌ عليه، والجملةُ مِن «هَدَى» ومن «حَقَّ» في موضع الصفة لمَا قبله، وقد حُذف الضمير من جملة الصفة، أي: هداهم. وجوَّز أبو البقاء أن يكون «فريقاً» مفعولَ «هدى»، و«فريقاً» مفعولَ «أَضَلَّ» مضمرةً، والجملتان الفعليتان حالٌ، و«هَدَى» على إضمارِ «قد»، أي: تعودون قد هَدَى فريقاً وأضلَّ فريقاً[6].

---

(١) أخرجه عنهم الطبري ١٠/ ١٤٥-١٤٦، والكلام من المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٢.
(٢) الكشاف ٢/ ٧٥-٧٦.
(٣) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٣١، وليس فيه سوى قوله: أي: فليس بعثكم بأشد من ابتدائكم.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٢، وأخرجه عنهم الطبري ١٠/ ١٤٢-١٤٥. وقول الفراء في معاني القرآن ١/ ٣٧٦. والحديث الذي أشار إليه أخرجه مسلم (٢٨٧٨)، والطبري ١٠/ ١٤٤ من حديث جابر، ولفظه: «يُبعث كلُّ عبدٍ على ما مات عليه».
(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٧٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٩٢.
(٦) الإملاء ١/ ٢٧١.

وعلى المعنى الأول يَحْسُنُ الوقفُ على «تعودون»، ويكون «فريقاً» مفعولاً بـ«هدى»، ويكون «وفريقاً» منصوباً بإضمارِ فعلٍ يفسِّره قولُه: «حقَّ عليهم الضلالة»[(١)].

وقال الزمخشري: «فريقاً هَدَى» وهم الذين أسلموا، أي: وفَّقهم للإيمان، «وفريقاً حقَّ عليهم الضلالةُ»، أي: كلمةُ الضلالة، وعَلِمَ الله تعالى أنهم يَضِلُّون ولا يهتدون، وانتصابُ قوله تعالى: «وفريقاً» بفعلٍ يفسِّره ما بعده، كأنه قيل: وخَذَلَ فريقاً حقَّ عليهم الضلالة[(٢)]. انتهى، وهي تقاديرُ على مذهب الاعتزال.

وقيل: المعنى: تعودون لا ناصرَ لكم ولا مُعِينَ؛ كقوله[(٣)]: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقال الحسن: كما بدأكم من التراب يُعيدكم إلى التراب[(٤)].

وقيل: معناه: كما خلقكم عراةً تُبعثون عراةً.

ومعنى «حقَّ عليهم الضلالة» أي: حقَّ عليهم من الله، أو: حقَّ عليهم عقوبةُ الضلالة، هكذا قدَّره بعضُهم.

وجاء إسنادُ الهُدَى إلى الله ولم يَجِئْ مقابِلَه: وفريقاً أضلَّ، لأن المَسَاقَ مساقُ مَن نُهي عن أن يفتنه الشيطانُ، وإخبار أنَّ الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون، وأنَّ الله لا يأمر بالفحشاء، وأَمَرَ بالقسط وإقامةِ الصلاة، فناسَبَ هذا المساقُ أن لا يُسْنَدَ إليه تعالى الضلالُ وإن كان تعالى هو الهادي وفاعِلُ الضلالة، فلذلك[(٥)] عَدَلَ إلى قوله: «حقَّ عليهم الضلالة».

﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: إنَّ

---

(١) والجملتان الفعليتان على هذا مستأنفتان. ينظر الدر المصون ٥/ ٢٩٩.

(٢) الكشاف ٢/ ٧٦.

(٣) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: لقوله.

(٤) لم نقف عليه عن الحسن، وأخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٤٦٣-١٤٦٤ عن الربيع، وذكره الثعلبي ٣/ ١٧عن قتادة.

(٥) في (أ) والمطبوع: فكذلك.

الفريق الضالَّ اتَّخذوا الشياطين أولياء، أي[١]: أنصاراً وأعواناً يتولَّونهم وينتصرون بهم، كقول بعضهم: اعْلُ هُبَل اعْل هُبَل.

والظاهرُ أنَّ المراد حقيقةُ «الشياطين»، فهم يعينونهم على كفرهم، والضالُّون يتولَّونهم بانقيادهم إلى وسوستهم.

وقيل: «الشياطين» أحبارُهم وكبراؤهم.

قال الطبري: وهذه الآيةُ دليلٌ على خطأ قولِ مَن زَعَم أنَّ الله تعالى لا يعذِّب أحداً على معصيةٍ رَكِبها أو ضلالةٍ اعْتَقَدها إلَّا أن يأتيها على عِلْم منه بموضع الصواب[٢]. انتهى، ووجْهُ الدلالة قولُه: «ويحسبون» والمَحْسَبةُ الظنُّ لا العلم.

وقرأ العباس بن الفضل، وسهل بن شعيب، وعيسى بن عمر: «أنهم اتخذوا» بفتح الهمزة[٣]، وهو تعليلٌ لحقِّ الضلالةِ عليهم، والكسرُ يَحتملُ الاستئنافَ ويَحتمِلُ[٤] التعليل من حيث المعنى.

وقال الزمخشري: أي: تولَّوهم بالطاعة فيما أمروهم به، وهذا دليلٌ على أنَّ عِلْمَ الله تعالى لا أثر له في ضلالهم، وأنهم هم الضالُّون باختيارهم وتولِّيهم الشياطينَ دون الله تعالى[٥]. انتهى، وهو على طريقة الاعتزال.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ كان أهلُ الجاهلية يطوفون بالبيت عراةً، وكانوا لا يأكلون في أيام حجِّهم دسماً ولا ينالون من الطعام إلَّا قُوتاً تعظيماً لحجِّهم، فنزلت[٦].

وقيل: كان أحدُهم يطوفُ عرياناً ويَدَعُ ثيابَه وراء المسجد، وإن طاف وهي عليه ضُرب وانتُزِعَتْ منه، لأنهم قالوا: لا نعبد الله في ثيابٍ أذنبنا فيها. وقيل:

---

(١) قوله: أي، ليس في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع.
(٢) تفسير الطبري ١٠/١٤٩، والمحرر الوجيز ٢/٣٩٢، وعنه نقل المصنف.
(٣) المحرر الوجيز ٢/٣٩٢.
(٤) قوله: الاستئناف ويحتمل، ليس في (أ) والمطبوع.
(٥) الكشاف ٢/٧٦.
(٦) أخرج نحوه الطبري ١٠/١٥٥ عن السُّدي، وينظر ما سيرد من أخبار في تفسير هذه الآية.

تفاؤلاً؛ ليتعرَّوا من الذنوب كما تعرَّوا من الثياب(١).

والزينة: فِعْلة من التزيُّن، وهو اسمُ ما يُتَجمَّلُ به من ثيابٍ وغيرها، كقوله: ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ [يونس: ٢٤] أي: بالنبات.

والزينةُ هنا المأمورُ بأَخْذِها هو ما يستر العورةَ في الصلاة، قاله مجاهدٌ والسدِّيُّ والزجَّاج(٢).

وقال طاوس: الشَّمْلةُ من الزينة.

وقال مجاهد: ما وارَى عورتَك ولو عباءةً فهو زينةٌ(٣).

وقيل: ما يستر العورةَ في الطَّواف. وفي «صحيح مسلم» عن عُروةَ: أنَّ العرب كانت تطوف عراةً إلا الحُمْسَ وهم قريش، إلَّا أنْ تعطيهم الحمسُ ثياباً، فيُعْطي الرجالُ الرجالَ والنساءُ النساءَ(٤).

وفي غير «مسلم»: مَن لم يكن له صديقٌ بمكة يُعِيرهُ ثوباً طاف عرياناً، أو في ثيابه، وألقاها بعدُ فلا يَمسُّها أحدٌ وتُسمَّى اللَّقَى، وقال بعضهم:

كَفَى حَزَناً كَرِّي عليه كأنَّه ... لَقىً بين أيدي الطائفين حَرِيمُ

وكانت المرأة تُنْشِدُ وهي تطوفُ عريانةً:

اليومَ يبدو بعضُه أو كلُّه ... وما بدا منه فلا أُحِلُّه(٥)

---

(١) الكشاف ٢/٧٦، ونسب القول الأول لطاوس. وقد وقع بعد قوله: يطوف عرياناً، خرم في (د٣)، وينتهي عند قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٣].

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٣٢، وذكره عنه وعن مجاهدٍ الماورديُّ في النكت والعيون ٢/٢١٨، وابنُ الجوزي في زاد المسير ٣/١٨٧، وأخرجه عن السديِّ الطبريُّ ١٠/١٥٣-١٥٤ بلفظ: ما يواري العورة عند كل مسجد.

(٣) أخرج القولين الطبري ١٠/١٥٢و ١٥٣.

(٤) صحيح مسلم (١٢١٩): (١٥٢).

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٠٢-٢٠٣، وأحكام القرآن لابن العربي ٢/٧٦٧-٧٦٩، وتفسير القرطبي ٩/١٩٢-١٩٣. وأخرج مسلم (٣٠٢٨) عن ابنِ عباس ﵄: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة، فتقول: مَن يُعيرني تِطْوافاً؟ تجعله على فرجها. وتقول: اليوم يبدو...، فنزلت هذه الآية ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

فلمَّا بَعَثَ الله رسولَه ﷺ وأُنزل عليه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ أذَّن مؤذِّنُ الرسول: أَلَا لا يحجُّ البيتَ بعد العام مشركٌ، ولايطوفُ بالبيت عُرْيانٌ[(١)]. وكان النداءُ بمكة سنةَ تسعٍ.

وقال عطاءٌ وأبو رَوْق: تسريح اللِّحَى وتنويرُها بالمشط والتَّرجيل.

وقيل: التزيُّنُ بأجمل اللباس في الجُمَعِ والأعياد؛ ذكره الماورديُّ[(٢)].

وقيل: رفعُ اليدين في تكبيرةِ الإحرام والركوعِ والرَّفْعِ منه.

وقيل: إقامة الصلاة في الجماعة بالمساجد، وكان ذلك زينةً لهم لمَا في الصلاة من حُسْنِ الهيئة ومشَابَهَةِ صفوف الملائكة، ولمَا فيها من إظهارِ الألفة وإقامةِ شعائر الدِّين.

وقيل: لبس النعال في الصلاة، وفيه حديثٌ عن أبي هريرة؛ وقال ابن عطية: وما أحسبُه يصح[(٣)].

وقال أيضاً: الزينة هنا الثيابُ الساترة، ويدخل فيها ما كان من الطِّيب للجمعة، والسِّواكُ، وبدلُ الثياب، وكلُّ ما وُجد استحسانُه في الشريعة ولم يُقصد به الخُيَلاء و«عند كلِّ مسجد» يريدُ: عند كلِّ موضعِ سجودٍ. فهو[(٤)] إشارةٌ إلى الصلوات وسترِ العورة فيها، [هذا] هو مُهِمُّ الأمر، ويدخل مع[(٥)] الصلاة مواطنُ الخير كلُّها، ومع

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩)، ومسلم (١٣٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في النكت والعيون ٢/ ٢١٨.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٢، وهو كما قال، فقد أخرجه ابنُ عدي في الكامل ٥/ ١٨٢٩ و٦/ ٢١٧١ بإسنادين: الأول فيه علي بن أبي علي القرشي، وهو مجهول ومنكر الحديث كما قال ابن عدي، والثاني فيه محمد بن الفضل بن عطية، قال عنه ابن معين كما نقل ابن عدي: ليس بشيء ولا يكتب حديثه. وأخرجه أيضاً ابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ٧٩، ونقل عن أحمد قوله: محمد بن الفضل ليس بشيءٍ، حديثه حديث أهل الكذب. وقال أبو حاتم عن حديث أبي هريرة كما في العلل لابنه ١/ ١٤٩: هذا حديث منكر. اهـ.
وأخرجه ابن الجوزي أيضاً في الموضوعات ٣/ ٨٠ من حديث أنس رضي الله عنه، وقال: لا يصح.

(٤) قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾، وجاء في المحرر: وهي، يعني الآية. فالمقصود واحدٌ في كلا اللفظين.

(٥) في (أ) والمطبوع: في، وفي (د١) و(ع): من، وكلاهما تصحيف.

سترِ العورة ما ذكرنا من الطِّيب للجمعة[١]. انتهى.

وقال الزمخشري: «خذوا زينتكم» أي: ريشَكم ولباسَ زينتكم، «عند كلِّ مسجدٍ» كلَّما صلَّيتُم، وكانوا يطوفون عراةً[٢]. انتهى.

والذي يظهرُ أنَّ الزينة هو ما يُتَجمَّل به ويُتزيَّنُ عند الصلاة، ولا يدخل فيه ما يستر العورة؛ لأنَّ ذلك مأمورٌ به مطلقاً، ولا يختصُّ بأنْ يكون ذلك عند كلِّ مسجدٍ. ولفظةُ «كلِّ مسجد» تأبَى[٣] أن يكون أيضاً ما يستر العورة في الطواف؛ لعمومه، والطوافُ إنما هو لخاصٍّ وهو المسجدُ الحرام، وليس بظاهرٍ حَمْلُ العموم على كلِّ بقعةٍ منه. وأيضاً فـ«يا بني آدم» عامٌّ، وتقييدُ الأمر بما يستر العورة في الطواف مُفْضٍ إلى تخصيصه بمن يطوفُ بالبيت.

وقال أبو بكر الرازي[٤]: في الآية دليلٌ على فرضِ سترِ العورة في الصلاة، وهو قولُ [أبي حنيفة وأبي يوسفَ وزُفَرَ ومحمدٍ والحسن بنِ زياد والشافعيِّ]؛ لقوله: «عند كلِّ مسجدٍ»، علَّق الأمرَ به فدلَّ على أنه الستر للصلاة. وقال مالكٌ والليث: كشفُ العورة حرامٌ[٥]، ويُوْجِبان الإعادةَ في الوقت استحباباً إنْ صلَّى مكشوفَها.

وقال الأبهري: هي فرضٌ في الجملة، وعلى الإنسان أن يسترها في الصلاة وغيرِها، وهو الصحيحُ؛ لقوله ﷺ للمِسْوَر بنِ مَخْرَمة: «ارْجِعْ إلى قومك ولا تمشوا عراةً» أخرجه مسلم[٦].

«وكلوا واشربوا» قال الكلبي: معناه: كلوا من اللَّحم والدَّسم واشربوا من الألبان، وكانوا يحرِّمون جميعَ ذلك في الإحرام[٧].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٢، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) الكشاف ٢/ ٧٦.

(٣) في (أ) والمطبوع: تأتي، وهي ساقطة من (ب)، والمثبت هو الصواب.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ٣١، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٥) في أحكام القرآن: وقال مالك والليث: الصلاة مُجْزِيَةٌ مع كشف العورة.

(٦) برقم (٣٤١)، والكلام منقول من تفسير القرطبي ٩/ ١٩٣، ولفظ الخبر في المصدرين: «ارجع إلى ثوبك فخذه، ولا تمشوا عراة».

(٧) ينظر تفسير الثعلبي ٢/ ١٨، وأسباب النزول للواحدي ص٢٢٢، وتفسير البغوي ٢/ ١٥٧=

وقال السُّدِّي: كلوا من البَحِيرة وأَخَواتها.

والظاهرُ أنه أمرٌ بإباحةِ الأكل والشربِ مِن كلِّ ما يمكن أن يؤكَلَ أو يُشْرَبَ مما لم[١] يُحظر أكلُه وشربُه في الشريعة، وإن كان النزولُ على سببٍ خاصٍّ، كما ذكروا من امتناع المشركين من أكل اللَّحم والدَّسم أيامَ إحرامهم، أو بني عامرٍ دون سائرِ العرب من ذلك، وقولِ المسلمين بذلك[٢].

والنهيُ عن الإسراف يدلُّ على التحريم؛ لقوله: «إنه لا يحبُّ المسرفين». قال ابن عباس: الإسراف: الخروجُ عن حدِّ الاستواء. وقال أيضاً: لا تسرفوا في تحريم ما أُحِلَّ لكم[٣]. وقال أيضاً: كُلْ ما شئتَ والْبَسْ ما شئت ما أخطأَتْكَ خصلتَان: سَرَفٌ ومَخِيلةٌ[٤].

وقال ابن زيد: الإسرافُ: أكلُ الحرام[٥].

وقال الزجَّاج: الإسرافُ: الأكلُ من الحلال فوق الحاجة[٦].

وقال مقاتل: الإسراف: الإشراك[٧].

وقيل: الإسراف: مخالفةُ أمرِ الله في طوافهم عراةً يصفِّقون ويصفرون.

وقال ابنُ عباس أيضاً: ليس في الحلال سَرَفٌ، إنما السَّرفُ في ارتكاب

= وهذا منقول عن الكلبي بالمعنى، وسأورد قريباً نص كلامه نقلاً عن المصادر المذكورة.

(١) قوله: لم، ساقط من (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع.

(٢) يشير إلى ما أورده الثعلبي والواحدي والبغوي -وسلف تخريجه قريباً- عن الكلبي قال: كانت بنو عامر لا يأكلون من الطعام إلا قوتاً، ولا يأكلون دسماً في أيام حجِّهم، يعظِّمون بذلك حجَّهم، فقال المسلمون: يا رسول الله نحن أحقُّ أن نفعل ذلك. فأنزل الله تعالى: ﴿وَكُلُواْ﴾ يعني اللحم والدسم ﴿وَاشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾.

(٣) لم نقف عليهما عن ابن عباس، وأخرج الثاني الطبري ١٠/ ١٥٥عن السدي.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٥٣٧٥)، وأورده البخاري تعليقاً في كتاب اللباس من صحيحه قبل الحديث (٥٧٨٣)

(٥) أخرجه الطبري ١٠/١٥٦.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٣٣.

(٧) زاد المسير ١٠/١٨٨.

المعاصي. قال ابن عطية[١]: يريد في الحلال القَصْد، واللفظةُ تقتضي النهيَ عن السَّرَف مطلقاً، فمَن تلبَّس بفِعْل حرام فتأوَّل تلبُّسَه به حَصَلَ من المسرفين وتوجَّه النهيُ عليه، ومَن تلبَّس بفعل مباح، فإنْ مشى فيه على القَصْد وأوساطِ الأمور فحسَنٌ، وإنْ أفرط حتى دخلَ الضررُ حَصَلَ أيضاً من المسرفين وتوجَّه النهيُ عليه، مثال ذلك: أن يُفْرِطَ في شراء ثيابٍ أو نحوِها ويستنفدَ في ذلك جلَّ مالَه، أو يعطي مالَه أجمعَ ويكابِدَ بعياله الفقرَ بعد ذلك، أو نحوه، فالله عزَّ وجل لا يحبُّ شيئاً من هذا، وقد نهت الشريعةُ عنه. انتهى.

وحكى المفسِّرون هنا أن نصرانيًّا طبيباً للرشيد أنكر أن يكون في القرآن أو في حديث الرسول ﷺ شيءٌ من الطبِّ، فأُجيبَ بقوله: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ وبقوله: «المعدةُ بيتُ الدَّاء، والحميةُ رأسُ كلِّ دواءٍ، وأَعْطِ كلَّ بدنٍ ما عوَّدْتَه» فقال النصراني: ما ترك كتابُكم ولا نبيُّكم لجالينوس طبًّا[٢].

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ زينةُ الله: ما حسَّنتْه الشريعةُ وقرَّرته ممَّا يُتجمَّل به من الثياب وغيرِها، وأُضيفتْ إلى الله لأنه هو الذي أباحَها. و«الطيبات»: هي المُسْتَلَذَّاتُ من المأكول والمشروب بطريقِهِ وهو الحِلُّ.

وقيل: «الطيبات»: المحلَّلات.

ومعنى الاستفهامِ إنكارُ تحريم هذه الأشياء، وتوبيخُ مُحرِّميها، وقد كانوا يحرِّمون أشياءَ من لحوم الطيبات وألبانها، والاستفهامُ إذا تَضَمَّنَ الإنكارَ لا جوابَ له، وتَوهُّمُ مكِّيٍّ هنا أنَّ له جواباً هنا وهو قوله: «قل هي» توهُّمٌ فاسدٌ[٣].

---

(١) في المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٣، وعنه نقل المصنف قول ابن عباس.

(٢) ذكر القصة الزمخشري في الكشاف ٢/ ٧٦، وابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ١٨٨ وقال: هكذا نقلت هذه الحكاية، إلا أن الحديث المذكور فيها عن النبي ﷺ لا يَثْبُت. وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٦٤ عن القصة: لم أجد لها إسناداً. وعن الحديث: لم أجده. وقال السخاوي في المقاصد الحسنة ص٣٨٩: لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ، بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب، أو غيره. اهـ. وجالينوس فيلسوف يوناني له كتب في صناعة الطب وغيرها، وكان -كما ذكر المسعودي- بعد المسيح بنحو مئتي سنة، وبعد بقراط بنحو ست مئة سنة. أخبار العلماء للقفطي ص٨٦.

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٣.

ومعنى أخرج: أبرزَها وأظهرها. وقيل: فصَّل حلالها من حرامها.

﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قرأ قتادة: «قل هي لمن آمَنَ»(١)، وقرأ نافع: «خالصةٌ» بالرفع، وقرأ باقي السبعة بالنصب(٢).

فأما النصبُ فعلى الحال، والتقدير: قل هي مستقرَّةٌ للذين آمنوا في حال خلوصها لهم يومَ القيامة، وهي حالٌ من الضمير المتسكنِّ في الجارِّ والمجرور الواقعِ خبراً لـ«هي»، وفي الحياة» متعلقٌ بـ«آمنوا»(٣).

وأما الرفعُ فجوَّزوا فيه أن يكون خبراً لـ«هي»، و«الذين آمنوا» متعلِّقٌ بـ«خالصةٌ»، و«في الحياة الدنيا» متعلِّقٌ بـ«آمَنوا» ويصير المعنى: قل هي خالصةٌ يومَ القيامة لمن آمَنَ في الدنيا، ولا يُعْنَى بـ«يوم القيامة» وقتُ الحساب. وخلوصُها كونُهم لا يعاقَبون عليها، وإلى هذا المعنى يشير تفسير ابن جبير(٤).

وجوَّزوا فيه أن يكون خبراً بعد خبرٍ، والخبرُ الأولُ هو «للذين آمنوا»، و«في الحياة الدنيا» متعلِّقٌ بما تعلَّق به «للذين» وهو الكونُ المطلَقُ، أي: قل هي كائنةٌ في الحياة الدنيا للمؤمنين وإنْ كان يَشْرَكُهم فيها في الحياة الدنيا الكفارُ، وخالصةٌ لهم يومَ القيامة(٥)، ويرادُ بـ«يوم القيامة» استمرارُ الكون في الجنة، وهذا المعنى من أنها لهم ولغيرهم في الدنيا خالصةٌ لهم يومَ القيامة هو قولُ ابنِ عباس والضحاك وقتادةَ والحسنِ وابنِ جُريجٍ وابنِ زيد(٦)، وعلى هذا المعنى فسَّر الزمخشري(٧).

فإن قلتَ: إذا كان معنى الآيةِ أنها لهم في الدنيا على الشركة بينهم وبين الكفار، فكيف جاء «قل هي للذين آمنوا»؟

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٣ عن قتادة والكسائي.

(٢) السبعة ص٢٨٠، والتيسير ص١٠٩.

(٣) ويجوز أيضاً تعلُّقه بالاستقرار المتعلق به «للذين». ينظر الدر المصون ٥/ ٣٠٢.

(٤) فإنه قال: ينتفعون بها في الدنيا، ولا يتبعهم إثمها. تفسير الطبري ١٠/ ١٦١-١٦٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٩٣.

(٥) ويجوز تعلُّق «في الحياة» بـ«آمنوا» على هذا الوجه أيضاً. ينظر الدر المصون ٥/ ٣٠٢.

(٦) تفسير الطبري ١٠/ ١٥٩-١٦١، والمحرر ٢/ ٣٩٣.

(٧) في الكشاف ٢/ ٧٦، وهذا المعنى يصلح أيضاً على الوجه الأول من وجوه القراءة بالرفع. ينظر الدر المصون ٢/ ٣٠١-٣٠٢.

فالجواب من وجوه:

أحدها: أنَّ في الكلام حذفاً، تقديره: قل هي للمؤمنين والكافرين في الدنيا خالصة للمؤمنين في القيامة لا يشارَكون فيها؛ قاله الكَرْماني.

الثاني: أنَّ ما تعلَّق به «للذين آمنوا» ليس كوناً مطلقاً بل كوناً مقيَّداً يدلُّ على حذفه مقابِلُه وهو «خالصة»، تقديره: قل هي غيرُ خالصةٍ للَّذين آمنوا؛ قاله الزمخشري، قال: قل هي للَّذين آمنوا في الحياة الدنيا غير خالصةٍ لهم لأن المشركين شركاؤهم فيها، خالصة يوم القيامة لا يشاركهم فيها أحدٌ[1].

ثم قال الزمخشريُّ: فإن قلتَ: هلَّا قيل: للذين آمنوا ولغيرهم؟ قلتُ: النيةُ[2] على أنها خُلقت للَّذين آمنوا على طريقة الأصالة، وأنَّ الكفرة تبعٌ لهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ [البقرة: ١٢٦] انتهى.

وجوابُ الزمخشريِّ هو للتبريزيِّ رحمه الله؛ قال التبريزيُّ: معنى الآية أنها خالصةٌ للمؤمنين في الآخرة لا يشركُهم الكفارُ فيها، هذا وإن كان مفهومُه الشركةَ بين الذين آمنوا والذين أشركوا، وهو كذلك لأنَّ الدنيا عَرَضٌ حاضرٌ يأكل منها البرُّ والفاجر، إلا أنه أضاف إلى المؤمنين ولم يذكر الشركة بينهم وبين الذين أشركوا في الدنيا تنبيهاً على أنه إنما خلقها للَّذين آمنوا بطريق الأصالة والكفارُ تبعٌ لهم فيها في الدنيا، ولذلك خاطبَ الله المؤمنين بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]. انتهى.

وقال أبو عليٍّ في «الحجة»: ويصحُّ أن يعلَّق قولُه: «في الحياة الدنيا» بقوله: «حرَّم»، ولا يصحُّ أن يتعلَّق [بـ«زينة» لأنها مصدر قد وُصف، ويصح أن يتعلَّق] بقوله: «أخرج لعباده»، ويجوزُ ذلك وإنْ فُصِلَ بين الصلة والموصول بقوله: «هي للَّذين آمنوا» لأن ذلك كلامٌ يشدُّ القصة وليس بأجنبيٍّ منها جدًّا، كما جاء ذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٧] فقوله: «وتَرْهَقُهم ذلة» معطوفٌ على «كسبوا» داخلٌ في الصلة، والتعلُّق بـ«أخرج» هو قولُ

(١) الكشاف ٢/ ٧٦.

(٢) كذا في النسخ، والذي في الكشاف: لينبه.

الأخفش، ويصح أن يتعلّق بقوله: «والطيبات»، ويصح أن يتعلق بقولهِ: «مِن الرزق»[١]. انتهى.

وتقاديرُ أبي عليّ والأخفش فيها تفكيكٌ للكلام وسلوكٌ به غيرَ ماتقتضيه الفصاحةُ، وهي تقاديرُ أعجميةٌ بعيدةٌ عن البلاغة لا تُناسبُ في كتاب الله، بل لو قدِّرَتْ في شعر الشَّنْفَرَى ما ناسَبت، والنحاةُ الصرفُ غيرُ الأدباء بمعزلٍ عن إدراك الفصاحة.

وأما تشبيهُه ذلك بقوله: «والذين كسبوا» فليس ما قاله بمتعيِّنٍ فيه، بل ولا ظاهر، بل قولُه: «جزاءُ سيئةٍ بمثلها» هو خبرٌ عن «الذين»[٢]، أي: جزاءُ سيئةٍ منهم بمثلها، وحُذف «منهم» لدلالة المعنى عليه، كما حُذف من قولهم: السَّمْنُ مَنَوانِ بدرهم، أي: منوان منه، وقولُه: «وترهقهم ذلة» معطوفٌ على «جزاء سيئة بمثلها»، وسيأتي توضيحُ هذا بأكثر في موضعه إن شاء الله تعالى.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣٢﴾ أي: مِثْلَ تفصيلنا وتقسيمنا السابقِ نقسِّمُ في المستقبل لقوم لهم علمٌ وإدراكٌ؛ لأنه لا ينتفع بذلك إلَّا مَن عَلِم؛ لقوله[٣]: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾ قال الكلبي: لمَّا لبِسَ المسلمون الثياب وطافوا بالبيت عيَّرهم المشركون بذلك، وقالوا: استَحَلُّوا الحرام، فنزلت[٤].

وتقدَّمَ تفسير الفواحش ما ظهر منها وما بطن في أواخر «الأنعام»، وزِيدَ هنا أقوال:

أحدها: «ما ظهر منها»: طوافُ الرجل بالنهار عرياناً، و«ما بطن»: طوافُها بالليل عاريةً؛ قاله التبريزي.

---

(١) الحجة ٤/ ١٤، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٩٤، وما سلف بين حاصرتين منهما، وكلام أبي علي منقول بواسطة ابن عطية.
(٢) قوله: الذين، تحرف في (أ) و(د١) و(ع) إلى: النهي.
(٣) في (ب) و(يه): كقوله.
(٤) تفسير القرطبي ٩/ ٢١٠.

وقال مجاهد: «ما ظهر»: طوافُ الجاهلية عراةً، و«ما بطن»: الزنى[١].

وقيل: «ما ظهر»: الظلم، و«ما بطن»: السرقة.

وقال ابن عباس ومجاهد في روايةٍ: «ما ظهر»: ما كانت تفعله الجاهلية من نكاح الأبناء نساءَ الآباء، والجمعِ بين الأختين، وأن تُنْكَحَ المرأةُ على عمتها وخالتها، و«ما بطن»: الزنى[٢].

و«الإثم» عامٌّ يشملُ الأقوال والأفعال التي يترتَّبُ عليها الإثمُ، هذا قولُ الجمهور.

وقيل: هو صغارُ الذنوب.

وقيل: الخمر. وهذا قولٌ لا يصحُّ هنا؛ لأن السورة مكية ولم تحرَّم الخمر إلا بالمدينة بعد أُحدٍ، وجماعةٌ من الصحابة اصطحبوها يومَ أحدٍ وماتوا شهداءَ وهي في أجوافهم[٣].

وأمَّا تسميةُ الخمر إثماً فقيل: هو من قول الشاعر:

شربتُ الإثمَ حتى زَلَّ عقلي[٤]

وهو بيتٌ مصنوعٌ مختلَقٌ، وإن صح فهو على حذفِ مضافٍ، أي: موجبَ الإثم.

ولا يدلُّ قولُ ابنِ عباسٍ والحسن: الإثم الخمر[٥]، على أنه اسمٌ من أسمائها؛ إذ يكون ذلك من إطلاق المسبَّب على السبب، وأنكر أبو العباس أن يكون الإثم من أسماء الخمر[٦].

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ١٦٣.

(٢) زاد المسير ٣/ ١٩٠ عن ابن عباس، وأخرجه عن مجاهد الطبري ٩/ ٦٦١.

(٣) أخرجه البخاري (٢٨١٥) و(٤٦١٨) من حديث جابر ﷺ دون قوله: وهي في أجوافهم. وينظر المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٥، والكلام منه.

(٤) وعجزه: كذاك الإثم تذهب بالعقول، وسلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾ [البقرة: ٢١٩].

(٥) تفسير البغوي ٢/ ١٥٨ عن الحسن، وزاد المسير ٣/ ١٩١ عن الحسن وعطاء، ولم نقف عليه عن ابن عباس ﵄.

(٦) زاد المسير ٣/ ١٩١، وأبو العباس هو المبرد.

وقال الفضل: الإثم: الخمر، وأنشد:

نـهـانـا رسـولُ الله أنْ نَـقْـرَبَ الـخَـنَـا وأن نشربَ الإثْمَ الذي يُوْجِبُ الوِزرا[١]

وأنشد الأصمعيُّ أيضاً:

ورحتُ حزيناً ذاهلَ العقل بعدهُمْ كأنِّي شربتُ الإثمَ أو مسَّني خَبَلْ[٢]

قال: وقد تُسمَّى الخمر إثماً، وأنشد:

شـربـتُ الإثـم حـتـى زلَّ عـقـلـي

وقال ابن عباس والفرَّاء: البغي: الاستطالة[٣].

وقال الحسن: السُّكْر من كلِّ شرابٍ.

وقال ثعلب: تكلُّمُ الرجل في الرجل بغير الحقِّ، إلا أن ينتصر منه بحقٍّ.

وقيل: الظلم والكبر؛ قاله الزمخشري، وقال: وأفرده بالذِّكر كما قال تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِۚ﴾ [النحل: ٩٠][٤].

وقال ابن عطية: البغي: التعدِّي وتجاوُزُ الحدِّ مبتدئاً كان أو منتصراً، وقوله: «بغير الحق» زيادةُ بيانٍ، وليس يُتصوَّرُ بغيٌ بحقٍّ؛ لأن ما كان بحقٍّ لا يسمَّى بغياً[٥].

وتقدَّم تفسير «ما لم ينزل به سلطاناً» في «الأنعام»[٦].

وقال الزمخشريُّ: فيه تهكُّمٌ؛ لأنه لا يجوز أن ينزل برهاناً بأنْ يُشْرَكَ به غيرُه[٧]. «ما لا تعلمون» من تحريم البحائر وغيرِها، وقال ابن عباس: أراد بذلك أنَّ الملائكة بناتُ الله[٨].

---

(١) أورده الطبرسي في مجمع البيان ٨/ ٤٩.
(٢) لم نقف عليه.
(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٧٨، ولم نقف عليه عن ابن عباس.
(٤) الكشاف ٢/ ٧٧.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٥.
(٦) عند تفسير الآية (٨١)، وينظر كذلك ما سلف عند تفسير الآية (١٥١) من آل عمران.
(٧) الكشاف ٢/ ٧٧.
(٨) لم أقف عليه.

وقيل: قولُهم: إنه حُرِّم عليهم مآكلُ وملابسُ ومشاربُ في الإحرام مِن قِبَلِ أنفسهم.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ هذا وعيدٌ لأهل مكة بالعذاب النازل في أجَلٍ معلوم عند الله كما نزل بالأمم، أي: أجَلٍ مؤقَّتٍ لمجيء العذاب إذا[1] خالفوا أمر ربِّهم، فأنتم أيتها الأمةُ كذلك.

وقيل: الأجَلُ هنا: أجَلُ الدنيا، التقدير: للأمم كلِّها أجلٌ، أي: يَقْدَمون فيه على ما قدَّموا من عملٍ.

وقيل: الأجلُ: مدةُ العمر، والتقدير: ولكلِّ واحدٍ من الأمة عمرٌ ينتهي إليه بقاؤه في الدنيا فإذا مات عَلِمَ ما كان عليه من حقٍّ أو باطل.

وقال ابن عطية: أي: فرقةٍ وجماعةٍ، وهي لفظةٌ تُستعمل في الكثير من الناس[2].

وقال غيره: والأمة: الجماعة قَلُّوا أو كَثُروا، وقد يُطْلَقُ على الواحد كقوله في قسِّ بن ساعدة: «يبعث يومَ القيامة أمةً وحده»[3].

وأُفرِدَ الأجَلُ لأنه اسمُ جنسٍ، أو لتقارُبِ أعمال أهل كلِّ عصرٍ، أو لكون التقدير: لكلِّ واحدٍ من أمة.

وقرأ الحسن وابن سيرين: «فإذا جاء آجالهم» بالجمع[4].

وقال: «ساعة» لأنها أقلُّ الأوقات في استعمال الناس، يقول المستعجِلُ لصاحبه: في ساعة، يريد: في أقصر وقت وأقربه؛ قاله الزمخشري[5].

---

(١) في (أ) و(ع): إذ.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٥.
(٣) أخرجه أحمد (١٦٤٨) من حديث ابن عباس ﷺ، وفي إسناده المسعودي، قال الذهبي في السير ١/ ١٢٩: المسعودي ليس بحجة.
(٤) المحتسب ١/ ٢٤٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٩٥.
(٥) الكشاف ٢/ ٧٧.

وقال ابن عطية: لفظٌ عُنيَ به الجزءُ القليلُ من الزمان، والمراد جميع أجزائه[(١)]. انتهى.

والمضارع المنفيُّ بـ«لا» إذا وقع في الظاهر جواباً لـ«إذا» يجوز أن يُتلقَّى بفاء الجزاء ويجوز أن لا يُتلقَّى بها، وينبغي أن يُعتقد أنَّ بين الفاء والفعل مبتدأً محذوفاً، وتكون الجملةُ إذ ذاك اسميةً، والجملةُ الاسميةُ إذا وقعت جواباً لـ«إذا» فلا بد فيها من الفاء أو «إذا» الفجائية.

قال بعضهم: ودخلت الفاء على «إذا» حيث وقع إلا في «يونس»[(٢)] لأنها عَطَفتْ جملةً على جملةٍ بينهما اتِّصالٌ وتعقيب، فكان الموضعُ موضعَ الفاء، وما في «يونس» يأتي في موضعه إن شاء الله. انتهى

وقال الحوفي: «ولا يستقدمون» معطوفٌ على «لا يستأخرون». انتهى.

وهذا لا يمكن لأن «إذا» شرطيةٌ فالذي يترتَّب عليها إنما هو مستقبَلٌ، ولا يترتَّب على مجيء الأجل في المستقبل إلا مستقبلٌ؛ وذلك يُتصوَّر في انتفاء الاستئخار لا في انتفاء الاستقدام؛ لأن الاستقدامَ سابقٌ على مجيء الأجل في الاستقبال، فيصير نظيرَ قولك: إذا قمتَ في المستقبل لم يتقدَّم قيامك في الماضي، ومعلومٌ أنه إذا قام في المستقبل لم يتقدم قيامُه هذا في الماضي[(٣)]، وهذا شبيهٌ بقول زهير:

بدا لي أنّي لستُ مُدرِكَ ما مضَى ... ولا سابقاً شيئاً إذا كان جائيا[(٤)]

ومعلومٌ أنَّ الشيء إذا كان جائياً إليه لا يسبقه.

والذي تُخرَّجُ عليه الآيةُ أنَّ قوله: «ولا يستقدمون» منقطعٌ من الجواب على

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٦.
(٢) الآية (٣٤)، وهي: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.
(٣) يعني أنه من باب الإخبار بالضروريات التي لا يجهل أحد معناها. الدر المصون ٥/ ٣٠٨.
(٤) ديوان زهير بشرح الأعلم ص١٦٩، والكتاب ١/ ١٦٥، والحلل للبطليوسي ص١١٠، وهو في الديوان بشرح ثعلب ص٢٨٧ برواية: ولا سابقي شيءٌ، وأشار المحقق في الحاشية إلى رواية: ولاسابقٍ شيئاً. قال البطليوسي: يجوز في «سابق» النصب بالعطف على «مدرك»، والرفع على إضمار مبتدأ، والخفض على توهُّم الباء في «مدرك».

سبيل استئنافِ إخبارٍ، أي: وهم لا يستقدمون الأجل، أي: لا يسبقونه، وصار معنى الآية: إنهم لا يسبقون الأجَلَ ولا يتأخَّرون[١] عنه.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ هذا الخطابُ لبني آدم؛ قيل: هو في الأزل، وقيل: هو مراعىً به وقتُ الإنزال، وجاء بصورة الاستقبال لتقْوَى الإشارةُ بصحة النبوة إلى محمدٍ ﷺ.

و«ما» في «إمَّا» تأكيدٌ، قال ابن عطية: وإذا لم يكن «ما» لم يَجُزْ دخولُ النون الثقيلة[٢]. انتهى.

وبعضُ النحويين يُجيز ذلك.

وجوابُ الشرط «فمن اتَّقى»، فيحتمل أن تكون «مَن» شرطيةً وجوابُه «فلا خوفٌ» وتكونُ هذه الجملةُ الشرطيةُ مستقلةً بجواب الشرط الأول من جهة اللفظ، ويحتمل أن تكون «مَن» موصولةً، فتكون هذه الجملةُ والتي بعدها من قوله: «والذين كذَّبوا» مجموعُها هو جوابُ الشرط، وكأنه قُصِدَ بالكلام التقسيمُ، وجُعِلَ القِسْمان جواباً للشرط، أي: إمَّا يأتينكم فالمتقون لا خوفٌ عليهم والمكذِّبون أصحابُ النار، فثمرةُ إتيان الرسل وفائدتُه هذا.

وتضمَّن قوله: «فمن اتَّقى وأصلح» سَبْقَ الإيمان إذ التقوى والإصلاح هما ناشئان عنه، وجاء في قسيمه[٣]: «والذين كذَّبوا» والتكذيبُ هو بدءُ الشقاوة، إذ لا ينشأ عنه إلا الانهماكُ والإفساد، وقابَل الإصلاح بالاستكبار لأنَّ إصلاح العمل من نتيجة التقوى، والاستكبارَ من نتيجة التكذيب، وهو التعاظُمُ، فلم يكونوا ليتَّبعوا الرسل فيما جاؤوا به، ولا يقتدوا بما أمروا به؛ لأنَّ مَن كذَّب بالشيء نأى بنفسه عن اتِّباعه.

وقال ابن عطية: هذه حالتان تعمُّ جميعَ مَن يَصدُّ عن رسالة الرسول، إمَّا أن

(١) في (أ) و(ع): يستأخرون.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٦.
(٣) في (ب) و(د١) والمطبوع: قسمه، وهو تحريف.

يكذِّب بحسب اعتقاده أنه كذب، وإمَّا أن يستكبر فيكذِّبَ وإنْ كان غيرَ مصمِّم في اعتقاده على التكذيب، وهذا نحوُ الكفر عناداً[١]. انتهى.

وتضمنت الجملتان حذفَ رابطٍ، وتقديره: فمن اتَّقى وأصلح منكم، والذين كذَّبوا منكم.

وتقدم تفسير «فلا خوفٌ» و«أولئك أصحابُ النار» الجملتان[٢].

وقرأ أبيٌّ والأعرجُ: «إما تأتينكم» بالتاء على تأنيث الجماعة[٣]، و«يقصُّون» محمولٌ على المعنى إذ ذاك، إذ لو حُمل على اللَّفظ لكان: تَقُصُّ.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ لمَّا ذكر المكذِّبين ذكر أسوأ حالاً منهم، وهو مَن يفتري الكذبَ على الله، وذكر أيضاً مَن كذَّب بآياته.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ قال ابن عباس وابن جبير ومجاهد: ما كُتب لهم من السعادة والشقاوة. ولا يناسبُ هذا التفسيرُ الجملةَ التي بعد هذا.

وقال الحسن: ما كُتب لهم من العذاب.

وقال الربيع ومحمد بن كعب وابن زيد: ما سبق لهم في أم الكتاب.

وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد أيضاً وقتادة: ما كَتَبَ الحَفَظَةُ في صحائف الناس من الخير والشر، فينال هؤلاء[٤] نصيبهم من ذلك، وهو الكفرُ والمعاصي.

وقال الحكم وأبو صالح: ما كُتب لهم من الأرزاق والأعمار والخير والشر في الدنيا[٥].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٦.
(٢) عند تفسير الآيتين (٣٨) و(٣٩) من سورة البقرة.
(٣) المحتسب ١/ ٢٤٧.
(٤) قوله: فينال هؤلاء، تحرف في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع إلى: فيقال هذا، والمثبت موافق لما في المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٧، والكلام منه.
(٥) لم أقف عليه عن الحكم وأبي صالح، وأخرج الطبري ١٠/ ١٧٥ نحوه عن محمد بن كعب وابن زيد، ولفظه: «أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب»: من الأعمال والأرزاق والأعمار. وأخرج الطبري أيضاً ١٠/ ١٧٣ عن ابن عباس: من الخير والشر.

وقال الضحاك: ما كُتب لهم من الثواب والعقاب[١].

وقال ابن عباس أيضاً والضحاك أيضاً ومجاهد: ما كُتب لهم من الكفر والمعاصي[٢].

وقال الحسن أيضاً: ما كُتب لهم من الضَّلالة والهدى[٣].

وقال ابن عباس أيضاً: ما كُتب لهم من الأعمال[٤].

وقال ابن عباس ومجاهدٌ والضحاك: «من الكتاب» يراد به: من القرآن، وحظُّهم فيه سوادُ وجوههم يومَ القيامة[٥].

وقيل: ما أُوْجِبَ من حِفْظِ عهودهم إذا أَعْطَوا الجزية.

وقال الحسن والسدِّي وأبو صالح: من المقرَّر في اللوح المحفوظ، وقد تقرَّر في الشرع أن حظَّهم فيه العذابُ والسخط[٦].

والذي يَظهر أن الذي كُتب لهم في الدنيا من رزق وأجل وغيرهما ينالُهم فيها، ولذلك جاءت التغيية بعد هذا بـ«حتى»، والى هذا المعنى نحا الزمخشريُّ؛ قال: أي: ما كُتب لهم من الأرزاق والأعمال[٧].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ۝٣٧﴾ تقدَّم الكلام على «حتى إذا» في أوائل «الأنعام»[٨]، ووقع في «التحرير»: «حتى» هنا ليس بغاية بل هي ابتداءٌ وجرٌّ[٩].

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج عنه الطبري ١٠/ ١٧٤: ما وُعِدوا من خيرٍ أو شرّ.
(٢) لم أقف عليه.
(٣) زاد المسير٣/ ١٩٣.
(٤) أخرجه الطبري ١٠/ ١٧٠.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٧، وأخرجه بنحوه الطبري ١٠/ ١٧٤ عن ابن عباس.
(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٧.
(٧) الكشاف ٢/ ٧٧.
(٨) عند تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾الآية (٢٥).
(٩) في (يه): وخبر، وكذا وقع في الدر المصون ٥/ ٣١٠ نقلاً عن البحر، وعليه شرح السمين، =

وهذا وهمٌ، بل معناها هنا الغايةُ، والخلافُ فيها إذا كانت حرفَ ابتداءٍ: أهي حرفُ جرٍّ والجملةُ بعدها في موضع جرٍّ وتتعلَّق بما قبلها كما تتعلق حروفُ الجرِّ، أم ليست حرفَ جرٍّ ولا تتعلَّق بما قبلها تعلُّق حروف الجرِّ من حيث المعنى لا من حيث الإعراب؟ قولان؛ الأولُ لابن دُرُسْتويه والزجَّاج والثاني للجمهور، وإذا كانت حرفَ ابتداء فهي للغاية، ألا تراها في قول الشاعر:

سَرَيْتُ بهم حتى تَكِلَّ مَطِيُّهم وحتى الجيادُ ما يُقَدْنَ بأرْسانِ[١]

وقول الآخر:

فما زالت القتلى تمجُّ دماءَها بدِجْلةَ حتى ماءُ دِجْلةَ أَشْكَلُ[٢]

تفيد الغاية؛ لأن المعنى أنه مدَّ بهم في السير إلى كلال المطيِّ والجياد، ومجَّت الدماء إلى تغيُّر ماءِ دجلة.

قال الزمخشريُّ: وهي «حتى» التي يُبْتَدَأ بعدها الكلام[٣]. انتهى.

وقال الحوفي: و«حتى» غايةٌ متعلِّقةٌ بـ«ينالهم» فيَحْتَمِل قولُه أن يريد التعلُّقَ الصناعيَّ وأن يريد التعلُّقَ المعنويَّ.

والمعنى: أنهم ينالهم حظُّهم ممَّا كُتب لهم إلى أن تأتيهم رسلُ الموت يقبضون أرواحهم، فيسألونهم سؤالَ توبيخٍ وتقريرٍ: أين معبوداتُكم من دون الله؟ فيُجيبون بأنهم حادُوا عنَّا وأخذوا طريقاً غيرَ طريقنا، أو «ضلُّوا عنَّا»: هلكوا واضْمَحلُّوا.

والرسل: مَلَكُ الموت وأعوانُه، و«يتوفونهم» في موضع الحال، وكُتبت «أينما» متَّصلةً، وكان قياسُ كتابتها الانفصال[٤]؛ لأن «ما» موصولةٌ كهي في ﴿إِنَّ مَا

= والمثبت من باقي النسخ، وهو الأنسب بالسياق. ووقع بعدها في المطبوع: والجملة بعدها في موضع جر. وليست في النسخ. ولم ترد أيضاً في الدر المصون.

(١) البيت لامرئ القيس. وهو في ديوانه ص٩٣ برواية: مَطَوْتُ بهم...

(٢) البيت لجرير. وهو في ديوانه ١/١٤٣، والكشاف ١/٥٠١، ورواية الديوان: وما زالت القتلى تمور دماؤها...، قال الشارح: تمور: تجري، والأشكل: الذي تخالطه حمرة. وتمج معناه: تلقي.

(٣) الكشاف ٢/٧٧.

(٤) في (أ) و(د١) و(ع): وكان قياسه كتابتها بالانفصال.

تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ [الأنعام: ١٣٤] إذ التقدير: أين الآلهةُ التي كنتم تعبدون.

وقيل: معنى «تَدْعون»، أي: تستغيثونهم لقضاء حوائجكم، وما ذكرناه من أنَّ هذه المحاورةَ بين الملائكة وهؤلاء تكون وقتَ الموت. وأنَّ التوفِّيَ هو بقبض الأرواح هو قولُ أكثر المفسِّرين، وقالت فرقةٌ منهم الحسن: الرسلُ ملائكةُ العذاب يومَ القيامة، والمحاوَرَةُ في ذلك اليوم، ومعنى «يتوفَّونهم»: يستوفونهم عدداً في السَّوق إلى جهنم(١)، ونيلُ النصيب على هذا إنما هو في الآخرة؛ إذ لو كان في الدنيا لَمَا تحقَّقت الغايةُ؛ لانقطاع النَّيل قبلها بمددٍ كثيرة.

ويحتمل «وشهدوا» أن يكون معطوفاً(٢) على «قالوا» فيكون من جملة جواب السؤال، ويحتمل أن يكون استئنافَ إخبارٍ من الله تعالى بإقرارهم على أنفسهم بالكفر، ولا تعارُضَ بين هذا وبين قوله: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] لاحتمال ذلك من طوائفَ مختلفةٍ أو في أوقاتٍ مختلفةٍ.

وجوابُ سؤالهم ليس مطابقاً من جهة اللفظ؛ لأنه سؤالٌ عن مكانٍ، وأجيبَ بفعلٍ وهو مطابقٌ من جهة المعنى؛ إذ تقديرُ السؤال: ما فَعَلَ معبودوكم من دون الله معكم؟ قالوا: ضلُّوا عنا.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ أي: يقولُ الله لهم، أي: لكفَّار العرب، وهم المفترونَ الكذبَ والمكذِّبون بالآيات، وذلك يومَ القيامة، وعبَّر بالماضي لتحقُّق وقوعه، وقولُه ذلك على لسان الملائكة.

ويتعلَّق «في أمم» في الظاهر بـ«ادخلوا»، والمعنى: في جملةِ أممٍ، ويحتمل أن يتعلَّق بمحذوفٍ فيكونُ في موضع الحال.

و«قد خَلَتْ من قبلكم»، أي: تقدَّمَتْكم في الحياة الدنيا، أو تقدَّمَتْكم، أي: تقدَّم دخولُها في النار، وقدَّم الجنُّ لأنهم الأصلُ في الإغواء والإضلال، ودلَّ ذلك على أن عصاة الجنِّ يدخلون النارَ.

---

(١) ذكره بهذا اللفظ ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٨ عن فرقة ولم ينسبه، وذكره عن الحسن بنحوه الرازي ١٤/ ٧١-٧٢، والطبرسي في مجمع البيان ٨/ ٥٢.

(٢) في (أ) و(د١) و(ع): مقطوعاً.

و«في النار» متعلِّقٌ بـ«خلت» على أنَّ المعنى: تقدَّم دخولُها، أو بمحذوفٍ هو صفةٌ لـ«أمم»، أي: في أمم سابقةٍ في الزمان كائنةٍ من الجنِّ والإنس كائنةٍ في النار، أو بـ«ادخلوا» على تقديرِ أن تكون «في» بمعنى «مع»، وقد قاله بعضُ المفسرين، فاخْتَلَفَ مدلولُ «في» إذ الأولى تفيدُ الصحبةَ والثانيةَ تفيدُ الظرفيةَ، وإذا اختلف مدلولُ الحرف جاز أن يتعلَّق اللَّفظان بفعلٍ واحد، ويكون إذ ذاك «ادخلوا» قد تعدَّى إلى الظرف المختصِّ بـ«في» وهو الأصل، وإن كان قد تعدَّى في موضعٍ آخَرَ بنفسه لا بواسطة «في» كقوله: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ﴾ [التحريم: ١٠] ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ [الزمر: ٧٢].

ويجوز أن تكون «في» باقيةً على مدلولها من الظرفية و«في النار» كذلك، ويتعلقان بلفظ «ادخلوا» وذلك على أن يكون «في النار» بدلَ اشتمالٍ، كقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ﴾ [البروج: ٤-٥] ويجوز أن يتعدَّى الفعلُ إلى حرفي جرٍّ بمعنىً واحدٍ على طريقة البدل.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ «كلما» للتكرار، ولا يستوي ذلك في الأمة الأولى، فاللاحقةُ تلعنُ السابقةَ، أو يلعنُ بعضُ الأمة الداخلة بعضَها، ومعنى «أختها»، أي: في الدِّين، والمعنى: كلما دخلت أمةٌ من اليهود والنصارى وعَبَدةِ الأوثان وغيرهم من الكفار. وقال الزمخشري: «أختها»: التي ضلَّت بالاقتداء بها[(١)]. انتهى.

والمعنى: أن أهل النار يلعنُ بعضُهم بعضاً، ويعادي بعضُهم بعضاً، ويَكْفُرُ بعضُهم ببعضٍ، كما جاء في آياتٍ أُخَرَ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ «حتى» غايةٌ لمَا قبلها، والمعنى أنهم يدخلون فوجاً ففوجاً لاعِناً بعضُهم بعضاً إلى انتهاء تداركهم وتلاحُقهم في النار واجتماعِهم فيها.

وأصلُ «ادَّاركوا»: تَدَارَكوا، أُدغمت التاء في الدال فاجتُلبت همزةُ الوصل.

---

(١) الكشاف ٢/ ٧٨.

قال ابن عطية: وقرأ أبو عمرو: «إدَّاركوا» بقطعِ ألفِ الوَصْل، قال أبو الفتح: هذا مُشْكِلٌ، ولا يَسُوغُ أن يَقْطَعها ارتجالاً، فذلك إنما يَجيءُ شاذاً في ضرورة الشعر في الاسم أيضاً، لكنه وَقَفَ مِثْلَ وقفةِ المستنكر[(١)] ثم ابتدأ فقطع. وقرأ مجاهدٌ بقَطْع الألف وسكونِ الدال وفتح الراء بمعنى: أَدْرَكَ بعضُهم بعضاً، وقرأ حُميد: «أُدْرِكوا» بضم الهمزة وكسرِ الراء، أي: أُدْخِلوا في أَدْراكها، وقال مكيٌّ في قراءة مجاهد: إنها «ادَّرَكوا» بشدِّ الدال المفتوحة وفتح الراء، قال: وأصلُها: ادْتَرَكوا، وزنُها افتعلوا. وقرأ ابن مسعود والأعمش: «تَدَارَكوا»، ورُويت عن أبي عمرو[(٢)]. انتهى.

وقال أبو البقاء: وقُرئ «إذا ادَّاركوا» بألفٍ واحدةٍ ساكنةٍ والدالُ بعدها مشدَّدةٌ، وهو جمعٌ بين ساكنين، وجاز في المنفصل كما جاز في المتَّصل، وقد قال بعضهم: اثنا عْشَر، بإثباتِ الألف وسكونِ العين[(٣)]. انتهى.

ويعني بقوله: كما جاز في المتَّصل، نحو«الضالِّين» و«جانٌّ».

و«أُخْراهم»: الأمةُ الأخيرة في الزمان التي وَجَدتْ ضلالاتٍ مقرَّرةً مستعمَلةً لأُوْلاهم التي شَرَعتْ ذلك وافترتْ وسلكتْ سبيلَ الضَّلال ابتداءً، أو: أُخْراهم في الدُّخول إلى النار وهم الأتباعُ لأُوْلاهم دخولاً وهم القادةُ. أقوالٌ آخِرُها لمقاتلٍ[(٤)].

وقال ابن عباس: آخِرُ أمةٍ لأوَّلِ أمةٍ[(٥)].

و«أُخْرى» هنا بمعنى آخِرة مؤنَّث «آخِر» مقابِل أول، لا مؤنَّث «آخَر» بمعنى «غير»، كقوله: ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] واللام في «لأولاهم» لامُ السبب، أي: لأجْلِ أولاهم؛ لأنَّ خطابهم مع الله لا معهم.

---

(١) كذا في النسخ، والصواب: المستذكر، كما في المحرر والمحتسب.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٣٩٩، وكلام ابن جني في المحتسب ١/ ٢٤٧-٢٤٨، والقراءة الأخيرة مذكورة فيه.

(٣) الإملاء ١/ ٢٧٣، والقراءة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٣ عن أبي عمرو، وذكرها ابن جني في المحتسب ١/ ٣٤٧ عن مجاهد وحميد ويحيى وإبراهيم.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ١٥٩، وزاد المسير ٣/ ١٩٥.

(٥) المصدران السابقان.

«أضلُّونا» شَرَعوا لنا الضلالَ، أو: جعلونا نَضِلُّ وحملونا عليه ضعفاً زائداً على عذابنا؛ إذ هم كافرون ومسبِّبو كُفْرِنا.

﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾أي: لكلٍّ من الأخرى والأولى عذابٌ متضاعِفٌ زائدٌ إلى غير نهاية، وذلك أن العذاب مؤبَّدٌ، فكلٌّ ألمٍ يَعْقُبُه آخَرُ.

وقرأ الجمهورُ بالتاء على الخطاب للسائلين، أي: لا تعلمون ما لكلِّ فريقٍ من العذاب، أو: لا تعلمون المقاديرَ وصورَ العذاب، قيل: أو خطابٌ لأهل الدنيا، أي: ولكن يا أهل الدنيا لا تعلمون مقدارَ ذلك.

وقرأ أبو بكر والمفضَّلُ عن عاصم بالياء[1]، فيحتمل أن يكون إخباراً عن الأمة، ويكون الضميرُ في «لا يعلمون» عائداً على الأمة الأخيرة التي طلبت أن يُضَعَّفَ العذابُ على أُولاها، ويحتمل أن يكون خبراً عن الطائفتين، أي: لا يعلم كلُّ فريقٍ قَدْرَ ما أُعِدَّ له من العذاب، أو قَدْرَ ما أُعِدَّ للفريق الآخَر من العذاب.

وروي عن ابن مسعود أن الضعف هنا الأفاعي والحيات. وهذه الجملة ردٌّ على أولئك السائلين وعدمُ إسعافٍ لما طَلَبوا.

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: قالت الطائفة المتبوعة للطائفة المتَّبِعة، واللام في «لأخراهم»لامُ التبليغ، نحو: قلت لك اصنع كذا؛ لأنَّ الخطاب هو مع أُخراهم، بخلاف اللام في «لأُولاهم» فإنها كما ذكرنا لامُ السبب؛ لأن الخطابَ هناك هو مع الله تعالى.

والمعنى: أنتم لا فضلَ لكم علينا، ولم تَزْدَجِروا حين جاءتكم الرسلُ والنُّذر، بل دُمتم في كفركم وتركتُم النظرَ فاسْتَوتْ حالُنا وحالُكم، قال الزمخشريُّ: أي: قد ثَبتَ أنْ لا فضلَ لكم علينا وأنَّا متساوون في استحقاق الضعف[2].

وقال مجاهد: معنى «من فضل»: من التخفيف؛ لمَّا قال الله: «لكلٍّ ضعف»

(١) السبعة ص٢٨٠، والتيسير ص١١٠ عن أبي بكر، وزاد المسير ٣/ ١٩٥ عن أبي بكر والمفضل.
(٢) الكشاف ٢/ ٧٨.

قالت الأولى للأخرى: لم تبلغوا أملاً بأنَّ عذابكم أخفُّ من عذابنا، ولا فضِّلْتُم بالإسعاف[(١)]. انتهى.

والفاء في «فما» قال الزمخشريُّ: عَطَفوا هذا الكلام على قولِ الله تعالى للسِّفْلة: «لكلٍّ ضعفٌ»[(٢)].

والذي يظهر أن المعنى انتفاءُ كونِ فضلٍ عليهم من السِّفْلة في الدنيا بسبب اتِّباعهم إياهم وموافَقَتهم لهم في الكفر، أي: اتِّباعُكم إيانا وعدمُ اتِّباعكم سواءٌ؛ لأنكم كنتم في الدنيا أقلَّ عندنا من أن يكون لكم علينا فضلٌ باتِّباعكم، بل كفرتُم اختياراً، لا أنَّا حملناكم على ذلك إجباراً. وأنَّ قوله: «فما كان» جملةٌ معطوفةٌ على جملةٍ محذوفةٍ بعد القول دلَّ عليها ما سَبق من الكلام، والتقدير: قالت أُولاهم لأُخراهم: ما دعاؤكم الله بأنَّا أَضْلَلْناكم وسؤالُكم ما سألتُم فما كان لكم علينا من فضلٍ بضلالكم. وأنَّ قوله: «فذوقوا العذاب» من كلام الأولى خطاباً للأخرى على سبيل التَّشَفِّي منهم. وأن ذَوْقَ العذاب هو بما كسبْتُم من الآثام لا بسبب دعواكم أنَّا أضللناكم.

وقيل: «فذوقوا» من خطاب الله لجميعهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ قال ابن عباس: لا تفتَّح لأعمالهم ولا لدعائهم، ولا لـمَا يريدون به طاعةَ الله تعالى[(٣)]، أي: لا يصعد لهم عملٌ صالحٌ فتُفتَّحَ أبوابُ السماء له، وهذا منتزعٌ من قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] ومن قوله: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨].

وقال السدِّي وغيره: لا تفتَّح لأرواحهم[(٤)].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٠، وقوله: لما قال الله لكل ضعف. . .، هو من كلام ابن عطية شرحاً لقول مجاهد.

(٢) الكشاف ٢/ ٧٨.

(٣) تفسير الرازي ١٤/ ٧٦، وأخرجه الطبري ١٠/ ١٨٣ من رواية عطاء عن ابن عباس بلفظ: لا يصعد لهم قول ولا عمل.

(٤) تفسير الرازي ١٤/ ٧٦، وأخرجه بنحوه مطولاً الطبري ١٠/ ١٨٣، وأخرجه الطبري أيضاً عن ابن عباس من رواية الضحاك باللفظ المذكور أعلاه.

وذكروا في صعود الروحين وفتحِ السماء لروح المؤمن وردِّ روح الكافر أحاديثَ، وذلك عند موتهما[(١)].

وقيل: المعنى: لا تفتَّح لهم أبوابُ السماء في القيامة ليدخلوا منها إلى الجنة، أي: لا يؤذنُ لهم في الصعود إلى السماء.

وقيل: لا تُنزَّلُ عليهم البركةُ ولا يغاثون.

وقرأ أبو عمرو: «لا تُفْتَحُ» بتاء التأنيث والتخفيف، وقرأ الأخوان بالياء والتخفيف، وقرأ باقي السبعة بالتاء من أعلى والتشديد[(٢)].

وقرأ أبو حيوة وأبو البرهسم بالتاء من أعلى مفتوحةً والتشديد[(٣)].

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ هذا نفيٌ مُغَيًّى بمستحيلٍ، والولوجُ: التقحُّم في الشيء، وذكر «الجمل» لأنه أعظمُ الحيوان المزاوَلِ للإنسان جثةً، فلا يَلِجُ إلا في بابٍ واسعٍ، كما قال:

لقد عَظُمَ البعيرُ بغيرِ لُبٍّ[(٤)]

وقال:

جسمُ الجِمالِ وأحلامُ العصافيرِ[(٥)]

---

(١) ينظر حديث أبي هريرة وحديث البراء بن عازب ﷺ عند أحمد (٨٧٦٩) و(١٨٥٣٤).

(٢) السبعة ص٢٨٠، والتيسير ص١١٠.

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٠، وجاء في مطبوعه: وقرأ أبو حيوة وأبو إبراهيم: «يفتَّح» بالياء وفتح الفاء وشد التاء.

(٤) وعجزه: فلم يستغن بالعِظَم البعيرُ، والبيت عزاه أبو تمام للعباس بن مرداس السلمي ﷺ، كما في الحماسة بشرح المرزوقي ٣/ ١١٥٥، والتبريزي ٣/ ٨٩-٩٠، ونُسب لمعاوية بن مالك الكلابي كما نقل التبريزي عن أبي رياش. قال البكري في سمط اللآلي ١/ ١٩٠: اختلف في عزو هذا الشعر... والصحيح أنه لمعوِّد الحكماء، وهو معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب. وقد ورد البيت دون نسبة في جمهرة الأمثال ١/ ٤٢٩، والمستقصى ١/ ١٠٢، ومجمع الأمثال ١/ ٢٥٤.

(٥) وصدره: لا بأس بالقوم من طولٍ ومن عِظَمٍ، والبيت لحسان ﷺ، وهو في ديوانه ص٢٧٠، والكتاب ٢/ ٧٤، والحيوان ٥/ ٢٢٩، وجمهرة الأمثال ١/ ٤٢٩، ومجمع الأمثال =

وذكر «سمّ الخياط» لأنهُ يُضرب به المَثَلُ في ضيق المسلك؛ يقال: أضيقُ من خَرْتِ الإبرة، وقيل للدليل: خِرِّيت؛ لاهتدائه في المضايق تشبيهاً بأخْرات الإبرة، والمعنى: أنهم لا يدخلون الجنة أبداً.

وقرأ ابن عباس فيما روى عنه شهر بن حوشب، ومجاهدٌ وابنُ يَعْمَرَ وأبو مِجْلَزٍ والشعبيُّ ومالك بن الشِّخِّير وأبو رجاء وأبو رَزِينٍ وابنُ مُحَيْصِنٍ وأبَان عن عاصم: «الجُمَّل» بضمِّ الجيم وفتحِ الميم مشدَّدةً[١]، وفسِّر بالقَلْس الغليظ وهو حَبْلُ السفينة؛ تُجمَعُ حبالٌ وتُفْتَلُ وتصيَّر حبلاً واحداً.

وقيل: هو الحبلُ الغليظُ من القنَّب.

وقيل: الحبلُ الذي يُصْعَدُ به في النخل[٢].

ورُوي عن ابن عباس -ولعله لا يصح-: إنَّ الله أحسنُ تشبيهاً من أن يشبِّه بالجَمَل[٣]. يعني أنه لا يناسِبُ، والحبلُ يناسِبُ الخيطَ الذي يُسْلَكُ به في خَرْمِ الإبرة.

وعن الكسائيِّ: أنَّ الذي رَوَى «الجُمَّل» عن ابن عباسٍ كان أعجميّاً، فشدَّد الميمَ لعُجْمَته[٤].

قال ابن عطية: وهذا ضعيفٌ؛ لكثرة أصحاب ابن عباس على القراءة المذكورة. انتهى، ولكثرة القرَّاء بها غيرَ ابن عباس.

وقرأ ابن عباس أيضاً في روايةِ مجاهدٍ، وابنُ جُبير وقتادةُ وسالمٌ الأفطسُ بضم الجيم وفتح الميم مخفَّفةً.

= ١/ ٢٥٤ برواية: جسم البغال. . .، وما ذكره المصنف هو رواية الزمخشري للبيت في الكشاف ٢/ ٧٨، والمستقصى ١/ ١٠٣.

(١) القراءات الشاذة ص٤٣، والمحتسب ١/ ٢٤٩، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٠٠، وزاد المسير ٣/ ١٩٧، وأخرجها الطبري ١٠/ ١٩٢ من طريق مجاهد عن ابن عباس.

(٢) هو تفسير عكرمة كما أخرج الطبري ١٠/ ١٩٣.

(٣) أورده الزمخشري في الكشاف ٢/ ٧٨.

(٤) تفسير الطبري ١٠/ ١٩٤، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٠٠، وما سيرد منه.

وقرأ ابن عباس في رواية عطاءٍ، والضحاكُ والجحدريُّ بضم الجيم والميمِ مخففةً.

وقرأ عكرمة وابنُ جبير في روايةٍ بضم الجيم وسكون الميم.

وقرأ أبو المتوكل وأبو الجوزاء بفتح الجيم وسكون الميم(١).

ومعناه في هذه القراءات: القَلْس الغليظ، وهو حبلُ السفينة، وقراءةُ الجمهور «الجمل» بفتح الجيم والميم أوقعُ؛ لأن سَمَّ الإبرة يُضرب بها المثلُ في الضِّيق، والجملُ وهو هذا الحيوانُ المعروف يُضربُ به المثلُ في عِظَم الجثة كما ذكرناه.

وسئل ابنُ مسعود عن الجمل فقال: زوجُ الناقة(٢). وذلك منه استجهالٌ للسائل، ومنعٌ منه أن يُتكلَّفَ له معنىً آخر.

وقرأ عبد الله وقتادةُ وأبو رزين وابن مصرِّفٍ(٣) وطلحةُ بضم سين «سم».

وقرأ أبو عمران الجَوْني وأبو نَهِيكٍ، والأصمعيُّ عن نافعٍ بكسر السين(٤).

وقرأ عبدُ الله وأبو رَزينٍ وأبو مجلز: «المِخْيَط» بكسر الميم وسكون الخاء وفتح الياء(٥)، وقرأ طلحة بفتح الميم(٦).

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: مِثْلَ ذلك الجزاء نجزي أهلَ الجرائم، وقال الزمخشريُّ: ليُؤْذِنَ أنَّ الإجرام هو السببُ الموصِلُ إلى العقاب، وأنَّ كلَّ مَن أَجْرمَ عُوقِبَ، ثم كرَّره تعالى فقال: «وكذلك نجزي الظالمين» لأنَّ كلَّ مجرمٍ ظالمٌ لنفسه(٧). انتهى وفيه دسيسةُ الاعتزال.

---

(١) تنظر هذه القراءات في القراءات الشاذة ص٤٣، والمحتسب ١/ ٢٤٩، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٠٠، وزاد المسير ٣/ ١٩٧-١٩٨.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٩٤٨- تفسير)، والطبري ١٠/ ١٨٨.

(٣) كذا في النسخ، والصواب: وابن محيصن، كما في زاد المسير ٣/ ١٩٨، وعنه نقل المصنف، والقراءة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٣ عن أبي السَّمَّال.

(٤) زاد المسير ٣/ ١٩٨، وهي في القراءات الشاذة ص٤٣ عن أبي السمال أيضاً.

(٥) زاد المسير ٣/ ١٩٨، وهي في القراءات الشاذة ص٤٣عن ابن مسعود.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٠.

(٧) الكشاف ٢/ ٧٩.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ هذه استعارةٌ لما يُحيط بهم من النار من كلِّ جانبٍ، كما قال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

والغواشي: جمعُ غاشية، قال ابن عباس والقُرظي وابنُ زيد: هي اللُّحُف[١].

وقال عكرمة: ما يغشاهم مِن فوقهم من الدخان[٢].

وقال الزجّاج: غاشية من النار[٣].

وقال الضحاك: المهاد: الفُرُش، والغواشي: اللُّحف[٤].

والتنوينُ في «غواش» تنوينُ صرفٍ أو تنوينُ عِوَضٍ؛ قولان. وتنوينُ عوضٍ من الياء أو من الحركة؛ قولان. كلُّ ذلك مقرَّرٌ في علم النحو.

وقرئ: «غواشٌ» بالرفع كقراءة عبد الله: «وله الجوارُ المنشآتُ»[٥].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ لمَّا أخبر بوَعِيدِ الكفار أخبر بوَعْدِ المؤمنين، وخبر «والذين» الجملةُ من «لا نكلِّفُ نفساً»، أي: منهم، أو الجملةُ من «أولئك» وما بعده، وتكون جملة «لا نكلِّف» اعتراضاً بين المبتدأ والخبر، وفائدتُه أنه لمَّا ذكر قولَه: «وعملوا الصالحات» نبَّه على أنَّ ذلك العملَ وُسْعُهم وغيرُ خارجٍ عن قدرتهم، وفيه تنبيهٌ للكفار على أن الجنة مع عظم محلِّها يُوْصَلُ إليها بالعمل السهل من غير مشقَّةٍ.

وقال القاضي أبو بكر بن الطيب: لم يكلِّف أحداً في نفقات الزوجات إلا ما وَجَدَ وتمكَّن منه، دون ما لا تنالُه يدُه، ولم يُرِدْ إثباتَ الاستطاعة قبل الفعل، ونظيرُه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧][٦]. انتهى، وليس السياقُ يقتضي ما ذَكَره.

---

(١) زاد المسير ٣/ ١٩٩، وأخرجها الطبري ١٠/ ١٩٦-١٩٧ عن القرظي والضحاك والسدي.
(٢) زاد المسير ٣/ ١٩٩.
(٣) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٣٨، وزاد المسير ٣/ ١٩٩، وفيهما: غاشية فوق غاشية من النار.
(٤) أخرجه الطبري ١٠/ ١٩٧.
(٥) القراءات الشاذة ص٤٣ و١٤٩.
(٦) تفسير القرطبي ٩/ ٢٢١.

وقال الزمخشري(١): جملةٌ معترضةٌ بين المبتدأ والخبر للترغيب في اكتساب ما لا يَكْتَنِهُه وصفُ الواصِفِ من النعيم الخالد مع العظيم(٢) بما هو من الوسع وهوالإمكانُ الواسعُ غيرُ الضيِّق من الإيمان والعمل الصالح. انتهى، وفيه دسيسةُ الاعتزال.

وقرأ الأعمش: «لا تكلَّفُ نفسٌ»(٣).

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: أَذْهَبنا في الجنة ما انْطَوَتْ عليه صدورُهم من الحقود.

وقيل: نَزْعُ الغلِّ في الجنة أن لا يَحسدَ بعضُهم بعضاً في تفاضُل منازلهم.

وقال الحسن: غلّ الجاهلية(٤).

وقال سهل بن عبد الله: الأهواء والبدع.

ورُوي عن عليٍّ كرم الله وجهه: فينا واللهِ أهلَ بدرٍ نزلت.

وعنه: إنِّي لأرجو أن أكون أنا وعثمانُ وطلحةُ والزبيرُ من الذين قيل فيهم: «ونزعنا» الآية(٥).

والذي يظهر أنَّ النزع للغِلِّ كنايةٌ عن خلقهم في الآخرة سالمي القلوبِ طاهِرِيها، متوادِّينَ متعاطِفينَ، كما قال: ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

و«تجري» حالٌ، قاله الحوفي، قال: والعامل فيه «نزعنا».

وقال أبو البقاء: حالٌ والعاملُ فيها معنى الإضافة(٦).

وكِلَا القولين لا يصحُّ؛ لأن «تجري» ليس من صفات الفاعل الذي هو ضمير «نزعنا»، ولا من صِفات المفعول الذي هو «ما في صدورهم»، ولأن معنى الإضافةِ

---

(١) في الكشاف ٢/ ٧٩.
(٢) في مطبوع الكشاف: مع التعظيم.
(٣) المصدر السابق.
(٤) النكت والعيون ٢/ ٢٢٤.
(٥) أخرج الروايتين عبد الرزاق ١/ ٢٢٩، والطبري ١٠/ ١٩٨-١٩٩.
(٦) الإملاء: ١/ ٢٧٤.

لا يعمل إلا إذا كانت إضافةً يمكِنُ للمضاف أن يعمل إذا جرِّد من الإضافة رفعاً أو نصباً فيما بعده. والظاهرُ أنه خبرٌ مستأنفٌ عن صفة حالهم.

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ أي: وفَّقنا لتحصيل هذا النعيم الذي صِرْنا إليه بالإيمان والعملِ الصالح؛ إذ هو نعمةٌ عظيمةٌ يجب عليهم بها حمدُه والثناءُ عليه تعالى. وقيل: الهدايةُ هنا هو الإرشاد إلى طرق الجنة ومنازِلِهم فيها، وفي الحديث أن أحدهم أَهْدَى إلى منزله في الجنة من منزله في الدنيا[١].

وقيل: الإشارةُ بـ«هذا» إلى العمل الصالح الذي هذا جزاؤه.

وقيل: إلى الإيمان الذي تأهَّلوا به لهذا النعيم المقيم.

وقال الزمخشريُّ[٢]: أي: وفَّقنا لمُوْجِبِ[٣] هذا الفوزِ العظيم، وهو الإيمانُ والعملُ الصالح. انتهى. وفي لفظة واجب والعمل الصالح دسيسةُ الاعتزال.

وقال أبو عبد الله الرازي: معنى هدانا الله: أعطانا القدرةَ وضمَّ إليها الداعيةَ الجازِمةَ وصيَّر مجموعهما مُوْجِباً لحصول تلك الفضيلة، وقالت المعتزلة: التحميدُ إنَّما وقع على أنه تعالى خَلَقَ العقل ووضع الدلائلَ وأزال الموانع[٤]. انتهى.

وفي «صحيح مسلم»: «إذا دَخَلَ أهلُ الجنة الجنةَ نادى منادٍ: إنَّ لكم أنْ تَحْيَوا فلا تَموتوا أبداً، وإنَّ لكم أنْ تَصِحُّوا فلا تَسْقَموا أبداً، وإنَّ لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهْرَموا أبداً، وإن لكم أن تَنْعَموا فلا تَبْأَسوا أبداً، فلذلك قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾»[٥].

﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي: وما كانت تُوجَدُ منَّا أنفسِنا وَحْدَها

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٥) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) في الكشاف ٢/ ٧٩.

(٣) في (ب) و(يه): لواجب، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الكشاف.

(٤) تفسير الرازي ١٤/ ٨٠-٨١.

(٥) صحيح مسلم (٢٨٣٧) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ﷺ، وفيه بعد قوله: «فلا تبأسوا أبداً»: فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾، ولم نقف على رواية المصنف.

الهدايةُ لولا أنَّ الله هدانا، وهذه الجملة توضِّحُ أن الله خالقُ الهداية فيهم وأنهم لو خُلُّوا وأنفسَهم لم تكن منهم هدايةٌ.

وقال الزمخشري: وما كان يستقيم أن نكون مهتدين لولا هدايةُ الله تعالى وتوفيقُه[١].

وقال أبو البقاء: «وما كنا» الواوُ للحال، ويجوزُ أن تكون مستأنفةً[٢]. انتهى، والثاني أظهر.

وقرأ ابن عامر: «ما كنا» بغير واوٍ، وكذا هي في مصاحف أهل الشام[٣]، وهي على هذا جملةٌ موضِّحةٌ للأولى، ومَن أجاز فيها الحالَ مع الواو ينبغي أن يُجيزها دونها.

والذي تقتضيه أصولُ العربية أنَّ جواب «لولا» محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه، أي: لولا أنْ هدانا الله ما كنَّا لنهتديَ، أو: لضَللنا، لأنَّ «لولا» للتعليق[٤] فهي في ذلك كأدوات الشرط، على أنَّ بعض الناس خرَّجَ قولَه: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤] على أنَّ جوابَه تقدَّم، وهو قولُه: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾وسيأتي ذلك إن شاء الله تعالى، وهذا على مذهب جمهور البصريين في منع تقديم جواب الشرط.

﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالموعود الذي وُعِدْنا في الدنيا، قَضَوا بأنَّ ذلك حقٌّ قضاءَ مشاهَدةٍ بالحسِّ، وكانوا في الدنيا يَقْضُون بذلك بالاستدلال.

وقال الكرماني: وقع الموعودُ به على ما سبق به الوعدُ.

وقال الزمخشري: فكان لنا لطفاً وتنبيهاً على الاهتداء فاهتدينا، يقولون ذلك سروراً واغتباطاً بما نالوا، وتلذُّذاً بالتكلُّم به، لا تقرُّباً وتعبُّداً، كما ترى مَن رُزِقَ خيراً في الدنيا يتكلَّم بنحو ذلك ولا يتمالكُ أنْ لا يقولَه للفرح لا للقربة.

---

(١) الكشاف ٢/ ٧٩.

(٢) الإملاء ١/ ٢٧٤.

(٣) السبعة ص٢٨٠، والتيسير ص١١٠.

(٤) أي: تعليق حصول مضمون جملة بحصول مضمون جملة أخرى.

﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ يحتمل أن يكون النداءُ من الله وهو أسرُّ لقلوبهم وأرفعُ لقَدْرِهم، ويحتملُ أن يكون من الملائكة. و«أنْ» يحتمل أن تكون المخفَّفةَ من الثقيلة، أي: ونودوا بأنه تلكم الجنة، واسمُها ضميرُ الشأن يحذف إذا خُفِّفت، ويحتمل أن تكون «أنْ» مفسِّرةً لوجود شرطَيْها، وهما أن يكون قبلها جملةٌ في معنى القول، وبعدها جملةٌ، وكأنه قيل: تلكم الجنة

قال ابن عطية: «تلكم» إشارةٌ إلى غائبةٍ[١]، فإمَّا لأنهم كانوا وُعدوا بها في الدنيا فالإشارةُ إلى تلك، أي: تلكم هذه الجنة، وحُذفت «هذه»، وإما قبل أن يدخلوها، وإمَّا بعد الدخول وهم مجتمعون في موضعٍ منها، فكلٌّ غائبٌ عن منزله. انتهى.

وفي كتاب «التحرير»: «وتلكم» إشارةٌ إلى غائبٍ، وإنما قال هنا: «تلكم» لأنهم وُعدوا بها في الدنيا، فلأَجْل الوعد جرى الخطابُ بكلمةِ العهد، ومنه قولُه ﷺ للصِّدِّيق في الاستخبار عن عائشة: «كيف تيكم»[٢] للعهد السابق. انتهى.

و«الجنة» جوَّزوا فيها أن تكون خبراً لـ«تلكم» و«أُوْرِثْتُموها» حال، كقوله: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ﴾ [النمل: ٥٢]؛ قال أبو البقاء: حالٌ من «الجنة»، والعاملُ فيها ما في «تلك» من معنى الإشارة، ولا يجوز أن تكون حالاً من «تلك»؛ للفصل بينهما بالخبر، ولكون المبتدأ لا يعمل في الحال[٣]. انتهى، وفي العامل في الحال في مثل: هذا زيدٌ قائماً، خلافٌ مذكورٌ في النحو.

وأن تكون نعتاً وبدلاً، و«أُوْرِثْتموها» الخبر.

وأدغم النحويَّان وحمزةُ وهشامٌ الثاءَ في التاء، وأظهرها باقي السبعة[٤].

---

(١) في المحرر ٢/ ٤٠٢: إشارة فيها غيبة، والمعنى واحد، ونقلها السمين في الدر المصون ٥/ ٣٢٤ كما ذكرها المصنف، ثم قال: فيها مسامَحةٌ؛ لأن الإشارة لا تكون إلا لحاضر، ولكن العلماء تطلق على البعيد غائباً مجازاً.

(٢) قطعة من حديث الإفك الطويل، أخرجه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) الإملاء ١/ ٢٧٤.

(٤) السبعة ص٢٨١، والتيسير ص٤٤، والنحويان هما أبو عمرو والكسائي. ولم يذكر صاحب السبعة هشاماً فيمن قرأ بالإدغام.

ومعنى «أورثتموها»: صُيِّرتْ لكم كالإرث، وأَبْعَدَ مَن ذهب إلى أنَّ المعنى: أُوْرِثْتُموها عن آبائكم؛ لأنها كانت منازلَهم لو آمنوا فحُرِموها بكفرهم، وبُعْدُه أنَّ ذلك عامٌّ في جميع المؤمنين، ولم تكنْ آباؤهم كلّهم كفَّاراً.

والباء في «بما» للسبب المَجازيِّ، والأعمالُ أمارةٌ من الله ودليلٌ على قوة الرجاء، ودخولُ الجنة إنما هو بمجرَّدِ رحمة الله، والقَسْمُ فيها على قَدْرِ العمل، ولفظُ «أورثتموها» مشيرٌ إلى الأقسام، وليس ذلك واجباً على الله تعالى.

وقال الزمخشري: «أُوْرِثْتُموها بما كنتم تعملون»: بسبب أعمالكم لا بالتفضُّل كما تقول المُبْطِلةُ[(١)]. انتهى، وهذا مذهبُ المعتزلة، وفي «صحيح مسلم»: «لن يدخل أحدٌ الجنةَ بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلّا أن يتغمَّدني اللهُ برحمةٍ منه وفضلٍ»[(٢)].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ﴾ عبَّر بالماضي عن المستقبل لتحقُّق وقوعه، وهذا النداءُ فيه تقريعٌ وتوبيخٌ، وتوقيفٌ على مآل الفريقين، وزيادةٌ في كرب أهل النار بأن يُشْرِفوا[(٣)] عليهم وبخلقِ إدراكِ أهلِ النارِ لذلك النداءِ في أسماعهم.

قال الزمخشريُّ: وإنما قالوا لهم ذلك اغتباطاً بحالهم، وشماتةً بأهل النار، وزيادةً في غَمِّهم، ولتكونَ حكايتُه لطفاً لمن سمعها، وكذلك قولُ المؤذِّن بينهم: «أن لعنةُ الله على الظالمين»، وهو مَلَكٌ يأمُره الله تعالى فينادي بينهم يُسْمِعُ أهلَ الجنة وأهلَ النار[(٤)].

وأتى في إخبار أهل الجنة: «ما وَعَدنا» بذكر المفعول، وفي قصةِ أهل النار: «ما وَعَدَ» ولم يُذكر مفعولُ «وَعَدَ»؛ لأنَّ أهل الجنة مستَبْشِرون بحصول موعودهم، فذكَروا ما وَعَدهم الله مضافاً إليهم، ولم يذكروا حين سألوا أهل الجنة[(٥)] متعلَّق

(١) الكشاف ٢/ ٨٠.
(٢) صحيح مسلم(٢٨١٦)من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٣) في (أ) و(د١) و(ع): شرفوا، والمثبت من (ب) و(يه)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٣، والكلام منه. وجاء في النهر على هامش مطبوع البحر ٤/ ٣٠٠: بأن يشرف عليهم أهل الجنةِ.
(٤) الكشاف ٢/ ٨٠.
(٥) كذا في البحر والنهر، والصواب: أهل النار.

«وعد» باسم الخطاب فيقولوا: ما وعدكم، لِيَشْمَلَ كلَّ موعودٍ من عذاب أهل النار ونعيمِ أهل الجنة، وتكون إجابتُهم بـ«نعم» تصديقاً لجميع ما وَعَدَ الله بوقوعه في الآخرة للصِّنفين، ويكون ذلك اعترافاً منهم بحصول موعود المؤمنين؛ ليتحسَّروا على ما فاتهم من نعيمهم إذ نعيمُ أهل الجنة ممَّا يَحْزُنُهم[1] ويزيدُ في عذابهم.

ويحتمل أن يكون حُذِفَ المفعولُ الذي للخطاب لدلالةِ ما قبلَه عليه، وتقديره: فهل وجدتم ما وعدكم ربُّكم.

وقرأ ابن وثاب والأعمش والكسائي: «نَعِم» بكسر العين[2].

و«أنْ» يحتمل أن تكون تفسيريةً وأن تكون مصدريةً مخفَّفةً من «أن» الثقيلة، وإذا وَلِيَ المخفَّفةَ فعلٌ متصرفٌ غيرُ دعاءٍ فُصِلَ بينهما بـ«قد» في الأجود، كقوله: «أنْ قد وجدنا».

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: فأَعْلَم مُعْلِمٌ؛ قيل: هو إسرافيل صاحبُ الصور. وقيل: جبريل يُسْمِعُ الفريقين تفريحاً وتبريحاً. وقيل: ملكٌ غيرُ معيَّنٍ.

ودخل طاوسٌ على هشام بن عبد الملك فقال له: احْذَرْ يومَ الأذان. فقال: وما يومُ الأذان؟ قال: يومَ «فأذَّن مؤذِّن» الآية، فصعقَ هشامٌ، فقال طاوس: هذا ذُلُّ الصفة فكيف ذُلُّ المعايَنة[3].

و«بينهم» يحتمل أن يكون معمولاً لـ«أذَّن»، ويحتمل أن يكون صفةً لـ«مؤذِّن» فالعاملُ فيه محذوفٌ.

وقرأ الأخوان وابنُ عامر والبَزِّي: «أنَّ لعنةَ الله» بتثقيل «أنَّ» ونصبِ «لعنة»[4]، وعصمةُ عن الأعمش «إنَّ» بكسر الهمزة والتثقيل ونصبِ «لعنة» على إضمار

---

(١) في (أ) و(د١) و(ع): يخزيهم.

(٢) السبعة ص٢٨١، والتيسير ص١١٠ عن الكسائي، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٠٣ عن ابن وثاب والأعمش.

(٣) تفسير القرطبي ٩/ ٢٢٥.

(٤) السبعة ص٢٨١، والتيسير ص١١٠، والأخوان هما حمزة والكسائي.

القول[١]، أو إجراءِ «أذَّنَ» مجرى «قال»، وقرأ باقي السبعة «أنْ» بفتح الهمزة خفيفةَ النون ورفعِ «لعنة» على الابتداء، و«أنْ» مخفَّفةٌ من الثقيلة أو مفسِّرةٌ.

و«يصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً» تقدَّم تفسيرُ مِثْلِه، وهذا الوصفُ بالموصول هو حكايةٌ عن حالهم السابقة، والمعنى: الذين كانوا يصدُّون عن سبيل الله؛ لأنهم وقتَ الأذان لم يكونوا متَّصِفينَ بهذا الوصفِ.

والمعنيُّ بـ«الظالمين» الكفار، ويَدْفَعُ قولَ مَن قال: إنه عامٌّ في الكافر والفاسق، قولُه أخيراً: «وهم بالآخرة كافرون» لأن الفاسق ليس كافراً بالآخرة بل مؤمنٌ مصدِّقٌ بها.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾أي: بين الفريقين؛ لأنهم المحدَّثُ عنهم، وهو الظاهرُ.

وقيل: بين الجنة والنار، وبهذا بدأ الزمخشريُّ وابنُ عطية، وفسَّرا الحجاب بأنه المعنيُّ بقوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ [الحديد: ١٣][٢] وقاله ابن عباس[٣].

ويقوِّي أنه بين الفريقين لفظُ «بينهم» إذ هو ضميرُ العقلاء، ولا يُحيل ضربَ السور بُعْدُ ما بين الجنة والنار، وإن كانت تلك في السماء والنارُ أسفلَ السافلين.

﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَـٰهُمْ﴾ أي: وعلى أعراف الحجاب -وهو السورُ المضروبُ- رجالٌ يعرفون كلّاً من فريقي الجنة والنار بعلامتهم التي ميَّزهم[٤] الله بها من ابيضاض وجوهٍ واسودادِ وجوهٍ، أو بغيرِ ذلك من العلامات، أو بعلامتهم التي يُلهمهم الله معرفتها.

والأعرافُ تلٌّ بين الجنة والنار؛ قاله ابن عباس[٥].

وقال مجاهد: حجابٌ بين الجنة والنار[٦].

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٣.
(٢) الكشاف ٢/ ٨١، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٠٣-٤٠٤.
(٣) المحرر الوجيز٢/ ٤٠٤، وينظر تفسير الطبري ١٠/ ٢١١.
(٤) في (ب) و(يه): ميزهما.
(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٢١٠-٢١١.
(٦) أخرجه الطبري ١٠/ ٢٠٨ و٢١٠ و٢١١.

• وقيل: هو أُحُدٌ يُمثَّلُ بين الجنة والنار،رُوي هذا في حديثٍ[١]، وفي آخَر: أنَّ أُحُداً على ركنٍ من أركان الجنة[٢].

وقيل: أعالي السور الذي ضُرب بين الجنة والنار؛ قاله الزمخشريُّ[٣].

والرجالُ: قومٌ تساوَتْ حسناتُهم وسيئاتُهم وُقفوا هنالك ما شاء الله، لم تبلغ حسناتُهم بهم دخولَ الجنة، ولا سيئاتُهم دخولَ النار.

ورُوي في «مسند» ابن أبي خيثمة[٤] عن جابر عن رسول الله ﷺ حديثٌ فيه: قيل: يارسول الله، فَمَن استوتْ حسناتُه وسيئاتُه؟ قال: «أولئك أصحابُ الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون»[٥]، وقاله ابنُ مسعودٍ وابنُ عباسٍ وحذيفةُ وأبو هريرة[٦].

وقال حذيفة بن اليمان أيضاً: هم قومٌ أبطأت بهم صغائرُهم إلى آخر الناس[٧].

---

(١) ذكره الزهراوي كما قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٤، وأورده أيضاً ابن أبي زمنين في تفسيره ٢/ ١٢٥ من طريق إسحاق بن عبد الله بن الحارث عن النبي ﷺ مرسلاً.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن شبة في تاريخ المدينة ١/ ٨٣ من طريق داود بن الحصين عن النبي ﷺ، وهو مع انقطاعه في إسناده عبد العزيز بن عمران، قال عنه البخاري: لا يكتب حديثه، وقال النسائي وغيره: متروك. الميزان ٢/ ٥٥٢، وفيه أيضاً إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة، وهو ضعيف كما في التقريب.
وأخرجه أبو يعلى (٧٥١٦)، والطبراني في الكبير (٥٨١٣) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه بلفظ: «أحد ركن من أركان الجنة»، وفي إسناده عبد الله بن جعفر والد علي بن المديني، وهو متفق على ضعفه، وقال يحيى: ليس بشيء، وقال النسائي: متروك الحديث. الميزان ٢/ ٣٦٢.

(٣) في الكشاف ٢/ ٨١.

(٤) كذا في النسخ، والصواب: خيثمة بن سليمان، كما في المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٤ (والكلام منه)، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٢٧ نقلاً عن المحرر، وخيثمة بن سليمان القرشي هو محدث الشام، ومصنف: فضائل الصحابة، توفي سنة (٣٤٣هـ) السير ١٥/ ٤١٢.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٤، وأخرجه أيضاً ابن مردويه كما ذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وأورده بإسناده ثم قال: وهذا حديث غريب من هذا الوجه. اهـ.

(٦) أخرجه الطبري ١٠/ ٢١٢-٢١٧ عن حذيفة وابن مسعود وابن عباس، وأورده عن أبي هريرة رضي الله عنه ابنُ أبي حاتم في تفسيره ٥/ ١٤٨٥.

(٧) النكت والعيون ٢/ ٢٢٦.

وقيل: غزاةٌ جاهَدوا من غيرِ إذنِ والِدِيهم فقُتلوا في المعركة، وهذا مرويٌّ عن الرسول أنهم حُبسوا عن الجنة بمعصيةِ آبائهم، وأعتقهم اللهُ من النار لأنهم قُتلوا في سبيله(١).

وقيل: قومٌ رضي عنهم آباؤهم دون أمَّهاتم، أو بالعكس.

وقيل: هم أولاد الزنى.

وقيل: أولاد المشركين.

وقيل: الذينْ كانوا في الفترة(٢) ولم يبدِّلوا دينهم.

وقيل: علماءُ شكُّوا في أرزاقهم.

وقال الزمخشري: رجالٌ من المسلمين من آخرهم دخولاً في الجنة لقصور أعمالهم، كأنهم المُرْجَوْنَ لأمر الله، يُحبسون بين الجنة والنار إلى أنْ يَأْذَنَ الله لهم في دخول الجنة(٣).

وقال ابن عطية: واللازِمُ من الآية أنَّ على أعراف ذلك السور أو على مواضعَ مرتفعةٍ عن الفريقين حيث شاء اللهُ رجالاً من أهل الجنة يتأخَّر دخولُهم ويقع لهم

(١) أخرجه سعيد بن منصور (٩٥٤- تفسير)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١١٢٣)، وابن الأنباري في الأضداد ص٣٦٩، والطبري ٢١٨/١٠، وابن أبي حاتم ٥/ ١٤٨٤ من حديث عبد الرحمن المزني ﷺ، وفي إسناده أبو معشر، وهو ضعيف، وقد اضطرب فيه كما ذكر ابن حجر في الإصابة ٦/ ٣٣٠. وأخرجه الطبري أيضاً ٢١٨/١٠ بإسناد آخر، وهو ضعيف جدًّاً لتسلسله بالمبهمين. وينظر كلام الشيخ أحمد شاكر على الحديث في طبعته من تفسير الطبري ٤٥٨/١٢.

وأخرجه الطبراني الأوسط (٣٠٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٣: رواه الطبراني في الصغير والأوسط، وفيه محمد بن مخلد الرعيني، وهو ضعيف. اهـ. قلت: وفي إسناده أيضاً عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو ضعيف أيضاً كما في التقريب.

(٢) في (أ) و(د١) و(ع): الأسر، وهو تحريف، والمثبت من (ب) و(يه)، وهو الموافق لما في تفسير البغوي ٢/ ١٦٣، وزاد المسير ٣/ ٢٠٦، وفيهما: الذين ماتوا في الفترة...

(٣) الكشاف ٢/ ٨١.

ما وُصِفَ من الاعتبار في الفريقين، ويَعْرِفون كلًّا بعلامتهم، وهي بياضُ الوجوه وحُسْنُها في أهل الجنة، وسوادُها وقُبحها في أهل النار[١]. انتهى.

والأقوالُ السابقةُ تَحتاجُ إلى دليلٍ واضحٍ في التخصيص، والجيِّدُ منها هو الأوَّلُ؛ لحديث جابرٍ، ولتفسيرِ جماعةٍ من الصحابة.

وهذه الأقوالُ هي على قولِ مَن قال: إنَّ الأعراف هو بين الجنة والنار، وفي شعر أميةَ بنِ أبي الصَّلْت:

وآخَرون على الأعراف قد طَمِعوا في جنةٍ حفَّها الرمَّانُ والخُضَرُ[٢]

وقال قوم: إنه الصراط.

وقيل: موضعٌ على الصراط.

وقال قوم: هو جبلٌ في وسط الجنة أو أعلاها.

واختلف هؤلاء في تفسير «رجال»؛ فقال أبو مجلز: هم ملائكةٌ في صورِ رجالٍ ذكورٍ[٣]، وسُمُّوا رجالاً لقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾.

وقال مجاهد والحسن: هم فضلاءُ المؤمنين وعلماؤهم[٤].

وقيل: هم الشهداء، وقاله الكَرْماني، واختاره النحاس وقال: هو أحسنُ ما قيل فيه[٥].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٥.

(٢) ديوان أمية ص٨٠، والنكت والعيون ٢/ ٢٢٥. قال الماوردي: وهذا وإن كان شعراً جاهليًّا، وحال الأعراف منقول عن خبر يروى، فيحتمل أمرين: أحدهما: أن يكون أمية قد وصل إلى علمه من الصحف الشرعية. والثاني: أن الله تعالى قد أنطق به أمية إلهاماً لتصديق ما جاء به القرآن.

(٣) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٩٥٨- تفسير)، والطبري ١٠/ ٢١٩-٢٢١.

(٤) النكت والعيون ٢/ ٢٢٥، وأخرجه عن مجاهد هناد في الزهد (٢٠٣)، والطبري ١٠/ ٢١٩.

(٥) الذي اختاره واستحسنه النحاس في إعراب القرآن ٢/ ١٢٧ هو القول بأن أصحاب الأعراف هم عدول القيامة، وهم الشهداء من كل أمة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم. وهو محتمل على قول الكرماني.

وقيل: حمزة والعباس وعليٌّ وجعفر الطيار[١]. ورُوي هذا عن ابن عباس[٢].

وقيل: هم الأنبياء.

﴿وَنَادَوْا أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ الظاهر أن الضمير في «ونادوا» إلى آخر الآيةِ عائدٌ على الرجال الذين على الأعراف، وعلى هذا لا يمكنُ أن تكون تلك الضمائرُ[٣] للأنبياء، ولا لشيءٍ ممَّا فسِّر به أنهم على جبل في وسط الجنة أو أعلى الجنة، وفي غاية البُعْدِ ما تُؤُوِّل من ذلك ليصحَّ شيءٌ من تلك الأقوال، أنهم أُجلسوا على تلك الأماكن المرتفعة ليشاهدوا أحوالَ الفريقين فيلحقهم السرورُ بتلك الأحوال، ثم إذا استقرَّ الفريقان نُقلوا إلى أمكنتهم التي أُعِدَّت لهم في الجنة، فمعنى «لم يدخلوها»: لم يدخلوا منازلهم المعدَّة لهم فيها، ومعنى «وهم يطمعون»: يتيقَّنون ما أَعَدَّ الله لهم من الزُّلْفى، وقد جاء الطمعُ بمعنى اليقين، قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٨٢] وطَمَعُ إبراهيمَ عليه السلام يقينٌ[٤]، وقال الشاعر:

وإنِّي لأطمعُ أنَّ الإله … قديرٌ بحسنِ يقيني يقيني[٥]

وأمَّا قولُ مَن قال: إن الأعراف جبلٌ بين الجنة والنار، فقد طَعَنَ فيه القاضي والجُبَّائي[٦] وقالا: هو فاسدٌ؛ لأنَّ قوله: ﴿وَنُودُوٓا أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الآية٤٣] يدلُّ على أنَّ كلَّ مَن دخل الجنة لا بدَّ أن يكون مستحقّاً لدخولها،

(١) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٨/ ٦٥.
(٢) تفسير الثعلبي ٣/ ٢٥، ومجمع البيان ٨/ ٦٥، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٢٨، وأورده الذهبي في الميزان ٢/ ٣٢٠، وهو من طريق عاصم بن سليمان، عن جويبر عن الضحاك، عن ابن عباس. وجويبر متروك، والضحاك لم يسمع من ابن عباس، وعاصم بن سليمان قال عنه النسائي: متروك، وقال الدارقطني: كذاب، وقال ابن عدي: يعدُّ ممن يضع الحديث، وعدَّ الذهبي هذا الخبر من بلاياه.
(٣) في (ب) و(يه): أن يكون ذلك الضمير.
(٤) نقل هذا التأويل الرازي في تفسيره ١٤/ ٨٨.
(٥) لم نقف عليه.
(٦) كما في تفسير الرازي ٤/ ٨٨-٨٩، والقاضي هو عبد الجبار المعتزلي.

وذلك يمنعُ من القول بوجود أقوام لا يَستحقُّون الجنةَ ولا النار، ثم يُدْخَلون الجنةَ بمحضِ الفضل لا بسبب الاستحقاق، ولأنَّ كونهم من أهل الأعراف يدلُّ على ميزهم[(١)] من جميع أهل القيامة، فإنَّ إجلاسهم على الأماكن المرتفعة العالية على أهل الجنة والنار تشريفٌ عظيم لا يليق إلا بالأشراف، ومَن تساوت حسناتُه وسيئاتُه درجتُه قاصِرةٌ لا يليقُ بهم ذلك التشريف.

وأجيبَ بأنه يحتمل أن يكون «ونودوا» خطابٌ مع أقوام معيَّنين، فلا يَلْزمُ أن يكون أهلُ[(٢)] الجنة كذلك، وعن الثاني: أَجْلَسَهم لا للتشريف، بل لأنها كالمرتبة المتوسِّطة بين الجنة والنار.

و«أنْ سَلام» يحتمل «أنْ» أن تكون تفسيريةً ومخفَّفة من الثقيلة، و«لم يدخلوها» حالٌ من المفعول، أي: نادوهم وهم في هذه الحال، يعني أهلَ الجنة، «وهم يطمعون» جملةٌ خبريةٌ لا موضعَ لها من الإعراب، أي: نادَوْا أهلَ الجنة غيرَ داخليها[(٣)]، ثم أخبر أنهم طامعون في دخولها؛ قال معناه أبو البقاء[(٤)].

وقيل: المعنى: ونادى أصحابُ الأعراف أصحابَ الجنة بالسلام وهم قد دخلوا الجنةَ وأهلُ الأعراف لم يدخلوها، فيكونُ قولُه: «لم يدخلوها» حالاً من ضمير «ونادَوْا» العائدِ على أهل الأعراف فقط، وهذا تأويلُ ابنِ مسعودٍ وقتادةَ والسُّديِّ وغيرهم[(٥)]، وقال ابن مسعود[(٦)]: واللهِ ما جَعَلَ الله ذلك الطَّمعَ في قلوبهم إلَّا لخيرٍ أراده بهم. وهذا هو الأظهرُ والأليَقُ بمساقِ الآية.

وقال ابن مسعود أيضاً: إنما طَمِعَ أصحابُ الأعراف لأنَّ النوز الذي كان في

---

(١) في تفسير الرازي: على أنه تعالى ميَّزهم.

(٢) في تفسير الرازي: أن يكون لكل أهل.

(٣) أي: نادى أصحابُ الأعراف أصحابَ الجنة حالَ كونهم -أي: أصحاب الجنة- غيرَ داخلين بعد.

(٤) في الإملاء ١/ ٢٧٥.

(٥) تفسير الطبري ١٠/٢٢٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٠٥ عن ابن مسعود وقتادة والسدي والحسن.

(٦) كذا ذكر، والصواب أنه قول الحسن. ينظر تفسير عبد الرزاق ١/ ٢٣٠، وتفسير الطبري ١٠/ ٢٢٦، وتفسير ابن أبي حاتم ٥/١٤٨٨، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٠٥.

أيديهم لم يُطْفَأْ حين طُفِئَ نورُ ما بأيدي المنافقين(١).

وقيل: «وهم يطمعون» حالٌ من ضمير الفاعل في «يدخلوها»(٢)، والمعنى: لم يدخلوها في حال طمعٍ لها، بل كانوا في حالِ يأسٍ وخوفٍ، لكنْ عَمَّهم عفوُ الله.

وقال الزمخشريُّ: فإن قلتَ: ما مَحَلُّ قوله: «لم يَدْخُلوها وهم يَطْمَعون»؟ قلتُ: لا محلَّ له لأنه استئنافٌ، كأن سائلاً سَأَل عن أصحاب الأعراف، فقيل له: «لم يدخلوها وهم يطمعون» يعني: إنَّ دخولهم الجنةَ استأخَر عن دخول أهل الجنة فلم يدخلوها لكونهم محبوسين، وهم يطمعون لم ييأسوا، ويجوز أن يكون له محلٌّ بأنْ يقع صفةً لـ«رجال»(٣). انتهى، وهذا الوجهُ ضعيفٌ؛ للفَصْل بين الموصوف وصفته بجملةٍ، «ونادوا»، وليست جملةَ اعتراضٍ.

وقرأ ابن [رقيش](٤) النحويُّ: «وهم طامعون»، وقرأ إياد بن لقيط: «وهم ساخطون»(٥)، وقرأ الأعمش: «وإذا قُلِبَتْ أبصارُهم»(٦).

والضمير في «أبصارهم» عائدٌ على رجال الأعراف، يُسَلِّمون على أهل الجنة وإذا نظروا إلى أهل النار دعوا الله في التخلُّص منها؛ قاله ابن عباسٍ وجماعةٌ(٧).

وقال أبو مجلز: الضمير لأهل الجنة، وهم لم يدخلوها بعدُ(٨).

وفي قوله: «صُرِفت» دليلٌ على أن أكثر أحوالهم النظرُ إلى تلقاء أصحاب الجنة، وأنَّ نظرهم إلى أصحاب النار هو بكونهم صُرفت أبصارُهم تلقاءَهم، فليس

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٥، وأخرجه الطبري بنحوه مطولاً ١٠/ ٢١٤.

(٢) وهذا على الوجهين من كون «لم يدخلوها» حالاً من الفاعل في «ونادوا»، أو من المفعول الذي هو «أصحاب الجنة». ينظر الدر المصون ٥/ ٣٢٩.

(٣) الكشاف ٢/ ٨١-٨٢.

(٤) ما بين معقوفين وقع مكانه في النسخ بياض، والمثبت من المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٥، وفيه: أبو رقيش.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٥.

(٦) الكشاف ٢/ ٨١.

(٧) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٥، وينظر تفسير الطبري ١٠/ ٢٢٨.

(٨) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٥.

الصرفُ من قِبَلهم، بل هم محمولون عليه مفعولٌ بهم ذلك؛ لأن ذلك المُطَّلَعَ مَخُوفٌ من سماعه فضلاً عن رؤيته فضلاً عن التلبُّس به، والمعنى: أنهم إذا حُملوا على صَرْفِ أبصارهم ورأوا ما هم عليه من العذاب استغاثوا بربِّهم من أنْ يجعلهم معهم، ولفظةُ «ربنا» مشعِرةٌ بوصفه تعالى بأنه مصلحُهم وسيدُهم وهم عبيدُه، فبالدعاء به طلبُ رحمته واستعطافُ كرمه.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ يَحْتَمِلُ أن يكون هذا النداءُ وأولئك الرجالُ في النار، ومعرفتُهم إياهم في الدنيا بعلاماتٍ، ويَحْتملُ أن يكون وهم يُحملون إلى النار وسيماهم تسويدُ الوجوه وتشويهُ الخَلْق.

وقال أبو مجلز: الملائكة تنادي رجالاً في النار[١]. وهذا على تفسيره أن أهل الأعراف هم ملائكةٌ، والجمهورُ على أنهم آدميون.

ولفظ «رجالاً» يدل على أنهم غيرُ معيَّنينَ، وقال ابن القشيري: ينادي أصحابُ الأعراف رؤساءَ المشركين قَبْلَ امْتحاءِ صورهم بالنار: يا وليد بن المغيرة، يا أبا جهل بن هشام، يا عاصي بن وائل، يا عقبة بن أبي معيط، يا أميةَ بنَ خلف، يا أبيَّ بن خلف، يا سائر رؤساء الكفار، ما أغنى عنكم جمعُكم في الدنيا المالَ والولدَ والأجنادَ والحجَّابَ والجيوشَ، وما كنتم تستكبرون عن الإيمان[٢]. انتهى.

و«ما أغنى» استفهامُ توبيخٍ وتقريعٍ، وقيل: نافية، و«ما» في و«ما كنتم» مصدرية، أي: وكونُكم تستكبرون. وقرأت فرقةٌ: «تستكثرون» بالثاء مثلثةً من الكثرة[٣].

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ الظاهرُ أنَّ هذا من جملةِ مَقُولِ أهلِ الأعراف، وتكونُ الإشارةُ إلى أهل الجنة، أي: يقول أهلُ الأعراف مشيرين إلى أهل الجنة الذين كان الرؤساءُ

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٢٣٠و٢٣٤.
(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٠٧ من طريق أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٥.

يستهينون بهم ويَحْقِرونهم لفقرهم وقلةِ حظوظهم في الدنيا، وكانوا يُقْسِمون بالله تعالى لا يُدْخِلهم الجنة؛ قاله الزمخشريُّ[١]، وذكره ابنُ عطية عن بعض المتأوِّلين؛ قال الإشارةُ بـ«هؤلاء» إلى أهل الجنة، والمخاطِبون هم أهلُ الأعراف، والذين خُوطِبوا أهلُ النار، والمعنى: أهؤلاء الضعفاءُ في الدنيا الذين حَلَفْتُم إنَّ الله لا يَعْبأُ بهم قيل لهم: «ادخلوا الجنة».

وقال ابن عباس: «أهؤلاء» من كلام مَلَكٍ بأمر الله، إشارةً إلى أهل الأعراف ومخاطَبةً لأهل النار.

قال النقَّاش: لمَّا وبَّخوهم بقولهم: «ما أغنى عنكم جَمْعُكم» أقسم أهلُ النار إنَّ أهل الأعراف داخلون النار معهم، فنادتهم الملائكة: «أهؤلاء»، ثم نادت أهلَ الأعراف: «ادخلوا الجنة»[٢].

وقيل: الإشارةُ بـ«هؤلاء» إلى أهل الأعراف، والقائلون هم أصحابُ الأعراف، ثم يرجعون إلى مخاطبة أنفسهم فيقول بعضهم لبعض: «ادخلوا الجنة». قاله الحسن[٣].

وقيل: الإشارةُ إلى المؤمنين الذين كان الكفارُ يحلفون إنهم لا يدخلون الجنةَ، والقائلُ إمَّا اللهُ وإمَّا الملائكة.

وقيل: المشارُ بـ«هؤلاء» أصحابُ الأعراف، والقائلُ مالكٌ خازنُ النار بأمر الله تعالى.

وقال أبو مجلز: أهلُ الأعراف هم الملائكة، وهم القائلون: «أهؤلاء» إشارةً إلى أهل الجنة. وكذلك يجيءُ قولُ مَن قال: أهلُ الأعراف أنبياءُ وشهداءُ[٤].

وقرأ الحسنُ وابن هُرْمُز: «أَدْخِلوا» من أَدْخَلَ، أي: أَدْخِلوا أنفسَكم، أو يكونُ خطاباً للملائكة ثم خاطب بعدُ البشر[٥].

---

(١) في الكشاف ٢/ ٨١، وفيه: . . . يقسمون إن الله . . .
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٦.
(٣) لم نقف عليه.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٦.
(٥) المصدر السابق، والقراءة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٤ دون نسبة.

وقرأ عكرمةُ: «دَخَلوا» إخباراً بفعل ماض، وقرأ طلحة وابنُ وثَّابٍ والنخعي: «أُدْخِلوا» خبراً مبنيّاً للمفعول[١]، وعلى هاتين القراءتين يكون قوله: «لا خوف عليكم» على تقدير: مقولاً لهم: لاخوفٌ عليكم.

قال الزمخشري: يقال لأهل الأعراف: «ادخلوا الجنة» بعد أن يُحْبَسوا على الأعراف، ويَنظروا إلى الفريقين، ويَعْرِفوهم بسيماهم، ويقولوا ما يقولون، وفائدةُ ذلك بيانُ أنَّ الجزاء على قَدْرِ الأعمال، وأنَّ التقدُّم والتأخُّر على حَسَبها، وأنَّ أحداً لا يَسْبِقُ عند الله تعالى إلا بِسَبْقِه من العمل، ولا يتخلَّفُ إلا بتخلُّفه، وليَرْغَبَ السامعون في حال السابقين، ويَحْرِصوا على إحراز قصبهم، وأنَّ كلّاً يُعْرَفُ ذلك اليومَ بسِيماه التي استوجَبَ أن يُوْسَم بها من أهل الخير والشر، فيَرْتَدِع المسيءُ عن إساءته، ويزيد المحسنُ في إحسانه، وليُعْلَم أن العصاةَ يوبِّخهم كلُّ أحدٍ حتى أقصرُ الناس عملاً[٢]. انتهى.

وهو تكثيرٌ من باب الخطابة لا طائلَ تحته، وفيه دسيسةُ الاعتزال.

وعن حذيفة: أنَّ أهل الأعراف يرغبون في الشفاعة، فيأتون آدم فيدفعُهم إلى نوح، ثم يتدافعُهم الأنبياء حتى يأتوا محمداً ﷺ، فيُشَفَّعُ، فيدخلون الجنة فيُلْقَون في نهر الحياة فيَبْيَضُّون، ويُسمَّون: مساكينَ الجنة. قال سالمٌ مولى أبي حذيفة: ليت أنّي من أهل الأعراف[٣].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ هذا يقتضي سماعَ كلٍّ من الفريقين كلامَ الآخرِ، وهذا جائزٌ عقلاً على بُعْدِ المسافة بينهما من العُلْوِ والسُّفْل، وجائزٌ أن يكون ذلك مع رؤيةٍ وإطِّلاعٍ من الله، وذلك أَخْزَى وأَنْكَى للكفار، وجائزٌ أن يكون ذلك وبينهم الحجابُ والسورُ.

---

(١) القراءتان في المحتسب ١/ ٢٤٩، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٠٦، والكشاف ٢/ ٨١، وقراءة عكرمة في القراءات الشاذة ص٤٤.

(٢) الكشاف ٢/ ٨١.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٦، وخبر حذيفة أخرجه الطبري بنحوه مطولاً ١٠/ ٢٣٢-٢٣٣، وخبر سالم أخرجه أحمد في الزهد ص٢٤٩، وابن أبي الدنيا في كتاب المتمنّين ص٣١.

وعن ابن عباس أنه لمَّا صار أصحابُ الأعراف إلى الجنة طَمِعَ أهلُ النار في الفَرَج بعد اليأس، فقالوا: يا رب، لنا قراباتٌ من أهل الجنة فأْذَنْ لنا حتى نراهم ونكلِّمَهم، فيَنْظُرون إليهم وإلى ما هم فيه من النعيم فعرفوهم، ونظر أهلُ الجنة إلى قراباتهم من أهل جهنم فلم يعرفوهم، قد اسودَّتْ وجوهُهم وصاروا خَلْقاً آخَرَ، فنادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة بأسمائهم وأخبروهم بقراباتهم، فينادي الرجلَ أخوه فيقول: يا أخي، قد احترقْتُ فأَغِثْني، فيقول: إنَّ الله حرَّمهما على الكافرين[1].

ويحتمل «أنْ» أن تكونَ مصدريةً ومفسِّرةً.

وكلامُ ابن عباس يدلُّ على أنَّ هذا النداءَ كان عن رجاء وطمع حصول ذلك.

وقال القاضي[2]: هو مع اليأس؛ لأنهم قد علموا دوامَ عقابهم، وأنهم لا يفتَّرُ عنهم، ولكنَّ اليائس من الشيء قد يَطلُبُه، كما يقال في المَثَل: الغريقُ يتعلَّق بالزَّبَد وإن علم أنه لا يُغْنيه. انتهى.

و«أفيضوا» أَمْكَنُ من: اسْقُونا؛ لأنها تقتضي التوسعةَ، كما يقال: أفاض الله عليه نِعَمَه، أي: وسَّعها. وسؤالُهم الماءَ لشدَّة التهابهم واحتراقهم، ولأنَّ مِن عادتِه إطفاءُ النار، «أو مما رزقكم الله» لأنَّ البنية البشرية لا تستغني عن الطعام إذ هو مقوٍّ لها، أو لرجائهم الرحمةَ بأكل طعام الجنة[3]، و«أو» على بابها من كونهم سألوا أحد الشيئين، وأتى «أو مما رزقكم الله» عامّاً، والعطفُ بـ«أو» يدلُّ على أن الأول لا يندرج في العموم.

وقيل: «أو» بمعنى الواو؛ لقولهم «إنَّ الله حرمهما».

وقيل: المعنى: حرَّم كلًّا منهما، فـ«أو» على بابها و«ما رزقكم الله» عامٌّ، فيدخلُ فيه الطعامُ والفاكهةُ والأشربةُ غير الماء.

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ١٦٣، وزاد المسير ٣/ ٢٠٨، وتفسير الرازي ١٤/ ٩٢. وأخرجه بنحوه مختصراً الطبري ١٠/ ٢٣٦.

(٢) عبد الجبار شيخ المعتزلة، وكلامه في تفسير الرازي ١٤/ ٩٢.

(٣) كلمة: الجنة، ساقطة من المطبوع، وجاء في النهر على هامش البحر ٢/ ٣٠٤: أهل الجنة.

وتخصيصُه بالثمرة أو بالطعام أو غيرِ الماء من الأشربة أقوالٌ ثانيها للسدِّي[١]، وثالثُها للزمخشري، قال: «أو مما رزقكم الله» مِن غيره من الأشربة؛ لدخوله في حكم الإفاضة.

قال: ويجوز أن يُراد: أو ألقوا علينا مما رزقكم الله من الطعام والفاكهة، كقوله:

علفتُها تبناً وماءً بارداً[٢]

وإنما يطلبون ذلك مع يأسهم من الإجابة إليه حيرةً في أمرهم، كما يفعلُه المضطرُّ الممتحَن[٣]. انتهى وقوله: وإنما يطلبون.. إلى آخره هو كلامُ القاضي، وقد قدَّمناه.

وقوله: ويجوز أن يراد: وألقوا علينا مما رزقكم الله من الطعام والفاكهة، يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون «أفيضوا» ضمِّن معنى ألقوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، فيصحُّ العطفُ.

ويَحْتَمِلُ -وهو الظاهرُ من كلامه- أن يكون أضمر فعلاً بعد «أو» يصلُ إلى «مما رزقكم» وهو: ألقوا.

وهما مذهبان للنحاة فيما عُطف على شيءٍ بحرف عطفٍ والفعلُ لا يصل إليه، والصحيحُ منهما التضمينُ لا الإضمار، على ما قرَّرناه في علم العربية.

ومعنى التحريم هنا: المنع، كما قال:

حرامٌ على عينيَّ أنْ تَطْعَما الكَرَى[٤]

وإخبارهم بذلك هو عن أمر الله.

---

(١) أخرجه عنه الطبري ١٠/ ٢٣٥.

(٢) سلف عند تفسير الآية (٧) من سورة البقرة، والآية (٣) من سورة النساء.

(٣) الكشاف ٢/ ٨٢.

(٤) أورده الزمخشري في الكشاف ٢/ ٨٢، وعجزه كما في شرح شواهد الكشاف للأستاذ محبّ الدين أفندي في آخر الكشاف ٤/ ٣٧٢: وأن ترقآ حتى ألاقيكِ يا هندُ.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ تقدم تفسير مثلِ هذا في «الأنعام»(١).

﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ هذا إخبارٌ من الله عمَّا يُفعل بهم، قال ابن عباس وجماعةٌ: يتركهم في العذاب كما تَركوا النظر للقاء هذا اليوم(٢).

وقال قتادة: نُسُوا من الخير ولم يُنْسَوا من الشر(٣).

وقال الزمخشريُّ: نَفْعَلُ بهم فِعْلَ الناسينَ الذين يَنسون عبيدَهم من الخير لا يذكرونهم به، «كما نسوا لقاء يومهم هذا» كما فعلوا بلقائه فِعْلَ الناسين فلم يُخْطِروه ببالهم ولم يهتموا به(٤).

وقال الحسن والسدِّي أيضاً والأكثرون: نتركهم في عذابهم كما تركوا العملَ لِلِقاء يومهم(٥). انتهى.

وإن قدِّر النسيانُ بمعنى الذهول من الكفرة، فهو في جهة الله بتسمية العقوبة باسم الذنب.

«وما كانوا» معطوفٌ على «ما نسوا»، و«ما» فيهما مصدريةٌ، ويظهر أن الكاف في «كما» للتعليل.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ الضمير في «ولقد جئناهم» عائدٌ على مَن تقدَّم ذكرُه، ويكون الكتاب على هذا جنساً، أي: بكتابٍ إلهيٍّ؛ إذ الضميرُ عامٌّ في الكفار، وقال يحيى بن سلام: الضمير لمكذِّبي محمدٍ ﷺ، وهو ابتداءُ كلامٍ، وتم الكلامُ عند قوله: «يجحدون»(٦).

(١) عند تفسير الآية (٧٠) منها.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٧، وأخرجه الطبري ١٠/ ٢٣٨ عن ابن عباس ومجاهد بلفظ: نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٧، وأخرجه الطبري ١٠/ ٢٣٩ عن ابن عباس.
(٤) الكشاف ٢/ ٨٢.
(٥) تفسير الرازي ١٤/ ٩٣.
(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٧.

والكتاب هو القرآن، وفصَّلناه عالمينَ بكيفية تفصيله من أحكامٍ ومواعظَ وقصصٍ وسائرِ معانيه.

وقيل: فصَّلناه بإيضاح الحقِّ من الباطل.

وقيل: نزلناه في فصولٍ مختلفةٍ.

وقرأ ابن مُحيصن والجحدريُّ: «فضَّلناه» بالضاد المنقوطة(١)، والمعنى: فضَّلناه على جميع الكتب عالمينَ بأنه أهلٌ للتفضيل عليها.

وفي «التحرير» أنه فُضِّلَ على سائر الكتب المنزلة بثلاثين خصلةً لم تكن في غيره. و«فصَّلناه» صفةٌ لـ«كتاب» و«على علم» الظاهرُ أنه حالٌ من فاعل «فصَّلناه»، وقيل: التقدير: مشتملاً على علمٍ، فيكون حالاً من المفعول.

وانتصَبَ «هدىً ورحمةً» على الحال، وقيل: مفعولٌ من أَجْله، وقرئ بالرفع، أي: هو هدىً ورحمةٌ(٢)، وقرأ زيد بن عليٍّ: «هدىً ورحمةٍ» بالخفض على البدل من «كتاب» أو النعتِ، وعلى النعت لـ«كتابٍ» خرَّجه الكسائيُّ والفرَّاء رحمهما الله(٣).

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ أي: مآلَ أمره وعاقبتَه، قاله قتادةُ ومجاهدٌ وغيرهما.

وقال ابن عباس: مآله يوم القيامة.

وقال السدِّي: في الدنيا كوقعة بدر، ويومَ القيامة أيضاً(٤).

وقال الزمخشري: ما يَؤُولُ إليه من تبيُّن صدقه، وظهورِ صحة ما نَطَقَ به من الوعد والوعيد(٥).

---

(١) زاد المسير ٣/ ١٦٩، وهي في القراءات الشاذة ص٤٤ عن ابن محيصن وحده.
(٢) الإملاء ١/ ٢٧٦.
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٢٩، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٣٥، وقول الفراء في معاني القرآن له ١/ ٣٨٠.
(٤) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٠/ ٢٤١-٢٤٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٠٧-٤٠٨، وعنه نقل المصنف.
(٥) الكشاف ٢/ ٨٢.

والتأويلُ مادتُه همزةٌ وواوٌ ولامٌ من آلَ يَؤُول، وقال الخطابي: أَوَّلتُ الشيءَ: ردَدْتُه إلى أوَّله، فاللفظةُ مأخوذةٌ من الأوَّل[١]. انتهى، وهو خطأٌ لاختلاف المادَّتين.

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: تَظْهر عاقبةُ ما أَخْبرَ به من الوعد والوعيد، وذلك يومَ القيامة يَسأَلُ تارِكُو اتِّباعِ الرسل: هل لنا من شفعاء؟ سؤالاً عن وجه الخلاص في وقتٍ أنْ لا خلاصَ، وفي الكلام حذفٌ، أي: لقد جاءت رسلُ ربِّنا بالحقِّ ولم نصدِّقهم، أو: ولم نتَّبِعْهم، فهل لنا من شفعاء؟

والرسلُ هنا: الأنبياءُ، أَخبروا يومَ القيامة أنَّ الذي جاءتهم به رسلُهم هو الحق، وقيل: ملائكةُ العذاب عند المعاينة ما أنذروا به.

وقرأ الجمهور: «أو نردُّ» برفع الدال «فنعملَ» بنصب اللام، عَطَفَ جملةً فعليةً على جملةٍ اسمية وتقدَّمهما استفهامٌ فانتصب الجوابان، أي: هل شفعاءُ لنا فيشفعوا لنا في الخلاص من العذاب، أو هل نردُّ إلى الدنيا فنعملَ عملاً صالحاً.

وقرأ الحسن فيما نَقَلَ الزمخشريُّ بنصب الدال ورفع اللام[٢]. وقرأ الحسن فيما نَقَلَ ابنُ عطيةَ وغيرُه برفعهما، عَطَفَ «فنعملُ» على «نردُّ»[٣]. وقرأ ابنُ أبي إسحاق وأبو حَيْوَةَ بنصبهما[٤]، فنَصَبَ «أو نردَّ» عطفاً على «فيشفعوا لنا» جواباً على جوابٍ، فيكون الشفعاء في أحد أمرين: إمَّا في الخلاص من العذاب، وإمَّا في الرَّدِّ إلى الدنيا لاستئناف العمل الصالح، وتكونُ الشفاعة قد انسحبت على الردِّ أو الخلاص، و«فنعملَ» عطفٌ على «فنردَّ».

ويحتمل أن يكون «أو نردَّ» من باب: لأَلْزَمنَّك أو تَقْضِيَني حقِّي، على تقديرِ مَن قدَّر ذلك: حتى تقضِيَني حقِّي، أو: كي تقضِيَني حقِّي، فجعل اللزوم مغيًّا بقضاء حقِّه أو معلولاً له لقضاءِ حقه، وتكونُ الشفاعة إذ ذاك في الردِّ فقط.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/٤٠٨.

(٢) الكشاف ٢/ ٨٢.

(٣) المحرر الوجيز ٢/٤٠٨، وهي في القراءات الشاذة ص٤٤ عن الحسن وعمرو بن عبيد ويزيد النحوي.

(٤) المحتسب ١/ ٢٥١، والكشاف ٢/ ٨٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٠٨.

وأمَّا على تقدير سيبويه «إلا»، أي: لأَلْزَمنَّك إلَّا أنْ تقضِيَني[١]، فليس يظهرُ أنَّ معنى «أو» معنى «إلا» هنا، إذ يصير المعنى: هل تشفع لنا شفعاءُ إلا أن نردَّ، وهذا استثناءٌ غير ظاهرٍ.

وقولُهم هذا: هل هو مع الرَّجاء، أو مع اليأس؟ فيه الخلافُ الذي في ندائهم: «أن أفيضوا».

قال القاضي[٢]: وهي تدلُّ على حُكْمين:

على أنهم كانوا قادرين على الإيمان والتوبة، ولذلك سألوا الردَّ[٣].

الثاني: أنَّ أهل الآخرة غيرُ مكلَّفين -خلافاً للمُجْبِرة والنَّجَّار[٤]- لأنها لو كانت كذلك ما سألوا الردَّ، بل كانوا يتوبون ويؤمنون.

﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: خسروا في تجارة أنفسهم حيث ابتاعوا الخسيس الفانيَ من الدنيا بالنفيس الباقي من الآخرة، وبَطَلَ عنهم افتراؤهم على الله ما لم يَقُلْه ولا أمرهم به، وكذبُهم في اتِّخاذِ آلهةٍ من دون الله.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ لمَّا ذَكَرَ تعالى أشياءَ من مبدأ خَلْقِ الإنسان وأَمْرِ بَنيه[٥]، وانقسام[٦] إلى مؤمنٍ وكافرٍ، وذكر معادَهم وحَشْرَهم إلى جنةٍ ونارٍ، ذَكَر مبدأ العالمَ واختراعَه والتنبيهَ على الدلائل الدالَّة على التوحيد وكمالِ القدرة والعلم والقضاء، ثم بعد ذلك[٧] إلى

(١) الكتاب ٣/ ٤٧.
(٢) القائل هو الجبائي كما في تفسير الرازي ١٤/ ٩٦، وليس القاضي كما ذكر المصنف.
(٣) أي: لو كانوا في الدنيا غير قادرين على الإيمان والتوبة كما يقوله المجبرة لم يكن لهم في الردِّ فائدة، ولا جاز لهم أن يسألوا الرد. ينظر تفسير الرازي ١٤/ ٩٦.
(٤) الحسين بن محمد النجار، رأس الفرقة النجارية، إحدى فرق الجبرية. ينظر الملل والنحل ١/ ٨٨.
(٥) في (ب) و(يه): نبيه، ولم تجود في (أ)، والمثبت من (د١) و(ع)، وهو الصواب.
(٦) في النهر على هامش مطبوع البحر ٤/ ٣٠٧: وانقسامهم.
(٧) قوله: ذلك، من (يه)، وليس في باقي النسخ، ولم يرد أيضاً في النهر.

النبوة والرسالة؛ إذ مدارُ القرآن على تقرير المسائل الأربع: التوحيد، والقدرة، والمعاد، والنبوة.

و«ربكم» خطابٌ عامٌ للمؤمن والكافر، وروى بكار بن [السُّقير](١): «إنَّ ربَّكم اللهَ» بنصب الهاء عطف بيانٍ.

والظاهرُ أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وعلى هذا الظاهرِ فسَّرَ معظمُ الناس، وبدأ بالخلق يومَ الأحد، وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرة قال: أخذ بيدي رسولُ الله ﷺ فقال: «خَلَقَ اللهُ التربة يومَ السَّبت، وخَلَقَ الجبالَ فيها يومَ الأَحَد، وخَلَقَ الشَّجر يومَ الإثنين، وخَلَقَ المكروهَ يومَ الثلاثاء، وخَلَقَ النُّورَ يومَ الأربعاء، وبثَّ فيها الدوابَّ يومَ الخميس، وخَلَقَ آدمَ بعد العصر من يوم الجمعة آخِرَ الخلق، في آخِرِ ساعةٍ من ساعات يوم الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل»(٢)، وقال عديُّ بنُ زيدٍ العباديُّ:

قَضَى لستةِ أيامٍ خَلِيقَتَه   وكان آخِر يوم صوَّر الرَّجُلا(٣)

وهو اختيارُ محمد بن إسحاق(٤)، قال ابن الأنباري: هذا إجماعُ أهل العلم.

وقال عبد الله بن سلام وكعبٌ والضَّحاك ومجاهدٌ، واختاره الطبريُّ(٥): بدأ بالخلق يومَ الأحد. وبه يقول أهل التوراة.

وقيل: يومَ الإثنين وبه يقول أهلُ الإنجيل.

---

(١) ما بين حاصرتين وقع مكانه بياض في النسخ، وجاء في مطبوع المحرر الوجيز ٢/٤٠٨ والكلام منه: بكار بن الشقير، وهو تحريف. وسُقير بضم السين وفتح القاف وسكون الياء تليها راء، وبكار بن سُقير البصري المازني، سمع أباه والحسن، ويروي عن أبيه عن ابن عمر رضي الله عنهما. ينظر التاريخ الكبير ٢/١٢٢، وتوضيح المشتبه ٥/١١٥.

(٢) صحيح مسلم (٢٧٨٩)، وأخرجه أيضاً أحمد (٨٣٤١)، وينظر ثمة تتمة تخريجه وكلام العلماء في أن الأصح فيه أنه موقوف على كعب الأحبار.

(٣) البيت في كتاب الحيوان للجاحظ ٤/١٩٨، ورسالة الصاهل والشاحج للمعري ص٢٢٤.

(٤) كما في زاد المسير ٣/ ٢١١، وعنه نقل المصنف ما سيرد من أقوال.

(٥) في تفسيره ١٠/ ٢٤٥، وفيه تخريج قول مجاهد.

قال ابن عباس وكعبٌ ومجاهدٌ والضحاك: مقدارُ كلِّ يوم من تلك الأيام ألفُ سنة.

ولا فَرْقَ بين خَلْقِه تعالى ذلك في لحظةٍ واحدةٍ أو في مُدَدٍ متواليةٍ بالنسبة إلى قدرته تعالى، وإبداءُ مَعَانٍ لذلك كما زعمه بعضُ المفسرين قولٌ بلا برهان، فلا نُسوِّد كتابَنا بذكره، وهو تعالى المنفردُ بعلم ذلك.

وذهب بعضُ المفسرين إلى أن التقدير في قوله: «في ستة أيام» في مقدار ستة أيام، فليست ستةُ الأيام أنفسُها وَقَعَ فيها الخلقُ، وهذا كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [مريم: ٦٢] والمراد: مقدارَ البكرة والعشيِّ في الدنيا؛ لأنه لا ليلَ في الجنة ولا نهارَ، وإنما ذهب هذا الذاهبُ إلى هذا لأنه إنما يمتازُ اليومُ عن الليلة بطلوع الشمس وغروبها، فقبلَ خَلْقِ الشمس والقمر كيف يُعقل خلقُ الأيام؟

والذي أقول: إنه متى أَمْكَنَ حملُ الشيءِ على ظاهره أو على قريبٍ من ظاهره كان أَوْلَى مِن حَمْلِه على ما لا يُسلِّمه[1] العقلُ أو على ما يخالفُ الظاهرَ جملةً، وذلك بأنْ يُجعل قولُه: «في ستةِ أيام» ظرفاً لخَلْقِ الأرض لا ظرفاً لخلق السماوات والأرض، فيكون «في ستة أيام» مُدةً لخلق الأرض بتربتها وجبالها وشجرها ومكروهها ونُورها ودوابِّها وآدمَ عليه السلام، وهذا يطابقُ الحديثَ الثابتَ في الصحيح، وتبقى «ستة أيام» على ظاهرها من العَدَدية، ومن كونها أياماً باعتبارِ امتيازِ اليوم عن الليلة بطلوع الشمس وغروبها.

وأمَّا استواؤُه على العرش فَحمَلَه على ظاهره من الاستقرار بذاته على العرش قومٌ، والجمهورُ من السلف: السفيانان ومالكٌ والأوزاعيُّ والليثُ وابنُ المبارك وغيرهم في أحاديث الصفات على الإيمان بها وإمرارِها على ما أراد الله تعالى من غيرِ تعيينِ مرادٍ، وقومٌ تأوَّلوا ذلك على عدَّة تأويلاتٍ، وقال سفيان الثوري: فَعَلَ فِعْلاً في العرش سمَّاه استواءً[2].

(١) تحرفت في (أ) و(د١) و(ع): إلى: يشمله، والمثبت من (ب) و(يه).
(٢) المحرر الوجيز ٢/٤٠٨.

وعن أبي الفضل ابن النحوي[1] أنه قال: العرشُ مصدرُ: عَرَشَ يَعْرُشُ عَرْشاً، والمراد بالعرش في قوله: «ثم استوى على العرش» هذا.

وهذا ينبو عنه ما تقرَّر في الشريعة من أنه جسمٌ مخلوقٌ معيَّنٌ.

ومسألةُ الاستواء مذكورةٌ في علم أصول الدِّين، وقد أَمْعَنَ في تقرير ما يمكن تقريرُه فيها القفَّال وأبو عبد الله الرازي[2]، وذكر ذلك في «التحرير» فيطالَع هناك.

ولفظة «العرش» مشتركة بين معانٍ كثيرة:

فالعرشُ سريرُ المَلِك، ومنه ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠] ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: ٤١].

والعرش: السقفُ، وكلُّ ما علا وأظلَّ فهو عرشٌ.

والعرش: المُلْكُ والسلطان والعزُّ، وقال زهير:

تَدَارَكتُما عبساً وقد ثُلَّ عرشُها وذبيانَ إذ زلَّت بأقدامها النعلُ[3]

وقال آخر:

إنْ يقتلوكَ فقد ثَلَلْتَ عروشَهم بعُتَيْبةَ بنِ الحارث بن شهاب[4]

والعرش: الخشب الذي تُطْوَى به البئر بعد أن يُطْوَى أسفلُها بالحجارة.

والعرش: أربعةُ كواكبَ صغارٍ أسفلَ من العوَّاء[5]، يقال لها: عَجُزُ الأسد،

---

(١) يوسف بن محمد بن يوسف التَّوْزَري الأصل التلمساني، له: القصيدة المنفرجة، مشهورة وعليها عدة شروح، توفي سنة (٥١٣هـ). ينظر بغية الوعاة ٢/ ٣٦٢، وهدية العارفين ٢/ ٥٥١، والأعلام ٨/ ٢٤٧. ونقل المصنف كلامه عن المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٨، وتحرف «الفضل» في مطبوعه إلى: الفضيل.

(٢) ينظر تفسيره ١٤/ ١٠١ ومابعدها.

(٣) ديوان زهير ص١٠٩، والصحاح (عرش)، ورواية الديون:

تداركتما الأخلاقَ قد ثُلَّ عرشها وذبيان قد زلَّت ....

(٤) البيت لأبي ذؤاب الأسدي، وقد سلف عند شرح مفردات الآية (٢٥٩) من سورة البقرة.

(٥) العواء: منزل من منازل القمر، خمسة كواكب أو أربعة، ويقال لها: عوَّاء البَرْد، يزعمون أنها إذا طلعت أو سقطت أتت ببرد. الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ١/ ١٨١.

ويسمَّى: عرشَ السِّماك[(١)].

والعرش: ما يلاقي ظهرَ القدم وفيه الأصابع.

و«استوى» أيضاً يُستعمل بمعنى استقرَّ، وبمعنى علا، وبمعنى قَصَدَ، وبمعنى ساوَى، وبمعنى تَسَاوَى، وقيل: بمعنى استَوْلى، وأنشدوا:

هما استويا بفضلهما جميعاً ... على عرش الملوك بغير زُورِ[(٢)]

وقال ابن الأعرابي: لا نعرفُ «استوى» بمعنى «استولى»[(٣)].

والضمير في قوله: «ثم استوى على العرش» يحتمل أن يعود على المصدر الذي دلَّ عليه «خلق»، أي: ثم استوى خَلْقُه على العرش، وكذلك في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] لا يتعيَّن حملُ الضمير في قوله: «استوى» على «الرحمن» إذ يحتملُ أن يكون «الرحمن» خبرَ مبتدأ محذوفٍ، والضميرُ في «استوى» عائدٌ على الخَلْقِ المفهوم من قوله: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ [طه: ٤] أي: هو الرحمنُ استوى خَلْقُه على العرش؛ لأنه تعالى لمَّا ذَكَرَ خَلْقَ السماوات والأرض ذَكَر خلقَ ما هو أكبرُ وأعظمُ وأوسعُ من السماوات والأرض.

ومع الاحتمال في «العرش» وفي «استوى» وفي الضمير العائد لا يتعيَّنُ حملُ الآية على ظاهرها، هذا مع الدلائل العقلية التي أقاموها على استحالة ذلك.

وقال الحسن: استوى أمرُه[(٤)].

وسأل مالكَ بن أنس رجلٌ عن هذه الآية فقال: كيف استوى؟ فأطرق رأسَه مليًّا، وعَلَتْه الرُّحَضاء[(٥)]، ثم قال: الاستواءُ معلومٌ، والكيفُ غيرُ معقولٍ، والإيمانُ

(١) السماك يقال لنجمين نيِّرين هما: الأعزل والرامح، وسمي رامحاً لكوكب صغير بين يديه يقال له: راية السماك، والآخر سمي بالأعزل لأنه لا شيء بين يديه كأنه لا سلاح معه، والقمر ينزل بالأعزل ولا ينزل بالرامح. الأزمنة والأمكنة ١/ ١٨١.

(٢) زاد المسير ٣/ ٢١٣.

(٣) تاريخ بغداد ٥/ ٨٣، وزاد المسير ٣/ ٢١٣.

(٤) سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩].

(٥) عَرَقٌ يغسل الجلد كثرة. القاموس (رحض).

به واجبٌ، والسؤالُ عنه بدعةٌ، وما أظنُّك إلا ضالّاً. ثم أمر به فأُخرج[١].

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ التغشيةُ: التغطية، والمعنى: أنه يُذهب الليلُ نورَ النهار ليَتمَّ قِوَامُ الحياة في الدنيا بمجيء الليل والنهار، فالليلُ للسكون والنهارُ للحركة، وفحوى الكلام يدل على أن النهارَ يُغشيه اللهُ الليلَ، وهما مفعولان، لأن التضعيف والهمزة مُعَدِّيان.

وقرأ بالتضعيف الأخوان وأبو بكر، وبإسكان الغين باقي السبعة[٢].

وبفتح الياء وسكون الغين وفتح الشين وضم اللام حميد بن قيس، كذا قال عنه أبو عَمرو الداني، وقال أبو الفتح عثمان بن جنِّي عن حميد بنصب «الليل» ورفع «النهار»، قال ابن عطية[٣]: وأبو الفتح أثبت. انتهى.

وهذا الذي قاله من أنَّ أبا الفتح أثبتُ، كلامٌ لا يصح، إذ رتبةُ أبي عمرو الداني في القراءات ومعرفتها وضبطِ رواياتها واختصاصُه بذلك بالمكان الذي لا يُدانيه أحدٌ من أئمة القراءات، فضلاً عن النُّحاة الذين ليسوا مُقْرِئين ولا رَوَوا القرآن عن أحدٍ ولا رُوي عنهم القرآن، هذا مع الديانة الزائدة والتثبُّتِ في النقل وعدم التجاسُر ووفورِ الحظِّ من العربية، فقد رأيتُ له كتاباً في «كلَّا» وكتاباً في إدغام أبي عمرو الكبير دلَّا على اطِّلاعه على ما لا يكاد يطَّلعُ عليه أئمةُ النحاة ولا المقرئين، إلى سائر تصانيفه رحمه الله.

والذي نقله أبو عَمرو الداني عن حميد أمكنُ من حيث المعنى؛ لأنَّ ذلك موافقٌ لقراءة الجماعة؛ إذ «الليل» في قراءتهم وإن كان منصوباً، هو الفاعلُ من حيث المعنى؛ إذ همزةُ النقل أو التضعيفُ صيَّره مفعولاً، ولا يجوز أن يكون مفعولاً ثانياً من حيث المعنى؛ لأن المنصوبَيْن تعدَّى إليهما الفعلُ وأحدُهما فاعلٌ من حيث المعنى، فيلزمُ أن يكون الأولَ منهما، كما لزم ذلك في: ملَّكتُ زيداً عَمْراً، إذ رتبةُ التقديم هي الموضِّحةُ أنه الفاعلُ من حيث المعنى، كما لزم ذلك في: ضَرَبَ موسى عيسى.

---

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٨٦٧).

(٢) السبعة ص٢٨٢، والتيسير ص١١٠.

(٣) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٩، وما قبله منه، وكلام ابن جني في المحتسب ١/ ٢٥٣.

والجملةُ من «يَطْلُبه» حالٌ من الفاعل من حيث المعنى وهو «الليل» إذ هو المحدَّثُ عنه قبل التعدية، وتقديره: حاثًّا، ويجوز أن يكون حالاً من النهار، وتقديره: محثوثاً، ويجوز أن يَنْتَصِبَ نعتاً لمصدرٍ محذوفٍ، أي: طلباً حثيثاً، أي: حاثًّا أو محثوثاً[١].

ونسبةُ الطلب إلى الليل مَجازِيَّةٌ، وهو عبارةٌ عن تعاقُبِ اللازِم، فكأنه طالبٌ له لا يدركُه، بل هو في أثره بحيث يكاد يُدْرِكه.

وقدَّم الليلَ هنا كما قدَّمه في ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾[٢] وفي ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ [يس: ٤٠] وفي: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: ١].

وقال أبو عبد الله الرازي: وَصَفَ هذه الحركةَ بالسرعة والشدة لأنَّ تعاقُبَ الليل والنهار يحصُلُ بحركة الفَلَكِ الأعظم، وتلك الحركةُ أشدُّ الحركات سرعةً وأكملُها شدَّةً، حتى إنَّ الباحثينَ عن أحوال الموجودات قالوا: الإنسانُ إذا كان في العَدْوِ الشديد الكامل قبل أن يرفع رِجْلَه ويضعَها يتحرّك الفلكُ الأعظم ثلاثةَ آلافِ ميلٍ، ولهذا قال: «يطلبه حثيثاً» ونظيرُه: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ﴾ الآية [يس: ٤٠] شبَّه ذلك المسيرَ وتلك الحركةَ بالسِّباحة في الماء، والمقصودُ التنبيهُ على السرعة والسهولة وكمالِ الاتِّصال[٣]. انتهى وفيه بعضُ تلخيصٍ.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ﴾ انتصب «مسخَّرات» على الحال من المجموع، أي: وخَلَق الشمسَ.

---

(١) في (أ): محثا، وفي (د١): محيثاً، وسقطت الجملة من (ع)، والمثبت من (ب) و(يه). وكلام المصنف هنا فيه شيء من الغموض واللبس، وكلام السمين في الدر المصون ٥/ ٣٤٢ أوضح منه، ونصه: قوله: «يطلبه» حال من «الليل» لأنه هو المحدث عنه، أي: يَغْشَ النهارَ طالباً له، ويجوز أن يكون من «النهار»، أي: مطلوباً. و«حثيثاً» يحتمل أن يكون نعتَ مصدرٍ محذوف، أي: طلباً حثيثاً، وأن يكون حالاً من فاعل «يطلبه»، أي: حاثًّا، أو من مفعوله، أي: محثوثاً.

(٢) ورد ذلك في أربع آيات، وهي: الآية (٦١) من سورة الحج، والآية (٢٩) من سورة لقمان، والآية (١٣) من سورة فاطر، والآية (٦) من سورة الحديد.

(٣) تفسير الرازي ١٤/ ١١٨.

وقرأ ابن عامر بالرفع في الأربعة على الابتداء والخبر[١]، وقرأ أبان بن تغلب برفع «والنجومُ مسخراتٌ» فقط على الابتداء والخبر[٢].

ومعنى «بأمره»: بمشيئته وتصريفه، وهو متعلِّق بـ«مسخرات» أي: خلقهنَّ جارياتٍ بمقتضَى حكمتهِ وتدبيرِه وكما يريد أن يُصرِّفها، سُمِّي ذلك أمراً على التشبيه كأنهنَّ مأموراتٌ بذلك.

وقال أبو عبد الله الرازي: الشمس لها نوعان من الحركة:

أحدهما: بحسب ذاتها، وذلك يَتمُّ في سنةٍ كاملةٍ، وبسبب ذلك تَحْصُلُ السنة.

والثاني: حركتُها بحسب حركة الفلك الأعظم، ويتم في اليوم بليلته.

فنقول: الليلُ والنهارُ لا يَحْصُلان بحركة الشمس، وإنما يَحصلان بحركة السماء الأقصى الذي يقال له: العرش، فلهذا السببِ لمَّا دلَّ على العرش بقوله: «ثم استوى على العرش» رَبَطه بقوله[٣]: «يُغْشي الليلَ النهار» تنبيهاً على أنَّ حدوث الليل والنهار إنما يَحْصُلُ بحركة العرش، «والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره» تنبيهاً على أنَّ الفلك الأعظم وهو العرشُ يحرِّك الأفلاكَ والكواكبَ على خلافِ طبعها من المشرق إلى المغرب، وأنه تعالى أَوْدَعَ في جِرْم الشمس قوةً قاهرةً باعتبارها قَوِيَتْ على قهر جميع الأفلاك والكواكب، وتحريكِها على خلافِ مقتضَى طبائعها، فهذه أبحاثٌ معقولةٌ ولفظُ القرآن مُشْعِرٌ بها، والعلمُ عند الله[٤]. انتهى.

وتكلَّم في قوله: «مسخرات بأمره» كلاماً كثيراً هو من عِلْمِ الهيئة، وهو علمٌ لم ننظر فيه، قال أربابه: وهو علمٌ شريفٌ يُطَّلعُ فيه على جزئيَّاتٍ غريبةٍ من صنعة الله تعالى يزدادُ بها إيمانُ المؤمن؛ إذ المعرفةُ بجزئيَّات الأشياء وتفاصيلِها ليست كالمعرفة بجمليَّتِها.

---

(١) السبعة ص٢٨٢، والتيسير ص١١٠.
(٢) المحرر الوجيز ٢/٣٠٩، وهي في القراءات الشاذة ص٤٤ عن محمد بن الحنفية.
(٣) في المطبوع: وربط بقوله، وهو خطأ، وفي (أ) و(ب) و(د١) و(ع): ربط بقوله، والمثبت من (يه)، وجاء في تفسير الرازي: ربط به قوله.
(٤) تفسير الرازي ١٤/١١٨ و١٢٠.

وقيل: «بأمره»، أي: ينقادُ بإرادته[(١)]؛ إذ المقصودُ تبيينُ عظيم قدرته لقوله: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١] وقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ الآية [النحل: ٤٠].

وقيل: الأمرُ هنا[(٢)]: الكلام.

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ لمَّا تقدَّم ذكرُ خَلْقِ السماوات والأرضِ والشمسِ والقمرِ والنجومِ وأمره فيها قال ذلك، أي: له الايجادُ والاختراعُ، وجَرَى ما خَلَقَ واخْتَرع على ما يريدُه وبما يأمُر به، لا أحد يَشْرَكُه في ذلك ولا في شيءٍ منه.

وقيل: «الخلق» بمعنى المخلوق و«الأمر» مصدرٌ من: أَمَرَ، أي: المخلوقاتُ كلُّها له وملكُه واختراعُه، وعلى هذا قال النقَّاش وغيرُه: الآيةُ ردٌّ على القائلين بخَلْقِ القرآن؛ لأنه فُرِّق بين المخلوقات وبين الكلام؛ إذ «الأمر» كلامُه[(٣)]. انتهى.

وهو استدلالٌ ضعيفٌ إذ لا يتعيَّنُ حَمْلُ اللفظ على ما ذكر، بل الأظهَرُ خلافُه.

وقال الشعبيُّ: «الخلق» عبارةٌ عن الدنيا، و«الأمر» عبارةٌ عن الآخرة[(٤)].

﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٥٤﴾ أي: علا وعَظُمَ، ولمَّا تقدَّم «إنَّ ربَّكم الله» صَدْرَ الآية، جاء آخرها: «فتبارك[(٥)] الله ربُّ العالمين» وجاء «العالمين» أعمّ من: ربكم، لأنه ذكر خَلْقَ تلك الأشياءِ البديعة وهي عوالمُ كثيرةٌ، فجاء «العالمين» جمعاً لجميع العوالم، وانْدَرَج فيه المخاطَبون بـ: ربكم وغيرُهم.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ الظاهرُ أنَّ الدعاء هو مناجاةُ الله بندائه لطَلَبِ أشياءَ ولدَفْعِ أشياء، وقال الزجَّاج: المعنى: اعبدوا[(٦)].

وانتصب «تضرُّعاً وخفيةً» على الحال، أي: متضرِّعين ومُخْفين، أو: ذوي تضرُّعٍ واختفاءٍ في دعائكم، وفي الحديث الصحيح: «إنَّكم لستُم تَدْعون أصمَّ

(١) في (أ) و(د١) و(ع): بنفاذ إرادته، والمثبت من (ب) و(يه).
(٢) في (أ) و(ب) و(د١) و(ع): هو، والمثبت من (يه).
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٠٩.
(٤) المصدر السابق.
(٥) كذا في النسخ، والآية هنا: تبارك، دون فاء، والتي بالفاء هي الآية (٦٤) من سورة غافر.
(٦) ينظر معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٤٤.

ولا غائباً، إنكم تَدْعُون سميعاً قريباً»(١) وكان الصحابة حين أخبرهم الرسولُ بذلك قد جَهَروا بالذِّكر.

أَمَرَ تعالى بالدعاء مقروناً بالتذلُّل والاستكانة والاختفاء، إذ ذاك أدْعَى للإجابة وأبعدُ عن الرياء، والدعاءُ خُفيةً أفضلُ من الجهر، ولذلك أثنى الله على زكريَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]، وفي الحديث: «خيرُ الذِّكر الخفيُّ»(٢)، وقواعدُ الشريعة مقرِّرة أنَّ السرَّ فيما لم يُفْتَرضْ من أعمال البرِّ أعظمُ أجراً من الجهر.

قال الحسن: أدركنا أقواماً ما كان على الأرض عملٌ يقدرون أن يكون سرّاً فيكون جهراً أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ولا يُسمع لهم صوتٌ، إنْ هو إلا الهمسُ بينهم وبين ربِّهم(٣). انتهى.

ولو عاش الحسنُ إلى هذا الزمانِ العجيبِ الذي ظَهَرَ فيه ناسٌ يَتَسمَّوْنَ بالمشايخ، يَلْبَسون ثيابَ شهرةٍ عند العامَّة بالصَّلاح ويتركون الاكتسابَ، ويرتِّبون لهم أذكاراً لم تَرِدْ في الشريعة يَجْهَرون بها في المساجد، ويَجْمَعون لهم خُدَّاماً يجلبون الناسَ إليهم لاستخدامهم ونَتْشِ أموالهم، ويُذيعون عنهم كراماتٍ، ويَرَوْن لهم مناماتٍ يدوِّنونها في أسفارٍ، ويحضُّون على ترك العلم والاشتغالِ بالسنَّة، ويَرَوْن الوصولَ إلى الله بأمورٍ يقرِّرونها من خلواتٍ وأذكارٍ لم يأت بها كتابٌ مُنزلٌ ولا نبيٌّ مرسَلٌ، ويتعاظَمون على الناس بالانفراد على سجَّادةٍ، ونصبِ أيديهم للتقبيل، وقلَّةِ الكلام، وإطراقِ الرؤوس، وتعيينِ خادمٍ يقول: الشيخُ مشغولٌ في الخلوة، رَسَم الشيخُ، قال الشيخُ، رأى الشيخُ، الشيخ له نَظَرٌ إليك، الشيخُ كان البارحةَ يَذْكُرك، إلى نحوٍ من هذه الألفاظ التي يَخيشون(٤) بها على العامَّة،

(١) أخرجه البخاري (٦٣٨٤)، ومسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٤٧٧)، وابن حبان (٨٠٩) من طريق محمد بن عبد الرحمن بن أبي لبيبة عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ. قال محققو المسند: إسناده ضعيف، محمد بن عبد الرحمن بن أبي لبيبة ضعيف، ثم هو لم يدرك سعداً.

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٤٠)، والطبري ١٠/ ٢٤٧-٢٤٨.

(٤) أي: يدخلون، في اللسان (خوش): خاش الرجل: دخل في غُمار الناس.

ويَجْلبون بها عقولَ الجَهَلة، هذا إنْ سَلِمَ الشيخُ وخادمُه من الاعتقاد الذي غَلَبَ الآن على متصوِّفة هذا الزمان من القول بالحلول، أو القولِ بالوحدة، فإذ ذاك يكون منسلِخاً عن شريعة الإسلام بالكلِّية، والعَجَبُ لِمثْلِ هؤلاء كيف تُرتَّبُ لهم الرواتبُ، وتُبْنَى لهم الرُّبُط، وتُوْقَفُ عليهم الأوقاف، ويخدمهم الناسُ في عُروِّهم عن سائر الفضائل، ولكنَّ الناسَ أقربُ إلى أشباههم منهم إلى غيرِ أشباههم، وقد أَطَلْنا في هذا رجاءَ أنْ يقف عليه مسلمٌ فينتفعَ به.

وقرأ أبو بكر بكسر ضمة الخاء[١]، وهما لغتان. وقيل: «خِفْية» بكسر الخاء بمعنى الخوف والرهبة، ويَظْهَر ذلك من كلام أبي عليٍّ[٢]، ولا يتأتَّى إلَّا على ادِّعاء القَلْب[٣]، وهو خلافُ الأصل، ونقل ابن سِيْدَه في «المحكم» أنَّ فرقةً قرأت: و«خِيفةً» من الخوف، أي: ادْعُوه باستكانةٍ وخوفٍ، وقال أبو حاتم: قرأها الأعمش فيما زعموا[٤].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ قرأ ابنُ أبي عبلة: «إنَّ الله»، جَعَل مكانَ المُضْمَرِ المُظْهَرَ[٥].

وهذا اللفظُ عامٌّ يدخل فيه أولاً الدعاءُ على غير هذين الوجهين من عدم التضرُّع وعدم الخفية، بأنْ يَدْعُوَه وهو مُلْتبِسٌ بالكِبْر والزَّهْوِ، أو أنَّ ذلك دأبُه في المواعيد والمدارس فصار ذلك له صنعةً وعادةً فلا يلحقه تضرُّعٌ ولا تذلُّلٌ، وبأنْ يَدْعُوَه بالجهر البليغ والصياحِ، كدعاء الناس عند الاجتماع في المشاهِدِ والمَزارات.

وقال العلماء: الاعتداءُ في الدعاء على وجوه، منها: الجهرُ الكثير والصِّياح،

(١) السبعة ص٤٨٣، والتيسير ص١٠٣.
(٢) في الحجة ٤/ ٣٠، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر ٢/ ٤١٠. وجاء في مطبوع الحجة: الخِيْفة، بدل: الخِفْية، وهو خطأ، والصواب الموافق لما نقله المصنف عن ابن عطية: الخِفْية، كما جاء في إحدى نسخ الحجة في حواشيه.
(٣) أي: أن يُعتقد تقدم اللام على العين، أي: أن الأصل: خِيفة، فتقدمت الفاء على الياء فأصبحت: خِفْية. ينظر الدر المصون ٥/ ٣٤٤.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٠.
(٥) المصدر السابق.

وأنْ يدعُوَ أن يكونَ له منزلةُ نبيٍّ، وأنْ يدعوَ بمُحَالٍ ونحوِه من الشَّطَط، وأنْ يدعُوَ طالباً معصيةً.

وقال ابن جُرَيج والكلبيُّ: الاعتداءُ رفعُ الصوت بالدعاء[١]. وعنه[٢]: الصياحُ في الدعاء مكروهٌ وبِدعةٌ.

وقيل: هو الإسهابُ في الدعاء؛ قال القرطبي وقد ذكر وجوهاً من الاعتداء في الدعاء، قال: ومنها أن يدعُوَ بما ليس في الكتاب العزيز ولا في السنَّة، فيتخيَّرَ ألفاظاً مُقَفَّاةً وكلماتٍ مُسجَّعةً، قد وجدها في كراريس لهؤلاء -يعني المشائخ- لا معوَّل عليها، فيجعلُها شعارَه ويتركُ ما دعا به رسولُ الله ﷺ وكل هذا يمنعُ من استجابة الدعاء[٣].

وقال ابن جُبير: الاعتداءُ في الدعاء أن يدعو على المؤمنين بالخِزْي والشِّرك واللعنة[٤].

وفي «سنن» ابن ماجه: أنَّ عبد الله بن مُغَفَّلٍ سمع ابنَه يقول: اللهم إنِّي أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتُها، فقال: أيْ بُني سَلِ اللهَ الجنةَ وعُذْ به من النار، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «سيكون قومٌ يعتدون في الدعاء»[٥].

زاد ابن عطية والزمخشريُّ في هذا الحديث: «وحَسْبُ المرء أن يقول: اللهمَّ إني أسألك الجنةَ وما قرَّب إليها من قولٍ وعمل، وأعوذُ بك من النار وما قرَّب إليها من قولٍ وعمل» ثم قرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾[٦].

---

(١) تفسير الرازي ١٤/ ١٣٢، وذكره الزمخشري في الكشاف ٢/ ٨٣ عن ابن جريج وحده.

(٢) أي: عن ابن جريج كما في الكشاف ٢/ ٨٣، وعنه نقل المصنف، وأخرجه بنحوه الطبري ١٠/ ٢٤٩.

(٣) تفسير القرطبي ٩/ ٢٤٨.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٠٠، وفيه: بالشر، مكان: بالشرك، وهو الصواب، فإن الدعاء على المؤمنين بالشرك كفرٌ والعياذ بالله.

(٥) سنن ابن ماجه (٣٨٦٤)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٦٨٠١)، وأبو داود (٩٦)، وعندهما: ... في الدعاء والطهور.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٠، والكشاف ٢/ ٨٣، وهذه قطعة من حديث آخر أخرجه أحمد (١٤٨٣) في قصة جرت بين سعد بن أبي وقاص ﷺ وابنه، شبيهةٍ بقصة عبد الله بن مغفل ﷺ مع ابنه.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ هذا نهيٌ عن إيقاع الفساد في الأرض وإدخالِ ماهيته في الوجود، فيتعلَّق بجميع أنواعه من إفساد النفوسِ والأنسابِ والأموالِ والعقولِ والأديانِ، ومعنى «بعد إصلاحها»: بعد أنْ أَصْلَح الله خَلْقَها على الوجه الملائم لمنافع الخَلْقِ ومصالحِ المكلَّفين، وما رُوي عن المفسِّرين من تعيين نوعِ الإفساد والإصلاح ينبغي أن يُحْمَلَ ذلك على التمثيل؛ إذ ادِّعاءُ تخصيصِ شيءٍ من ذلك لا دليلَ عليه، كالظلم بعد العدل، أو الكفرِ بعد الإيمان، أو المعصيةِ بعد الطاعة، أو بالمعصية فيمسِكُ اللهُ المطرَ ويُهْلِكُ الحرثَ بعد إصلاحها بالمطر والخِصْب، أو بقتل المؤمن بعد بقائه، أو بتكذيب الرُّسل بعد الوحي[١]، أو بتغوير الماءِ المَعين وقطع الشجر والثمر ضِراراً، أو بقطع الدنانير والدراهم، أو بتجارة الحكَّام، أو بالإشراك بالله بعد بعثة الرسل وتقريرِ الشرائع وإيضاحِ الملة[٢].

﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ لمَّا كان الدعاء من الله بمكانٍ كرَّره، فقال أولاً: «ادعوا ربَّكم تضرُّعاً وخُفية»، وهاتان الحالتان من الأوصاف الظاهرة؛ لأنَّ الخشوع والاستكانة وإخفاءَ الصوت ليست من الأفعال القلبية، ثم كرَّر الأمر بالدعاء خوفاً وطمعاً، وهما من الأفعال القلبية، أي: وَجِلينَ مُشْفِقينَ وراجِينَ مؤمِّلين، فبدأ أولاً بأفعال الجوارح ثم ثانياً بأفعال القلوب.

وانتصب «خوفاً وطمعاً» على أنهما مَصْدَران في موضع الحال، أو انتصابَ المفعول له.

وعَطْفُ أحدهما على الآخر يقتضي أن يكون الخوفُ والرجاءُ متساويَيْنِ فيكونان للإنسان كالجناحين للطائر يحملانه في طريق استقامة، فإن انفرد أحدُهما هَلَكَ الإنسانُ، وقد قال كثيرٌ من العلماء: ينبغي أن يَغْلِبَ الخوفُ الرجاءَ طولَ الحياةَ، فإذا جاءُ الموتُ غَلَبَ الرجاءُ، ورأى كثيرٌ من العلماء أن يكون الخوفُ أغلبَ، ومنه تمنَّى الحسن البصريُّ أن يكون الرجلَ الذي هو آخِرُ مَن يدخلُ

---

(١) هذه ستة أقوالٍ في الآية ذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢١٥-٢١٦.

(٢) هذه الأقوال ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤١٠، والأول عن الضحاك، ولفظه: لا تغوِّروا الماء المعين، ولا تقطعوا الشجر المثمر ضراراً. ونقله عنه القرطبي ٩/ ٢٤٩، وفي مطبوعه: لا تعوِّروا. . .، وتعوير عيون المياه: دفنها وسدُّها. ينظر اللسان (عور).

الجنة، وتمنَّى سالمٌ مولى أبي حذيفةَ أن يكون من أصحاب الأعراف؛ لأنَّ مذهبه أنهم مُذْنبون[١]. وسالمٌ هذا من رتبة الدِّين والفضل بحيث قال فيه عمر بن الخطاب كلاماً معناه: لو كان سالم مولى أبي حذيفةَ حيًّا لولَّيْتُه الخلافة[٢].

وأَبْعَدَ مَن ذَهَبَ إلى أنَّ المعنى: خوفاً من الردِّ وطمعاً في الإجابة.

﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ قال الزمخشريُّ: كقوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [طه: ٨٢][٣]. انتهى، يعني أنَّ الرحمة مختصَّةٌ بالمُحْسِنِ، وهو مَن تابَ وآمَنَ وعمل صالحاً، وهذا كلُّه حملٌ للقرآن دائماً[٤] على مذهبه من الاعتزال.

والرحمة مؤنَّثةٌ، فقياسُها أنْ يُخْبَر عنها إخبارَ المؤنَّث فيقالَ: قريبة.

فقيل: ذكَّر على المعنى؛ لأنَّ الرحمة بمعنى الرَّحْمِ والترحُّم.

وقيل: ذكَّر لأنَّ الرحمة بمعنى الغفران والعفو، قاله النَّضْرُ بن شُمَيْلٍ، واختاره الزجَّاج[٥].

وقيل: بمعنى المطر؛ قاله الأخفش[٦]، أو الثواب قاله ابن جبير[٧].

فالرحمةُ في هذه الأقوال بدلٌ عن مذكَّر.

وقيل: التذكير على طريق النَّسَب، أي: ذاتُ قُرْبٍ.

وقيل: «قريب» نعتٌ لمذكَّرٍ محذوف، أي: شيء قريب.

وقيل: «قريبٌ» مشبَّهٌ بفَعيل الذي هو بمعنى مفعول، نحو: خَضيب وجَريح،

---

(١) نقل المصنف هذه الأقوال عن المحرر الوجيز ٢/ ٤١١، وخبر تمني سالم مولى أبي حذيفة أن يكون من أصحاب الأعراف سلف عند تفسير الآية (٤٩) من هذه السورة.
(٢) أخرجه الطبري في التاريخ ٤/ ٢٢٧.
(٣) الكشاف ٢/ ٨٣.
(٤) تحرفت في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع إلى: وإنما، ولم تجود في (ب)، والمثبت من (يه).
(٥) في معاني القرآن ٢/ ٣٤٤.
(٦) في معاني القرآن ٢/ ٥١٩.
(٧) تفسير البغوي ٢/ ١٦٦.

كما شبِّه فعيلٌ به فقَبِلَ شيئاً من أحكامه، فقيل في جمعه: فُعَلاء كأسيرٍ وأُسَراء، وقتيلٍ وقُتَلاء، كما قالوا: رحيم ورُحَماء وعليم وعُلماء.

وقيل: هو مصدر جاء على فعيل، كالضَّغيث وهو صوتُ الأرنب، والنقيق، وإذا كان مصدراً صحَّ أن يُخْبَرَ به عن المذكَّر والمؤنَّث والمفردِ والمثنَّى والمجموع بلفظ المصدر.

وقيل: لأن تأنيث الرحمة غيرُ حقيقيٍّ؛ قاله الجوهري[1]، وهذا ليس بجيدٍ إلَّا مع تقدُّم الفعل، أمَّا إذا تأخَّر فلا يجوزُ إلا التأنيثُ، تقول: الشمس طالعةٌ، ولا يجوز: طالعٌ إلَّا في ضرورة الشعر، بخلاف التقديم فيجوزُ: أطالعةٌ الشمسُ، و: أطالعٌ الشمسُ، كما يجوز: طلعت الشمس، و: طلع الشمس، ولا يجوز: الشمس طلع، إلا في الشعر.

وقيل: فعيلٌ هنا بمعنى المفعول، أي: مقرَّبةٌ، فيصير من باب: كفٌّ خَضيبٌ، و: عينٌ كَحيلٌ؛ قاله الكرمانيُّ، وليس بجيدٍ؛ لأن ما ورد من ذلك إنما هو من الثلاثيِّ غيرِ المزيد، وهذا بمعنى: مقرَّبة، فهو من الثلاثيِّ المزيد، ومع ذلك فهو لا ينقاس.

وقال الفراء: إذا استُعمل في النسب والقرابة فهو مع المؤنَّث بتاءٍ ولا بد، تقول: هذه قريبةُ فلان، وإذا استُعملت في قرب المسافة أو الزَّمن فقد تجيءُ مع المؤنث بتاءٍ وقد تجيءُ بغيرِ تاءٍ، تقول: دارُك منِّي قريبٌ، وفلانةُ منَّا قريبٌ، ومنه هذا، وقولُ الشاعر:

عَشِيَّةَ لا عفراءُ منك قريبةٌ ... فتدنو ولا عفراءُ منك بعيدُ[2]

---

(١) في الصحاح (قرب).

(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٨٠-٣٨١، وتهذيب اللغة ٢/ ٢٤٥ (بعد)، والمحرر الوجيز ٢/ ٤١١، وزاد المسير ٣/ ٢١٦، واللسان (بعد)، وجميعهم نقلوه عن الفراء، وعزاه الفراء لعروة، وهو ابن حزام كما سيرد. وذكره الأزهري أيضاً في تهذيب اللغة ٩/ ١٢٥ (قرب)، وصاحب اللسان (قرب) برواية:

ليالي لا عفراء منك بعيدة ... فتسلو ولا عفراء منك قريب

وكذا ورد البيت عن عروة في الأغاني ٢٤/ ١٥٥ ضمن قصيدة على رَويِّ الباء، وفيه: عشية لا عفراء...

فجمَعَ في هذا البيت بين الوجهين.

قال ابن عطية: هذا قولُ الفرَّاء في كتابه، وقد مرَّ في كتب بعض المفسِّرين مغيَّراً[١]. انتهى.

وردَّ الزجَّاج هذا على الفرَّاء وقال: هذا خطأ؛ لأن سبيل المذكَّر والمؤنَّث أن يجريا على أفعالهما[٢].

وقال مَن احتجَّ له: كذا[٣] كلام العرب، قال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣] وقال الشاعر:

لـه الـويـلُ إنْ أمـسـى ولا أمُّ هـاشـمٍ قـريـبٌ ولا البَسْباسةُ ابنةُ يَشْكُرَا[٤]

وقال أبو عبيدة: «قريب» في الآية ليس بصفةٍ للرحمة، وإنما هو ظرفٌ لها وموضعٌ، فتجيء هكذا في المؤنَّث والاثنين والجمع، وكذلك بعيدٌ، فإذا جعلوها صفةً بمعنى مقتربة قالوا: قريبةٌ وقريبتان وقريبات[٥].

قال علي بن سليمان: وهذا خطأ، ولو كان كما قال لكان «قريب» منصوباً، كما تقول: إن زيداً قريباً منك[٦]. انتهى.

وليس بخطأ؛ لأنه يكون قد اتَّسَعَ في الظرف فاستعمله غيرَ ظرفٍ، كما تقول: هندٌ خَلْفُك، و: فاطمة أمامُك، بالرفع إذا اتَّسعْتَ في الخلف والأمام، وإنما يلزمُ النصبُ إذا بَقِيَتَا على الظرفية ولم يُتَّسع فيهما، وقد أجازوا: إنَّ قريباً منك زيدٌ، على أن يكون «قريباً» اسمَ «إنَّ» و«زيد» الخبر، فاتُّسع في «قريب» واستُعمل اسماً لا منصوباً على الظرف.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤١١، ووقع في مطبوعه: مقيداً، مكان: مغيراً.

(٢) معاني القرآن للزجاج٢/ ٢٤٥ بنحوه، واللفظُ من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٢، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٥١.

(٣) في (د١) والمطبوع: هذا، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس وتفسير القرطبي.

(٤) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٦٨.

(٥) مجاز القرآن ١/ ٢١٦-٢١٧، والمحرر الوجيز٢/ ٤١١، والكلام منه.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٢، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٥١. وعلي بن سليمان هو أبو الحسن المعروف بالأخفش الأصغر.

والظاهرُ عدمُ تقييد قُرْبِ الرحمة من المُحْسِنِ بزمانٍ، بل هي قريبٌ منه مطلقاً، وذكر الطبريُّ أنه وقتَ مفارَقةِ الأرواح للأجساد تنالُهم الرحمة[١].

❁ ❁ ❁

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا
سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا
كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨) لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا
اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ
إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ
(٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ
جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ
وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤) وَإِلَى
عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ
لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ
أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ
جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا
تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ
أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي
مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٧١) فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا
لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً
فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ

---

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٢٥٠.

جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا
وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ ٱلْمَلَأُ
ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا
مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا
بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ
ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ
(٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ
ٱلنَّٰصِحِينَ (٧٩) وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ
(٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا
كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢)
فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ (٨٤) وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا
لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ
وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ
لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ
وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ
أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ (٨٧)﴾.

أقلَّ الشيءَ: حَمَله ورَفَعه من غير مشقَّةٍ، ومنه: إقلالُ البطن عن الفخذ في الركوع والسجود، ومنه: القلَّة؛ لأنَّ البعير يحملُها من غيرِ مشقَّةٍ، وأصلُه من القِلَّة فكان المُقِلُّ يَرَى ما يرفعُه قليلاً، واستقلَّ به: أَقَلَّه. المفردات

السَّوْق: حملُ الشيءِ بعنف.

النَّكِد: العَسِر القليل(١)؛ قال الشاعر:

(١) في (ب) و(يه): العسر الأخلاق، والكلام من المحرر الوجيز ٢/ ٤١٤، وفيه: العسير القليل. وهو قريب مما قاله أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٢١٧، قال: «نَكِداً»، أي: قليلاً عسيراً في شدة.

لا تُنْجِزُ الوعدَ إنْ وعدْتَ وإن أعْطَيتَ أعْطَيْتَ تافهاً نَكِدَا[١]

ونَكِدَ الرجلُ: سُئِلَ إلحافاً وأُخْجِلَ؛ قال الشاعر:

وأَعْطِ ما أَعْطَيْتَه طيِّباً لا خيرَ في المنكود والناكِدِ[٢]

الآلاء: النِّعم، واحدها: إلىً ك: مِعىً؛ أنشد الزجَّاج:

أبيضُ لا يرهَبُ الهُزالَ ولا يقطَعُ رُحْمَى ولا يخونُ إلَى[٣]

وإلىً: إنىً بمعنى الوقت[٤]، أو ألىً ك: قَفاً، أو إلْيٌ ك: حِسْي، أو أَلْوٌ كجَرْو[٥].

«وقع» قال النَّضْر بنُ شُمَيْل: قَرَعَ وصَدَع كوقوع المِيْقَعة، وقال غيره: نزل، والواقعة: النازِلةُ من الشدائد، والوقائع: الحروب، والمِيْقَعة: المِطْرقة؛ قال بعض أدبائنا:

ذو الفضل كالتِّبْر طَوْراً تحت ميقعةٍ وتارةً في ذُرَى تاجٍ على مَلِكِ[٦]

«ثمود» اسمُ قبيلةٍ سميِّت باسم أبيها، ويأتي ذكرُه في التفسير إن شاء الله.

الناقة: الأنثى من الجمال، وأَلِفُها منقلبة عن الواو، وجمعُها في القلَّة: أَنْوُقٌ

(١) البيت دون نسبة في مجاز القرآن ١/ ٢١٧، وتفسير الطبري ١٠/ ٢٥٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٤١٤، وزاد المسير ٣/ ٢٢٠.

(٢) أورده صاحب الأغاني ٦/ ٤٨ ضمن قصيدة طويلة لأعشى همدان قالها في عبد الرحمن بن الأشعث، وهو دون نسبة في العين ٥/ ٣٣١، وتفسير الطبري ١٠/ ٢٥٧، والنكت والعيون ٢/ ٢٣٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٤١٤، وأساس البلاغة واللسان والتاج (نكد).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٤٨، والبيت للأعشى ميمون بن قيس، وهو في ديوانه ص٢٨٥، وجاء في المصدرين: رِحماً، بدل: رُحْمى.

(٤) أي: «إلىً» مثلُ «إنىً» في تصاريف المفرد والجمع. ينظر الدر المصون ٥/ ٣٦٠. وقد سقطت كلمة «إلى» من بعض النسخ، وكلمة «إنى» من بعضها الآخر، ووردتا مجموعتين في (ب) وحدها.

(٥) هذه كلها مفرد الآلاء: إلىً وألىً وإلْيٌ وأَلْوٌ، وزاد في القاموس: أَلْيٌ، وفي الدر المصون ٥/ ٣٦٠: أُلْيٌ، ك: قُفْل.

(٦) البيت لابن حزم، كما في الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ١/ ١٧٤، ومعجم الأدباء ١٢/ ٢٤٥، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٠٨.

وأَيْنُقٌ، وفيه القلبُ والإبدال، وفي الكثرة: نِيَاقٌ ونُوقٌ، واستَنْوَقَ الجملُ: إذا صار يُشْبِهُ الناقةَ.

السَّهْل: ما لان من الأرض وانخفض، وهو ضدُّ الحَزْن.

القَصْر: الدار التي قُصِرَت على بقعةٍ من الأرض مخصوصةٍ، بخلافِ بيوت العمود، سمِّي بذلك لقصور الناس عن ارتقائه، أو لقصورِ عامَّتهم عن بنائه.

النَّحْت: النَّجْر والنشر في الشيءِ الصلب كالحجر والخشب، قال الشاعر:

أمَّا النهارُ ففي قيدٍ وسلسلةٍ والليلُ في بطنِ منحوتٍ من السَّاجِ(١)

عَقَرْتُ الناقةَ: قتلتُها، فهي معقورةٌ وعقيرٌ، ومنه: «مَنْ عُقِرَ جواده» قاله ابن قتيبة(٢).

وقال الأزهري(٣): العَقْر عند العرب: كَسْفُ(٤) عُرقوب البعير، ولمَّا كان سبباً للنحر أُطلق العَقْرُ على النحر إطلاقاً لاسم السَّبب على المُسبَّب وإن لم يكن هناك قطعٌ للعرقوب، قال امرؤ لقيس:

ويومَ عَقَرْتُ للعذارى مَطِيَّتي(٥)

---

(١) البيت دون نسبة في الجمل للخليل ص٤٣، والكتاب ١/ ١٦٠، والمقتضب ٤/ ٣٣١، ونسبه الجاحظ في الحيوان ٧/ ١٥٨، والسيرافي في شرح أبيات سيبويه ١/ ٢٣٦ للجَرَنْفَش بن عَبَدة الطائي، وجاء الاسم في الحيوان: الجَرَنْفَس بالسين المهملة، وكذا ذكره ابن دريد في الاشتقاق ص٣٩٠، وبالشين المعجمة جاء في المؤتلف والمختلف ص٩٩، والتاج (عبد). ومعنى اللفظ في الحالتين: الضخم، أو الشديد من الرجال، والسين والشين لغتان فيه. ينظر التاج (جرفس) و(جرنفش).

(٢) تفسير غريب القرآن ص٤٣٣، وقوله: «من عقر جواده» قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٩٤٣٥) وابن ماجه (٢٧٩٤) عن عَمْرو بن عَبَسَة ﷺ، وفيه: فقلت: أيُّ الجهاد أفضل؟ قال: «مَن عُقر جواده، وأهريق دمه».

(٣) في تهذيب اللغة ١/ ٢١٥، ونقله المصنف عنه بواسطة الرازي في تفسيره ١٤/ ١٦٥.

(٤) في النسخ عدا (ب): كشف، وكذا وقع في مطبوع تفسير الرازي، والمثبت من (ب) وتهذيب اللغة، وهو الصواب، قال صاحب القاموس (كسف): كسفه يكسفه: قطعه، وعُرقوبَه: عرقبه.

(٥) وعجزه: فيا عجباً من رحلها المتحمَّل، وهو في ديوانه ص١١. ووقع في المطبوع: فيا عجباً =

وقال غيره: والعقرُ بمعنى الجَرْح، قال:

تـقـولُ وقـد مـال الـغـبـيـطُ بـنـا مـعـاً   عَقَرْتَ بعيري يا امْرأَ القيس فانزِلِ[(١)]

عَتَا يعتو عُتُوّاً: اسْتَكْبَر.

الرَّجْفة: الطامَّة التي يَرْجُفُ لها الإنسان، أي: يتزعزعُ ويضطربُ ويرتعدُ، ومنه: ترجُفُ بوادِرُه، وأصلُ الرَّجْف: الاضطراب، رَجَفتِ الأرضُ، والبحرُ رجَّافٌ لاضطرابه، وأَرْجَفَ الناس بالشر: خاضوا فيهِ واضطربوا، ومنه: الأَرَاجيف، ورَجَفَ بهم الجمل: اضطرب؛ قال الشاعر:

ولـمَّـا رأيـتُ الـحـجَّ قـد حـان وقـتُـه   وظلَّتْ جمالُ القوم بالحيِّ تَرْجُفُ[(٢)]

الجُثُوم: اللُّصوق بالأرض على الصَّدر مع قَبْضِ الساقين كما يَرْقُدُ الأرنب والطير.

غَبَرَ: بَقِيَ، قال أبو ذؤيب:

فَـغَـبَـرْتُ بَـعْـدَهُـمُ بـعـيـشٍ نـاصـبٍ   وإخـالُ أنِّـي لاحِـقٌ مُـسْـتَـتْـبِـعُ[(٣)]

هذا المشهورُ في اللغة، ومنه: غُبَّر الحيض، قال أبو كبير الهذلي:

ومـبـرَّأً مِـن كـلِّ غُـبَّـرِ حـيـضـةٍ   وفـسـادِ مُـرْضِـعـةٍ وداءٍ مُـغْـيِـلِ[(٤)]

وغُبَّرُ اللبن في الضَّرْع: بقيتُه، وحكى أهلُ اللغة: غَبَر، بمعنى: مضى، قال الأعشى:

= من كورها المتحمل، وليس في النسخ. ومعنى البيت: أنه عَجِبَ لِمَا فعل مِن عَقْر ناقته حتى رحلها على أخرى، كأنه سفَّه نفسه لذلك. قاله شارح الديوان.

(١) ديوان امرئ القيس ص١١. الغبيط: ما يوضع على ظهر البعير لتركب المرأة فيه، كالرَّحْل للرجُل. المعجم الوسيط (غبط).

(٢) عزاه السمين في الدر ٥/ ٣٦٨ لابن أبي ربيعة، وليس في ديوانه، وأورده الثعلبي في تفسيره ٣/ ٤٠، والقرطبي ٩/ ٢٧٢، وفيهما: بالقوم، بدل: بالحي.

(٣) ديوان الهذليين ١/ ٢.

(٤) ديوان الهذليين ٢/ ٩٣، وجاء في المطبوع: وداء مُعْضِل، وهي رواية ذكرها ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/ ٥١٩.

عـضَّ بـمـا أَبْـقَـى الـمَـوَاسِـي لـه مِـنْ أمّـه فـي الـزمـن الـغـابِـرِ[(١)]

وبمعنى: غاب، ومنه: غَبَرَ عنَّا زماناً، أي: غاب؛ قاله الزجّاج[(٢)].

وقال أبو عبيدة: غَبَر: عُمِّر دهراً طويلاً حتى هَرِم[(٣)].

المطر معروف، وقال أبو عبيدة: يقال في الرحمة: مَطَرَ، وفي العذاب: أَمْطَرَ[(٤)].

وهذا معارَضٌ بقوله: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] فإنهم لم يريدوا إلّا الرحمة، وكلاهما متعدٍّ، يقال: مَطَرَتْهم السماءُ وأَمْطَرَتْهم.

شعيب: اسمُ نبيٍّ وسيأتي ذكرُ نسبِهِ في التفسير إنْ شاء الله.

* * *

التفسير ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾ لمَّا ذكر تعالى الدلائلَ على كمال إلهيته وقدرته وعِلْمِه من العالَم العلويّ أتبعهما بالدلائل من أحوال العالَم السفليّ، وهي محصورةٌ في آثار العالَم العُلْوي، ومنها الريحُ والسحابُ والمطر، وفي المعدن والنبات والحيوان، ويترتَّبُ على نزول المطر أحوالُ النبات، وذلك هو المذكورُ في الآية، وانجرَّ مع ذلك الدلالةُ على صحة الحشر والنشر والبعث والقيامة.

وانتظمت هاتان الآيتان محصِّلتين المبدأ والمعاد، وجُعل الخبر موصولاً في «إنَّ ربَّكم الله الذي» وفي «وهو الذي» دلالةً على كون ذلك معهوداً عند السامع مفروغاً من تحقُّق النسبة فيه والعلمِ به، ولم يأت التركيب: إنَّ ربَّكم خَلَقَ، ولا: وهو يرسِلُ الرياح.

وقرأ: «الرياح نُشُراً» جمعين، وبضم الشين جمع ناشِرٍ على النَّسَب، أي: ذاتَ

(١) ديوان الأعشى ص١٩٥.
(٢) في معاني القرآن ٢/ ٣٥٣.
(٣) ينظر مجاز القرآن ١/ ٢٧١ و٢/ ٨٩ و١١٥.
(٤) مجاز القرآن١/ ٢٤٥.

نَشْرٍ من الطيِّ، كـ: لابِن وتامِر، وقالوا: بازِل وبُزُل، وشارِف وشُرُف، وهو جمعٌ نادرٌ في فاعِلٍ، أو: نُشورٍ من الحياة[١]، أو جمعُ نَشورٍ كـ: صَبُور وصُبُر، وهو جمعٌ مَقيسٌ، لا جمعُ نَشُورٍ بمعنى مَنْشورٍ خلافاً لمن أجاز ذلك؛ لأنَّ فَعولاً ـ كـ: رَكوب بمعنى مركوب ـ لا ينقاسُ، ومع كونه لا ينقاس لا يُجمع على فُعُل = الحسنُ والسُّلميُّ وأبو رجاء، واختُلف عنهم، والأعرج وأبو جعفر وشيبةُ وعيسى بنُ عمرٍ، وأبو يحيى وأبو نوفل الأعرابيان، ونافعٌ وأبو عمرو[٢].

وقرأ كذلك جمعاً إلا أنهم سكَّنوا الشين تخفيفاً من الضم كـ: رُسْل، عبدُ الله وابنُ عباس وزرٌّ وابنُ وثاب والنخعي وطلحةُ بن مُصَرِّفٍ والأعمش ومسروقٌ وابنُ عامر[٣].

وقرأ: «نَشَراً» بفتح النون والشين مسروق فيما حكى عنه أبو الفتح[٤]، وهو اسمُ جمعٍ كـ: غَيَب ونَشَأ، في: غائبة وناشئة.

وقرأ ابن كثير: «الريح» مفرداً «نُشُراً» بالنون وضمِّها وضمِّ الشين[٥]، فاحتمل «نُشُراً» أن يكون جمعاً حالاً من المفرد، لأنه أُريدَ به الجنسُ، كقولهم: الدرهم[٦] البيض، واحتمل أن يكون مفرداً كـ: ناقة سُرُح.

وقرأ حمزة والكسائي: «نَشْراً» بفتح النون وسكون الشين[٧] مصدراً لـ: نَشَر خلافَ طوى، أو لـ: نَشَرَ بمعنى حَيِيَ، من قولهم: أَنْشَرَ الله الموتى فنَشَروا، أي: حَيُوا، قال الشاعر:

---

(١) قوله: أو نشور. . . ، معطوف على ما سلف من قوله: ذات نشر. . . ، أي: ذات نشر من الطي أو نشورٍ من الحياة، أي: أن المعنى إذا كان على النسب فهو إما إلى النَّشْر ضد الطي، وإما إلى النشور بمعنى الإحياء. ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٤١٢، والدر المصون ٢/ ٣٤٧.

(٢) القراءة عن نافع وأبي عمرو في السبعة ص٨٣، والتيسير ص٧٨ و١١٠، وعن أبي جعفر في النشر ٢/ ٢٧٠، وعَزْوها إلى مَن ذكر من الأئمة منقول من المحرر الوجيز ٢/ ٤١١-٤١٢.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٢، وهي عن ابن عامر في السبعة ص٢٨٣، والتيسير ص١١٠.

(٤) في المحتسب ١/ ٢٥٥، وهي في القراءات الشاذة ص٤٤.

(٥) السبعةص٢٨٣، والتيسير ص٧٨ و١١٠.

(٦) قوله: الدرهم، تحرف في (أ) و(دا) و(ع) والمطبوع إلى: العرب هم.

(٧) السبعة ص٢٨٣، والتيسير ص١١٠.

حـتـى يـقـولَ الـنـاسُ مـمَّـا رَأَوا   يـا عَـجَـبـاً لـلـمـيـتِ الـنـاشِـرِ[١]

وقرأ: «الرياح» جمعاً ابنُ عباس والسُّلميُّ وابنُ أبي عبلة «بُشُراً» بضم الباء والشين، ورُوِيَتْ عن عاصم[٢]، وهو جمع بَشيرةٍ كـ: نَذيرة ونُذُر.

وقرأ عاصمٌ كذلك إلَّا أنه سكَّن الشين تخفيفاً من الضم[٣].

وقرأ السُّلَميُّ أيضاً «بَشْراً» بفتح الباء وسكون الشين، وهو مصدر بَشَر المخفَّف، ورُويت عن عاصم[٤].

وقرأ ابن السميفع وابن قطيب: «بشرى» بألفٍ مقصورة[٥] كـ: رُجعى - ورُويت عن أبي نوفل وأبي يحيى الأعرابيين[٦] - وهو مصدرٌ.

فهذه ثماني قراءاتٍ: أربعةٌ في النون وأربعة في الباء:

فَمَن قرأ بالباء جمعاً، أو مصدراً بألف التأنيث، ففي موضع الحال من المفعول، أو مصدراً بغيرِ ألفِ التأنيث فيَحْتَمِلُ ذلك ويَحْتَمِلُ أن يكون حالاً من الفاعل.

ومَن قرأ بالنون جمعاً أو اسمَ جمعٍ فحالٌ من المفعول، أو مصدراً فيَحتمِلُ أن يكون حالاً من الفاعل، وأن يكون حالاً من المفعول، أو مصدراً لـ«يرسل» من المعنى؛ لأن إرسالها هو إطلاقُها، وهو بمعنى النَّشْر، فكأنه قيل: يَنْشُر الرياح نَشْراً، ووصفُ الريح بالنُّشُر بأحد معنيين: بخلاف الطَّيِّ، وبالحياة، قال أبو عبيدة في النُّشُر: إنها المتفرِّقة في الوجوه[٧]، وقال الشاعر في وصف الريح بالإحياء والموت:

---

(١) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٩١.
(٢) المحتسب ١/ ٢٥٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٤١٢.
(٣) وهي المشهورة عن عاصم، وهي في السبعة ص٢٨٣، والتيسير ص١١٠.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٢، وهي عن السلمي في المحتسب ١/ ٢٥٥، وعن عاصم من رواية عصمة في القراءات الشاذة ص٤٤.
(٥) القراءات الشاذة ص٤٤، والمحتسب١/ ٢٥٥، والمحرر الوجيز٢/ ٤١٢.
(٦) قوله: ورويت. . .، من (ب) و(ز١) و(يه)، وهو منقول من المحرر ٢/ ٤١٢.
(٧) مجاز القرآن ١/ ٢١٧ وفيه: «نُشراً»، أي: متفرقة من كل مهبٍّ وجانب وناحية.

وهبَّت له ريحُ الجنوب وأُحْيِيَتْ له رَيْدةٌ يُحْيي المياهَ نسيمُها[١]

والرَّيْدةُ والرَّيْدانة: الريح، وقال الآخر:

إنِّي لأرجو أن تموتَ الريحُ فأقعدُ اليومَ وأستريحُ[٢]

ومعنى «بين يدي رحمته»: أمام نعمته، وهو المطرُ الذي هو من أجلِّ النعم وأحسنها أثراً، والتعبير[٣] عن أمام الرحمة بقوله: «بين يدي» من مجاز الاستعارة؛ إذ الحقيقةُ هو ما بين يدي الإنسان من الأجرام.

وقال الكرماني: قال هنا: «يرسل» لأن قبل ذلك: «وادعوه خوفاً وطمعاً» فهما في المستقبل فناسَبَه المستقبل، وفي «الفرقان» و«فاطر»: ﴿أَرۡسَلَ﴾﴿أَرۡسَلَ﴾ [الفرقان: ٤٨ وفاطر: ٩] لأن قبله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥] وبعده: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ﴾ [الفرقان: ٥٣] وكذا في «الروم»: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ﴾ [الآية: ٤٦] ليوافقَ ما قبله من المستقبل، وفي «فاطر» قبله ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ﴾ [فاطر: ١] وذلك ماضٍ فناسَبَه الماضي. انتهى ملخَّصاً.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ هذه غايةٌ لإرسال الرياح، والمعنى: أنه تعالى يُرسل الرياح مبشِّرات أو مُنْشَرات إلى سَوْق السحاب وقتَ إقلاله إلى بلدٍ ميتٍ، والسحابُ اسمُ جنسٍ بينه وبين مُفْرده تاءُ التأنيث، فيذكَّرُ كقوله: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ﴾ [البقرة: ١٦٤] وقوله: ﴿يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ﴾ [النور: ٤٣] ويؤنَّث، ويُوصَفُ ويُخْبَرُ عنه بالجمع كقوله: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢] وكقوله: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ [ق: ١٠] وثِقلُه بالماء الذي فيه.

ونُسب السَّوقُ إليه تعالى بنونِ العظمة التفاتاً لمَا فيه من عظيم المنَّة وجليل النعمة، وذكَّر الضمير في «سقناه» رعياً للَّفْظِ، كما قلنا إنه يذكَّر.

---

(١) البيت للمَرَّار الفَقْعَسي كما في المخصص لابن سيده ٩/ ٩١، وزاد المسير ٣/ ٢١٧، وهو دون نسبة في اللسان (ريد)، ورواية المخصص واللسان: يُحيي المماتَ نسيمها.

(٢) المخصص ٩/ ٩١، وزاد المسير ٣/ ٢١٧، واللسان والتاج (موت) و(نشر).

(٣) في (أ) و(د١) و(ع): والتعيين، وهو تحريف.

وقال السدِّي: يرسل تعالى الرياح فتأتي بالسحابِ من بين الخافقَيْنِ طرفِ السماء والأرض حيث يلتقيان، فتخرجُه مِن ثَمَّ، ثم ينتشر ويبسطُه في السماء، وتُفتحُ أبوابُ السماء ويسيلُ الماء على السحاب، ثم يمطر السحابُ بعد ذلك. قال[1]: وهذا التفصيلُ لم يَثْبُتْ عن النبيِّ ﷺ. انتهى.

ومذهبُ أهل الحق أنَّ الله تعالى هو الذي يسخِّر الرياحَ ويصرِّفُها حيث أراد بمشيئته وتقديره لا مشارِكَ له في ذلك، وللفلاسفة كيفيةٌ في حصول الرياح ذَكَرها أبو عبد الله الرازي، وأبْطَلها من وجوهٍ أربعةٍ يُوْقَفُ عليها في كلامه.

وللمنجِّمين أيضاً كلامٌ في ذلك أبْطَله، وقال في آخره: فثبت بهذا البرهانِ أن محرِّك الرياح هو اللهُ تعالى، وثبت بالدليل العقلي صحةُ قوله: «وهو الذي يرسل الرياح»[2].

وعن ابن عمر[3]: الرياحُ ثمانٍ؛ أربعٌ منها عذابٌ، وهي: القاصِفُ والعاصِفُ والصَّرْصَرُ والعَقيم، وأربع منها رحمةٌ: الناشرات والمبشِّرات والمرسَلات والذاريات.

واللام في «لبلدٍ» عندي لامُ التبليغ، كقولك: قلت لك، وقال الزمخشري: لأجْلِ بلدٍ[4]، فجعل اللامَ لامَ العلة ولا يظهرُ، وفرقٌ بين قولك: سقتُ لك مالاً، وسقتُ لأجْلك مالاً، فإنَّ الأول معناه: أوصلْتُه لك وأبلَغْتُكَه، والثاني لا يلزمُ منه وصولُه إليه، بل قد يكون الذي وَصَل له المالُ غير الذي عُلِّل به السَّوْق، ألا ترى إلى صحة قول القائل: لأجْلِ زيدٍ سُقتُ لك مالَكَ.

---

(١) أي: ابن عطية في المحرر ٢/ ٤١٣، وما قبله من قول السدي منقول منه، وما بعده هو من كلامه لا من كلام السدي.

(٢) تفسير الرازي ١٤/ ١٣٩-١٤٠.

(٣) كذا في النسخ وتفسير الرازي ٤/ ١٤١، والصواب: ابن عمرو، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير عند تفسير الآية (٥١) من سورة الروم، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ١/ ١٦٤ إلى أبي عبيد، وابن أبي الدنيا في كتاب المطر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ في العظمة.

(٤) الكشاف ٢/ ٨٤.

ووَصْفُ البلد بالموت استعارةٌ حسنةٌ لجدْبِه وعدمِ نباته، كأنه من حيث عدمُ الانتفاعِ به كالجسد الذي لا روحَ فيه، ولمَّا كان ذلك موضعَ قُرْبِ رحمة الله وإظهارِ إحسانِه ذَكَرَ أخصَّ من(١) الأرض وهو البلدُ، حيث مُجْتَمَعُ الناس ومكانُ استقرارهم، ولمَّا كان في سورة يس المقصدُ إظهارَ الآياتِ العظيمةِ الدالَّةِ على البعث جاء التركيبُ باللفظ العامِّ، وهو قولُه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [الآية: ٣٣] وبعده: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [الآية: ٣٧] ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الآية: ٤١].

وسكَّن ياء «الميت» عاصمٌ وأبو عمرو والأعمش(٢).

﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ الظاهرُ أن الباء ظرفيةٌ والضمير عائدٌ على «بلد ميت»، أي: فأنزلنا فيه الماءَ، وهو أقربُ مذكورٍ، ويَحْسُنُ(٣) عَوْدُه إليه فلا يُجعلُ لأبعد مذكور.

وقيل: الباء سببيةٌ والضميرُ عائدٌ على السحاب.

وقيل: عائدٌ على المصدر المفهوم من «سقناه»، فالتقدير: بالسحاب أو بالسوق.

والثالثُ ضعيفٌ؛ لأنه عائدٌ على غير مذكورٍ مع وجود المذكور وصلاحيته للعَوْد عليه.

وقيل: عائدٌ على السحاب، والباءُ بمعنى «مِن»، أي: فأنزلنا منه الماء، كقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان ٦] أي: منها. وهذا ليس بجيدٍ؛ لأنه تضمينٌ في الحروف.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الخلافُ في «به» هنا كالخلاف السابق في «به».

وقيل: الأولُ عائدٌ على السحاب والثاني على البلد، عدل عن كنايةٍ إلى كنايةٍ من غير فاصلٍ، كقوله: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥] وفاعلُ «أَمْلَى» اللهُ تعالى.

---

(١) قوله: من، من (ب) و(ز١) و(يه).
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٣، وهي في السبعة ص٢٠٣، والتيسير ص٨٧ عن ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وشعبة.
(٣) في (يه): وبحسن، وجاء في النهر على هامش مطبوع البحر ٤/ ٣١٧: فحسن.

﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: مِثْلَ هذا الإخراجِ نُخْرِجُ الموتى من قبورهم أحياءً إلى الحشر لعلكم تذكَّرون بإخراج الثمرات وإنشائها خروجَكم للبعث؛ إذِ الإخراجان سواءٌ، فهذا الإخراجُ المشاهَدُ نظيرُ الإخراج الموعود به.

خرَّج البيهقيُّ وغيرُه عن [أبي] رَزينٍ العُقيلي قال: قلت: يا رسول الله، كيف يعيد الله الخلق، وما آيةُ ذلك في خَلْقه؟ قال: «أمَا مررتَ بوادي قومك جَدْباً ثم مررتَ به يهتزُّ خَضِراً؟» قال: نعم، قال: «فتلك آيةُ الله في خَلْقِه»(١). انتهى.

وهل التشبيهُ في مطلق الإخراج ودلالة إخراج الثمرات على القدرة في إخراج الأموات، أم في كيفيةِ الإخراج، وأنه يَنزلُ مطرٌ عليهم فيَحْيَوْنَ كما يَنْزِلُ المطرُ على البلد الميت فيحيا نباتُه؟ احتمالان.

وقد رُوي عن أبي هريرة ﷺ أنه يُمطَرُ عليهم من ماءٍ تحت العرش يقال له ماء الحيوان أربعين سنةً، فيَنْبُتون كما يَنْبُتُ الزرعُ، فإذا كَملت أجسامُهم نُفخ فيها الروحُ، ثم يُلْقَى عليهم نومةٌ فينامون، فإذا نُفخ في الصور الثانيةَ قاموا وهم يجدون طعم النوم، فيقولون: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ فيناديهم المنادي: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾(٢).

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾ «الطيِّب»: الجيِّدُ الترابِ الكريمُ الأرض، و«الذي خَبُث»: المكانُ السَّبْخُ الذي لا يُنْبِتُ ما يُنْتَفعُ به، وهو الرَّديء من الأرض، ولمَّا قال: «فأخرجنا به من كلِّ الثمرات» تمم هذا المعنى بكيفية ما يخرج من النبات من الأرض الكريمة والأرض السَّبخة، وتلك عادةُ الله في إنبات الأرضين.

(١) الاعتقاد للبيهقي ص١٤٥، والأسماء والصفات (١٠٦٩) و(١٠٧٠)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٦١٩٣)، والحاكم ٤/ ٥٦٠. والكلام من تفسير القرطبي ٩/ ٢٥٥، وما بين حاصرتين من المصادر، وأبو رزين اسمه لقيط بن عامر.

(٢) ذكره الطبري ١٠/ ٢٥٥-٢٥٦ دون إسناد، وموضع الشاهد منه وهو نباتهم بنزول المطر، أخرجه مسلم (٢٩٥٥)، ولفظه: «ثم يُنزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل».

وفي الكلام حالٌ محذوفةٌ، أي: يَخْرجُ نباتُه وافياً حسناً، وحُذفت لِفَهْم المعنى، ولدلالةِ «والبلدُ الطيِّبُ» عليها، ولمقابَلتها بقوله: «إلَّا نَكِداً»، ولدلالة «بإذن ربه» لأنَّ ما أَذِنَ الله في إخراجه لا يكون إلَّا على أحسن حالٍ. و«بإذن ربِّه» في موضع الحال.

وخَصَّ خروجَ نبات الطيِّب بقوله: «بإذن ربِّه» على سبيل المدح له والتشريفِ، ونسبةِ الأشياء[1] الشريفةِ الطيبةِ إليه تعالى، وإن كان كِلَا النباتين يخرج بإذنه تعالى.

ومعنى «بإذن ربِّه»: بتيسيره، وحُذف من الجملة الثانية الموصوفُ أيضاً، والتقدير: والبلد الذي خَبُثَ، لدلالة «والبلد الطيب» عليه، فكلٌّ من الجملتين فيه حذفٌ.

وغايَرَ بين الموصولين فصاحةً وتفنُّناً، ففي الأولى قال: «الطيب»، وفي الثانية قال: «الذي خبث»، وكان إبرازُ الصلة هنا فعلاً بخلاف الأول ليُعادِلَ في اللفظ بكون ذلك كلمتين الكلمتين في قوله: «والبلدُ الطيب»، والطيبُ والخبيثُ متقابلان في القرآن كثيراً: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١٠٠] ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ﴾ [البقرة: ٢٦٧] إلى غير ذلك.

والفاعل في «لا يَخْرجُ» عائد على «الذي خبث»، وقد قلنا: إنه صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ. والبلدُ لا يخرج، فيكون على حذفِ مضافٍ إمَّا من الأول، أي: ونباتُ الذي خَبُثَ، أو من الثاني، أي: لا يخرج نباتُه، فلمَّا حُذف استكنَّ الضمير الذي كان مجروراً لأنه فاعل.

وقيل: هاتان الجملتان قُصِدَ بهما التمثيل، فقال ابن عباس وقتادة: مثالٌ لروح المؤمن يرجع إلى جسده سهلاً طيباً كما خرج إذ[2] مات، ولروح الكافر لا يرجع إلا بالنَّكَد كما خرج إذ مات[3]. انتهى.

---

(١) في النسخ والمطبوع: الإسناد، والمثبت من النهر على هامش مطبوع البحر ٣١٨/٤.

(٢) في المطبوع: إذا.

(٣) لم أقف عليه بهذا المعنى، إلا أن كونه تمثيلاً للمؤمن والكافر أخرجه عنهما الطبري ٢٥٨/١٠-٢٥٩.

فيكون هذا راجعاً من حيث المعنى إلى قوله: «كذلك نُخْرِجُ الموتَى» أي: على هذين الوصفين.

وقال السدِّي: مثالٌ للقلوب لمَّا نزل القرآنُ كنزول المطر على الأرض، فقَلْبُ المؤمن كالأرض الطيِّبة قَبِلَت الماءَ وانْتُفِعَ بما تُخرِجُ، وقلبُ الكافر كالسَّبخة لا يَنْتَفِعُ بما يقبل من الماء[(١)].

وقال النحاس: هو مثالٌ للفهيم والبليد[(٢)].

وقال الزمخشري: وهذا مَثَلٌ لمن يَنْجَعُ فيه الوعظُ والتنبيه من المكلَّفين ولمن لايؤثِّر فيه شيء من ذلك، وعن مجاهد: ذرية آدمَ خبيثٌ وطيِّبٌ، وهذا التمثيلُ واقعٌ على أثر ذكر المطر وإنزالِه بالبلد الميت وإخراجِ الثمرات به على طريق الاستطراد[(٣)]. انتهى.

والأظهرُ ما قدَّمناه من أنَّ المقصود التعريفُ بعبادة الله تعالى في إخراج النبات في الأرض الطيبة والأرض الخبيثة، دون قصدٍ إلى التمثيل بشيءٍ مما ذكروا.

وقرأ ابنُ أبي عبلة وأبو حَيْوَةَ وعيسى بنُ عُمر: «يُخْرَجُ نباتُه» مبنيًّا للمفعول[(٤)].

وقرأ ابن القعقاع «نَكَداً» بفتح الكاف، قال الزجاج: وهي قراءةُ أهل المدينة. وقرأ ابنُ مصرِّفٍ بسكونها[(٥)]، وهما مصدران: أي: ذا نكدٍ.

وكونُ نباتِ الذي خَبُثَ محصوراً خروجُه على حالة النكد مبالغةٌ شديدةٌ في

---

(١) أخرجه بنحوه مطولاً الطبري ١٠/ ٢٥٩.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٣٤ بنحوه، والمحرر الوجيز ٢/ ٤١٤، وعنه نقل المصنف. وجاء في (ب) و(ز١) و(يه): للفهم، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في المحرر.

(٣) الكشاف ٢/ ٨٤، وخبر مجاهد أخرجه الطبري ١٠/ ٢٥٨-٢٥٩.

(٤) ذكرها عنهم ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤١٤، إلا أنه قيَّدها بضم الياء وكسر الراء ونصب التاء، أي: «يُخْرِج نباتَه»، وكذا ضبطت في القراءات الشاذة ص٤٤ عن عيسى بن عمر.

(٥) تنظر القراءتان في القراءات الشاذة ص٤٤، والمحرر الوجيز ٢/ ٤١٤، والكلام منه. وقول الزجاج في معاني القرآن ٢/ ٣٤٦.

كونه لا يكون إلا هكذا، ولا يمكن أن يوجد إلا نكداً، وهي إشارةٌ إلى أنَّ من استقرَّ فيه وصفُ الخُبْث يَبْعُدُ عنه النزوعُ إلى الخير.

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: مِثْلَ هذا التصريفِ والترديد والتنويع ننوِّعُ الآيات ونردِّدها، وهي الحججُ الدالة على الوحدانية والقدرة الباهرة التَّامَّة والفعلِ بالاختيار.

ولمَّا كان ما سَبَقَ ذِكْرُه من إرسال الرياح منتشرات[١] ومبشِّرات سبباً لإيجاد النبات الذي هو سببُ وجود الحياة وديمومتها، كان ذلك أكبرَ نعمةٍ على الخلق فقال: «لقوم يشكرون» أي: هذه النعمة التي لا تكاد توازيها[٢] نعمةٌ، وخصَّ الشاكرين لأنهم هم المنتفعون بهذه النعم على ما ينبغي، وهم الذين ينتفعون بالآيات وتصرُّفها؛ لأن مَن لا يفكِّر في النعم لا يَشْكُر ولا ينتفعُ بالآيات.

وقرئ: «يصرِّف» بالياء[٣] مراعاةً للغيبة في قوله: «بإذن ربِّه».

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ لمَّا ذكر في هذه السورة مبدأ الخَلْق الإنسانيِّ وهو آدمُ عليه السلام، وقصَّ من أخباره ما قصَّ، واستطرد من ذلك إلى المَعاد ومَصِيرِ أهل السعادة إلى الجنة وأهلِ الشقاوة إلى النار، وأَمْرِه تعالى بترك الذين اتَّخذوا دينهم لعباً ولهواً، وكان مَن بُعث إليهم رسولُ الله ﷺ أولاً غيرَ مستجيبين له ولا مصدِّقين لما جاء به عن الله، قصَّ تعالى عليه أحوال الرسل الذين كانوا قبل، وأحوالَ مَن بُعثوا إليه على سبيل التسلية له ﷺ والتأسِّي بهم، فبدأ بنوحٍ إذ هو آدمُ الأصغر، وأولُ رسولٍ بُعث إلى مَن في الأرض، وأمتُه أدْوَمُ تكذيباً له وأقلُّ استجابةً.

وتقدَّم رَفْعُ نَسَبِه إلى آدمَ[٤]، وكان نجَّاراً بعثه الله إلى قومه وهو ابنُ أربعين

---

(١) في (ب) و(يه): منشرات.

(٢) في (أ) و(د١) و(ع): توازنها.

(٣) القراءات الشاذة ص٤٤ عن يحيى وإبراهيم.

(٤) عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا﴾ الآية: [آل عمران: ٣٣].

سنة؛ قاله ابنُ عباس[(١)]. وقيل: ابنُ خمسين. وقال مقاتل: ابنُ مئةٍ. وقيل: ابنُ مئتين وخمسين. وقيل: ابنُ ثلاثِ مئةٍ. وقال عون بن [أبي] شداد: ابنُ ثلاث مئة وخمسين[(٢)].

وقال وَهْبٌ: ابنُ أربع مئة[(٣)].

وهذا اضطرابٌ كثيرٌ من أربعين إلى أربع مئة فما بينهما.

ورُوي أنَّ الطوفان كان سنة ألفٍ وستِّ مئة من عمره[(٤)].

وهو أولُ الرسل بعد آدم بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات، وجميعُ الخَلْق الآن من ذرية نوحٍ عليه السلام.

وعن الزهري أنَّ العربَ وفارساً والرومَ وأهلَ الشام واليمنِ من ذرية سام بن نوح، والهِنْدَ والسِّنْدَ والزِّنْجَ والحبشةَ والزُّطَّ والنُّوبةَ وكلَّ جلدٍ أسودَ من ولد حام بن نوح، والتُّركَ والبربر ووراء الصين ويأجوج ومأجوج والصَّقالبة من ولد يافث بن نوح[(٥)].

«لقد أرسلنا» استئنافُ كلامٍ دون واوٍ، وفي «هود» و«المؤمنين» ﴿وَلَقَدْ﴾ [هود: ٢٥، والمؤمنون: ٢٣] بواو العطف، قال الكرماني: لمَّا تقدَّم ذكرُ الرسول مرَّاتٍ في «هود»، وتقدَّم ذكرُ نوحٍ ضمناً في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٢] لأنه أولُ مَن صنعها، عطف في السورتين. انتهى.

واللامُ جوابُ قسم محذوفٍ، أكَّد تعالى هذا الإخبار بالقَسَم، قال الزمخشري: فإن قلت: ما لهم لا يكادون ينطقون بهذه اللام إلا مع «قد»، وقلَّ عنهم [نحو] قوله:

---

(١) قطعة من خبر أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٦١٩) عن ابن عباس موقوفاً، وأخرجه الحاكم ٢/ ٥٤٥-٥٤٦ عنه مرفوعاً.

(٢) أخرجه الطبري ١٨/ ٣٧٠، وما بين حاصرتين منه، وهو عون بن أبي شداد العقيلي ويقال: العبدي، أبو معمر البصري، روى عن أنس رضي الله عنه، وأبي عثمان النهدي، ومطرف بن عبد الله بن الشخير، وغيرهم. تهذيب التهذيب ٣/ ٣٣٨.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٦، وعنه نقل المصنف أكثر هذه الأقوال.

(٤) المصدر السابق.

(٥) تفسير القرطبي ٩/ ٢٥٩.

حَلَفْتُ لها بالله حَلْفَةَ فاجرٍ لناموا ....[١]

قلت: إنما كان ذلك لأن الجملة القَسَمية لا تُساقُ إلَّا تأكيداً للجملة المقسَم عليها التي هي جوابُها، فكانت مظنةً لمعنى التوقُّع الذي هو معنَى «قد» عند استماع المخاطَب كلمة القسم[٢]. انتهى.

وبعضُ أصحابنا يقول: إذا أَقْسَم على جملةٍ مصدَّرةٍ بماضٍ مثبَتٍ متصرِّفٍ، وكان قريباً من زمان الحال، أُثبت مع اللام بـ «قد» الدالةِ على التقريب من زمن الحال، ولم يأتِ بـ «قد» بل باللام وحدها إن لم يُرِدِ التقريب.

قال ابن عباس: «أرسلنا»: بعثنا. وقال غيره: حَمَّلناه رسالةً يؤدِّيها. فعلى هذا تكون الرسالةُ متضمِّنةً للبعث[٣].

وهنا: «فقال» بفاء العطف، وكذا في «المؤمنين»، وفي قصة عادٍ وصالحٍ وشعيبٍ هنا «قال» بغير فاءٍ، والأصلُ الفاءُ وحُذفت في القصتين[٤] توسُّعاً واكتفاءً بالربط المعنويِّ. وفي قصة نوح في «هود»: ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ [الآية: ٢٥] على إضمار القول، أي: فقال: إنِّي.

وفي ندائه قومَه تنبيهٌ لهم لِمَا يُلقيه إليهم، واستعطافٌ وتذكيرٌ بأنهم قومُه، فالمناسبُ أن لا يُخالفوه، ومعمولُ القول جملةُ الأمر بعبادة الله وحده ورَفْضِ آلهتهم المسمَّاة وَدًّا وسُواعاً ويَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْراً وغيرها، والجملةُ المنبِّهة على الوصف الداعي إلى عبادة الله وهو انفرادُه بالألوهية المرجوُّ إحسانُه المحذورُ انتقامُه دون آلهتهم، ولم تأتِ بحرفِ عطفٍ لأنها بيانٌ وتفسيرٌ لعلة اختصاصه تعالى بأنْ يُعبد.

(١) وتمامه: ... لناموا فما إن من حديثٍ ولا صالٍ، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٣٢. الفاجر هنا: الكاذب. والصالي: الذي يصطلي بالنار. يقول: لمَّا خوَّفتني من السُّمَّار أقسمت لها كاذباً أن ليس منهم أحدٌ إلا نائما. قاله شارح الديوان.

(٢) الكشاف٢/ ٨٤، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) تفسير الرازي ١٤/ ١٤٨.

(٤) لعله أراد: في القصص، فهي ثلاث قصص وليست قصتين.

وقرأ ابنُ وثَّابٍ والأعمشُ وأبو جعفر والكسائيُّ: «غيرِه» بالجرِّ[١] على لفظ «إلهٍ» بدلاً أو نعتاً، وقرأ باقي السبعة: «غيرُه» بالرفع عطفاً على موضع «من إلهٍ» ـ لأنَّ «من» زائدةٌ ـ بدلاً أو نعتاً.

وقرأ عيسى بن عمر: «غيرَه» بالنصب[٢] على الاستثناء، والجرُّ والرفعُ أفصحُ.

و«من إلهٍ» مبتدأ و«لكم» في موضع الخبر. وقيل: الخبر محذوفٌ، أي: في الوجود، و«لكم» تبيينٌ وتخصيصٌ.

و«أخاف» قيل: بمعنى أتيقَّن وأجزمُ؛ لأنه عالمٌ أنَّ العذاب ينزل بهم إن لم يؤمنوا. وقيل: الخوفُ على بابه بمعنى الحذر؛ لأنه جوَّز أن يؤمنوا وأن يستمرُّوا على كفرهم. و«يوم عظيم» هو يومُ القيامة، أو يومُ حلولِ العذاب بهم في الدنيا وهو الطوفان. وفي هذه الجملة إظهارُ الشفقة والحنوِّ عليهم.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ قال ابن عطية: قرأ ابنُ عامرٍ: «الملَوُ» بالواو، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام[٣]. انتهى، وليس مشهوراً عن ابن عامرٍ، بل قراءتُه كقراءة باقي السبعة بهمزةٍ.

ولم يُجِبْه من قومه إلا أشرافُهم وسادتُهم، وهم الذين يتعاصَون على الرسل لانغمارِ عقولهم بالدنيا، وطلبِ الرئاسة والعلوِّ فيها.

و«نراك» الأظهرُ أنها من رؤية القلب، وقيل: من رؤية العين، ومعنى «في ضلال مبين»، أي: في ذهابٍ عن طريق الصواب، وجهالةٍ بما تسلك بيِّنةٍ واضحةٍ، وجاءت جملةُ الجواب مؤكَّدةً بـ «إنَّ» وباللام، و«في» للوعاء، فكأنَّ الضلال صار ظرفاً له وهو فيه، ولم يأت: ضالًّا، ولا: ذا ضلالٍ.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ لم يَرِدِ النفيُ منه على لفظ ما قالوه،

---

(١) السبعة ص٢٨٤، والتيسير ص١١٠ عن الكسائي، والنشر٢/ ٢٧٠ عن أبي جعفر، والكلام من المحرر الوجيز ٢/ ٤١٥.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٥، وهي في القراءات الشاذة ص٤٤ دون نسبة.

(٣) المحرر الوجيز٢/ ٤١٥.

فلم يأت التركيب: لستُ في ضلالٍ مبين، بل جاء في غاية الحسن مِن نفي أن يَلْتَبِسَ به ويختلطَ ضلالةٌ مَّا واحدةٌ، فأنَّى يكون في ضلال، فهذا أبلغُ في[1] الانتفاء من الضلال؛ إذ لم يَعْتَلِقْ به ولا ضلالةٌ واحدةٌ.

وفي ندائه لهم ثانياً والإعراضِ عن جفائهم ما يدلُّ على سعة صدره والتلطُّف بهم.

ولمَّا نفى عنه التباسَ ضلالةٍ مَّا به دلَّ على أنه على الصراط المستقيم، فصحَّ أن يستدرك، كما تقول: ما زيدٌ بضالٍّ لكنه مهتدٍ، فـ: «لكنَّ» واقعةٌ بين نقيضين؛ لأن الإنسان لا يخلو من أحد الشيئين: الضلال والهدى، ولا تُجامع الضلالةَ الرسالةُ.

وفي قوله: «من ربِّ العالمين» تنبيهٌ على أنه ربُّهم لأنهم من جملة العالَم، أي: من ربِّكم المالكِ لأموركم الناظرِ لكم بالمصلحة حيث وجَّه إليكم رسولاً يدعوكم إلى إفرادِه بالعبادة.

و«أبلِّغكم» استئنافٌ على سبيل البيان بكونه رسولاً، أو جملةٌ في موضع الصفة لـ«رسول» ملحوظاً فيه كونُه خبراً لضميرِ متكلِّم، كما تقول: أنا رجلٌ آمُرُ بالمعروف، فتُراعي لفظَ «أنا»، ويجوز: يأمر بالمعروف، فتُراعي لفظَ «رجل»، والأكثر مراعاةُ ضمير المتكلِّم والمخاطَب، فيعودُ الضميرُ ضميرَ متكلِّم أو مخاطَبٍ، قال تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧] بالتاء، ولو قرئ بالياء لكان عربيًّا مراعاةً لِلَفظ «قوم» لأنه غائبٌ.

وقرأ أبو عمرو: «أُبْلِغُكم» هنا في الموضعين وفي «الأحقاف» بالتخفيف، وباقي السبعةِ بالتشديد[2]، والهمزةُ والتضعيفُ للتعدية فيه.

وجمع «رسالات» باعتبارِ ما أُوحي إليه في الأزمان المتطاولة، أو باعتبارِ المعاني المختلفة من الأمر والنهي، والزجر والوعظ، والتبشير والإنذار، أو باعتبارِ ما أُوحي إليه وإلى مَن قَبْلَه؛ قيل: في صحف إدريس وهي ثلاثون صحيفةً، وفي صحف شيث وهي خمسون صحيفة[3].

---

(١) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: من، والمثبت من باقي النسخ وهو الصواب.
(٢) السبعة ص٢٨٤، والتيسير ص١١١، وآية الأحقاف: ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ [الآية: ٢٣].
(٣) الكشاف ٢/ ٨٥-٨٦.

وتقدَّم الكلام في «نَصَح» وتعديتها، وقال الزمخشري: وفي زيادة اللام مبالغةٌ ودلالةٌ على إمْحاضِ النصيحة، وأنها وقعت للمنصوح له مقصوداً به جانبُه[١] لا غير، فربَّ نصيحةٍ يَنتفِعُ بها الناصحُ فيقصد النفعين جميعاً، ولانصيحة أنفعُ من نصيحة الله تعالى ورسله.

وقال الفرَّاء: لا تكاد العرب تقول: نصحتُك، إنما: نصحتُ لك، وقال النابغة:

نـصـحـتُ بـنـي عـوفٍ فـلـم يـتـقـبَّـلـوا[٢]

وفي قوله: «ما لا تعلمون» إبهامٌ عليهم، وهو عامٌّ ولكن ساق ذلك مساق المعلومات التي تُخافُ عليهم، ولم يسمعوا[٣] قطُّ بأمةٍ عُذِّبت، فتضمَّنَ التهديدَ والوعيدَ، فيحتمل أن يريد: ما لا تعلمون من صفات الله وقدرته وشدة بطشه على مَن اتَّخذ إلهاً معه، أو يريد: ما لا تعلمون مما أُوحي إليَّ.

قال ابن عطية: ولا بد أنَّ نوحاً عليه السلام وكلَّ نبيٍّ مبعوثٍ إلى الخلق كانت له معجزةٌ بخرق العادة، فمنهم مَن عرَّفَنا بمعجزته ومنهم مَن لم يعرِّف[٤].

وما أحسنَ سياق هذه الأفعال! قال أولاً: «أبلِّغكم رسالات ربِّي»، وهذا مبدأُ أمره معهم وهو التبليغ، كما قال: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، ثم قال: «وأنصحُ لكم»، أي: أُخلِصُ لكم في تبيين الرشد والسلامة في العاقبة إذا عَبدتم الله وحده، ثم قال: «وأعلم من الله ما لا تعلمون» من بطشه بكم، وهو مآلُ أمركم إذا لم تُفْرِدوه بالعبادة، فنبَّه على مبدأ أمره ومنتهاه معهم.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾

تضمَّن قولُهم: «إنَّا لنراك في ضلالٍ مبين» استبعادَهم واستمحالَهم ما أخبرهم به من

---

(١) في الكشاف: وأنها وقعت خالصة للمنصوح له مقصوداً بها جانبه.

(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ٩٢ عند شرح قوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِى﴾ [البقرة: ١٥٢]. والبيت في ديوان النابغة ص٩٣، وعجزه: وصاتي ولم تنجح لديهم وسائلي.

(٣) في المحرر الوجيز ٢/ ٤١٥: المعلومات المخوفات عليهم لا سيما وهم لم يسمعوا. . . ، وهو أوضح.

(٤) في (ز١): يعرفه، وفي (ب) و(يه): نعرفه.

خوف العذاب عليهم، وأنه بَعَثَه الله إليهم بعبادته وحده ورَفْضِ آلهتهم، وتعجَّبوا من ذلك، وقد ذكر[١] أبو عبد الله الرازي سببَ استبعادهم إرسالَ نوح[٢]، والهمزةُ للإنكار والتوبيخ، أي: هذا ممَّا لا يُعجَبُ منه، إذ له تعالى التصرُّفُ التامُّ بإرسال مَن يشاء لمن يشاء.

قال الزمخشري: الواو للعطف، والمعطوفُ [عليه] محذوفٌ، كأنه قيل: أكذَّبتُم وعَجِبْتُم أنْ جاءكم[٣]. انتهى، وهو كلامٌ مخالفٌ لكلام سيبويه والنحاة؛ لأنهم يقولون: إن الواوَ لعطف ما بعدها على ما قبلها من الكلام ولا حذفَ هناك، وكأنَّ الأصل: وأَعَجِبْتُم، لكنه اعتُني بهمزة الاستفهام فقدِّمت على حرف العطف؛ لأنَّ الاستفهام له صدرُ الكلام، وقد تقدَّم الكلامُ معه في نظير هذه المسألة، وقد رجع هو عن هذا إلى قولِ الجماعة[٤].

والذِّكر: الوعظ، أو الوحي، أو المُعْجِز، أو كتابٌ معجز، أو البيان. أقوالٌ.

والأَوْلى أن يكون قولُه: «على رجل» فيه إضمارٌ، أي: على لسان رجلٍ، كما قال: ﴿مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، وقيل: «على» بمعنى «مع». وقيل: لا حذفَ ولا تضمين في الحرف، بل قولُه: «على رجل» هو على ظاهره؛ لأنَّ «جاءكم» بمعنى: نزل إليكم، كانوا يتعجَّبون من نبوَّة نوحٍ ويقولون: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤] يعنون إرسال البشر ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾[٥] وذكر عِلة المجيء، وهو الإعلامُ بالمَخُوف، والتحذيرُ من سوء عاقبة

---

(١) في (أ) و(د١) و(ع): وقال، بدل: وقد ذكر، وهو خطأ.

(٢) تفسير الرازي ١٤/ ١٥٢.

(٣) الكشاف ٢/ ٨٦، وما بين حاصرتين منه.

(٤) ينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا﴾ [البقرة: ١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وغيرها كثير.

(٥) هذه الآية (١٤) من سورة فصلت، وقد تابع المصنفُ بذكرها الزمخشريَّ في الكشاف ٢/ ٨٦، والكلام منه، والصواب هنا ذكر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ الذي ورد في سورة المؤمنون قبل قوله تعالى: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ فهو الذي ورد في قصة نوح، أما آية فصلت فهي في عاد وثمود.

الكفر، ووجودُ التقوى منهم، ورجاءُ الرحمة لهم، وكأنها عللٌ مترتِّبة [أي:][(١)] فجاءكم الذكرُ للإنذار بالمَخُوف، والإنذارُ بالمخوف لأجْلِ وجودِ التقوى منهم، ووجودُ التقوى لرجاءِ الرحمة وحصولِها، فعلَّل المجيءَ بجميع هذه العلل المترتِّبة؛ لأنَّ المترتِّب على السبب سببٌ.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أخبر تعالى أنهم كذَّبوه، هذا مع حُسْنِ مُلاطَفتِهِ لهم ومُراجَعَتِهِ لهم وشفقته عليهم، فلم يكن نتيجةَ هذا كلِّه إلا التكذيبُ له فيما جاء به عن الله.

«والذين معه في الفلك» هم مَن آمَنَ به وصدَّقه، وكانوا أربعين رجلاً، وقيل: ثمانون: أربعون رجلاً وأربعون امرأة؛ قاله الكلبي[(٢)]. وإليهم تُنسب القريةُ التي يُنسب إليها الثمانيني[(٣)]، وهي بالموصل.

وقيل: عشرة فيهم أولادُه الثلاثة[(٤)].

وقيل: تسعة منهم بَنُوه الثلاثة[(٥)].

وفي قوله: «وأغْرَقنا الذين كذَّبوا» إعلامٌ بعلَّة الغرق وهو التكذيب، و«بآياتنا» يقتضي أنَّ نوحاً كانت له آياتٌ ومعجزاتٌ تدلُّ على إرساله، ويتعلَّق «في الفلك» بما تعلَّق به الظرفُ الواقعُ صلةً، أي: والذين استقرُّوا معه في الفلك، ويحتمل أن يتعلَّق بـ«أنجيناه»، أي: أنجيناهم في السفينة من الطوفان، وعلى هذا يحتمل أن تكون «في» سببيةً، أي: بالفلك، كقوله: «دخلت النار في هرَّة»[(٦)] أي: بسبب هرَّة.

(١) ما بين حاصرتين من النهر على هامش مطبوع البحر ٤/ ٣٢٢.
(٢) تفسير الثعلبي ٣/ ٣٣.
(٣) عمر بن ثابت، أبو القاسم الضرير النحوي، أخذ النحو عن ابن جني، وشرح كتاب «اللمع» له شرحاً تامًّا حسناً أجاد فيه، وله أيضاً: كتاب المفيد في النحو، وشرح التصريف المُلوكي، توفي سنة (٤٤٢هـ). معجم الأدباء ١٦/ ٥٧، ووفيات الأعيان ٣/ ٤٤٣.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٦، وتحرف في مطبوعه: فيهم، إلى: فهم.
(٥) تفسير الثعلبي ٣/ ٣٣، والكشاف ٢/ ٨٦.
(٦) قطعة من حديث ابن عمر عند البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٥٨٥٣).

و«عَمِين» من عَمَى القلب، أي: غيرَ مستبصِرين، ويدلُّ على ثبوت هذا الوصف كونُه جاء على وزن فَعِلٍ، ولو قُصد الحدوث[١] لجاء على فاعلٍ، كما جاء ضائقٌ في ضيِّق وثاقلٌ في ثقيل إذا قُصد به حدوثُ الضِّيق والثِّقل.

قال ابن عباس: عَمِيتْ قلوبُهم عن معرفة التوحيدِ والنبوَّةِ والمَعَاد[٢].

وقال [أبو] معاذ النحويُّ[٣]: رجلٌ عَمٍ في أمره: لا يبصره، وأعمى في البصر، قال:

ولكنَّني عن علم ما في غدٍ عَمِ[٤]

وقد يكون العَمِي والأعمى كالخَضِر والأخضر.

وقال الليث: رجلٌ عمٍ: إذا كان أعمى القلب[٥].

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ «عاد»: اسمُ الحيِّ ولذلك صَرَفه، وبعضُهم جَعَله اسماً للقبيلة فمنعَه الصرف، قال الشاعر:

لو شَهْدَ عادَ في زمانِ عادِ لابْتزَّها مَبارِكَ الجِلَادِ[٦]

سمِّيت القبيلةُ باسم أبيهم، وهو عاد بن عَوْص بن إرَم بن سام بن نوح عليه السلام[٧].

(١) قوله: الحدوث، تحرف في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع إلى: الحذف.
(٢) تفسير الرازي ١٤/ ١٥٣.
(٣) كما في تهذيب اللغة ٣/ ٢٤٥، وما بين حاصرتين منه، وأبو معاذ النحوي هو الفضل بن خالد المروزي مولى باهلة، توفي سنة (٢١١هـ). الثقات ٩/ ٥، وبغية الوعاة ٢/ ٢٤٥.
(٤) وصدره: وأعلم ما في اليوم والأمس قبله، والبيت لزهير، وهو في ديوانه ص٢٩.
(٥) ينظر العين ٢/ ٢٦٦، وتهذيب اللغة ٣/ ٢٤٥.
(٦) الرجز في الكتاب ٣/ ٢٥١، والإنصاف لابن الأنباري ٢/ ٥٠٤. قوله: شَهْدَ، أراد: شَهِدَ، فسكَّن الهمزة تخفيفاً، وأراد بمبارك الجِلَاد: وسَط الحرب ومعظمها، يقول: لو شهد هذا الممدوحُ في الحرب عاداً على قوتها وعزَّتها لظهر عليها وفاز بمعظم الحرب دونها، ومعنى «ابتزَّها»: سلبها. ينظر شرح شواهد الكتاب للأعلم ص٤٦٢.
(٧) أخرجه الطبري ١٠/ ٢٦٨ عن ابن إسحاق، وينظر المحبَّر ص٣٨٤، والمنتظم ١/ ٢٥٢.

و«هود» قال شيخُنا أبو الحسن الأُبَّذيُّ النحوي المعروف[١]: إنَّ هوداً عربيٌّ، والذي يظهر من كلام سيبويه[٢] لمَّا عدَّه مع نوحٍ ولوطٍ -وهما عجميان- أنه عجميٌّ عنده. انتهى.

وذكر الشَّريف النسَّابة أبو البركات الجَوَّاني[٣] أن يَعْرُبَ بن قحطان بن هود هو الذي زعمتْ يَمَنٌ أنه أولُ مَن تكلَّم بالعربية ونزل أرضَ اليمن، فهو أبو اليمن كلِّها، وأنَّ العرب إنما سُمِّيتْ عرباً به. انتهى، فعلى هذا لا يكون هودٌ عربيًّا.

وهودٌ هو عابر[٤] بن شالخ بن أَرْفَخْشَذ بن سام بن نوح، و«أخاهم» معطوفٌ على «نوحاً» ومعناه: واحداً منهم، وليس هودٌ من بني عاد كما ذكرنا، وهذا كما تقول: يا أخا العرب، للواحد منهم.

وقيل: هو من عاد، وهو هود بنُ عبد الله بن رباح ابن الجلود[٥] بن عاد بن عَوْص بن إِرَم بن سام بن نوح، فعلى هذا يكون من عاد.

واسمُ أمِّه مرجانة، وكان رجلاً تاجراً أشبهَ خلق الله بآدم عليه السلام.

روي أنَّ عاداً كانت ثلاثَ عَشْرَةَ قبيلةً ينزلون رمال عالج، وهي عادٌ الأولى، وكانوا أصحابَ بساتين وزروعٍ وعمارةٍ، وبلادُهم أخصبُ بلادٍ، فَسَخِطَ الله عليهم فجعلها مفاوِزَ، وكانت بنواحي عُمان إلى حضرموت إلى اليمن، وكانوا يعبدون الأصنام، ولمَّا هلكوا لحق هودٌ ومَن آمَنَ معه بمكة، فلم يزالوا بها حتى ماتوا.

---

(١) علي بن محمد بن محمد الخشني، من أهل المعرفة بكتاب سيبويه والواقفين على غوامضه، قال أبو حيان في النُّضار: كان أحفظ مَن رأيناه بعلم العربية، توفي سنة (٦٨٠هـ). بغية الوعاة ٢/ ١٩٩. وأُبَّذة كقُبَّرة: بُليدة بالأندلس، وبعضهم يذكره بالدال المهملة. ينظر اللباب في تهذيب الأنساب ١/ ٢٣، والتاج (أبذ).

(٢) في الكتاب ٣/ ٢٣٥.

(٣) النسَّابة هو ابنُه أبو علي محمد بن أسعد نقيب الأشراف، أما أبو البركات فهو نحوي، وقد سلف الكلام عليهما عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١].

(٤) في المطبوع: ابن عابر، وهو خطأ. ينظر الإتقان للسيوطي ٢/ ١٠٦٦.

(٥) في تاريخ الطبري ١/ ٢١٦، وعرائس المجالس للثعلبي ص٦٣، والمنتظم ١/ ٢٥٢: الخلود، بضم الخاء واللام كما ذكر في المنتظم، وقال: كذلك رأيته...، ويقال: بالجيم المكسورة واللام المفتوحة. اهـ.

ولم يأت: فقال، بالفاء لأنه كأنه جوابُ سؤالٍ مقدَّر، أي: فما قال لهم؟ [فقيل:][(١)] قال: يا قوم، وكذا «قال الملأ». وفي قوله: «أفلا تتَّقون» استعطافٌ وتحضيضٌ على تحصيل التقوى.

ولمَّا كان ما حلَّ بقوم نوحٍ من أمر الطوفان واقعةً لم يظهر في العالَم مِثْلُها قال: «إني أخافُ عليكم عذابَ يومٍ عظيم»، وواقعةُ هود كانت مسبوقةً بواقعة نوحٍ، وعَهْدُ الناس قريبٌ بها، اكتفى هودٌ بقوله: «أفلا تتقون»، والمعنى: تَعْرِفون أنَّ قوم نوحٍ لمَّا لم يتَّقوا الله وعَبَدوا غيرَه حلَّ بهم ذلك العذابُ الذي اشتهر خبرُه في الدنيا، فقوله: «أفلا تتقون» إشارةٌ إلى التخويف بتلك الواقعة المشهورة.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ أَتَى بوصف «الملأ» بالذين كفروا ولم يأتِ بهذا الوصفِ في قوم نوح؛ لأنَّ قوم هودٍ كان في أشرافهم مَن آمَنَ به، منهم مَرْثَد بن سعد بن عفير، ولم يكن في أشراف قوم نوحٍ مؤمنٌ، ألا ترى إلى قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧] وقولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء: ١١١] ويحتمل أن يكون وصفاً جاء للذَّم لم يُقْصَدْ به الفرقُ.

و«لَنراك» يحتمل أن يكون من رؤية العين، ومن رؤية القلب، كما تقدم القولُ في قصة نوح. و«في سفاهة»، أي: في خفةِ حِلْمٍ وسخافةِ عَقْلٍ حيث تترك دينَ قومك إلى دينٍ غيرِه. و«في سفاهة» يقتضي أنه فيها قد احتوت عليه كالظرف المحتوي على الشيء، ولمَّا كان كلامُ نوحٍ لقومه أشدَّ من كلام هودٍ لقومه[(٢)]؛ لقوله: «إنِّي أخاف عليكم عذابَ يومٍ عظيم» كان جوابُهم أغلظَ، وهو «إنا لنراك في ضلالٍ مبين»، وكان كلامُ هودٍ ألطفَ لقوله: «أفلا تتقون»، كان جوابُهم له ألطفَ من جواب قوم نوحٍ لنوحٍ بقولهم: «إنَّا لَنراك في سفاهةٍ»، ثم أتبعوا ذلك بقولهم: «وإنَّا لنظنُّك من الكاذبين» فدلَّ ذلك على أنه أخبرهم بما يَحِلُّ بهم من العذاب إن لم يتَّقوا الله، أو علَّقوا الظنَّ بقوله لهم: «ما لكم من إلهٍ غيره»، أي: إنَّ لنا آلهةً فحَصْرُها في واحدٍ كذبٌ.

---

(١) زيادة من الكشاف ٢/ ٨٧، والكلام منه.

(٢) قوله: لقومه، تحرف في (أ) و(د١) و(ع) إلى: تقوية.

وهل الظنُّ هنا بمعنى اليقين، أو بمعنى ترجيح أحدِ الجائزين؟ قولان للمفسرين، والثاني للحسن والزجَّاج[١]. وقال الكرماني: خوَّفَ نوحٌ الكفارَ بالطوفان العامِّ واشتغل بعمل السفينة، فقالوا: «إنَّا لنراك في ضلالٍ مبين» حيث تُتْعِبُ نفسَك في إصلاح سفينةٍ كبيرةٍ في مفازةٍ ليس فيها ماءٌ ولم يظهر ما يدل على ذلك، وهودٌ زيَّفَ عبادة الأوثان ونسب قومَه إلى السفاهة فقابَلوه بمثل ذلك[٢].

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦٧ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨﴾ تقدَّمت كيفيةُ هذا النفي في قوله: «ليس بي ضلالةٌ»، وهناك جاء: «وأنصحُ لكم»، وهنا جاء: «وأنا لكم ناصحٌ أمين» لمَّا كان آخرُ جوابهم جملةً اسميةً جاء قولُه كذلك، فقالوا هم: «وإنَّا لنظنك من الكاذبين» قال هو: «وأنا لكم ناصحٌ أمين»، وجاء بوصف الأمانة وهي الوصفُ العظيم الذي حَمَله الإنسان، ولا أمانةَ أعظمُ من أمانة الرسالة وإيصال أعبائها إلى المكلَّفين، والمعنى: إنِّي عُرفت فيكم بالنصح فلا يحقُّ لكم أن تتَّهموني، وبالأمانة فيما أقولُ فلا ينبغي أن أُكذَّب.

قال ابن عطية: وقوله: «أمين» يحتمل أن يريد: على الوحي والذِّكرِ النازلِ من قِبَل الله، ويحتمل أنه أمينٌ عليهم وعلى غيبهم وعلى إرداة الخير بهم، والعربُ تقول: فلانٌ لفلانٍ ناصحُ الجيبِ أمينُ الغيبِ، ويحتمل أن يريد به من الأمن، أي: جهتي ذاتُ أمنٍ لكم من الكذب والغش[٣].

قال القُشَيري: شتَّان ما بين مَن دفع عنه ربُّه بقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢]، ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾ [التكوير: ٢٢] ومَن دفع عن نفسه بقوله: «ليس بي ضلالةٌ» «ليس بي سفاهةٌ»[٤].

قال الزمخشري[٥]: وفي إجابة الأنبياء ﷺ مَن نَسَبَهم إلى الضلالة والسفاهة

(١) تفسير الرازي ١٤/ ١٥٦، وكلام الزجاج في معاني القرآن ٢/ ٣٤٧.
(٢) وقاله الرازي في تفسيره ٤/ ١٥٥-١٥٦.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٧.
(٤) لطائف الإشارات ١/ ٥٤٣ بنحوه.
(٥) في الكشاف ٢/ ٨٧.

بما أجابوهم من الكلام الصادر عن الحِلْم والإغضاء وتركِ المقابَلة بما قالوا لهم، مع علمهم بأنَّ خصومهم أضلُّ السَّفَّاهين وأسْفَههم[1]، أدبٌ حَسَنٌ وخُلُقٌ عظيم، وحكايةُ الله عز وجل عنهم ذلك تعليمٌ لعباده كيف يخاطبون السفهاء، وكيف يُغْضون عنهم ويُسْبِلون أذيالهم على ما يكون منهم.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوٓاْ﴾ أتى هنا بعلةٍ واحدة وهي الإنذار، وهو التخويفُ بالعذاب، واختصر ما يترتَّبُ على الإنذار من التقوى ورجاء الرحمة.

﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ﴾ أي: سكَّان الأرض بعدهم؛ قاله السديُّ وابن إسحاق[2]. أو: جعلكم ملوكاً في الأرض استخلفكم فيها؛ قاله الزمخشريُّ[3]. وتذكيرُ هود بذلك يدلُّ على قُرْب زمانهم من زمان نوح؛ لقوله: «من بعد قوم نوح».

و«إذ» ظرفٌ في قول الحوفي، فيكون مفعولُ «اذكروا» محذوفاً، أي: واذكروا آلاء الله عليكم وقتَ كذا، والعاملُ في «إذ» ما تضمَّنه النِّعم من الفعل[4]، وفي قول الزمخشري «إذ» مفعولٌ به، وهو منصوبٌ بـ«اذكروا» أي: اذكروا وقتَ جَعْلِكم[5].

﴿فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ ظاهرُ التواريخ أن البَسْطة: الامتدادُ والطولُ والجَمالُ في الصُّوَر والأشكال، فيحتمل إذ ذاك أن يكون الخلقُ بمعنى المخلوقين. ويحتمل أن يكون مصدراً، أي: وزادكم في خَلْقكم بسطةً، أي: مدَّ وطوَّل وحسَّن خَلْقَكم.

قيل: كان أقصرُهم ستين ذراعاً وأطولُهم مئة ذراع؛ قاله الكلبيُّ والسدِّي[6].

---

(١) تحرفت في (أ) و(ب) و(د١) و(ع) إلى: وأسفهم، وفي المطبوع إلى: وأسفلهم. وعبارة الكشاف: . . . أضل الناس وأسفههم.

(٢) أخرجه عنهما الطبري ١٠/٢٦٦.

(٣) الكشاف ٢/٨٧، ولفظه: . . . قد استخلفكم فيها بعدهم.

(٤) يعني بالنعم الآلاء المقدَّر مفعولاً لـ«اذكروا»، والذي دل عليه قوله بعد ذلك: «فاذكروا آلاء الله»، وقدر المصنف المفعول في النهر على هامش مطبوع البحر ٤/ ٣٢٤: واذكروا إنعامه عليكم وقت جعلكم خلفاء.

(٥) الكشاف ٢/٨٧، وفيه: وقت استخلافكم.

(٦) تفسير الثعلبي ٣/ ٣٤، وتفسير الرازي ١٤/١٥٧، وذكره أبو الليث السمرقندي في تفسيره

وقال أبو حمزة اليماني[١]: سبعون ذراعاً.

وقال ابن عباس: ثمانون ذراعاً.

وقال مقاتل: اثنا عشر ذراعاً.

وقال وَهْبٌ: كان رأسُ أحدهم مثلَ القبَّة العظيمة، وعينُه تفرِّخُ فيها الضِّباع، وكذلك منخرُه[٢].

وإذا كان «الخلق» بمعنى المخلوقينَ فـ«الخلقُ» قومُ نوح، أو أهلُ زمانهم، أو الناس كلُّهم. أقوال.

وقيل: الزيادةُ في الأجرام، وهي قَدْرُ ما تصل إليه يد الإنسان إذا رفعها.

وقيل: الزيادةُ هي في القوَّة والجَلادة لا في الأجرام.

وقيل: زيادةُ البَسْطة كونُهم من قبيلةٍ واحدةٍ، متشاركين في القوة متناصِرينَ يحبُّ بعضُهم بعضاً[٣].

ويحتمل أن يكون المعنى: وزادكم بسطةً، أي: اقتداراً في المخلوقين وتسليطاً عليهم واستيلاء.

﴿فَاذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ ذكَّرهم أولاً بإنعامه عليهم حيث جَعَلَهم خلفاءَ وزادهم بسطةً، وذكَّرهم ثانياً بنعمه عليهم مطلقاً لا بتقييدِ زمانِ الجَعْلِ.

و«اذكروا» الظاهرُ أنه من الذِّكر، وهو أن لايتناسَوا نعمَه، بل تكونُ نعمُه على ذُكْرٍ منكم رجاءَ أن تُفلحوا، وتعليقُ رجاء الفلاح على مجرَّد الذِّكر لا يظهر، فيحتاجُ إلى تقدير محذوفٍ يترتَّبُ عليه رجاءُ الفلاح، وتقديره والله أعلم: فاذكروا

= ١/ ٥٥٠، وابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٢٢، والقرطبي ٩/ ٢٦٤ عن ابن عباس. ولم أقف عليه عن السدي. وذكر أبو الليث عن الكلبي: أطولهم مئة وعشرون وأقصرهم ثمانون ذراعاً.

(١) كذا في النسخ، وهو تحريف، والصواب: الثمالي، وقوله في تفسير الثعلبي ٣/ ٣٤.

(٢) ذكر هذه الأقوال الثعلبي في التفسير ٣/ ٣٤.

(٣) تفسير الرازي ١٤/ ١٥٧-١٥٨.

آلاء الله وأفرِدوه[١] بالعبادة، ألا ترى إلى قوله بعد ذلك: «أجئتنا لنعبدَ الله وحده»، وفي ذِكْرِهم آلاءَ الله ذكرُ المُنْعِم عليهم المستحِقّ لإفراده بالعبادة ونَبْذِ ما سواه.

وقيل: «اذكروا» هنا بمعنى: اشكروا.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝﴾ الظاهرُ أنهم أنكروا أن يتركوا أصنامهم ويُفردوا الله بالعبادة - مع اعترافهم بالله - حبًّا لِمَا نشؤوا عليه، وتألُّفا لِمَا وَجَدوا آباءَهم عليه. ويحتمل أن يكونوا منكرين لله، ويكون قولهم: «لنعبد الله وحده» أي: على قولك يا هود ودعواك؛ قاله ابنُ عطية، وقال: التأويلُ الأولُ أظهر فيهم وفي عُبَّاد الأوثان، ولا يَجْحدُ ربوبيةَ الله من الكفرة إلَّا مَن ادَّعاها لنفسه كفرعون ونمروذ[٢]. انتهى.

وكان في قول هودٍ لقومه: «فاذكُروا آلاءَ الله» دليلٌ قاطعٌ على أنه لا يُعْبَد إلا المُنْعِم، وأصنامُهم جماداتٌ لا قدرةَ لها على شيءٍ البتة، والعبادةُ هي نهايةُ التعظيم، فلا تَليقُ إلا بمن يَصْدُر عنه نهايةُ الإنعام.

ولمَّا نبَّه على هذه الحجة، ولم يُمْكِنْ[٣] لهم أن يُجيبوا[٤] عنها، عَدَلوا إلى التقليد البَحْتِ فقالوا: «أَجِئْتَنا لنعبدَ اللهَ وحدَه» والمجيءُ هنا يحتملُ أن يكونَ حقيقةً بكونه كان متغيِّباً عن قومه منفرداً بعبادة ربِّه، ثم أرسله الله إليهم فجاءهم من مكانِ متعبَّده، ويحتملُ أن يكون قولُهم ذلك على سبيل الاستهزاءِ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنَّ الله لا يُرسل إلَّا الملائكة، فكأنهم قالوا: أجئتنا من السماء كما يَجيء الملكُ، ولا يريدون حقيقةَ المجيء، ولكنِ التعرُّضَ والقصدَ، كما يقال: ذهب يشتمني، لا يريدون حقيقةَ الذهاب، كأنهم قالوا: أقصَدْتَنا لنعبد الله وحده وتعرَّضْتَ لنا بتكاليفِ ذلك.

---

(١) تحرفت في (أ) و(ع) والمطبوع إلى: وإفراده، وسقطت الجملة من (د١).
(٢) المحرر الوجيز ٢/٤١٩.
(٣) في (ب) والمطبوع: يكن.
(٤) في (أ) و(د١) و(ع): يجنّبوا.

وفي قولهم: «فأتنا بما تَعِدُنا» دليلٌ على أنه كان يَعِدُهم بعذاب الله إنْ داموا على الكفر، وقولُهم ذلك يدلُّ على تصميم على تكذيبه، واحتقارِهم لأمر النبوَّة، واستعجالٍ للعقوبة، إذ هي عندهم لا تقع أَصلاً وقد تقدَّم قولُهم له: «إنَّا لنراكَ في سَفاهةٍ وإنَّا لنظنُّك من الكاذبين» فلما كانوا يعتقدون كونَه كاذباً قالوا: «فأتِنا بما تَعِدُنا إنْ كنتَ من الصادقين»، أي: في نبوَّتك وإرسالك، أو في أن العذابَ نازلٌ بنا.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أي: حلَّ بكم وتحتَّم عليكم، قال زيد بن أسلم والأكثرون: الرِّجسُ هنا العذاب[1]، من الارتجاس وهو الاضطراب، وقال ابن عباس: السَّخَط[2].

وقال أبو عبد الله الرازي: لا يكون العذابَ؛ لأنه لم يكن حاصلاً في ذلك الوقت، وقال القفَّال: يجوز أن يكون الرِّجسُ هو الازديادَ في الكفر بالرَّين على القلوب، أي: لتماديكم على الكفر وقع عليكم من الله رينٌ على قلوبكم كقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥][3].

فإن كان الرجسُ السَّخَطَ أو الرينَ، فقوله: «قد وقع» على حقيقته من المُضيِّ، وإن كان العذابَ فيكونُ مِن جَعْل الماضي موضعَ المستقبل لتحقُّق وقوعه.

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ هذا إنكارٌ منه لمخاصمتهم له فيما لا ينبغي فيه الخصامُ، وهو ذكرُ ألفاظٍ ليس تحتها مدلولٌ يستحقُّ العبادةَ، فصارت المنازَعةُ باطلةً بذلك، ومعنى «سمَّيتُموها»: سميتُم بها أنتم وآباؤكم، أي: أحْدَثْتُموها قريباً أنتم وآباؤكم، وهي: صَمُودٌ وصُدَاءٌ والهَبَاء، وقد ذكرها مَرْثَد بن سعد في شعره فقال:

عَصَتْ عادٌ رسولَهمُ فأَضْحَوْا ... عِطاشاً ما تَبُلُّهم السماءُ
لهم صنمٌ يقال له صَمُودٌ ... يقابِلُه صُدَاءٌ والهَبَاءُ

(١) ذكره عن زيد بن أسلم الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٢٣٤.
(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٢٨٠-٢٨١.
(٣) تفسير الرازي ١٤/ ١٥٩-١٦٠.

فبصَّرنا الرسولُ سبيلَ رُشْدٍ فأبصَرْنا الهدى وجَلَا العَماءُ
وإنَّ إلهَ هودٍ هُوْ إلهي على الله التوكُّلُ والرجاءُ[1]

فالجدالُ إذ ذاك يكون في الألفاظ لا مدلولاتها.

ويحتمل أن يكون الجدالُ وقع في المسمَّيات وهي الأصنام، فيكون أطْلقَ الأسماء وأراد بها المسمَّيات، أو كان ذلك على حذف مضاف، أي: أتُجادلونني في ذواتِ أسماءٍ، ويكون المعنى: سمَّيتموها آلهةً وعبدتُموها من دون الله.

قيل: سمَّوا كلَّ صنم باسمٍ، على ما اشتهوا وزعموا أن بعضهم يسقيهم المطرَ، وبعضَهم يشفيهم من المرضِ، وبعضَهم يَصْحَبُهم في السفر، وبعضَهم يأتيهم بالرزق.

﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾ والجملةُ من قوله: «ما نزَّل» في موضع الصفة، والمعنى: إنه ليس لكم بذلك حجَّةٌ ولا برهانٌ، وجاء هنا «نزَّل» وفي مكانٍ غيرِه «أنزل»[2] وكلاهما فصيحٌ، والتعدية بالتضعيف والهمزة سواءٌ.

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ وهذا غايةٌ في التهديد والوعيد، أي: فانتظروا عاقبةَ أمركم في عبادة غير الله وفي تكذيب رسوله، وهذا غايةٌ في الوثوق بما يَحِلُّ بهم، وأنه كائنٌ لا محالة.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ يعني: مَن آمَنَ معه برحمةٍ سابقةٍ لهم من الله وفضلٍ عليهم، حيث جعلهم آمنوا فكان ذلك سبباً لنجاتهم ممَّا أصاب قومهم من العذاب.

﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾ كناية عن استئصالهم بالهلاك بالعذاب، وتقدَّم الكلامُ في «دابر» في قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ﴾ [الأنعام: ٤٥] وفي قوله: «الذين كذَّبوا» تنبيهٌ على علة قَطْع دابرهم، وفي قوله: «بآياتنا» دليلٌ على أنه كانت لهود معجزاتٌ ولكن لم تُذْكَرْ لنا بتعيينها.

(١) وردت ضمن خبر طويل في قصة عاد، ذكره الطبري في التاريخ ١/ ٢١٩-٢٢٤، والبغوي في التفسير ٢/ ١٧١-١٧٢. ومرثد بن سعد كان ممَّن آمن بهود ﷺ من قوم عاد.

(٢) وردت في الآية (٤٠) من سورة يوسف، والآية (٢٣) من سورة النجم.

﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ۝٧٢﴾ جملةٌ مؤكِّدة لقوله: «كذبوا بآياتنا»، ويحتمل أن يكون إخباراً من الله تعالى أنهم ممَّن عَلم الله تعالى أنهم لو بَقُوا لم يؤمنوا، أي: ما كانوا ممن يَقْبلُ إيماناً البتة، ولو علم الله تعالى أنهم يؤمنون لأبقاهم، وذلك أنَّ المكذِّب بالآيات قد يؤمن بها بعد ذلك ويَحْسُنُ حالُه، فأمَّا مَن حتم الله عليه[١] بالكفر فلا يؤمن أبداً.

وفي ذلك تعريضٌ بمن آمَنَ منهم كمرثد بن سعد ومَن نجا مع هود ﷺ، كأنه قال: وقطعنا دابر القوم الذين كذَّبوا منهم ولم يكونوا مِثْلَ مَن آمَنَ منهم؛ ليُؤْذِنَ أنَّ الهلاك خصَّ المكذِّبين ونجَّى الله المؤمنين؛ قاله الزمخشريُّ[٢].

وذكر المفسِّرون هنا قصةَ هلاك عادٍ، وذكروا فيها أشياءَ لا تعلُّق لها بلفظ القرآن، ولا صحت عن الرسول، فضربْتُ عن ذكرها صفحاً، وأمَّا ما له تعلُّقٌ بلفظ القرآن فيأتي في مواضعه إن شاء الله تعالى.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ «ثمود»: اسمُ القبيلة سُمِّيت باسم أبيهم الأكبر، وهو ثمودُ أخو جَدِيس، وهما ابنا جاثر بن إرم بن سام بن نوح ﷺ، وكانت مساكنُهم الحِجْرَ بين الحجاز والشام، وإلى وادي القرى.

وقيل: سمِّيت ثمود لقلة مائها، من الثَّمد[٣] وهو الماءُ القليلُ، قال الشاعر:

احْكُمْ كحُكْمِ فتاة الحيِّ إذ نَظَرتْ ... إلى حمامٍ شِرَاعٍ وارِدِ الثَّمَدِ[٤]

وكانت ثمودُ عرباً في سعةٍ من العيش، فخالَفوا أمر الله وعَبَدوا غيره وأفسدوا،

---

(١) في (يه): ختم الله له.
(٢) في الكشاف ٢/ ٨٨-٨٩.
(٣) بسكون الميم، ويحرك. القاموس (ثمد).
(٤) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٣٤، والكتاب ١/ ١٦٨، والخزانة ١٠/ ٢٥٣. قوله: احكم كحكم، أي: كن حكيماً كهذه الفتاة، وهي زرقاء اليمامة، والحُكم هنا بمعنى الحكمة مثل: نُعم ونِعمة. وشراع: التي شرعت في الماء، وروي: سِراع، وهما جمع شارعة وسريعة، والحمام اسم جنس، فيجوز أن يعتبر جمعاً ومفرداً، وهنا جُمع وصفُه تارةً في كلمة «شراع»، وأُفرد أخرى في «وارد». ينظر الخزانة ١٠/ ٢٥٤-٢٥٨.

فبعث الله لهم صالحاً نبيًّا من أوسطهم نَسَباً وأفضلهم حَسَباً، فدعاهم إلى الله حتى شَمِطَ[١]؛ ولا يتبعه منهم إلا القليل[٢].

قال وهب: بعثه الله حين راهَقَ الحلم، فلمَّا هلك قومُه ارْتَحَلَ بمن معه إلى مكة، فأقاموا معه حتى ماتوا، فقبورُهم بين دار الندوة والحِجْر[٣].

وصالح هو: صالح بن آسَف بن كماشح بن أَرُوم بن ثمود بن جاثر بن إرم بن سام بن نوح، هكذا نسبه الشريف النسَّابة الجَوَّاني، وهو المنتهى إليه في علم النَّسب، ووقع في بعض التفاسير بين صالح وآسف زيادةُ أب وهو عبيد، فقالوا: صالح بن عبيد بن آسف، ونقص في الأجداد، وتصحيفُ: جاثر، بقولهم: عابر[٤].

قال الشريف الجَوَّاني في «المقدمة الفاضلية»: والعقبُ من جاثر بن إرم بن سام بن نوح: ثمود وجَديس، والعقب من ثمود بن جاثر: فالخ وهَيْلع وتَنوق وأروم، من ولده صالح النبيُّ ﷺ بن آسف بن كماشح بن أروم بن ثمود.

وقرأ ابن وثَّاب والأعمش: «وإلى ثمودٍ» بكسر الدال والتنوين مصروفاً في

---

(١) الشَّمط: بياض شعر الرأس يخالط سواده. اللسان (شمط).

(٢) عرائس المجالس للثعلبي ص٦٨، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٦٦، ورواه الطبري ١٠/ ٢٨٦ مطولاً عن ابن إسحاق.

(٣) المعارف لابن قتيبة ص٢٩-٣٠، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٢١.

(٤) ينظر ما أشار إليه المصنف من زيادة أو نقص أو تصحيف في المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٠، والكشاف ٢/ ٨٩، وتفسير البغوي ٢/ ١٧٣-١٧٤، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٦٥-٢٦٦. ورواية المصنف: جاثر، توافق ما ورد في طبقات ابن سعد ١/ ٤٣، وتاريخ الطبري ١/ ٢٢٦، والمحبَّر لابن حبيب ص٣٨٤، والإكمال ٢/ ١٠، والقاموس والتاج (جثر). وقد جاء بدلاً منه عند القرطبي: عاد، وفي المحرر: غاثر، وعند الزمخشري والبغوي: عابر، ولكن في إطلاق التصحيف هنا نظر، فقد قال ابن قتيبة في المعارف ص٢٧: ومن ولد إرم بن سام بن نوح: ثمود بن عابر ـ ويقال: ثمود بن جاثر ـ بن إرم بن سام بن نوح. اهـ. وقد جاء في تفسير الطبري (تحقيق محمود شاكر) ١٢/ ٥٢٤: غاثر، بالغين والثاء، وأشار محققه الشيخ محمود شاكر إلى رواية التاريخ: جاثر، ثم قال: وكأن الأول هو الأصل، وأن الآخر على القلب عن الغين، هذا إذا لم يكن خطأ. اهـ. أما زيادة عبيد في الآباء وعدم زيادته فهما قولان أيضاً ذكرهما الطبري في التاريخ ١/ ٢٢٦.

جميع القرآن(١)، جَعَله اسمَ الحيِّ، والجمهور مَنَعوه الصَّرفَ؛ جعلوه اسمَ القبيلة.

والأخوَّةُ هنا في القرابة؛ لأن نسبه ونسبهم راجعٌ إلى ثمود بن جاثر.

وكلُّ واحدٍ من هؤلاء الأنبياء: نوح وهود وصالح، تَوارَدوا على الأمر بعبادة الله والتنبيهِ على أنه لا إله غيره إذ كان قومُهم عابدي أصنام ومتَّخذي آلهةٍ مع الله كما كانت قريشٌ والعربُ، ففي هذه القصص توبيخُهم وتهديدهم أن يصيبهم مثلُ ما أصاب أولئك من الهلاك المستأصِلِ بالعذاب(٢).

وكانت قصة نوحٍ مشهورةً طبَّقت الآفاق، وقصةُ هودٍ وصالحٍ مشهورةٌ أيضاً عند العرب وغيرِهم بحيث ذكرها قدماءُ الشعراء في الجاهلية، وشبَّهوا مفسدي(٣) قومهم بمفسدي قوم هود وصالح، قال بعضُ قدمائهم في الجاهلية:

فينا معاشرُ لن يَبْنوا لقومِهِمُ وإنْ بَنَى قومُهم ما أَفْسَدوا عادوا
أَضْحَوا كقَيْلِ بن عَنْزٍ في عشيرته إذ أُهلكت بالذي سدَّى لها عادُ
أو بعده كقُدارٍ حين تابعه على الغواية أقوامٌ فقد بادوا(٤)

وقَيْلُ بن عَنْزٍ هو من قوم هود، وسيأتي ذكرُ خبره عند ذكر إرسال الريح على قوم هود إن شاء الله. وقُدار هو ابنُ سالف عاقِرُ ناقةِ صالحٍ، ويأتي خبره إن شاء الله.

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: آيةٌ ظاهرةٌ جليَّةٌ، وشاهِدٌ على صحة نبوَّتي، وكثر استعمالُ هذه الصفة استعمالَ الأسماء في القرآن فوَلِيَتِ العواملَ، كقوله: حتى جاءتهم البينة(٥)، وقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤] والمعنى:

(١) القراءات الشاذة ص٤٤، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٢٠.
(٢) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: من العذاب، وهو خطأ.
(٣) هنا ينتهي الخرم الذي في (د٣).
(٤) الأبيات من قصيدة للأَفْوَه الأَوْدي ـ واسمه صلاءة بن عمرو ـ كما في أمالي القالي ٢/ ٢٢٤، وفيه: ... لم يبنوا لقومهم، وتحرفت كلمة «يبنوا» في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع إلى: يبغوا.
(٥) كذا ذكر، والصواب: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١]، وفي سورة البينة أيضاً: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [الآية: ٤].

الآيةُ البينةُ، و: بالآيات البيِّنات، فقارَبَ أن تكون كالأَبْطَح والأَبْرق[1] إذ لا يكاد يصرَّح بالموصول معها.

وقوله: «قد جاءتكم بينةٌ من ربِّكم» كأنه جوابٌ لقولهم: ائتنا ببينةٍ تدلُّ على صدقك وأنك مرسَلٌ إلينا. و«من ربكم» متعلِّقٌ بـ«جاءتكم»، أو في موضع الصفة لـ«آية» على تقدير محذوفٍ، أي: من آيات ربِّكم.

﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ لمَّا أَبْهَمَ في قوله: «قد جاءتكم بينةٌ من ربكم» بيَّن ما الآيةُ، فكأنه قيل له: ما البينة؟ قال: «هذه ناقةُ الله»، وأضافها إلى الله تشريفاً وتخصيصاً، نحو: بيت الله، و: روح الله، ولكونه خَلَقها بغير واسطةِ ذَكَرٍ وأنثى، ولأنه لا مالكَ لها غيرُه، ولأنها حجةٌ على القوم، ولمَا أُوْدِعَ فيها من الآيات الآتي ذِكْرُها في قصة قوم صالح.

و«لكم» بيانٌ لمَن هي له آيةٌ موجبةٌ عليه الإيمانَ وهم ثمود لأنهم عايَنُوها، وسائرُ الناس أُخبروا عنها، كأنه قال: لكم خصوصاً. وانتصب «آيةً» على الحال، والعاملُ فيها «ها» بما فيها من معنى التنبيه، أو اسمُ الإشارة بما فيه من معنى الإشارة، أو فعلٌ مضمرٌ تدلُّ عليه الجملةُ، كأنه قيل: انظر إليها في حال كونها آيةً. أقوالٌ ثلاثةٌ ذُكرت في علم النحو.

وقال الحسن: هي ناقةٌ اعترضها من إبلهم ولم تكن تُحلب[2].

وقال الزجاج: قيل: إنه أخذ ناقةً من سائر النوق، وجَعَل الله لها شِرْباً يوماً ولهم شِرْبُ يومٍ، وكانت الآية في شربها وحلبها[3].

قيل: وجاء بها من تِلْقاء نفسه.

وقال الجمهور: هي آيةٌ مقترحةٌ، لمَّا حذَّرهم وأنذرهم سألوه آيةً، فقال: أَيَّةَ آيةٍ تريدون؟ قالوا: تَخرُجُ معنا إلى عيدنا -في يومٍ معلوم لهم من السنة- فتَدْعُو إلهكَ

---

(١) الأبطح: مسيلٌ واسع فيه دُقاق الحصى، والأبرق: غِلَظٌ فيه حجارةٌ ورمل وطين مختلطة. القاموس (بطح) و(برق).

(٢) حكاه عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٢١ نقلاً عن النقاش.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٥٠ بنحوه، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٢١، وعنه نقل المصنف.

ونَدْعُو آلهتَنا، فإن استُجيب لك اتَّبعناك، وإن استُجيب لنا اتَّبعْتَنا، قال صالح: نعم، فخرج معهم، فدعَوا أوثانَهم وسألوها الاستجابة فلم تُجبهم، ثم قال سيدُهم جُنْدَع بن عَمرو بن جَوَّاس - وأشار إلى صخرةٍ منفردةٍ من ناحية الجبل يقال لها: الكاثبة -: أخرِجْ لنا من هذه الصخرة ناقةً مخترجَةً جَوْفاءَ وَبْراءَ عُشَراءَ. والمخترجةُ ما شاكلت البُخْتَ من الإبل. وأخذ صالحٌ ﷺ مواثيقَهم: لئن فعلتُ ذلك لتؤمِنُنَّ ولتصدِّقُنَّ، قالوا: نعم، فصلَّى ركعتين ودعا ربَّه، فتمخَّضت الصخرةُ تمخُّض النَّتُوج بولدها، ثم تحرَّكت فانصدعت عن ناقةٍ كما وصفوا لا يَعْلَم ما بين جنبيها إلا الله عِظَماً وهم ينظرون، ثم نتجت سَقْباً مثلَها في العِظَم، فآمَنَ به جُنْدَعٌ ورَهْطٌ من قومه، وأراد أشرافُ ثمودَ أن يؤمنوا به فنهاهم ذُؤاب بنُ عَمرو بنِ لَبيدٍ والحُباب صاحبا أوثانهم، ورَيَّان ابنُ كاهنهم، وكانوا من أشراف ثمود(١).

وهذه الناقةُ وسَقْبُها مشهورٌ قصتُهما عند جاهلية العرب، وقد ذكروا السَّقْب في أشعارهم، قال بعضهم يصف ناساً قُتلوا بمعركة حرب بأجمعهم:

كأنَّهمْ صابَتْ عليهم سحابةٌ ... صَواعِقُها لطيرهنَّ دبيبُ
رَغا فوقهم سَقْبُ السماء فداحِضٌ ... بشِكَّته لم يُسْتَلَبْ وسَليبُ(٢)

(١) تنظر القصة مطولة في تفسير الطبري ١٠/ ٢٨٦، وعرائس المجالس للثعلبي ص٦٨، وتفسير البغوي ٢/ ١٧٥، والبداية والنهاية ١/ ٣١٠، وتفسير ابن كثير ٣/ ٤٤٠. وقوله: ريان، جاء بدلاً منه في المصادر: رباب. والقصة عند الطبري من رواية ابن إسحاق، وهي عند المصنف حتى قوله: ورهط من قومه، منقولة من الكشاف ٢/ ٨٩.

(٢) البيتان لعلقمة الفحل، وهما في ديوانه (بشرح الأعلم) ص٤٦، والمفضليات ص٣٩٥، باختلاف في الترتيب. وهما من قصيدة في مدح الحارث بن جبلة الغساني، ومعنى البيت الأول: كأن ما أصاب أعداء هذا الممدوح ونزل بهم من القتل الذريع والاستئصال سحابة جاءت بصواعق فقتلت ما أصابت من الطير، وبقي ما أفلتَ منها يدبُّ لا يقدر على الطيران. وقوله: رغا فوقهم سقب السماء، يعني أنهم استؤصلوا وهلكوا كما هلكت ثمود. وقوله: فداحضٌ، الدحض الزلل، أي: قد زل فسقط بالأرض، ويروى: فداحصٌ (وهي رواية الديوان) أي: فاحص برجليه عند الموت مع شكَّته، وهي جملة السلاح. وقوله: لم يُستلب، أي: كان القتلى أكثر من أن يحاط بسلبهم، فمنهم من سُلب ومنهم من لم يُسلب. قاله الأعلم شارح الديوان.

قال أبو موسى الأشعري: أتيتُ أرض ثمودَ فذَرَعْتُ صدر الناقة فوجدتُه ستين ذراعاً[١].

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ لمَّا أضاف الناقة إلى الله أضاف محلَّ رَعْيها إلى الله؛ إذ الأرضُ وما أنبته فيها ملكُه تعالى لا ملكُكم ولا إنباتُكم، وفي هذا الكلام إشارةٌ إلى أنَّ هذه الناقةَ نعمةٌ من الله يُنالُ خيرُها من غيرِ مشقةِ تَكلُّفِ علفٍ ولا طعمة، وهو شأنُ الإبل كما جاء في الحديث: قال: فضالَّة الإبل؟ قال: «ما لك ولها معها سقاؤها وحذاؤها تَرِدُ الماء وتأكلُ الشجر حتى يلقاها ربُّها»[٢].

و«تأكُلْ» جزمٌ على جواب الأمر، وقرأ أبو جعفر في رواية: «تأكلُ» بالرفع[٣]، وموضعه حالٌ.

كانت الناقةُ مع ولدها ترعَى الشجرَ وتشربُ الماء تَرِدُ غِبًّا، فإذا كان يومُها وضعت رأسها في البئر فما ترفعه حتى تشرب كلَّ ما فيها، ثم تَفَجَّجُ فيحلبون ما شاؤوا حتى تمتلئ أوانيهم، فيشربون ويدَّخرون[٤].

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ نهاهم عن مسِّها بشيءٍ من الأذى، وهذا تنبيهٌ بالأدنى على الأعلى، إذا كان قد نهاهم عن مسِّها بسوءٍ إكراماً لآية الله، فنهيُه عن نحرِها وعقرِها ومنعِها من الماء والكلأ أَوْلَى وأحرى، والمسُّ والأخذُ هنا استعارةٌ، وهذا وعيدٌ شديدٌ لمن مسَّها بسوء، والعذابُ الأليم هو ما حلَّ بهم إذ عقروها وما أعدَّ لهم في الآخرة.

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ ذكَّر صالح قومَه بما ذكَّر به هودٌ قومَه، فذكَرا أولاً نعماً خاصَّةً وهي جَعْلُهم خلفاءَ بعد

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/٢٩٧.

(٢) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٩١)، ومسلم (١٧٢٢) عن زيد بن خالد الجهني ﷺ.

(٣) الكشاف ٢/ ٩٠، وهي في القراءات الشاذة ص٤٤ عن الكسائي وأبي معاذ.

(٤) الكشاف ٢/ ٨٩، وهذه قطعة من الخبر الذي سلف قريباً في قصة ثمود. وقوله: تَفَحَّجُ، مضارع، وأصله: تتفحَّجُ بتاءين، وكذا وقع في الكشاف بتاءين، ومعناه: تفرج ما بين رجليها للحلب. ينظر حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ٤/ ١٨٥.

الأمة التي سبقتهم، وذَكَر هودٌ لقومه ما اختصُّوا به من زيادة البَسْطة في الخَلْق، وذكَرَ صالح لقومه ما اختصُّوا به من اتخاذ القصور من السهول، ونحتِ الجبال بيوتاً، ثم ذكَرا نعماً عامةً بقولهما: «فاذكُروا آلاءَ الله»، ومعنى: «وبوأكم في الأرض»: أنزلكم بها وأسكنكم إياها، والمَبَاءَةُ: المنزلُ في الأرض، وهو مِن باء، أي: رجَع، وتقدَّم ذكرُه[1]، و«الأرض» هنا: الحِجْر ما بين الحجاز والشام.

و«تتخذون» حالٌ، أو تفسير لقوله: «وبوَّأكم في الأرض»، فلا موضعَ له من الإعراب، والظاهرُ أن بعض السهول اتَّخذوه قصوراً، أي: بَنَوا فيه قصوراً وأنشؤوها فيه، إذ لم يستوعِبوا جميعَ سهولها بالقصور.

وقال الزمخشريُّ: «من سهولها قصوراً»، أي: تبنونها من سهولة الأرض بما تعملون منها الرِّهْصَ واللَّبِنَ والآجُرَّ[2]. يعني أن القصور التي بَنَوها أجزاؤُها متَّخذَةٌ من لين الأرض كالجيَّار[3] والآجُرِّ والجصِّ، كقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨] يعني أن الصورة كانت مادَّتُها من الحليِّ كما أنَّ القصورَ مادتُها من سهول الأرض والأجزاءِ التي صُنعت منها.

وظاهرُ الاتِّخاذ هنا: العملُ، فيتعدَّى «تتخذون» إلى مفعولٍ واحد، وقيل: يتعدَّى إلى اثنين، والمجرورُ هو الثاني.

وقرأ الحسن: «وتَنْحَتون» بفتح الحاء، وزاد الزمخشريُّ أنه قرأ: «وتَنْحاتون» بإشباع الفتحة، قال: كقوله:

يَنْبَاعُ من ذِفْرَى أسيلٍ حُرَّةٍ[4]

انتهى.

(١) عند تفسير المفردات لقوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١].
(٢) الكشاف ٢/ ٩٠. والرِّهص (بالكسر): الطين الذي يُبنى به. القاموس (رهص).
(٣) الجيار: هو خليط الرماد مع النُّورة والجص. ينظر اللسان (جير).
(٤) الكشاف ٢/ ٩٠، وهذا صدر بيت من معلقة عنترة، والمشهور من روايته: ينباع من ذفرى غضوب جسرة، وقد سلف بهذه الرواية عند تفسير الآية (١٢٤) من سورة آل عمران، وعجزه: زيَّافةٍ مثل الفنيق المُكْدَم، وهو في شرح المعلقات للنحاس ٢/ ٢٤، وللتبريزي ص٢٣٠.

وقرأ ابن مصرِّفٍ بالياء من أسفل وكسرِ الحاء، وقرأ أبو مالك بالياء من أسفل وفتح الحاء[١]، ومَن قرأ بالياء فهو التفاتٌ.

وانتصَبَ «بيوتاً» على أنها حالٌ مقدَّرة؛ إذ لم تكن الجبالُ وقتَ النَّحت بيوتاً، كقولك: ابْرِ لي هذه اليراعةَ قلماً، و: خِطْ لي هذا قباءً، وقيل: مفعولٌ ثانٍ على تضمين «وتنحتون» معنى: وتتَّخذون.

وقيل مفعولٌ بـ«تنحتون». و«الجبال» نصبٌ على إسقاط «من»، أي: من الجبال.

وقرأ الأعمش: «تِعْثَوا» بكسر التاء[٢]؛ كقولهم: أنت تِعْلَم، وهي لغةٌ. و«مفسدين» حالٌ مؤكِّدة.

قال ابن عباس: القصورُ لمصيفهم والبيوتُ في الجبال لمَشْتاهم[٣].

وقيل: نحتوا الجبالَ لطول أعمارهم، كانت القصورُ تَخْرَبُ قبل موتهم. قال وهب: كان الرجلُ يبني البنيانَ فتمرُّ عليه مئةُ سنة فيَخْرَبُ، ثم يجدِّدُه فتمرُّ عليه مئةُ سنة فيَخْرَبُ، ثم يجدِّدُه فتمرُّ عليه مئة سنة فيَخْرَب، فأَضْجَرهم ذلك فاتَّخذوا الجبال بيوتاً[٤].

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قرأ ابن عامر: «وقال الملأ» بواوِ عطفٍ، والجمهورُ: «قال» بغير واوٍ[٥]، و«الذين استكبروا» وصفٌ للملأ: إمَّا للتخصيص؛ لأن من أشرافهم مَن آمَنَ وهو[٦] جُنْدَع بن عمرو، وإمَّا للذمِّ.

و«استكبروا»: طلبوا الهيبة لأنفسهم، وهو من الكِبْر، فيكون اسْتَفْعَلَ للطلب وهو بابُها، أو تكون اسْتَفْعَلَ بمعنى فَعلَ، أي: كَبُروا بكثرة[٧] المال والجاه، فيكون مثل: عَجِبَ واسْتَعْجَبَ.

---

(١) القراءتان في المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٢٥ بنحوه.
(٤) المصدر السابق.
(٥) السبعة ص٢٨٤، والتيسير ص١١١.
(٦) في (أ) و(د١) و(ع): مثل، بدل: وهو.
(٧) في (أ) و(د١) و(ع): لكثرة.

و«الذين استُضعفوا»، أي: استَضْعفَهم رؤساء الكفار واستذلُّوهم، وهم العامَّةُ، وهم أتباعُ الرسل[١]. و«لمن آمن» بدلٌ من «الذين استُضعفوا»، والضمير في «منهم» إن عاد على المستضعفين كان بدلَ بعضٍ من كلٍّ، ويكون «الذين استضعفوا» قِسْمَين: مؤمنينَ وكافرين، وإن عاد على قومه كان بدلَ كلٍّ من كلٍّ، وكان الاستضعافُ مقصوراً على المؤمنين، وكان «الذين استُضعفوا» قسماً واحداً ومن آمن مفسراً للمستضعفين من قومه، واللام في «للذين» للتبليغ، والجملةُ المقولةُ استفهامٌ على جهة الاستهزاء والاستخفافِ.

وفي قولهم: «من ربِّه» اختصاصٌ بصالح، ولم يقولوا: من ربنا، ولا: من ربكم.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾ جوابٌ للمستضعَفين، وعُدولُهم عن قولهم: هو مرسَلٌ، إلى قولهم: «إنَّا بما أُرسل به مؤمنون» في غاية الحُسْن، إذ أَمْرُ رسالته معلومٌ واضحٌ مسلَّم لا يدخله ريبٌ؛ لمَا أتى به من هذا المُعْجِز الخارق العظيم، فلا يحتاج أن يُسألَ عن رسالته، ولا أن يُستَفْهَمَ عن العلم بإرساله، فأَخْبَروا بأنَّهم مؤمنون بما أُرسل به؛ لأنه لا يلزم بعد وضوح رسالته إلَّا التصديقُ بما جاء به، وتضمَّن كلامُهم العِلْمَ بأنه مرسَلٌ من الله تعالى.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ «بالذي آمنتم به» هو من حيث المعنى: «بما أُرسل به»، لكنه من حيث اللفظُ أعمُّ، قَصَدوا الردَّ لمَا جَعَله المؤمنون معلوماً وأخذوه مسلَّماً.

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ نُسِبَ العقر إلى الجميع وإن كان صادراً عن بعضهم لمَّا كان عقرُها عن تَمالُؤٍ واتفاقٍ، حتى رُوي أنَّ قُدَاراً لم يعقرها إلا عن مشاورة الرجال والنساء والصبيان، فأجمعوا على ذلك[٢].

وسببُ عقرها أنها كانت إذا وقع الحرُّ تَصَيَّفتْ بظهر الوادي، فتهربُ منها أنعامهم فتهبط إلى بطنه، وإذا وقع البردُ تَشَتَّتْ ببطن الوادي، فتهرب مواشيهم إلى

---

(١) في (ز١): للرسل.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٣، وهو قطعة من خبر أخرجه عبد الرزاق ١/ ٢٣١، والطبري ١٠/ ٢٩٥-٢٩٦ عن قتادة.

ظهره، فشقَّ ذلك عليهم، وكانت تستوفي ماءهم شرباً، ويحلبونها ما شاء الله حتى ملَّتْها ثمود وقالوا: ما نصنعُ باللبن، الماءُ أحبُّ إلينا منه؟ وقال لهم صالحٌ يوماً: إن هذا الشهرَ يُولد فيه مولودٌ يكون هلاكُكم على يديه، فولد لعشرة نفرٍ، فذبح التسعةُ أولادهم وبقي العاشر، وهو سالفُ أبو قُدارٍ، وكان قُدارٌ أحمرَ أزرقَ قصيراً، ولذلك قال بعض شعراء الجاهلية:

فتُنْتَجْ لكم غلمانَ أشأمَ كلُّهمْ كأحمرِ عادٍ ثم تُرْضِعْ فتَفْطِمِ[1]

قال الشُّرَّاح: غَلِطَ، وإنما هو أحمرُ ثمودَ وهو قُدار[2].

وكان يشبُّ في اليوم شبابَ غيره في السنة، وكان التسعةُ إذا رأوه قالوا: لو عاش بنونا كانوا مثلَ هذا، فأحْفَظَهم أنْ قتلوا أولادَهم بكلام صالح، فأجْمعوا على قتله، فكمنوا له في غارٍ ليُبيِّتوه. ويأتي خبرُ التبييت وما جرى لهم في سورة النمل إن شاء الله.

ورُوي أن السبب في عقرها: أنَّ امرأتين من ثمود من أعداء صالح، وهما: عُنيزةُ بنتُ غُنْم، أمُّ مِجْلَزٍ زوجةُ ذُؤابِ بنِ عَمرٍو، وتُكنى: أمَّ غُنْم، عجوزٌ ذاتُ بناتٍ حسانٍ ومالٍ من إبلٍ وبقرٍ وغنم، وصَدوفُ بنت المُحيَّا، جميلةٌ غنيةٌ ذاتُ مواشٍ كثيرةٍ، فدعت عُنيزة إلى عَقْرِها قُداراً على أن تعطيَه أيَّ بناتها شاء، وكان عزيزاً منيعاً في قومه، ودعت صدوفُ رجلاً من ثمود يقال له الحُبَاب إلى ذلك وعرضتْ نفسها عليه إنْ فَعَلَ، فأبى، فدعت ابنَ عمٍّ لها يقال له: مِصْدَع بنُ مَهْرَج بنِ المحيَّا لذلك، وجعلت له نفسَها، فأجاب قدارٌ ومِصْدَعٌ واستَغْوَيا سبعة نفرٍ، فكانوا تسعةَ

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص٢٠. قوله: تنتج لكم، يعني الحرب. غلمان أشأم. . .، أي: غلمان شؤم وشرٌّ كلُّهم في الشؤم كأحمر عاد. وقوله: فتفطم، يريد أنه يَتِمُّ أمرُ الحرب، كالمرأة إذا أرضعت ثم فطمت فقد تممت، قاله ثعلب شارح الديوان، وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) ينظر الديوان بشرح ثعلب ص٢٠، وبشرح الأعلم ص٢٠، وشرح المعلقات للنحاس١/ ١١٤. وقد ردَّ بعضهم ـ كما نقل الأعلم ـ فقال: لم يغلط، ولكنه جعل عاداً مكان ثمود اتساعاً ومجازاً؛ إذ قد عُرف المعنى، مع تقارب ما بين عاد وثمود في الزمن والأخلاق. وقال المبرد كما نقل النحاس: هذا ليس بغلط؛ لأن ثمود يقال لها: عاد الآخِرة، ويقال لقوم هود: عاد الأولى، والدليل على هذا قوله عز وجل: وأنه أهلك عاداً الأولى.

رَهْطٍ، فرصدوا الناقةَ حين صَدَرتْ عن الماء، وكَمَنَ قُدارٌ في أصل صخرة ومصدعٌ في أصلِ أخرى، فمرت على مِصْدعٍ فرماها بسهم فانتظم به عَضَلةَ ساقها، وخرجتْ أم غُنم عُنيزةُ بابنتها وكانت من أحسن النساء فسَفَرتْ لقدارٍ، ثم مرَّت الناقة به فشدَّ عليها بالسيف فكَسَفَ عُرقوبَها، فخرَّت ورَغَتْ رَغاةً واحدةً، فطعن في لَبَّتها ونَحَرَها، وخرج أهلُ البلدة فاقتسموا لحمها وطبخوه. وذكروا لسَقْبِها حكايةً الله أعلم بصحتها[١].

وقيل: سببُ عقرها أنَّ قداراً شرب الخمر، وطلبوا ماءً لمزاجها فلم يجدوه؛ لشرب الناقة، فعزموا على عقرها، وكمن لها فرماها بالحربة، ثم سقطت فعقرها[٢].

وقال بعض شعراء العرب وقد ذكر قصة الناقة:

فأتاها أُحَيْمِرٌ كأخي السَّهـ ... ـمِ بعَضْبٍ فقال كوني عَقيرا[٣]

﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: استكبروا عن امتثال أمر ربهم، وهو ما أَمر به تعالى على لسان صالح من قوله: «فذَرُوها تأكلْ في أرض الله ولا تمسُّوها بسوء»، ومن اتِّباع أمر الله وهو دينُه وشرعُه[٤].

ويجوز أن يكون المعنى: صَدَر عتوُّهم عن أمر ربهم، كأنَّ أمر ربِّهم بتركها كان هو السببَ في عتوِّهم، ونحو «عن» هذه ما في قوله﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢].

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ أي: من العذاب؛ لأنه كان قد سَبقَ منه: «ولا تمسُّوها بسوءٍ فيأخُذَكم عذابٌ أليم»، فاستعجَلوه

(١) تنظر قصة الناقة وسقبها في تفسير الطبري ١٠/ ٢٨٤-٢٩٤، وتفسير الثعلبي ٣/ ٤٢-٤٦، والكشاف ٢/ ٨٩، والمحرر ٢/ ٤٢١، وتفسير البغوي ٢/ ١٧٦. وهي عند الطبري بعضها من رواية السدي مطولاً، وبعضها الآخر من رواية ابن إسحاق مطولاً أيضاً.

(٢) قطعة من خبر السدي الذي ذكر في التعليق السابق.

(٣) البيت لأمية بن أبي الصلت، وهو في ديوانه ص٧٦.

(٤) أشار المصنف هنا إلى قولين في الآية أجازهما الزمخشري، الأول أن يكون الأمر فيه واحد الأوامر، وهو ما أمر الله به على لسان صالح، والثاني أن يكون الأمر واحدَ الأمور، وهو دين الله وشرعه، وهو الذي أشار إليه المصنف بقوله: ومن اتِّباع أمر الله...، وقوله: ومن، كذا وقع في النسخ، ولعل الأنسب بالسياق: أو عن...

ما وعدهم به من ذلك؛ إذ كانوا مكذِّبين له في الإخبار بذلك الوعيدِ وبغيره، ولذلك علَّقوه بما هم به كافرون، وهو كونُه من المرسلين.

وقرأ ورش والأعمش: «يا صالح ايْتِنا»، وأبو عمرٍو إذا أَدْرَجَ بإبدال همزة فاءِ «ائتنا» واواً لضمَّةِ حاءِ «صالح»[١]، وقرأ باقي السبعة بإسكانها.

وفي كتاب ابن عطية: قال أبو حاتم: قرأ عيسى وعاصم: «أوتنا» بهمزٍ وإشباعِ ضمٍّ[٢]. انتهى، فلعله عاصمٌ الجحدريُّ لا عاصم بنُ أبي النجود أحدُ قرَّاء السبعة.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٧٨﴾ رُوي أنَّ السَّقب لمَّا عقروا الناقة رَغَا ثلاثاً، فقال صالح: لكلِّ رغوةٍ أجلُ يوم، تمتعوا في داركم ثلاثةَ أيام. فقالوا هازئين به: متى ذلك، وما آيةُ ذلك؟ فقال: تُصبحون غداةَ مُؤْنسٍ مصفرَّةً وجوهُكم، وغداةَ العَروبة مُحْمَرِّيها، ويومَ شِيار مسودِّيها[٣]، ثم يصبِّحكم العذابُ يومَ أوَّلَ. وهو يومُ الأحد. فرامَ التسعةُ عاقرو الناقة قتلَه وبيَّتوه، فدمَغَتْهم[٤] الملائكة بالحجارة، فقالوا له: أنت قتلْتَهم، وهمُّوا بقتله، فحمته عشيرتُه وقالوا: وَعَدكم أنَّ العذاب نازلٌ بكم بعد ثلاثٍ، فإنْ صَدَق لم تَزيدوا ربكم عليكم إلا غضباً، وإن كَذَبَ فأنتم مِن وراء ما تريدون. فأصبحوا يومَ الخميس مصفرِّي الوجوهِ كأنها طُليت بالخَلوق، فطلبوه ليقتلوه فهرب إلى بطنٍ من ثمود يقال له: بنو غُنْم، فنزل على سيدهم أبي هُدْبٍ نُفَيْلٍ، وهو مشرك، فغيَّبه ولم يقدروا عليه، فعذَّبوا أصحابَ صالح، فقال منهم مبدعُ[٥] بن هَرِم: يا نبيَّ الله، عذَّبونا لندلَّهم عليك، أفندلُّهم؟ قال: نعم، فدلَّهم عليه، فأتوا أبا هُدْبٍ فقال لهم: عندي صالح ولا سبيلَ لكم عليه. فأَعْرَضوا عنه وشَغَلهم ما نزل بهم، فأصبحوا في الثاني

(١) ينظر السبعة ص١٣١، والتيسير ص٣٧.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٣.

(٣) مؤنس والعروبة وشيار هي بالترتيب: الخميس والجمعة والسبت، كذا كانت العرب تسميها في الجاهلية، والأحد عندهم: أوَّلُ، والإثنين: أهونُ، والثلاثاء: جُبار، والأربعاء: دُبار. الزاهر لابن الأنباري ٢/ ٣٥٦، وتفسير الطبري ١٠/ ٢٩٢-٢٩٣.

(٤) دَمَغه: أصاب دماغه فقتله. اللسان (دمغ).

(٥) كذا في النسخ وعرائس المجالس ص٧٢، وفي تفسير الطبري ١٠/ ٢٩٤: ميدع.

محمرِّي الوجوه كأنها خُضبت بالدم، وفي الثالث مسودِّيها كأنها طُليت بالقار، وليلةَ الأحد خرج صالحٌ ومَن أسلم معه إلى أن نزل رملةَ فلسطين من الشام، فأصبحوا متكفِّنين متحنِّطين مُلْقينَ أنفسَهم بالأرض يقلِّبون أبصارَهم لا يدرون من أين يأتيهم العذاب، فلمَّا اشتدَّ الضحى أخذتهم صيحةٌ من السماء فيها صوتُ كلِّ صاعقة، وصوتُ كلِّ شيءٍ له صوتٌ في الأرض، فقطعت قلوبهم وهلكوا كلُّهم إلا امرأةً مقعَدةً كافرةً اسمها دريعة بنت سلف[١] عندما عايَنَتِ العذابَ خرجت أسرع ما يُرى، حتى أتت واديَ القُرى، فأَخْبَرتْ بما أصاب ثمود، واسْتَسْقَتْ فشربت وماتت[٢].

وقيل: خرج صالح بمَن معه من قومه وهم أربعةُ آلافٍ إلى حضرموت، فلمَّا دخلوها مات صالح فسمِّي ذلك المكانُ: حضرموت[٣].

وقيل: مات بمكة ابنَ ثمانٍ وخمسين سنةً، وأقام في قومه عشرين سنة[٤].

قال مجاهدٌ والسُّدِّي: «الرجفةُ»: الصيحة[٥]. وقال أبو مسلم: الزلزلة الشديدةُ[٦].

قال الزمخشري: «جاثمين»: هامِدِين لا يتحرَّكون مَوْتَى، يقال: الناسُ جُثومٌ، أي: قُعودٌ لا حَرَاكَ بهم ولا يَنْبِسون نَبْسَةً، ومنه: المجثَّمة التي جاء النهيُ عنها، وهي البهيمةُ تُربط وتُجمع قوائمها لتُرْمَى[٧]. انتهى.

---

(١) اضطربت المصادر في اسمها، ينظر تفسير الطبري ١٠/ ٢٩٥، وعرائس المجالس ص٧٣، وتفسير البغوي ٢/ ١٧٨، وتفسير ابن كثير عند هذه الآية، والبداية والنهاية ١/ ٣١٦، ورجح العلامة محمود شاكر في تحقيقه لتفسير الطبري ١٢/ ٥٣٦ أن اسمها: الزُّريعة ابنة السلق. وينظر كلامه ثمة.

(٢) القصة من رواية ابن إسحاق كما في تفسير الطبري ١٠/ ٢٩٢-٢٩٥، وعرائس المجالس ص٧٢-٧٣، وتفسير البغوي ٢/ ١٧٧-١٧٨.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ١٧٩.

(٤) عرائس المجالس ص٧٣.

(٥) أخرجه عنهما الطبري ١٠/ ٣٠٢-٣٠٣.

(٦) تفسير الرازي ١٤/ ١٦٦.

(٧) الكشاف ٢/ ٩١.

وقيل: معناه: حُمماً مُحترِقينَ كالرماد الجاثم، ذَهَب هذا القائلُ إلى أنَّ الصيحة اقْتَرنَ بها صواعِقُ محرقةٌ.

قال الكرماني: حيث ذَكَر الرَّجفةَ وهي الزلزلةُ وحَّد الدار، وحيث ذكر الصيحة جَمَعَ، لأنَّ الصيحة كانت من السماء فبلوغُها أكثر وأبلغ من الزلزلة، فاتَّصل كلُّ واحد منهما بما هو لائق به(١).

وقيل: «في دارهم»، أي: في بلدهم، كَنَى بالدار عن البلد.

وقيل: وُحِّد والمرادُ به الجنسُ.

والفاء في «فأخذتهم» للتعقيب، فيُمْكِنُ العطفُ بها على قولهم: «فأْتِنا بما تَعِدُنا» على تقديرِ قُرْبِ زمانِ الهلاك من زمانِ طلب الإتيان بالوعد، ولقرب ذلك كان العطفُ بالفاء، ويمكن أن يقدَّر ما يصحُّ العطفُ بالفاء عليه، أي: فوَعَدهم العذابَ بعد ثلاثٍ فانْقَضَتْ فأخذَتْهم الرَّجفةُ، ولا منافاةَ بين «فأخذتهم الرجفة» وبينَ ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [الحجر: ٨٣] وبين ﴿فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥] كما ظنَّ قومٌ من الملاحِدة؛ لأنَّ الرجفة ناشئةٌ عن الصيحة؛ صِيْحَ بهم فرَجَفوا، فناسَبَ أن يُسْنَدَ الأخذُ لكلٍّ واحدٍ منهما، وأمَّا «فأُهْلِكوا بالطاغية» فالباءُ فيه للسببية، أي: أُهلكوا بالفِعْلةِ الطاغيةِ، وهي الكفرُ أو عَقْرُ الناقة، و«الطاغية» مِن طَغَى: إذا تجاوَزَ الحدَّ وغَلَبَ، ومنه تسميةُ المَلِكِ العاتي بالطاغية، وقوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ [الحاقة: ١١] وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١﴾ أي: بسبب طغيانها حَصَلَ تكذيبهم، ويمكن أن يراد بـ«الطاغية»: الرجفة أو الصيحة؛ لتجاوُزِ كلٍّ منهما الحدَّ.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٧٩﴾ ظاهرُ العطف بالفاء أن هذا التولِّيَ كان بعد هلاكهم ومشاهدةِ ما جرى عليهم، فيكون الخطابُ على سبيل التفجُّع عليهم والتحسُّرِ لكونهم لم يؤمنوا فهلكوا، والاغتمام لهم، وليسمع ذلك مَن كان معه من المسلمين فيزدادوا إيماناً وانتفاءً عن معصية الله واقتفاءً لما جاء به نبيُّه عن الله، ويكونُ معنى قوله:

(١) أسرار التكرار في القرآن ص٨٥.

«ولكن لا تحبُّون الناصحين»: ولكن كنتم لا تحبُّون الناصحين، فتكونُ حكايةَ حالٍ ماضيةٍ، وقد خاطَبَ رسولُ الله ﷺ أهلَ قَليبِ بدرٍ[1].

ورُوي أنه خرج في مئة وعشرة من المسلمين وهو يبكي، فالتفت فرأى الدخانَ فعلم أنهم قد هلكوا، وكانوا ألفاً وخمسَ مئة دارٍ، ورُوي أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارَهم[2].

وقيل: كان تولِّيه عنهم وقتَ عَقْرِ الناقة وقولِهم: «ائتنا بما تَعِدُنا»، وذلك قبل نزول العذاب، وهو الذي يقتضيه ظاهرُ مخاطبته لهم، وقولِه: «ولكنْ لا تحبون الناصحين»، وهو الذي نُقِلَ في قصصهم من أنه رَحَلَ عنهم ليلةَ أن أَخذَتْهم الرجفةُ صَبيحتَها وبعدَ ظهور أمارات[3] الهلاك التي وَعَدَ بها.

قال الطبريُّ: وقيل: لم تَهْلِكْ أمَّةٌ ونبيُّها فيها[4].

ورُوي أنه ارتحل بمن معه حتى جاء مكة، فأقام بها حتى مات[5].

ولفظةُ التولِّي تقتضي اليأسَ من خيرهم واليقينَ في هلاكهم، وخطابُه هذا كخطاب نوحٍ وهودٍ عليهما السلام في قولهما: «أبلِّغكم رسالاتِ ربِّي» وذُكر النصحُ بعد ذلك[6]، لكنه لمَّا كان قولُه: «أبلغْتُكم» ماضياً عَطَفَ عليه ماضياً، فقال: «ونصحتُ».

وقوله: «لا تحبُّون الناصحين»، أي: مَن نَصَحَ لكم من رسولٍ أو غيره، أي: دَيْدَنُكم ذلك لغلبة شهواتكم على عقولكم، وجاء لفظ «الناصحين» عامًّا، أي: أيَّ شخصٍ نَصَحَ لكم لم تقبلوا في أيِّ شيءٍ نَصَحَ لكم! وذلك مبالغةٌ في ذمِّهم.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٧٠)، ومسلم (٩٣٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وأخرجه مسلم (٢٨٧٣) و(٢٨٧٤) من حديث عمر وأنس رضي الله عنهما.

(٢) الكشاف ٢/ ٩٢.

(٣) في (ب) و(د٣) و(يه): إشارات.

(٤) تفسير الطبري ١٠/ ٣٠٤، وفيه: . . .ونبيها بين أظهُرها.

(٥) عرائس المجالس ص٧٣.

(٦) ينظر الآيتان (٦٢) و(٦٨) من هذه السورة.

ورُوي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ لمَّا نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من مائها ولا يَسْتَقوا منها، فقالوا: يا رسول الله، قد طبخنا وعجنَّا، فأمرهم أن يطرحوا ذلك الطبيخَ والعجينَ ويُهريقوا ذلك الماءَ، وأَمَرهم أن يَسْتَقوا من الماء الذي كانت تَرِدُه ناقةُ صالح[١].

وإلى الأَخْذِ بهذا الحديثِ أخذ أبو محمدٍ بنُ حزمٍ في ذهابه إلى أنه لا يجوزُ الوضوءُ بماءِ أرضِ ثمودَ إلا إنْ كان من العين التي كانتْ تَرِدُها الناقةُ[٢].

وعن جابر أن رسول الله ﷺ لمَّا مرَّ بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه: «لا يدخل أحدٌ منكم القريةَ ولا تشربوا من مائها، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذَّبين إلَّا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم»[٣].

وفي الحديث: أنه مرَّ بقبرٍ فقال: «أتعرفون ما هذا؟» قالوا: لا، قال: «هذا قبرُ أبي رِغَال الذي هو أبو ثقيف، كان من ثمودَ فأصابَ قومَه البلاءُ وهو بالحَرَم فسَلِمَ، فلمَّا خرج من الحرم أصابه ما أصابهم، فدُفن هنا وجُعِلَ معه غصنٌ من ذهب» قال: فابتدر القومُ بأسيافهم فحفروا حتى أخرجوا الغصن[٤].

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٣٣٧٨) و(٣٣٧٩)، ومسلم (٢٩٨١).

(٢) المحلى ١/ ٢١٩-٢٢٠.

(٣) أورده الثعلبي في التفسير ٣/ ٤٦، والعرائس ص٧٣ من طريق أبي الزبير عن جابر، ولم نقف عليه مسنداً. وهو في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنه. ينظر صحيح البخاري (٣٣٧٨) و(٣٣٧٩) و(٣٣٨٠)، وصحيح مسلم (٢٩٨٠) و(٢٩٨١). وينظر أيضاً ما ذُكر من الكلام عليه في حاشية روح المعاني ٩/ ٢١٤.

(٤) أخرجه بنحوه أبو داود (٣٠٨٨)، وابن حبان (٦١٩٨)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٧٥٣)، والمزي في تهذيب الكمال ٤/ ١١ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ولفظه من المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٢. قال المزي: وهو حديث حسن عزيز. ونقل كلامه تلميذه ابن كثير في تفسيره عند هذه الآية ثم قال: «قلت: تفرد بوصله بجير بن أبي بجير، وهو شيخ لا يعرف إلا بهذا الحديث، قال يحيى بن معين: ولم أر أحداً روى عنه غير إسماعيل بن أمية، قلت: وعلى هذا فيخشى أن يكون وهم في رفع هذا الحديث، وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو مما أخذه من الزاملتين، قال شيخنا أبو الحجاج [وهو المزي] بعد أن عرضت عليه ذلك: وهذا محتمل، والله اعلم» اهـ. قلت: وله شاهد دون قصة الغصن أخرجه أحمد (١٤١٦٠) من حديث جابر رضي الله عنه، وهو حديث قوي كما قال محققو المسند.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ هو لوط بن هاران أخي إبراهيم عليه السلام وناحور، وهم بنو تارح[١] بن ناحور، وتقدَّم رفعُ نسبه[٢]، وقومُه هم أهلُ سَدوم وسائرِ القرى المؤتفكة، بعثه الله تعالى إليهم، وقال ابن عطية: بعثه الله إلى أمّةٍ تسمَّى سَدوم[٣].

وانتصب «لوطاً» بإضمارِ: وأرسلنا، عطفاً على الأنبياء قبله، و«إذ» معمولةٌ لـ«أرسلنا»، وجوَّز الزمخشريُّ وابنُ عطية نصبه بـ: واذكر مضمرةً[٤]، زاد الزمخشري أن «إذ» بدلٌ من «لوط»، أي: واذكر وقتَ قال لقومه، وتقدَّم الكلامُ على كون «إذ» تكون مفعولاً بها صريحاً لـ: اذكر، وأنَّ ذلك تصرُّفٌ فيها[٥].

والاستفهامُ هو على جهة الإنكار والتوبيخ والتشنيع والتوقيف على هذا الفعل القبيح، والفاحشةُ هنا إتيانُ ذُكران الآدميين في الأدبار، ولمَّا كان هذا الفعلُ معهوداً قبحُه ومركوزاً في العقول فحشُه أتى معرَّفاً بالألف واللام، أو تكون «أل» فيه للجنس على سبيل المبالغة، كأنه لشدة قبحه جُعِلَ جميعَ الفواحش، ولبُعْدِ العرب عن ذلك البعدَ التامَّ، وذلك بخلاف الزنا فإنه قال فيه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢] فأتى به منكَّراً، أي: فاحشةً من الفواحش، وكان كثيرٌ من العرب يفعله ولا يستنكرون فِعْلَه ولا ذِكْرَه في أشعارهم.

والجملةُ المنفيَّةُ تدل على أنهم هم أولُ مَن فَعَلَ هذه الفِعْلةَ القبيحة، وأنهم مُبْتكِروها، والمبالغةُ في «من أحد» حيث زيدت لتأكيد نفي الجنس، وفي الإتيان بعموم «العالَمين» جمعاً.

---

(١) في (د٣): تارخ، والمثبت من باقي النسخ، واللفظان موجودان في المصادر، وهو آزر كما سلف عند تفسير الآية (٧٤) من سورة الأنعام. وجاء في تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ١٥٣ بالمهملة.

(٢) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ﴾ [البقرة: ١٢٤].

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٤.

(٤) الكشاف ٢/ ٩٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٢٤.

(٥) ينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٤٩].

قال عمرو بن دينار: ما نزا[(١)] ذَكَرٌ على ذَكَرٍ قبل قوم لوط.

رُوي أنهم كان يأتي بعضُهم بعضاً، وقال الحسن: كانوا يأتون الغرباء[(٢)]، كانت بلادُهم الأردنُّ تُؤْتَى من كلِّ جانبٍ لخِصْبِها، فقال لهم إبليس وهو في صورة غلام: إن أردتمُ دفعَ الغرباء فافعلوا بهم هكذا، فمكَّنهم من نفسه تعليماً، ثم فشا واستحلُّوا ما استحلُّوا.

وأَبْعَدَ مَن ذهب إلى أنَّ المراد: من عالَمي زمانهم، ومَن ذهب إلى أن المعنى: ما سبقكم إلى لُزومها وتشهيرها.

وفي تسمية هذا الفعلِ بالفاحشة دليلٌ على أنه يجري مجرى الزنى، يُرجم مَن أَحْصَنَ ويُجلد مَن لم يُحْصَنْ، وفَعَله عبد الله بن الزبير، أُتي بسبعةٍ منهم فرجم أربعةً أحصنوا وجَلَدَ ثلاثةً، وعنده ابن عُمر وابن عباس ولم ينكروا[(٣)]، وبه قال الشافعي[(٤)].

وقال مالك: يرجم أَحْصَنَ أو لم يُحْصَنْ، وكذا المفعولُ به إن كان محتلماً. وعنه: يُرْجَم المحصَنُ، ويؤدَّب ويُحبَسُ غيرُ المحصَن، وهو مذهبُ عطاءٍ وابنِ المسيِّب والنخعي وغيرِهم. وعن مالك أيضاً: يعزَّر أحصن أو لم يُحصن، وهو مذهب أبي حنيفة[(٥)].

وحرَّق خالد بن الوليد رجلاً يقال له: الفجاءة، عَمِلَ ذلك العملَ، وذلك برأي

---

(١) في النسخ عدا (زا): يرى، والمثبت من المصادر على ما يأتي، واللفظة في (زا) تحتمل الوجهين، وجاءت فيها بالألف المقصورة. والخبر أخرجه الدارمي (تحقيق حسين الأسد) (١١٧٩)، والطبري ١٠/ ٣٠٥ و١٨/ ٣٨٨، وابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٥٤، وأورده ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٢٧.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٤، وتفسير البغوي ٢/ ١٧٩، وما سيرد بعده ذكره الثعلبي ٣/ ٤٧ بنحوه من كلام الكلبي.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٨/ ٢٣٣.

(٤) ينظر قوله في الإشراف لابن المنذر ٢/ ٣٦، والاستذكار لابن عبد البر ٢٤/ ٧٨، وأحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٧٦.

(٥) تفسير القرطبي ٩/ ٢٧٤.

أبي بكر وعليٍّ، وأنَّ أصحاب رسول الله ﷺ أجْمعَ رأيُهم عليه وفيهم عليُّ بنُ أبي طالب[١].

ورُوي أنَّ ابنَ الزبير أحرقهم في زمانه، وخالدٌ القسريُّ بالعراق، وهشامٌ[٢].

و«ما سبقكم» جملةٌ حاليةٌ من الفاعل أو من «الفاحشة»؛ لأن في «سبقكم بها» ضميرَهم وضميرَها.

وقال الزمخشري: هي جملةٌ مستأنفةٌ، أنكر عليهم أولاً بقوله: «أتأتون الفاحشة»، ثم وبَّخهم عليها فقال: أنتم أولُ مَن عَمِلَها، أو على أنه جوابٌ لسؤال مقدَّرٍ، كأنهم قالوا: لِمَ لا نأتيها؟ فقال: ما سبقكم بها أحدٌ فلا تفعلوا ما لم تُسبقوا به.

وقال الزمخشري: والباء للتعدية من قولك: سبقتُه بالكرة: إذا ضربْتَها قبله، ومنه قولُه ﷺ: «سبقك بها عُكاشة»[٣]. انتهى.

ومعنى التعديةِ هنا قلقٌ جدًّا؛ لأنَّ الباء المعدِّية في الفعل المتعدِّي إلى واحدٍ هي بجَعْلِ المفعول الأول يفعلُ ذلك الفِعْلَ بما دخلت عليه الباء، فهي كالهمزة، وبيان ذلك: أنك إذا قلت: صككتُ الحجرَ بالحجرِ، فمعناه: أصكَكْتُ الحجرَ الحجرَ: أي: جعلتُ الحجرَ يصكُّ الحجرَ، وكذلك: دفعت زيداً بعمرو عن خالد، معناه: أَدْفعتُ زيداً عمراً عن خالد، أي: جعلتُ زيداً يدفعُ عمراً عن خالد، فللمفعولِ الأول تأثيرٌ في الثاني، ولا يتأتَّى هذا المعنى هنا إذ لا يصحُّ أن يقدَّر: أسبقتُ زيداً الكرةَ، أي: جعلتُ زيداً يسبقُ الكرة، إلا بمجازٍ متكلَّفٍ، وهو أن تجعل ضَرْبَكَ للكرة أول جعل ضربه قد سبقها، أي: تقدَّمها في الزمان فلم يجتمعا.

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٨/ ٢٣٢، وابن حزم في المحلى ١١/ ٣٨٠-٣٨١.

(٢) المحلى ١١/ ٣٨١، وخالد القسري هو خالد بن عبد الله الدمشقي، أبو الهيثم، أمير العراقين لهشام بن عبد الملك، توفي سنة (١٢٦هـ). السير ٥/ ٤٢٥.

(٣) الكشاف ٢/ ٩٢، والحديث أخرجه البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠) مطولاً عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ هذا بيانٌ لقوله: «أتأتون الفاحشة»، و«أتى» هنا من قولهم: أتى المرأةَ: غَشِيَها، وهو استفهامٌ على جهةِ التوبيخ والإنكار.

وقرأ نافع وحفصٌ: «إنكم»[1] على الخبر المستأنف.

و«شهوةً» مصدرٌ في موضع الحال، قاله الحوفيُّ وابنُ عطية[2]، وجوَّزه الزمخشريُّ وأبو البقاء، أي: مشتهِينَ تابعين للشهوة غير ملتفتين لقبحها[3]. أو مفعولٌ من أَجْله؛ قاله الزمخشريُّ وبدأ به، وأبو البقاء[4]، أي: للاشتهاء، لا حاملَ لكم على ذلك إلَّا مجردُ الشهوة، ولا ذمَّ أعظمُ منه، لأنه وصفٌ لهم بالبهيمية، وأنهم لا داعيَ لهم من جهة العقل كطلب النسل ونحوِه[5].

و«من دون النساء» في موضع الحال، أي: منفردين عن النساء، وقال الحوفي: «من دون النساء» متعلِّقٌ بـ«شهوةً».

و«بل» هنا للخروج من قصةٍ إلى قصةٍ تُنْبِئُ بأنهم متجاوِزُو الحدِّ في الاعتداء، وقيل: إضرابٌ عن تقريرهم وتوبيخهم والإنكار، أو عن الإخبار عنهم بهذه المعصية الشنيعة، إلى الحكم عليهم بالحال التي تنشأ عنها القبائحُ وتدعو إلى اتِّباع الشهوات، وهي الإسرافُ، وهو الزيادةُ المُفْسِدةُ، لمَّا كانت عادتُهم الإسرافَ أسرفوا حتى في باب قضاء الشهوة، وتجاوزوا المعتاد إلى غيره، ونحوُه: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦].

وقيل: إضرابٌ عن محذوفٍ، تقديره: ما عَدَلْتُم بل أنتم.

---

(١) السبعة ص ٢٨٦، والتيسير ص ١١١.
(٢) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٥.
(٣) الكشاف ٢/ ٩٢، والإملاء ١/ ٢٧٩. وهذا التقدير على أنها حال من الفاعل، وهو الضمير في «تأتون»، ويجوز -كما في النهر على هامش مطبوع البحر ٤/ ٣٣٤- أن تكون حالاً من المفعول وهو «الرجال»، أي: مشتَهَيْنَ. ويجوز أيضاً أن تكون مصدراً باقياً على مصدريته، ناصبُه: «أتأتون»؛ لأنه بمعنى: أتشتهون. الدر المصون ٥/ ٣٧٢.
(٤) الإملاء ١/ ٢٧٩.
(٥) الكشاف ٢/ ٩٢.

وقال الكرماني: «بل» ردٌّ لجوابٍ، زعموا أن يكون لهم عذرٌ، أي: لا عذرَ لكم ولا حجةَ بل أنتم.

وجاء هنا «مسرفون» باسم الفاعل ليدلَّ على الثبوت، ولموافقة ما سبق من رؤوس الآي في خَتْمها بالأسماء، وجاء في «النمل»: ﴿تَجۡهَلُونَ ۝﴾ [الآية: ٥٥] بالمضارع لتَجَدُّدِ الجهل فيهم، ولموافقة ما سبق من رؤوس الآي في خَتْمها بالأفعال.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾ الضمير في «أخرِجوهم» عائدٌ على لوطٍ ومَن آمَنَ به، ولمَّا تأخَّر نزولُ هذه السورة عن سورة النمل أُضْمِر ما فسَّره الظاهر في «النمل» من قوله: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾ [الآية: ٥٦] و«آل لوط» ابنتاه، وهما زَعوراء وريثا[1]، ومَن تبعه من المؤمنين.

وقيل: لم يكن معه إلَّا ابنتاه، كما قال تعالى: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦].

وقال ابن عطية: والضميرُ عائدٌ على آل لوطٍ وأهلِه وإن كان لم يَجْرِ لهم ذكرٌ، فإن المعنى يقتضيهم، وقرأ الحسن «جوابُ» بالرفع[2]. انتهى.

وهنا جاء العطفُ بالواو، والمرادُ بها أحدُ محاملها الثلاثِ من التعقيب المعين في «النمل» في قوله: ﴿تَجۡهَلُونَ ۝ فَمَا﴾ [النمل: ٥٥-٥٦] وفي «العنكبوت»: ﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا﴾ [العنكبوت:٢٩] وكان التعقيبُ مبالَغةً في الردِّ حيث لم يُمْهِلوا في الجواب زماناً، بل أعجلوه بالجواب سرعةً وعَدَمَ اكتراثٍ بما يجاوبون به، ولم يطابق الجوابُ قولَه؛ لأنه لمَّا أنكر عليهم الفاحشةَ وعظَّم أمرها، ونَسَبهم إلى الإسراف، بادروا بشيءٍ لا تعلُّق له بكلامه،

(١) اضطرب رسم الاسمين في النسخ، والمثبت من (ز١)، وهو الموافق لما في تفسير أبي الليث ٢/ ١٣٧، وتفسير الثعلبي ٣/ ٣٣٥، وجاء في تاريخ الطبري: ريثا ورعزيا، وفي البداية والنهاية ١/ ٤١٦: أريثا ودغوثا.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٥.

وهو الأمرُ بالإخراج، ونظيرُه جوابُ قوم إبراهيم بأن قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٨] حين قبَّح عليهم بقوله: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٧] فأتوا بجوابٍ لا يطابق كلامَه.

والقرية هي سَدوم، سُمِّيت باسم سدوم بن باقيم الذي يُضرب به المثلُ في الحكومات، هاجر لوطٌ مع عمه إبراهيم من أرض بابل فنزل إبراهيم أرضَ فلسطين وأنزل لوطاً الأردن.

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ قال ابن عباس ومجاهدٌ: يتقذَّرون عن إتيان أدبار الرجال والنساء[١].

وقيل: يأتون النساء في الأطهار.

وقال ابن بحر: يرتَقِبون أطهارَ النساء فيجامعونهنَّ فيها.

وقيل: يتنزَّهون عن فِعْلنا، وهو معنى قولِ ابن عباس ومجاهدٍ.

وقيل: يغتسلون من الجنابة، ويتطهَّرون بالماء، عيَّروهم بذلك، ويسمَّى هذا النوعُ في علم البيان: التعريضُ بما يُوْهِمُ الذمَّ وهو مدحٌ، كقوله:

ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفهم بهنَّ فلولٌ من قِرَاع الكتائبِ[٢]

ولذلك قال ابن عباس: عابوهم بما يُمدَح به[٣].

والظاهر أنَّ قوله: «إنهم» تعليلٌ للإخراج، أي: لأنهم لا يُوافِقوننا على ما نحن عليه، ومَن لم يُوافِقنا وَجَبَ أن نُخْرجه.

وقال الزمخشري[٤]: وقولُهم: «إنهم أناسٌ يتطهَّرون» سخرية بهم وبتطهُّرِهم من

(١) أخرجه عنهما الطبري ١٠/٣٠٦-٣٠٧.

(٢) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص١١.

(٣) لم نقف عليه عن ابن عباس ﷺ، وأخرجه عبد الرزاق ٢/٨٣، والطبري ١٠/٣٠٧ عن قتادة.

(٤) في الكشاف ٢/٩٢-٩٣.

الفواحش، وافتخارٌ بما كانوا فيه من القذارة، كما يقول الشيطان[١] من الفسقة لبعض الصُّلحاء إذا وعظهم: أبعِدوا عنا هذا المتقشِّف، وأرِيحونا من هذا المتزهِّد.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: فأنجيناه وأهلَه من العذاب الذي حلَّ بقومه، و«أهله» هم المؤمنون معه، أو ابنتاه، على الخلاف الذي سبق، واستُثْنيَ من أهله امرأتُه فلم تَنْجُ، واسمُها: واهلة، كانت منافِقةً تُسِرُّ الكفر، مواليةً لأهل سَدُوم.

ومعنى «من الغابرين»: من الذين بَقُوا في ديارهم فهلكوا، وعلى هذا يكون قولُه: «كانت من الغابرين» تفسيراً وتوكيداً لمَا تضمَّنه الاستثناءُ من كونها لم يُنجها الله تعالى.

وقال أبو عبيدة: «إلا امرأته» اكتفى به في أنها لم تَنْجُ، ثم ابتدأ وصفَها بعد ذلك بصفةٍ لا تتعلَّقُ بها النجاةُ ولا الهلكة، وهي أنها كانت ممن أسنَّ وبقي من عصره إلى عصرٍ غيرِه، فكانت غابرةً، أي: متقدِّمة في السن، كما قال: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧١] إلى أن هَلَكَتْ مع قومها[٢]. انتهى.

وجاء: «من الغابرين» تغليباً للذكور على الإناث[٣].

وقال الزجَّاج: من الغائبين عن النجاة، فيكونُ توكيداً لمَا تضمَّنه الاستثناء[٤]. انتهى.

و«كانت» بمعنى: صارت، أو: كانت في علم الله، أو باقيةٌ على ظاهرها من تقييد غُبورها بالزمان الماضي. أقوال.

---

(١) كذا في النسخ، والذي في الكشاف: الشطار، ومثله في حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٤/ ١٨٦، وروح المعاني ٩/ ٢٢١.

(٢) هذا الكلام الذي عزاه المصنف لأبي عبيدة بعضه له وبعضه من كلام ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٥، فمن قوله: اكتفى به، إلى قوله: ولا الهلكة، هو من كلام ابن عطية، وكان ابن عطية قد ذكر قبله عن أبي عبيدة قوله: ذكَرها الله بأنها كانت ممن أسن... إلخ كما أورده المصنف، وهو بنحوه في مجاز القرآن ١/ ٢١٨ و٢/ ٨٩ و١١٥.

(٣) وهذا أيضاً من كلام أبي عبيدة، وهو بنحوه في مجاز القرآن ١/ ٢١٩ و٢/ ١١٥.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٥٣، دون قوله: فيكون توكيداً لما تضمنه الاستثناء.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ ضمَّن «أمطرنا» معنى: أرسلنا، فلذلك عدَّاه بـ«على» كقوله: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] والمطرُ هنا هي حجارةٌ، وقد ذُكرت في غير آية، خُسِفَ بهم وأُمْطِرَتْ عليهم الحجارة[١].

قيل: كانت المؤتفكةُ خمسَ مدائنَ. وقيل: ستٌّ. وقيل: أربعٌ. اقتلعها جبريل بجناحه فرفعها حتى سَمع أهلُ السماء نهيقَ الحمير وصياحَ الديكة، ثم عكَسَها فردَّ أعلاها أسفلَها وأرسلها إلى الأرض، وتَبِعتْهم الحجارةُ مع هذا، فأَهْلَكت مَن كان منهم في سفرٍ أو خارجاً عن البقاع المرفوعة، وقالت امرأةُ لوط حين سمعت الرجّة: واقوماه! والتفتت فأصابتها صخرةٌ فقتلتها[٢].

والظاهرُ أنَّ الإمطار شملهم كلَّهم، وقيل: خُسِفَ بأهل المدن وأُمطرت الحجارةُ على المسافرين منهم.

وسُئل مجاهدٌ: هل سَلِمَ منهم أحدٌ؟ قال: لا، إلا رجلاً كان بمكة تاجراً، وقف الحجرُ له أربعين يوماً حتى قضى تجارته وخرج من الحرم، فأصابه فمات[٣]. وكان عددُهم مئةَ ألف.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ خطابٌ للرسول، أو للسامع قصتَهم، كيف كان مآلُ مَن أجرم، وفيه اتِّعاظٌ وازدجارٌ أن تسلك هذه الأمّةُ هذا المسلكَ، و«المجرمين» عامٌّ في قوم نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وغيرِهم.

وهو من نظر التفكُّر، أو من نظر البصر فيمَن بقيت له آثارُ منازلَ ومساكنَ كثمودَ وقومِ لوطٍ، كما قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

---

(١) ينظر الآية (٨٢) من سورة هود، والآية (٧٤) من سورة الحجر، والآية (٣٣) من سورة الذاريات.

(٢) المحرر الوجيز ٢/٤٢٦، وينظر ما ورد في هذه القصة من روايات في تفسير الطبري ١٢/٥١٥-٥١٦ عن سعيد بن جبير، و١٢/٥٣٣-٥٣٧ عن مجاهد وقتادة والسدي ومحمد بن كعب القرظي، وكلها روايات عن التابعين.

(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٢/٩٣ دون نسبة.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ قال الفرَّاء: «مدين» اسمُ بلدٍ وقطرٍ، وأنشد:

رهبانُ مُدينَ لو رأوكِ تنزَّلوا(١)

فعلى هذا؛ التقديرُ: وإلى أهلِ مدين.

وقيل: اسم قبيلة سُمِّيت باسم أبيها مدين بن إبراهيم، قاله مقاتلٌ وأبو سليمان الدمشقيُّ(٢).

و«شعيب» قيل: هو ابن بنتِ لوط. وقيل: زوجُ بنته(٣). وهذه مناسَبةٌ بين قصته وقصة لوط.

و«شعيبٌ» اسمٌ عربيٌّ تصغيرُ شَعْبٍ أو شِعْبٍ(٤)، والجمهورُ على أنَّ «مدين» أعجميٌّ، فإن كان عربيًّا احتمل أن يكون فَعْيَلاً من مَدَنَ بالمكان: أقام به، وهو بناءٌ نادر، وقيل: مُهْمَلٌ. أو مَفْعَلاً مِن «دانَ» فتصحيحُه شاذٌّ(٥)، كـ: مَرْيَم ومَكْوَزَة ومَطْيَبَة(٦). وهو ممنوعُ الصَّرف على كلِّ حالٍ، سواءٌ كان اسمَ أرضٍ أو اسمَ قبيلةٍ، أعجميًّا أم عربيًّا.

واختلفوا في نسب شعيبٍ؛ فقال عطاء وابنُ اسحاق وغيرهما: هو شعيب بن

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٩٩، وهذا صدر بيت لجرير، وهو في ديوانه ١/ ٣٠٨، وعجزه: والعُصْمُ من شعف العقول الفادرِ. العصم: الوعول، والفادر: المُسِنُّ منها، والعقول: المتحرزة في شعف الجبال، وشعف كل شيء أعلاه. قاله محمد بن حبيب شارح الديوان.

(٢) زاد المسير ٣/ ٢٢٨، وقول أبي سليمان فيه: «مدين» هو ابن مَدْيان بن إبراهيم. وبعضهم جعل مدين ومديان واحداً؛ قال الآلوسي في روح المعاني ٩/ ٢٣٢: ومدين-وسمع: مديان- في الأصل عَلَم لابن إبراهيم الخليل عليه السلام.

(٣) القولان في المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٦.

(٤) قال الآلوسي في روح المعاني ٩/ ٢٣٢: «الشَّعب» بفتح فسكون: اسم جبل، و«شِعْب» بكسر فسكون: الطريق في الجبل، واختير أنه ـ أي: اسم شعيب ـ وضع مرتجلاً هكذا.

(٥) أي: قياسُه الإعلال، كـ: متاع ومقام. ينظر الدر المصون ٥/ ٣٧٦، وروح المعاني ٩/ ٢٣٢.

(٦) ينظر المنصف لابن جني ١/ ٢٩٦، وشرح الشافية للرضي ٣/ ١٠٤-١٠٥. ومكوزة: عَلَم لرجل.

ميكيل بن يَشْجن[١] بن مدين بن إبراهيم، واسمه بالسُّريانية: بيروت[٢].

وقال الشَّرْقيُّ بن قُطَامي[٣]: شعيب بن عَنْقا بن ثويب[٤] بن مدين بن إبراهيم.

وقال أبو القاسم إسماعيل بنُ محمد بنِ الفضل بنِ عليٍّ الطَّلْحيّ الأصبهاني في «كتاب الإيضاح في التفسير»[٥] من تأليفه: هو شعيب بن ثويب بن مدين بن إبراهيم.

وقيل: شعيب بن جزي بن يسجن[٦] بن اللام بن يعقوب، وكذا قال ابن سمعان، إلا أنه جعل مكان اللام: لاوي[٧]، ولا يُعرف في أولاد يعقوب: اللام،

(١) في النسخ عدا (ز١): سجن، والمثبت من(ز١)، وهو موافق في الرسم لما في تفسير الطبري ١٠/ ٣١٠، والبداية والنهاية ١/ ٤٢٧، وفيهما: يشجن، وأشير في حاشية الطبري لنسخة توافق ما في نسخ البحر غير (ز١)، وجاء في كثير من المصادر: يشجر. ينظر تفسير الطبري ١٢/ ٥٥٤ (تحقيق محمود شاكر)، وعرائس المجالس ص١٦٧، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٨١، وتفسير ابن كثير عند هذه الآية؛ والإتقان للسيوطي ٦/ ١٠٦٦، وروح المعاني ٩/ ٢٣٢؛ ونقله النووي في تهذيب الأسماء ص١٧٧ عن العرائس: تسخر.

(٢) كذا في النسخ، ومثله في نسخ القرطبي كما في حواشيه، وجاء في تفسير الطبري ١٢/ ٥٥٤ (تحقيق محمود شاكر)، والكامل لابن الأثير ١/ ١٥٧، وتفسير ابن كثير: يثرون، وفي مطبوع العرائس: يترون، وفي مطبوع البداية والنهاية: بثرون. وفي تفسير الثعلبي ٣/ ٤٩، وروح المعاني ٩/ ٢٣٣: يثروب.

(٣) هو الوليد بن الحصين، والشرقي لقبه، والقطامي لقب والده، كان عالماً بالنسب وافر الأدب، ضم المنصورُ إليه المهديَّ ليأخذ من أدبه. ميزان الاعتدال ٢/ ٢٤٨، والأعلام ٨/ ١٢٠. وكلامه نقله النحاس في معاني القرآن ٥/ ١٠١، والقرطبي ٩/ ٢٨١، والسيوطي في الدر المنثور ٣/ ١٠٢ (وعزاه لابن عساكر)، والآلوسي في روح المعاني ٩/ ٢٣٢.

(٤) قيده السيوطي ونقله عنه الآلوسي: يَوْبَب، بمثناة تحتية أوله، وبعدها واو وموحدتين بوزن جعفر، وكذا جاء في تفسير القرطبي، وجاء في معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٠١: فويب. واسم أبيه عندهم: عَيْفَا.

(٥) وله أيضاً: التفسير الكبير، سماه: الجامع، والموضح في التفسير، والترغيب والترهيب، وغيرها، ويلقب: قوام السُّنة، روى عنه ابن عساكر، وأبو سعد السمعاني، وأبو موسى المديني، وآخرون، توفي سنة (٥٣٥هـ). طبقات المفسرين للداودي ١/ ١١٢.

(٦) في النسخ عدا (ز١): سجن، والمثبت من (ز١)، وسلف الكلام فيه.

(٧) كما في معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٠١، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٨١. وابن سمعان هو =

فلعله تصحيفٌ من لاوي.

وقيل: شعيب بن صفوان بن عنقا بن ثويب بن مدين بن إبراهيم.

وقال الشريف النسَّابةُ الجَوَّاني، وهو المُنْتَهَى إليه في هذا العلم: هو شعيب بن ثويب[1] بن حُبَيْش بن وائل بن مالك بن حَرام بن جُذام، واسمُه عامرٌ أخو لَخْم، وهما ولدا الحارث بن مُرَّةَ بن أُدَد بن زيد بن يشجب بن عَريب بن زيد بن كَهْلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر هودٍ عليه السلام، فبينه وبين هود في هذا النسب الأخير ثمانيةَ عشر أباً، وبينهما في بعض النسب المذكور سبعةُ آباءٍ؛ لأنه ذُكر فيه أنه شعيب بن ثويب بن مدين بن إبراهيم، وإبراهيم هو ابن تارح بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر وهو هود عليه السلام.

وكان يقال لشعيب: خطيب الأنبياء؛ لحُسْنِ مراجَعَتِهِ قومَه[2].

قال قتادة: أُرسل مرَّتين: مرَّةً إلى مدين، ومرَّةً إلى أصحاب الأيكة[3].

وتعلَّق «إلى مدين» وانتَصَبَ «أخاهم» بـ«أرسلنا»، وهذا يقوِّي قولَ مَن نصب «لوطاً» بـ«أرسلنا» وجَعَلَه معطوفاً على الأنبياء قبلَه.

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قرأ الحسن: «آيةٌ من ربِّكم»[4]، وهذا دليلٌ على أنه جاء بالمعجزة، إذ كلُّ نبيٍّ لا بدَّ له من معجزة تدلُّ على صدقه، لكنه لم يعيِّن هنا ما المعجزةُ، ولا من أيِّ نوعٍ هي، كما أنه لرسول الله ﷺ معجزاتٌ كثيرةٌ جدًّا لم تعيَّن في القرآن.

= عبد الله بن زياد بن سليمان بن سمعان، أبو عبد الرحمن المدني، كذبه مالك، وقال أحمد: متروك. تهذيب التهذيب ٢/ ٣٣٦.

(١) قوله: بن ثويب، ساقط من (أ) و(د١) و(ع).

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٢٣ من طريق ابن إسحاق، عن يعقوب بن أبي سلمة، عن النبي ﷺ مرسلاً، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٤٢٩ من حديث ابن عباس، وفيه إسحاق بن بشر، وهو متروك.

(٣) لم أقف عليه عن قتادة، ورواه إسحاق بن بشر عن السدي وعكرمة، كما ذكر ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦].

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٦.

وقال قوم: كان شعيبٌ نبيًّا ولم تكن له معجزةٌ[١]، والبينةُ هنا الموعظةُ.

وأنكر الزجَّاجُ هذا القولَ، وقال: لا تُقبل نبوةٌ بغير معجزةٍ[٢]، ومن معجزاته أنه دفع إلى موسى عصاه، وتلك العصا صارت تِنِّيناً.

وقال الزمخشري: ومن معجزات شعيبٍ ما رُوي من محاربةِ عصا موسى التنينَ حين دفع إليه غنمه، وولادةِ الغنم الدُّرْعَ خاصةً حين وَعَدَه أن يكون له الدُّرْعُ من أولادها، ووقوعِ عصا آدمَ على يده في المرات السبع، وغيرِ ذلك من الآيات؛ لأن هذه كلَّها كانت قبل أن يُستَنْبَأَ موسى عليه السلام، فكانت معجزاتٍ لشعيب[٣].

وقال الزجَّاج: وأيضاً قال لموسى عليه السلام: هذه الأغنام تلد أولاداً فيها سوادٌ وبياض، وقد وهبتُها لك.

فكان الأمرُ كما أُخبر عنه، وهذه الأحوال كلُّها كانت معجزةً لشعيب عليه السلام؛ لأن موسى عليه السلام في ذلك الوقت ما ادَّعى الرسالة[٤]. انتهى

وما قاله الزمخشري متَّبعاً فيه الزجَّاجَ هو قولُ المعتزلة، وذلك أن الإرهاص - وهو ظهورُ المعجزة على يدِ مَن سيصيرُ نبيًّا ورسولاً بعد ذلك - مختلفٌ في جوازه، فالمعتزلةُ تقول: هو غير جائزٍ، فلذلك جعلوا هذه المعجزاتِ لشعيب، وأهل السنة يقولون بجوازه، فهي إرهاصٌ لموسى بالنبوة قبل الوحي إليه[٥]. والحججُ للمذهبين مذكورةٌ في أصول الدين.

---

(١) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: بينة، بدل: معجزة.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٥٣.

(٣) الكشاف ٢/ ٩٣. وقوله: الدُّرْع (بضم الدال وسكون الراء) هو جمع: أَدْرَع أو دَرْعَاء، وهو ما اسودَّ رأسه وابيضَّ سائره من الغنم والخيل. حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ٤/ ١٨٨.

(٤) لم أقف عليه في معاني القرآن للزجاج، وعزاه الرازي في تفسيره ١٤/ ١٧٣ لصاحب الكشاف، ولم أقف عليه فيه.

(٥) هذا الكلام هو قول الرازي في تفسيره ١٤/ ١٧٣، وتعقبه الآلوسي في روح المعاني ٩/ ٢٣٥ بقوله: نَظَر فيه الطيبي بأن الزمخشري قال في «آل عمران» في تكليم الملائكة عليهم السلام لمريم: إنه معجزةٌ لزكريا، أو إرهاص لنبوة عيسى عليه السلام. ينظر الكشاف ١/ ٤٢٩.

﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أمرهم أولاً بشيءٍ خاصٍّ وهو إيفاءُ الكيل والميزان، ثم نهاهم عن شيءٍ عام وهو قولُه: «أشياءهم»، والكيلُ مصدرٌ كُني به عن الآلة التي يُكال بها، كقوله في «هود»: ﴿ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الآية: ٨٤] فطابق قولَه: «والميزان»، أو هو باقٍ على المصدرية وأريدَ بالميزان المصدر-كالميعاد- لا الآلة، فتطابَقا، أو أخذ «الميزان» على حذف مضاف، أي: ووزنَ الميزان، والكيل على إرادة: كيل[1] المكيال، فتطابَقَا.

والبخسُ تقدَّم شرحُه في قوله: ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٢٨٢] و«أشياءهم» عامٌّ في كلِّ شيءٍ لهم، وقيل: أموالَهم. وقال التبريزي: حقوقهم.

وفي إضافة الأشياء إلى الناس دليلٌ على ملكهم إياها، خلافاً للإباحية الزنادقة.

كانوا يبخسون الناس في مُبايعاتهم، وكانوا مكّاسين لا يَدَعون شيئاً إلا مَكَسوه، ومنه قيل للمَكْس: البَخْس.

ورُوي أنهم كانوا إذا دخل الغريبُ بلدهم أخذوا دراهمه الجيادَ وقالوا: هي زُيوفٌ، فقطَّعوها قطعاً، ثم أخذوها بنقصانٍ ظاهر وأعطوه بدلها زيوفاً، وكانت هذه المعصيةُ قد فشت فيهم في ذلك الزمان، مع كفرهم الذي نالتهم الرجفةُ بسببه.

﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾تقدَّم تفسير هذه الجملة قريباً في هذه السورة[2].

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ الإشارةُ إلى إيفاء الكيل والميزان، وتركِ البَخْس والإفساد، و«خير» أفعلُ التفضيل، أي: من التطفيف والبَخْس والإفساد؛ لأن خيريةَ هذه لكم عاجلةٌ جدًّا منقضيةٌ عن قريبٍ منكم؛ إذ يقطع الناس مُعاملتَكم ويَحْذَرونكم، فإذا أوفيتُم وتركتُم البَخْسَ والإفساد جَمُلَتْ سيرتكم وحَسُنت الأحدوثةُ عنكم، وقَصدكم الناس بالتجارات والمكاسب، فيكون ذلك أَخْيَرُ مما كنتم تفعلون؛ لديمومة التجارة والأرباح بالعدل في المعاملات والتحلِّي بالأمانات.

---

(١) قوله: كيل، ساقط من (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع.
(٢) عند تفسير الآية (٥٦) منها.

وقيل: «ذلكم» إشارةٌ إلى الإيمان الذي تضمَّنه قولُه: «اعبدوا الله مالكم من إله غيره»، وإلى تركِ البَخْسِ في الكيل والميزان.

وقيل: «خير» هنا ليست على بابها من التفضيل، ولذلك فسَّره ابن عطية بقوله: أي: ذاك نافعٌ عند الله مُكْسِبٌ فوزَه ورضوانَه[١].

وظاهر قوله: «إن كنتم مؤمنين» أنهم كانوا كافرين، وعلى ذلك يدلُّ صدرُ الآية وآخِرُ القصة، فمعنى ذلك أنه لا يكون ذلك لكم خيراً ونافعاً عند الله إلا بشرط الإيمان والتوحيد، وإلا فلا ينفع عملٌ دون إيمان.

وقال الزمخشري: «إن كنتم مؤمنين»: إن كنتم مصدِّقين لي في قولي: «ذلكم خير لكم»[٢].

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾ الظاهر النهيُ عن القعود بكلِّ طريقٍ لهم عمَّا كانوا يفعلونه من إيعاد الناسِ وصدِّهم عن طريق الدِّينِ.

قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدي: كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعَّدون مَن أراد المجيءَ إليه ويصدُّونه، ويقولون: إنه كذَّابٌ فلا تذهب إليه، على نحوِ ما كانت قريشٌ تفعله مع رسول الله ﷺ[٣].

وقال السُّدي: هذا نهيٌ عن العشارين والمتقبلين ونحوِه مِن أَخْذِ أموال الناسِ بالباطل[٤].

وقال أبو هريرة: هو نهيٌ عن السَّلْب وقَطْعِ الطريق، وكان ذلك مِن فِعْلهم. ورَوَى عن النبيِّ ﷺ قال: «رأيتُ ليلةَ أسري بي خشبةً على الطريق لا يمرُّ بها ثوبٌ إلا شقَّته، ولا شيءٌ إلا خرقته، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ فقال: هذا مَثَلٌ لقوم من

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٦.
(٢) الكشاف ٢/ ٩٤.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٧، وأخرجه عنهم بنحوه الطبري ١٠/ ٣١٣-٣١٤.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٦، وأخرجه الطبري ١٠/ ٣١٤ مختصراً بلفظ: «ولا تقعدوا بكل صراط تُوعِدون» قال: العشارون. وذكره القرطبي ٩/ ٢٨٣ بلفظ: كانوا عشارين متقبلين.

أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه، ثم تلا: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾[1].

وهذا القولُ والقولُ الذي قبله فيه مناسَبةٌ لقوله: «ولا تبخسوا الناس أشياءهم»، لكنْ لا تظهرُ مناسَبةٌ لهما بقوله: «وتصدُّون عن سبيل الله مَن آمن به» بل ذلك يناسِبُ القولَ الأول.

قال القرطبي: قال علماؤنا: ومِثْلُهم اليومَ هؤلاء المكَّاسون الذين يأخذون من الناس ما لا يلزمهم شرعاً من الوظائف الماليَّة بالقهر والجبر، وضمَّنوا ما لا يجوزُ ضمانُ أصله من الزكوات والمواريث والملاهي، والمترتِّبون في الطرق، إلى غيرِ ذلك ممَّا قد كثر في الوجود وعُمِلَ به في سائر البلاد، وهو من أعظم الذنوب وأكبرِها وأفحشِها، فإنه غَصْبٌ وظلمٌ وعَسْفٌ على الناس، وإذاعةٌ للمنكر وعملٌ به ودوامٌ عليه وإقرارٌ له، وأعظمُه تضمينُ الشرع والحُكم للقضاء، فإنَّا لِلّهِ وإنَّا إليه راجعون، لم يَبْقَ من الإسلام إلَّا رَسْمُه، ولا من الدِّين إلا اسمُه. انتهى كلامُه.

وقد قَرَنَ رسول الله ﷺ الأموالَ والأعراضَ بالدماء في قوله في حجة الوداع: «أَلَا إنَّ دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم حرامٌ»[2]، وما أكثَرَ ما تساهَلَ الناس في أخذ الأموال وفي الغيبة. وقال رسول الله ﷺ: «مَن قُتِلَ دون ماله فهو شهيد»[3].

والعَجَبُ إطباقُ مَن يتظاهر بالصَّلاح والدِّين والعلم على عدم إنكار هذه المُكوس والضمانات، وادِّعاءُ بعضهم أنه له تصرُّفٌ في الوجود ودلالٌ على الله

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٦، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٨٣. ولم يذكر ابن عطية لفظ الحديث، وأخرجه الطبري ١٠/ ٣١٤ من طريق أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي هريرة أو غيره - شك أبو جعفر الرازي - قال: أتى النبي ليلة أسري به على خشبة...، وهو قطعة من حديث طويل جدًّا أخرجه الطبري ١٤/ ٤٢٤-٤٣٥ في أول سورة الإسراء، وأورده ابن كثير في الموضع نفسه بتمامه ثم قال: وأبو جعفر الرازي قال فيه الحافظ أبو زرعة الرازي: يهم في الحديث كثيراً، وقد ضعفه غيره أيضاً، ووثقه بعضهم، والظاهر أنه سيء الحفظ، ففيما تفرَّد به نظر...، وينظر باقي كلامه ثمة.

(٢) أخرجه البخاري (٦٧) ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٨٠)، ومسلم (١٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

تعالى بحيث إنه يدعو فيُستجاب له فيما أراد، ويَضْمَنُ لمن كان من أصحابه وأتباعه الجنة، وهو مع ذلك يتردَّد لأصحاب المكوس ويتذلَّلُ إليهم في نزع شيءٍ حقيرٍ وأَخْذِه من المَكْس الذي حصَّلوه، وهذه وقاحةٌ لا تَصْدُرُ ممن شمَّ رائحةَ الإيمان، ولا تعلَّق بشيءٍ من الإسلام، وقال بعض الشعراء:

تَساوَى الكلُّ منَّا في المَسَاوي فأفضلُنا فتيلاً ما يُساوي

وعلى الأقوال السابقة يكون القعودُ بكلِّ صراطٍ حقيقةً، وحَمَلَ القعودَ والصِّراطَ الزمخشريُّ على المجاز، فقال: ولا تقتدوا بالشيطان في قوله: «لأقعدنَّ لهم صراطَكَ المستقيم» فتقعدوا بكلِّ صراطٍ، أي: بكلِّ منهاجٍ من مناهج الدِّين، والدليلُ على أنَّ المراد بالصراط سبيلُ الحقِّ قولُه: «وتصدُّون عن سبيل الله» فإن قلتَ: صراطُ الحقِّ واحدٌ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فكيف قيل: «بكلِّ صراطٍ» قلتُ: صراطُ الحقِّ واحدٌ ولكنه يتشَّعبُ إلى معارفَ وحدودٍ وأحكامٍ كثيرةٍ مختلفةٍ، فكانوا إذا رأوا واحداً يَشْرَعُ في شيءٍ منها أَوْعَدوه وصدُّوه[1]. انتهى.

ولا تظهرُ الدلالةُ على أنَّ المراد بالصراط سبيلُ الحقِّ من قوله: «وتصدُّون عن سبيل الله» كما ذَكَر، بل الظاهرُ التغايُرُ؛ لعموم «كلّ صراط» وخصوصِ «سبيل الله»، فيكون «بكلِّ صراطٍ» حقيقةً في الطرق، و«سبيل الله» مجاز[2] عن دين الله.

والباءُ في «بكلِّ صراطٍ» ظرفيةٌ، نحو: زيدٌ بالبصرة، أي: في كلِّ صراطٍ، و: في البصرة، والجُمَلُ من قوله: «توعِدُون وتصدُّون وتبغونها» أحوالٌ، أي: مُوعِدين وصادِّين وباغِينَ.

والإيعادُ: ذِكْرُ إنزالِ المَضارِّ بالمُوْعَدِ، ولم يُذْكَر المُوْعَدُ به لتذهبَ النفسُ فيه كلَّ مذهبٍ من الشر؛ لأن «أَوْعَدَ» لا يكون إلا في الشر، وإذا ذُكِرَ تعدَّى الفعلُ إليه بالباء؛ قال أبو منصور الجواليقي[3]: إذا أرادوا أن يَذْكروا ما تَهَدَّوا به مع

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٤. ووقع في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: منعوه، بدل: أوعدوه.

(٢) كذا في النسخ، والجادة: مجازاً.

(٣) نقله عنه تلميذه ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٢٩. والجواليقي هو موهوب بن أحمد بن =

«أَوْعَدْتُ» جاؤوا بالباء، فقالوا: أوعَدْتُه بالضرب، ولا يقولون: أوعدتُه الضربَ.

والصدُّ يمكن أن يكون حقيقةً في عدم التمكين من الذهاب إلى الرسول لِيَسْمعَ كلامه، ويمكن أن يكون مجازاً عن الإيعاد من الصادِّ بوجهٍ مَّا، أو عن وعد المصدود بالمنافع على تَرْكه.

و«مَن آمَنَ» مفعولٌ بـ«تصدُّون» على إعمال الثاني، ومفعول «تُوْعِدُون» ضميرُ «مَن» محذوفٌ، والضميرُ في «به» الظاهرُ أنه عائدٌ على«سبيل الله»، وذكَّره لأنَّ السبيل تذكَّرُ وتؤنَّثُ، وقيل: عائد على «الله».

وقال الزمخشري: فإن قلت: إلامَ يرجع الضمير في «آمَنَ به»؟ قلت: إلى «كلِّ صراط»، تقديره: تُوْعِدون مَن آمَنَ به وتصدُّون عنه، فوُضع الظاهرُ الذي هو «سبيل الله» موضعَ الضمير زيادةً في تقبيح أمرهم، ودلالةً على عظم ما يصدُّون عنه[1]. انتهى.

وهذا تعسُّفٌ في الإعراب لايليقُ بأن يُحمل القرآن عليه؛ لمَا فيه من التقديم والتأخير ووضعِ الظاهر موضعَ المُضْمَر من غير حاجةٍ إلى ذلك، وعَوْدِ الضمير على أبعدِ مذكورٍ مع إمكان عَوْدِه على أقرب مذكورٍ الإمكانَ السائغَ الحسنَ الراجحَ، وجَعْلِ «مَن آمَنَ» منصوباً بـ«تُوْعِدون» فيصيرُ من إعمال الأول وهو قليلٌ، وقد قال النحاة: إنه لم يَرِدْ في القرآن لقِلَّته، ولو كان من إعمال الأول لَلَزِمَ ذكرُ الضمير في الفعل الثاني، وكان يكون التركيب: وتصدُّونه، أو: وتصدونهم، إذ هذا الضميرُ لا يجوز حذفُه على قول الأكثرين إلا ضرورةً، وعلى قولِ بعض النحاة يُحذف في قليلٍ من الكلام، ويدل على أنَّ «مَن آمَنَ» منصوبٌ بـ«تصدُّون» الآيةُ الأخرى، وهي قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ [آل عمران: ٩٩]، فنصبه بـ«تُوْعِدون» بعيدٌ، هذا ولا يُحذف مثلُ هذا الضمير إلا في شعرٍ، وأجاز بعضُهم حذفَه على قلةٍ، هذا مع التكلُّفات[2] المضافة إلى ذلك، فكان جديراً بالمنع لمَا في ذلك من التعقيد البعيد عن الفصاحة.

= محمد اللغوي النحوي إمام الخليفة المقتفي، ألَّف في العروض، وشرح أدب الكاتب، وعمل كتاب «المعرب» وغيره، توفي سنة (٥٤٠هـ). السير ٢٠/ ٨٩.

(١) الكشاف ٢/ ٩٤.

(٢) في (ب) و(د٣) و(يه): مع هذه التكلفات، بدل: هذا مع التكلفات.

وأجاز ابنُ عطية أن يعود على «شعيب» في قولِ مَن رأى القعودَ على الطريق للردِّ عن شعيبٍ[١]، وهذا بعيدٌ؛ لأن القائل: «ولا تقعدوا» هو شعيب، فكان يكون التركيب: مَن آمَنَ بي، ولا يَسُوغُ هنا أن يكون التفاتاً، لو قلت: يا هند، أنا أقولُ لك: لا تُهيني مَن أكْرَمَه، تريد: مَن أكرمَني، لم يصح.

وتقدَّم تفسير مِثْل قوله: «وتبغونها عوجاً» في «آل عمران»[٢].

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ قال الزمخشري: «إذ» مفعولٌ به غيرُ ظرفٍ، أي: واذكروا على جهة الشكر وقتَ كونهم قليلاً عددُكم فكثَّركم اللهُ ووفَّر عَدَدَكم[٣]. انتهى.

وذَكَرَ غيرُه أنه منصوبٌ على الظرف، فلا يمكن أن يعمل فيه «واذكُروا»؛ لاستقبال «اذكُروا» وكونِ «إذ» ظرفاً لمَا مضى.

والقلةُ والتكثير هنا بالنسبة إلى الأشخاص، أو إلى الفقر والغِنَى، أو إلى قِصَر الأعمار وطولِها. أقوالٌ ثلاثة أظهرُها الأول.

قيل: إن مدين بن إبراهيم تزوَّج بنتَ لوطٍ، فولدت، فرمَى الله في نسلها بالبركة والنماء فكَثُروا وفَشَوا.

وقال الزمخشريُّ: أو: كنتم أَقِلَّةً أَذِلَّةً فأعزَّكم بكثرة العَدَد والعُدَد[٤]. انتهى، ولا ضرورةَ تدعو إلى حذفِ صفةٍ وهي: أذلة، ولا إلى تحميل قوله: «فكثَّركم» معنى: بالعدد، ألا ترى أنَّ القلة لا تستلزمُ الذلةَ، ولا الكثرة تستلزمُ العزَّ، وقال الشاعر:

تعيِّرنا أنَّا قليلٌ عديدُنا   فقلتُ لها إنَّ الكرامَ قليلُ
وما ضرَّنا أنَّا قليلٌ وجارُنا   عزيزٌ وجار الأكثرينَ ذليلُ[٥]

وقيل: المرادُ مجموعُ الأقوال الأربعة، فإنه تعالى كثَّر عددَهم وأرزاقَهم وطوَّلَ أعمارهم وأعزَّهم بعد أن كانوا على مقابِلاتها.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٧.
(٢) عند تفسير الآية (٩٩) منها.
(٣) الكشاف ٢/ ٩٤.
(٤) المصدر السابق.
(٥) البيتان للسموأل، وهما في ديوانه (مع ديوان عروة بن الورد) ص٩٠.

﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ هذا تهديدٌ لهم وتذكيرٌ بعاقبةِ مَن أفْسَدَ قبلهم، وتمثيلٌ لهم بمَن حلَّ به العذابُ من قوم نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ، وكانوا قريبي عهدٍ بما أصاب المؤتفكة.

﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾هذا الكلامُ من أحسن ما تلطَّفَ به في المحاوَرةِ، إذ أبْرز المتحقِّقَ في صورة المشكوك فيه، وذلك أنه قد آمَنَ به طائفةٌ بدليلِ قول المستكبرين عن الإيمان: «لَنُخرجنَّك يا شعيب والذين آمنوا معك»، وهوأيضاً من بارع التقسيم؛ إذ لا يخلو قومُه من القِسْمين.

والذي أُرسل به هنا ما أمرهم به من إفراد الله تعالى بالعبادة وإيفاءِ الكيل والميزان، ونهاهم عنه من البَخْس والإفساد والقعود المذكور، ومتعلّق «لم يؤمنوا» محذوفٌ دلَّ عليه ما قبله، وتقديره: لم يؤمنوا به، والخطابُ بقوله: «منكم» لقومه.

وينبغي أن يكون قولُه «فاصبروا» خطاباً لفريقي قومه: مَن آمَنَ، ومَن لم يؤمن، و«بيننا»، أي: بين الجميع، فيكون ذلك وعداً للمؤمنين بالنصر الذي هو نتيجةُ الصبر: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤]، ووعيداً للكافرين بالعقوبة والخَسارة.

وقال ابن عطية: المعنى: وإنْ كنتُم يا قوم قد اختلفتُم عليَّ وشعَّبتم بكفركم أمري فآمنت طائفةٌ وكفرت طائفةٌ، فاصبروا أيها الكَفرةُ حتى يأتيَ حُكْمُ الله بيني وبينكم، ففي قوله: «فاصبروا» قوةُ التهديد والوعيد، هذا ظاهرُ الكلام، وأنَّ المخاطبة بجميع الآية للكفار، قال النقَّاش: وقال مقاتل بن سليمان: المعنى: فاصبروا يا معشر الكفار. قال: وهذا قولُ الجماعة[1]. انتهى.

وهذا القولُ بدأ به الزمخشريُّ، فقال: «فاصبروا»: فتربَّصوا وانتظروا «حتى يحكم الله بيننا»، أي: بين الفريقين بأن يَنْصُرَ المحقِّين على المُبْطِلينَ ويُظْهِرَهم عليهم، وهذا وعيدٌ للكافرين بانتقام الله تعالى منهم، كقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢][2] انتهى.

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٧.
(٢) الكشاف ٢/ ٩٥.

وقال ابن عطية[١]: وحَكَى منذر بن سعيد عن أبي سعيد[٢] أنَّ الخطاب بقوله: «فاصبروا» للمؤمنين على معنى الوَعْدِ لهم، وقاله مقاتل بن حيان. انتهى.

وثنَّى به الزمخشريُّ فقال: أو هو موعظةٌ للمؤمنين وحثٌّ على الصبر واحتمالِ ما كان يَلْحقُهم من أذى المشركين إلى أنْ يَحكُم الله بينهم وينتقمَ لهم منهم[٣]. انتهى.

والذي قدَّمناه أولاً من أنه خطابٌ للفريقين هو قولُ أبي عليٍّ، وأتى به الزمخشريُّ ثالثاً فقال: ويجوزُ أن يكون خطاباً للفريقين، أي: ليصبر المؤمنون على أذى الكفار، وليصبر الكفار على ما يَسُوءُهم من إيمانِ مَن آمَنَ منهم، حتى يحكم الله فيَميزَ الخبيث من الطيب[٤]. انتهى، وهو جارٍ على عادته مِن ذِكْرِ تجويزاتٍ في الكلام تُوْهِمُ أنها من قوله، وهي أقوالٌ للعلماء المتقدِّمين.

«وهو خيرُ الحاكمين» لأن حُكْمَه عدلٌ لا يُخشى أن يكون فيه حَيْفٌ وجَوْرٌ.

❁ ❁ ❁

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ

---

(١) في المحرر ٢/ ٤٢٧.
(٢) كذا في النسخ، والذي في المحرر: عن ابن عباس.
(٣) الكشاف ٢/ ٩٥.
(٤) المصدر السابق.

وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ
ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ
لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾
أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم
بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ
ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم
بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ
وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ
ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ
لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ
عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلۡقَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ
فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ
وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ
قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ
يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ
أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾ ۞.

المفردات

«عاد»: رَجَعَ إلى ما كان عليه، وتأتي بمعنى: صار، قال:

تُعِدْ فيكم جَزْرَ الجَزُور رماحُنا ... ويَرْجِعْنَ بالأسياف مُنْكَسِراتِ[1]

«ضُحىً» ظرفٌ متصرِّفٌ إن كان نكرةً، وغيرُ متصرِّفٍ إذا كان من يوم بعينه[2]،

(١) البيت لامرأة من بني عامر كما في ديوان الحماسة (بشرح المرزوقي) ٢/٧٤٩، وفيه: ويمسكن بالأكباد منكسرات.

(٢) ومثال المتصرف: ضحاك ضُحًى مبارك، ومثال غير المتصرف: أتيتك يوم الجمعة ضحًى.
=

وهو وقتُ ارتفاع الشمس إذا طلعت، وهو مؤنَّثٌ، وشذوا في تصغيره فقالوا: ضُحَيٌّ بغير تاء التأنيث، وتقول: أتيته ضحىً وضَحاءً، إذا فتحت الضاد مَدَدْتَ.

«الثُّعْبان»: ذَكَرُ الحيَّات العظيم، أخذ من ثَعَبْتُ المكان: فجَّرته بالماء، والمَثْعَبُ: موضعُ انفجار الماءِ؛ لأن الثعبان يجري كالماء عند الانفجار.

الإرجاء: التأخير.

المدينة معروفة، مشتقةٌ من مَدَنَ فهي فعيلة، ومَن ذهب إلى أنها مَفْعِلة من «دانَ» فقولُه ضعيف؛ لإجماع العرب على الهمز في جمعها، قالوا: مدائن بالهمز، ولا يُحفظ فيه: مداين بالياء، ولا ضرورةَ تدعو إلى أنها مَفْعِلة، ويَقْطَعُ بأنها فعيلة جمعُهم لها على فُعُلٍ، قالوا: مُدُنٌ، كما قالوا: صُحُف، في صحيفة.

* * *

التفسير ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ أي: الكفار الذين استكبروا عن الإيمان أَقْسَموا على أحد الأمرين: إخراجِ شعيبٍ وأتباعه، أو عودتهم في ملَّتهم، والقَسَمُ يكون على فِعْلِ المُقْسِم وفِعْلِ غيره، سوَّوا بين نفيه ونفي أتباعه وبين العود في الملة، وهذا يدلُّ على صعوبة مُفارقة الوطن؛ إذ قرنوا ذلك بالعود إلى الكفر.

وفي الإخراج والعَوْد طباقٌ معنويٌّ.

و«عاد» كما تقدَّم لها استعمالان: أحدهما أن تكون بمعنى: صار، والثاني بمعنى: رَجَعَ إلى ما كان عليه، فعلى الأول لا إشكال في قوله: «أو لتعودُنَّ» إذ صار فعلاً مسنداً إلى شعيب وأتباعه، ولا يدلُّ على أن شعيباً كان في ملَّتهم، وعلى المعنى الثاني يُشْكِلُ؛ لأنَّ شعيباً لم يكن في ملَّتهم قط لكن أتباعه كانوا فيها.

= وعرَّف السمين في الدر المصون ٥/ ٣٩١ المتصرف بأنه: ما لم يُرَدْ به وقته من يوم بعينه، قال: وهذه العبارة أحسن من عبارة الشيخ (يعني أبا حيان)؛ لأنها تُوهم أنه متى كان معرفة بأيِّ نوعٍ كان من أنواع التعريف فإنه لا يتصرف، وليس الأمر كذلك، قال تعالى: «والضحى»، وقال: «والشمس وضحاها»، كلاهما استعمل مجروراً بحرف القسم، مع أن الأول معرف بـ«أل»، والثاني بالإضافة.

وأجيب عن هذا بوجوه:

أحدها: أن يراد بعَوْد شعيبٍ في الملَّة حالُ سكوته عنهم قبل أن يُبعث لا حالةُ الضلال، فإنه كان يُخْفي دينَه إلى أن أَوْحَى الله إليه.

الثاني: أن يكون من باب تغليب حُكْم الجماعة على الواحد، لمَّا عطفوا أتباعَه على ضميره في الإخراج سَحَبوا عليه حُكْمَهم في العَوْد وإن كان شعيبٌ بريئاً ممَّا كان عليه أتباعُه قبل الإيمان.

الثالث: أن رؤساءهم قالوا ذلك على سبيل التلبيس على العامة، والإيهام أنه كان منهم.

﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: أيقعُ منكم أحدُ هذين الأمرين على كلِّ حالٍ حتى في حالِ كراهيتنا لذلك، والاستفهامُ للتوقيف على شناعة المعصية بما أقسموا عليه من الإخراج عن مواطنهم ظلماً أو الإقرارِ بالعَوْدِ في ملَّتهم.

قال الزمخشري: الهمزة للاستفهام، والواوُ واوُ الحال، تقديره: أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا، أو: مع كوننا كارهين[1]. انتهى.

فجعل الاستفهامَ خاصًّا بالعود في ملَّتهم، وليس كذلك، بل الاستفهامُ هو عن أحد الأمرين: الإخراج أو العود، وجَعَلَ الواوَ واوَ الحال وقدَّره: أتعيدوننا في حال كراهتنا، وليست واوَ الحال التي يعبِّر عنها النحويون بواو الحال، بل هي واوُ العطف، عطفتْ على حالٍ محذوفةٍ، كقوله: «ردُّوا السائلَ ولو بظلفٍ محرَّقٍ» ليس المعنى: ردُّوه في حال الصدقة عليه بظلفٍ محرَّقٍ، بل المعنى: ردُّوه مصحوباً بالصدقة ولو مصحوباً بظلفٍ محرَّق، وتقدَّم لنا إشباعُ القول في نحو هذا[2].

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ هذا إخبارٌ مقيَّدٌ من حيث المعنى بالشرط، وجوابُ الشرط محذوفٌ من حيث الصناعةُ، وتقديره: إن عُدنا في ملَّتكم فقد افترينا، وليس قولُه: «قد افترينا على الله كذباً» هو جوابَ

(١) الكشاف ٢/ ٩٦.

(٢) ينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٩١]، وقد سلف الحديث في الموضعين.

الشرط إلا على مذهبِ مَن يُجيز تقديم جواب الشرط على الشرط، فيمكن أن يخرَّج هذا عليه.

وجوَّزوا في هذه الجملة وجهين:

أحدهما أن تكون إخباراً مستأنفاً، قال الزمخشري: فيه معنى التعجُّبِ، كأنهم قالوا: ما أكذَبَنا على الله إن عدنا في الكفر بعد الإسلام؛ لأن المرتدَّ أبلغُ في الافتراء من الكافر ـ يعني الأصليَّ ـ لأن الكافر مفترٍ على الله الكذبَ حيث يزعم أنَّ لله ندًّا ولا ندَّ له، والمرتدُّ مثلُه في ذلك وزائدٌ عليه حيث يزعم أنه قد بُيِّن له ما خَفِيَ عليه من التمييز ما بين الحقِّ والباطل[١]. وقال ابن عطية: الظاهرُ أنه خبر، أي: قد كنَّا نواقعُ أمراً عظيماً في الرجوع إلى الكفر[٢].

والوجه الثاني: أن يكون قسماً على تقدير حَذْفِ اللام، أي: والله لقد افترينا، ذكره الزمخشري[٣]، وأورده ابن عطية احتمالاً، قال: ويَحْتَمِلُ أن يكون على جهة القَسَم الذي هو في صيغة الدعاء، مثلَ قول الشاعر:

بَقَّيْتُ وَفْري وانحرفتُ عن العلا ... ولقيتُ أضيافي بوجهِ عَبُوسِ

وكما تقول: افتريتُ على الله إن كلَّمتُ فلاناً[٤].

ولم ينشد ابنُ عطية البيتَ الذي يقيِّد قوله: «بقَّيتُ» وما بعده بالشرط، وهو قولُه:

إنْ لم أشنَّ على ابن هندٍ غارةً ... لمْ تَخْلُ يوماً من نِهابِ نفوسِ[٥]

ولمَّا كان أمرُ الدِّين هو الأعظمَ عند المؤمن والمؤثَّرَ على أمر الدنيا لم يلتفتوا إلى الإخراج وإن كان أحدَ الأمرين اللَّذينِ أقسم على وقوعه الكفار، فقالوا: «قد

(١) الكشاف ٢/٩٧.
(٢) المحرر الوجيز ٢/٤٢٨.
(٣) في الكشاف ٢/٩٧.
(٤) المحرر الوجيز ٢/٤٢٨، واكتفى ابن عطية من البيت بأول كلمتين منه ولم يُكْمله، وينظر التعليق الذي بعده.
(٥) البيتان للأشتر النخعي، كما في ديوان الحماسة (بشرح المرزوقي) ١/١٤٩، والزاهر لابن الأنباري ١/٤٨٨، وأمالي القالي ١/٨٥، وخزانة الأدب لابن حجة الحموي ص١٤٥.

افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملَّتكم»، وتقدَّم تفسيرُ العَوْد بالصيرورة، وتأويلُه إن كان في معنى الرجوع إلى ما كان الإنسان فيه بالنسبة إلى النبيِّ المعصوم من الكبائر والصغائر.

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾ أي: وما ينبغي ولا يتهيَّأ لنا أن نعود في ملَّتكم، إلا أن يشاء اللهُ ربُّنا فنعود فيها، وهذا الاستثناء على سبيل عَذْقِ جميع الأمور بمشيئة الله وإرادته، وتجويزُ العود من المؤمنين إلى ملتهم دون شعيب؛ لعصمته بالنبوَّة، فجرى الاستثناءُ على سبيل تغليب حُكم الجمع على الواحد وإن لم يكن ذلك الواحدُ داخلاً في حكم الجمع.

وقال ابن عطية: ويَحْتمِلُ أن يريد استثناءَ ما يمكن أن يَتعبَّدَ اللهُ به المؤمنين ممَّا يفعله الكفرةُ من القُرُبات، فلمَّا قال لهم: إنَّا لا نعودُ في ملَّتكم، ثم خشي أن يتَعبَّدَ الله بشيءٍ من أفعال الكفرة، فيعارض مُلْحِدٌ بذلك ويقول: هذه عودةٌ إلى ملَّتنا، استثنى مشيئةَ الله فيما يمكن أن يتَعبَّدَ به[1]. انتهى.

وهذا الاحتمالُ لا يصحُّ؛ لأنَّ قوله: «بعد إذ نجَّانا الله منها» إنما يعني النجاةَ من الكفر والمعاصي لا من أعمال البِرّ.

وقال ابن عطية: ويَحتَمِلُ أن يريد بذلك معنَى الاستبعاد، كما تقول: لا أفعلُ ذلك حتى يشيبَ الغرابُ، وحتى يَلِجَ الجملُ في سَمِّ الخِيَاط، وقد عُلِمَ امتناعُ ذلك، فهي إحالةٌ على مستحيلٍ، وهذا تأويلٌ إنما هو للمعتزلة الذين مذهبُهم أن الكفر والإيمان ليسا بمشيئةٍ من الله تعالى، وهذا تأويلٌ حكاه المفسِّرون ولم يشعروا بما فيه[2]. انتهى.

وقال الزمخشري: فإن قلتَ: وما معنى قوله: «وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أنْ يشاءَ الله»، والله تعالى متعالٍ أن يشاء رِدَّةَ المؤمنين وعَوْدَهم في الكفر؟ قلت: معناه: إلَّا أن يشاء اللهُ خذلاننا ومَنْعَنا الألطافَ لعِلْمِه تعالى أنها لا تنفع فينا، ويكون عَبَثاً، والعبثُ قبيحٌ لا يفعلُه الحكيم، والدليلُ عليه قولُه: «وسع ربُّنا كلَّ

(١) المحرر الوجيز٢/٤٢٨.
(٢) المصدر السابق.

شيءٍ علماً» أي: هو عالِمٌ بكلِّ شيءٍ ممَّا كان ويكون، وهو تعالى يعلمُ أحوالَ عباده كيف تتحوَّلُ قلوبُهم، وكيف تتقلَّبُ، وكيف تقسو بعد الرقة، وتمرضُ بعد الصحة، وترجع إلى الكفر بعد الإيمان، ويجوزُ أن يكون قولُه: «إلَّا أن يشاء الله» حسماً لطمعهم في العَوْد؛ لأنَّ مشيئة الله تعالى لعَوْدهم في الكفر محالٌ خارجٌ عن الحكمة[1]. انتهى، وهذان التأويلان على مذهب المعتزلة.

وقيل: هذا الاستثناءُ إنما هو تسليمٌ وتأدُّبٌ؛ قال ابن عطية: ويَقلقُ هذا التأويلُ من جهة استقبال الاستثناء، ولو كان الكلام: إن شاء، قَوِيَ هذا التأويلُ. انتهى.

وليسَ يَقْوَى هذا التأويلُ؛ لا فَرْقَ بين: «إلا أن يشاء»، وبين: إلا إنْ شاء، لأن «إنْ» تخلِّصُ الماضي للاستقبال كما تخلِّص «أنْ» المضارعَ للاستقبال، فكِلَا الفعلين مستقبَلٌ.

وأبعدَ مَن ذهب إلى أن الضمير في «فيها» يعود على القرية لا على الملَّة.

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ﴾ تقدَّم تفسيرُ نظيرِها في «الأنعام[2]» في قصة إبراهيم عليه السلام.

﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ﴾ في دفع ما توعَّدْتُمونا به، وفي حمايتنا من الضلال، وفي ذلك استسلامٌ لله وتمسُّكٌ بلطفه، وذلك يؤيِّد التأويل الأول في «إلا أن يشاء الله».

وقال الزمخشري: يثبِّتنا على الإيمان ويوفِّقنا لازدياد الإيقان[3].

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: احكم، والفاتح والفتَّاح: القاضي بلغة حِمْيَرَ، وقيل: بلغة مراد، وقال بعضهم:

ألا أبلغ بني عُصْمٍ رسولاً فإنِّي عن فُتاحتِكم غنيُّ[4]

(١) الكشاف ٢/ ٩٦.
(٢) الآية (٨٠) منها.
(٣) الكشاف ٢/ ٩٦.
(٤) اختلف في روايته وفي نسبته اختلافاً كثيراً، وهو في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٢٠، وإصلاح المنطق ص١٢٦ (وفيه: بني عمرو)، وتفسير الطبري ٢/ ١٥٠ و١٠/ ٣٢٠، والزاهر لابن الأنباري ١/ ٩٣و٤٨٧، وأمالي القالي ٢/ ٢٨١، والصحاح واللسان (رسل)، وفيهما:
=

وقال ابن عباس: ما كنتُ أعرفُ معنى هذه اللفظةِ حتى سمعتُ بنتَ ذي يَزَن تقول لزوجها: تعال أفاتحك[١]، أي: أحاكمك.

وقال الفرَّاء: أهلُ عُمانَ يسمُّون القاضي: الفاتح[٢].

وقال السدِّي وابن بحر: احكم بيننا[٣].

قال أبو إسحاق: وجائز أن يكون المعنى: أَظْهِرْ أمرَنا حتى ينفتح ما بيننا وبين قومنا وينكشف ذلك، وذلك بأنْ يُنزل بعدوِّهم من العذاب ما يظهرُ به أنَّ الحقَّ معهم[٤].

قال ابن عباس: كان كثيرَ الصلاة، فلمَّا طال تَمَادي قومِه في كفرهم ويئس من صلاحهم دعا عليهم، فاستجابَ دعاءَه وأهلكهم بالرجفة[٥].

= ألا أبلغ أبا عمرو...، وعزاه صاحب اللسان للأسعر الجعفي، وهو في اللسان والتاج (فتح) برواية: ألا مَن مُبْلغٌ عمراً...، وذكره ابن دُريد في الجمهرة ٢/ ٤، وصدره فيه: ألا أبلغ بني بكر بن عبد، وعزاه للأعشى، وليس في ديوانه.

وقال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص٢٨٢: وجدت هذا البيت للشويعر الجُعفي -واسمه محمد بن حُمْران- على خلاف ما رواه يعقوب، وهو:

أبلغ بني عُضم فإني عن فُتاحتكم غنيُّ
لا أسرتي قلَّت ولا خالي لخالك مقتويُّ

قلت: والبيت الأول في الوحشيات (الحماسة الصغرى) لأبي تمام ص٤٦ مطلع قصيدة لمحمد بن حمران برواية:

أبلغ بني حُمران أني عن عداوتكم غنيُّ

والشويعر الجعفي هو محمد بن حُمْران بن أبي حمران، وهو ابن أخي الأسعر الجعفي، وممن سمي محمداً في الجاهلية، والأسعر اسمه: مرثد بن حمران بن أبي حمران. ينظر المؤتلف والمختلف ص٥٨ و٢٠٨.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦٦٠٠)، والطبري ١٠/ ٣٢٠-٣٢١.
(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٨٥، وزاد: والفتَّاح.
(٣) أخرجه عن السديِّ الطبريُّ ١٠/ ٣٢١.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٥٨.
(٥) عرائس المجالس ص١٦٧-١٦٨، وتفسير القرطبي ٩/ ٢٨٦.

وقال الحسن: إن كلَّ نبيٍّ أراد الله تعالى هلاك قومه أَمَرَه بالدعاء عليهم، ثم استجاب له فأهلكهم[١].

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ أي: قال بعضهم لبعض، أي: كُبراؤهم لأتباعهم تثبيطاً عن الإيمان: لئن اتَّبعتم شعيباً فيما أمركم به ونهاكم عنه.

قال الزمخشري: فإن قلتَ: ما جوابُ القسم الذي وطَّأته اللام في «لئن اتبعتم»، وجوابُ الشرط؟ قلت: قوله: «إنكم إذاً لخاسرون» سادٌّ مسدَّ الجوابين[٢]. انتهى.

والذي يقول النحويون: إنَّ جوابَ الشرط محذوفٌ لدلالة جواب القسم عليه، ولذلك وَجَبَ مُضيُّ فعل الشرط، فإن عَنَى الزمخشريُّ بقوله: سادٌّ مسدَّ الجوابين، أنه اجْتُزِئَ به عن ذكر جواب الشرط فهو قريبٌ، وإن عَنَى به أنه من حيث الصناعةُ النحوية فليس كما زعم؛ لأن الجملة يمتنعُ أن تكون لا موضعَ لها من الإعراب وأن يكون لها موضعٌ من الإعراب.

و«إذاً» هنا معناها التوكيد، وهي الحرفُ الذي هو جوابٌ، ويكون معه الجزاءُ وقد لا يكون. وزعم بعضُ النحويين أنها في هذا الموضع ظرفٌ، العاملُ فيه «لخاسرون»، والنونُ عوضٌ من المحذوف، والتقدير: إنكم إذا اتَّبعتموه لخاسرون، فلمَّا حُذف ما أُضيف إليه عوِّض من ذلك النونُ، فصادَفَتِ الألفَ فالتقى ساكنان، فحذف الألفُ لالتقائهما، والتعويضُ فيه مثلُ التعويض في «يومئذ» و«حينئذ» ونحوِه. وما ذهب إليه هذا الزاعمُ ليس بشيءٍ؛ لأنه لم يَثْبُت التعويضُ والحذفُ في «إذا» التي للاستقبال في موضعٍ فيُحْمَلَ هذا عليه[٣].

«لخاسرون» قال ابن عباس: مغبونون. وقال عطاء: جاهلون. وقال الضحاك: عَجَزَة[٤].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٩.

(٢) الكشاف ٢/ ٩٧.

(٣) وللسمين هنا تعقب على المصنف رأيت عدم ذكره خوف الإطالة، فمن أراده فليطلبه في الدر المصون ٥/ ٣٨٤.

(٤) تفسير الثعلبي ٣/ ٥١، وتفسير البغوي ٢/ ١٨٢، وتحرف: عجزة، في مطبوع الثعلبي إلى: فجرة. وتحرف: جاهلون، في مطبوع البغوي إلى: جاهدون.

وقال الزمخشري: «لخاسرون» لاستبدالكم الضلالةَ بالهدى؛ كقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ [البقرة: ١٦] وقيل: تخسرون باتّباعه فوائدَ البَخْس والتطفيف؛ لأنه ينهاكم عنها ويَحْمِلُكم على الإيفاء والتسوية(١). انتهى.

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٩١﴾ تقدَّم تفسيرُ مثلِ هذه الجملة(٢).

قال ابن عباس وغيره: لمَّا دَعا عليهم فُتح عليهم بابٌ من جهنمَ بحرٌّ شديد أخذ بأنفاسهم، فلم ينفعهم ظلٌّ ولا ماءٌ، فإذا دخلوا الأسراب ليتبرَّدوا وجدوها أشدَّ حرًّا من الظاهر، فخرجوا هرباً إلى البرية فأظلَّتهم سحابةٌ فيها ريحٌ طيِّبةٌ، فتنادوا: عليكم الظُّلة، فاجتمعوا تحتها كلُّهم، فانطبقت عليهم وألهبها الله ناراً ورجفت بهم الأرض، فاحترقوا كما يحترقُ الجرادُ المَقْلوُّ، فصاروا رماداً(٣).

ورُوي أنَّ الريح حُبست عنهم سبعةَ أيام، ثم سلِّط عليهم الحر.

وقال يزيد الجُرَيْري: سلِّط عليهم الريحُ سبعةَ أيام، ثم رُفع لهم جبلٌ من بعيد، فأتاه رجلٌ فإذا تحته أنهارٌ وعيونٌ، فاجتمعوا تحته كلُّهم، فوقع ذلك الجبلُ عليهم.

وقال قتادة: أُرسل شعيب إلى أصحاب الأيكة فأُهلكوا بالظُّلَّة، وإلى أصحابِ مدين فصاح بهم جبريلُ صيحةً فهلكوا جميعاً(٤).

وقال ابن عطية(٥): ويحتمل أنَّ فرقةً من قوم شعيبٍ هلكت بالرَّجفة وفرقةً هلكت بالظُّلة، قال الطبريُّ(٦): بلغني أنَّ رجلاً منهم يقال له: عَمرو بن جَلْهاءَ، لمَّا رأى الظلَّة قال:

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٧.

(٢) عند تفسير الآية (٧٨) من هذه السورة.

(٣) عرائس المجالس ص١٦٨، وتفسير البغوي ٢/ ١٨٢. وأخرج نحوه الطبري ١٠/ ٣٢٤ عن ابن إسحاق.

(٤) ذكر هذه الأقوال البغوي ٢/ ١٨٢، والقرطبي ١٦/ ٧٥، وقول الجريري أخرجه الثعلبي في التفسير ٤/ ٢٦٢، وتحرف «يزيد» في مطبوعه إلى: برد، ولفظه عندهم جميعاً: سلط عليهم الحر، بدل: سلط عليهم الريح.

(٥) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٢٩-٤٣٠.

(٦) في تفسيره ١٠/ ٣٢٣-٣٢٤، والكلام من المحرر.

يا قوم إنَّ شعيباً مرسَلٌ فذروا عنكم سُميراً وعِمْران بن شدَّادِ
إنِّي أرى غيمةً يا قوم قد طلعتْ تدعو بصوتٍ على صَمَّانةِ الوادِي
وإنه لن تَرَوْا فيها ضَحَاءَ غدٍ إلَّا الرقيمَ يُمشِّي بين أنجاد

سُمَيرةٌ وعِمرانُ: كاهِناهُم، والرقيم: كلبهم. وعن أبي عبد الله البَجَلي: أبو جادَ، وهوَّزُ، وحُطِّي، وكَلَمُن وسَعْفَص، وقُرِشَت، أسماءُ ملوكِ مدينَ، وكان «كَلَمُن» ملكَهم يومَ نزول العذاب بهم زمانَ شعيبٍ ﷺ، فلمَّا هلك قالت ابنتُه[1] تبكيه:

كَلَمُنْ قد هَدَّ رُكني هُلْكُهُ وَسْطَ المَحَلَّهْ
سيدُ القوم أتاه حَتْفُ نارٍ وَسْطَ ظُلَّهْ
جُعِلَتْ نارٌ عليهم دارُهم كالمُضْمَحِلَّهْ

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ﴾ أي: كأنْ لم يُقيموا ناعِمِي البالِ رَخِيِّي العيش في دارهم، وفيها قوةُ الإخبارِ عن هلاكهم وحلولِ المكروه بهم، والتنبيهِ على الاعتبار بهم، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ [يونس: ٢٤] وكقول الشاعر:

كأنْ لم يكن بين الحَجُون إلى الصَّفا أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكةَ سامِرُ[2]

وقال ابن عطية[3]: و: غَنِيْتُ في المكان، إنما يقال في الإقامة التي هي مقترنةٌ بتنعُّمٍ وعيشٍ رَضيٍّ، هذا الذي استَقْرَيْتُ من الأشعار التي ذَكَرتِ العرب فيها هذه اللفظَةَ، وأنشد على ذلك عدَّةَ أبياتٍ، ثم قال: وأمَّا قول الشاعر:

غَنِيْنا زماناً بالتَّصَعْلُكِ والغِنَى فَكلًّا سقاناه بكأسيهما الدهرُ[4]

---

(١) كذا في النسخ، والذي في الطبري والمحرر: أخته.

(٢) البيت لمُضاض بن عمرو الجرهمي، وهو في جمهرة أشعار العرب ١/ ٨٣، والأغاني ١٥/ ١٨، ومعجم البلدان ٢/ ٢٢٥، وفيه: الحجون: جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها، والصفا: أحد الجبلين المشهورين، وهما الصفا والمروة بين بطحاء مكة والمسجد الحرام.

(٣) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٠.

(٤) الشعر لحاتم الطائي، وهو في ديوانه ص٥١ برواية:

غَنينا زماناً بالتصعلك والغنى كما الدهرُ في أيامه العُسْرُ واليُسْرُ
كَسَيْنا صروفَ الدهر لِيناً وغِلظةً وكلًّا سقاناه بكأسيهما الدهرُ

فمعناه: استَغْنَيْنا ورَضيْنا، مع أنَّ هذه اللفظةَ ليست مقترنةً بمكانٍ. انتهى.

قال ابن عباس: كأنْ لم يعمروا[(١)].

وقال قتادة: كأنْ لم يَنْعَموا[(٢)].

وقال الأخفش: كأنْ لم يعيشوا[(٣)].

وقال أيضاً قتادةُ وابن زيد ومقاتل: كأن لم يكونوا[(٤)].

وقال الزجَّاج: كأن لم ينزلوا[(٥)].

وقال ابن قتيبة: كأنْ لم يُقِيْموا[(٦)].

و«الذين» مبتدأ، والجملة التشبيهيةُ خبرُه. قال الزمخشري[(٧)]: وفي هذا الابتداءِ معنى الاختصاص، كأنه قيل: الذين كذَّبوا شعيباً المخصوصون[(٨)] بأنْ أُهلكوا واستُؤصلوا كأنْ لم يُقيموا في دارهم، لأنَّ الذين اتَّبعوا شعيباً قد أنجاهم الله تعالى. انتهى.

وجوَّز أبو البقاء أن يكون الخبر: «الذين كذَّبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين»، و«كأنْ لم يغنوا» حالٌ من الضمير في «كذَّبوا»، وجوَّز أيضاً أن يكون «الذين كذبوا» صفةً لقوله: «الذين كفروا من قومه» وأن يكون بدلاً منه، وعلى هذين الوجهين يكون «كأنْ» حالاً[(٩)]. انتهى.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٥٢ من طريق الضحاك عنه. وأخرجه الطبري ١٠/ ٣٢٦ من طريق علي بن أبي طلحة عنه بلفظ: كأن لم يعيشوا فيها.

(٢) أخرجه عبد الرزاق ١/ ٢٣٣، والطبري ١٠/ ٣٢٦، وابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٥٣.

(٣) النكت والعيون ٢/ ٢٤١، وزاد المسير ٣/ ٢٣٢، وهو قول ابن عباس من رواية علي بن أبي طلحة كما ذكرنا قريباً.

(٤) زاد المسير ٣/ ٢٣٢ عن ابن زيد ومقاتل، وأخرجه عنه ابن زيد الطبري ١٠/ ٣٢٦.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٥٨، وزاد المسير ٣/ ٢٣٣.

(٦) تفسير غريب القرآن ص١٧٠، والنكت والعيون ٢/ ٢٤١.

(٧) في الكشاف ٢/ ٩٧.

(٨) في الكشاف: هم المخصوصون، ومثله في الدر المصون ٥/ ٣٨٦، وهي أوضح من عبارة المصنف.

(٩) الإملاء ١/ ٢٨٠.

وهذه أوجهٌ متكلَّفةٌ، والظاهرُ أنها جملٌ مستقلةٌ لا تعلُّق لها بما قبلها من جهة الإعراب.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ هذا أيضاً مبتدأٌ وخبرٌ، وقال الزمخشري[١]: وفيه معنى الاختصاص، أي: هم المخصوصون بالخسران العظيم دون أتباعه فإنهم هم الرابحون، وفي هذا الاستئناف للابتداء[٢] وهذا التكريرِ مبالغةٌ في ردِّ مقالة الملأ لأشياعهم، وتسفيهٌ لرأيهم، واستهزاءٌ بنُصْحِهم لقومهم، واستعظامٌ لمَا جرى عليهم. انتهى.

وهاتان الجملتان مُنْبِئتان عمَّا فَعَلَ الله بهم في مقالتهم؛ قالوا: «لنخرجنَّك يا شعيبُ»، فجاء الإخبار بإخراجهم بالهلاك، وأيُّ إخراجٍ أعظمُ من إخراجهم؟ وقالوا: «لئن اتبعتم شعيباً إنَّكم إذاً لخاسرون» فحَكَم تعالى عليهم هم بالخسران.

وأجاز أبو البقاء في إعراب «الذين» هنا أن يكون بدلاً من الضمير في «يغنوا»، أو منصوباً بإضمار أعني[٣]، والابتداء الذي ذكرناه أقوى وأجزلُ.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ﴾ تقدَّم تفسير نظيره في قصة صالح عليه السلام.

﴿فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ أي: فكيف أحزنُ على مَن لا يستحقُّ أن يُحزن عليه، ونبَّه على العلَّة التي لا تَبعثُ على الحزن وهي الكفر؛ إذ هو أعظمُ ما يعادَى به المؤمنُ؛ إذ هما نقيضان كما جاء: «لا تتراءى ناراهما»[٤].

وكأنه وجد في نفسه رقةً عليهم حيث كان أملُه فيهم أن يؤمنوا فلم يقدَّرْ، فسرَّى

(١) في الكشاف ٢/ ٩٧.

(٢) في (أ) و(د١) و(ع): لهذا الابتداء. وفي الكشاف: والابتداء، ومثله في حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٣/ ١٩٣ نقلاً عن الكشاف.

(٣) الإملاء ١/ ٢٨٠.

(٤) أخرجه أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذي (١٦٠٤) من طريق قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله، عن النبي ﷺ، وأخرجه الترمذي (١٦٠٥)، والنسائي ٨/ ٣٦ من طريق قيس عن النبي ﷺ مرسلاً، وهو أصح كما قال الترمذي إثره، ونقل ذلك في العلل ٢/ ٦٨٦ عن البخاري.

ذلك عن نفسه باستحضار سبب التسلِّي عنهم والقسوة عليهم، فذكَر أشنعَ ما ارتكبوه معه من الوصف الذي هو الكفرُ بالله الباعثُ على تكذيب الرسل، وعلى المناوأة الشديدة حتى لا يساكِنوه وتوعَّدوه بالإخراج وبأشدَّ منه وهو عَوْدُهم إلى ملتهم.

قال مكي: وسار شعيبٌ بمن تبعه إلى مكة فسكنوها(١).

وقرأ ابنُ وثَّاب وابنُ مصرِّفٍ والأعمش: «إيسى» بكسر الهمزة، وهي لغةٌ تقدَّم ذكرها في «الفاتحة»(٢).

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾ لمَّا ذكَر تعالى ما حلَّ بالأمم السالفة من بأسه وسطوته عليهم آخِرَ أمرهم حين لا تُجْدي فيهم موعظةٌ، ذكر تعالى أنَّ تلك عادتُه في أتباع الأنبياء إذا أصرُّوا على تكذيبهم.

وجاء بعد «إلا» فعلٌ ماضٍ وهو «أخذنا»، ولا يليها فعلٌ ماضٍ إلَّا إنْ تقدَّم فعلٌ أو أُصحب بـ«قد»، فمثالُ ما تقدَّمه فعلٌ هذه الآيةُ، ومثالُ ما أصحب «قد» قولُك: ما زيدٌ إلا قد قام.

والجملة من قوله: «أخذنا» حاليةٌ، أي: إلا آخِذِينَ أهلَها، وهو استثناءٌ مفرَّغٌ من الأحوال، وتقدَّم تفسيرُ نظيرِ قوله: «إلَّا أَخَذْنا» إلى آخره(٣).

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ أي: مكان الحالةِ السيئةِ من البأساء والضرَّاء الحالَ الحسنةَ من السَّراء والنعمة.

قال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة: مكان الشدَّة الرخاءَ(٤).

وقيل: مكانَ الشرِّ الخيرَ(٥).

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٣١، ورُوي هذا عن وهب بن منبه كما في أخبار مكة للأزرقي ١/ ٧٣-٧٤، وتفسير القرطبي ٢/ ٤٠١، وفيه أنهم ماتوا هناك، وقبورهم في غربي الكعبة.

(٢) عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، والقراءة هنا ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٥، وابن عطية في المحرر ٢/ ٤٣١.

(٣) عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢].

(٤) النكت والعيون ٢/ ٢٤٢، وأخرجه الطبري ١٠/ ٣٢٩-٣٣٠ عن ابن عباس وقتادة.

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٢٩ عن مجاهد.

و«مكان» و«الحسنة» مفعولا «بَدَّلَ»، و«مكان» هو محلُّ الباء، أي: بمكان السيئة، وفي لفظ «مكان» إشعارٌ بتمكُّن البأساء منهم، كأنه صار للشدة عندهم مكانٌ. وأعرب بعضُهم «مكانَ» ظرفاً، أي: في مكان.

﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾ أي: كَثُروا وتناسلوا، وقال مجاهد: كَثُرتْ أموالُهم وأولادُهم.

وقال ابن بحر: حتى أعرضوا، من: عفا عن ذنبه، أي: أَعْرَضَ عنه.

وقال الحسن: سَمِنوا.

وقال قتادة: سُرُّوا بكثرتهم[(١)].

وذلك استدراجٌ منه لهم؛ لأنه أخذهم بالشدة ليتَّعظوا ويزدَجِروا فلم يفعلوا، ثم أخذهم بالرخاء ليشكروا.

﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ أبطرتْهم النعمةُ وأشِرُوا، فقالوا: هذه عادةُ الدهر: ضرَّاء وسرَّاء، وقد أصاب آباءَنا مثلُ ذلك، وليس ذلك بابتلاءٍ وقصدٍ بل ذلك بالاتِّفاق، لا على ما تُخْبِرُ الأنبياء، جعلوا أسلافَهم وما أصابهم مَثَلاً لهم ولمَا يصيبهم، فلا ينبغي أن ننكِرَ هذه العادة من أفعال الدهر.

﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ تقدم الكلام على مثل هذه[(٢)]، لمَّا فَسَدوا على التقديرين[(٣)] أُخذوا هذا الأخذ.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي: لو كانوا ممن سَبَقَ في علم الله أن يتلبَّسوا بالإيمان بما جاءت به الأنبياءُ وبالطاعات التي هي ثمرةُ الإيمان لتيسَّر لهم من بركات السماء، ولكن كانوا ممَّن سَبَقَ في علمه أنهم يكذِّبون الأنبياءَ فيؤخَذون باجترامهم،

---

(١) ينظر تفسيرالطبري ١٠/ ٣٣٠-٣٣١، والنكت والعيون ٢/ ٢٤٢، وقول قتادة فيهما: حتى سروا، ليس فيه كلمة: بكثرتهم، لكن ذكر الطبري أنه لا يُعرف العفو بمعنى السرور في كلام العرب، إلا أن يكون (يعني قتادة) أراد: حتى سروا بكثرتهم وكثرة أموالهم، فيكون وجهاً وإن بَعُدَ.

(٢) عند تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤].

(٣) التقدير الأول: أَخْذهم بالبأساء والضراء، والثاني: تبديل الحسنة بمكان السيئة.

وكلٌّ من الإيمان والتكذيب والثوابِ والعقابِ سبق به القَدَرُ، وأضيف الإيمانُ والتكذيب إلى العبد كسباً، والموجِدُ لهما هو الله تعالى لا يُسْأَلُ عمَّا يَفعل.

وقال الزمخشري: اللام في «القرى» إشارةٌ إلى القرى التي دلَّ عليها قولُه تعالى: «وما أرسلنا في قرية من نبيٍّ»، كأنه قال: «ولو أنَّ أهلَ» تلك «القرى» الذين كذَّبوا وأُهلكوا «آمَنوا» بَدَلَ كفرهم، «واتقوا» المعاصيَ مكانَ ارتكابها، «لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض» لآتيناهم بالخير من كلِّ وجهٍ، وقيل: أرادَ المطرَ والنبات، «ولكن كذَّبوا فأخذناهم» بسوء كَسْبهم، ويجوزُ أن تكون اللام في «القرى» للجنس[١]. انتهى.

وفي قوله: واتَّقَوا المعاصيَ، نزغةُ الاعتزال.

رتَّبَ تعالى على الإيمان والتقوى فتحَ البركات، ورتَّب على التكذيب وحده ـ وهو المقابِلُ للإيمان ـ الهلاكَ، ولم يذكر مقابِلَ التقوى لأن التكذيب لا ينفع معه الخيرُ، بخلاف الإيمان فإنه ينفع وإن لم يكن معه فعلُ الطاعات.

والظاهر أنَّ قوله: «بركات من السماء والأرض» لا يرادُ بها معيَّنٌ، ولذلك جاءت نكرةً.

وقيل: بركاتُ السماء المطر، وبركاتُ الأرض الثمار.

وقال السدِّي: المعنى: لفتحنا عليهم أبوابَ السماء والأرض بالرزق[٢].

وقيل: بركات السماء إجابةُ الدعاء، وبركات الأرض تيسيرُ الحاجات.

وقيل: بركاتُ السماء المطر، وبركات الأرض المواشي والأنعام، وحصولُ السلامة والأمن.

وقيل: البركات النموُّ والزياداتُ، فمن السماء بجهة المطر والريح والشمس، ومن الأرض بجهة النبات والحفظِ لمَا نَبَتَ ـ هذا الذي تدركُه فِطَرُ البشر[٣]، ولِله

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٨.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٢٤٣ مختصراً بلفظ: لرزقنا.

(٣) كذا في النسخ، وجاء في المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٢ (وعنه نقل المصنف هذا القول): هذا الذي يدركه نظر البشر.

خدَّامٌ غيرُ ذلك لا يُحْصَى عددُهم، وما عَلِم الله أكثر ـ وذلك أنَّ السماء تجري مجرى الأب والأرضَ مجرى الأم، ومنهما تحصلُ جميعُ الخيرات بخَلْقِ الله وتدبيره.

والأخذُ أخذُ إهلاكٍ بالذنوب.

وقرأ ابن عامر وعيسى الثقفي وأبو عبد الرحمن: «لفتَّحنا» بتشديد التاء[١].

ومعنى الفتحِ هنا: التيسيرُ عليهم كما يُيَسَّرُ على الأبواب[٢] المستغلقة بفتحها، ومنه: فتحتُ على القارئ، إذا يسَّرْتَ عليه بتلقينك إياه ما تعذَّر عليه حفظُه من القرآن إذا أراد القراءة.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ الهمزةُ دخلت على «أمِن» للاستفهام على جهةِ التوقيف والتوبيخ والإنكار والوعيد للكافرين المعاصرين للرسول ﷺ أن يَنْزِلَ بهم مِثْلُ ما نزلَ بأولئك، والفاءُ لعطف هذه الجملة على ما قبلها.

قال الزمخشري: فإن قلتَ ما المعطوفُ عليه، ولم عُطفت الأولى بالفاء والثانية بالواو؟ قلت: المعطوفُ عليه قولُه: «فأخذناهم بغتةً»، وقولُه: «ولو أن أهل القرى» إلى «يكسبون» وقع اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه، وإنما عُطفت بالفاء لأنَّ المعنى: فعلوا وصنعوا فأخذناهم بغتة، أَبَعْدَ ذلك أَمِنَ أهلُ القرى أن يأتيهم بأسُنا بياتاً وأمنوا أن يأتيهم بأسُنا ضحًى[٣]. انتهى.

وهذا الذي ذكره الزمخشريُّ ـ من أنَّ حرفَ العطف الذي بعد همزة الاستفهام هو عاطفٌ ما بعدها على ما قبل الهمزة من الجمل ـ رجوعٌ إلى مذهب الجماعة في ذلك، وتخريجٌ لهذه الآية على خلاف ما قرَّر هو من مذهبه في غيرِ آيةٍ أنه يقدَّر محذوفٌ بين الهمزة وحرفِ العطف يصحُّ بتقديره عَطْفُ ما بعد الحرف عليه، وأنَّ

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٢، وقراءة ابن عامر في السبعة ص٢٨٦، والتيسير ص١٠٣.
(٢) كذا في النسخ، وجاء في الكشاف ٢/ ٩٨ (والكلام منه): كما يُيسَّر أمر الأبواب، وهو الأشبه.
(٣) الكشاف ٢/ ٨٩.

الهمزة وحرفَ العطف واقعان في موضعهما من غيرِ اعتبارِ تقديم حرفِ العطفِ على الهمزة في التقدير، وأنه قدَّم الاستفهامُ اعتناءً لأنه له صدرُ الكلام، وقد تقدَّم كلامُنا معه على هذه المسألة(١).

و«بأسنا»: عذابُنا، و«بياتاً»: ليلاً، وتقدَّم تفسيرُه أولَ السورة(٢)، ونَصْبُه على الظرف، أي: وقتَ مَبيتهم، أو الحال، وذلك وقتُ الغفلة والنوم، فمجيءُ العذاب في ذلك الوقت ـ وهو وقتُ الراحة والاجتماع ـ في غاية الصعوبة؛ إذ أتى وقتَ المأمن.

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ أي: في حال الغفلةِ والإعراضِ والاشتغالِ بما لايُجْدي كأنهم يلعبون، و«ضحًى» منصوبٌ على الظرف، أي: ضحوةً، وتَقَيَّدَ كلُّ ظرفٍ بما يناسبه من الحال، فتَقَيَّدَ البياتُ بالنوم وتقيدت الضُّحى باللَّعب.

وجاء «نائمون» باسم الفاعل لأنها حالةُ ثبوتٍ واستقرارٍ للبائتين، وجاء «يلعبون» بالمضارع لأنهم مشتغلون بأفعالٍ متجدِّدةٍ شيئاً فشيئاً في ذلك الوقت.

وقرأ نافع والابنان: «أَوْ أَمِنَ» بسكون الواو(٣)، جَعَل «أو» عاطفةً ومعناها التنويع، لا أن معناها الإباحةُ أو التخييرُ خلافاً لمن ذهب إلى ذلك. وحَذَفَ ورشٌ همزة «أَمِنَ» ونَقَل حركتَها إلى الواو الساكنة، والباقون بهمزة الاستفهام بعدها واوُ العطف(٤).

وتكرر لفظُ «أهل القرى» لمَا في ذلك من التسميع والإبلاغ والتهديد والوعيد بالسامع ما لا يكون في الضمير لو جاء: أو أمنوا، فإنه متى قُصد التفخيمُ والتعظيمُ والتهويلُ جيء بالاسم الظاهر.

---

(١) ينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا﴾ [البقرة: ١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وقوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ [الأعراف: ٦٣].

(٢) عند قوله تعالى: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾ [الآية: ٤].

(٣) السبعة ص٢٨٦، والتيسير ص١١١.

(٤) المصدران السابقان.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)﴾ جاء العطفُ بالفاء وإسناد الفعل إلى الضمير؛ لأن الجملةَ المعطوفة تكريرٌ لقوله: «أفأمِنَ أهلُ القرى» «أو أمِنَ» وتأكيدٌ لمضمون ذلك، فناسَبَ إعادة الجملة مصحوبةً بالفاء، و«مكر» مصدرٌ أُضيف إلى الفاعل، وهو استعارةٌ لأَخْذِه العبدَ من حيث لا يَشْعُر.

قال ابن عطية: و«مكر الله» هي إضافةُ مخلوقٍ إلى الخالق، كما تقول: ناقة الله، و: بيت الله، والمرادُ فعلٌ يعاقَبُ به مَكْرُ الكفرة، وأُضيف إلى «الله» لمَّا كان عقوبةَ الذنب، فإنَّ العرب تسمِّي العقوبة على أيِّ جهةٍ كانت باسم الذنب الذي وقعت عليه العقوبةُ، وهذا نصٌّ في قوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤][(١)]. انتهى.

وقال عطيةُ العَوْفي: «مكر الله» عذابُه وجزاؤه على مكرهم[(٢)].

وقيل: مكرُه: استدراجُه بالنعمة والصحة، وأَخْذُه على غِرَّةٍ[(٣)].

وكرِّر المكرُ مضافاً إلى الله تحقيقاً لوقوع جزاء المكر بهم.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وابن زيد: «يهد»: يُبيِّن[(٤)]، وهذا كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ [فصلت: ١٧]، أي: بينَّا لهم طريقَ الهدى، والفاعلُ بـ«يَهْدِ» يحتملُ وجوهاً:

أحدهما: أن يعود على الله، ويؤيِّده قراءةُ مَن قرأ: «نهد» بالنون[(٥)].

والثاني: أن يكون ضميراً عائداً على مايُفهم من سياق الكلام السابق، أي: أو لم يَهْدِ ما جرى للأمم السالفة أهلِ القرى وغيرهم.

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٣.
(٢) ذكره الثعلبي ٣/ ٥٣، والبغوي ٢/ ١٨٤ بلفظ: أَخْذُه وعذابُه، وذكره بلفظ المصنف لكن دون نسبة القرطبي ٩/ ٢٩٠.
(٣) في النسخ عدا (د١): غرته، والمثبت من (د١) والمطبوع.
(٤) أخرجه عنهم الطبري ١٠/ ٣٣٥.
(٥) تفسير الثعلبي ٣/ ٥٤، والكشاف ٢/ ٩٩، وتفسير البغوي ٢/ ١٨٤.

وعلى هذين الوجهين يكون «أنْ لو نشاء» وما بعده في موضع المفعول بـ«يَهْدِ»، أي: أو لم يبيِّن الله ـ أو ما سبق من قصص القرى ومآلِ أمرهم- للوارثين إصابتَنا إياهم بذنوبهم لو شئنا ذلك، أي: عِلْمَهم بإصابتنا ـ أو قدرتَنا على إصابتنا ـ إياهم، والمعنى: إنكم مذنبون كهم، وقد علمتُم ما حلَّ بهم، أفما تَحْذَرون أن يحلَّ بكم ما حلَّ بهم، فذلك ليس بممتنعٍ علينا لو شئنا.

والوجه الثالث: أن يكون الفاعلُ بـ«يهد» قولَه: «أنْ لو نشاء» فيَنْسَبِكُ المصدرُ من جواب «لو»، والتقدير: أو لم يُبيِّنْ ويُوضِّح للوارثين مآلَهم وعاقبتَهم إصابتُنا إياهم بذنوبهم لو شئنا ذلك، أي: عِلْمُهم بإصابتنا ـ أو قدرتُنا على إصابتنا ـ إياهم، على التقديرين(١) إذا كانت «أنْ» مفعولةً.

و«أنْ» هنا هي المخفَّفةُ من الثقيلة؛ لأنَّ الهداية فيها معنى العلم، واسمُها ضميرُ الشأن محذوفٌ، والخبرُ الجملةُ المصدَّرة بـ«لو»، و«نشاء» في معنى: شئنا؛ لأنَّ «لو» التي هي لمَا كان سيقع لوقوع غيره إذا جاء بعدها المضارعُ صَرَفَتْ معناه إلى المُضيِّ، ومفعولُ «نشاء» محذوفٌ دلَّ عليه جوابُ «لو»، والجوابُ: «أصبناهم»، ولم يأت باللام وإن كان الفعلُ مُثْبَتاً إذ حذفُها جائزٌ فيصح، كقوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠]، والأكثر الإتيانُ باللام كقوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة: ٦٥] ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٦].

و«الذين يرثون الأرض»، أي: يَخْلُفون فيها من بعد هلاك أهلها، وظاهرُه التسميعُ لمن كان في عصر الرسول ﷺ من مشركي قريشٍ وغيرهم، وقال ابن عباس: يريد أهلَ مكة.

﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ الظاهرُ أنها جملةٌ مستأنفةٌ، أي: ونحن نطبعُ على قلوبهم، والمعنى: أنَّ مَن أَوضح الله له سُبُلَ الهدى، وذكَر له أمثالاً ممَّن أَهلكه تعالى بذنوبهم، وهو مع ذلك دائمٌ على غيِّه لا يَرْعَوي، يَطْبعُ الله على قلبه فينبو سمعُه عن سماع الحق.

(١) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: والمعنى على التقديرين، وهو خطأ.

وقال ابن الأنباري[١]: يجوز أن يكون معطوفاً على «أصبنا» إذ كان بمعنى: نُصيب، فوُضع الماضي موضعَ المستقبل عند وضوح معنى الاستقبال، كما قال تعالى تبارك: ﴿ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠] أي: إنْ يشأ، يدلُّ عليه قولُه: ﴿وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا﴾ [الفرقان: ١٠] انتهى. فجَعَلَ «لو» شرطيةً بمعنى «إنْ»، ولم يجعلها التي هي لِمَا كان سيقعُ لوقوع غيره، ولذلك جَعَل «أصبنا» بمعنى: نصيب، ومثالُ وقوع «لو» موقعَ «إنْ» قولُ الشاعر:

لا يُلْفِكَ الراجيكَ إلا مُظْهِراً خُلُقَ الكرام ولو تكونُ عديما[٢]

وهذا الذي قاله ابن الأنباري ردَّه الزمخشريُّ من جهة المعنى، لكن بتقدير أن يكون «ونطبعُ» بمعنى: وطَبَعْنا، فيكون قد عطف المضارع على الماضي لكونه بمعنى الماضي، وابنُ الأنباري جَعَل التأويل في «أصبنا» الذي هو جوابُ «لو نشاء»، فجَعَلَه بمعنى: نُصِيبُ، فتأوَّلَ المعطوفَ عليه وهو الجواب وردَّه إلى المستقبل، والزمخشريُّ تأوَّل المعطوفَ وردَّه إلى المضيِّ، وأنتج ردُّ الزمخشريِّ أنَّ كِلَا التقديرين لا يصحُّ، قال الزمخشريُّ[٣]: فإن قلت: هل يجوزُ أن يكون «ونطبع» بمعنى: وطبعنا، كما كان «لو نشاء» بمعنى: لو شئنا، ويُعطف على «أصبناهم»؟ قلتُ: لا يساعدُ على[٤] المعنى؛ لأنَّ القوم كانوا مطبوعاً على قلوبهم، موصوفين بصفةِ مَن قبلهم من اقترافِ الذنوب والإصابةِ بها، وهذا التفسير يؤدِّي إلى خلوِّهم عن هذه الصفة، وأنَّ الله تعالى لو شاء لاتَّصفوا بها. انتهى.

وهذا الردُّ ظاهرُه الصحةُ، وملخَّصُه: أنَّ المعطوف على الجواب جوابٌ سواءٌ أتأوَّلْنا المعطوفَ عليه أم المعطوف، وجواب «لو» لم يقع بعدُ سواءٌ أكانت حرفاً لمَا كان سيقعُ لوقوعِ غيره، أم بمعنى «إنْ» الشرطية، والإصابةُ لم تقع والطبعُ على القلوب واقعٌ، فلا يصحُّ أن يُعْطَفَ على الجواب، فإن تُؤُوِّلَ ونطبعُ على معنى: ونستمرُّ على الطبع على قلوبهم، أَمْكَنَ التعاطُفُ؛ لأنَّ الاستمرار لم يقع بعدُ وإن كان الطبعُ قد وقع.

---

(١) كما في زاد المسير ٣/ ٢٣٥.
(٢) سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ﴾ [البقرة: ٢٠].
(٣) في الكشاف ٢/ ٩٩.
(٤) كذا في النسخ، وفي المطبوع: هذا، وجاء في الكشاف: عليه، وهو الأنسب بالسياق.

وقال أبو عبد الله الرازي: تقريرُ صاحب الكشاف على أقوى الوجوه، هو ضعيفٌ؛ لأنَّ كونه مطبوعاً عليه في الكفر لم يكن منافياً لصحة العطف[(١)].

وكان قد قرَّر أن المعنى: أو لم نُبيِّن للذين نبقيهم[(٢)] في الأرض بعد إهلاكنا مَن كان قبلهم فيها أن نهلكهم بعدهم، وهو معنى قوله: «أن لو نشاء أصبناهم»، أي: بعقابِ ذنوبهم «ونطبع على قلوبهم»، أي: لم نُهلكهم بالعذاب نطبعُ على قلوبهم، «فهم لا يسمعون»، أي: لا يقبلون ولا يتَّعظون ولا ينزجرون، وإنما قلنا: إنَّ المراد: إمَّا الإهلاك وإمَّا الطبع على القلب؛ لأن الإهلاك لا يجتمع مع الطبع على القلب، فإنه إذا أهلكه يستحيلُ أن يطبع على قلبه. انتهى.

والعطفُ في «ونطبع» بالواو يمنع ما ذكره؛ لأنَّه جَعَلَ المعنى على أنه إمَّا الإهلاكُ وإمَّا الطبعُ، وظاهرُ العطف بالواو ينبو عن الدلالة على هذا المعنى، فإن جَعَلْتَ الواو بمعنى «أو» أمْكَنَ ذلك، وكذلك ينبو عن قوله: إن لم نهلكهم بالعذاب نطبع على قلوبهم، العطفُ بالواو.

وأورد أبو عبد الله الرازي من أقوال المفسِّرين ما يدلُّ على أنَّ كونه مطبوعاً عليه في الكفر لا ينافي صحةَ العطف، فقال: قال أبو علي - ويعني به والله أعلم الجبَّائيَّ -: الطبعُ سمةٌ في القلب من نكتةٍ سوداء أنَّ صاحبها لا يُفْلحُ. وقال الأصم: أي: يلزمُهم ما هم عليه، فلا يتوبون إلا عند المعاينة، فلا تُقبل توبتهم. وقال أبو مسلم: الطبع الخذلان، أنه يَخْذلُ الكافر فيرى الآيةَ ولا يؤمنُ بها، ويختارُ ما اعتاد وألِفَ[(٣)].

وهذه الأقوالُ لا يمكن معها العطفُ إلا على تأويلِ أن تكون الواو بمعنى «أو».

---

(١) تفسير الرازي ١٤/١٨٧، وفيه: . . . لأن كونه مطبوعاً عليه إنما يحصل حال استمراره وثباته عليه، فهو يكفر أولاً، ثم يصير مطبوعاً عليه في الكفر، فلم يكن هذا منافياً. . .

(٢) في مطبوع تفسير الرازي: نبعثهم.

(٣) لم ترد هذه الأقوال في تفسير الرازي، ولكنه ذكر عن الجبائي قوله: المراد من هذا الطبع أنه تعالى يسمُ قلوب الكفار بسِماتٍ وعلامات تعرف الملائكة بها أن أصحابها لا يؤمنون، وتلك العلامة غير مانعة من الإيمان.

وأجاز الزمخشريُّ في عطف «ونطبعُ» وجهين آخَرين: أحدُهما ضعيفٌ والآخَرُ خطأ؛ قال الزمخشري: فإن قلتَ: بمَ يتعلَّق قوله تعالى: «ونطبع على قلوبهم»؟ قلتُ: فيه أوجُهٌ: أن يكون معطوفاً على ما دلَّ عليه معنى «أو لم يَهْدِ لهم»، كأنه قيل: يغفلون عن الهداية ونطبعُ على قلوبهم، أو على «يرثون الأرض»[1]. انتهى.

فقوله: إنه معطوفٌ على مقدَّرٍ، وهو: يغفلون عن الهداية، ضعيفٌ؛ لأنه إضمارٌ لا يُحتاج إليه؛ إذ قد صحَّ أن يكون على الاستئناف من باب العطف في الجمل، فهو معطوفٌ على مجموع الجملة المصدَّرة بأداة الاستفهام، وقد قاله الزمخشريُّ وغيرُه.

وقوله: إنه معطوفٌ على «يرثون» خطأٌ؛ لأنه إذا كان معطوفاً على «يرثون» كان صلةً لـ«الذين»؛ لأنَّ المعطوف على الصلة صلةٌ، ويكونُ قد فُصِل بين أبعاض الصلة بأجنبيٍّ من الصلة، وهو قولُه: «أنْ لو نَشاءُ أَصَبْناهُم بذنوبهم» سواءٌ أقدَّرنا «أنْ لو نشاء» في موضع الفاعل لـ«يَهْدِ» أو في موضع المفعول، فهو معمولٌ لـ«يهد» لا تعلُّقَ له بشيءٍ من صلة «الذين»، وهو لا يجوز.

ومعنى قوله: «أصبناهم بذنوبهم»: بعقابِ ذنوبهم، أو يُضمَّن «أصبناهم» معنى: أهلكناهم، فهو من مَجازِ الإضمار أو التضمين.

ونُفي السماعُ والمعنى نفيُ القبول والاتِّعاظِ المترتِّبِ على وجود السماع، جُعِلَ انتفاءُ فائدته انتفاءً له.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ﴾ الخطابُ للرسول ﷺ، و«القرى» هي بلادُ قوم نوحٍ وهودٍ وصالحٍ وشعيبٍ بلا خلافٍ بين المفسرين، وجاءت الإشارة بـ«تلك» إشارةً إلى بُعْدِ هلاكها وتقادُمِه، وحَصَلَ الربطُ بين هذه وبين قوله: «ولو أنَّ أهل القرى».

و«نقصُّ» يُحْتَملُ بُقيُّه[2] على حاله من الاستقبال، والمعنى: قد قَصَصْنا عليك من أنبائها ونحن نقصُّ عليك أيضاً منها مفرَّقاً في السُّور، ويجوز أن يكون عبَّر بالمضارع عن الماضي، أي: تلك القرى قَصَصْنا.

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٩.

(٢) في المطبوع: إبقاؤه.

والأنباءُ هنا: أخبارُهم مع أنبيائهم ومآلُ عصيانهم.

و«تلك» مبتدأٌ، و«القرى» خبرٌ، و«نقصُّ» جملةٌ حاليةٌ نحو قوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ [النمل: ٥٢]، وفي الإخبار بـ«القرى» معنى التعظيم لها ولِمَهْلِكها[١]، كما قيل في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ وفي قوله ﷺ: «أولئك الملأُ من قريش»[٢]، وكقول أمية:

تلك المكارمُ لا قَعْبانِ من لبنٍ[٣]

ولمَّا كان الخبرُ مقيَّداً بالحال أفاد، كالتقييد بالصفة في قولك: هو الرجلُ الكريم.

وأجازوا أن يكون «نقصُّ» خبراً بعد خبرٍ، وأن يكون خبراً و«القرى» صفةً.

ومعنى «مِن» التبعيضُ، فدلَّ على أنَّ لها أنباءَ أُخَرَ لم تُقصَّ عليه، وإنما قُصَّ ما فيه عِظَةٌ وازدجارٌ وادِّكارٌ بما جرى على مَن خالف الرسل ليتَّعظ بذلك السامعُ من هذه الأمة.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ قال أبي بن كعب: «ليؤمنوا» اليومَ «بما كذَّبوا» به «من قبلُ» يومَ الميثاق[٤].

وقال ابن عباس: ما كانوا ليخالفوا عِلْمَ الله فيهم[٥].

(١) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: معنى التعظيم لمهلكها، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٤ والكلام منه.

(٢) قطعة من خبرِ قُفول النبي ﷺ من بدر، رواه ابن إسحاق عن عاصم بن عمر ويزيد بن رومان كما في سيرة ابن هشام ١/ ٦٤٣-٦٤٤، وأخرجه البيهقي في الدلائل عن موسى بن عقبة في كتاب المغازي، وفيه أن المسلمين لما جاؤوا يهنئون النبي ﷺ بالنصر قال سلمة بن سلامة: ما قتلنا إلا عجائز صُلعاً! فقال النبي ﷺ: «أولئك يا ابن أخي الملأ».

(٣) ديوان أمية ص١٧٩، وورد أيضاً في ديوان النابغة الجعدي ص١١٢، ونُسب لأبي الصلت بن ربيعة الثقفي والد أمية في سيرة ابن هشام ١/ ٦٥، والشعر والشعراء ١/ ٤٦٢. وعجزه: شِيبًا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا. القَعْب: قدح بمقدار ما يروي الرجل. شيب: خلط.

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ١٠/ ٣٣٧، وابن أبي حاتم ٥/ ١٥٣٠، والحاكم ٢/ ٣٢٤، والضياء في المختارة (١١٥٩)، ولفظه: كان في علمه يوم أقروا بما أقروا به مَن يكذِّب به ومن يصدِّق به.

(٥) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وينظر تفسير الثعلبي ٣/ ٥٤، وتفسير البغوي ٢/ ١٨٤، وزاد =

وقال يمان بن رئاب: «بما كذَّبوا»، أي: أسلافُهم من الأمم الخالية، كقوله: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢][(١)]. فالفعل في «ليؤمنوا» لقوم، وفي «بما كذبوا» لقومٍ آخرين.

وقيل: جاءتهم رسلُهم بالمعجزات التي اقترحوها فما كانوا ليؤمنوا بعد المعجزات بما كذَّبوا به قبلها، كما قال: ﴿قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٌ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ١٠٢].

وقال الكرمانيُّ: «من قبلُ» يعود على الرسل، تقديره: من قبل مجيء الرسل لم يُسلب عنهم اسمُ الكفر والتكذيب، بل بَقُوا كافرين مكذِّبين كما كانوا من قبل الرسل.

وقال الزمخشري: فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل بالبينات بما كذَّبوه من آيات الله قبل مجيء الرسل، أو: فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذَّبوا به أولاً حين جاءتهم الرسلُ، أي: استمرُّوا على التكذيب مِن لَدُنْ مجيءِ الرسل إليهم إلى أنْ ماتوا مُصِرِّين لا يَرْعَوُون ولا تَلينُ شكيمتُهم في كفرهم وعنادهم مع تكرُّرِ المواعظ عليهم وتتابُعِ الآيات[(٢)].

وقال ابن عطية: يحتمل أربعةَ وجوهٍ من التأويل:

أحدها: أنْ يريدَ أنَّ الرسول جاء لكلِّ فريقٍ منهم فكذَّبوه لأول أَمْرِه، ثم استبانت حجَّتُه وظهرت الآياتُ الدالةُ على صدقه مع استمرارِ دعوته، فلجُّوا هم في كفرهم ولم يؤمنوا بما سبق به تكذيبُهم من قبلُ، وكأنه وصفهم على هذا التأويل باللَّجاج في الكفر والصرامةِ عليه، ويؤيِّدُ هذا التأويلَ قولُه: «كذلك يطبعُ الله على قلوب الكافرين»، ويحتملُ في هذا الوجه أن يكون المعنى: فما كانوا ليوفِّقَهم الله إلى الإيمان بسببِ أنهم كذَّبوا قبلُ فكان تكذيبُهم سبباً لأنْ يُمنعوا الإيمانَ بعدُ.

= المسير ٣/ ٢٣٦، فقد ذكروا عن ابن عباس ﷺ ما قد يوافق هذا المعنى، ولفظه: فما كانوا ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذَّبوا به يومَ أَخَذ ميثاقهم حين أخرجهم من صلب آدم فآمنوا كُرهاً حيث أقروا بالألسُنِ وأضمروا التكذيب.

(١) ذكره بنحوه الثعلبي ٣/ ٥٤، والبغوي ٢/ ١٨٤، وابن الجوزي ٣/ ٢٣٦.

(٢) الكشاف ٢/ ١٠٠.

والثاني من الوجوه: أن يريد: فما كان آخِرُهم في الزمن والعصر ليهتديَ ويؤمنَ بما كذَّب به أوَّلُهم في الزمن والعصر، بل كَفَرَ كلُّهم ومشى بعضُهم على سَنَنِ بعضٍ في الكفر، أشار إلى هذا القولِ النقَّاش، فكأنَّ الضميرَ في قوله: «كانوا» يختصُّ بالآخِرين، والضميرَ في قوله: «كذَّبوا» يختصُّ بالقدماء منهم

والثالث من الوجوه: يحتمل أن يريد: فما كان هؤلاء المذكورون بأجمعهم لو رُدُّوا إلى الدنيا ومُكِّنوا من العودة ليؤمنوا بما قد كذَّبوا به في حال حياتهم ودُعاءِ الرسول لهم؛ قاله مجاهدٌ وقرَّبه بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨][١] وهذه أيضاً صفةٌ بليغةٌ في اللَّجاج والثبوتِ على الكفر، بل هي غايةٌ في ذلك.

والرابع من الوجوه: أنه يحتمل أن يريد وَصْفَهم بأنهم لم يكونوا ليؤمنوا بما قد سَبَقَ في عِلْمِ الله تعالى أنهم مكذِّبون به، فحمل[٢] سابق القدر عليهم بمثابة تكذيبهم بأنفسهم، لا سيما وقد خرج تكذيبُهم إلى الوجود في وقتِ مجيءِ الرسل، وذكر هذا القولَ المفسرون، وقرَّبوه[٣] بأنَّ الله تعالى حَتَم عليهم التكذيبَ وقتَ أخذ الميثاق، وهو قولُ أبيِّ بنِ كعبٍ[٤]. انتهى كلام ابن عطية.

والذي يَظهر أنَّ الضمير في «كانوا» وفي «ليؤمنوا» هو عائدٌ على «أهل القرى»، وأنَّ الباء في «بما» ليست سببيةً، فالمعنى أنهم انتفتْ عنهم قابليةُ الإيمان وقتَ مجيء الرسل بالمعجزات بما كذَّبوا به قبل مجيء الرسل بالمعجزات، بل حالُهم واحدٌ قبل ظهورِ المعجزات وبعد ظهورها، لم تُجْدِ عندهم شيئاً.

وفي الإتيان بلام الجحود في «ليؤمنوا» مبالغةٌ في نفي القابليةِ والوقوعِ، وهو أبلغُ من تسلُّط النفي على الفعل بغير لامٍ.

و«ما» في «بما كذَّبوا» موصولةٌ، والعائدُ منصوبٌ محذوفٌ، أي: بما كذَّبوه، وجوِّز أن تكون مصدريةً.

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/٣٣٨ مختصراً بذكر التشبيه بين الآيتين.
(٢) في مطبوع المحرر: فجعل، وهو الأنسب بالسياق.
(٣) في مطبوع المحرر: وقرنوه.
(٤) المحرر الوجيز ٢/٤٣٤، وخبر أبي سلف قريباً.

قال الكرماني: وجاء هنا «بما كذَّبوا»، فحُذِفَ متعلقُ التكذيب لمَّا حُذف المتعلق في «ولو أنَّ أهل القرى آمنوا» وقوله: «ولكن كذَّبوا»، وفي «يونس» أبرزه فقال: ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُۚ﴾ [الآية: ٧٤] لمَّا كان قد أُبرز في﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ [يونس: ٧٣] ثم: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾ [يونس: ٧٣]، فوافَقَ الختمُ في كلٍّ منهما بما يناسبُ ما قبله[١]. انتهى ملخَّصاً.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ أي: مِثْلَ ذلك الطبعِ على قلوب أهلِ القرى حين انتفَتْ عنهم قابليةُ الإيمان وتَساوَى أمرُهم في الكفر قبل المعجزات وبعدها يَطْبَعُ الله على قلوب الكافرين ممن أتى بعدهم.

قال الكرماني: تقدَّم ذكرُ الله بالصَّريح وبالكناية، فجمع بينهما فقال: «ونطبعُ على قلوبهم»، وختم بالصَّريح فقال: «كذلك يطبعُ الله»، وفي «يونس» بنى على ما قبله بنون العظمة في قوله: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ [يونس: ٧٣] ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ [يونس: ٧٤] فناسَبَ ﴿نَطْبَعُ﴾ [يونس: ٧٤] بالنون[٢].

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ﴾ أي: لأكثر الناس، أو أهلِ القرى، أو الأممِ الماضية، احتمالاتٌ ثلاثةٌ؛ قاله التبريزي.

والعهد هنا: هو الذي عُوهدوا عليه في صُلْبِ آدم، قاله أبيٌّ وابنُ عباس[٣]، أو: الإيمان؛ قاله ابن مسعود، ويدلُّ عليه: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧] وهو: «لا إله إلا الله»[٤]، فالمعنى: من إيفاءٍ بعهدٍ أو التزامِ عهدٍ.

وقيل: العهدُ هو وضعُ الأدلة على صحة التوحيد والنبوة؛ إذ ذلك عهدٌ في رقاب العقلاء كالعقود، فعبَّر عن صرف عقولِهم إلى النظر في ذلك بانتفاء وجدان العهد.

و«مِن» في «من عهد» زائدةٌ تدلُّ على الاستغراقِ لجنسِ العهد.

---

(١) أسرار التكرار في القرآن ص٨٧.
(٢) أسرار التكرار في القرآن ص٨٨.
(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٣٤٠ عن أبيّ، وزاد المسير ٣/ ٢٣٦ وتفسير الرازي ١٤/ ١٨٨ عن ابن عباس.
(٤) تفسير الرازي ١٤/ ١٨٨.

﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ «إنْ» هنا هي المخفَّفةُ من الثقيلة، ووجد بمعنى عَلِمَ، ومفعولُ «وجدنا» الأولى: «لأكثرهم»، ومفعولُ الثانية: «لفاسقين»، واللام للفرق بين «إنْ» المخفَّفةِ من الثقيلة و«إنْ» النافية، وتقدم الكلام على ذلك في قوله: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ [البقرة: ١٤٣] ودعوى بعضِ الكوفيين أنَّ «إنْ» في نحو هذا التركيب هي النافيةُ واللامُ بمعنى «إلا»(١).

وقال الزمخشريُّ: وإن الشأن والحديث وجدنا(٢). انتهى.

ولا يُحتاج إلى هذا التقدير، وكان الزمخشريُّ يزعم أنَّ «إنْ» إذا خُففت كان محذوفاً منها الاسمُ - وهو الشأنُ والحديثُ - إبقاءً لها على الاختصاص بالدخول على الأسماء، وقد تقدم لنا تقديرُ نظيرِ ذلك وردَدْنا عليه(٣).

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ لمَّا قصَّ الله تعالى على نبيِّه أخبارَ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ، وما آل إليه أمرُ قومهم، وكان هؤلاء لم يبقَ منهم أحدٌ، أَتْبَعَ بقصص موسى وفرعون وبني إسرائيل؛ إذ كانت معجزاتُه من أعظم المعجزات، وأمتُه من أكثر الأمم تكذيباً وتعنُّتاً واقتراحاً وجهلاً، وكان قد بقي من أتباعه عالَمٌ وهم اليهود، فقصَّ الله علينا قصصهم لنعتبرَ ونتَّعظَ ونَنْزَجِرَ عن أن نتشبَّه بهم.

ومناسَبةُ هذه الآية لِمَا قبلها: أنَّ بين موسى وشعيبٍ ﷺ مصاهَرة كما حكى الله في كتابه(٤)، ونَسَبٌ لكونهما من نسل إبراهيم، ولمَّا استفتح قصة نوح بـ«أرسلنا» بنونِ العظمة أَتْبَعَ ذلك قصةَ موسى فقال: «ثم بعثنا».

---

(١) ينظر ما سلف عند تفسير الآية المذكورة من سورة البقرة، وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

(٢) الكشاف ٢/ ١٠٠. قال السمين في الدر المصون ٥/٣٩٩: ظاهر هذه العبارة أنها مُعْمَلةٌ، وأن اسمها ضمير الأمر والشأن.

(٣) ينظر ما سلف عند تفسير الآية (١٦٤) من سورة آل عمران.

(٤) يشير إلى ما ورد من قصة موسى ﷺ في سورة القصص، لكن ليس ثَمَّ إجماعٌ من المفسرين على أن المذكور في القصة هناك هو شعيب ﷺ، وينظر ما سيرد عند تفسير الآية (٢٥) من سورة القصص.

والضميرُ في «مِن بعدهم» عائدٌ على الرسل من قوله: «ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات»، أو الأمم السابقة. والآياتُ: الحُججُ التي آتاه الله على قومه، أو الآياتُ التسعُ، أو التوراةُ، أقوالٌ.

وتعديةُ «فظلموا» بالباء إمَّا على سبيل التضمين بمعنى: كفروا بها، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣] وإما أنْ تكون الباءُ سببيةً، أي: ظلموا أنفسَهم بسببها، أو الناسَ حيث صدُّوهم عن الإيمان، أو الرسولَ فقالوا: سحرٌ وتمويهٌ، أقوال.

وقال الأصم: ظلموا تلك النعم التي آتاهم الله بأن استعانوا بها على معصية الله تعالى، فانظر أيها السامعُ ما آلَ إليه أمرُ المفسدين الظالمين، جَعَلهم مثالاً توعَّدَ به كَفَرَةَ عصر الرسول ﷺ.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ هذه محاورةٌ من موسى عليه السلام لفرعون، وخطابٌ له بأحسنِ ما يُدْعَى به وأحبِّها إليه؛ إذ كان مَن مَلَكَ مصر يقال له: فرعون، كنمرود في يونان، وقيصرَ في الروم، وكسرى في فارس، والنجاشيِّ في الحبشة، وعلى هذا لا يكون فرعونُ وأمثالُه عَلَماً شخصيًّا بل يكون عَلَمَ جنسٍ كأسامةَ وثُعَالةَ.

ولمَّا كان فرعون قد ادَّعى الربوبيةَ فاتَحه موسى بقوله: «إني رسولٌ من ربِّ العالمين» ليُنبِّهَه على الوصف الذي ادَّعاه، وأنه فيه مُبْطِلٌ لا محقٌّ.

ولمَّا كان قولُه: «حقيقٌ على أنْ لا أقول على الله إلَّا الحقَّ» دعوى، أردَفها بما يدلُّ على صحتها وهو قوله: «قد جئتكم».

ولمَّا قرَّر رسالتَه فرَّعَ عليها تبليغَ الحُكْم وهو قولُه: «فأرسل».

ولم ينازِعْه فرعونُ في هذه السورة في شيءٍ ممَّا ذكره موسى، إلا أنه طلب المعجزة، ودلَّ ذلك على موافقته لموسى، وأنَّ الرسالة ممكِنَةٌ لإمكانِ المعجزة؛ إذ لم يدفع إمكانَها بل قال: «إن كنتَ جئتَ بآية»، ويأتي الكلام على هذا الطلب من فرعون للمعجزة.

وقرأ نافع: «عليَّ أنْ لا أقولَ» بتشديد الياء[1]، جَعَلَها[2] «على» داخلةً على ياء المتكلِّم، ومعنى «حقيقٌ»: جَديرٌ وخَليقٌ، وارتفاعُه على أنه صفةٌ لـ«رسول»، أو خبرٌ بعد خبرٍ، و«أنْ لا أقولَ» الأحسنُ فيه أن يكون فاعلاً بـ«حقيق»، كأنه قيل: يَحقُّ عليَّ كذا ويَجِبُ، ويجوزُ أن يكون «أنْ لا أقولَ» مبتدأً و«حقيقٌ» خبرَه.

وقال قوم: تمَّ الكلامُ عند قوله: «حقيق»، و«عليَّ أنْ لا أقول» مبتدأٌ وخبر.

وقرأ باقي السبعة «عَلَى» بجرِّها «أنْ لا أقولَ»، أي: حقيقٌ عَلَى قولِ الحق، فقال قوم: ضمِّن «حقيقٌ» معنى: حريص. وقال أبو الحسن والفرَّاء والفارسيُّ: «علَى» بمعنى الباء كما أن الباء بمعنى «علَى» في قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ [الأعراف: ٨٦] أي: على كلِّ صراطٍ، فكأنه قيل: حقيقٌ بأنْ لا أقولَ[3]، كما تقول: فلانٌ حقيقٌ بهذا الأمر وخليقٌ به، ويشهدُ لهذا التوجيهِ قراءةُ أبيٍّ: «بأنْ لا أقول»[4] وَضَعَ مكان «علَى» الباءَ. قال الأخفش[5]: وليس ذلك بالمطَّرد؛ لو قلتَ: ذهبتُ على زيد، تريد: بزيد، لم يَجُزْ.

وقال الزمخشري[6]: وفي المشهورة إشكالٌ، ولا يخلو من وجوه:

أحدها: أن يكون ممَّا يُقْلَبُ من الكلام لأمْنِ الإلباس، كقوله:

وتَشْقَى الرماحُ بالضَّياطِرة الحُمْرِ[7]

ومعناه: وتَشْقَى الضياطرةُ بالرماح. انتهى هذا الوجهُ، وأصحابُنا يخصُّون

---

(١) السبعة ص٢٨٧، والتيسير ص١١١.

(٢) في (د١) والمطبوع: جعل.

(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٨٦، وللأخفش ٢/ ٥٢٨-٥٢٩، والحجة للفارسي ٤/ ٥٦-٥٧.

(٤) القراءات الشاذة ٤٥، وذكرها الفراء في معاني القرآن ١/ ٣٨٦ عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٥) كما في الحجة للفارسي ٤/ ٥٧، ولم يرد في معاني القرآن له.

(٦) في الكشاف٢/ ١٠٠.

(٧) البيت لخداش بن زهير، وهو في ديوانه ص٧٩. والضياطرة: جمع ضيطار، وهو الجبان العظيم الخَلْق الذي لا يُحسن حمل السلاح. معجم مقاييس اللغة ٢/ ١٠٢. والحمر كناية عن العَجَم؛ لغلبة الحمرة على ألوانهم، فلذا يستعملونه في الذم. حاشية الشهاب على البيضاوي ٤/ ٢٠٠-٢٠١.

القلب بالشعر، ولا يُجيزونه في فصيح الكلام[١]، فينبغي أن يُنزَّه القرآن عنه، وعلى هذا يصيرُ معنى هذه القراءةِ معنى قراءةِ نافع[٢].

قال الزمخشريُّ: والثاني: أنَّ ما لَزِمَكَ لَزِمْتَه، فلمَّا كان قولُ الحقِّ حقيقاً عليه كان هو حقيقاً على قول الحق، أي: لازماً له.

قال الزمخشري: والثالث: أن يضمَّن «حقيقٌ» معنى: حريص، تضمينَ «هيَّجني» معنى: ذكَّرني، في بيت الكتاب. انتهى.

يعني بالكتاب: كتاب سيبويه، والبيت:

إذا تغنَّى الحمامُ الوُرْقُ هيَّجني ولو تسلَّيتُ عنها أمَّ عمَّارِ[٣]

قال الزمخشري: والرابع وهو الأَوْجَهُ والأَدْخَلُ في نُكت القرآن: أن يُغْرِقَ موسى عليه السلام في وصف نفسه بالصدق في ذلك المقام، لا سيما وقد رُوي أنَّ عدوَّ الله فرعونَ قال لمَّا قال: «إنِّي رسولٌ من ربِّ العالمين»: كَذَبْتَ، فيقول: أنا حقيقٌ على قول الحقِّ، أي: واجبٌ عليَّ قولُ الحقِّ أن أكون أنا قائلَه والقائمَ به، ولا يُرْضَى إلَّا بمثْلي ناطقاً به. انتهى. ولا يتَّضحُ هذا الوجهُ إلَّا إن عَنَى أنه يكون «على أنْ لا أقولَ» صفةً، كما تقول: أنا على قول الحقِّ، أي: طريقي وعادتي قولُ الحق.

وقال ابن مِقْسَم[٤]: «حقيقٌ» من نعت الرسول، أي: رسولٌ حقيقٌ من ربِّ

---

(١) وللناس فيه ـ كما قال السمين في الدر ٥/ ٤٠٢ ـ ثلاثة مذاهب: الجواز مطلقاً، والمنع مطلقاً، والتفصيل بين أن يفيد معنىً بديعاً فيجوز، أو لا فيمتنع. اهـ. قالوا: والنكتة في البيت المذكور هي: الإشارة إلى كثرة الطعن حتى شقيت الرماح بهم لتكسُّرها بسبب ذلك. ينظر روح المعاني ٩/ ٢٧٧.

(٢) أي: الأصل في قراءة الجمهور على هذا القول: حقيقٌ عليَّ أن لا أقول، وهي كقراءة نافع التي معناها: قولُ الحقِّ حقيقٌ عليَّ، فقُلب اللفظ فصار: أنا حقيقٌ على قول الحق. ينظر الدر المصون ٥/ ٤٠٢.

(٣) الكتاب ١/ ٢٨٦، والبيت للنابغة، وهو في ديوانه ص٥١، والرواية فيهما: ولو تغرَّبت عنها...، وهو من قصيدة عدَّها صاحب جمهرة أشعار العرب ١/ ٣٠٣ من المعلقات، والرواية في الجمهرة: ...، ذكرني ولو تَعَزَّيتُ...

(٤) محمد بن الحسن بن مقسم، أبو بكر البغدادي، صنف في التفسير والمعاني، وأُنكر عليه

العالمين أُرسِلْتُ على أنْ لا أقولَ على الله إلا الحقَّ، وهذا معنىً صحيحٌ واضحٌ، وقد غفل أكثرُ المفسرين من أرباب اللغة عن تعليق «على» بـ«رسول»، ولم يخطُرْ لهم تعليقُه إلا بقوله: «حقيق». انتهى.

وكلامُه فيه تناقُضٌ في الظاهر؛ لأنه قدَّر أولاً العاملَ في «على»: أُرسِلْتُ، وقال أخيراً إنهم غفلوا عن تعليق «على» بـ«رسول»، فأمَّا هذا الأخير فلا يجوز على مذهب البصريين؛ لأنَّ «رسولاً» قد وُصف قبل أن يأخذ معمولَه، وذلك لا يجوز، وأما التقدير الأول وهو إضمار: أُرسِلْتُ، ويفسِّره لفظُ «رسول» فهو تقديرٌ سائغٌ ويُتأوَّلُ كلام ابن مقسمٍ أخيراً في قوله: عن تعليق «على» بـ«رسول»، أي: بما دلَّ عليه «رسول».

وقرأ عبد الله والأعمش: «حقيقٌ أن لا أقول» بإسقاط «على»[(١)]، فاحْتَمَلَ أن يكون على إضمارِ «على» كقراءةِ مَن قرأ بها، واحْتَمَلَ أن يكون على إضمار الباء كقراءة أبيٍّ، وعلى الاحتمالين يكون التعلُّق بـ«حقيق».

ولمَّا ذَكَر أنه رسولٌ من عند الله، وأنه لا يقولُ على الله إلَّا الحقَّ أخذ يَذْكُر المعجزةَ والخارقَ الذي يدلُّ على صدق رسالته، والخطابُ في «جئتكم» لفرعون وملئه الحاضرين معه، ومعنى «ببيِّنةٍ»: بآية بينةٍ واضحةِ الدلالة على ما أَذْكُره.

والبيِّنَة؛ قيل: تسْعُ الآياتِ المذكورةُ في قوله: ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ [النمل: ١٢].

وقال بعض العلماء: وسياقُ الكلام[(٢)] يقتضي أنَّ البينة هي العصا واليدُ البيضاء، بدليل ما بعده من قوله: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ الآية.

وقال ابن عباس والأكثرون: هي العصا[(٣)].

= إقراؤه بحروف تخالف الإجماع، ثم استتيب بحضرة الفقهاء والقراء فتاب، من كتبه: الأنوار في علم القرآن، وكتاب اختياره في القراءات، توفي سنة (٣٥٤هـ). السير ١٦/ ١٠٥.

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٦، والكشاف ٢/ ١٠٠.

(٢) في (أ) و(د١) و(ع): الآية.

(٣) زاد المسير ٣/ ٢٣٧.

وفي قوله: «من ربِّكم» تعريضٌ أنَّ فرعون ليس ربًّا لهم بل ربُّهم هو الذي جاء موسى بالبينة مِن عنده.

«فأرسل»، أي: فخلِّ، والإرسالُ ضدُّ الإمساك.

«معي بني إسرائيل»، أي: حتى يذهبوا إلى وطنهم ومولدِ آبائهم الأرضِ المقدَّسة، وذلك أنَّ يوسف عليه السلام لمَّا توفِّي وانقرضَ الأسباطُ غَلَبَ فرعونُ على نسلهم واستعبدهم في الأعمال الشاقَّة، وكانوا يؤدُّون إليه الجزاءَ، فاستنقذهم الله بموسى عليه السلام، وكان بين اليوم الذي دخل فيه يوسُف مصرَ واليومِ الذي دخل فيه موسى أربعُ مئة عام.

والظاهرُ أنَّ موسى لم يطلب من فرعونَ في هذه الآية إلَّا إرسالَ بني إسرائيلَ معه، وفي غير هذه الآية دعاؤه وإياه إلى الإقرار بربوبية الله تعالى وتوحيدِه؛ قال تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨-١٩] وكلُّ نبيٍّ داعٍ إلى توحيد الله تعالى، وقال تعالى حكايةً عن فرعون: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧] فهذا ونظائرُه دليلٌ على أنه طلب منه الإيمانَ، خلافاً لمن قال: إنَّ موسى لم يَدْعُه إلى الإيمان ولا إلى التزام شَرْعِه، وليس بنو إسرائيل من قوم فرعون والقِبْط، ألا ترى أن بقية القبط وهم الأكثرُ لم يرجع إليهم موسى.

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٠٦﴾ لمَّا عَرَضَ موسى عليه السلام رسالتَه على فرعون، وذكر الدليلَ على صدقه وهو مجيئُه بالبينة والخارقِ المعجِزِ، استَدْعَى فرعون منه خرقَ العادة الدالَّ على الصدق، وهذا الاستدعاءُ يحتمل أن يكون على سبيل الاختبار وتجويزه ذلك، ويحتمل أن يكون على سبيل التعجيز لمَّا تقرَّر في ذهن فرعون أنَّ موسى لا يقدِرُ على الإتيان ببينةٍ، والمعنى: إنْ كنتَ جئتَ بآيةٍ من ربِّك فأَحْضِرْها عندي لتَصِحَّ دعواك ويَثْبُتَ صدقُك.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝١٠٧﴾ بدأ بالعصا دون سائر المعجزات لأنها معجزةٌ تحتوي على معجزاتٍ كثيرةٍ، قالوا: منها أنه ضَرَبَ بها بابَ فرعون ففزِعَ من قَرْعِها فشابَ رأسُه فخضَبَ بالسَّواد، فهو أولُ مَن خَضَبَ، وانقلابُها ثعباناً،

وانقلابُ خشبةٍ لحماً ودماً قائماً به الحياةُ من أعظم الإعجاز، ويحصل من انقلابها ثعباناً من التهويل ما لا يحصلُ في غيره، وضَرْبُه بها الحجرَ فينفجر عيوناً، وضربُه بها فتُنْبِتُ؛ قاله ابن عباس(١)، ومحاربتُه بها اللصوصَ والسباع القاصدةَ غَنَمَهُ، واشتعالُها في الليل كاشتعال الشمعة، وصيرورتُها كالرِّشاء(٢) لينزح بها الماءَ من البئر العميقة، وتَلقُّفُها لحبال السَّحرة وعصيِّهم، وإبطالُها لمَا صنعوه من كيدهم وسحرهم. والإلقاءُ حقيقةٌ هو في الأجرام، ومجازٌ في المعاني نحو: ألقَى المسألة.

قال ابن عباس والسدِّيُّ: صارت العصا حيةً عظيمةً شعراءَ فاغرةً فاها، ما بين لحييها ثمانون ذراعاً ـ وقيل: أربعون، ذكره مكيٌّ عن فَرْقَدٍ(٣) ـ واضعةً أحدَ لحييها بالأرض والآخر على سور القصر(٤).

وذكروا من اضطراب فرعونَ وفزعِه وهربِه، ووَعْدِه موسى بالإيمان إن عادت إلى حالها، وكثرةِ مَن مات من قوم فرعون فزعاً، أشياءَ لم تتعرَّضَ إليها الآية، ولا ثَبَتَتْ في حديثٍ صحيح، فالله أعلم بها.

ومعنى «مبين» ظاهرٌ لا تخييل فيه، بل هو ثعبانٌ حقيقةً.

قال ابن عطية: و«إذا» ظرفُ مكانٍ في هذا الموضع عند المبرِّد من حيث كانت خبراً عن جثةٍ، والصحيحُ الذي عليه الناسُ أنها ظرفُ زمانٍ في كلِّ موضع(٥). انتهى.

والصحيحُ الذي عليه شيوخُنا أنها ظرفُ مكانٍ كما قاله المبرِّد، وهو المنسوبُ إلى سيبويه، وقوله: من حيث كانت خبراً عن جثةٍ، ليست في هذا المكان خبراً عن

(١) تفسير الرازي ١٤/ ١٨٩.

(٢) الرِّشاء: الحبل. القاموس (رشو).

(٣) هو فرقد بن يعقوب السَّبَخي، أبو يعقوب البصري، وأخرج قوله الطبري ١٠/ ٣٤٥.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ١٨٥-١٨٦، وأخرجه عنهما الطبري ١٠/ ٣٤٣-٣٤٤، دون قوله: ما بين لحييها ثمانون ذراعاً.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٦. وينظر المقتضب ٣/ ٧٨، وفيه: فأما «إذا» التي تقع للمفاجأة فهي التي تسدُّ مسدَّ الخبر، والاسم بعدها مبتدأ، وذلك قولك: جئت فإذا أخوك، وكلمتك فإذا زيدٌ... إلخ.

جثة، بل خبرُ «هي» قولُه: «ثعبان»، ولو قلت: فإذا هي، لم يكن كلاماً، وينبغي أن يُحمل كلامُه: من حيث كانت خبراً عن جثة، على مِثْلِ: خرجتُ فإذا السَّبُعُ، على تأويلِ مَن جعلها ظرفَ مكانٍ.

وما ذكره من أنَّ الصحيح الذي عليه الناسُ أنها ظرفُ زمانٍ، هو مذهبُ الرِّياشيِّ، ونسب أيضاً إلى سيبويه، ومذهبُ الكوفيين أن «إذا» الفجائية حرفٌ لا اسم.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: جذب يدَه، قيل: من جيبه وهو الظاهرُ؛ لقوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ﴾ [النمل: ١٢]. وقيل: من كُمِّه.

و«للناظرين»، أي: للنَّظَّارة، وفي ذكر ذلك تنبيهٌ على عظم بياضها؛ لأنه لا يَعْرِضُ العجبُ بها للنظارة[١] إلا إذا كان بياضُها عجيباً خارجاً عن العادة، يَجْتمعُ الناسُ إليه كما يجتمعُ النَّظارةُ للعجائب.

قال مجاهد: بيضاءُ كاللَّبَن أو أشدُّ بياضاً[٢].

وروي أنها كانت تظهر منيرةً شفافةً كالشمس، ثم يردُّها فترجعُ إلى لون موسى، وكان آدمَ عليه السلام شديدَ الأُدْمةِ[٣].

وقال ابن عباس: صارت نوراً ساطعاً يضي ما بين السماء والأرض، له لمعانٌ مِثْلُ لمعانِ البرق، فخرُّوا على وجوههم[٤].

وقال الكلبي: بلغنا أن موسى عليه السلام قال: يا فرعون، ما هذه بيدي؟ قال: هي عصاً. فألقاها موسى فإذا هي ثعبانٌ.

---

(١) في (ب) و(د٣) و(يه): لها النظارة، وفي (أ) و(د١) و(ع): لها للنظارة، والمثبت من (ز١)، وهو الموافق لما في النهر على هامش مطبوع البحر ٣٥٨/٤، وما بين حاصرتين منه، والكلام بنحوه في الكشاف ١٠٢/٢، والعبارة فيه: ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضها...

(٢) أخرجه الطبري ٣٤٧/١٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤٣٦/٢.

(٤) زاد المسير ٢٣٨/٣، وتفسير الرازي ١٩٦/١٤ بنحوه.

ورُوي أن فرعون رأى يدَ موسى، فقال لفرعون: ما هذه؟ فقال: يدُكَ، ثم أدخلها جيبَه وعليه مدرعةُ صوفٍ ونزعها فإذا هي بيضاءُ بياضاً نورانيًا غلب شعاعُها شعاعَ الشمس(١).

وما أعجبَ أمرَ هذين الخارِقَيْنِ: أحدُهما في نَفْسِه وذلك اليدُ البيضاء، والآخَرُ في غيرِ نفسه وهي العصا، وجُمع بذينك تبدُّلُ الذوات وتبدُّلُ الأعراض، فكانا دالَّيْنِ على جواز الأمرين وأنهما كلاهما ممكنُ الوقوع.

قال أبو محمد بن عطية: هاتان الآيتان عَرَضَهما موسى عليه السلام للمعارَضة، ودعا إلى الله بهما، وخرق العادةَ بهما، وتحدَّى الناسَ إلى الدِّين بهما، فإذا جعلنا التحدِّيَ الدعاءَ إلى الدِّين مطلقاً فبهما تحدَّى، وإذا جعلنا التحدِّيَ الدعاءَ بعد العجز عن معارضة المُعْجِزة وظهورِ ذلك فتنفردُ حينئذ العصا بذلك؛ لأنَّ المعارَضة والعجز فيها وَقَعَا، ويقال: التحدِّي هو الدعاءُ إلى الإتيان بمثل المعجزة، فهذا نحوٌ ثالثٌ، وعليه يكونُ تَحدِّي موسى بالآيتين جميعاً؛ لأن الظاهر من أمره أنه عَرَضهما معاً، وإن كان لم ينصَّ على الدعاء إلى الإتيان بمثلهما(٢). انتهى. وهو كلامٌ فيه تثبيجٌ(٣).

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝١٠٩﴾ وفي «الشعراء»: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الآية: ٣٤]، والجمع بينهما: أنَّ فرعون وهُم قالوا هذا الكلام، فحَكَى هنا قولَهم وهناك قولَه، أو قاله ابتداءً فتلقَّفه منه الملأ فقالوه لأعقابهم، أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ كما تفعل الملوكُ؛ يَرَى الواحدُ منهم الرأيَ فيكلِّم به مَن يَليه من الخاصَّة، ثم تبلِّغه الخاصةُ العامةَ، والدليلُ عليه أنهم أجابوه في قولهم: «أَرْجِئه».

وكان السحر إذ ذاك في أعلى المراتبِ، فلمَّا رأوا انقلابَ العصا ثعباناً والأَدْماءَ بيضاءَ، وأنكروا النبوَّةَ، ودافَعوه عنها، قصدوا ذمَّه بوصفه بالسحر وحَطِّ

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٢.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٦.

(٣) التثبيج: مصدر ثبَّج، ومعنى ثبَّج الكلام: لم يأت به على وجهه. أساس البلاغة (ثبج).

قَدْرِه إذ لم يُمْكنهم في ظهور ما ظهر على يده نسبةُ شيءٍ إليه غيرِ السحر، وبالغوا في وصفه بأنْ قالوا: «عليم»، أي: بالغٌ الغايةَ[1] في علم السحر وخُدَعِه وخيالاتِه وفنونه.

وأكثرُ استعمالِ لفظِ «هذا» -إذا كان من كلام الكفار- في التنقُّص والاستغراب، كما قال: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦] ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١] ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤] ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ [طه: ٦٣] ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢] يَعْدِلون عن لفظ اسم ذلك الشيء إلى لفظ الإشارة، وأكَّدوا نسبةَ السحر إليه بدخول «إنَّ» واللام.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾ استشعرتْ نفوسُهم ما صار إليه أمرُهم: من إخراجهم من أرضهم، وخلوِّ مواطنهم منهم، وخرابِ بيوتهم، فبادَروا إلى الإخبار بذلك، وكان الأمرُ كما اسْتَشْعَروا إذ أَغْرقَ الله فرعونَ وآلَه وأخلى منازلهم منهم[2]، ونبَّهوا على هذا الوصفِ الصعب الذي هو معادلٌ لقتل الأنفس كما قال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦] وإرادتُه إخراجَهم -وذلك مبالغةٌ في دفعه وعدم قبوله[3]- إما بكونه يَحْكُم فيكم بإرسال خدمكم وعُمَّارِ أرضكم معه حيث يسير، فيقضي ذلك إلى خراب دياركم، وإما بكونهم[4] خافوا منه أن يقاتلهم بمن يجتمع إليه من بني إسرائيل ويَغْلبَ على مُلْكهم.

قال النقَّاش: كانوا يأخذون من بني إسرائيل خَرْجاً كالجزية، فرأوا أنَّ مُلْكَهم يذهب بزوال ذلك[5].

---

(١) في (ب) و(ز١) و(د٣) و(يه): الغلبة، والمثبت من باقي النسخ، وهو الأنسب بالسياق.
(٢) في (ب) و(ز١) و(يه): منه، ومثله في النهر على هامش مطبوع البحر ٣٥٨/٤، والمثبت من باقي النسخ، وهو الأنسب بالسياق.
(٣) قوله وذلك مبالغة. . .، ليس في (أ) و(د١) و(ع).
(٤) في (ب) و(د٣) و(ز١) و(يه): بكونه.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٧.

وجاء في سورة الشعراء: ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾ [الآية: ٣٥] وهنا حُذفت لأن الآية الأولى هنا بُنيت على الاختصار فناسبت الحذفَ، ولأن لفظ «ساحر» يدلُّ على السحر.

و«فماذا تأمرون» من قول فرعون، أو من قول الملأ: إما لفرعون وأصحابه، وإما له وحده كما يخاطَبُ أفرادُ العظماء بلفظ الجمع، وهو من الأمر، وقال ابن عباس: معناه: تُشيرون به[١].

قال الزمخشريُّ: من آمَرْتُه فآمَرني بكذا: إذا شاوَرْتَه فأشار عليك برأي[٢].

وقرأ الجمهور: «تأمرونَ» بفتح النون هنا وفي «الشعراء»، وروى كردم عن نافعٍ كَسْرَ النون فيهما[٣].

و«ماذا» يحتمل أن تكون كلُّها استفهاماً، وتكونُ مفعولاً ثانياً لـ«تأمرون» على سبيل التوسُّع فيه بأنْ حُذِفَ منه حرفُ الجر، كما قال:

أمرتُك الخيرَ[٤]

ويكون المفعولُ الأول محذوفاً لفَهْم المعنى، أي: أيَّ شيءٍ تأمرونني، وأصلُه: بأيِّ شيءٍ.

ويجوز أن تكون «ما» استفهاماً مبتدأً، و«ذا» بمعنى الذي خبرٌ عنه، و«تأمرون» صلةُ «ذا»، ويكون قد حُذف مفعولي «تأمرون»: الأول وهو ضمير المتكلِّم، والثاني وهو الضميرُ العائد على الموصول، والتقدير: فأيُّ شيءٍ الذي تأمُرونَنِيْهِ، أي تأمرونني به.

---

(١) زاد المسير ٣/ ٢٣٨.

(٢) الكشاف ٢/ ١٠٢.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٧. وكردم هو ابن خالد المغربي التونسي، أبو خالد، وقيل: ابن خليد، أبو خليد، قدم المدينة وعرض على نافع، وكان زاهداً عابداً فاضلاً. غاية النهاية ٢/ ٣٢.

(٤) قطعة من بيت عزاه سيبويه في الكتاب ١/ ٣٧ لعمرو بن معدي كرب، وذكر صاحب الخزانة خلافاً في نسبته، وتمامه:

أمرتُكَ الخيرَ فافْعَلْ ما أُمِرْتَ به ... فقد تركتُكَ ذا مالٍ وذا نَشَبِ

وكِلَا الإعرابين في «ماذا» جائزٌ في قراءةِ مَن كسر النون، إلا أنه حَذَفَ ياءَ المتكلِّم وأبقى الكسرةَ دلالةً عليها.

وقدَّر ابنُ عطية الضمير العائد على «ذا» إذا كانت موصولةً مقروناً بحرف الجرِّ، فقال: وفي «تأمرون» ضميرٌ عائدٌ على الذي، تقديره: تأمرون به[1]. انتهى.

وهذا ليس بجيدٍ؛ لفواتِ شرطِ جوازِ حذفِ الضمير إذا كان مجروراً بحرف جرٍّ، وذلك الشرطُ هو أن لا يكون الضمير في موضع رفعٍ، وأن يَجرَّ ذلك الحرفُ الموصولَ أو الموصوفَ به أو المضاف إليه، ويتَّحد المتعلَّقُ به الحرفان لفظاً ومعنىً، ويتَّحدَ معنى الحرف أيضاً، والعذرُ لابن عطية أنه قدَّره على الأصل ثم اتُّسع فيه فتعدَّى إليه الفعلُ بغير واسطة الحرف، ثم حُذف بعد الاتِّساع.

﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ أي: قال مَن حَضَرَ مناظرةَ موسى من عقلاءِ ملأ فرعون وأشرافه، قيل: ولم يكن يجالس فرعونَ ولدُ غَيَّةٍ، وإنَّما كانوا أشرافاً، ولذلك أشاروا عليه بالإرجاء ولم يشيروا بالقتل، وقالوا: إنْ قتلتَه دخلتْ على الناس شبهةٌ، ولكن اغْلِبْه بالحجة.

وقرئ بالهمز وغير همزٍ[2]، فقيل: هما بمعنىً واحد، والمعنى: أخِّره، وقيل: المعنى: احْبِسْه وقيل: «أرجه» بغير همزٍ بمعنى: أَطْعِمْه، جَعَلَه من رَجَوْتُ أُدخل عليه همزة النقل، أي: أَطْعِمْه وأخاه لا تقتلهما حتى يظهر كذبُهما، فإنك إنْ قتلتَهما ظُنَّ أنهما صَدَقا.

ولم يَجْرِ لهارون ذكرٌ في صدر القصة، وقد تبيَّن من غير آيةٍ أنهما ذهبا معاً وأرسلا إلى فرعون، ولمَّا كان موافقاً له في دعواه ومؤازِراً أشاروا بإرجائهما.

وقرأ ابن كثير وهشام: «أرجئهو» بالهمز وضمِّ الهاء ووَصْلِها بواوٍ، وأبو عمرو كذلك إلا أنه لم يَصِلْ، ورُوي هذا عن هشام[3]، وعن يحيى عن أبي بكر.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٧.

(٢) وكلاهما في السبعة كما سيرد.

(٣) وهي التي ذكرها عنه ابن مجاهد في السبعة ص٢٨٧، ولم يذكر عنه قراءة وصلها بواو، وفي التيسير ص١١١ العكس، حيث ذكر عنه قراءة الوصل بالواو ولم يذكر عنه عدم الوصل، وينظر الروايات عنه بذلك في جامع البيان للداني ٢/ ١٥٦.

وقرأ ورش والكسائيُّ: «أَرْجِهي» بغيرِ همزٍ وبكسر الهاء ووَصْلِها بياء.

وقرأ عاصمٌ وحمزةُ بغير همزٍ وسكَّنا الهاء.

وقرأ قالون بغير همزٍ ويختلس كسرة الهاء[١].

وقرأ ابن ذكوان في روايةٍ كقراءة ورش والكسائي. وفي المشهور عنه: «أرجئهِ» بالهمز وكسر الهاء من غير صلةٍ[٢]، وقد قيل عنه: إنه يَصِلُها بياء.

قال ابن عطية: وقرأ ابن عامر «أَرْجِئْهِ» بكسر الهاء بهمزة قبلها، قال الفارسي: وهذا غلط[٣]. انتهى.

ونسبةُ ابنِ عطية هذه القراءة إلى ابن عامرٍ ليس بجيدٍ؛ لأن الذي روى ذلك إنما هو ابنُ ذكوان لا هشامٌ، فكان ينبغي أن يقيِّد فيقول: وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان.

وقال بعضُهم: قال أبو عليٍّ: ضمُّ الهاء مع الهمز لا يجوزُ غيره، قال: وروايةُ ابن ذكوان عن ابن عامر غلطٌ[٤].

وقال ابن مجاهد بعده: وهذا لا يجوز؛ لأنَّ الهاء لا تُكسر إلا إذا وقع قبلها كسرةٌ أو ياءٌ ساكنة[٥].

وقال الحوفي: ومن القرَّاء مَن يكسر مع الهمز، وليس بجيد.

وقال أبو البقاء: ويُقرأ بكسر الهاء مع الهمزِ، وهو ضعيفٌ؛ لأن الهمز حرفٌ صحيح ساكنٌ فليس قبل الهاء ما يقتضي الكسرَ، ووجهُه أنه أَتْبَعَ الهاءَ كسرةَ الجيم، والحاجزُ غيرُ حصينٍ[٦]. انتهى.

---

(١) تنظر هذه القراءات في السبعة لابن مجاهد ص٢٨٧-٢٨٩، والحجة للفارسي ٤/ ٥٧-٦٣، والتيسير للداني ص١١١، وجامع البيان للداني أيضاً ٢/ ١٥٦-١٥٨، وجميعها من المتواتر.

(٢) وهي المذكورة عنه في السبعة ص٢٨٨، والتيسير ص١١١.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٧، وكلام أبي علي الفارسي في الحجة ٤/ ٦٢.

(٤) الحجة ٤/ ٦٠ و٦٢.

(٥) السبعة ص٢٨٨.

(٦) الإملاء ١/ ٢٨١. وسبقه إلى هذا التخريج الداني في جامع البيان ٢/ ١٥٦.

ويخرَّج أيضاً على توهُّم إبدال الهمز ياءً، أو على أنَّ الهمز لمَّا كان كثيراً ما يُبدل بحرف العلة أُجْريَ مُجْرَى حرف العلة في كسر ما بعده.

وما ذهب إليه الفارسيُّ وغيرُه من غلط هذه القراءة وأنها لا تجوز قولٌ فاسدٌ؛ لأنها قراءةٌ ثابتةٌ متواترةٌ روتها الأكابرُ عن الأئمة، وتلقَّتْها الأمةُ بالقبول، ولها توجيهٌ في العربية، وليست الهمزةُ كغيرها من الحروف الصحيحة؛ لأنها قابلةٌ للتغيير بالإبدال، والحذفِ بالنقل وغيرِه، فلا وجه لإنكار هذه القراءة.

﴿وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ «المدائن»: مدائنُ مصر وقُراها، والحاشرون؛ قال ابن عباس: هم أصحابُ الشُّرَط[1].

وقال محمد بن إسحاق[2]: لمَّا رأى فرعونُ من آيات الله عز وجل ما رأى، قال: لن نغالِبَ موسى إلا بمن هو منه، فاتَّخذ غلماناً من بني إسرائيل فبعث بهم إلى قرية -قال البغوي: هي الفَرَمَا[3]- يعلمونهم السحر كما يعلِّمون الصبيان في المكتب، فعلَّموهم سحراً كثيراً، وواعَدَ فرعونُ موسى موعداً ثم دعاهم وسألهم فقال: ماذا صنعتم؟ قالوا: علَّمناهم من السحر ما لا يُقاوِمُهم به أهلُ الأرض، إلَّا أن يكون أمراً من السماء فإنه لا طاقة لنا به.

وقرأ الأخوان: «بكلِّ سحَّارٍ» هنا وفي «يونس»، والباقون: «ساحر»[4]، وفي «الشعراء» أجمعوا على: «سحَّار». ويناسِبُ «سحَّار»: «عليم» لكونهما من ألفاظ المبالغة، ولمَّا كان قد تقدَّم: «إنَّ هذا لساحرٌ عليم» ناسَبَ هنا أن يقابَل بقوله: «بكلِّ ساحر عليم».

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٥١ دون كلمة: أصحاب.
(٢) كما في تفسير الثعلبي ٣/ ٥٧، والبغوي ٢/ ١٨٦، وزادا نسبته لابن عباس والسدي، وأخرجه عن ابن عباس الطبريُّ ١٠/ ٣٥٣.
(٣) وقع في مطبوع تفسير البغوي: الغوصاء، وفي مطبوع الثعلبي: الفرقاء، والمثبت موافق لما في تفسير الطبري. والفرما: مدينة على الساحل بين العريش والفسطاط. ينظر معجم البلدان ٤/ ٢٥٦.
(٤) السبعة ص٢٨٩، والتيسير ص١١٢.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾ في الكلام حذفٌ يقتضيه المعنى، وتقديره: فأرسَلَ حاشرين وجمعوا السحرة وأمرهم بالمجيء.

واضطرَبَ الناقلون للأخبار في عددهم اضطراباً متناقضاً يَعْجَبُ العاقلُ من تسطيره في الكتبِ، فَمِنْ قائلٍ: تسع مئة ألفِ ساحرٍ، وقائلٍ: سبعين ساحراً، فما بينهما من الأعداد المعيَّنةِ المتناقضة.

وجاء «قالوا» بغير حرفِ عطفٍ لأنه على تقديرِ جواب سائلٍ سأل: ما قالوه إذ جاء؟ قالوا[١]: إنَّ لنا لأجراً، أي: جُعْلاً.

وقال الحوفي: «قالوا» في موضع الحال من «السحرة» والعاملُ «جاء».

وقرأ الحِرْميَّان وحفصٌ: «إنَّ»[٢] على وجه الخبر واشتراطِ الأجر وإيجابِه على تقدير الغلبة، ولا يريدون مطلَقَ الأجر بل المعنى: لأجراً عظيماً، ولهذا قال الزمخشري: والتنكيرُ للتعظيم، كقول العرب: إنَّ له لإبِلاً، و: إنَّ له لغنماً، يقصدون الكثرةَ[٣].

وجوَّز أبو عليٍّ أن تكون «إنَّ» استفهاماً حُذفت منه الهمزةُ[٤] كقراءةِ الباقين الذين أثبتوها، وهم الأخوان وابنُ عامرٍ وأبو بكر وأبو عمرو، فمنهم مَن حقَّقهما، ومنهم مَن سهَّل الثانية، ومنهم مَن أدخل بينهما ألفاً، والخلافُ في كتب القراءات[٥].

وفي خطاب السحرةِ بذلك لفرعون دليلٌ على استطالتهم عليه باحتياجه إليهم، وبما يحصُل للعالم بالشيءِ من الترفُّع على مَن يَحتاجُ إليه وعلى مَن لا يَعلم مِثْلَ عِلْمه.

---

(١) كذا وقعت العبارة في النسخ، وجاء في الكشاف ٢/ ١٠٢ (والكلام منه): على تقدير سائل سأل: ما قالوا إذ جاؤوه؟ فأجيب بقوله: قالوا...

(٢) السبعة ص٢٨٩، والتيسير ص١١٢.

(٣) الكشاف ٢/ ١٠٢.

(٤) الحجة ٤/ ٦٥-٦٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٣٨.

(٥) ينظر التيسير ص٣١-٣٢، باب ذكر الهمزتين المتلاصقتين في كلمة.

و«نحن» إمَّا تأكيدٌ للضمير، وإمَّا فصلٌ، وجوابُ الشرط محذوفٌ، وقال الحوفيُّ: جوابُه ما تقدَّم.

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ أي: نعم إنَّ لكم لأجراً وإنكم، فعطف هذه الجملة على الجملة المحذوفة بعد «نعم» التي هي نائبةٌ عنها، والمعنى: لمن المقرَّبين منِّي، أي: لا أقتصِرُ لكم على الجَعْل والثواب على غلبة موسى، بل أزيدُكم أن تكونوا من المقرَّبين، فتَحُوزون إلى الأجر الكرامةَ والرفعةَ والجاهَ والمنزلةَ، والمُثابُ إنما يتهنَّأ ويَغْتَبِطُ به[(١)] إذا حاز إلى ذلك الإكرامَ.

وفي مبادرة فرعون لهم بالوعد والتقريب منه دليلٌ على شدة اضطراره لهم، وأنهم كانوا عالِمينَ بأنه عبدٌ عاجزٌ، ولذلك احتاج إلى السحرة في دفع موسى عليه السلام.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ قال الزمخشري: تخييرُهم إياه أدبٌ حسنٌ راعَوْه معه، كما يفعل أهلُ الصناعات إذا الْتَقَوا، كالمتناظِرِينَ قبل أن يتخاوَضوا في الجدال، والمتصارِعينَ قبل أن يأخذوا في الصِّراع[(٢)]. انتهى.

وقال القرطبي: تأدَّبوا مع موسى عليه السلام بقولهم: «إما أن تُلقي» فكان ذلك سببَ إيمانهم[(٣)]. انتهى.

والذي يظهر أنَّ تخييرهم إياه ليس من باب الأدب، بل ذلك من باب الإدلال بما يعلَمونه من السحر، وإيهامِ الغلبة والثقة بأنفسهم وعدمِ الاكتراث والاهتبالِ بأمر موسى، كما قال الفرَّاء لسيبويه حين جمع الرشيدُ بين سيبويه والكسائي: أتسأل فأجيب، أم أبتدئ وتجيب[(٤)]؟ فهذا جاء التخييرُ فيه على سبيل الإدلال بنفسه

(١) في الكشاف ٢/ ١٠٢ (والكلام منه): إنما يتهنأ بما يصل إليه ويغتبط به.
(٢) الكشاف ٢/ ١٠٢-١٠٣.
(٣) تفسير القرطبي ٩/ ٢٩٦.
(٤) يشير إلى قصة المناظرة المشهورة بين سيبويه والكسائي التي جرى فيها ما يعرف بالمسألة الزنبورية، وكان الفراء تلميذُ الكسائي حاضراً، ينظر تاريخ بغداد ١٢/ ١٠٤، والإنصاف في مسائل الخلاف ٢/ ٧٠٣، ومغني اللبيب ص١٢٢، وفيها أن الذي قال ذلك لسيبويه هو الكسائي، ولفظه أتسألني أم أسألك؟ وقد نقل صاحب نفح الطيب ٤/ ٧٩-٨٠ عن الأعلم =

والملاءة بما عنده وعدمِ الاكتراث بمناظرته والوثوقِ بأنه هو الغالب.

قال الزمخشري: وقولُهم «وإما أن نكون نحن المُلْقين» فيه ما يدلُّ على رغبتهم في أن يُلْقوا قبله: من تأكيدِ ضميرِهم المتَّصلِ بالمنفصل وتعريفِ الخبر، [أو تعريف الخبر] وإقحام الفصل[1]. انتهى.

وأجازوا في «أن تلقيَ» وفي «أن نكون» النصبَ، أي: اختر أو افعل إمَّا إلقاءَك وإمَّا إلقاءَنا، والمعنى فيه البداءةُ، والرفعَ، أي: إمَّا إلقاؤك مبدوءٌ به وإما إلقاؤنا، فيكون مبتدأً، أو: إمَّا أمرُكَ الإلقاءُ، أي: البداءةُ به، أو: إمَّا أمرُنا الإلقاءُ، فيكون خبرَ مبتدأ محذوف، ودخلت «أنْ» لأنه لا يكون الفعلُ وحده مفعولاً ولا مبتدأً، بخلاف قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦] فالفعلُ بعد «إما» هنا خبرٌ ثانٍ لقوله: «وآخرون» أو صفةٌ، فليس من مواضع «أنْ».

ومفعولُ «تلقي» محذوفٌ، أي: إمَّا أن تُلقي عصاك، وكذلك مفعولُ «الملقين»، أي: الملقين العصيَّ والحبال.

﴿قَالَ أَلْقُوا۟﴾ أعطاهم موسى عليه السلام التقدُّم وثوقاً بالحقِّ وعلماً أنه تعالى يُبْطِلُه، كما حكى الله عنه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ [يونس: ٨١].

قال الزمخشري: وقد سوَّغ لهم موسى عليه السلام ما تراغَبوا فيه ازدراءً لشأنهم، وثقةً بما كان بصدده من التأييد السماويِّ، وأن المعجزة لن يغلبها سحرٌ أبداً[2]. انتهى.

والمعنى: أَلْقُوا حبالَكم وعصيَّكم، والظاهر أنه أمرٌ بالإلقاء، وقيل: هو تهديدٌ، أي: فسَتَرون ما يحلُّ بكم من الافتضاح.

= خلافاً في كون تلك المناظرة كانت بين الكسائي وسيبويه أو بين الفراء وسيبويه، وهل كان ذلك بحضرة الرشيد أو بحضرة وزيره يحيى بن خالد البرمكي.

(١) الكشاف ٢/ ١٠٣، وما بين حاصرتين منه، وينظر كلام الطيبي في التفريق بين كون الضمير فصلاً وبين كونه توكيداً، في حاشية الشهاب ٤/ ٢٠٤، وروح المعاني ٩/ ٢٨٩، كلاهما عند تفسير هذه الآية.

(٢) الكشاف ٢/ ١٠٣.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ أي: أَرَوا العيونَ بالحيل والتخيُّلات ما لا حقيقةَ له، كما قال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] وفي قوله: «سحروا أعينَ الناس» دلالةٌ على أن السحر لا يَقْلِبُ عيناً، وإنما هو من باب التخييل.

و«استرهبوهم» أي: أرهبوهم، واستفعل هنا بمعنى أَفْعَلَ، كـ: أبلَّ واسْتَبلَّ[(١)]، والرهبةُ: الخوفُ والفزع.

وقال الزمخشري: «واسترهبوهم»: وأرهبوهم إرهاباً شديداً، كأنهم استدعوا رهبتَهم[(٢)]. انتهى.

وقال ابن عطية: «واسترهبوهم» بمعنى: وأرهبوهم، فكأنَّ فعلَهم اقتضَى واستَدْعَى الرهبةَ من الناس[(٣)]. انتهى.

ولا يظهرُ ما قالا؛ لأنَّ الاستدعاءَ والطلبَ لا يَلزمُ منه وقوعُ المستَدْعَى والمطلوبِ، والظاهرُ هنا حصولُ الرهبة، فلذلك قلنا: إنَّ «استفعل» فيه موافقُ «أَفْعَلَ»، وصرَّح أبو البقاء بأنَّ معنى «استرهبوهم»: طلبوا منهم الرهبةَ[(٤)].

ووصفُ السحر بـ«عظيم» لقوةِ ما خيِّل، أو لكثرة آلاته من الحبال والعصيِّ، روي أنهم جاؤوا بحبالٍ من أَدَمٍ وأخشابٍ مجوَّفةٍ مملوءةٍ زئبقاً، وأوقدوا في الوادي ناراً، فحميت بالنار من تحتٍ والشمسِ من فوق، فتحرَّكت ورَكِبَ بعضُها بعضاً، وهذا من باب الشَّعبذة والدَّك[(٥)]. ورُوي غيرُ هذا من حِيَلهم.

وفي الكلام حذفٌ تقديره: قال أَلْقُوا فأَلْقَوا فلمَّا أَلْقَوا، والفاءُ عاطفةٌ على هذا المحذوف، وقال الحَوْفي: الفاءُ جوابُ الأمر. انتهى، وهو لا يُعْقَلُ ما قال.

ونقول: وُصِفَ بـ«عظيم» لمَا ظَهَرَ من تأثيره في الأعضاء الظاهرة التي هي الأعينُ بما لَحِقَها من تخيُّلِ العِصِيِّ والحبالِ حيَّاتٍ، وفي الأعضاء الباطنة التي هي

---

(١) أي: حَسُنت حاله بعد الهزال.
(٢) الكشاف ٢/ ١٠٣.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٩.
(٤) الإملاء ١/ ٢٨٢.
(٥) ينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

القلوبُ بما لحقها من الفزع والخوف، ولمَّا كانت الرهبةُ ناشئةً عن رؤية الأعين تأخَّرت الجملةُ الدالَّةُ عليها.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا
كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا
بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ
مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ
ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ
رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ
وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ
قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ
مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ
عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ
أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ
قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا
مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن
كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ
ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ
وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا
مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ
فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ
إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ
أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ
سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾.

المفردات

لَقِفَ الشيءَ لَقْفاً ولقَفَاناً: أخذه بسرعة فأكله أو ابتلعه، ورجلٌ ثَقِفٌ لَقِفٌ: سريعُ الأخذ، وثَقيفٌ بيِّنُ الثَّقافةِ واللِّقافة، ولَقِمٌ ولَهِمٌ ولَقِفٌ بمعنىً، ومنه الْتَقَفْتُه وتَلَقَّفْتُه، ولقَّفْنيهِ[1] تلقيفاً.

«مهما» اسمٌ، خلافاً للسهيلي إذ زعم أنها قد تأتي حرفاً، وهي أداةُ شرطٍ، ونَدَرَ الاستفهامُ بها في قوله:

مهما ليَ الليلةَ مهما لِيَهْ ... أوْدَى بنعليَّ وسِرْبالِيَهْ[2]

وزعم بعضُهم أنها إذا كانت اسمَ شرطٍ قد تأتي ظرفَ زمانٍ، وفي بساطتها وتركيبها من «ماما»[3] أو من «مه ما»[4] خلافٌ ذُكِرَ في النحو، وينبغي أن يُحْمَلَ قولُ الشاعر:

أَمَاوِيَّ مَهْ مَن يَسْتَمِعْ في صديقه ... أقاويلَ هذا الناسِ ماويَّ يندمِ[5]

على أنه لا تركيبَ فيها، بل «مه» بمعنى: انكفِف، و«مَن» هي اسم الشرط.

«الجَراد» معروف، واحدُه: جرادةٌ بالتاء للذَّكَر والأنثى، ويُميِّز بينهما الوصفُ وذكَر التصريفيُّون أنه مشتقٌّ من الجَرْد، قالوا: والاشتقاقُ في أسماء الأجناس قليلٌ جدًّا.

---

(١) في (أ) و(ع): ولقفتنيه، وفي (د١) و(د٣): ولقفته، والمثبت من (ب) و(ز١) و(يه).

(٢) البيت لعمرو بن مِلْقَط الطائي، كما في نوادر أبي زيد ص٦٢، ومعجم الشعراء للمرزباني ص٥٧-٥٨، والخزانة ٩/ ٢١، وشرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي ٢/ ٣٦٣، وهو دون نسبة في شرح المفصل لابن يعيش ٧/ ٤٤، ومغني اللبيب ص١٤٦.

(٣) هي «ما» الشرطية كررت توكيداً، فاستُثقل توالي لفظين، فأبدلت ألف الأولى هاء، وقيل: الأولى شرطية والثانية زائدة، زيدت على الأولى كما زيدت على «إنْ» الشرطية، ثم عُمل العمل المذكور للثقل الحاصل. الدر المصون ٥/ ٤٣١.

(٤) «مَه» اسم فعل بمعنى الزجر، و«ما» الشرطية، ثم ركِّب الكلمتان فصارتا شيئاً واحداً. الدر المصون ٥/ ٤٣١.

(٥) البيت في الزاهر لابن الأنباري ٢/ ٢٦٦، وشرح المفصل لابن يعيش ٤/ ٨، والخزانة ٩/ ١٦، قال البغدادي: الهمزة من قوله: «أماوي» للنداء، و«ماويّ» مرخَّم «ماويَّة»، وهي من أسماء النساء، منها ماوية امرأة حاتم الطائي، وهذا البيت شبيه بشعره، ولكني لم أقف عليه منسوباً إليه.

«القُمَّل»، قال أبو عبيدة: هو الحَمْنان، واحدُها: حَمْنَانة، وهو ضربٌ من القِرْدان[١]، وستأتي أقوال المفسرين فيه.

«الضِّفْدع» هو الحيوان المعروف، وتُكْسَر دالُه وتُفتح، وهو مؤنَّثٌ، وشذَّ جمعُهم له بالألف والتاء؛ قالوا: ضِفْدعات.

النَّكْث: النَّقْض.

«اليَمُّ»: البحر، قال ذو الرُّمَّة:

داوِيَّــةٌ ودُجَــى لـيــلٍ كـأنـهـمـا يَــمٌّ تَـراطَـنُ فـي حـافـاتـه الـرُّومُ[٢]

وتقدَّمت هذه المادة في ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ [النساء: ٤٣، والمائدة ٦] إلا أنَّ ابن قتيبة قال: «اليم»: البحر بالسُّريانية[٣]. وقيل: بالعبرانية.

التَّدْمير: الإهلاك وإخراب البناء.

التَّتْبير: الإهلاك، ومنه: التِّبْر؛ لتهالُكِ الناسِ عليه، وقال ابن عطية[٤] والكرماني: التتبير: الإهلاك وسوءُ العُقْبَى، وأصلُه: الكَسْرُ، ومنه: تِبْرُ الذَّهَبِ لأنه كُسَارُه.

* * *

التفسير ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ الظاهرُ أنه وحيُ إعلام كما رُوي أن جبريل عليه السلام أتاه وقال له: إنَّ الحقَّ يأمرك أن تُلْقيَ عصاك، وكونُه وحيَ إعلامٍ فيه تثبيتٌ للجأش وتبشيرٌ بالنصر.

وقال قوم: هو وحيُ إلهامٍ، أُلقي ذلك في رُوعه.

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٢٦٦.

(٢) ديوان ذي الرمة ١/ ٤١٠. الداوية: المفازة، يقول: اجتمعت مفازةٌ وظلمةُ ليلٍ، فصارا كأنهما بحرٌ فيه لَغَطٌ ودويٌّ يسمع بالليل. وتراطُنُ الروم: كلامهم، وحافاته: جوانبه. قاله شارح الديوان.

(٣) أدب الكاتب ص٤٩٦.

(٤) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٨.

و«أنْ» يحتملُ أن تكون المفسِّرةَ، وأن تكون الناصبةَ، أي: بأنْ أَلْقِ، وفي الكلام حذفٌ قبل الجملة الفجائية، أي: فألقاها فإذا هي تلقفُ، وتكون الجملة الفجائيةُ إخباراً بما ترتَّبَ على الإلقاء، ولا يكون موحًى بها في الذكر، ومَن يذهب إلى أنَّ الفاء في نحو: خرجتُ فإذا الأسدُ، زائدةٌ، يحتمل على قوله أن تكون هذه الجملة موحًى بها في الذكر، إلا أنه يقدِّر المحذوفُ بعدها، أي: فألقاها فلقفته.

وقرأ حفص: «تَلْقَفُ» بسكون اللام من لَقِفَ، وقرأ باقي السبعة: «تَلقَّفُ» مضارعُ تَلَقَّفَ حُذفت إحدى تاءيه، إذ الأصل: تتلقَّف[1].

وقرأ البَزِّيُّ بإدغام تاءِ المضارعة في التاء في الوصل[2].

وقرأ ابن جبير: «تَلْقَمُ» بالميم، أي: تَبْلَعُ كاللقمة[3].

و«ما» موصولةٌ، أي: ما يأفِكونه، أي: يقلبونه عن الحقِّ إلى الباطل ويزوِّرونه. قالوا: أو مصدرية، أي: تلقفُ إفكهم، تسميةً للمفعول بالمصدر.

روي أن موسى ﷺ لمَّا كان يومُ الجمع خرج متوكِّئاً على عصاه ويدُه في يد أخيه وقد صفَّ له السحرةُ في عددٍ عظيم، فلمَّا ألقوا واسترهبوا أوحى الله إليه فألقى فإذا هي ثعبانٌ عَظُم حتى كان كالجبل. وقيل: طال حتى جاز النيل. وقيل: طال حتى جاز بذَنَبه بحرَ القُلْزُم[4].

وقيل: كان الجمع بإسكندرية، وطال حتى جاز مدينة البحيرة[5].

ورُوي أنهم جعلوا يَرقُّون وحبالُهم وعصيُّهم تَعْظُم وعصا موسى تعظُم حتى سدَّت الأفق وابتلعت الكلَّ، ورجعت بعدُ عصاً، وأعدم الله العصيَّ والحبالَ، ومدَّ

---

(١) السبعة ص٢٩٠، والتيسير ص١١٢.

(٢) أي: «فإذا هي تَّلَقَّفُ»، وهي في السبعة ص٢٩٠، والتيسير ص٨٣.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٩.

(٤) هو البحر الأحمر. المعجم الوسيط (قلز). وقال ابن عطية في المحرر ٢/ ٤٣٩ (والكلام منه): وهذا قول بعيد عن الصواب مفرِط الإغراق، لا ينبغي أن يلتفت إليه.

(٥) كورة من نواحي الإسكندرية تشتمل على قرى كثيرة ودَخْلٍ واسع. معجم البلدان ١/ ٣٥١. ووقع في (د٣): حتى جاز بذنبه البحيرة، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز.

موسى يده إلى في الثعبان فعاد عصاً كما كان، فعلم السحرةُ حينئذٍ أنَّ ذلك ليس من عند البشر، فخرُّوا سجَّداً مؤمنين بالله ورسوله.

قال الزمخشري: أَعْدَمَ الله بقدرته تلك الأجرامَ العظيمةَ، أو فرَّقها أجزاءً لطيفةً، وقالت السحرة: لو كان هذا سحراً لبقيت حبالُنا وعصيُّنا[1].

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ قال ابن عباس والحسن: ظهر واستبان[2].

وقال أرباب المعاني: الوقوعُ: ظهورُ الشيء بوجوده نازلاً إلى مستقرِّه.

قال القاضي[3]: «فوقع الحقُّ» يفيد قوة الظهور والثبوت بحيث لا يصح فيه البطلان، كما لا يصح في الواقع أن يَصِيرَ إلا واقعاً. ومع ثبوت الحق بطلت وزالت تلك الأعيان التي أفكوها وهي الحبالُ والعصي.

قال الزمخشري: ومِن بِدَع التفاسير: فوقع في قلوبهم، أي: فأثَّر فيها، من قولهم: فأسٌ وقيعٌ، أي: محدَّد[4]. انتهى.

و«ما كانوا يعملون» يعمُّ سحرَ السَّحرة وسَعْيَ فرعون وشيعته.

﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ أي: غُلب جميعُهم في مكان اجتماعهم، أو: ذلك الوقت، وانقلبوا أذلَّاءَ، وذلك أنَّ الانقلاب إن كان قبل إيمان السحرة فهم شركاؤهم في ضمير «انقلبوا»، وإن كان بعد الإيمان فليسوا داخلين في الضمير، ولا لَحِقَهم صَغارٌ يصفهم الله به؛ لأنهم آمنوا واسْتُشْهِدوا، وهذا إذا كان الانقلابُ حقيقةً، أمَّا إذا لوحِظَ فيه معنى الصيرورةِ فالضميرُ في «وانقلبوا» شاملٌ للسحرة وغيرهم، ولذلك فسَّره الزمخشريُّ: بقوله: وصاروا أذلَّاءَ مبهوتين[5].

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٣.

(٢) زاد المسير ٣/ ٢٤٠ عن ابن عباس بلفظ: استبان، وتفسير الرازي ٤/ ٢٠٥ عن الحسن بلفظ: ظهر، وبهذا اللفظ أخرجه الطبري ١٠/ ٣٦٠ عن مجاهد.

(٣) هو عبد الجبار المعتزلي، ونقل المصنف كلامه من تفسير الرازي ١٤/ ٢٠٥، وما قبله منه.

(٤) الكشاف ٢/ ١٠٣، وليس في مطبوعه: أي محدد.

(٥) المصدر السابق.

﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ لما كان الضمير قبلُ مشترَكاً جُرِّد المؤمنون وأُفرِدوا بالذِّكر، والمعنى: خرُّوا سجَّداً كأنما ألقاهم مُلْقٍ لشدة خُرورهم.

وقيل: لم يتمالَكُوا ممَّا رأوا فكأنهم أُلقوا.

وسجودُهم كان لله تعالى لِمَا رأوا من قدرة الله تعالى، فتيقَّنوا نبوَّةَ موسى عليه السلام، واستَعْظَموا هذا النوعَ من قدرة الله تعالى.

وقيل: ألقاهم الله سُجَّداً، سبَّب لهم من الهدى ما وقعوا به ساجدين.

وقيل: سجدوا موافَقَةً لموسى وهارون، فإنهما سَجَدا لله شكراً على وقوع الحق، فوافقوهما إذ عرفوا الحقَّ فكأنما ألقياهم.

قال قتادةُ: كانوا أولَ النهار كفاراً سحرةً وفي آخره شهداءَ بَرَرَةً.

وقال الحسن: تَراه وُلد في الإسلام ونشأ بين المسلمين يبيع دينَه بكذا وكذا، وهؤلاء كفارٌ نشؤوا في الكفر بذلوا أنفسهم لله تعالى[1].

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ أي: ساجدين قائلين، فـ«قالوا» في موضع الحال من الضمير في «ساجدين»، أو من «السحرة»، وعلى التقديرين فهم مُلْتبِسون بالسجود لله شكراً على المعرفة والإيمان، وبالقول المُنْبِئ عن التصديق الذي محلُّه القلوب.

ولمَّا كان السجودُ أعظمَ القُرَبِ -إذ أقربُ ما يكون العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ- بادَروا به مُلْتبِسينَ بالقول الذي لا بدَّ منه عند القادر عليه، إذ الدخولُ في الإيمان إنما يدلُّ عليه القولُ، وقالوا: «ربِّ العالمين» وفاقاً لقول موسى: «إنِّي رسولٌ من ربِّ العالمين»، ولمَّا كان قد يُوْهِمُ هذا اللفظُ غيرَ الله تعالى كقول فرعون: «أنا ربكم الأعلى»، نصُّوا بالبدل على أنَّ ربَّ العالمين: ربُّ موسى وهارون، وأنهم فارَقوا فرعون وكفروا بربوبيته.

والظاهرُ أن قائل ذلك جميعُ السحرة، وقيل: بل قاله رؤساؤهم، وسمَّى ابنُ

(١) القولان في الكشاف ٢/١٠٣-١٠٤، وقول قتادة أخرجه بنحوه الطبري ١٠/ ٣٦٤-٣٦٥.

إسحاق منهم الرؤساء، فقال: هم سابورُ وعازورُ وحطحط ومُصَفًّى[(١)]. وحكاه ابن ماكولا أيضًا[(٢)].

وقال مقاتل: أكبرهم شمعون[(٣)].

وبدؤوا بموسى قبل هارون وإن كان هارون أكبرَ سنًّا من موسى ـ قيل: بثلاث سنين ـ لأن موسى هو الذي ناظَرَ فرعون، وظهرت المعجزتان في يده وعصاهُ، ولأن قوله: «وهارون» فاصلة، وجاء في «طه»: ﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [الآية: ٧٠] لأن «موسى» فيها فاصلةٌ، ويحتمل وقوعُ كلِّ قولٍ منهما مرتَّبًا من طائفةٍ وطائفةٍ، فنُسِبَ فعلُ بعضٍ إلى المجموع في سورة، وبعضٍ إلى المجموع في أخرى.

قال المتكلِّمون[(٤)]: وفي الآية دلالةٌ على فضيلة العلم؛ لأنّهم لمَّا كانوا كاملينَ في علم السحر عَلِموا أن ما جاء به موسى حقٌّ خارجٌ عن جنس السحر، ولولا العلمُ لتوهَّموا أنه سحرٌ، وأنه أسحرُ منهم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ قرأ حفصٌ: «آمنتم» على الخبر في كلِّ القرآن، أي: فعلتُم هذا الفعلَ الشنيع، وبَّخهم بذلك وقرَّعهم، وقرأ العَرَبيان ونافعٌ والبَزِّيُّ بهمزةِ استفهام ومَدَّةٍ بعدها مطوَّلةٍ في تقدير أَلِفَين، إلا وَرْشًا فإنه يسهِّل الثانية، ولم يُدخِلْ أحدٌ ألِفًا بين المحقَّقة والمليِّنة، وكذلك في «طه» و«الشعراء»، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر فيهنَّ بالاستفهام وحقَّقا الهمزةَ، وبعدهما ألفٌ، وقرأنا لقُنْبُلٍ هنا بإبدال همزة الاستفهام واوًا لضمة نونِ «فرعون» وتحقيقِ الهمزة بعدها، أو تسهيلها، أو إبدالها، أو إسكانِها، أربعةُ أوجُه، وقرأ في «طه» مِثْلَ حفصٍ، وفي «الشعراء» مِثْلَ البَزِّي[(٥)].

---

(١) تاريخ الطبري ١/٤٠٨، وزاد المسير ٣/٢٤١، والاسمان الأوَّلان فيهما: ساتور وعاذور، ومثله في توضيح المشتبه ٥/٢٦٧، وأما سابور وعازور، فقد حكاهما ابن الجوزي عن غير ابن إسحاق.

(٢) في الإكمال ٤/٢٤٩، وفيه أيضاً: ساتور وعاذور، والكلام من زاد المسير ٣/٢٤١.

(٣) زاد المسير ٣/٢٤١.

(٤) كما في تفسير الرازي ١٤/ ٢٠٥-٢٠٦.

(٥) ذكر هذه القراءات الداني في التيسير ص١١٢، إلا أنه لم يذكر تسهيل الثانية لورش، كما أنه لم يذكر عن قنبل في هذه الآية سوى حالة واحدة، وهي أنه كان يبدل في حال الوصل من همزة الاستفهام واواً مفتوحة، ومن بعدها مدة في تقدير ألفين. وينظر السبعة ص٢٩٠-٢٩١.

وهذا الاستفهام معناه الإنكارُ والاستبعاد، والضميرُ في «به» عائدٌ على الله تعالى، لقولهم: «قالوا آمنا برب العالمين»، وقيل: يحتملُ أن يعود على «موسى»، وفي «طه» و«الشعراء» يعود في قوله: ﴿لَهُۥ﴾ [طه: ٧١، والشعراء: ٤٩] على موسى لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾. وقيل: آمنتُ به، وآمنتُ له، واحدٌ.

وفي قوله: «قبلَ أن آذَنَ لكم» دليلٌ على وَهْنِ أمرِه؛ لأنه إنما جَعَل ذَنْبهم بمفارقة الإذن ولم يجعله نفسَ الإيمان إلا بشرط.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ﴾ أي: إنَّ صُنْعَكم هذا لحيلةٌ احْتَلْتُموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تَخْرجوا منها إلى هذه الصحراء، وتواطأتُم على ذلك لغَرَضٍ لكم، وهو أنْ تُخرِجوا منها القِبْطَ وتُسكنوا بني إسرائيل، قال هذا تمويهًا على الناس لئلَّا يتِّبعوا السحرة في الإيمان.

رُوي عن ابن مسعود وابن عباس أنَّ موسى عليه السلام اجتمع مع رئيس السحر شمعون، فقال له موسى: أرأيتَ إن غلبتُكم، أتؤمنون بي؟ فقال له: نعم، فعلم بذلك فرعونُ فقال ما قال[١]. انتهى.

ولمَّا خاف فرعونُ أن يكون إيمانُ السحرة حجة قومه ألقى في الحال نوعين من الشُّبَهِ[٢]:

أحدهما: أن هذا تواطؤٌ منهم، لا أن ما جاء به حقٌّ.

والثاني: أن ذلك طلبٌ منهم للمُلْكِ.

﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ١٢٣﴾ تهديدٌ ووعيدٌ، ومفعولُ «تعلمون» محذوفٌ، أي: ما يحلُّ بكم، أَبهَمَ في متعلَّق «تعلمون» ثم عيَّن ما يفعلُه بهم فقال مُقْسِمًا:

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٢٤﴾ لمَّا ظهرت الحجةُ عاد إلى عادة ملوك السوء إذا غُلبوا من تعذيب مَن ناوأهم[٣] وإن كان محقًّا، ومعنى «من

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٦٢.

(٢) في (ب) و(د٣) و(ز١) و(يه): الشبهة.

(٣) في النسخ عدا (د١): ناقاه، والمثبت من (د١) والمطبوع والنهر على هامش مطبوع البحر ٤/ ٣٦٥.

خلاف»، أي: يد يمنى ورجل يسرى، والعكس، قيل: وهو أولُ من فَعَلَ هذا[(١)].

وقيل: المعنى: من أجل الخلاف الذي ظهر منكم.

والصَّلب: التعليقُ على الخشب.

وهذا التوعُّدُ الذي توعَّدَه فرعونُ السحرةَ ليس في القرآن نصٌّ على أنه أَنْفَذَه وأوقَعَه بهم، ولكن رُوي في القصص أنه قطع بعضًا وصلَّب بعضًا، وتقدَّم قولُ قتادة[(٢)]، وروي عن ابن عباس أنهم أصبحوا سحرةً وأمسَوْا شهداء[(٣)].

وقرأ مجاهدٌ وحميدٌ المكيُّ وابنُ مُحَيْصِنٍ: «لأَقْطَعَنَّ» مضارع قَطَع الثلاثي «ولأَصْلُبنكم» مضارعُ صَلَبَ الثلاثي بضمِّ لام «لأصلبنكم»، ورُوي بكسرها[(٤)].

وجاء هنا «ثم لأصلِّبَنَّكم» وفي السورتين: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ [طه: ٧١، والشعراء: ٤٩] بالواو، فدلَّ على أنَّ الواو أُريدَ بها معنى «ثم» من كون الصلب بعد القطع، والبَعْدِيةُ قد يكون معها مُهْلةٌ وقد لا يكون.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ هذا تسليمٌ واتِّكالٌ على الله تعالى، وثقةٌ بما عنده، والمعنى: إنَّا نَرْجعُ إلى ثواب ربِّنا يومَ الجزاء على ما نلقاه من الشدائد، أو: إنَّا ننقلبُ إلى لقاء ربِّنا ورحمته وخلاصِنا منك ومن لقائك، أو: إنَّا ميِّتون منقلبون إلى الله فلا نبالي بالموت، إذ لا تقدِرُ أن تفعل بنا إلَّا ما لا بدَّ لنا منه.

فالانقلابُ الأول يكون المرادُ به يومَ الجزاء، وهذان الانقلابان المرادُ بهما في الدنيا.

ويَبْعدُ أن يراد بقوله: «وإنَّا» ضميرُ أنفسهم وفرعونَ، أي: ننقلبُ إلى الله جميعًا فيحكُمُ بيننا؛ لقوله بعدُ: «وما تَنْقِمُ منَّا» فإنَّ هذا الضميرَ يخصُّ مؤمني السَّحرة، والأَوْلى اتِّحادُ الضمائر، والذي أجاز هذا الوجهَ هو الزمخشريُّ[(٥)].

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٦٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) قريبًا عند قوله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.
(٣) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٦٤.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٠، وهي في القراءات الشاذة ص٤٥ مضبوطة بكسر اللام.
(٥) في الكشاف ٢/ ١٠٤، وأجاز الزمخشري الوجوه الثلاثة الأولى أيضاً.

وفي قولهم: «إلى ربِّنا» تبرُّؤٌ من فرعون ومن ربوبيته، وفي «الشعراء»: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ [الآية: ٥٠] لأن هذه السورة اختُصرت فيها القصةُ وأُشْبِعت في «الشعراء»؛ ذَكَر فيها أحوالَ فرعونَ من أوّلها إلى آخرها، فبدأ بقوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الآية: ١٨] وختم بقوله: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ [الآية: ٦٦] فوقع فيها زوائدُ لم تقع في هذه السورة ولا في «طه»، قاله الكرماني(١).

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ قال الضحاك: وما تطعَنُ علينا. وقال غيره: وما تكره منَّا(٢).

وقال الزمخشري: وما تَعيبُ منَّا(٣).

وقال ابن عطية: وما تَعُدُّ علينا ذنبًا وتُؤاخِذُنا به(٤).

وعلى هذه التأويلاتِ يكون قولُه: «إلَّا أن آمنا» في موضع المفعول، ويكون من الاستثناء المفرَّغ من المفعول، وجاء هذا التركيبُ في القرآن كقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ [المائدة: ٥٩]، ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟﴾ [البروج: ٨].

وهذا الفعلُ في لسان العرب يتعدَّى بـ«على»، تقول: نَقَمْتُ على الرجل أَنْقِمُ: إذا عِبْتَ عليه فِعْلَه، والذي يظهر من تَعْديته بـ«مِن» أنَّ المعنى: وما تنقم منَّا، أي: ما تنال منَّا، كقوله: ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٩٥] أي: يناله بمكروهٍ، ويكون فَعَلَ وافْتَعَلَ فيه بمعنًى واحدٍ كـ: قَدَر واقْتَدَر، وعلى هذا يكون قوله: «إلَّا أنْ آمنَّا» مفعولًا من أَجْله استثناءً مفرَّغًا، أي: ما تنالُ منَّا وتعذِّبنا لشيءٍ من الأشياء إلَّا لأن آمنا بآيات ربِّنا، وعلى هذا المعنى يدلُّ تفسير عطاء؛ قال عطاء: أي: ما لنا عندك ذنبٌ تعذِّبنا عليه إلا أنَّا آمنَّا(٥).

والآيات: المعجزات التي أَتَى بها موسى عليه السلام، ومَن جَعَل «لمَّا» ظرفًا

(١) في أسرار التكرار في القرآن ص٩١.
(٢) القولان في تفسير البغوي ٢/ ١٨٩.
(٣) الكشاف ٢/ ١٠٤.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤١.
(٥) تفسير البغوي ٢/ ١٨٩.

جَعَلَ العامل فيها «أنْ آمنَّا»، ومَن جعلها حرفًا جَعَل جوابها محذوفًا لدلالة ما قبله عليه، أي: لمَّا جاءتنا آمنا.

وفي كلامهم هذا تكذيبٌ لفرعون في ادِّعائه الربوبيةَ، وانسلاخٌ منهم عن اعتقادهم ذلك فيه، والإيمان بالله هو أصلُ المفاخِرِ والمناقب، وهذا الاستثناء شبيهٌ بقوله:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سيوفهم ... بهنَّ فلولٌ من قراع الكتائب[1]

وقرأ الحسن وأبو حيوة وأبو اليسر هاشم[2] وابن أبي عبلة: «وما تَنْقَم» بفتح القاف مضارع نَقِمَ بكسرها، وهما لغتان، والأفصحُ قراءةُ الجمهور.

﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾ لمَّا أوْعَدَهم بالقطع والصَّلْب سألوا الله تعالى أن يرزقهم الصبرَ على ما يَحِلُّ بهم إن حَلَّ، وليس في هذا السؤالِ ما يدل على وقوع المُوْعَدِ بهم، خلافًا لمن قال: يدلُّ على ذلك. ولا في قوله: «وتوفَّنا مسلمين» دليلٌ على أنه لم يحلَّ بهم الموعودُ خلافًا لمن قال: يدل على ذلك؛ لأنهم سألوا الله أن يكون توفِّيهم من جهته لا بهذا القطع والقتل، وتقدَّم الكلام على جملة «ربَّنا أفرِغْ علينا صبرًا»[3]، سألوا الموتَ على الإسلام، وهو الانقيادُ إلى دين الله وما أَمَر به.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ قال ابن عباس: لمَّا آمنت السحرةُ اتَّبع موسى ستُّ مئة ألفٍ من بني إسرائيل[4].

قال مقاتل: ومكث موسى بمصر بعد إيمان السحرة عامًا أو نحوَه يُريهم الآيات[5].

---

(١) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص١١.

(٢) كذا في النسخ: وأبو اليسر هاشم، وهو تحريف، والصواب: وأبو البرهسم، كما في المحرر الوجيز ٢/ ٤٣١، وكذا نسبها ابن عطية عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ [المائدة: ٥٩] لأبي البرهسم، ونقل ذلك عنه المصنف عند تفسير تلك الآية. والقراءة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٥ عن يحيى وإبراهيم وأبي حيوة.

(٣) عند تفسير الآية (٢٥٠) من سورة البقرة.

(٤) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٧١.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤١.

وتضمَّن قولُ الملأ إغراءَ فرعون بموسى وقومِه، وتحريضَه على قتلهم أو تعذيبهم حتى لا يكون لهم خروجٌ عن دين فرعون، ويُعْنَى بقومه مَن اتَّبعه من بني إسرائيل، فيكون الاستفهام على هذا استفهامَ إنكارٍ وتعجُّبٍ.

وقيل: هو استخبارٌ، والغرضُ به أن يعلموا ما في قلب فرعون من موسى ومَن آمَنَ به.

قال مقاتل: والإفسادُ هو خوفُ أن يَقتلوا أبناء القِبْطِ ويَسْتَحيوا نساءهم على سبيل المُقَاصَّةِ منهم، كما فعلوا هم ببني إسرائيل.

وقيل: الإفساد: دعاؤهم الناسَ إلى مخالفة فرعونَ وتركِ عبادته.

وقرأ الجمهور: «ويَذَرَكَ» بالياء وفتح الراء عطفًا على «لِيُفْسِدوا»، أي: للإفساد ولتركك وتركِ آلهتك، وكأنَّ التركَ هو لذلك[1]، وبَدَؤوا أولًا بالعلَّة العامَّة وهي الإفساد، ثم أتْبَعوه بالخاصة ليدلُّوا على أنَّ ذلك التركَ من فرعون لموسى وقومِه هو أيضًا يَؤُولُ إلى شيءٍ يختصُّ بفرعون، قَدَحوا بذلك زَنْدَ تغيُّظه على موسى وقومه ليكون ذلك أبقى عليهم؛ إذ هم الأشرافُ، وبترك موسى وقومِه بمصر يذهبُ ملكهم وشرفُهم.

ويجوز أن يكون النصب على جواب الاستفهام، والمعنى: أنَّى يكونُ الجمع بين تركك موسى وقومِه للإفساد وبين تَرْكِهم إياك وعبادةَ آلهتِك، أي: إنَّ هذا ممَّا لا يمكنُ وقوعُه.

وقرأ نعيم بن ميسرة والحسن بخلاف عنه: «ويذرُكَ» بالرفع عطفًا على «أتذر»[2] بمعنى: أتذرُه ويَذَرُك؟ أي: أتُطْلِقُ له ذلك؟ أو على الاستئناف، أو على الحال على تقدير: وهو يذرُك.

وقرأ الأشهب العقيلي والحسن بخلافٍ عنه: «ويَذَرْك» بالجزم[3] عطفًا على

---

(١) أي: إذا تركهم ولم يمنعهم وكان ذلك مؤدِّياً إلى ما دَعَوْه فساداً، وإلى تركه وترك آلهته، فكأنه تركهم لذلك الكشاف ٢/ ١٠٤.

(٢) المحتسب ١/ ٢٥٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٣٦٧، وهي في الكشاف ٢/ ١٠٤ دون نسبة.

(٣) القراءات الشاذة ص٤٥، والمحتسب ١/ ٢٥٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٤١، والكشاف ٢/ ١٠٤.

التوهُّم، كأنه تَوَهَّمَ النطقَ: يُفسدوا، جزمًا على جواب الاستفهام، كما قال: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠][١]، أو على التخفيف من «ويَذَرَك».

وقرأ أنس بن مالك: «ونَذَرُكَ» بالنون ورَفْعِ الراء[٢]، توعَّدوه بتركه وتركِ آلهته، أو على معنى الإخبار، أي: إنَّ الأمر يَؤُولُ إلى هذا.

وقرأ أبيٌّ وعبد الله: «في الأرض وقد تركوكَ أنْ يعبدوكَ وآلهتك»، وقرأ الأعمش: «وقد تَرَكَكَ وآلهتك»[٣].

وقرأ الجمهور: «وآلهتك» على الجمع، والظاهرُ أنَّ فرعون كان له آلهةٌ يعبدُها، وقال سليمان التيمي: بلغني أنه كان يعبد البقر، وقيل: كان يعبد حجرًا يعلِّقه في صدره كياقوتة أو نحوِها[٤].

وقيل: الإضافةُ هي على معنى أنه شَرَعَ لهم عبادةَ آلهةٍ من بقرٍ وأصنامٍ وغيرِ

---

(١) أي: كأنه قيل: أصدَّقْ وأكنْ، وعلى هذا أعربها الخليل كما نقل عنه سيبويه في الكتاب ٣/ ١٠٠-١٠١، قال: لمَّا كان الفعل الذي قبله قد يكون جزماً ولا فاء فيه، تكلموا بالثاني وكأنهم جزموا قبله، فعلى هذا توهَّموا هذا. وشبَّهها بقول زهير:

بدا لي أني لستُ مُدْرِكَ ما مضى ولا سابقٍ شيئاً إذا كان جائيا

قال: فإنما جرُّوا هذا (أي: سابقٍ) لأن الأول (أي: مدركَ) قد يدخله الباء، فجاؤوا بالثاني وكأنهم قد أثبتوا في الأول الباء.

وقال الزركشي في البرهان ٤/ ١١٢ عند كلامه على وجوه تخريج الجزم في «وأكنْ»: والتحقيق قول سيبويه: هو على توهُّم أن الفاء لم ينطق بها، واعلم أن بعضهم قد شنَّع القول بهذا في القرآن على النحويين وقال: كيف يجوز التوهم في القرآن؟! وهذا جهل منه بمرادهم؛ فإنه ليس المراد بالتوهم الغلط، بل تنزيل الموجود منه منزلة المعدوم ـ كالفاء في قوله تعالى: «فأصدقَ» ـ ليبنى على ذلك ما يقصد من الإعراب.

(٢) كما في المحرر الوجيز ٢/ ٤٤١، وقيَّدها الزمخشري في الكشاف ٢/ ١٠٤بنصب الراء، وهي في القراءات الشاذة ص٤٥ دون تقييد برفع أو نصب.

(٣) القراءتان في المحرر الوجيز ٢/ ٤٤١.

(٤) كلا القولين مرويٌّ عن سليمان التيمي، كما في تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٣٨، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ١٥. والكلام من المحرر الوجيز ٢/ ٤٤١. والقول الأول أخرجه الطبري عن ابن عباس، والثاني أخرجه عن الحسن. تفسير الطبري ١٠/ ٣١٧.

ذلك، وجَعَلَ نفسَه الإلهَ الأعلى، فقوله على هذا: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] إنما هو بمناسبةٍ بينه وبين سواه من المعبودات(١).

قيل: كانوا قبطًا يعبدون الكواكبَ، ويزعمون أنها تستجيبُ دعاءَ مَن دعاها، وفرعونُ كان يدَّعي أن الشمس استجابت له وملَّكته عليهم.

وقرأ ابنُ مسعودٍ وعليٌّ وابنُ عباس وأنسٍ وجماعة غيرهم: «وإلهتكَ»(٢)، وفسَّروا ذلك بأمرين:

أحدهما: أن المعنى: وعبادتُك، فيكون إذ ذاك مصدرًا؛ قال ابن عباس: كان فرعون يُعبَدُ ولا يَعْبُدُ(٣).

والثاني: أن المعنى: ومعبودَك، وهي الشمسُ التي كان يعبدها، والشمسُ تسمَّى: إلهةَ، عَلَمًا عليها ممنوعةَ الصرف.

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ وإنما لم يعاجل موسى وقومَه بالقتال لأنه كان مُلِئَ من موسى رعبًا، والمعنى أنه قال: سنُعيد عليهم ما كنَّا فعلنا بهم قبلُ من قتل أبنائهم؛ ليَقِلَّ رَهْطُه الذين يقعُ الإفساد بواسطتهم، والفوقيةُ هنا بالمنزلة والتمكُّنِ في الدنيا، «وقاهرون» يقتضي تحقيرَهم، أي: قاهرون لهم(٤) فهم أقلُّ من أن نهتمَّ بهم(٥)، فنحن على ما كنَّا عليه من الغلبة، أو إنَّ غلبة موسى لا أثر لها في ملكنا واستيلائنا، ولئلا يتوهَّم العامةُ أنه المولودُ الذي تحدَّث المنجِّمون والكهنةُ بذهاب ملكنا على يده، فيثبِّطُهم ذلك عن طاعتنا، ويَدْعُوهم إلى اتِّباعه وأنه منتظَرٌ بعدُ.

وشدَّد «سنقتِّل» و«يقتِّلون» الكوفيون والعربيان وخفَّفهما نافعٌ، وخفَّف ابن كثير «سنَقْتُل» وشدَّد «ويقتِّلون»(٦).

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤١.
(٢) القراءات الشاذة ص٤٥، والمحتسب ١/ ٢٥٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٤١.
(٣) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٦٨-٣٦٩، وأخرج عنه أيضاً في الموضع نفسه أنه قال: «ويذرك وإلاهتك» قال: يترك عبادتك.
(٤) في (دا) والمطبوع: قهراً.
(٥) في (يه): نهتم لهم، وفي (زا): يهتم بهم.
(٦) السبعة ص٢٩١-٢٩٢، والتيسير ص١١٢-١١٣.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ لمَّا توعَّدهم فرعونُ جَزِعوا وتضجَّروا، فسكَّنهم موسى عليه السلام، وأمرهم بالاستعانة بالله وبالصبرِ، وسَلَّاهم ووعَدَهم النصرَ، وذكَّرهم ما وَعَدَ الله بني إسرائيل من إهلاك القِبْطِ وتوريثِهم أرضَهم وديارَهم: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: أرض مصر، و«أل» فيه للعهد، وهي الأرضُ التي كانوا فيها.

وقيل: «الأرض» أرضُ الدنيا، فهي على العموم.

وقيل: المراد: أرض الجنة؛ لقوله: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤].

وتعدَّى «استعينوا» هنا بالباء، وفي﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ بنفسه، وجاء: «اللهم إنَّا نستعينك»[١].

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾ قيل: النصرُ والظَّفَرُ. وقيل: الدارُ الآخِرة. وقيل: السعادةُ والشهادة. وقيل: الجنة.

وقال الزمخشري: الخاتمةُ المحمودةُ للمتقين منهم ومن القِبْط، وإنَّ المشيئة متناوِلةٌ لهم[٢]. انتهى.

وقرأت فرقة: «يُوْرَثُها» بفتح الراء[٣].

وقرأ الحسن: «يورِّثها» بتشديد الراء على المبالغة، ورُويت عن حفص[٤].

وقرأ ابن مسعود وأبيٌّ: و«العاقبةَ» بالنصب عطفًا على «إنَّ الأرض»[٥].

وفي وَعْدِ موسى تبشيرٌ لقومه بالنصر وحُسْنِ الخاتمة، ونتيجةُ طلبِ الإعانة

(١) قطعة من قنوت عمر وعلي وأبي بن كعب ﷺ، أخرج ذلك عنهم عبد الرزاق (٤٩٦٨) و(٤٩٦٩) و(٤٩٧٠) و(٤٩٧٨).

(٢) الكشاف ٢/ ١٠٥.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٢، وجاء في القراءات الشاذة ص٤٥: «يُورَثُها مَن تشاء»: ابن أبي ليلى.

(٤) القراءات الشاذة ص٤٥، والمحرر ٢/ ٤٤٢.

(٥) ينظر التعليق السابق.

توريثُ الأرض لهم، ونتيجةُ الصبر العاقبةُ المحمودةُ والنصرُ على مَن عاداهم، فلذلك كان الأمر بشيئين ينتج عنهما شيئان.

قال الزمخشريُّ: فإن قلتَ: لمَ أُخليت هذه الجملةُ عن الواو وأُدخلت على الذي قبلها؟ قلتُ: هي جملةٌ مبتدأةٌ مستأنفةٌ، وأمَّا: «وقال الملأ» فمعطوفةٌ على ما سَبَقها من قوله: «قال الملأُ من قوم فرعون»[١]. انتهى.

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ أي: بابتلائنا بذبح أبنائنا مخافةَ ما كان يَتوقَّعُ فرعونُ من هلاك مُلْكِه على يد المولود الذي يولَدُ منَّا، «من قَبْلِ أن تأتينا»، قال الزمخشريُّ: من قَبْلِ مولد موسى إلى أنْ استُنْبِئ[٢]، «ومن بعد ما جئتنا»: إعادةُ ذلك عليهم، قاله ابن عباس[٣]، وزاد الزمخشريُّ: وما كانوا يُستعبدون به ويُمتهنون فيه من أنواع الخدم والمهن، ويُمسُون به من العذاب[٤]. انتهى.

وقال ابن عطية: والذي من بعد مجيئه يَعْنُون به وعيدَ فرعون وسائرَ ما كان خلال تلك المدَّة من الإخافة لهم[٥].

وقال الحسن: بأَخْذِ الجزية منهمْ قبل بَعْثِ موسى إليهم، وبعد بَعْثِه ما زاد على ذلك.

وقال الكلبي: كانوا يَضربون له اللَّبِنَ، ويعطيهم التبنَ، فلما جاء موسى غرَّمهم التبنَ، وكان النساء يَغْزِلْن له الكتانَ ويَنْسُجْنَه.

وقال جُوَيْبِر: استسخرهم من قبل إتيان موسى في أول النهار إلى نصف النهار، فلمَّا جاء موسى استسخرهم النهار كلَّه بلا طعامٍ ولا شراب.

وقال علي بن عيسى: من قبلُ بالاستعباد وقتلِ الأولاد، ومن بعدُ بالتهديد والإبعاد. ورُوي مِثْلُه عن عِكْرِمة.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تفسير البغوي ٢/ ١٩٠.
(٤) الكشاف ٢/ ١٠٥.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٢.

وقيل: من قبل أن تأتينا بعهد الله بالخلاص، ومن بعد ما جئتنا به، قالوه في معرض الشكوى من فرعون واستعانةً عليه بموسى[١].

وقال ابن عباس والسدِّي: قالوا ذلك حين اتَّبعهم فرعون واضْطَرَّهم إلى البحر، فضاقت صدورُهم ورأوا بحرًا أمامهم وعدوًّا كثيفًا وراءهم[٢]، لمَّا أسرى بهم موسى حتى هجموا على البحر، التفتوا فإذا هم بِرَهَج دوابِّ فرعون، فقالوا هذه المقالة، وقالوا: هذا البحر أمامنا وهذا فرعونُ وراءنا قد رَهِقَنا بمن معه[٣]. انتهى.

وهذا القولُ فيه بعدٌ، وسياقُ الآيات يدلُّ على الترتيب، وقد جاء بعد هذه: «ولقد أخذنا آلَ فرعون بالسنين».

قال ابن عطية: وهو كلامٌ يجري مع المعهود من بني إسرائيلَ: من اضطرابهم على أنبيائهم، وقلَّةِ يقينهم وصبرِهم على الدِّين[٤]. انتهى.

قيل: ولا يدلُّ قولُهم ذلك على كراهة مجيءِ موسى؛ لأنَّ ذلك يؤدِّي إلى الكفر، وإنما قالوه لأنه كان وَعَدَهم بزوال المضارِّ، فظنُّوا أنها تَزول على الفور، فقولهم ذلك استعطافٌ لا نُفرةٌ.

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ هذا رجاءٌ من نبيِّ الله موسى عليه السلام، ومِثْلُه من الأنبياء يُقوِّي قلوبَ أتباعهم فيصبرون إلى وقوع متعلَّق الرّجاء، ولا تَنَافيَ بين هذا الرجاء وبين قوله: «والعاقبةُ للمتقين» مِن حيث إنَّ الرجاء غيرُ مقطوعٍ بحصول متعلَّقِهِ، والإخبارَ بأنَّ العاقبة للمتقين واقعٌ لا محالة ـ لأنَّ العاقبة إن كانت في الآخِرة فظاهرٌ جدًّا عدمُ التنافي، وإنْ كانت في الدنيا فليس فيها تصريحٌ بعاقبة هؤلاء القوم المخصوصين، فسَلك موسى طريقَ الأدب مع الله، وساق الكلامَ مَساقَ الرجاء.

---

(١) ذكر هذه الأقوال عدا قول عكرمة الماورديُّ في النكت والعيون ٢/ ٢٤٩-٢٥٠.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٢.
(٣) من قوله: لما أسرى بهم موسى...، إلى هنا هو لفظ خبر ابن عباس عند الطبري ١٠/ ٣٧٣.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٢.

وقال التبريزي: يحتمل أن يكون قد أُوْحِيَ بذلك إلى موسى فـ«عسى» للتحقيق، أو لم يُوْحَ فيكون على الترجِّي منه.

قال الزمخشري: تصريحٌ بما رَمَزَ إليه من البشارة قبلُ، وكشفٌ عنه، وهو إهلاكُ فرعونَ واستخلافُهم بعده في أرض مصر[١].

وقال ابن عطية: واستعطافُ موسى لهم بقوله: «عسى ربُّكم أن يُهلك عدوَّكم» ووَعْدُه لهم بالاستخلاف في الأرض، يدلُّ على أنه يستدعي نفوسًا نافرةً، ويُقوِّي هذا الظنَّ في جهةِ بني إسرائيلَ سلوكُهم هذه السبيلَ في غير قصة[٢].

و«الأرض» هنا: أرضُ مصر؛ قاله ابن عباس[٣]. وقد حقَّق الله هذا الرجاءَ بوقوع متعلَّقه، فأغرقَ فرعون وملَّكهم مصر زمانَ داودَ وسليمان.

وقيل: أرضُ الشام، فقد فتحوا بيتَ المقدس مع يُوْشَعَ ومَلَكوا الشامَ زمانَ داودَ وسليمان.

ومعنى «فينظر كيف تعملون» أي: في استخلافكم من الإصلاح والإفساد، وهي جملةٌ تجري مجرى البعث والتحريض على طاعة الله تعالى، وفي الحديث: «إن الدنيا حلوةٌ خَضِرة، وإنَّ الله مستَخْلِفُكم فيها فناظرٌ كيف تعملون»[٤].

وقال الزمخشريُّ: فيرى الكائنَ منكم من العمل حَسَنِه وقبيحِه، وشكرَ النعمة وكفرانَها، ليجازيَكم على حسب ما يوجد منكم[٥]. انتهى، وفيه تلويح الاعتزال.

ودخل عمرو بنُ عبيد ـ وهو أحدُ كبار المعتزلة وزُهَّادِهم ـ على المنصور ثاني خلفاءِ بني العباس قبل الخلافة وعلى مائدته رغيفٌ أو رغيفان، فطلب زيادةً لعمرٍو

(١) الكشاف ٢/ ١٠٥.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٢.
(٣) زاد المسير ٣/ ٢٤٦.
(٤) قطعة من حديث أخرجه مسلم (٢٧٤٠) عن أبي سعيد الخدري ﵁.
(٥) الكشاف ٢/ ١٠٥.

فلم توجد، فقرأ عمرو هذه الآية، ثم دخل عليه بعدما استُخْلِفَ فذكر له ذلك، وقال: قد بقي: «فينظرَ كيف تعملون»[١].

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ الأخذ: التناولُ باليد، ومعناه هنا: الابتلاءُ في المدَّة التي كان أقام بينهم موسى يدعوهم إلى الله، ومعنى «بالسنين» بالقُحُوط والجُدوب، والسنةُ تُطْلَقُ على الحول وتُطلق على الجَدْب ضدِّ الخِصْبِ، وبهذا المعنى تكون من الأسماء الغالبة كالنجم والدَّبَران[٢]، وقد اشتقُّوا منها بهذا المعنى فقالوا: أَسْنَتَ القومُ: إذا أَجْدَبوا، ومنه قولُه:

ورجالُ مكةَ مُسْنِتونَ عِجافُ[٣]

أي: مجدبون. وقال حاتم:

فإنَّا نُهينُ المالَ من غيرِ ضِنَّةٍ ... ولا يَشْتكينا في السنين ضَرِيرُها[٤]

وفي «سنين» لغتان: شُهْراهما إعرابُها بالواو رفعًا والياء جرًّا ونصبًا، وقد تكلَّف النحاةُ علةً لكونها جُمعت هذا الجمعَ، والأخرى جَعْلُ الإعراب في النون والتزامُ الياء في الأحوال الثلاثة، نقلها أبو زيد والفرَّاء[٥]، وقال الفرَّاء: هي في هذه اللغة

---

(١) المصدر السابق، وروى ابن الجوزي في المنتظم ٧/ ٣٣٩ نحو هذه القصة على أنها جرت بين عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي والمنصور.

(٢) النجم: الثريا، وأصله: نجم، لواحد النجوم، ثم أُدخل عليه الألف واللام، فقالوا: النجم، لأيِّ نجم كان؛ بين المتخاطبَيْنِ فيه عهدٌ، ثم غلب على الثريا لكثرة الاستعمال، وكذلك الدبران أصله مأخوذ من دبر: إذا تأخر، ثم غلب على نجم مخصوص، وسمي دَبَرانًا لأنه يَدْبُر الثريا، وهو من منازل القمر، وزعموا أن الدبران جاء خاطبًا للثريا وساق مهرها كواكب صغارًا معه تسمى: القلاص. ينظر شرح المفصل لابن يعيش ١/ ٤١-٤٢، واللسان (دبر).

(٣) وصدره: عمرو الذي هشم الثريد لقومه، وينسب لعبد الله بن الزِّبَعْرَى، وهو في ملحقات ديوانه ص٥٣، ونسب أيضاً لمطرود بن كعب الخزاعي، كما في المنمَّق لابن حبيب ص١٢، والاشتقاق ص١٣. وعمرو هو هاشم بن عبد مناف، وهو أول من أطعم الثريد بمكة، وسمي هاشماً لهشمه الخبز بمكة لقومه. السيرة النبوية ١/ ١٣٦.

(٤) ديوان حاتم ص٦٢.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٩٢.

مصروفةٌ عند بني عامر وغير مصروفة عند تميم[١]. والكلامُ على ذلك أَمْعَنُ في كتب النحو.

وكان هذا الجدبُ سبعَ سنين، قال ابن عباس وقتادةُ: أمَّا السِّنون فكانت لباديتهم ومواشيهم، وأما نقصُ الثمرات فكان في أمصارهم[٢]. وهذه مسيرةُ الله في الأمم يبتليها بالنِّقم ليَزْدَجِروا ويتذكَّروا بذلك ما كانوا فيه من النِّعم، فإن الشدة تجلبُ الإنابةَ والخشيةَ ورقَّةَ القلب، والرجوعَ إلى طلب لطفِ الله وإحسانه، وكذا فُعِلَ بقريشٍ حين دعا عليهم رسول الله ﷺ: «اللهم اجعلها عليهم سنينَ كسِني يوسف»[٣]، ورُوي أنه يبس لهم كلُّ شيءٍ حتى نيلُ مصر، ونُقِصوا من الثمرات حتى كانت النخلةُ تحملُ الثمرةَ الواحدة.

ومعنى «لعلهم يذَّكَّرون»: رجاءَ لِتَذَكُّرهم وتَنَبُّهِهم، على أنَّ ذلك الابتلاءَ، إنما هو لإصرارهم على الكفر وتكذيبهم بآيات الله فيَزْدَجِروا.

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ ابْتُلُوا بالجَدْب ونقصِ الثمرات رجاءَ التذكُّر فلم يقع المرجوُّ، وصاروا إذا أَخْصَبوا وصحُّوا قالوا: نحن أحقَّاءُ بذلك، وإذا أصابهم ما يَسوؤُهم تشاءَموا بموسى وزعموا أنَ ذلك بسببه. واللامُ في «لنا» قيل: للاستحقاق، كما تقول: السَّرْجُ للفَرَس.

وتَشاؤُمُهم بموسى ومَن معه معناه أنه: لولا كونُهم فينا لم يُصِبْنا، كما قال الكفَّار للرسول عليه الصلاة والسلام: هذه من عندك، في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء: ٧٨]، وأتى الشرط بـ«إذا» في مجيء الحسنة ـ وهي لِمَا تُيُقِّنَ وجودُه ـ لأن إحسان الله هو المعهودُ الواسعُ العامُّ لخلقِه بحيث إن إحسانه لخلقه عامٌّ حتى في حال الابتلاء، وأتى الشرطُ بـ«إن» في إصابة السيئة ـ وهي للممكن ـ إبرازًا أنَّ إصابة السيئة ممَّا قد يقع وقد لا يقع، وجِهَةُ رحمة الله أوسع.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٤٥، وفيه: وحكى الفراء عن بني عامر أنهم يقولون: أقمت عنده سنينًا يا هذا، مصروفًا، قال: وبنو تميم يقولون: مضت له سنينُ يا هذا.

(٢) أخرجه عن قتادة الطبري ١٠/ ٣٧٥، وذكره عن ابن عباس الزمخشري ٢/ ١٠٥.

(٣) أخرجه البخاري (٨٠٤)، ومسلم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الزمخشري: فإن قلتَ: كيف قيل: «فإذا جاءتهم الحسنةُ» بـ«إذا» وتعريفِ الحسنة، «وإن تُصِبْهم سيئة» بـ«إنْ» وتنكير السيئة؟ قلتُ: لأنَّ جنسَ الحسنة وقوعُه كالواجب لكثرته واتِّساعه، وأمَّا السيئة فلا تقع إلا في النُّدْرة، ولا يقعُ إلا يسيرٌ منها، ومنه قولُ بعضهم: وقد عَدَدْتَ أيام البلاء فهلَّا عَدَدْتَ أيام الرخاء[1]. انتهى.

وقرأ عيسى بنُ عمر وطلحةُ بنُ مصرِّفٍ: «تَطيرَّوا» بالتاء وتخفيف الطاء فعلًا ماضيًا[2]، وهو جوابُ «وإنْ تُصبهم»، وهذا عند سيبويه مخصوصٌ بالشعر، أعني: أن يكون فعلُ الشرط مضارعًا وفعلُ الجزاء ماضيَ اللفظ، نحو قول الشاعر:

مَن يَكِدْني بسيِّئ كنتُ منه ... كالشَّجا بين حَلْقِه والوريدِ[3]

وبعضُ النحويين يجوِّزُه في الكلام. وما رُوي من أن مجاهدًا قرأ: «تشاءَموا»[4] مكان «يطَّيَّروا» فينبغي أن يُحمل ذلك على التفسير لا على أنه قرآن؛ لمخالفته سوادَ المصحف.

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ قال ابن عباس: «طائرُهم»: نَصيبهم، أي: ما طار لهم في القَدَر ممَّا هم لاقُوه، وهو مأخوذٌ من زَجْرِ الطير، سمِّي ما عند الله من القَدَر للإنسان طائرًا لمَّا كان يَعْتقِدُ أنَّ كلَّ ما يصيبه إنما هو بحسب ما يراه في الطائر، فهي لفظةٌ مستعارةٌ، قاله ابن عطية[5].

وقال الزمخشري: أي: سببُ خيرِهم وشرِّهم عند الله تعالى، وهو حُكْمُه ومشيئتُه، والله تعالى هو الذي يشاءُ ما يُصيبهم من الحسنة والسيئة، وليس شؤمُ أحدٍ ولا يُمْنُه بسببٍ فيه، كقوله تعالى: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [النساء: ٧٨]، ويَجوزُ أن يكونَ معناه: أَلَا إنما سببُ شؤمهم عند الله، وهو عملُهم المكتوبُ عنده يُجْرَى

(١) الكشاف ٢/١٠٦، وفيه: ... فهل، بدل: فهلا.
(٢) المحرر الوجيز ٢/٤٤٣، وينظر القراءات الشاذة ص٤٥، وقد وقع في مطبوعه: «تَطِيروا».
(٣) البيت لأبي زبيد الطائي النصراني كما في الخزانة ٩/٧٦، وهو دون نسبة في المقتضب ٢/٥٩، والمقرب ١/٢٧٥.
(٤) المحرر الوجيز ٢/٤٤٣.
(٥) المصدر السابق، وأخرج الطبري ١٠/٣٧٧ عن ابن عباس أنه فسَّر «طائرهم» بقوله: مصائبهم عند الله.

عليهم ما يسوءُهم لأَجْله، ويعاقَبون له بعد موتهم بما وَعَدهم الله تعالى في قوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾الآية [غافر: ٤٦] ولا طائرَ أشأمُ من هذا[١].

وقرأ الحسن: «ألَا إنَّما طَيْرُهم»[٢].

وحَكَم بنفي العلم على[٣] أكثرهم لأنَّ القليل منهم عَلِمَ، كمؤمنِ آلِ فرعون، وآسيةَ امرأةِ فرعون، وقال ابن عطية: ويحتمل أن يكون الضمير في «طائرهم» الضمير[٤] العالَم، ويجيء تخصيصُ الأكثر على ظاهره، ويحتملُ أن يريد: ولكنَّ أكثرهم ليس قريبًا أن يعلمَ لانغمارهم في الجهل، وعلى هذا فيهم قليلٌ معدٌّ لأنْ يعلمَ لو وفَّقه الله. انتهى، وهما احتمالان بعيدان، وأبعدُ منه قوله: وإمَّا أن يراد الجميع، وتُجوِّز في العبارة[٥].

﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ الضمير في «وقالوا» عائدٌ على «آل فرعون»، لم يَزِدْهم الأخذُ بالجدوب ونقصِ الثمرات، إلا طغيانًا وتَشَدُّدًا في كفرهم وتكذيبهم، ولم يكتفوا بنسبةِ ما يُصيبهم من السيئات إلى أنَّ ذلك بسبب موسى ومَن معه، حتى واجَهوه بهذا القولِ الدالِّ على أنه لو أَتَى بما أَتَى من الآيات فإنهم لا يؤمنون بها، وأتوا بـ«مهما» التي تقتضي العمومَ ثم فسَّروا بـ«آية» على سبيل الاستهزاء في تسميتهم ذلك آيةً، كما قالوا في قوله: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧] وتسميتُهم[٦] لها بـ«آية» أي: على زَعْمِك، ولذلك علَّلوا الإتيان بقولهم: «لتسحرنا بها»، وبالغوا في انتفاء الإيمان بأنْ صدَّروا الجملة بـ«نحن»، وأَدْخلوا الباءَ في بـ«مؤمنين»، أي: إنَّ إيماننا لك لا يكون أبدًا.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٦.
(٢) القراءات الشاذة ص٤٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٤٣.
(٣) في (أ) و(د١) و(ع): عن، والمثبت من باقي النسخ، وكلاهما صواب، فـ«على» متعلقة بـ«حكم»، و«عن» تتعلق بـ«نفي».
(٤) في المحرر: لجميع.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤١٣.
(٦) في النسخ الخطية: وتسميه، والمثبت من النهر على هامش مطبوع البحر ٤/ ٣٧٠.

و«مهما» مرتفعٌ بالابتداء، أو منتصبٌ بإضمار فعلٍ يفسِّرُه فعلُ الشرط، فيكون من باب الاشتغال، أي: أيَّ شيءٍ تُحْضِر تأتنا به، والضمير في «به» عائدٌ على «مهما»، وفي «بها» عائدٌ أيضًا على معنى «مهما»؛ لأنَّ المراد به: أيَّة آيةٍ، كما عاد على «ما» في قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] وكما قال زهير:

ومهما تَكُنْ عند امرئ من خليقةٍ وإنْ خالها تَخفَى على الناس تُعْلَم[(١)]

فأنَّث على المعنى.

قال الزمخشري: وهذه الكلمة في عداد الكلمات التي يُحرِّفها مَن لا يدَ له في علم العربية فيضعُها غيرَ موضعها، ويحسب «مهما» بمعنى «متى ما»، ويقول: مهما جئتني أعطيتُك، وهذا من وَضْعِه وليس من كلام واضعِ العربية في شيء، ثم يذهب فيفسِّر «مهما تأتنا به من آية» بمعنى الوقتِ، فيُلْحِدُ في آيات الله تعالى وهو لا يشعر، وهذا وأمثالُه مما يوجبُ الجثوَّ بين يدي الناظر في كتاب سيبويه[(٢)]. انتهى.

وهذا الذي أنكره الزمخشريُّ من أنَّ «مهما» لا تأتي ظرفَ زمانٍ قد ذهب إليه ابن مالك، ذكره في «التسهيل»[(٣)] وفي غيرِه من تصانيفه، إلَّا أنه لم يَقْصُر مدلولَها على أنها ظرفُ زمانٍ، بل قال: وقد تَرِدُ «ما» و«مهما» ظرفي زمانٍ، وقال في أرجوزته الطويلة المسمَّاة بـ: «الشافية الكافية»:

وقد أتت «مهما» و«ما» ظرفين في شواهِدَ مَن يَعتضِدْ بها كُفي

وقال في شرح هذا البيت: جميعُ النحويين يجعلون «ما» و«مهما» مثلَ «مَنْ» في لزوم التجرُّدِ عن الظرف، مع أنَّ استعمالهما ظرفين ثابتٌ في أشعار الفُصحاء من العرب[(٤)]. وأنشد أبياتًا عن العرب زعم فيها أنَّ «ما» و«مهما» ظرفا زمانٍ، وكفانا

(١) ديوان زهير ص٣٢، والكشاف ٢/ ١٠٧، وكلام الزمخشري أوضح من كلام المصنف، حيث قال: والضميران في «به» و«بها» راجعان إلى «مهما»، إلا أن أحدهما ذكّر على اللفظ، والثاني أنّث على المعنى؛ لأنه في معنى الآية، ونحوُه قولُ زهير...

(٢) الكشاف ٢/ ١٠٧.

(٣) ص٢٣٦.

(٤) شرح الكافية الشافية ٣/ ١٦٢٥.

الردَّ عليه فيها ابنُه الشيخُ بدرُ الدِّين محمدٌ(١)، وقد تأوَّلْنا نحن بعضَها، وذكَرْنا ذلك في كتاب «التكميل لشرح التسهيل» من تأليفنا، وكفاه ردًّا نقلُه عن جميع النحويين خلافَ ما قاله، لكن مَن يعاني عِلْمًا يحتاج إلى مثوله بين يدي الشيوخ.

وأمَّا مَن فسَّر «مهما» في الآية بأنها ظرفُ زمانٍ فهو كما قال الزمخشريُّ: مُلْحِدٌ في آيات الله.

وأمَّا قولُ الزمخشريّ: وهذا وأمثالُه... إلى آخر كلامه، فهو يدلُّ على أنه جثا بين يدي الناظر في «كتاب» سيبويه، وذلك صحيحٌ؛ رَحَلَ من خُوارزم في شَبِيبَته(٢) إلى مكةَ شَرَّفها الله تعالى لقراءة «كتاب» سيبويه على رجلٍ من أصحابنا من أهل جزيرة الأندلس كان مجاوِرًا بمكة شرَّفها الله، وهو الشيخُ الإمامُ العلَّامةُ المشاوَرُ أبو بكرٍ عبدُ الله بنُ طلحةَ بنِ محمد بنِ عبد الله الأندلسيُّ(٣)، من أهل يابُرَةَ من بلاد جزيرة الأندلس، فقرأ عليه الزمخشريُّ جميعَ «كتاب» سيبويه، وأخبره به قراءةً عن الإمام الحافظ أبي عليٍّ الحسين بن محمد بن أحمد الغسَّاني الجَيَّاني(٤)، قال: قرأتُه على أبي مروان عبد الملك بن سراج بن عبد الله بن سراج القرطبي(٥)، قال: قرأته على أبي القاسم بن الإفليلي(٦)، عن أبي عبد الله

---

(١) ينظر رده على والده في شرح التسهيل ٣/ ٤٤٠-٤٤١، وهو ضمن القسم الذي أكمل به الشيخ بدر الدين شرح والده لكتابه التسهيل.

(٢) في (أ) والمطبوع: شيبته، وهو تحريف، والمثبت من (ز١) و(ع)، وسقطت من باقي النسخ.

(٣) نحويٌّ أصوليٌّ فقيهٌ، روى عن أبي الوليد الباجي، ردَّ على ابن حزم، وقرأ عليه الزمخشري أيضاً شرح رسالة ابن أبي زيد، توفي سنة (٥١٨هـ). البغية ٢/ ٤٦.

(٤) محدث الأندلس، صاحب كتاب: تقييد المهمل، حدث عن ابن عبد البر وأبي الوليد الباجي وغيرهما، ولم يرحل من الأندلس، وكان مقدَّماً في الآداب والشعر والنسب، توفي سنة (٤٩٨هـ). السير ١٩/ ١٤٨.

(٥) الأموي مولاهم، المحدث اللغوي، عكف على كتاب سيبويه ثمانية عشر عاماً لا يَعرف سواه، عاش تسعة وثمانين عاماً، وتوفي سنة (٤٨٩هـ). السير ١٩/ ١٣٣، والبغية ٢/ ١١٠.

(٦) إبراهيم بن محمد بن زكريا، القرشي الزهري، من أحفاد سعد بن أبي وقاص ﷺ، المعروف بالإفليلي، من أهل قرطبة، ومن أئمة النحو واللغة، توفي سنة (٤٤١هـ). والإفليل قرية بالشام كان أصله منها. وفيات الأعيان ١/ ٥١.

محمد بن عاصم العاصِميّ(١)، عن الرَّباحي(٢) بسنده(٣).

وللزمخشريِّ قصيدٌ يمدحُ به سيبويه وكتابَه، وهذا يدلُّ على أنه ناظِرٌ في «كتاب» سيبويه، بخلافِ ما كان يعتقدُ فيه بعضُ أصحابنا من أنه إنما نَظَرَ في نُتَفٍ من كلام أبي عليٍّ الفارسيِّ وابن جنِّي، وقد صنَّف أبو الحجَّاج يوسفُ بنُ مغروزٍ(٤) كتابًا في الردِّ على الزمخشري في كتاب «المفصَّل» والتنبيهِ على أغلاطه التي خالَفَ فيها إمامَ الصناعة أبا بشرٍ عمرو بن عثمان سيبويه رَحِمَ اللهُ جميعَهم.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ قال الأخفش: الطُّوفان: جمعُ طُوفانة عند البصريين، وهو عند الكوفيين مصدرٌ كالرُّجْحَان(٥).

وحكى أبو زيد في مصدر طاف: طَوْفًا وطَوافًا، ولم يَحْكِ طُوفانًا، وعلى تقديرِ كونه مصدرًا فلا يرادُ به هنا المصدر؛ قال ابن عباس: هو الماء المُغْرِقُ. وقال قتادةُ والضحاك وابن جُبيرٍ وأبو مالكٍ ومقاتلٌ: هو المطر أُرسِلَ عليهم دائمًا الليلَ

---

(١) الأندلسي من أهل قرطبة، نحوي مشهور وإمام في العربية، توفي سنة (٣٨٢هـ). البغية ١٢٣/١.

(٢) محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي الأندلسي النحوي، أصله من جَيَّان، كان إماماً في اللغة لا يقصر عن أكابر أصحاب المبرد، فقيهاً شاعراً مشهوراً، أخذ عن ابن الأعرابي والنحاس وابن ولَّاد، توفي سنة (٣٥٢هـ). البغية ١/ ٢٦٢.

(٣) قال الرباحي: حدثني به أبو القاسم عبد الله بن محمد بن الوليد بن ولاد التميمي، عن أبيه، عن محمد بن يزيد المبرد، عن أبي عثمان المازني وعن أبي عمر الجَرْمي، كلاهما عن أبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش، عن سيبويه.
قال الرباحي: وحدثني به أيضاً أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس، عن أبي إسحاق الزجاج، عن أبي العباس المبرد بسنده المتقدم. ينظر فهرسة ما رواه ابن خير الإشبيلي عن شيوخه ص٣٠٦.

(٤) نحوي أديب جليل، أخذ العربية عن أبي إسحاق بن ملكون والسهيلي وروى عنهما، وله: شرح الإيضاح للفارسي، والرد على الزمخشري في مفصله، وغير ذلك، توفي بمُرْسية في حدود سنة (٦٢٥هـ). البغية ٢/ ٣٦٢.

(٥) ينظر معاني القرآن للأخفش ٢/ ٥٣١، وتفسير الطبري ١٠/ ٣٨١، وقوله: عند البصريين... إلخ، من كلام الطبري وليس من كلام الأخفش.

والنهارَ ثمانيةَ أيام[١]. واختاره الفرَّاءُ وابنُ قتيبة[٢].

وقيل: ذلك مع ظُلْمةٍ شديدةٍ لا يرون شمسًا ولا قمرًا، ولا يَقْدِرُ أحدٌ أن يَخْرُجَ من داره.

وقيل: أُمْطِروا حتى كادوا يهلكونَ وبيوتُ القِبْطِ وبني إسرائيلَ مشتبكةٌ، فامتلأت بيوتُ القبط ماءً حتى قاموا فيه إلى تراقيهم، فَمَنْ جلس غرق، ولم يدخل بيوتَ بني إسرائيلَ قطرةٌ، وفاض الماء على وجه أرضهم وركَدَ، فمنعهم من الحرث والبناء والتصرُّف، ودام عليهم سبعةَ أيام[٣].

وقيل: طمَّ فيضُ النيل عليهم حتى ملأ الأرض سهلًا وجبلًا.

وقال ابن عطية[٤]: هو عامٌّ في كلِّ شيء يَطُوف، إلَّا أنَّ استعمال العرب له أكثرُ في الماء والمطر الشديد، ومنه قولُ الشاعر:

غَيَّر الجِدَّةَ من عِرْفانه ... خِرَقُ الريح وطُوفانُ المَطَرْ[٥]

وقال أبو النجم:

ومَدَّ طُوفانٌ مبيدٌ مَدَدا ... شهرًا شآبيبَ وشهرًا بَرَدا[٦]

وقال مجاهدٌ وعطاءٌ ووهبٌ وابن كثير: هو هنا الموتُ الجارِفُ. ورويته عائشةُ

---

(١) زاد المسير ٣/ ٢٤٨، وأخرج أقوالهم ـ دون قوله: ثمانية أيام ـ الطبري ١٠/ ٣٧٩ و٣٨٦ فما بعدها.

(٢) زاد المسير ٣/ ٢٤٨، وقول الفراء في معاني القرآن ١/ ٣٩٢، وقول ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن ص١٧١.

(٣) الكشاف ٢/ ١٠٧، وذكره القرطبي ٩/ ٣٠٩ بنحوه عن السدي.

(٤) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٣-٤٤٤.

(٥) البيت لحُسَيل بن عُرْفُطة كما في نوادر أبي زيد ص٧٧ ومطبوع الطبري ١٣/ ٥٣ (تحقيق محمود شاكر)، ووقع في نسخ الطبري: الحسن بن عرفطة، قال الشيخ محمود شاكر: وهو خطأ. وذكره دون نسبة الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٥٣١، وابن جني في المنصف ٢/ ٢٢٨، وجاء عند الأخفش: من آياتها، بدل: من عرفانه. قال أبو زيد: الخِرَق: القطع من الريح، وطوفان المطر: كثرته، وروى الأصمعي: خُرُق.

(٦) نقله ابن عطية عن الطبري ١٠/ ٣٨٢، وفيهما: خبث، بدل: مبيد. والبيت ليس في ديوان أبي النجم.

عن الرسول ﷺ[(١)]، ولو صحَّ وَجَبَ المصيرُ إليه.

ونُقل عن مجاهدٍ ووَهْبٍ أنه الطاعونُ بلغة اليمن[(٢)].

وقال أبو قِلَابَةَ: هو الجدري، وهو أولُ عذابٍ وقع فيهم فبقي في الأرض[(٣)].

وقيل: هو عذابٌ نزل من السماء فطاف بهم.

وروي عن ابن عباس أنه مُعمًّى عُني به: شيء أطافه الله بهم[(٤)].

فقالوا لموسى: ادْعُ لنا ربك يكشف عنَّا ونحن نؤمنُ بك، فدعا فرُفع عنهم فما آمنوا، فنبت لهم في تلك السنة من الكلأ والزرع ما لم يُعْهَدْ مِثْلُه، فأقاموا شهرًا فبعث الله تعالى عليهم الجراد فأكلت عامةَ زرعهم وثمارِهم، ثم أكلت كلَّ شيءٍ حتى الأبوابَ وسقوفَ البيوت والثيابَ، ولم يدخل بيوتَ بني إسرائيلَ منها شيء، ففزعوا إلى موسى ووَعَدوه التوبةَ، فكُشِفَ عنهم بعد سبعة أيام، وخرج موسى عليه السلام إلى الفضاء فأشار بعصاه نحوَ المَشْرِق والمغرب، فرجع الجرادُ إلى النواحي التي جئْنَ منها، فقالوا: ما نحن بتاركي ديننا، فأقاموا شهرًا وسلَّط الله عليهم القمَّل[(٥)]، قال ابن عباس ومجاهدٌ وقتادةُ وعطاءٌ: هو الدَّبَى، هو صغارُ الجراد قبل أن تَنْبُتَ له أجنحةٌ ولا يطير[(٦)].

---

(١) زاد المسير ٣/ ٢٤٩، وأخرجه عنهم الطبري ١٠/ ٢٨٠-٢٨١، وابن كثير هو عبد الله بن كثير. وحديث عائشة ﵂ قال عنه ابن كثير عند تفسير هذه الآية: حديث غريب. قال الشيخ أحمد شاكر في حاشية الطبري ١٣/ ٥١: بل هو ضعيف؛ لضعف المنهال بن خليفة (أحد رجال الإسناد).

(٢) تفسير البغوي ٢/ ١٩١، وزاد المسير ٢/ ٢٤٩، وأخرجه عن مجاهد الطبري ١٠/ ٣٧٩ بلفظ: «الطوفان»: الماء والطاعون على كل حال.

(٣) الكشاف ٢/ ١٠٧، وأبو قلابة هو عبد الله بن زيد الجَرْمي.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٤، وأخرجه الطبري ١٠/ ٣٨١ بلفظ: أمر من أمر الله، الطوفان، ثم قرأ: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [القلم: ١٩].

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٠/ ٣٨٦ وما بعدها، والكشاف ٢/ ١٠٧، واللفظ له، وقد لخص فيه ما رواه الطبري وغيره من أخبار في هذه القصة.

(٦) تفسير الطبري ١٠/ ٣٨٣-٣٨٤، وزاد المسير ٣/ ٢٤٩.

وقال ابنُ جُبيرٍ عن ابن عباس: هو السوسُ الذي يقعُ في الحنطة[١].

وقال الحسنُ وابنُ جُبيرٍ: دوابُّ سودٌ صغارٌ.

وقال حبيب بنُ أبي ثابتٍ: هو الجِعْلان.

وقال أبو عبيدة: هو الحَمنان، وهو ضَرْبٌ من القِرْدان.

وقال عطاءٌ الخُراساني وزيد بن أسلم: هو القَمْلُ المعروف، وهو لغةٌ فيه. ويؤيِّده قراءةُ الحسن بفتح القاف وسكون الميم.

وقيل: هو البراغيثُ، حكاه ابنُ زيد[٢].

ورُوي أن موسى مشى إلى كَثيبٍ أَهْيَلَ فضربه بعصاه فانتشر كلُّه قُمَّلًا بمصر، فأكل ما أبقاه[٣] الجرادُ ولَحَسَ الأرضَ، وكان يدخل بين جلد القِبْطيِّ فيمصُّه[٤]، ويمتلئُ الطعامُ قمَّلًا، ويطحنُ أحدُهم عشرةَ أَجْرِبةٍ فلا يردُّ منها إلا يسيرًا، وسعى في أبشارهم وشعورهم وأهدابِ عيونهم وحواجبهم، ولزمت جلودَهم، فضجُّوا وفزعوا إلى موسى عليه السلام، فرُفع عنهم، فقالوا: قد تحقَّقْنا الآن أنك ساحرٌ، وعزَّةِ فرعون لا نصدِّقك أبدًا، فأرسل الله عليهم بعد شهرٍ الضفادعَ، فملأَتْ آنيتَهم وأطعمتَهم ومضاجِعَهم، ورمت بأنفسها في القدور وهي تغلي، وفي التنانير وهي تفورُ، وإذا تكلَّم أحدُهم وثبت إلى فيه ـ قال ابن جُبيرٍ: وكان أحدُهم يجلس في الضفادع إلى ذقنه[٥] ـ فقالوا لموسى: ارْحَمنا هذه المرةَ ونحن نتوبُ التوبةَ النصوحَ

(١) زاد المسير ٣/ ٢٤٩، وأخرجه الطبري ١٠/ ٣٨٣ بلفظ: هو السوس الذي يخرج من الحنطة.

(٢) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٠/ ٣٨٤-٣٨٥ و٣٩٧، وزاد المسير ٣/ ٢٤٩، وقول أبي عبيدة سلف عند شرح المفردات، وقراءة الحسن في القراءات الشاذة ص٤٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٤٤.

(٣) في (ب) و(د٣) و(ز١) و(يه): ألقاه، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الكشاف ٢/ ١٠٧، والكلام منه.

(٤) في (أ) و(د١) و(ع): وقميصه، والمثبت من باقي النسخ والكشاف، وفيه: وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيمصه.

(٥) قطعة من خبر طويل عن سعيد بن جبير أخرجه الطبري ١٠/ ٣٨٨.

ولا نعود، فأخذ عليهم العهودَ فكُشِف عنهم فنقضوا العهد، فأرسل الله عليهم الدَّم ـ قال الجمهور: صار ماؤهم دمًا، حتى إنَّ الإسرائيليَّ ليضعُ الماء في في القبطيِّ فيصيرُ في فيه دمًا ـ وعطش فرعونُ حتى أشفى على الهلاك فكان يمصُّ الأشجار الرَّطْبةَ فإذا مضغها صار ماؤها الطيبُ مِلْحًا أُجاجًا، وقال سعيد بن المسيب: سال عليهم النيلُ[(١)] دمًا.

وقال زيد بن أسلم: الدمُ هو الرُّعافُ سَلَّطه الله عليهم[(٢)].

ومعنى تفصيلِ الآياتِ: تبيينُها وإزالةُ إشكالِها، والتفصيلُ في الأجرام هو التفريقُ، وفي المعاني يرادُ به أنه فُرِّقَ بينها فاستبانت وامتاز بعضُها من بعضٍ، فلا يُشْكِلُ على العاقل أنها من آيات الله التي لا يقدرُ عليها غيرُه، وأنها عبرةٌ لهم ونقمةٌ على كفرهم.

وقال ابن قتيبة: سماها مفصَّلاتٍ لأن بين الآية والآية فصلًا من الزمان[(٣)].

قيل: كانت الآيةُ تمكثُ من السبت إلى السبت، ثم يَبْقَون عقيبَ رفعها شهرًا في عافية ـ وقيل: ثمانيةَ أيام ـ ثم تأتي الآيةُ الأخرى، وقال وهبٌ: كان بين كلِّ آيتين أربعون يومًا[(٤)].

وقال نوفٌ البكاليُّ: مَكَثَ موسى عليه السلام في آل فرعون بعد إيمانِ السَّحرةِ عشرين سنةً يُريهم الآيات[(٥)].

وحكمةُ التفصيل بالزمان أنه تُمتَحنُ فيه أحوالُهم: أَيَفُون بما عاهَدوا، أم ينكثون فتقومَ عليهم الحجة؟ وانتصب «آياتٍ مفصَّلات» على الحال.

والذي دلَّت عليه الآيةُ أنه أُرسل عليهم ما ذُكر فيها، وأمَّا كيفيةُ الإرسال،

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٧-١٠٨، وهذا ملخصٌ مما رواه الطبري ١٠/ ٣٨٦-٣٩٧ في هذه القصة عن ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير ومجاهدٍ وغيرهم.
(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٣٩٧.
(٣) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١٧١، وزاد المسير ٣/ ٢٥١.
(٤) زاد المسير ٣/ ٢٥١.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٤٩، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ٥٠.

ومكثِ ما أُرسل عليهم من الأزمان والهيئات، فمرجِعُه إلى النقل عن الأخبار الإسرائيليات، إذ لم يَثْبُتْ من ذلك في الحديث النبويِّ شيءٌ.

ومع إرسالِ خَمْس[1] الآيات استكبروا عن الإيمان وعن قبول أمر الله تعالى، «وكانوا قومًا مجرمين» إخبارٌ منه تعالى عنهم بإجترائهم على الله وعلى عباده.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ الظاهرُ أنَّ «الرجز» هنا هو ما كان أُرسل عليهم من الطُّوفان والجراد والقمَّل والضفادع والدم، فإنْ كان أُريدَ الظاهِرُ كان سؤالُهم موسى بعد وقوع جميعها لا بعد وقوع نوعٍ منها، ويحتمل أن يكون المعنى: ولمَّا وقع عليهم نوعٌ من الرجز، فيكون سؤالُهم قد تخلَّل بين نوعٍ ونوعٍ.

ومعنى «وقع عليهم»: نزل عليهم وثبت.

وقال قوم: «الرجزُ»: الطاعون؛ نزل بهم مات منهم في ليلةٍ سبعون ألفَ قبطيٍّ.

وفي قولهم: «ادعُ لنا ربَّك» وإضافةِ الربِّ إلى موسى عدمُ إقرارٍ بأنه ربُّهم، حيث لم يقولوا: ادعُ لنا ربَّنا. ومعنى «بما عَهِدَ عندك»: بما اختصَّكَ به فنبَّأك، أو: بما وصَّاك أن تدعو به ليُجيبك كما أجابك في الآيات، أو: بما استَوْدَعك من العلم.

والظاهرُ تعلُّق «بما عَهِدَ» بـ«ادع لنا ربَّك» ومتعلّق الدعاء محذوفٌ تقديره: ادعُ لنا ربَّك بما عهد عندك في كشف هذا الرِّجز، «ولئن كشفتَ» جوابٌ لقسم محذوفٍ في موضع الحال من «قالوا»، أي: قالوا ذلك مُقْسِمين: «لئن كشفت»، أو لقَسَمٍ محذوفٍ معطوفٍ، أي: وأقسموا لئن كشفتَ.

وجوَّز الزمخشريُّ وابنُ عطية وغيرُهما أن تكون الباء في «بما عَهِدَ عندك» باءَ القسم[2]، أي: قالوا: ادعُ لنا ربَّك في كشف الرِّجز مُقْسِمينَ بما عَهِدَ عندك لئن كشفت، أو: وأَقْسَموا بما عهد عندك لئن كشفتَ، والمعنى: لئن كشفتَ بدعائك.

---

(١) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: جنس، هو تصحيف.

(٢) الكشاف ٢/١٠٩، والمحرر الوجيز ٢/٤٤٥، وأجاز ذلك أيضاً أبو البقاء في الإملاء ١/٢٨٣.

وفي قولهم: «لنؤمننَّ لك» دلالةٌ على أنه طَلَبَ منهم الإيمانَ كما أنه طلب منهم إرسالَ بني إسرائيل، وقدَّموا الإيمان لأنه المقصودُ الأعظمُ الناشئُ منه الطواعيةُ، وفي إسناد الكشف إلى موسى حَيْدَةٌ عن إسناده إلى الله تعالى؛ لعدم إقرارهم بذلك.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ في الكلام حذفٌ دلَّ عليه المعنى، وهو: فدعا موسى فكُشِفَ عنهم الرجزُ، وأَسْنَدَ تعالى الكشفَ إليه لأنه هو الكاشفُ حقيقةً، فلمَّا كان من قولهم أسندوه إلى موسى، وهو إسنادٌ مَجازيٌّ، ولمَّا كان إخبارًا من الله أسنده تعالى إليه لأنه إسنادٌ حقيقيٌّ.

ولمَّا كان «الرجزُ» من جملةٍ أخرى غيرِ مقولةٍ لهم حَسُنَ إظهاره دون ضميرِه، وكان جائزًا أن يكون التركيب في غير القرآن: فلمَّا كشفناه عنهم.

ومعنى «إلى أجلٍ هم بالغوه» إلى حدٍّ من الزمان هم بالِغوه لا محالة، فيعذَّبون فيه لا ينفعهم ما تقدَّم لهم من الإمهال وكشفِ العذاب إلى حلوله؛ قاله الزمخشري[1].

وقال ابن عطية[2]: يريدُ به غايةُ كلِّ واحدٍ منهم بما يخصُّه من الهلاك والموت، هذا اللازمُ من اللفظ، كما تقول: أَخَّرْتُ كذا إلى وقتٍ كذا، وأنت لا تريد وقتًا بعينه، وقال يحيى بن سلام: الأجلُ هاهنا: الغرق. قال[3]: وإنما قال هذا القولَ لأنه رأى جمهورَ هذه الطائفة قد اتَّفق أنْ هَلكتْ غرقًا، فاعتقد أنَّ الإشارة هاهنا إنما هي إلى الغرق، وهذا ليس بلازمٍ لأنه لا بدَّ أنه مات منهم قبلَ الغرق عالمٌ، وهم ممَّن[4] أُخِّر وكُشف العذابُ عنهم إلى أجلٍ بَلَغه[5]. انتهى.

(١) في الكشاف ٢/ ١٠٩.
(٢) في المحرر ٢/ ٤٤٥.
(٣) أي: ابن عطية.
(٤) في (أ): ومنهم ممن، وفي (د١) و(ع) والمطبوع: ومنهم من، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في المحرر.
(٥) زاد في المحرر: ودخل في هذه الآية، فأين الغرق من هؤلاء؟ وأين هو ممن بقي بمصر ولم يغرق؟

وفي «التحرير»[(١)]: «إلى أجلٍ» إلى انقضاءِ مدَّة إمهالهم، وهي المدةُ المضروبةُ لإيمانهم. وقيل: الغرق. وقيل: الموت.

وإذا فسِّر الأجلُ بالموت أو بالغرق فلا يصحُّ كشف العذاب إلى ذلك الوقت، أي: وقتِ حصول الموت أو الغرق؛ لأنه قد تخلَّل بين الكشف والغرق أو الموت زمانٌ، وهو زمانُ النَّكْث، فينبغي أن يكون التقدير على هذا: إلى قُرْبِ أجلٍ هم بالغوه، أمَّا إذا كان الأجلُ هو المدَّةُ المضروبةَ لإيمانهم وإرسالِهم بني إسرائيل فلا يحتاج إلى حذفِ مضافٍ.

و«إلى أجلٍ» قالوا: متعلق بـ«كشفنا»، ولا يمكِنُ حملُه على التعلُّق به، لأنَّ ما دخلت عليه «لمَّا» ترتَّب جوابُه على ابتداء وقوعه، والغايةُ تُنافي التعليق على ابتداء الوقوع، فلا بدَّ من تعقُّل الابتداء والاستمرار حتى تتحقَّق الغاية، ولذلك لا تصحُّ الغاية في الفعل غير[(٢)] المتطاوِل، لا يقال: لمَّا قلتُ زيدًا إلى يوم الخميس جرى كذا، ولا: لمَّا وثبتُ إلى يوم الجمعة اتَّفق كذا.

وجَعَل بعضُهم «إلى أجلٍ» من تمام الرِّجز، أي: الرِّجْزَ كائنًا إلى أجلٍ، والمعنى أنَّ العذاب كان مؤجَّلًا، ويقوِّي هذا التأويلَ كونُ جواب «لمَّا» جاء بـ«إذا» الفجائية، أي: فلمَّا كشفنا عنهم العذابَ المقرَّرَ عليهم إلى أجلٍ فاجَؤوا بالنَّكْث، وعلى معنى تَغْيِيَةِ الكشفِ بالأجل المبلوغ لا تتأتَّى المفاجأةُ إلا على تأويل الكشف بالاستمرار المغيَّا، فتكون المفاجأةُ بالنكث إذ ذاك ممكنةً.

وقال الزمخشري: «إذا هم ينكثون» جوابُ «لمَّا» يعني: فلمَّا كشفنا عنهم فاجَؤوا النكثَ وبادَروه ولم يؤخِّروه، ولكنْ لمَّا كُشف عنهم نكثوا[(٣)]. انتهى.

ولا يمكنُ التغييةُ مع ظاهرِ هذا التقدير[(٤)].

---

(١) هو: التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير، لابن النقيب شيخ المؤلف، وقد أشار المصنف في المقدمة إلى أنه من مصادره في هذا الكتاب.

(٢) تحرفت في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع إلى: عن.

(٣) الكشاف ١/ ١٠٩.

(٤) يعني: فلا بد من تأويل الكشف بالاستمرار ـ كما تقدم ـ حتى يصح ذلك. الدر المصون ٥/ ٤٣٦.

و«هم بالغوه» جملةٌ في موضع الصفة لـ«أجلٍ»، وهي أفخمُ مِن الوصف بالمفرد؛ لتكرُّر الضمير[(١)]، فليس في حُسْنِ التركيب كالمفرد لو قيل في غير القرآن: إلى أجلٍ بالغيه.

ومجيءُ «إذا» الفجائية جوابًا لـ«لمَّا» ممَّا يدلُّ على أنَّ «لمَّا» حرفُ وجوبٍ لوجوب كما يقول سيبويه[(٢)]، لا ظرفٌ كما زعم بعضُهم؛ لافتقاره إلى عاملٍ فيه، والكلام تامٌّ لا يحتمل إضمارًا، ولا يعملُ ما بعد «إذا» الفجائيةِ فيما قبلها.

وقرأ أبو هاشم وأبو حَيْوَةَ «ينكِثون» بكسر الكاف[(٣)].

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ أي: أَحْلَلْنا بهم النقمةُ، وهي ضدُّ النعمة، فإن كان الانتقامُ هو الإغراقَ فتكون الفاءُ تفسيريةً، وذلك على رأي مَن أثبت هذا المعنى للفاء، وإلَّا كان المعنى: فأردنا الانتقامَ منهم، والباءُ في «بأنهم» سببية. والآياتُ هي المعجزاتُ التي ظهرت على يد موسى عليه السلام.

والظاهرُ عَوْدُ الضمير في «عنها» إلى الآيات، أي: غفلوا عمَّا تضمَّنته الآياتُ من الهدى والنجاة، وما فكَّروا فيها، وتلك الغفلةُ هي سببُ التكذيب.

وقيل: يعود الضميرُ على النقمة الدالِّ عليها «فانتقمنا»، أي: كانوا عن النقمة وحلولِها بهم غافلين.

والغفلةُ في القول الأول عُني بها الإعراضُ عن الشيء؛ لأن الغفلة عنه والتكذيبَ لا يجتمعان من حيث إنَّ الغفلة تستدعي عَدَمَ الشعور بالشيء، والتكذيبَ به يستدعي معرفتَه، ولأنه لو أُريد حقيقةُ الغفلة لكانوا معذورِينَ لأنَّ تلك ليست لاختيارِ العبد.

---

(١) يعني: الوصف بالجملة هنا أبلغ من الوصف بالمفرد؛ لأن فيها تكرُّرَ الضمير المؤذن بالتفخيم. ينظر الدر المصون ٥/ ٤٣٦.

(٢) ينظر الكتاب ٤/ ٢٣٤.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٦ عن أبي البرهسم وأبي حيوة، وعزاها لأبي البرهسم أيضاً الصَّغاني في الشوارد في اللغة ص١٥١، ولعل «أبو هاشم» محرف عن «أبو البرهسم»، وقد سلف شبيه بهذا قريباً عند ذكر قراءة: «وما تنقَم» بفتح القاف، وهي الآية (١٢٦) من هذه السورة.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾

لمَّا قال موسى عليه السلام: «عسى ربُّكم أن يُهلكَ عدوَّكم ويستخلفَكم في الأرض» كان كما ترجَّى موسى، فأَغْرقَ أعداءَهم في اليم واستَخْلَفَ بني إسرائيل في الأرض، و«الذين كانوا يُسْتَضْعَفون» هم بنو إسرائيل؛ كان فرعونُ يستعبِدُهم ويستخدمُهم، والاستضعافُ: طلبُ الضَّعْف[١] بالقهر، وكثُر استعماله حتى قيل: استَضْعَفَه، أي: وَجَدَه ضعيفًا.

و«مشارق الأرض ومغاربها» قالت فرقة: هي الأرضُ كلُّها؛ قال ابنُ عطيةَ: ذلك [إمَّا] على سبيل المَجاز؛ لأنه تعالى ملَّكهم بلادًا كثيرةً، وإمَّا على الحقيقة فإنه مَلَّك ذريتَهم وهو سليمان بن داود[٢].

وقال الحسن أيضًا: «مشارق الأرض»: الشام، و«مغاربها»: ديار مصر[٣]، ملَّكهم الله إياها بإهلاك الفراعنة والعمالقة، وقاله الزمخشري، قال: وتصرَّفوا فيها كيف شاؤوا في أطرافها ونواحيها الشرقية والغربية[٤].

وقال الحسن أيضًا وقتادةُ وغيرُهما: هي أرضُ الشام[٥].

وفي كتاب النقَّاش عن الحسن: أرض مصر[٦].

والبركةُ فيها بالماء والشجر، قاله ابن عباس[٧]، وذيَّله غيرُه فقال: بالخِصْب والأنهار، وكثرةِ الأشجار، وطِيْبِ الثمار.

وقيل: البركةُ بإقدام الأنبياء وكثرة مُقامهم بها، ودَفْنِهم فيها، وهذا يتخرَّج على مَن قال: أرض الشام.

وقيل: «باركنا»: جعلنا الخير فيها دائمًا ثابتًا، وهذا يشير إلى أنّها مصر.

---

(١) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: الضعيف، وهو تحريف.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٦، وما بين حاصرتين منه.
(٣) النكت والعيون ٢/ ٢٥٤.
(٤) الكشاف ٢/ ١٠٩.
(٥) أخرجه عنهما الطبري ١٠/ ٤٠٤-٤٠٥.
(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٦.
(٧) زاد المسير ٣/ ٢٥٣.

وقال الليث: هي مصرُ، بارك الله فيها بما يَحْدُث عن نِيلها من الخيرات وكثرة الحبوب والثمرات[(١)].

وعن عمر ﷺ: أنَّ نيلَ مصر سيدُ الأنهار، في حديثٍ طويلٍ[(٢)].

ورُوي أنه كانت الجناتُ بحافتي هذا النيل من أوله إلى آخره في البرَّين جميعًا ما بين أسوان إلى رشيد، وكانت الأشجار متصلةً لا ينقطعُ منها شيءٌ عن شيءٍ، وقال أبو بَصْرةَ الغِفَاري: مصرُ خزائنُ الأرض كلِّها، ألا ترى إلى قول يوسف عليه السلام: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥][(٣)].

ويُروى أن عيسى عليه السلام أقام بها اثنتي عشرةَ سنةً، وذلك أنَّ الله أوحَى إلى مريم أن الْحقي بمصر وأرضِها[(٤)]. وذُكر أنها الربوةُ التي قال تعالى: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وقال ابن عمر: البركاتُ عشرٌ، ففي مصر تسعٌ وفي الأرض كلِّها واحدةٌ.

وانتصاب «مشارق» على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ«أورثنا»، و«التي باركنا» نعتٌ لـ«مشارق الأرض ومغاربها»، وقولُ الفرَّاء: إن انتصاب «مشارق» والمعطوفِ عليها على الظرفية، والعاملُ فيهما هو «يُستَضْعَفون»، و«التي بارَكْنا» هو المفعولُ الثاني، أي: الأرضَ التي بارَكْنا فيها[(٥)]، تكلُّفٌ وخروجٌ عن الظاهر بغير دليلٍ، ومَن أجاز أن تكون «التي» نعتًا لـ«الأرض» فقولُه ضعيفٌ، للفصل بالعطف بين المنعوت ونعتِه.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي: مَضَتْ واستمرَّت، من قولهم: تمَّ على الأمرُ: إذا مَضَى عليه.

---

(١) أخرجه أبو الشيخ بلفظ: هي مصر، وهي مباركة في كتاب الله. الدر المنثور ٣/ ١١٣.

(٢) أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر ص٢٦٣-٢٦٤، والنحاس في معاني القرآن ٥/ ٨١، كلاهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، ولم نقف عليه عن عمر ﷺ.

(٣) عزاه السخاوي في المقاصد الحسنة ص٣٨٩ لتاريخ ابن يونس، وهو المسمَّى: العقيد في أخبار تاريخ الصعيد، لعبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدفي. ينظر كشف الظنون ٢/ ١١٥٩.

(٤) ينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

(٥) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٩٧، وينظر تفسير الطبري ١٠/ ٤٠٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٤٦.

قال مجاهد: المعنى: ما سبق لهم في علمه وكلامه في الأزل من النجاة من عدوِّهم والظهورِ عليه[١].

وقال المهدوي وتبعه الزمخشريُّ: الكلمة قولُه تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: ٥-٦][٢].

وقيل: هي قولُه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٢٩].

وقيل: الكلمة: النعمة.

و«الحسنى» تأنيثُ الأحسن، وهي صفةٌ للكلمة، وكانت الحسنى لأنها وعدٌ بمحبوبٍ، قاله الكرماني.

والمعنى: على مَن بقي من مؤمني بني إسرائيل «بما صبروا» أي: بصَبْرهم.

وقرأ الحسن: «كلمات» على الجمع، ورُويت عن عاصم وأبي عمرو[٣]، قال الزمخشري: ونظيرُهُ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨][٤]. انتهى، يعني: نظيرُ وصفِ الجمع بالمفرد المؤنَّث، ولا يتعيَّن ما قاله من أن «الكبرى» نعت لـ«آيات ربِّه»، إذ يُحتمل أن يكون مفعولًا لقوله: «رأى»، أي: الآيةَ الكبرى، فيكون في الأصل نعتًا لمفردٍ مؤنَّثٍ لا لجَمْعٍ، وهو أبلغُ في الوصف.

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ أي: خرَّبْنا قصورَهم وأبنيتَهم، والتدميرُ: الإهلاكُ وإخرابُ الأبنية.

وقيل: ما كان يصنعُ من التدبير في أمر موسى عليه السلام وإخمادِ كلمته.

وقيل: المراد إهلاكُ أهلِ القصور والمواضِع المنيعة، وإذا هلك الساكنُ هلك المسكونُ.

و«ما كانوا يَعْرِشون»، أي: يرفعون من الأبنية المَشيدة كصَرْح هامان وغيرِه.

(١) المحرر الوجيز ٢/٤٤٦، وأخرجه بنحوه الطبري ١٠/٤٠٦.
(٢) الكشاف ٢/١٠٩، والمحرر الوجيز ٢/٤٤٦ عن المهدوي.
(٣) القراءات الشاذة ص٤٥، والكشاف ٢/ ١١٠ عن عاصم، والمحرر الوجيز ٢/٤٤٧ عن أبي عمرو.
(٤) الكشاف ٢/ ١١٠.

وقال الحسن: المراد عرشُ الكروم[1]، ومنه: ﴿جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقرأ ابنُ عامر وأبو بكر بضم الراء، وباقي السبعة والحسنُ ومجاهدٌ وأبو رجاء بكسر الراء هنا وفي «النحل»[2]، وهي لغةُ الحجاز، وقال اليزيدي: هي أفصح[3].

وقرأ ابنُ أبي عبلة: «يعرِّشون» بضمِّ الياء وفتحِ العين وتشديدِ الراء[4].

وانتزع الحسنُ من هذه الآية أنه ينبغي أن لا يُخرَجَ على ملوك السُّوء، وإنما ينبغي أن يُصْبَر عليهم، فإنَّ الله يدمِّرهم. ورُوي عنه وعن غيره: إذا قابَلَ الناسُ البلاءَ بمثله وَكَلَهم الله إليه، وإذا قابَلوه بالصبر وانتظارِ الفَرَج أتى الله بالفَرَج[5].

قال الزمخشري: وبلغني أنه قرأ بعضُ الناس: «يَغْرِسون» مِن غَرْس الأشجار، وما أحسبُه إلَّا تصحيفًا منه، وهذا آخِرُ ما اقْتصَّ الله تعالى من نبأ فرعونَ والقِبْطِ، وتكذيبهم بآيات الله وظلمِهم ومعارَضَتهم، ثم أتبعه اقتصاصَ نبأ بني إسرائيل وما أَحْدَثوه بعد إنقاذِهم من مملكة فرعون واستعبادِه، ومعايَنَتِهم الآياتِ العظام، ومجاوَزَتِهم البحرَ: من عبادة البقر، وطلبِ رؤية الله جَهْرةً، وغيرِ ذلك من أنواع الكفر والمعاصي، ليُعْلَم حالُ الإنسان، وأنه كما وُصف: ظَلومٌ كفَّارٌ جَهُولٌ كَنُود، إلا مَن عَصَمَه الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] وليُسلِّيَ رسولَ الله ﷺ مما رأى من بني إسرائيل بالمدينة[6].

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ لمَّا بيَّن أنواعَ نِعَمِهِ تعالى على بني إسرائيل بإهلاك عدوِّهم أتبع بالنعمة العظمى: من إراءتهم هذه الآيَةَ العظيمةَ، وقَطْعِهم البحرَ مع السلامة، والبحرُ بحرُ القُلْزُم، وأخطأ مَن قال: إنه نيلُ مصر، ومعنى «جاوَزْنا»:

---

(١) المحرر الوجيز ٢/٤٤٧، وتفسير القرطبي ٩/٣١٦.

(٢) تنظر القراءتان عمن ذكر من القراء السبعة في السبعة ص٢٩٢، والتيسير ص١١٣. أما الحسن ومجاهد وأبو رجاء فقد ذكرهم ابن عطية مع مَن قرأ بضم الراء.

(٣) الكشاف ٢/١١٠.

(٤) المحرر الوجيز ٢/٤٤٧.

(٥) المصدر السابق.

(٦) الكشاف ٢/١١٠.

قطعنا بهم البحر، يقال: جاوَزَ الوادي: إذا قَطَعه، والباء للتعدية، يقال: جاوَزَ الوادي: إذا قَطَعه، وجاوز بغيره البحرَ: عَبَرَ به، فكأنه قال: وجُزْنا ببني إسرائيل، أي: أَجَزْناهم البحرَ، و«فاعَلَ» بمعنى «فَعَلَ» المجرَّد؛ يقال: جاوَزَ وجاز بمعنًى واحدٍ.

وقرأ الحسن وإبراهيم وأبو رجاء ويعقوب «وجوَّزنا»(١)، وهو ممَّا جاء فيه «فَعَّلَ» بمعنى «فَعَلَ» المجرَّد، نحو: قدَّرَ وقَدَرَ، وليس التضعيفُ للتعدية.

رُوي أنه عَبَر بهم موسى عليه السلام يومَ عاشوراء بعدما أهلك الله فرعونَ وقومَه، فصاموه شكرًا لله، وأُعْطي موسى التوراةَ يوم النحر، فبَيْنَ الأمرين أحدَ عَشَرَ شهرًا(٢).

﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ قال قتادة وأبو عمران الجوني: هم من لَخْمٍ وجُذَام(٣)، كانوا يسكنون الريف.

وقيل: كانوا نزولًا بالرقة(٤) ـ رقة مصر ـ وهي قريةٌ بريف مصر تُعرف بساحل البحر يُتوصل منها إلى الفيوم.

وقيل: هم الكنعانيون الذين أُمر موسى بقتالهم(٥).

ومعنى «فأتوا»: فمرُّوا، يقال: أتت عليه سِنُونَ، ومعنى «يعكفون» يقيمون ويواظبون على عبادة أصنام.

وقرأ الأخوان وأبو عمرو في رواية عبد الوارث بكسر الكاف(٦)، وباقي السبعة بضمِّها، وهما فصيحتان.

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٥.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٧ نقلاً عن النقاش.

(٣) المصدر السابق، وأخرجه عن قتادة الطبري ١٠/ ٤٠٩-٤١٠، وعن أبي عمران الجوني ابنُ أبي حاتم ٥/ ١٥٥٣، وتحرف «عمران» في النسخ إلى: «عمرو».

(٤) تفسير البغوي ٢/ ١٩٤، وزاد المسير ٣/ ٢٥٤، وتفسير القرطبي ٩/ ٣١٧.

(٥) تفسير الطبري ١٠/ ٤١٠، والكشاف ٢/ ١١٠.

(٦) السبعة ص٢٩٢، والتيسير ص١١٣، ولم يذكرها الداني عن أبي عمرو، والمشهور عنه القراءة بضم الكاف كباقي السبعة.

والأصنام، قيل: بقرٌ حقيقةً. وقال ابن جُريجٍ: كانت تماثيلَ بقرٍ من حجارة وعيدان ونحوِه وذلك كان أولَ فتنة العجل(١).

﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ الظاهرُ أن طلب مِثْلِ هذا كفرٌ وارتدادٌ وشقاقٌ وعنادٌ، جَرَوا في ذلك على عادتهم في تعنُّتهم على أنبيائهم وطلبِهم ما لا ينبغي، وقد تقدَّم من كلامهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] وغير ذلك ممَّا هو كفرٌ.

وقال ابن عطية: الظاهِرُ أنهم استحسنوا ما رأوا من آلهة أولئك القوم، فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى، وفي جملة ما يتقرَّب به إلى الله تعالى، وإلا فبعيدٌ أن يقولوا لموسى: اجْعَلْ لنا إلهًا نُفْرِدُه بالعبادة(٢). انتهى.

وفي الحديث: مَرُّوا في غزوة حنينٍ على دوحِ سِدْرةٍ خضراءَ عظيمةٍ، فقيل: يا رسول الله، اجْعَلْ لنا ذاتَ أنواطٍ، وكانت ذاتُ أنواطٍ سرحةً لبعض المشركين يعلِّقون بها أسلحتهم، ولها يومٌ يجتمعون إليها، فأراد قائلُ ذلك أن يَشْرَعَ الرسولُ ذلك في الإسلام، ورأى الرسولُ عليه السلام ذلك ذريعةً إلى عبادة تلك السَّرحة فأنكره وقال: «الله أكبر! قلتُم واللهِ كما قال بنو إسرائيل: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، لتتبعنَّ سَنَنَ مَن كان قبلَكم» الحديث(٣).

وقال أبو عبد الله الرازي: من المستحيل أن يقول العاقلُ لموسى: اجْعَلْ لنا إلهًا خالقًا مدبِّرًا؛ لأن الذي يجعلُه موسى لا يمكن أن يجعله خالقًا للعالَم ومدبِّرًا، فالأقربُ أنهم طلبوا أن يعيِّن لهم تماثيلَ وصورًا يتقرَّبون بعبادتها إلى الله تعالى، وقد حَكَى تعالى عن عبَّاد الأوثان قولَهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى

(١) أخرجه الطبري ١٠/٤٠٩.

(٢) المحرر الوجيز ٢/٤٤٧-٤٤٨.

(٣) أخرجه بنحوه أحمد (٢١٨٩٧)، والترمذي (٢١٨٠) من حديث أبي واقد الليثي ﷺ. قال الترمذي: حسن صحيح. ولفظ المصنف منقول من المحرر الوجيز ٢/٤٤٨. السَّرحة: الشجرة العظيمة. النهاية (سرح). والدوح: جمع دوحةٍ، وهي الشجرة العظيمة. والسِّدرة: مفرد السِّدر، وهو شجر النَّبِق. القاموس (دوح) و(سدر).

ﭐللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وأجمع كلُّ الأنبياء عليهم السلامُ على أنَّ عبادةَ غيرِ الله كفرٌ، سواءٌ اعْتُقِدَ فيه كونُه إلهًا للعالَم، أو أنَّ عبادته تقرِّبُ إلى الله[١]. انتهى.

ويَظْهَرُ أن ذلك لم يَصْدُر من جميعهم، فإنه كان فيهم السبعون المختارون ومَن لا يصدُرُ منه هذا السؤالُ الباطلُ، لكنه نَسَبَ ذلك إلى بني إسرائيلَ لمَّا وقع من بعضهم على عادة العرب في ذلك.

و«ما» في «كما» قال الزمخشري: كافَّةٌ للكاف، ولذلك وقعت الجملةُ بعدها[٢].

وقال غيره: موصولةٌ حرفيةٌ، أي: كما ثبت لهم آلهةٌ، فتكون قد حُذف صلتُها، على حدِّ ما قال ابن مالك في أنه إذا حُذفت صلةُ «ما» فلا بدَّ من إبقاء معمولها، كقولهم: لا أكلِّمك ما أن في السماء نجمًا، أي: ما ثَبَتَ أنَّ في السماء نجمًا[٣]، ويكون «آلهةٌ» فاعلًا بـ«ثبت» المحذوفة.

وقيل: موصولةٌ اسميةٌ، و«لهم» صلتُها، والضميرُ العائدُ عليها مستكنٌّ في المجرور، والتقدير: كالذي لهم، و«آلهةٌ» بدلٌ من ذلك الضمير المستكنِّ.

﴿قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ۝١٣٨﴾ تعجَّبَ موسى عليه السلام من قولهم على إثر ما رأوا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة، ووصَفَهم بالجهل المطلَق وأكَّده بـ«إنَّ»؛ لأنه لا جَهْلَ أعظمُ من هذه المقالةِ ولا أشنعُ، وأتى بلفظ «تجهلون» ولم يقل: جهلتُم، إشعارًا بأنَّ ذلك منهم كالطَّبْع والغريزة لا ينتقلون عنه في ماضٍ ولا مستقبَلٍ.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٣٩﴾ الإشارة بـ«هؤلاء» إلى العاكفين على عبادة الأصنام، ومعنى «متبَّر»: مُهْلَكٌ مدمَّرٌ مكسَّرٌ، وأصله الكسر، وقال الكلبي: مُبْطَلٌ. وقال أبو اليسع: مضلَّلٌ[٤].

---

(١) تفسير الرازي ١٤/ ٢٢٣.
(٢) الكشاف ٢/ ١١٠.
(٣) التسهيل ص٣٨، وشرحه لابن مالك ١/ ٢٥٨.
(٤) القولان في النكت والعيون ٢/ ٢٥٥، وفيه: ضلال، بدل: مضلَّلٌ.

وقال السدِّي وابنُ زيد: مدمَّرٌ رديءٌ سيِّئُ العاقبة[١].

و«ما هم فيه» يعمُّ جميعَ أحوالهم، وبُطْلُ عملهم هو اضمحلالُه بحيث لا يُنتفع به وإن كان مقصودًا به التقرُّبُ إلى الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

قال الزمخشريّ[٢]: وفي إيقاع «هؤلاء» اسمًا لـ«إنَّ» وتقديم خبرِ المبتدأ من الجملة الواقعة خبرًا لها واسِمٌ لعبدة الأصنام[٣] بأنهم هم المعرَّضون للتَّبار، وأنَّه لا يعْدُوهم البتةَ، وأنه لهم ضربةُ لازمٍ[٤]، ليحذِّرهم عاقبةَ ما طلبوا، ويبغِّضَ لهم ما أحبُّوا. انتهى.

ولا يتعيَّن ما قاله من أنه قدِّمَ خبرُ المبتدأ من الجملة الواقعة خبرًا لـ«إنَّ»؛ لأنَّ الأحْسَنَ في إعراب مِثْلِ هذا أن يكون خبر «إنَّ»: «متبَّر»، وما بعده مرفوعٌ على أنه مفعولٌ لم يُسَمَّ فاعلُه، وكذلك «ما كانوا» هو فاعلٌ بقوله: «وباطل»، فيكون إذ ذاك قد أخبر عن اسم «إنَّ» بمفردٍ لا جملةٍ، وهو نظيرُ: إنَّ زيدًا مضروبٌ غلامُه، فالأحسنُ في الإعراب أن يكون «غلامُه» مرفوعًا على أنه مفعولٌ لم يسمَّ فاعلُه و«مضروبٌ» خبرَ «إنَّ»، والوجهُ الآخَرُ ـ وهو أن يكون مبتدأً و«مضروبٌ» خبرَه ـ جائزٌ، وهو مرجوحٌ[٥].

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ ما أحسنَ ما خاطبهم موسى عليه السلام لقومه! بدأهم أولًا بنسبتهم إلى الجهل، ثم ثانيًا أخبرهم بأنَّ عبَّاد الأصنام ليسوا على شيءٍ، بل مآلُ أمرهم إلى الهلاك وبطلانِ

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٨، ولفظه: مهلك مدمَّر رديُّ العاقبة، وينظر تفسير الطبري ١٠/ ٤١٢.
(٢) في الكشاف ٢/ ١١٠.
(٣) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: واسم لعباده، كما سقطت منها كلمة «الأصنام»، وجاء في مطبوع الكشاف: وسم، بدل: واسم.
(٤) أي: لازم وثابت. وجاء في الكشاف: لازب، وهما بمعنًى. ينظر القاموس (لزب) و(لزم).
(٥) قال السمين في الدر ٥/ ٤٤٤: «وهو كما قال؛ لأن الأصل في الأخبار أن تكون مفردة، فما أمن فيها ذلك لا يُعدل عنه». لكنه عاد فدافع عن الزمخشري بقوله: «وقد يكون هذا عنده أرجح من جهة ما ذكره من المعنى، وإذا دار الأمر بين مرجِّح لفظي ومرجِّح معنوي فاعتبارُ المعنوي أولى، وما أظن حَمَل الزمخشريَّ على ذلك إلا ما ذكرتُ».

العمل، وثالثًا أنكَر وتعجَّب أن يقع هو عليه السلام في أن يبغي لهم غيرَ اللهِ إلهًا، أي: أغيرَ المستحِقِّ للعبادة والألوهية أطلبُ لكم معبودًا، وهو الذي شرَّفكم واختصَّكم بالنِّعم التي لم يُعْطِها مَن سَلَفَ من الأمم لا غيرُه، فكيف أبغي لكم إلهًا غيرَه؟!

ومعنى «على العالمين»: على عالَمي زمانِهم، أو بكثرة الأنبياء فيهم.

قال ابن القشيري: بإهلاك عدوِّهم، وبما خصَّهم من الآيات[١].

وانتصب «غير» مفعولاً لـ«أبغيكم»، أي: أبغي لكم غيرَ الله، و«إلهًا» تمييزٌ عن «غير» أو حالٌ، أو على الحال[٢] و«إلهًا» المفعول، والتقدير: أبغي لكم إلهًا غيرَ الله، فكان «غير» صفةً فلمَّا تقدَّم انتصب حالًا.

وقال ابن عطية: و«غير» منصوبةٌ بفعلٍ مضمرٍ، هذا هو الظاهرُ، ويحتمل أن ينتصب على الحال[٣]. انتهى.

ولا يَظْهرُ نصبُه بفعلٍ مضمرٍ؛ لأن «أبغي» مفرَّغٌ له أو لقوله: «إلهًا»، فإنْ تخيَّلَ أنه منصوبٌ بـ«أبغي» مُضْمَرة يفسِّرها هذا الظاهرُ فلا يصحُّ؛ لأنَّ الجملة المفسِّرة لا رابطَ فيها لا من ضميرٍ ولا من مُلابسٍ يربطُها بـ«غير»، فلو كان التركيب: أغير الله أبغيكُموه، لصحَّ.

ويحتمل «وهو فضلكم» أن يكون حالًا وأن يكون مستأنفًا.

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ قرأ الجمهور: «أنجيناكم»، وفرقةٌ: «نجَّيْناكم» مشدَّدًا، وابنُ عامر: «أنجاكم»[٤]. فعلى «أنجاكم» يكون جاريًا على قوله: «وهو فضَّلكم» خاطَبَ بها موسى قومَه، وفي قراءةِ النون خاطبهم الله

---

(١) لم أقف عليه في لطائف الإشارات، وذكره القرطبي ٣١٨/٩ ولم ينسبه.

(٢) يعني: أو انتصب «غير» على الحال.

(٣) المحرر الوجيز ٤٤٨/٢.

(٤) الأولى والأخيرة في التيسير ص١١٣، وقراءة «نجَّيناكم» في المحرر الوجيز ٤٤٨/٢، وهي هنا قراءة شاذة.

تعالى بذلك، وقال الطبري: الخطابُ لمن كان على عهد الرسول ﷺ تقريعًا لهم بما فعل أوائلُهم وبما جاؤوا به[١]، وتقدَّم تفسيرُ نظيرِ هذه الآية في أوائل «البقرة»[٢].

وقرأ نافع: «يقتُلون» من قَتَلَ، والجمهورُ من قتَّل مشدَّدًا[٣].

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ رُوِيَ أنَّ موسى عليه السلام وَعَدَ بني إسرائيلَ وهو بمصر إنْ أهلك الله عدوَّهم أتاهم بكتابٍ من عندِ الله فيه بيانُ ما يأتون وما يَذَرون، فلمَّا هلك فرعونُ سأل موسى ربَّه تعالى الكتابَ فأمره بصوم ثلاثين يومًا، وهو شهرُ ذي القَعْدة، فلمَّا أتمَّ الثلاثين أنكر خُلوفَ فيهِ فتسوَّكَ، فقالت الملائكة: كنَّا نشمُّ مِن فيك رائحةَ المسك فأفسدْتَه بالسواك[٤].

وقيل: أوحَى الله إليه: أما عَلِمْتَ أن خُلوفَ فَمِ الصائم أطيبُ عند الله من ريح المسك، فأمره أن يزيد عليه عشرةَ أيام من ذي الحجَّة لذلك[٥].

وقيل: أمره الله بأنْ يصوم ثلاثين يومًا وأن يعمل فيها بما يقرِّبُه من الله تعالى، ثم أُنزلت عليه التوراةُ في العشر وكلِّم فيها، وأُجمِلَ ذكرُ الأربعين في «البقرة» وفصِّل هنا[٦].

وقال الكلبيُّ: لمَّا قطع موسى البحر ببني إسرائيل وغرق فرعونُ، قالت بنو إسرائيل لموسى: ائتنا بكتابٍ من ربِّنا كما وعدْتَنا وزعَمْتَ أنك تأتينا به إلى شهرٍ، فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً لينطلقوا معه، فلمَّا تجهَّزوا قال الله تعالى

---

(١) تفسير الطبري ١٠/٤١٣، والمحرر الوجيز ٢/٤٤٩، والكلام منه.
(٢) الآية (٤٩) منها.
(٣) التيسير ص١١٣.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٢/٣٧٢، وتفسير أبي الليث ١/٥١٧، والكشاف ٢/١١١، والكلام منه.
(٥) الكشاف ٢/١١١، وهذه قطعة من حديث طويل جدًّا أخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٦٣)، وأبو يعلى (٢٦١٨)، وأخرج هذه القطعة منه ابن أبي حاتم ٥/١٥٥٦.
(٦) الكشاف ٢/١١١.

لموسى: أخبر قومك أنك لن تأتيهم أربعين ليلةً، وذلك حين أُتمَّتْ بعشرٍ، فلمَّا خرج موسى بالسبعين أمرهم أن ينتظروه أسفلَ الجبلِ، وصعد موسى الجبلَ وكلَّمه الله أربعين يومًا وأربعين ليلةً، وكتب له الألواح، ثم إنَّ بني إسرائيل عدُّوا عشرين ليلةً وعشرين يومًا، فقالوا: قد أَخْلَفَنا موسى الوعدَ، وجَعَل لهم السامريُّ العجلَ فعبدوه[١].

وقيل: زيدت العشرُ بعد الشَّهر للمناجاة.

وقيل: التفتَ في طريقه فزِيْدَها.

وقيل: زِيدَتْ عقوبةً لقومه على عبادة العجل بعده.

وقيل: أَعْلَم موسى بمغيبه ثلاثين ليلةً، فلمَّا زاده العشرَ في مَغيبه ولم يعلموا بذلك وجست نفوسهم للزيادة على ما أخبرهم، فقال السامري: هلك موسى وليس براجعٍ، وأضلَّهم بالعجل فاتَّبعوه؛ قاله ابن جريج[٢].

وفائدةُ التفصيل؛ قالوا: إنَّ الثلاثين للتهيُّؤ للمناجاةً، والعَشْرَ لإنزالِ التوراة وتكليمِه.

وقال أبو مسلم: بادر إلى ميقات ربِّه قبل قومه؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ﴾الآية [طه: ٨٣]، فجائزٌ أن يكون أتى الطورَ عند تمام الثلاثين فلمَّا أُعلم بخبر قومه مع السامريِّ رجع إلى قومه قبل تمام مدة الوعد، ثم عاد إلى الميقات في عشرٍ أخر[٣].

وقيل: لا يمتنع أن يكون وَعْدان: أوَّل حضره موسى، وثانٍ حضره المختارون ليسمعوا كلام الله، فاختلف الوعد لاختلاف الحاضرين[٤].

والثلاثون هي شهر ذي القعدة والعشر من ذي الحجة، قاله ابن عباس ومسروقٌ ومجاهدٌ، وتقدَّم الخلاف في قراءة «ووعدنا»[٥].

---

(١) تفسير ابن أبي زمنين ٢/ ١٤٠.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٩، وأخرجه بنحوه مطولاً الطبري ١٠/ ٤١٦-٤١٧.
(٣) تفسير الرازي ١٤/ ٢٢٦.
(٤) المصدر السابق.
(٥) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾ [البقرة: ٥١].

وقالوا: انْتَصَبَ «ثلاثين» على أنه مفعولٌ ثانٍ على حَذْفِ مضافٍ، فقدَّره أبو البقاء: إتيانَ ثلاثين، أو: تمامَ ثلاثين(١).

وقال ابن عطية: «وثلاثين» نصبٌ على تقدير: أجلناه أو مناجاة ثلاثين، وليست منتصبةً على الظرف لأن المواعدة لم تقع في الثلاثين(٢).

والضمير في «وأتممناها» عائدٌ على المواعَدة المفهومة من «واعدنا».

وقال الحَوْفي: الهاءُ والألف نصبٌ بـ«أتممنا»، وهما راجعتان إلى «ثلاثين». انتهى، ولا يظهر؛ لأنَّ الثلاثين لم تكن ناقصةً فتُتَمَّمَ بعشرٍ.

وحُذف مميِّزُ «عشر»، أي: بعشرِ ليالٍ؛ لدلالة ما قبله عليه.

وفي مصحف أُبَيٍّ «وتَمَّمْناها» مشدَّدًا.

والميقات: ما وَقَّتَ له من الوقت وضَرَبَه له، وجاء بلفظ «ربّه» ولم يأت على «واعدنا» ـ فكان يكون التركيب: فتمَّ ميقاتُنا ـ لأن لفظ «ربه» دالٌّ على أنه مُصْلِحُه وناظرٌ في أمره، ومالكُه والمتصرِّفُ فيه.

قيل: والفرقُ بين الميقات والوقت: أنَّ الميقات ما قدِّر فيه عملٌ من الأعمال، والوقتَ وقتُ الشيء.

وانتصب «أربعين» على الحال، قاله الزمخشري وابن عطية(٣)، وقدَّر الزمخشري الحال فيه فقال: أي: تم بالغًا هذا العدد.

فعلى هذا لا يكون الحالُ «أربعين» بل الحالُ هذا المحذوفُ، فيُنافي قولَه: و«أربعين ليلة» نصبٌ على الحال(٤).

وقال ابن عطية أيضًا: ويصح أن يكون أربعين ظرفًا من حيث هي عددُ أزمنة(٥).

---

(١) الإملاء ١/ ٢٨٤.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٠، وليس في مطبوع: أو مناجاة.

(٣) الكشاف ٢/ ١١١، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٤٩.

(٤) الكشاف ٢/ ١١١. وينظر اعتراض السمين في الدر ٥/ ٤٤١ على المصنف، ومناقشة ذلك في روح المعاني ٩/ ٣٣٠.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٤٩.

وقيل: «أربعين» مفعولٌ به بـ«تم» لأنَّ معناه: بلَغَ.

والذي يظهر أنه تمييزٌ منقولٌ[(١)] من الفاعل، وأصله: فتمَّ أربعونَ ميقاتِ ربِّه، أي: كملت، ثم أسند التمامُ لـ«ميقات» وانتصب «أربعون» على التمييز[(٢)].

والذي يظهرُ أنَّ هذه الجملة تأكيدٌ وإيضاح، وقيل: فائدتُها إزالةُ توهُّم تلك العشرِ من الثلاثين؛ لأنّه يُحْتَمَلُ إتمامها بعشرٍ من الثلاثين.

وقيل: إزالةُ توهُّم أن تكون عَشْرَ ساعات، أي: أتممناها بعشرِ ساعات.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ وقُرِئ شاذًا: «هارونُ» بالضم على النداء[(٣)]، أي: يا هارونُ.

أَمَرَه حين أراد المضيَّ للمناجاة والمغيبَ فيها أن يكون خليفتَه في قومه، وأن يُصْلِحَ في نفسه، أو ما يجبُ أن يُصْلَحَ من أمر قومه، ونهاه أن يتَّبع سبيلَ مَن أَفْسَدَ، وفي النهي دليلٌ على وجود المفسدين، ولذلك نهاه عن اتِّباع سبيلهم.

وأَمْرُه إياه بالإصلاح ونَهْيُه عن اتِّباع سبيل المفسدين هو على سبيل التأكيد، لا لِتَوَهُّم أنه يقع منه خلافُ الإصلاح واتِّباعُ تلك السبيل؛ لأن مَنْصِبَ النبوَّة منزَّهٌ عن ذلك.

ومعنى «اخْلُفْني»: استَبِدَّ بالأمر وذلك في حياته إذ راح إلى مناجاة ربِّه، وليس المعنى: إنك تكون خليفتي بعد موتي، ألا ترى أن هارون مات قبل موسى عليهما السلام.

وليس في قول الرسول ﷺ لعليٍّ: «أنتَ منِّي كهارون من موسى»[(٤)] دليلٌ على

---

(١) تحرفت في (أ) و(د١) و(ع) إلى: مفعول، وجاء في المطبوع: محول.

(٢) وتعقبه السمين بأن هذا الذي قاله يُشْكِل بما ذكره هو (أي: المصنف) في الرد على الحوفي، وينظر كلامه بتمامه في الدر المصون ٥/٤٤٨.

(٣) الكشاف ٢/١١١.

(٤) أخرجه البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ، ولفظه: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى...» وفي رواية لمسلم: «أنت مني بمنزلة...».

أنه خليفتُه بعد موته، إذ لم يكن هارونُ خليفةً بعد موت موسى، وإنما استخلف الرسولُ عليًّا على أهل بيته إذ سافر الرسولُ عليه السلام في بعض مغازيه كما استخلف ابنَ أمِّ مكتوم على المدينة(١)، فلم يكن في ذلك دليلٌ على أنه يكون خليفةً بعد موت الرسول.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ أي: للوقت الذي ضَرَبه له، أي: لتمام الأربعين، كما تقول: أتيتُه لعَشْرٍ خَلَوْنَ من الشهر، ومعنى اللامِ الاختصاصُ.

والجمهورُ على أنه وحده خُصَّ بالتكليم إذ جاء للميقات، وقال القاضي(٢): سمع هو والسبعون كلامَ الله.

قال ابن عطية: خَلَقَ له إدراكًا سمع به الكلامَ القائمَ بالذات، القديمَ الذي هو صفةُ ذاتٍ، وقال ابنُ عباس وابنُ جُبيرٍ: أدنى اللهُ تعالى موسى حتى سمع صريفَ الأقلام في اللوح(٣).

وقال الزمخشريّ: «وكلَّمه ربُّه» من غيرِ واسطةٍ كما يكلِّم المَلَكَ، وتكليمُه أن يخلق الكلامَ منطوقًا به في بعض الأجرام كما خلقه مخطوطًا في اللوح، ورُوي أنَّ موسى كان يسمع الكلام في كلِّ جهة، وعن ابن عباس: كلَّمه أربعين يومًا وأربعين ليلةً، وكتب له الألواح. وقيل: إنما كلَّمه في أول الأربعين(٤). انتهى.

وقال وهب: كلَّمه في ألف مقامٍ، وعلى إثر كلِّ مقامٍ يُرى نورٌ على وجهه ثلاثةَ أيام، ولم يَقْربِ النساءَ مذ كلَّمه الله(٥). انتهى.

وقد أوردوا هنا الخلافَ الذي في كلام الله، وهو مذكورٌ ودلائلَ المختلفين في كتب أصول الدِّين.

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٣٤٤)، وأبو داود (٢٩٣١)، وابن حبان (٢١٣٤) من حديث أنس ﷺ.

(٢) هو عبد الجبار المعتزلي، وكلامه في تفسير الرازي ١٤/ ٢٢٨.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٠.

(٤) الكشاف ٢/ ١١١-١١٢.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٠، وأخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (٣٧٧)، وابن حبان في الثقات ٩/ ٥١، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٥٠.

و«كلَّمه» معطوفٌ على «جاء»، وقيل: حالٌ، وعدل عن قوله: وكلَّمناه، إلى قوله: «وكلمه ربُّه»، للمعنى الذي عدل إلى قوله: «فتم ميقاتُ ربه»، و«فلما تجلَّى ربُّه».

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ قال السدِّي وأبو بكر الهُذَلي: لمَّا كلَّمه وخصَّه بهذه المرتبة طَمَحَتْ هِمَّتُه إلى رتبة الرؤية، وتَشوَّفَ إلى ذلك، فسأل ربَّه أن يُريَه نفسه[(١)].

وقال الزجَّاج شوَّقه الكلامُ فَعِيْلَ صبرُه، فحملَه على سؤال الرؤية[(٢)].

وقال الربيع: لم يُعْهَدْ إليه في الرؤية، فظَنَّ أنَّ السؤال في هذا الوقت جائزٌ[(٣)].

وقال السدِّي: غار الشيطان في الأرض، فخرج بين يديه فقال: إنما يكلِّمك شيطانٌ، فسأل الرؤية[(٤)].

ولو لم تَجُزِ الرؤيةُ ما سألها، قال ابنُ عطية: ورؤيةُ الله عند الأشعرية وأهلِ السنة جائزةٌ عقلًا؛ لأنه من حيث هو موجودٌ تصحُّ رؤيتُه، وقرَّرت الشريعةُ رؤيةَ الله في الآخرة ومنعت من ذلك في الدنيا بظواهِرِ الشرع، فموسى عليه السلام لم يسأل مُحالًا وإنما سأل جائزًا، وقوله: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾الآيةَ ليس بجوابِ مَن سأل مُحالًا، وقد قال تعالى لنوح عليه السلام: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٦] فلو سأل موسى محالاً لكان في الجواب زجرٌ مّا وتبيينٌ[(٥)].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٠، وأخرجه عنهما بنحوه الطبري ١٠/ ٤١٩. وأبو بكر الهذلي اسمه سُلْمى بن عبد الله بن سُلْمى، وقيل: اسمه روح. روى عن الحسن البصري وابن سيرين والشعبي وعكرمة وقتادة وغيرهم، وعنه: ابن جريج - وهو من أقرانه - ووكيع وابن عيينة وغيرهم، وهو أخباري متروك الحديث، توفي سنة (١٦٧هـ). التهذيب ٤/ ٤٩٨.

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٧٣.

(٣) ذكر نحوه الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٢٥٧ عن الربيع والحسن والسدي.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ١٩٦، وفيه: غاص، بدل: غار.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٠، وتحرف قوله: تبيين، في (د١) إلى: وتيئس، وفي المطبوع: وتيئيس.

وقال الكرماني وغيرُه: في الكلام محذوفٌ تقديره: لن تراني في الدنيا. وقيل: لن تَقْدِرَ أن تراني. وقيل: لن تراني بسؤالك. وقيل: لن تراني ولكن ستراني حين أتجلَّى للجبل.

وقال الزمخشري[١]: فإن قلت: كيف طَلَبَ موسى عليه السلامُ ذلك وهو مِن أعلمِ الناسِ بالله تعالى وصفاته، وما يجوزُ عليه وما لا يجوز، وبتعاليه عن الصفة[٢] التي هي إدراكٌ ببعض الحواسِّ، وذلك إنما يصحُّ فيما كان في جهةٍ، وما ليس بجسمٍ ولا عَرَضٍ فمحالٌ أن يكون في جهة، ومنعُ المُجْبِرة إحالتَه في العقول غيرُ لازم؛ لأنه ليس بأول مُكابرتهم وارتكابِهم، وكيف يكون طالِبَه وقد قال حين أخذتهم الرجفةُ ـ أي: الذين[٣] قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] ـ: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ إلى قوله: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] فتبرَّأ من فعلهم ودعاهم سفهاءَ وضلَّالاً؟ قلتُ[٤]: ما كان طلبُه الرؤيةَ إلَّا ليُبَكِّتَ هؤلاء الذين دعاهم سفهاءَ وضُلَّالا وتبرَّأ من فعلهم، وليُلْقِمَهم الحَجَر، وذلك أنهم حين طلبوا الرؤيةَ أَنْكَر عليهم وأَعْلَمَهم الخطأ، ونبَّههم على الحق، فلجُّوا وتمادَوا في لَجاجهم، وقالوا: لا بدَّ ولن نؤمن لك حتى نراه، فأراد أن يَسمعوا النصَّ[٥] من عند الله باستحالة ذلك، وهو قوله: «لن تراني» ليتيقَّنوا ولينزاحَ عنهم ما دخَلَهم من الشبهة، فلذلك قال: «ربِّ أَرِني أَنْظُرْ إليك». فإن قلتَ: فهلَّا قال: أَرِهم ينظرون إليك؟ قلت: لأن الله سبحانه إنما كلَّم موسى وهم يسمعون، فلمَّا سمعوا كلامَ ربِّ العزَّة أرادوا أن يرى موسى ذاتَه فيُبْصِروه معه ـ كما أَسْمَعه كلامَه فَسَمعوه معه ـ إرادةً مبنيةً على قياسٍ فاسدٍ، فلذلك قال موسى: «أرني أنظر إليك» ولأنه إذا

(١) في الكشاف ٢/ ١١٢.
(٢) كذا في النسخ، والذي في الكشاف: عن الرؤية.
(٣) في (أ) و(ع): للذين، وكلمة «أي» من (د٣) وليست في باقي النسخ والكشاف، لكن جاء في الكشاف: أخذت، بدل: أخذتهم.
(٤) القائل الزمخشري.
(٥) في النسخ عدا (د١): النطق، والمثبت من (د١) والمطبوع، وهو الموافق لما في مطبوع الكشاف.

زُجِرَ[(١)] عمَّا طَلَبَ وأُنكر عليه في[(٢)] نبوَّته واختصاصِه وزُلْفَتِه عند الله، وقيل له: لن يكون ذلك، كان غيرُه أولى بالإنكار، ولأنَّ الرسول إمامُ أمته، فكان ما يخاطَبُ به أو يخاطِبُ[(٣)] راجعًا إليهم، وقولُه: «أنظر إليك» وما فيه من معنى المقابَلة التي هي محضُ[(٤)] التشبيه والتجسيم دليلٌ على أنه ترجمةٌ عن مُقْتَرحهم، وحكايةٌ لقولهم، وجَلَّ صاحبُ الجمل أن يَجْعَلَ الله منظورًا إليه مقابَلًا بحاسَّة النظر[(٥)]، فكيف بمن هو أعرقُ في معرفة الله من واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد والنظَّام وأبي الهُذَيْل والشيخين[(٦)] وجميع المتكلِّمين؟ وثاني مفعولي «أرني» محذوفٌ، أي: أَرِني نفسك، [أي][(٧)] اجعلني متمكِّنًا من رؤيتك بأن تتجلَّى لي فأنظرَ إليك. انتهى.

﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ قال ابن عطية: نصٌّ على منعه الرؤيةَ في الدنيا، و«لن» تنفي المستقبلَ، فلو بقينا على هذا النفي بمجرَّده لتضمَّن أن موسى لا يراه أبدًا ولا في الآخرة، ولكن ورد من جهةٍ أخرى الحديثُ المتواتر أنَّ أهل الإيمان يرون الله تعالى يوم القيامة، فموسى عليه السلام أحرى برؤيته[(٨)].

وقال الزمخشري: فإن قلتَ: ما معنى «لن»؟ قلتُ: تأكيدُ النفي الذي تعطيه «لا»، وذلك أن «لا» تنفي المستقبل، تقول: لا أفعلُ غدًا، فإذا أكَّدْتَ نفيها قلت: لن أفعل غدًا، والمعنى: إنَّ فِعْلَه يُنافي حالي، كقوله تعالى: ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ

(١) في النسخ عدا (د١): ازدجر، والمثبت منها ومن المطبوع، وهو الموافق لما في مطبوع الكشاف.
(٢) في (د١) والمطبوع: مع، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في مطبوع الكشاف.
(٣) قوله: أو يخاطب، من (د١) والمطبوع: وفي الكشاف: أو ما يخاطب.
(٤) في النسخ عدا (د١): محط، والمثبت منها ومن المطبوع، وهو الموافق لما في مطبوع الكشاف.
(٥) في النسخ عدا (د١): البصر، والمثبت منها ومن المطبوع، وهو الموافق لما في مطبوع الكشاف.
(٦) هما أبو علي الجبائي وابنه أبو هاشم، وهما من رؤوس المعتزلة. وينظر الكشاف ١/ ٤٥٢.
(٧) زيادة يقتضيها السياق مستفادة من سياق الكلام في الكشاف ٢/ ١١٢.
(٨) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٠. وحديث رؤية الله تعالى يوم القيامة أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣]، وقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] نفيٌ للرؤية فيما يُستقبَل، و«لن تراني» تأكيدٌ وبيان.

فإن قلتَ: كيف قال: «لن تراني»، ولم يقل: لن تنظر إليَّ، لقوله: «أنظر إليك»؟ قلتُ: لمَّا قال: «أرني» بمعنى: اجعلني متمكِّنًا من الرؤية التي هي الإدراك، عُلم أنَّ الطلبة هي الرؤيةُ لا النظرُ الذي لا إدراكَ معه، فقيل: «لن تراني» ولم يقل: لن تنظر إليَّ[١].

﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ قال مجاهد وغيره: ولكن سأتجلَّى للجبل الذي هو أقوى منك وأشدُّ، فإن استقرَّ وأطاقَ الصبر لهيبتي فسيُمْكِنُك أنت رؤيتي؛ قال ابن عطية: فعلى هذا إنما جَعَلَ الله له الجبلَ مثالاً، وقالت فرقة: إنما المعنى: سأتبدَّى لك على الجبل فإن استقرَّ لعظمتي فسوف تراني[٢]. انتهى.

وتعليقُ الرؤية على تقدير الاستقرار مؤذِنٌ بعدمها إن لم يستقرَّ، ونبَّه بذلك على أنَّ الجبل مع شدته وصلابته إذا لم يستقرَّ فالآدميُّ مع ضعفِ بنيته أَوْلى بأنْ لا يستقرَّ، وهذا تسكينٌ لقلب موسى وتخفيفٌ عنه من ثقل أعباء المنع.

وقال الزمخشري[٣]: فإن قلت: كيف اتَّصل الاستدراك في قوله تعالى: «ولكن انظر إلى الجبل» بما قبله؟ قلت: اتَّصَلَ به على معنى: إنَّ النظر إليَّ محالٌ فلا تَطْلُبْه، ولكن عليك بنظرٍ آخَرَ وهو أن تنظُرَ إلى الجبل الذي يرجف بك وبمن طلبتَ الرؤيةَ لأجلهم كيف أفعل به، وكيف أجعلُه دكًّا بسبب طلبك للرؤية، لتستعظم ما أقدمْتَ عليه بما أُريك من عظيم أثره، كأنه عزَّ وعلا حقَّق عند طَلَب الرؤية ما مَثَّلَه عند نسبة الولد إليه في قوله تعالى: ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠-٩١] فإن استقرَّ مكانه كما كان مستقرًّا ثابتًا ذاهبًا في جهاته «فسوف تراني» تعريضٌ لوجود الرؤية لوجود ما لا يكون[٤] من استقرار الجبل مكانَه

(١) الكشاف ٢/ ١١٢ و١١٣.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٠.
(٣) في الكشاف ٢/ ١١٣-١١٤.
(٤) كذا وقعت العبارة في النسخ، والصواب: تعليق لوجود الرؤية بوجود ما لا يكون، كما في الكشاف، ولكن تحرفت في مطبوعه: بوجود، إلى: موجود.

حين يدكُّه دكًّا ويسوِّيَه بالأرض، وهذا كلامٌ مُدْمَجٌ بعضُه في بعض، واردٌ على أسلوبٍ عجيبٍ ونظمٍ[١] بديعٍ، ألا ترى كيف تخلّص من النظر إلى النظر بكلمة الاستدراك، ثم كيف بَنَى الوعيد[٢] بالرَّجفة الكائنة بسبب طلب النظر على الشريطة في وجود الرؤية، أعني قوله: «فإن استقرَّ مكانه فسوف تراني». انتهى.

وهو على طريقة المعتزلة في نفي رؤية الله تعالى، ولهم في ذلك أقاويلُ أربعةٌ:

أحدها: ما رووا عن الحسن وغيرِه أن موسى ما عَرَفَ أنَّ الرؤية غيرُ جائزةٍ، وهو عارِفٌ بربِّه وبعَدْله وتوحيده، فلم يَبْعُدْ أن يكون العلمُ بامتناع الرؤية وجوازِها موقوفًا على السماع.

ورُدَّ ذلك بأنه يلزمُ أن تكون معرفتُه بالله أقلَّ درجةً من معرفة أراذل المعتزلة، وذلك باطلٌ بالإجماع.

الثاني: قال الجبائي وابنُه أبو هاشم: سأل الرؤيةَ على لسان قومه فقد كانوا مُكْثِرين للمسألة عنها، لا لنفسه، فلمَّا مُنع منها ظهر أنْ لا سبيل إليها.

ورُدَّ بأنه لو كان كذلك لقال: أرِهم ينظروا إليك، ولقيل: لن تروني، وأيضًا لو كان محالًا لمنعهم عنه كما منعهم عن جَعْلِ الآلهة لهم بقوله: «إنكم قومٌ تجهلون».

وقال الكعبي: سأله الآيات الباهرةَ التي عندها تزولُ الخواطرُ والوساوسُ عن معرفته، كما نقول في معرفة أهلِ الآخرة.

ورُدَّ ذلك بأنه يقتضي حذفَ مضافٍ، وسياقُ الكلام يأبَى ذلك، وقد أَراه من الآيات ما لا غايةَ بعدها كالعصا وغيرِها.

وقال الأصم: المقصودُ أن يُذْكَر من الدلائل السمعية ما يدلُّ على امتناع الرؤية، حتى يتأكَّدَ الدليلُ العقليُّ بالدليل السمعيِّ[٣].

(١) في الكشاف: ونمط.
(٢) في (د١) والمطبوع: ثنى بالوعيد.
(٣) تنظر هذه التأويلات مع الردود عليها في تفسير الرازي ١٤/ ٢٢٩-٢٣١.

و«أل» في «الجبل» للعهد، وهو أعظمُ جبلٍ بمدينَ يقال له: إدريين، قال ابن عباس: تطاولت الجبال للتجلّي، وتواضع إدريين فتجلَّى له[١].

❁ ❁ ❁

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ
تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى
وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ
شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ
ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ
يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ
مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ
سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟
قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ
قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ
بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ
ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى
رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ
وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا
وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ
ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ
رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا
فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٥٧، وفيه: زبير، بدل: إدريين.

وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ
إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ
يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾.

المفردات

التجلِّي: الظهور.

الدَّك: مصدرُ دَكَكْتُ الشيءَ فَتَتُّهُ وسحقته، مصدرٌ في معنى المفعول، والدَّكُّ والدَّقُّ بمعنى واحدٍ، وقال ابن عُزيز[1]: «دكًّا»: مستويًا مع الأرض.

الخُرُور: السُّقوط.

أفاق: ثاب إليه حسُّه وعقلُه.

اللَّوْح معروفٌ، وهو يعدُّ للكتابة وغيرِها، وأصلُه: اللَّمْعُ؛ تَلْمَعُ وتَلُوحُ فيه الأشياءُ المكتوبة.

الحُليُّ معروفٌ، وهو ما يَتَزيَّنُ به النساءُ من فضةٍ وذهبٍ وجوهرٍ وغيرِ ذلك من الحجر النفيس.

الخُوَار: صوت البقر.

الأسف: الحزن، يقال: أَسِفَ يأسَفُ.

الجرُّ: الجذب.

الإشمات: السرور بما ينال الشخص من المكروه.

السُّكوت والسُّكات: الصَّمْت.

* * *

(١) محمد بن عُزيز، أبو بكر السجستاني المفسر، عاش إلى حدود سنة (٣٣٠هـ). السير ١٥/٢١٦. وقد وقع في اسم: عزيز، خلاف بين العلماء ذكره الذهبي، وأن بعضهم ضبطه بزايين، وبعضهم بزاء وراء، وقد رجح الأول ابن حجر في تبصير المنتبه ٣/٩٤٨-٩٥٠، خلافاً للذهبي فإنه رجح الثاني. وكلام ابن عزيز في كتابه نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن ص٢٢٧.

التفسير ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ﴾ ترتَّب على التجلِّي أمران:

أحدهما: تفتُّتُ الجبل وتفرُّقُ أجزائه.

والثاني: خُرورُ موسى مغشيًّا عليه؛ قاله ابنُ زيد وجماعةُ المفسرين(١).

وقال السدِّي: ميتًا(٢). ويُبْعِدُه لفظةُ «أفاق».

والتجلِّي بمعنى الظهورِ الجسمانيِّ مستحيلٌ على الله تعالى، قال ابنُ عباس وقومٌ: لمَّا وقع نورُه عليه تَدَكْدَكَ(٣).

وقال المبرِّد: المعنى: ظَهَرَ للجبل من مَلكوت الله ما تَدَكْدَكَ به(٤).

وقيل: ظهر جزءٌ من العرش للجبل فتصدَّعَ من هيبته.

وقيل: ظهر أمرُه تعالى(٥).

وقيل: تجلَّى لأهل الجبل، يريد موسى والسبعين الذين معه.

وقال الضحاك: أظهر الله من نور الحُجُب مثلَ منخر الثور(٦).

وقال عبد الله بن سلام وكعبُ الأحبارِ: ما تجلَّى من عظمة الله للجبل إلا مثلُ سَمِّ الخِيَاط(٧).

وقال الزمخشري: فلمَّا ظهر له اقتدارُه وتصدَّى له أمرُه وإرادتُه(٨). انتهى.

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٢٧-٤٢٨ عن ابن عباس وابن زيد.

(٢) لم أقف عليه عن السدي، وأخرجه الطبري ١٠/ ٤٢٨ عن قتادة وابن جريج.

(٣) ذكره الثعلبي ٣/ ٦٧، والبغوي ٢/ ١٩٧ بلفظ: ظهر نور ربه للجبل، جبل زبير.

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٢٥٨ دون نسبة، وذكر عن المبرد نحوه الثعلبيُّ ٣/ ٦٧، فقال: «وقال المبرد: معناه: فلما تَجلَّى ربُّه آيةً للجبل، جعله فعلاً متعدياً كالتخلص والتبدل والتوعد».

(٥) النكت والعيون ٢/ ٢٥٨، وعزاه الثعلبي ٣/ ٦٧ لقطرب.

(٦) تفسير الثعلبي ٣/ ٦٧، وتفسير البغوي ٢/ ١٩٧.

(٧) المصدران السابقان.

(٨) الكشاف ٢/ ١١٤.

وقال المتأوِّلون المتكلِّمون كالقاضي أبي بكر بن الطَّيِّب وغيرِه: إن الله خلق للجبل حياةً وحسًّا وإدراكًا يرى به، ثم تجلَّى له ـ أي: ظهر وبدا ـ فاندكَّ الجبلُ لشدة المَطْلِع، فلمَّا رأى موسى ما بالجبل صعق. وهذا المعنى مرويٌّ عن ابن عباس[١].

والظاهر نسبةُ التجلِّي إليه تعالى على ما يليقُ به من غير انتقالٍ ولا وصفٍ يدل على الجسمية.

وقال ابن عباس: صار ترابًا[٢].

وقال مقاتل: قطعًا متفرِّقة[٣].

وقيل: صار ستة أَجْبُلٍ: ثلاثة بالمدينة: أحدٌ ووَرِقانُ ورَضْوَى، وثلاثة بمكة: ثورٌ وثَبيرٌ وحِراءٌ، رواه أنس عن رسول الله ﷺ[٤].

وقيل: ذهب أعلاه وبقي أكثره.

وقيل: صار غبارًا تذروه الرياح.

وقال سفيان: روي أنه ساخ في الأرض وأفضى إلى البحر الذي تحت الأرضين. قال ابن الكلبي: فهو يهوي فيه إلى يوم القيامة[٥].

وقرأ الجمهور: «دكًّا»، أي: مدكوكًا، أو: ذا دَكٍّ، وقرأ حمزة والكسائي: «دكَّاءَ» على وزن حمراء[٦]، والدكَّاءُ: الناقة التي لا سنامَ لها، والمعنى: جَعَله أرضًا دكَّاءَ تشبيهًا بالناقة الدكَّاء.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥١.

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٢٧.

(٣) النكت والعيون ٢/ ٢٥٨.

(٤) أخرجه ابن حبان في المجروحين ١/ ٢١١، وابن الجوزي في الموضوعات (٢٥). قال ابن حبان: موضوع لا أصل له.

(٥) ذكر هذه الأقوال ابن عطية في المحرر ٢/ ٤٥١، وقول سفيان أخرجه الطبري ١٠/ ٤٢٨ بنحوه.

(٦) السبعة ص٢٩٣، والتيسير ص١١٣.

وقال الربيع بن خُثيم: ابسُطْ يدكَ دكَّاءَ، أي: مُدَّها مستويةً[١].

وقال الزمخشري: والدكّاء اسمٌ للرابية الناشزة من الأرض، كالدَّكَّة[٢]. انتهى، وهذا يناسبُ قولَ مَن قال: إنه لم يذهب بجملته، وإنما ذهب أعلاه وبقي أكثرُه.

وقرأ يحيى بن وثاب: «دُكًّا»[٣]، أي: قطعًا، جمع دكَّاء، نحو غُرٌّ جمع غَرَّاء.

وانتصب على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ«جَعَله»، ويَضْعُفُ قولُ الأخفش: إنَّ نَصْبَه من باب: قعدتُ جلوسًا[٤].

و«صَعِقًا» حالٌ مقارِنةٌ، ويقال: صَعَقَه فصَعِقَ، وهو من الأفعال التي تعدَّت بالحركة، نحو: شَتَرَ الله عينَه فَشَتِرتْ.

والظاهرُ أنَّ موسى والجبلَ لم يُطيقا رؤيةَ الله تعالى حين تجلَّى، فلذلك اندكَّ الجبلُ وصَعِقَ موسى عليه السلام، وحَكَى عِياضُ بن موسى[٥] عن القاضي أبي بكر بن الطيِّب أنَّ موسى عليه السلام رأى الله فلذلك خرَّ صعقًا، وأن الجبل رأى ربَّه فصار دكًّا بإدراكٍ خَلَقه الله له.

وذكر أبو بكر بن أبي شَيْبَةَ عن كعبٍ قال: إنَّ الله تعالى قَسَم كلامَه ورؤيته بين محمدٍ وموسى صلى الله عليهما وسلم، فكلَّم موسى مرتين، ورآه محمدٌ ﷺ مرتين[٦].

وذكر المفسِّرون من رؤيته ملائكةَ السماوات السبع وحملةَ العرش وهيئاتهم وأعدادهم ما اللهُ أعلمُ بصحته[٧].

---

(١) الكشاف ٢/ ١١٤-١١٥، وفيه: وعن الشعبي: وقال لي الربيع بن خثيم: ابسط...

(٢) الكشاف ٢/ ١١٤.

(٣) القراءات الشاذة ص٤٥، والكشاف ٢/ ١١٥.

(٤) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٥٣١ بنحوه.

(٥) في الشفا ١/ ٣٨٥.

(٦) مصنف ابن أبي شيبة (٣٢٤٩٨)، وأخرجه الترمذي (٣٢٧٨) في قصة جرت بين ابن عباس رضي الله عنه وكعب.

(٧) ينظر ما أخرجه الطبري ١٠/ ٤٢٠-٤٢٧ عن ابن إسحاق، وما ذكره الثعلبي ٣/ ٦٥-٦٧ عن وهب.

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾أي: من مسألة الرؤية في الدنيا؛ قاله مجاهد[١]. أو: من سؤالها قبل الاستئذان. أو: عن صغائري؛ حكاه الكرماني.

أو قال ذاك على سبيل الإنابة إلى الله تعالى والرجوع إليه عند ظهور الآيات، على ما جرت به عادةُ المؤمن عند رؤية العظائم، وليس توبةً عن شيءٍ معيَّن، أشار إليه ابنُ عطية[٢].

وقال الزمخشريُّ: «قال سبحانك» أنزِّهُك عمَّا لا يجوز عليك من الرؤية وغيرِها «تبت إليك» من طلب الرؤية. فإن قلتَ: فإنْ كان طلبُ الرؤية للغرض الذي ذكرتَه فممَّ تاب؟ قلتُ: من إجرائه تلك المقالةَ العظيمةَ ـ وإن كان لغرضٍ صحيح ـ على لسانه من غير إذنٍ فيه من الله تعالى، فانظُر إلى إعظام الله تعالى أمرَ الرؤية في هذه الآية، وكيف أرجَفَ الجبلَ بطالبيها وجَعَلَه دكًّا، وكيف أصعقَهم، ولم يُخَلِّ كليمُه من نفيان ذلك مبالغةً في إعظام الأمر، وكيف سَبَّح ربَّه ملتجئًا إليه، وتاب من إجراء تلك الكلمةِ على لسانه، وقال: «أنا أولُ المؤمنين». ثم تعجَّبْ من المتَّسِمِينَ بالإسلام، المتَسَمِّينَ بأهل السنَّة والجماعة، كيف اتَّخذوا هذه العظيمةَ مذهبًا! ولا يغرَّنَّك تستُّرُهم بالبَلْكَفة[٣]، فإنه من منصوبات أشياخهم، والقولُ ما قال بعض العَدْلية[٤] فيهم:

لجماعةٌ سمَّوا هواهم سُنَّةً وجماعةٌ حُمُرٌ لعَمْري مُوْكَفَهْ
قد شبَّهوه بخَلْقِه وتخوَّفوا شَنْعَ الوَرَى فتستَّروا بالبَلْكَفَهْ[٥]

وهو تفسيرٌ على طريقة المعتزلة، وسبٌّ لأهل السُّنة والجماعة على عادته، وقد نَظَمَ بعضُ علماء السنة على وزن هذين البيتين وبحرهما؛ أنشدنا الأستاذ العلَّامة

---

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٣٤.

(٢) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٢.

(٣) البلكفة: نحت كالبسملة، أي: القائلين بأن الرؤية بلا كيف. حاشية الشهاب على البيضاوي ٤/ ٢١٦.

(٤) العدلية من أسماء المعتزلة، وينظر في سبب التسمية منهاج السنة النبوية ٣/ ١٤١، وفيض القدير ١/ ٤١٥.

(٥) الكشاف ٢/ ١١٥-١١٦.

أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير بغَرْناطة إجازةً إن لم يكن سماعًا، ونقلتُه من خطِّه، قال: أنشدنا القاضي الأديب العالِمُ أبو الخطاب محمد بن أحمد بن خليل السَّكُوني بقراءتي عليه، عن أخيه القاضي أبي بكر[١] من نَظْمِه:

شَبَّهْتَ جَهْلاً صَدْرَ أمةِ أحمد وذوي البصائرِ بالحمير المُوْكَفَهْ
وزَعَمْتَ أنْ قد شبَّهوا معبودَهم وتخوَّفوا فتستَّروا بالبَلْكَفَهْ
ورَمَيْتَهم عن نبعةٍ سوَّيْتَها رَمْيَ الوليدِ غدا يمزِّقُ مُصْحَفَهْ
وَجَبَ الخَسَارُ عليك فانْظُرْ مُنْصِفاً في آية الأعراف فهي المُنْصِفَهْ
أترى الكليمَ أتَى بجهلٍ ما أتَى وأتَى شيوخُك ما أتَوْا عن مَعْرِفَهْ
وبآيةِ الأعرافِ وَيْكَ خُذِلْتُمُ فوقَعْتُمُ دون المراقي المُزْلَفَهْ
لو صحَّ في الإسلام عقدُكَ لم تَقُلْ بالمذهبِ المهجورِ من نفي الصِّفَهْ
إن الوجوه إليه ناظرةٌ بذا جاء الكتابُ فقلتُم هذا السَّفَهْ
فالنَّفْيُ مختصٌّ بدارٍ بعدها لك لا أبا لك موعِدًا لن تُخْلَفَهْ

وأنشدنا قاضي القضاة أبو القاسم عبد الرحمن ابن قاضي القضاة أبي محمد بن عبد الوهاب بن خلف العَلَاميُّ[٢] بالقاهرة لنفسه:

قالوا يُريد ولا يكونُ مرادُه عَدَلوا ولكنْ عن طريقِ المعرفَهْ

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٤٣﴾ قال ابن عباس ومجاهدٌ: من قومي بني إسرائيل[٣].

وقيل: مِن أهل زمانه إن كان الكفرُ قد طبَّق الآفاق[٤].

---

(١) يحيى بن أحمد السكوني، كان عالماً بأصول الفقه والكلام، خطيباً مفوَّهاً، له حظٌّ من النظم والنثر، شَرَحَ مستصفى الغزالي، وقيد على تفسير الزمخشري كتاباً سماه: الحسنات والسيئات، أبدى فيه مستظرف غرائبه البيانية وطرقه الاعتزالية، توفي سنة (٦٢٧هـ). نيل الابتهاج بتطريز الديباج للتنبكتي على هامش الديباج المذهب ص٣٥٥.

(٢) وكان فقيهاً نحوياً أديباً، جرت له محنة مع الملك الأشرف، ثم نجاه الله منها، توفي سنة (٦٩٥هـ). طبقات الشافعية الكبرى ٨/ ١٧٢.

(٣) أخرجه عنهما الطبري ١٠/ ٤٣٥.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٢.

وقال أبو العالية: بأنك لا تُرى في الدنيا[١].

وقال الزمخشري: بأنك لستَ بمرئيٍّ ولا مُدْرَكٍ بشيءٍ من الحواس[٢].

وقال أيضًا: بعظمتك وجلالك، وأنَّ شيئًا لا يقوم لبطشك وبأسك[٣]. انتهى.

وتفسيرُه الأولُ على طريقة المعتزلة، وقد ذكر متكلِّمو أهل السنة دلائلَ على رؤية الله تعالى في الآخرة سمعيةً وعقليةً يوقَفُ عليها وعلى حجج الخصوم في كتب أصول الدين.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ لمَّا طلب موسى عليه السلام الرؤيةَ ومُنِعَها عدَّدَ عليه تعالى وجوهَ نعمه العظيمة عليه، وأَمَره أن يشتغل بشُكْرِها، وهذه تسليةٌ منه تعالى له، والاصطفاءُ تقدَّم شرحُه[٤]، و«على الناس» لفظٌ عام ومعناه الخصوصُ، أي: على أهل زمانك، أو يبقى على عمومه، يعني: في مجموع الدرجتين: الرسالة والكلام؛ قاله ابن عطية[٥]. وينبغي أن يُحمل ذلك على وقوع الكلام في الأرض، إذ ثبت أنَّ آدم نبيٌّ مكلَّم[٦]، وتؤوِّل على أنَّ ذلك في الجنة، ورسولُنا محمدٌ ﷺ يَظْهَرُ من حيث الإسراء أنّه كلَّمه الله تعالى.

ويدلُّ قوله: «وبكلامي» على أنه سمع الكلام من الله لا من غيره؛ لأنَّ الملائكة تنزل على الرسل بكلام الله.

وقدَّم «برسالاتي» على «بكلامي» لأن الرسالة أسبقُ في الزمان، أو لأنّه انتقل من شريفٍ إلى أشرف.

(١) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٣٣.
(٢) الكشاف ٢/ ١١٥.
(٣) الكشاف ٢/ ١١٦.
(٤) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة: ١٣٠].
(٥) في المحرر ٢/ ٤٥٢.
(٦) يشير إلى ما أخرجه أحمد (٢١٥٤٦) من حديث أبي ذر ﷺ، وفيه أن النبي ﷺ سئل عن آدم. فقال: «نبيٌّ مكلَّم»، وإسناده ضعيف، وقد سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وينظر المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٢.

وقرأ الحِرْميان: «برسالتي» على الإفراد[١]، وهو مرادٌ به المصدر، أي: بإرسالي، أو يكون على حذفِ مضافٍ، أي: بتبليغ رسالتي؛ لأنَّ مدلول الرسالة غيرُ مدلول المصدر.

وقرأ باقي السبعة بالجمع؛ لأن الذي أُرسل به ضروبٌ وأنواع.

وقرأ الجمهور: «وبكلامي»، فاحتمل أن يكون مصدرًا، أي: وبتكليمي، أو يكون على حذف مضافٍ، أي: وبسماع كلامي.

وقرأ أبو رجاء: «برسالتي وبكَلِمي» جمع كلمة، أي: وبسماع كلمي.

وقرأ الأعمش: «برسالاتي وبكَلِمي»، وحَكَى عنه المهدويُّ: «وتكليمي» على وزن: تفعيلي[٢].

وأَمَره تعالى بأن يأخذَ ما آتاه من النبوّة لأنَّ في الأمر بالأخذ مزيدَ تأكيدٍ وحصولَ أجرٍ بالامتثال، والمعنى: خُذْ ما آتيتك باجتهادٍ في تبليغه وجِدٍّ في النفع به، وكن من الشاكرين على ما آتيناك، وفي ذلك إشارةٌ إلى القَنَع والرِّضا بما أعطى الله، والشكرِ عليه.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾قيل: إن موسى عليه السلام صَعِقَ يومَ الجمعة يومَ عرفة وأفاق فيه، وأُعطي التوراةَ يومَ النحر[٣].

وظاهرُ قوله: «وكتبنا» نسبةُ الكتابة إليه:

فقيل: كتب بيده وأهلُ السماء يسمعون صرير القلم في اللوح[٤].

وقيل: أَظْهَرَها وخَلَقَها في الألواح.

وقيل: أمر القلم أن يخطَّ لموسى في الألواح. وقيل: كتبها جبريلُ عليه السلام

(١) السبعة ص٢٩٣، والتيسير ص١١٣.
(٢) ذكر هذه القراءات ابن عطية في المحرر ٢/ ٤٥٢، ووقعت قراءة أبي رجاء في مطبوعه: «برسالتي وبكلمتي».
(٣) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٢٥٩ عن ابن عباس، والبغوي ٢/ ١٩٨ عن الكلبي، والقرطبي ٩/ ٣٢٥ عن قتادة والكلبي.
(٤) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٥٦ عن سعيد بن جبير.

بالقلم الذي كتب به الذِّكر، واستمدَّ من نهر النور[١]. ففي هذين القولين أَسند ذلك إلى نفسه إسنادَ تشريفٍ؛ إذ ذاك صادرٌ عن أمره.

وقيل: معنى «كتبنا»: فرضنا، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣][٢].

والضمير في «له» عائدٌ على موسى، والألواحُ جمعُ قِلَّةٍ، و«أل» فيها لتعريفِ الماهِيَةِ فإن كان هو الذي قطعها وشقَّقها[٣]، فتكونُ «أل» فيها للعهد، وقال ابن عطية: عوضٌ من الضمير الذي يقدَّرُ وصلةً بين الألواح وموسى عليه السلام، تقديره: في ألواحه، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤١] أي: مأواه[٤]. انتهى.

وكونُ «أل» عِوَضًا من الضمير ليس مذهبَ البصريين، ولا يتعيَّنُ أن يكون عوضًا من الضمير، وليس ذلك كقوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ لأن الجملة خبرٌ عن «مَن»، فاحتاجت الجملةُ إلى رابطٍ، فقال الكوفيون: «أل» عوضٌ من الضمير، كأنه قيل: مأواه، وقال البصريون: الرابطُ محذوفٌ، أي: هي المأوى له.

وظاهر «الألواح» الجمع:

فقيل: كانت سبعةً، وروي ذلك عن ابن عباس.

وقيل: ثمانية، ذكره الكرماني.

وقيل: تسعةً، قاله مقاتل.

وقيل: عشرة، قاله وهب بن منبه.

وقيل: اثنان وروي عن ابن عباس أيضًا، واختاره الفرَّاءُ[٥]، وهذا ضعيفٌ؛

---

(١) ذكر هذا القول الرازي في تفسيره ١٤/ ٢٣٦ عن ابن جريج، ثم قال: واعلم أنه ليس في لفظ الآية ما يدل على كيفية تلك الألواح، وعلى كيفية تلك الكتابة، فإن ثبت ذلك التفصيل بدليل منفصل قوي وجب القول به، وإلا وجب السكوت عنه.

(٢) النكت والعيون ٢/ ٣٥٩.

(٣) كما نقل البغوي ٢/ ١٦٦ عن وهب بن منبه، وسيرد قريباً.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٢.

(٥) ذكر هذه الأقوال عدا قول الكرمانيّ ابنُ الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٥٨.

لأن الدلالة بالجمع على اثنين قياسًا له شرطٌ مذكورٌ في النحو، وهو مفقودٌ هنا.

وقال الربيع بن أنس: نزلت التوراةُ وهي وِقْرُ سبعين بعيرًا يُقْرأُ الجزءُ منها في سنة، ولم يقرأها سوى أربعةِ نفرٍ: موسى ويوشع وعُزير وعيسى[(١)].

وقد اختلفوا من أيِّ شيءٍ هي، فعن ابن عباس وأبي العالية: من زبرجد، وعن ابن جبير: من ياقوت أحمر، وعن ابن عباس أيضًا ومجاهد: من زمردٍ أخضر، وعن أبي العالية أيضًا: من بَرَدٍ، وعن مقاتل: من زُمُرُّدٍ وياقوت، وعن الحسن: من خشب طولُها عشرة أذرع، وعن وهب: من صخرةٍ صمَّاء أُمر بقطعها ولانت له، فقطعها بيده وشقَّقها بأصابعه[(٢)].

وقيل: من نورٍ، حكاه الكرمانيُّ، والمعنى: من كلِّ شيءٍ محتاجٍ إليه في شريعتهم.

﴿مَّوْعِظَةً﴾للازْدِجار والاعتبار ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾من التكاليف: الحلال والحرام، والأمر والنهي، والقصص والعقائد، والإخبار بالمغيَّبات.

وقال ابن جبير ومجاهد: «لكل شيءٍ» بما أُمروا به ونُهوا عنه. وقال السدي: الحلال والحرام[(٣)].

وقال مقاتل: كان مكتوبًا في الألواح: إني أنا الله الرحمن الرحيم، لا تُشْرِكوا بي شيئًا، ولا تقطعوا السُّبلَ، ولا تحلفوا باسمي كاذبين، فإنَّ مَن حَلَفَ باسمي كاذبًا فلا أزكِّيه، ولا تقتلوا، ولا تزنوا، ولا تعقُّوا الوالدين[(٤)].

والظاهرُ أنَّ مفعول «كتبنا»: «موعظة»، أي: كتبنا فيها موعظةً من كلِّ شيءٍ وتفصيلًا لكلِّ شيءٍ، قاله الحَوْفي، قال: نصب «موعظةً» بـ«كتبنا»، و«تفصيلًا» عطفٌ على «موعظةً لكلِّ شيءٍ» متعلِّقٌ بـ«تفصيلًا». انتهى.

---

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٤٥٥، وتفسير الثعلبي ٣/ ٧٢، والكشاف ٢/ ١١٦، وتفسير البغوي ٢/ ١٩٩، وتفسير القرطبي ٩/ ٣٢٨. وعندهم جميعاً: وهي سبعون وقر بعير.

(٢) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٠/ ٤٥٦-٤٥٧، والنكت والعيون ٢/ ٢٦٠، وتفسير البغوي ٢/ ١٩٩، وزاد المسير ٣/ ٢٥٨.

(٣) أخرج القولين الطبري ١٠/ ١٣٧-١٣٨.

(٤) تفسير الثعلبي ٣/ ٧٢، والكشاف ٢/ ١١٦.

وقال الزمخشري: «من كلِّ شيءٍ» في محلِّ النصب مفعول «كتبنا»، و«موعظةً وتفصيلًا» بدلٌ منه، والمعنى: كتبنا له كلَّ شيءٍ كان بنو إسرائيل يحتاجون إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام[(١)]. انتهى.

ويُحتملُ عندي وجهٌ ثالثٌ، وهو أن يكون مفعولُ «كتبنا» موضعَ المجرور، كما تقول: أكلتُ من الرغيف، و«من» للتبعيض، أي: كتبنا له أشياءَ من كلِّ شيءٍ، وانتصب «موعظةً وتفصيلًا» على المفعول من أَجْله، أي: كتبنا له تلك الأشياء للاتِّعاظ والتفصيل لأحكامهم[(٢)].

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ أي: فقلنا: خذها، عطفًا على «كتبنا»، ويجوز أن يكون «فخذها» بدلًا من قوله: «فخذ ما آتيتُك»، والضمير في «فخذها» عائدٌ على «ما» على معنى «ما» لا على لفظِها، وأمَّا إذا كان على إضمارِ: فقلنا، فيكون عائدًا على «الألواح»، أي: الألواح[(٣)]، أو على «كلِّ شيء» لأنه في معنى الأشياء، أو على التوراة، أو على الرسالات، وهذه احتمالاتٌ مَقولةٌ أظهرُها الأول.

ومعنى «بقوَّة»، قال ابن عباس: بِجدٍّ واجتهادٍ فِعْلَ أُولي العَزْم.

وقال أبو العاليةِ والربيعُ بن أنس: بطاعة.

وقال جُوَيْبر: بشكرٍ.

وقال ابن عيسى: بعزيمةٍ وقوةِ قلبٍ؛ لأنه إذا أخذها بضعفِ النية أدَّاه إلى الفتور[(٤)]، وهذا القولُ راجعٌ لقول ابن عباس.

---

(١) الكشاف ٢/ ١١٦.

(٢) في (ب) و(د٣) و(يه): للأحكام. وينظر روح المعاني ٩/ ٣٥٨، فقد استبعد الآلوسي أن تكون «موعظة» مفعولًا من أجله، قال: لأن الظاهر عطف «تفصيلًا» على «موعظة» وظاهرٌ أنه لا معنى لقولك: كتبنا له من كل شيءٍ تفصيلًا لكل شيء.

(٣) قوله: أي الألواح، متعلق بقوله بدايةً: أي: فقلنا خذها، وسبب هذا الانقطاع في السياق أن المصنف استدرك على هامش (ز١) من قوله: عطفاً على «كتبنا»، إلى قوله: عائداً على الألواح، والنسخ الأخرى نقلت عنها فجاء الكلام فيها ضمن المتن.

(٤) تنظر هذه الأقوال مفرقة في تفسير الطبري ١٠/ ٤٣٩-٤٤٠، والنكت والعيون ٢/ ٢٦٠، والكشاف ٢/ ١١٦-١١٧، وتفسير البغوي ٢/ ٢٠٠، وزاد المسير ٣/ ٢٥٩.

وقال ابن عباس: أُمر موسى أن يأخذ بأشدَّ ممَّا أَمر به قومه[١].

وقولُه: «بأحسنها» ظاهرُه أنه أفعلُ التفضيل، وفيها الحَسَنُ والأحسنُ، كالقصاص والعفو والانتصار والصبر.

وقيل: أحسنُها: الفرائضُ والنوافلُ، وحَسَنُها: المباحُ.

وقيل: أحسنُها: الناسخُ، وحَسَنُها: المنسوخ. ولا يتصوَّر أن يكون المنسوخُ حَسَنًا إلا باعتبار ما كان عليه قبلَ النسخ، أمَّا بعد النسخ فلا يُوصَفُ بأنه حَسَنٌ؛ لأنه ليس مشروعًا.

وقيل: الأحسنُ المأمورُ به دون المنهيِّ عنه؛ قال الزمخشري: على قوله: الصيفُ أحرُّ من الشتاء[٢]. انتهى، وذلك على تخيُّلِ أنَّ في الشتاء حرًّا، ويمكنُ الاشتراكُ فيهما في الحُسْن بالنسبة إلى الملاذِّ وشهوات النفس، فيكونُ المأمورُ به أحسنَ من حيث الامتثالُ وترتُّبُ الثواب عليه، ويكونُ المنهيُّ عنه حَسَنًا باعتبارِ الملاذِّ والشهوة، فيكونُ بينهما قَدْرٌ مشتركٌ في الحُسْن وإن اخْتَلَفَ متعلَّقُه.

وقيل: أحسنُها هو أشبه ما تحتملُه الكلمة[٣] من المعاني إذا كان لها احتمالاتٌ، فتُحمل على أُولاها بالحقِّ وأقربِها إليه.

وقيل: «أحسن» هنا ليست أفعلَ التفضيل، بل المعنى: بِحَسَنها، كما قال:

بيتًا دعائمه أعزُّ وأطولُ[٤]

أي: عزيزةٌ طويلةٌ؛ قاله قطربٌ وابنُ الأنباري[٥]، فعلى هذا أُمروا بأنْ يأخذوا بحسنها، وهو ما يترتَّب عليه الثوابُ، دون المناهي التي يترتَّبُ على فعلها العقابُ.

وقيل: «أحسن» هنا صلةٌ، والمعنى: يأخذوا بها، وهذا ضعيفٌ؛ لأن الأسماء لا تزاد.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٢.

(٢) الكشاف ٢/ ١١٧.

(٣) قوله: الكلمة، ليس في (ب) و(د٣) و(يه).

(٤) وصدره: إن الذي سَمَكَ السماءَ بنى لنا، والبيت للفرزدق، وهو في ديوانه ٢/ ١٥٥.

(٥) زاد المسير ٣/ ٢٥٩.

وانْجَزَم «يأخذوا» على جواب الأمر، وينبغي تأويلُ «وأْمُرْ قومَكَ» لأنه لا يَلزمُ من أَمْرِ قومه بأَخْذِ أحسنِها أن يأخذوا بأحسنها، فلا ينتظمُ منه شرطٌ وجزاء[1].

و«بأحسنها» متعلِّقٌ بـ«يأخذوا»، وذلك على إعمال الثاني؛ لأن «بأحسنها» مقتضًى لقوله: «وأمر» ولقوله: «يأخذوا».

ويحتمل أن يكون قوله: «يأخذوا» مجزومًا على إضمارِ لام الأمر، أي: ليأخذوا؛ لأن معنى «وأمر قومك»: قل لقومك، وذلك على مذهب الكسائي.

ومفعولُ «يأخذوا» محذوفٌ لفهم المعنى، أي: يأخذوا أنفسَهم بأحسنها، ويحتمل أن تكون الباء زائدةً، أي: يأخذوا أحسنَها، كقوله:

لا يَقْرأنَ بالسُّوَرِ[2]

والوجهُ الأولُ أحسنُ.

وانظُرْ إلى اختلافِ متعلَّق الأمرين: أُمِرَ موسى بأَخْذِ جميعِها، فقيل: «فخذها بقوة» وأُكِّد الأخذُ بقوله: «بقوة»، وأُمروا هم أن يأخذوا بأحسنها ولم يؤكَّد ليُعْلَم أن رتبة النبوَّة أشقُّ في التكليف من رتبة التابع، ولذلك فُرِضَ على رسول الله ﷺ قيامُ الليل وغيرُ ذلك من التكاليف المختصة به.

والإرادةُ هنا من رؤية العين ولذلك تعدَّت إلى اثنين، و«دار الفاسقين» مصرُ، قاله عليٌّ وقتادةُ ومقاتلٌ وعطيةُ العوفي[3]، والفاسقون فرعونُ وقومُه، قال

(١) يعني: أن شرط الجزم انحلالُ الجملتين إلى شرط وجزاء، وهذا لا يستقيم هنا دون تأويل، لأننا إذا قلنا: إن تأمر قومك يأخذوا بأحسنها، لا يستقيم المعنى بدليل عصيان بعضهم له في ذلك، فلا بد من تأويل، نحو: إن تأمرهم ويوفقهم الله تعالى يأخذوا. ينظر الدر المصون ٥/ ٤٥٣، وروح المعاني ٩/ ٣٦٢.

(٢) قطعة من بيت سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وتمامه:

هن الحرائر لا رباتُ أحمرةٍ سودُ المحاجر لا يقرأن بالسُّور

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٣، وزاد المسير ٣/ ٢٦٠.

الزمخشريُّ: كيف أَقْفَرتْ منهم ودمِّروا لِفِسْقِهم، لتعتبروا فلا تفسقوا مِثْلَ فسقهم فينكِّلُ بكم مِثْلَ نكالهم[(١)]. انتهى.

وقيل: المعنى: سأُريكم مصارِعَ الكفار، وذلك أنه لمَّا أُغْرِقَ فرعونُ وقومُه أُوْحيَ إلى البحر أن اقْذِفْ أجسادَهم إلى الساحل، ففعل فنظر إليهم بنو إسرائيل فأراهم مصارعَ الفاسقين[(٢)].

وقال الكلبي: ما مرُّوا عليه إذا سافروا من مصارع عادٍ وثمودَ والقرونِ الذين أُهلكوا.

وقال قتادة أيضاً: الشام، والمرادُ العمالقةُ الذين أُمر موسى بقتالهم.

وقال مجاهد والحسن: «دار الفاسقين» جهنم، والمراد الكفرةُ بموسى وغيره[(٣)].

وقال ابن زيد: «سأريكم» من رؤية القلب، أي: سأُعلِّمُكم سِيرَ الأولين وما حلَّ بهم من النكال[(٤)].

وقيل: «دار الفاسقين» أي: ما دار إليه أمرُهم، وهذا لا يُدْرَك إلا بالأخبار التي يَحْدُثُ عنها العلمُ، وهذا قريبٌ من قول ابن زيد.

قال ابن عطية: ولو كان من رؤية القلب لتعدَّى بالهمزة إلى ثلاثة مفعولين، ولو قال قائلٌ: المفعولُ الثالثُ يتضمَّنه المعنى فهو مقدَّر، أي: مدمَّرةً، أو: خربةً، أو: مسعَّرةً ـ على قولِ مَن قال: إنها جهنم ـ قيل له: لا يجوزُ حذفُ هذا المفعول، ولا الاقتصارُ دونه؛ لأنها داخلةٌ على الابتداء والخبر، ولو جوِّز لكان على قبحٍ في اللسان لا يليقُ بكتاب الله تعالى[(٥)]. انتهى.

---

(١) الكشاف ٢/ ١١٧.

(٢) تفسير الثعلبي ٣/ ٧٣، وتفسير القرطبي ٩/ ٣٣٠. وروي نحو هذا المعنى عن سفيان الثوري، فقد أخرج عنه ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٦٦ قوله: «دار الفاسقين»: هلاك الفاسقين.

(٣) تنظر هذه الأقوال في المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٣، وزاد المسير ٣/ ٢٦٠، وتفسير الرازي ١٤/ ٢٣٨، وقول مجاهد والحسن أخرجه الطبري ١٠/ ٤٤١، وابن أبي حاتم ٥/ ١٥٦٦.

(٤) ذكره الثعلبي ٣/ ٧٣ بلفظ: يعني سَنَنَ الأولين.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٣.

وحذفُ المفعول الثالث في باب «أَعْلَمَ» لدلالة المعنى عليه جائزٌ، فيجوزُ في جواب: هل أعلمتَ زيدًا عمرًا منطلقًا: أعلمتَ زيدًا عمرًا، ويُحذَفُ «منطلقًا» لدلالة الكلام السابق عليه.

وأمَّا تعليلُه: لأنها داخلةٌ على الابتداء والخبر، لا يدلُّ على المنع؛ لأن خبر المبتدأ يجوزُ حذفُه اختصارًا، والثاني والثالثُ في باب «أَعْلَم» يجوزُ حذفُ كلِّ واحدٍ منهما اختصارًا. وفي قوله: لأنها ـ أي: «سأريكم» ـ داخلةٌ على المبتدأ والخبر، فيه تجوُّزٌ، ويعني أنها قبل النقل بالهمزة كانت داخلةً على المبتدأ والخبر.

وقرأ الحسن: «سأوريكم» بواوٍ ساكنةٍ بعد الهمزة[١] على ما يقتضيه رسمُ المصحف، ووجِّهت هذه القراءةُ بوجهين:

أحدهما: ما ذكره أبو الفتح، وهو أنه أشبعَ الضمةَ ومطلها[٢] فنشأ عنها الواوُ، قال: ويُحسِّنُ احتمالَ الواو في هذا الموضع أنَّه موضعُ وعيدٍ وإغلاظٍ فمكِّن الصوتُ فيه[٣]. انتهى، فيكون كقوله:

.... أدنو فأنظورُ[٤]

أي: فأنظر، وهذا التوجيهُ ضعيفٌ، لأن الإشباعَ بابُه ضرورةُ الشعر.

والثاني: ما ذكره الزمخشريُّ، قال: وقرأ الحسن: «سأوريكم» وهي لغةٌ فاشيةٌ بالحجاز، يقال: أَوْرِني كذا، وأَوْرَيْتُه، فوجهُه أن يكون من: أَوْرَيْتُه[٥] الزَّنْدَ، كأنَّ المعنى: بَيِّنه لي وأَنِرْه لأستَبينَه. انتهى، وهي أيضًا في لغة أهل الأندلس، كأنهم تلقَّفوها من لغة الحجاز وبقيت في لسانهم إلى الآن، وينبغي أن يُنظر في تحقُّق هذه اللغة: أهي في لغة الحجاز أم لا؟

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٥-٤٦، والمحتسب ١/٢٥٨، والمحرر الوجيز ٢/٤٥٣، والكشاف ٢/١١٧.
(٢) في (د١) والمطبوع: ومطها.
(٣) المحتسب ١/٢٥٨، والمحرر الوجيز ٢/٤٥٣، وعنه نقل المصنف.
(٤) قطعة من بيت لإبراهيم بن هرمة وهو في ديوانه ص٢٣٩ وتمامه:
وأنني حيثما يُشري الهوى بصري ... من حيثما سلكوا أدنو فأنظورُ
(٥) في (د١) والمطبوع ومطبوع الكشاف: أوريتُ.

وقرأ ابن عباس وقَسَامةُ بنُ زهيرٍ: «سأُوْرِثُكم»[١]، قال الزمخشريُّ: وهي قراءةٌ حسنةٌ يصحِّحُها قولُه تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧][٢].

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾لمَّا ذكر «سأوريكم دارَ الفاسقين» ذكر ما يَفعل بهم تعالى مِن صَرْفِه إياهم عن آياته لفسقهم وخروجِهم عن طَوْرِهم إلى وصفٍ ليس لهم، ثم ذكر تعالى من أحوالهم ما استحقُّوا به اسم الفسق.

قال ابن جبير[٣]: سأَصْرِفُهم عن الاعتبار والاستدلالِ بالدلائل. والآياتُ على هذا: المعجزاتُ وبدائعُ المخلوقات.

وقال قتادة: سأَصُدُّهم عن الإعراض والطَّعنِ والتحريفِ والتبديل والتغيير[٤]. فالآياتُ: القرآن، فإنه مختصٌّ بصونه عن ذلك.

وقال سفيان بن عُيَيْنةَ: سأمنعُهم من تدبُّرها ونَظَرِها النظرَ الصحيح المؤدِّيَ إلى الحق[٥].

وقال الزجَّاج: أجعلُ جزاءهم الإضلالَ عن الاهتداء بآياتي[٦]. والآياتُ على هذا: التوراةُ أو الإنجيل، أو الكتب المنزلة.

وقيل: سأَصْرِفُهم عن دفع الانتقام[٧]، أي: إذا أصابتهم عقوبةٌ لم يدفعها عنهم، فالآياتُ على هذا: ما حلَّ بهم من المَثُلات التي صاروا بها مُثْلَةً وعِبْرةً.

(١) القراءات الشاذة ص٤٦. وقسامة بن زهير: المازني التميمي البصري، روى عن أبي موسى الأشعري وأبي هريرة ﷺ. تهذيب التهذيب ٣/ ٤٤٠.
(٢) الكشاف ٢/ ١١٧.
(٣) كذا في النسخ، ولعله محرف عن: ابن جريج، وقد أخرجه عن ابن جريج الطبري ١٠/ ٤٤٣، وذكره عنه الثعلبي ٣/ ٧٣. ولم أقف عليه عن ابن جبير.
(٤) لم أقف عليه.
(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٤٣ بلفظ: سأنزع عنهم فهم القرآن. والثعلبي ٣/ ٧٣ بلفظ: أحرمهم فهم القرآن.
(٦) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٧٦.
(٧) النكت والعيون ٢/ ٢٦١، وفيه: . . . عن دفع الانتقام عنهم.

وعلى هذه الأقوال يكون «الذين يتكبَّرون» عام[(١)]، أي: كلّ مَن قام به هذا الوصفُ.

وقيل: هذا من تمام خطاب موسى، والآيات هي التسعُ التي أُعطيها، والمتكبِّرون هم فرعون وقومُه؛ صَرَفَ الله قلوبَهم عن الاعتبار بها بما انهمكوا فيه من لذَّات الدنيا.

وأخذ الزمخشريُّ بعضَ أقوال المفسرين فقال: «سأصْرِفُ عن آياتي» بالطَّبْع على قلوب المتكبِّرين وخذلانِهم، فلا يفكِّرون فيها ولا يعتبرون بها غفلةً وانْهِماكًا فيما يشغلهم عنها من شهواتهم، وفيه إنذارُ المخاطبين من عاقبة الذين يُصْرَفون عن الآيات لتكبُّرهم وكفرهم بها؛ لئلَّا يكونوا مِثْلَهم فيُسْلَكَ بهم سبيلُهم[(٢)]. انتهى.

و«الذين يتكبَّرون»؛ قيل: عن الإيمان؛ قال ابنُ عطية: هم الكفرةُ، والمعنى في هذه الآية: سأجعلُ الصَّرْفَ عن الآيات عقوبةَ المتكبِّرين على تكبُّرهم[(٣)]. انتهى.

وقيل: هم الذين يحتقرون الناس ويرون لهم الفضلَ عليهم[(٤)]، وفي الحديث الصحيح «إنما الكبرُ أن تَسْفَهَ الحقَّ وتَغْمِصَ الناسَ»[(٥)] ويتعلَّق «بغير الحق» بـ«يتكبَّرون» أي: بما ليس بحقٍّ وما هم عليه من دينهم، وقد يكون التكبُّر بالحقِّ كتكبُّرِ المُحِقِّ على المُبْطِل، لقوله تعالى: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] ويجوزُ أن يكون في موضع الحال فيتعلَّقُ بمحذوف، أي: مُلْتَبِسينَ بغير الحق، والمعنى: غيرَ مستحِقِّين[(٦)]؛ لأنَّ التكبُّر بالحقِّ لله وحده؛ لأنه هو الذي له القدرةُ والفضلُ الذي ليس لأحد.

---

(١) كذا في النسخ، والجادة: عامًّا.

(٢) الكشاف ٢/ ١١٧.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٤.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٧٩، وزاد المسير ٣/ ٢٦١.

(٥) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٦٥٨٣)، والطبراني في الأوسط (٩٠٨٨) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما. وأخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ: «... الكبر بَطَر الحق وغَمْطُ الناس». والغَمْطُ مثلُ الغَمْصِ، وهو: الاستهانة والاستحقار. النهاية (غمط).

(٦) في الكشاف ٢/ ١١٧ (والكلام منه: غير محقين).

﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ صَرَفَهم هذا الوصفُ الذميمُ وهو التكبُّرُ عن الإيمان حتى لو عُرِضَتْ عليهم كلُّ آيةٍ لم يروها آيةً فيؤمنوا بها، وهذا حَتْمٌ منه تعالى على الطائفة التي قدَّر أنْ لا يؤمنوا.

وقرأ مالك بن دينار: «وإنْ يُرَوا» بضم الياء(١).

﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾أراهم اللهُ السبيلين فرأَوْهما؛ فآثَروا الغيَّ على الرُّشد، كقوله: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

وقرأ الأخوان: «الرَّشَد»، وباقي السبعة: «الرُّشْد»(٢)، وعن ابن عامرٍ في روايةٍ إتْباعُ الشين ضمةَ الراء(٣)، وأبو عبد الرحمن: «الرَّشاد»(٤)، وهي مصادرُ كـ: السُّقْم والسَّقَم والسَّقَام.

وقال أبو عمرو بنُ العلاء: الرُّشْدُ: الصلاح في النظر، وبفتحهما: الدِّين(٥).

وقرأ ابن أبي عبلة: «لا يتَّخذوها» و«يتَّخذوها»(٦) على تأنيث السبيل، والسبيلُ تذكَّر وتؤنَّث، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

ولمَّا نفى عنهم الإيمان وهو من أفعال القلب، استعار للرشد والغي سبيلين، فذكَر أنهم تارِكُو سبيلِ الرشد سالِكُو سبيلِ الغيِّ؛ ليطابق الاعتقاد القلبيُّ الفعلَ الجسمانيَّ، وهو سلوكُ سبيل الغيِّ، وناسَبَ تقديم جملة الشرط المتضمِّنةِ سبيلَ الرشد على مقابِلتها لأنها قبلها: «وإن يروا كلَّ آية لا يؤمنوا بها»، فذكَر مُوْجِبَ الإيمان ـ وهو الآياتُ ـ وترتُّبَ نقيضه عليه، وأتبعَ ذلك بموجب الرُّشد وترتُّبِ نقيضه عليه، ثم جاءت الجملةُ بعدها مصرِّحةً بسلوكهم سبيلَ الغيِّ ومؤكِّدةً لمفهوم

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٤، والكشاف ٢/ ١١٧.
(٢) السبعة ص٢٩٣، والتيسير ص١١٣.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٤.
(٤) تفسير الثعلبي ٣/ ٧٣، وهي في القراءات الشاذة ص٤٦ عن علي ﷺ.
(٥) تفسير الطبري ١٠/ ٤٤٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٥٤.
(٦) أي: في الموضعين، والقراءة في المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٤.

الجملة الشرطية قبلها؛ لأنه يلزمُ مِن تَرْكِ سبيل الرشد سلوكُ سبيل الغي؛ لأنهما إمَّا هدًى أو ضلالٌ، فهما نقيضان: إذا انْتَفَى أحدُهما ثبت الآخر.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ أي: ذلك الصرفُ عن الآيات هو بسبب تكذيبهم بها، وغفلتهم عن النظر فيها والتفكُّرِ في دلالتها، والمعنى أنهم استمرَّ تكذيبُهم وصار لهم ذلك ديدنًا حتى صارت تلك الآياتُ لا تخطُر لهم ببالٍ، فحصلت الغفلةُ عنها والنسيانُ لها، حتى كانوا لا يذكرونها ولا شيئًا منها.

والظاهرُ أن الصَّرْفَ سببُه التكذيبُ والغفلةُ من جميعهم، ويحتمل أنَّ الصرف سببُه التكذيبُ، ويكون قولُه: «وكانوا عنها غافلين» استئنافَ إخبارٍ منه تعالى عنهم، أي: من شأنهم أنم كانوا غافلين عن الآيات وتدبُّرِها فأَوْرَثَتْهم الغفلةُ التكذيبَ بها.

والظاهر أن «ذلك» مبتدأ، وخبرُه «بأنهم»، أي: ذلك الصرفُ كائنٌ بأنهم كذَّبوا، وجوَّزوا أن يكون منصوبًا، فقدَّره ابنُ عطية: فعلْنا ذلك[(١)]، وقدَّره الزمخشريُّ: صَرَفَهم الله ذلك الصرفَ بعينه[(٢)].

وفي قوله تعالى: «سأصرفُ عن آياتي الذين يتكبَّرون في الأرض بغير الحق» إشعارٌ بأنَّ الصرف سببُه هذا التكبُّرُ، وفي قوله: «ذلك بأنهم كذَّبوا» إعلامٌ بأنَّ ذلك الصرفَ سببهُ التكذيبُ، والجمعُ بينهما: أن التكبُّر سببٌ أول نشأ عنه التكذيبُ، فصحَّ نسبةُ الصَّرف إلى السبب الأول وإلى ما تَسبَّبَ عنه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ ذكر تعالى ما يَؤُولُ إليه في الآخرة أمرُ المكذِّبين، فذكَر أنه يُحْبِطُ أعمالَهم، أي: لا يَعْبَأُ بها، وأصل الحَبْط: أن يكون فيما تقدَّم صلاحُه، فاستُعمل الحبوطُ هنا إذ كانت أعمالُهم في معتقداتهم جاريةً على طريقٍ صالح، فكان الحبطُ

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٤، قال السمين في الدر ٥/ ٤٥٨: فجعله مفعولاً به.

(٢) الكشاف ٢/ ١١٧، قال السمين: فجعله مصدراً. اهـ. وقوله: بعينه، جاء بدلاً منه في الكشاف بسببه، وهو الصواب، ينظر تفسير البيضاوي (على هامش حاشية الشهاب) ٤/ ٢١٨، وتفسير أبي السعود ٣/ ٢٧٢، وروح المعاني ٩/ ٣٦٩، والتقدير عندهم: سأصرفهم ذلك الصرف بسبب تكذيبهم بآياتنا وغفلتهم عنها.

فيها بحسب معتقداتهم؛ إذا المكذِّبُ بالآيات قد يكون له عملٌ فيه إحسانٌ للناس، وصفحٌ وعفوٌ عمَّن جَنَى عليه، وكلُّ ذلك لا يُجازَى عليه في الآخرة، فشمل حبطُ الأعمال مَن له عملُ برٍّ ومَن عملُه من أول مرةٍ فاسدٌ. ونبَّه بـ«لقاء الآخرة» على محلِّ افتضاحهم وجزائهم، وتهديدًا لهم ووعيدًا بها، وبأنها كائنةٌ لا محالةَ.

وإضافةُ «لقاء» إلى «الآخرة» إضافةُ المصدر إلى المفعول، أي: ولقائهم الآخِرةَ.

قال الزمخشري: ويجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول به، أي: ولقائهم الآخرةَ ومشاهدتهم أحوالَها، ومن إضافة المصدر إلى الظرف بمعنى: ولقاءِ ما وَعَدَ الله تعالى في الآخرة[1]. انتهى.

ولا يُجيز جلَّةُ النحويين الإضافةَ إلى الظرف؛ لأن الظرف هو على تقدير «في»، والإضافةُ عندهم إنما هي على تقدير اللام أو تقدير «مِن»، على ما بيِّن في علم النحو، فإن اتُّسع في العامل جاز أن يَنْصِبَ الظرفَ نَصْبَ المفعول به، وجاز إذ ذاك أن يضاف مصدرُه إلى ذلك الظرفِ المتَّسَع في عامله. وأجاز بعضُ النحويين أن تكون الإضافة على تقدير «في» كما يُفْهِمه ظاهرُ كلام الزمخشريِّ، وهو مذهبٌ مردودٌ في علم النحو.

و«هل يُجزون» استفهامٌ بمعنى التقرير، أي: يَسْتَوجِبون بسوء فِعْلِهم العقوبةَ، قاله ابنُ عطية[2].

والظاهرُ أنه استفهامٌ بمعنى النفي، ولذلك دخلت «إلا»، والاستفهامُ الذي هو بمعنى التقريرِ هو موجبٌ من حيث المعنى فيَبْعُد دخولُ «إلا»، أو لعله لا يجوز.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ إن كان الاتِّخاذُ بمعنى اتِّخاذِه إلهًا معبودًا فصحَّ نسبتُه إلى القوم، وذُكر أنهم كلَّهم عَبَدوه غيرَ هارون، ولذلك قال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى﴾ [الأعراف: ١٥١]، وقيل: إنما عَبَده قومٌ منهم لا جميعُهم؛ لقوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

---

(١) الكشاف ٢/ ١١٧.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٤.

وإن كان بمعنى العمل، كقوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١] أي: عَمِلَتْ وصنعتْ، فالمتَّخِذُ إنما هو السامريُّ واسمُه موسى بن ظفر من قريةٍ تسمَّى سامرة، ونُسِبَ ذلك إلى قوم موسى مجازًا، كما قالوا: بنو تميمٍ قتلوا فلانًا، وإنما قَتَله واحدٌ منهم، ولكنهم راضين بذلك.

ومعنى «من بعده»، أي: من بعد مُضِيِّه للمناجاة. و«من حُليِّهم» متعلق بـ«اتخذ»، وبها يتعلَّق «من بعده» وإن كانا حرفي جرٍّ بلفظٍ واحد، وجاز ذلك لاختلافِ مدلولَيْهما؛ لأن «مِن» الأولى لابتداء الغاية، والثانية للتبعيض، وأجاز أبو البقاء[1] أن يكون «من حُليِّهم» في موضع الحال ـ فيتعلَّق بمحذوفٍ ـ لأنه لو تأخَّر لكان صفةً، أي: عجلًا كائنًا من حُليِّهم.

وقرأ الأخوان: «من حِليِّهم» بكسر الحاء إتْباعًا لحركة اللام، كما قالوا عِصِي، وهي قراءةُ أصحاب عبد الله ويحيى بن وثاب وطلحة والأعمش. وقرأ باقي السبعة والحسن وأبو جعفر وشيبةُ بضم الحاء، وهو جمعُ حَلْي، نحو: ثَدْي وثُدِي، ووزنُه فُعُول اجتمعت ياءٌ وواوٌ وسُبقت إحداهما بالسكون فقُلبت الواوُ ياءً وأُدغمت في الياء وكُسر ما قبلها لتصحَّ الياء. وقرأ يعقوبُ: «من حَلْيهم» بفتح الحاء وسكون اللام[2]، وهو مفردٌ يراد به الجنس، أو اسمُ جنسٍ مفردُه حَلْية: ك: تمر وتمرة.

وإضافةُ الحليِّ إليهم إمَّا لكونهم مَلَكوه ممَّا كان على قوم فرعون حين غرقوا ولَفَظَهم البحرُ فكان كالغنيمة، ولذلك أَمَر هارونُ بجمعه حتى يَنظر موسى إذا رجع في أمره، أو مَلَكوه إذ كان من أموالهم التي اغْتَصَبها القِبْطُ بالجزية التي كانوا وضعوها عليهم، فتحيَّل بنو إسرائيل على استرجاعها إليهم بالعاريَّة، وإمَّا لكونهم لم يَمْلكوه لكنْ تصرَّفَتْ أيديهم فيه بالعاريَّة فصحت الإضافةُ إليهم لأنها تكون بأدنى ملابَسةٍ.

روى يحيى بنُ سلام عن الحسن أنهم استعاروا الحليَّ من القِبْطِ لعرسٍ، وقيل:

---

(١) في الإملاء ١/ ٢٨٥.

(٢) ذكر هذه القراءات ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٥، وقراءةُ مَن ذُكر من السبعة في السبعة ص٢٩٤، والتيسير ص١١٣، ومَن ذكر من العشرة ـ وهما أبو جعفر ويعقوب ـ في النشر ٢/ ٢٧٢.

ليوم زينةٍ[١]، ولمَّا هلك فرعونُ وقومُه بقي الحليُّ معهم، وكان حرامًا عليهم، فأخذ بنو إسرائيل في بيعه وتمحيقه، فقال السامريُّ لهارون: إنه عاريةٌ وليس لنا، فأمر هارونُ مناديًا بردِّ العاريَّة ليرى فيها موسى رأيَه إذا جاء، فجمعه وأَوْدَعه هارونُ عند السامريِّ، وكان صائغًا فصاغ لهم صورةَ عجلٍ من الحليِّ.

وقيل: مَنَعَهم من ردِّ العاريَّة خوفُهم أن يطَّلع القبطُ على سُرَاهُم؛ إذ كان تعالى أمر موسى أن يَسريَ بهم[٢].

والعجلُ ولدُ البقرةِ القريبُ الولادةِ، ومعنى: «جسدًا»: جثةً جمادًا، وقيل: بدنًا بلا رأس ذهبًا مُصمتًا. وقيل: صنعه مجوَّفًا.

قال الزمخشري: «جسدًا»: بدنًا ذا لحم ودم كسائر الأجساد، قال الحسن: إن السامريَّ قبض قبضةً من ترابٍ من أثرِ فرسِ جبريلَ عليه السلام يومَ قَطَعَ البحر، فقذفه في في العجلِ فكان عجلًا له خوارٌ[٣]. انتهى، وهذا ضعيفٌ، أعني كونَه لحمًا ودمًا؛ لأنَّ الآثار وردت بأنَّ موسى بَرَدَه بالمَبَارِدِ وألقاه في البحر[٤]، ولا يُبْرَدُ اللَّحم، بل كان يُقتل ويقطَّع.

وقال ابن الأنباري: ذُكِرَ الجسد دلالةً على عدم الروح فيه. انتهى.

وظاهرُ قوله: «له خوارٌ» يدلُّ على أنه فيه روحٌ؛ لأنه لا يخورُ إلَّا ما فيه روحٌ.

وقيل: لمَّا صنعه أجوفَ تَحيَّلَ لتصويته بأنْ جعل في جوفه أنابيبَ على شكلٍ مخصوصٍ، وجَعَله في مهبِّ الرياح، فتدخلُ في تلك الأنابيب فيظهرُ صوتٌ يشبهُ الخوار.

وقيل: جعل تحته مَن ينفُخُ فيه من حيث لا يشعر به، فيُسْمَعُ صوتٌ من جوفه كالخوار.

---

(١) وبهذه الرواية أورده ابن عطية في المحرر ٢/ ٤٥٥ عن الحسن.
(٢) ينظر ما ورد من هذه القصص في تفسير الطبري ١/ ٦٦٩ وما بعدها.
(٣) الكشاف ٢/ ١١٨.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٥.

وقال الكرماني: جَعَل في بطن العجل بيتًا يُفْتَحُ ويُغلق، فإذا أراد أن يَخُورَ أَدْخَله غلامًا يخورُ بعلامةٍ بينهما إذا أراد.

وقيل: يحتمل أن يكون الله اختاره ليفتنَ بني إسرائيل.

وخُوارُه؛ قيل: مرةً واحدة ولم يثنِّ؛ رواه أبو صالح عن ابن عباس(١).

وقيل: مرارًا، فإذا خار سجدوا، وإذا سكت رفعوا رؤوسهم، وقاله ابنُ عباس(٢) وأكثر المفسرين. وقرأ عليٌّ وأبو السَّمال وفرقةٌ: «جُؤار» بالجيم والهمز(٣) من جأر: إذا صاح بشدَّةِ صوتٍ.

وانتصب «جسدًا»؛ قال الزمخشري: على البدل(٤). وقال الحوفي: على النعت. وأجازهما أبو البقاء، وأن يكون عطفَ بيانٍ(٥).

وإنما قال: «جسدًا» لأنه يمكن أن يتخذ مخطوطًا أو مرقومًا في حائطٍ أو حجرٍ أو غير ذلك كالتماثيل المصوَّرة بالرَّقْم والخطِّ والدهان والنقش، فبيَّن تعالى أنه ذو جسد.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ إن كان «اتَّخذ» معناه: عَمِلَ وصَنَعَ، فلا بدَّ من تقديرِ محذوفٍ يترتَّبُ عليه هذا الإنكار، وهو فَعَبَدوه وجعلوه إلهًا لهم، وإنْ كان المحذوفُ «إلهًا»، أي: اتَّخذوا عجلًا جسدًا له خُوارٌ إلهًا، فلا يحتاج إلى حذفِ جملة.

وهذا استفهامُ إنكارٍ، حيث عبدوا جمادًا أو حيوانًا عاجزًا عليه آثارُ الصنعة لا يمكنُ أن يتكلَّم ولا يَهْدي، وقد رُكِزَ في العقول أنَّ مَن كان بهذه المثابة استحالَ

---

(١) زاد المسير ٣/ ٢٦٢، وأخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٦٨ من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٦٨ من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٦٢.

(٣) القراءات الشاذة ص٤٦ عن أبي السمال، والكشاف ٢/ ١١٨ عن عليٍّ.

(٤) الكشاف ٢/ ١١٨.

(٥) الإملاء ١/ ٢٨٥.

أن يكون إلهًا، وهذا نوعٌ من أنواع البلاغة يسمَّى الاحتجاج النظري، وبعضهم يسمِّيه: المذهب الكلامي(١).

والظاهرُ أنَّ «يروا» بمعنى: يعلموا، وسَلَبَ تعالى عنه هذين الوصفين دون باقي أوصاف الإلهية لأنَّ انتفاء التكليم يستلزمُ انتفاءَ العلم، وانتفاءَ الهداية إلى سبيلٍ يستلزمُ انتفاءَ القدرة، وانتفاءَ هذين الوصفين وهما العلم والقدرةُ يستلزمان انتفاءَ باقي الأوصاف، فلذلك خُصَّ هذان الوصفان بانتفائهما.

﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ أي: أقْدَموا على ما أقْدَموا عليه من هذا الأمر الشنيع وكانوا واضعين الشيءَ في غير موضعه، أي: من شأنهم الظلمُ، فليسوا مبتكرين وضعَ الشيء في غير موضعه، وليس عبادةُ العجل بأول ما أحدثوا من المَنَاكِر.

قال ابن عطية: ويحتمل أن تكون الواوُ واوَ حالٍ(٢). انتهى، يعني في «وكانوا»، والوجهُ الأولُ أبلغُ في الذم، وهو الإخبارُ عن وصفهم بالظلم وأنَّ شأنهم ذلك، فلا يتقيَّد ظلمُهم بهذه الفعلة الفاضحة.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ ذكر بعض النحويين أن قول العرب: سُقط في يده، فعلٌ لا يتصرَّف، فلا يُستعمل منه مضارعٌ ولا اسمُ فاعلٍ ولا مفعولٍ، وكان أصله متصرِّفًا؛ تقول: سَقَط الشيء: إذا وقع من علو، فهو في الأصل متصرِّفٌ لازمٌ.

وقال الجُرْجاني: سُقط في يده، ممَّا دُثر استعمالُه مثلَ ما دُثر استعمالُ قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾ [الكهف: ١١] قال ابن عطية(٣): وفي هذا الكلام ضعفٌ، والسِّقاط في كلام العرب: كثرةُ الخطأ والندمُ عليه، ومنه قولُ ابنِ أبي كاهل:

---

(١) سمي بهذا لأنه يُسلك فيه مذهب أهل الكلام في استدلالهم على إبطال حجج خصومهم، وينظر شرح هذا النوع من البلاغة وأقوال العلماء فيه في معجم المصطلحات البلاغية ص٣٦ وما بعدها.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٥.

(٣) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٦، وما قبله منه.

كيف يرجون سِقاطي بعدما بَقَّعَ الرأسَ مشيبٌ وصَلَعْ[(١)]

وحَكَى[(٢)] عن أبي مروان بن سراجٍ[(٣)] أحدِ أئمة اللغة بالأندلس أنه كان يقول: قولُ العرب: سُقط في يده، ممَّا أعياني معناه.

وقال أبو عبيدة: يقال لمن ندم على أمرٍ وعجز عنه: سُقط في يده[(٤)].

وقال الزجَّاج: معناه: سَقَطَ الندمُ في أيديهم، أي: في قلوبهم وأنفسِهم، كما يقال: حَصَلَ في أيديهم مكروهٌ - وإن كان محالًا أن يكون في اليد - تشبيهًا لمَا يحصلُ في القلب والنفس بما يحصلُ في اليد ويُرى بالعين[(٥)].

وقال ابن عطية: العربُ تقول لمن كان ساعيًا لوجهٍ أو طالبًا غايةً، فعَرَضَ له ما صدَّه عن وجهه ووَقَفَه موقفَ العجز، وتيقَّن أنه عاجز: سقط في يد فلانٍ، وقد يَعْرِضُ له الندمُ وقد لا يَعْرِضُ، قال: والوجهُ الذي يَصِلُ بين هذه الألفاظ وبين المعنى الذي ذكرناه هو أنَّ السعيَ أو الصَّرفَ أو الدفاعَ سَقَط في يد المشار إليه فصار في يده لا يُجاوزها، ولا يكون له في الخارج أثر[(٦)].

وقال الزمخشريُّ: لمَّا اشتدَّ ندمُهم وحسرتُهم على عبادة العجل؛ لأنَّ مِن شأنِ مَن اشتدَّ ندمُه وحسرتُه أن يعضَّ يدَه غمًّا فتصير يدُه مسقوطًا فيها؛ لأنَّ فَاهُ قد وقع

(١) البيت في العين ٢/ ١٤٥ و٥/ ٧٣، وأساس البلاغة (سقط) و(لفع)، والتاج (لفع)، وهو في هذه المصادر وكذا في المحرر برواية: لفَّع الرأس، وهو في مقاييس اللغة ٣/ ٨٦، واللسان والتاج (سقط) برواية: جلَّل الرأس، وورد في العقد لابن عبد ربه ٥/ ٣٦ برواية: شمل الرأس. ولم نقف على رواية المصنف. وابن أبي كاهل هو سويد.

(٢) أي: ابن عطية في الموضع السابق.

(٣) واسمه: عبد الملك بن سراج، وسلفت ترجمته عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ﴾ [الأعراف: ١٣٢].

(٤) مجاز القرآن ٢/ ٢٢٨، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٥٥.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٧٨، والكشاف ٢/ ١١٨، وعنه نقل المصنف، وقد قال الزجاج هذا الكلام في شرح قراءة: «سَقَط في أيديهم» بالبناء للفاعل، وكذا فعل الزمخشري، وسترد القراءة قريباً، وسيعيد المصنف عندها قول الزجاج مختصراً، ولعل ذكره هنا لأنه يصلح أن يكون تأويلاً لقراءة المبني للمجهول.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٥-٤٥٦.

فيها، و«سُقط» مسندٌ إلى ما في أيديهم، وهو من باب الكناية[١]. انتهى، والصوابُ «وسُقط» مسندٌ إلى «في أيديهم»[٢].

وحكى الواحدي[٣] عن بعضهم أنه مأخوذٌ من السَّقيط، وهو ما يُغْشَى الأرضَ بالغدوات شِبْهُ الثلج، يقال منه: سُقِطَت الأرضُ، كما يقال من الثلج: ثُلِجَت الأرضُ وثُلِجْنا، أي: أصابنا الثلجُ، ومعنى سُقط في يده: وقع في يده، والسَّقيط والسَّقْط يذوبُ بأدنى حرارةٍ[٤] ولا يبقى، ومَن وقع في يده السَّقيط لم يَحْصُلْ منه على شيءٍ، فصار مثلًا لكلِّ مَن خَسِرَ في عاقبته ولم يَحْصُلْ من بغيته على طائلٍ، وكانت الندامةُ آخِرِ أمره.

وقيل: مِن عادة النادم أن يطأطئ رأسَه، ويضعَ ذقنه على يده معتمِدًا عليها، ويصيرَ على هيئةٍ لو نُزعت يدُه لسقط على وجهه، فكأنَّ اليدَ مسقوطٌ فيها، ومعنى «في»: على، أي: سُقِطَ على يده، ومعنى «في أيديهم»: على أيديهم، كقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] انتهى.

وكان متعلق «سُقط» قوله: «في أيديهم»، لأن اليد هي الآلةُ التي يُؤخذ بها ويُضبط، و«سُقط» مبنيٌّ للمفعول، والذي أُوقع موضعَ الفاعل هو الجارُّ والمجرور، كما تقول: جُلِسَ في الدار، و: ضُحِكَ من زيد.

وقيل: «سُقط» يتضمَّن مفعولًا، هو هاهنا المصدرُ الذي هو: الإسقاط، كما يقال: ذُهب بزيد. انتهى.

---

(١) الكشاف ١١٨/٢، وفيه وسقط مسند إلى في أيديهم، دون كلمة «ما»، وينظر التعليق الذي بعده.

(٢) كذا ذكر المصنف رحمه الله، وهذا الذي صوَّبه هو عينه الذي ورد في الكشاف ـ كما نبهت عليه في التعليق السابق ـ وهو الذي نقله المصنف نفسه عن الزمخشري في النهر على هامش مطبوع البحر ٣٩٣/٤.

(٣) كما في تفسير الرازي ٨/١٥، ولعله قاله في كتابه: البسيط، فهو ليس في الوسيط ولا في الوجيز.

(٤) في تفسير الرازي: . . . وقع في يده السقيط، والسقيط يذوب. . . وهو الأنسب بسياق الكلام، وقوله: وقع في يده، من (ز١)، وسقط من باقي النسخ.

وصوابه: وهو هنا ضميرُ المصدر الذي هو السقوط؛ لأن «سَقَط» ليس مصدرُه الإسقاط، وليس نفسُ المصدر هو المفعول الذي لم يُسمَّ فاعلُه، بل هو ضميرُه.

وقرأت فرقةٌ منهم ابنُ السَّمَيْفَع: «سَقَط في أيديهم» مبنيًّا للفاعل[1]؛ قال الزمخشري: أي: وقع العضُّ فيها[2]. وقال الزجَّاج: سَقَطَ الندمُ في أيديهم[3].

قال ابنُ عطيةُ: ويحتمل أن الخسران والخيبة سَقَط في أيديهم[4].

وقرأ ابنُ أبي عبلةَ: «أُسقط في أيديهم» رباعيًّا مبنيًّا للمفعول[5].

«ورأوا»، أي: علموا أنهم قد ضلُّوا، قال القاضي[6]: يجب أن يكون المؤخَّر مقدَّمًا؛ لأن الندم والتحسُّر إنما يقعان بعد المعرفة، فكأنه تعالى قال: ولمَّا رأوا أنهم قد ضلُّوا وسُقط في أيديهم لمَا نالهم من عظيم الحسرة. انتهى.

ولا يُحتاج إلى هذا التقدير، بل يمكنُ تقدُّم النَّدم على تبيُّنِ الضلال؛ لأنَّ الإنسان إذا شكَّ في العمل الذي أَقْدَمَ عليه: أهو صوابٌ أم خطأ؟ حَصَل له الندمُ، ثم بعدُ يتكامَلُ النظرُ والفِكْرُ فيَعْلَم أنَّ ذلك خطأ.

«قالوا لئنْ لم يَرْحَمْنا ربُّنا» انقطاعٌ إلى الله تعالى واعترافٌ بعظيم ما أقدموا عليه، وهذا كما قال آدمُ وحوَّاء: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] ولمَّا كان هذا الذنبُ ـ وهو اتخاذُ غيرِ الله إلهًا ـ أعظمَ الذنوب بدؤوا بالرحمة التي وسعت كلَّ شيءٍ، ومن نتاجها غفرانُ الذنب، وأمَّا في قصة آدم فإنه جرت محاوَرةٌ بينه تعالى وبينهما وعتابٌ على ما صدر منهما من أكل ثمر الشجرة بعد نهيه تعالى إياهما عن قُربانها، فضلًا عن أكل ثمرها، فبادَرا إلى الغُفران وأتبعاه بالرحمة، إذ غُفْرانُ ما وقع العتابُ عليه آكَدُ ما يُطْلَبُ أولًا.

(١) القراءات الشاذة ص٤٦، والكشاف ٢/ ١١٨، وهي دون نسبة في معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٧٨، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٥٥.
(٢) الكشاف ٢/ ١١٨.
(٣) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٧٨، والكشاف ٢/ ١١٨.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٦.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٥.
(٦) هو عبد الجبار المعتزلي، وكلامه في تفسير الرازي ١٥/ ٨-٩.

وقرأ الأخوان والشعبيُّ وابنُ وثّابٍ والجحدريُّ وابنُ مُصَرِّفٍ والأعمشُ وأيوبُ بالخطاب في «ترحمنا» و«تغفر» ونداء «ربَّنا»، وقرأ باقي السبعة ومجاهدٌ والحسنُ والأعرج وأبو جعفر وشَيْبَةُ بنُ نِصَاحٍ وغيرُهم: «يرحَمْنا ربُّنا ويَغْفِرْ لنا» بالياء فيهما ورَفْع «ربُّنا»[1]. وفي مصحف أُبيٍّ: «قالوا ربَّنا لئن لم ترحمنا وتغفر لنا»[2] بتقديم المنادَى وهو «ربَّنا».

ويحتملُ أن يكون القولان صَدَرَا منهم جميعِهم على التعاقُب، أو هذا من طائفةٍ وهذا من طائفةٍ، فَمَنْ غَلَبَ عليه الخوفُ وقَوِيَ على المواجهة خاطَبَ مستقيلًا من ذنبه العظيم، ومَن غاب عليه الحياءُ أخرج كلامَه مُخْرَجَ المستحيي من الخطاب فأَسْنَدَ الفعلَ إلى الغائب.

وفي قولهم: «ربّنا» استعطافٌ حسنٌ؛ إذ الربُّ هو المالك الناظرُ في أمر عبيده، والمصلِحُ منهم ما فَسَد.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي: رجع من المناجاة؛ يُرْوَى أنه لمَّا قَرُبَ من مَحَلَّة بني إسرائيلَ سمع أصواتهم، فقال: هذه أصواتُ قوم لاهين، فلمَّا تحقَّقَ عُكوفَهم على عبادة العجل داخَلَه الغضبُ والأسف، وأَلْقَى الألواحَ[3].

وقال الطبري: أخبره تعالى قبل رجوعه أنهم قد فُتنوا بالعجل، فلذلك رجع وهو غاضبٌ[4]. ويدلُّ على هذا القولِ قولُه: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ الآية [طه: ٨٥].

و«غضبان» من صفات المبالغة، والغضب: غليانُ القلب بسبب حصول ما يُؤْلِم، وذكروا أنه عليه السلام كان من أسرع الناس غضبًا، وكان سريعَ الفيئة، قال ابن

(١) ينظر السبعة ص٢٩٤، والتيسير ص١١٣، والنشر ٢/ ٢٧٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٤٦، والكلام منه.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٦.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٦، وأخرجه بنحوه الطبري ١٠/ ٤٥١-٤٥٢ عن ابن عباس ﵄.
(٤) تفسير الطبري ١٠/ ٤٤٩، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٥٦.

القاسم: سمعت مالكًا يقول: كان إذا غضب طلع الدخانُ من قلنسوته، ورَفَعَ شعرُ بدنه جُبَّتَه[١].

و«أسِفًا» من أسِفَ فهو أسِفٌ، كما تقول: فَرِقَ فهو فَرِقٌ، يدلُّ على ثبوت الوصف، ولو ذُهبَ به مذهبَ الزمان لكان على فاعِلٍ، فيقال: آسِفٌ.

والأسِفُ: الحزينُ، قاله ابن عباس والحسن والسُّدي[٢]، أو: الجَزِعُ، قاله مجاهد[٣]. أو: المتلهِّفُ. أو: الشديدُ الغَضَبِ؛ قاله الزمخشري[٤] وابن عطية، قال: وأكثر ما يكون بمعنى الحزين[٥]. أو المغضَب؛ قاله ابنُ قتيبة[٦]. أو: النادم؛ قاله القتيبي أيضًا[٧]. أو متقاربان؛ قاله الواحديُّ[٨]، قال: فإذا أتاك ما تكرهُ ممَّن دونك غضبتَ، أو ممن فوقك حَزِنْتَ، فأغضبه عبادتُهم العجلَ وأحزَنَه فتنةُ الله إياهم، وكان قد أخبره بذلك بقوله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾.

وتقدَّم الكلام على «بئسما» في أوائل «البقرة»[٩].

والخطابُ إمَّا للسامريِّ وعُبَّادِ العجل، أي: بئسما قمتم مقامي حيث عبدتُم العجلَ مكانَ عبادة الله تعالى، وإمَّا لوجوه بني إسرائيل هارونَ والمؤمنين، أي: حيث لم تكفُّوا مَن عَبَدَ غيرَ الله.

و«خَلَفْتموني» يدلُّ على البَعْدية في الزمان، والمعنى هنا: من بعد ما رأيتُم منِّي

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٨٢-٧٨٣، وهذا من الإسرائيليات.
(٢) أخرجه عنهم الطبري ١٠/ ٤٥٠، وذكره عنهم ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٦٣.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٦٩، وذكره ابن الجوزي ٣/ ٢٦٣.
(٤) في الكشاف ٢/ ١١٨.
(٥) في (ب) و(د٣) و(ز١) و(يه): الحزن، وعبارة المحرر ٢/ ٤٤٦: والأسَفُ قد يكون بمعنى الغضب الشديد، وأكثر ما يكون بمعنى الحزن.
(٦) تفسير غريب القرآن ص١٧٣ و٢٨١، ولفظه: شديد الغضب. وكذا نقله عنه ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٦٣.
(٧) نقله عنه الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٢٦٣.
(٨) كما في تفسير الرازي ١٥/ ١٠، ولعله في كتابه: البسيط. وقوله: متقاربان، يعني تفسير الأسِف بالحزين وتفسيره بالشديد الغضب.
(٩) عند تفسير قوله: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩٠].

توحيدَ الله تعالى ونفيَ الشركاء عنه وإخلاصَ العبادة له، أو: من بعدما كنتُ أحملُ بني إسرائيل على التوحيد وأكفُّهم عمَّا طمحت إليه أبصارُهم من عبادة البقر، ومن حقِّ الخَلَفِ أن يسير بسيرة المستخلِف ولا يخالفه، ويقال: خَلَفَه بخيرٍ أو شرٍّ: إذا فَعَله بمَن(١) تَرَكَ مِن بَعْدِه.

و«أعْجِلْتم» استفهامُ إنكارٍ، قال الزمخشري: يقال: عَجِلَ عن الأمر: إذا تركه غيرَ تامٍّ، ونقيضُه: تمَّ عليه، وأعْجَلَه عنه غيرُه، ويُضمَّنُ معنى سَبَقَ فيُعَدَّى تعديتَه، فيقال: عجلتُ الأمرَ، والمعنى: أعَجِلتُم عن أمر ربّكم، وهو انتظارُ موسى حافِظِينَ لعهده وما وصَّاكم به، فبنيتُم الأمرَ على أنَّ الميعاد قد بلغ آخِرَه ولم أرجع إليكم، فحدَّثْتم أنفسَكم بموتي، فغيَّرتُم كما غيَّرت الأممُ بعد أنبيائهم، ورُوي أنَّ السامريَّ قال لهم حين أَخْرَج إليه العجلَ: هذا إلهُكم وإلهُ موسى، إنَّ موسى لن يرجع وإنه قد مات(٢). انتهى.

وقال ابن عطية: معناه: أسابقتُم قضاءَ ربّكم واستعجلتُم إتياني قبلَ الوقت الذي قدَّرْته(٣). انتهى.

وقال يعقوب: يقال عجلتُ الشيءَ: سَبَقْتُه، وأَعْجَلْتُ الرجلَ: استَعْجَلْتُه، أي: حَمَلْتُه على العَجَلة(٤). انتهى.

وقيل: معناه: أَعَجِلْتُم ميعادَ ربّكم أربعين ليلةً.

وقيل: أَعَجِلْتُم سخَطَ ربكم.

وقيل: أَعَجِلْتُم بعبادة العجل.

وقيل: العجلةُ: التقدُّمُ بالشيءِ في غير وقته - قيل: وهي مذمومةٌ. ويُضْعِفُه قولُه: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤] - والسرعةُ المبادرة بالشيء في وقته، وهي محمودة.

---

(١) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: عن، وهو تحريف، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٧، وعنه نقل المصنف هذه العبارة.
(٢) الكشاف ٢/ ١١٩.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٧.
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥١. ويعقوب هو ابن السكيت.

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ أي: ألواحَ التوراة، وكان حاملًا لها فوضعها بالأرض غضبًا على ما فعله قومُه من عبادة العجل، وحَمِيَّةً لدين الله، وكان كما تقدَّم شديدَ الغضب، وقالوا: كان هارونُ أَلينَ منه خُلقًا ولذلك كان أحبَّ إلى بني إسرائيلَ منه(١).

وقيل: ألقاها دهشًا لمَا دَهَمه من أمرهم.

وعن ابن عباس: أنَّ موسى عليه السلام لمَّا ألقاها تكسَّرت فرُفع أكثرُها الذي فيه تفصيلُ كلِّ شيءٍ، وبقي الذي في نسختها الهدى والرحمةُ، وهو الذي أُخذ بعد ذلك(٢).

وروي أنها رُفع ستةُ أسباعها وبقي سُبُعٌ، قاله جماعة من المفسرين(٣).

وقال أبو الفَرَج بنُ الجَوْزيِّ: لا يصحُّ أنه رماها رمي كاسِرٍ(٤). انتهى.

والظاهرُ أنه ألقاها من يديه لأنهما كانتا مشغولتين بها وأراد إمساك أخيه وجرَّه، ولا يتأتَّى ذلك إلا بفراغ يديه لجرِّه، وفي قوله: «ولمَّا سكت عن موسى الغضبُ أَخَذَ الألواحَ» دليلٌ على أنها لم تتكسَّر، ودليلٌ على أنه لم يُرفع منها شيءٌ.

والظاهرُ أنه أخذ برأسه، أي: أمسك رأسَه جارَّه إليه، وقيل: بشعر رأسه. وقيل: بذوائبه ولحيته. وقيل: بلحيته. وقيل: بأُذُنه.

وقيل: لم يأخذ حقيقةً وإنما كان ذلك إشارةً، فخشي هارونُ أن يتوهَّم الناظرُ إليهما أنه لغضبٍ، فلذلك نهاه ورَغِبَ إليه(٥).

---

(١) الكشاف ٢/ ١١٩.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٧، وأخرجه بنحوه الطبري في التاريخ ١/ ٤٢٧.
(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٤٥٥، والنكت والعيون ٢/ ٢٦٣، وتفسير الثعلبي ٣/ ٧٥، والكشاف ٢/ ١١٩، وتفسير البغوي ٢/ ٢٠٢، وأخرجه الطبري في التاريخ ١/ ٤٢٧ من طريق صدقة بن يسار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ، لكنه أخرج في التفسير ١٠/ ٤٥٦، وابن أبي حاتم ٥/ ١٥٧٠ من طريق ابن جريج عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: قال: ألقى موسى الألواح فتكسَّرت، فرفعت إلا سدسها.
(٤) تلبيس إبليس ص٢٥١ بنحوه.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٧، وفيه بدل كلمة: إشارة، كلمة: ليساره، ولعلها محرفة عنها.

والظاهرُ أن سبب هذا الأَخْذِ هو غضبُه على أخيه، وكيف عَبَدوا العجلَ وهو قد استَخْلفه فيهم، وأَمَرَه بالإصلاح وأنْ لا يتَّبعَ سبيلَ مَن أَفْسَدَ، وكيف لم يَكُفَّهم ولم يَزْجُرْهم عن ذلك، ويدلُّ على هذا الظاهرِ قولُه: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف: ١٥٤] وقوله: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه: ٩٤].

قال الزمخشريُّ: أي: بشعرِ رأسِه، «يَجرُّه إليه» بذُؤابته، وذلك لشدَّةِ ما ورد عليه من الأمر الذي استفزَّه وذهب بفطنته، وظنًّا بأخيه أنه فرَّط في الكف[١].

وقيل: ذلك الأخذُ والجرُّ كان ليُسِرَّ إليه نزول الألواح عليه في مناجاته، وأراد أن يُخفيها عن بني إسرائيل، فنهاه هارون لئلَّا يَشْتَبِهَ سِرارُه على بني إسرائيل بإذلاله.

وقيل: ضمَّه ليَعْلَم ما لديه، فكَرِهَ ذلك هارونُ لئلَّا يظنُّوا إهانَتَه، وبيَّن له أخوه أنهم استَضْعَفوه.

وقيل: كان ذلك على سبيل الإكرام لا على سبيلِ الإهانة، كما تفعلُ العرب مِن قَبْضِ الرجلِ على لحية أخيه[٢].

﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ ناداه نداءَ استعطافٍ وترفُّقٍ، وكان شقيقَه، وهي عادةُ العرب تتلطَّفُ وتتحنَّنُ بذكر الأمِّ، كما قال:

يا ابنَ أمِّي ويا شقيقَ نَفْسي[٣]

وقال آخر:

يا ابن أمي فَدَتْكَ نفسي ومالي[٤]

(١) الكشاف ٢/ ١١٩.
(٢) ذكر هذه الأقوال القرطبي ٩/ ٣٤٠-٣٤١.
(٣) وعجزه: أنت خليتني لدهرٍ شديد، والبيت لأبي زبيد الطائي، كما في الكتاب ٢/ ٢١٣، وهو دون نسبة في المقتضب ٤/ ٢٥٠، وزاد المسير ٣/ ٢٦٥.
(٤) وعجزه: كنتَ ركني وَمفْزَعي وجمالي، والبيت للسيد الحِمْيَري من قصيدة في رثاء أخيه، كما في العقد لابن عبد ربه ٢/ ٤٠٧.

وأيضًا فكانت أُمُّهما مُؤْمنةً، قالوا: وكان أبوه مقطوعًا عن القرابة بالكفر، كما قال تعالى لنوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ [هود: ٤٦].

وأيضًا فلمَّا كان حقُّها أعظمَ لمقاساتها الشدائدَ في حمله وتربيته والشفقةِ عليه ذكَّره بحقِّها.

وقرأ الحرميَّان وأبو عمرٍو وحفصٌ: «ابنَ أمَّ» بفتح الميم[١]. فقال الكوفيون: أصلُه: يا ابنَ أُمَّاه، فحذفت الألفُ تخفيفًا كما حُذفت في: يا غلامَ، وأصله: يا غلاما، وسقطت هاءُ السَّكْتِ لأنه دَرْجٌ، فعلى هذا الاسمُ مُعْرَبٌ إذ الألفُ منقلبةٌ عن ياءِ المتكلِّم، فهو مضافٌ إليه «ابن».

وقال سيبويه: هما اسمان بُنيا على الفتح كاسمٍ واحدٍ كـ: خَمسة عشر ونحوِه[٢]. فعلى قوله ليس مضافًا إليه «ابن»، والحركةُ حركةُ بناءٍ.

وقرأ باقي السبعة بكسر الميم، فقياسُ قول الكوفيين أنه مُعْرَبٌ، وحُذفت ياءُ المتكلِّم، واجتُزِئَ بالكسرة عنها كما اجْتَزَؤوا بالفتحة عن الألف المنقلبة عن ياءِ المتكلم.

وقال سيبويه[٣]: هو مبنيٌّ أُضيف إلى ياء المتكلِّم[٤]، كما قالوا: يا أَحَدَ عَشَرِ[٥] أقبِلوا، وحُذفت الياءُ واجْتُزِئَ بالكسرة عنها كما اجتزؤوا في: يا قوم، ولو كانا باقيين على الإضافة لم يَجُزْ حذفُ الياء؛ لأن الاسم ليس بمنادًى ولكنه مضافٌ إليه المنادَى، فلا يجوزُ حذفُ الياء منه.

وقرئ بإثبات ياءِ الإضافة[٦].

وأجودُ اللُّغات الاجتزاءُ بالكسرة عن ياءِ الإضافة، ثم قلبُ الياءِ ألفًا والكسرةِ

---

(١) السبعة ص٢٩٥، والتيسير ص١١٣.
(٢) ينظر الكتاب ٢/ ٢١٤ و٢٧٥.
(٣) ينظر الكتاب ٢/ ٢٠٩-٢١٤.
(٤) أي: هما بمنزلة اسم مركَّبٍ أضيف كلُّه لياء المتكلم. ينظر الدر المصون ٥/ ٤٦٧.
(٥) وأصله: يا أحد عشري، ثم حذفت الياء واجتُزئ عنها بالكسرة. الدر المصون ٥/ ٤٦٧.
(٦) الكشاف ٢/ ١١٩، وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٦ عن عيسى بن عمر أنه حكى: «يا ابن أمّيَ» بفتح الياء.

قبلَها فتحةً، ثم حذفُ الياء وفتحُ الميم، ثم إثباتُ الياء مفتوحةً أو ساكنةً، وهذه اللغات جائزة في: ابنة أمي، وفي: ابن عمي، وابنة عمي.

وقرئ: «يا ابنَ أمِّي» بإثبات الياء(١)، و«ابنَ إمِّ» بكسر الهمزة والميم(٢).

ومعمولُ القول: المنادى، والجملةُ بعده المقصودُ بها تخفيفُ ما أدرك موسى من الغضب، والاستعذارُ له بأنه لم يُقصِّر في كَفِّهم بالوَعْظ والإنذار وما بَلَغتْه طاقتُه، ولكنهم استَضْعَفوه فلم يلتفتوا إلى وَعْظِه، بل قارَبوا أن يقتلوه، ودلَّ هذا على أنه بالَغَ في الإنكار عليهم حتى همُّوا بقتله، ومعنى «استَضْعَفوني»: وَجَدوني، فهي لمعنى(٣) إلْفاءِ الشيءِ بمعنى ما صِيغَ منه، أي: اعْتَقَدوني ضعيفًا، وتقدَّم ذلك في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ [الأعراف: ٧٥].

ولمَّا أبدَى له ما كان منهم من الاستضعاف له ومقارَبةِ قَتْلِهم إياه، سأله تَرْكَ ما يَسُرُّهم بفِعْلِه فقال: «فلا تُشمِتْ بي الأعداءَ» أي: لا تَسُرُّهم بما تفعلُ بي فأكونَ ملُومًا منهم ومنك، وقال الشاعر:

والـمـوتُ دونَ شـمـاتـةِ الأعـداء(٤)

وقرأ ابن مُحَيْصِنٍ: «تَشْمِتْ» بفتح التاء وكسرِ الميم ونصبِ «الأعداءَ»(٥)، ومجاهدٌ كذلك إلا أنه فَتَحَ الميم(٦). و«شَمِتَ» متعدِّيةٌ كأشْمَتَ، وخرَّج أبو الفتح قراءةَ مجاهدٍ على أن تكون لازمةً، والمعنى: فلا تَشْمَتْ أنت يا رب، وجاز هذا كما قال: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] ونحو ذلك، ثم عاد إلى المراد فأضمر فعلًا نَصَبَ به «الأعداء» كقراءة الجماعة(٧). انتهى.

---

(١) ينظر التعليق السابق.
(٢) القراءات الشاذة ص٤٧، والكشاف ٢/ ١١٩.
(٣) في (أ): معنى، وفي المطبوع: بمعنى، وسقطت من (د١).
(٤) وصدره: شَمَّتَّ بيَ الأعداءَ حين هَجَرْتني، وسلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦].
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٨، وهي في القراءات الشاذة ص٤٦ عن مجاهد وحميد بن قيس.
(٦) المحتسب ١/ ٢٥٩، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٥٧.
(٧) المصدران السابقان.

وهذا خروجٌ عن الظاهر وتكلُّفٌ في الإعراب، وقد رُوي تَعَدِّي «شَمِتَ» لغةً فلا يُتكلَّفُ أنها لازِمةٌ مع نَصْب «الأعداء»، وأيضًا قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ إنما ذلك على سبيل المقابَلة لقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤] فقال: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، وكقوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠] ولا يجوزُ ذلك ابتداءً من غيرِ مقابَلة.

وعن مجاهدٍ: «فلا تَشْمَتْ» بفتح التاء والميم ورفع «الأعداء»[1]، وعن حميد بن قيس كذلك إلا أنه كَسَر الميم[2]، جَعَلَاه فعلًا، لازمًا فارْتَفَع به «الأعداء»، فظاهِرُه أنه نَهَى الأعداءَ عن الشماتة به، وهو من باب: لا أَرَيَنَّكَ هنا، والمراد نَهْيُه أخاه، أي: لا تُحِلَّ بي مكروهًا فيَشْمَتوا بي.

وبدأ أولاً بسؤال أخيه أن لا يُشْمِتَ به الأعداءَ؛ لأن ما يوجبُ الشماتةَ هو فعلٌ مكروهٌ ظاهرٌ لهم فيشمتوا به، فبدأ بالأَوْكَد ثم سأله أن لا يجعله ولا يعتقدَه واحدًا من الظالمين، إذ جَعْلُه معهم واعتقادُه من جملتهم هو فعلٌ قلبيٌّ وليس ظاهرًا لبني إسرائيل، أو يكون المعنى: ولا تجعلني في مَوْجِدَتك عليَّ قرينًا لهم مصاحِبًا لهم.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ لـمَّـا اعتذر إليه أخوه اسْتَغْفَر لنفسه وله، قالوا: واستغفارُه لنفسه بسبب فعلته مع أخيه وعَجَلته في إلقاء الألواح، واستغفارُه لأخيه من فِعْلته في الصبر لبني إسرائيل.

قالوا: ويمكنُ أن يكونَ الاستغفارُ ممَّا لا يعلمُه، والله أعلم.

وقال الزمخشريّ[3]: لمَّا اعتذر إليه أخوه وذَكَر شماتةَ الأعداء قال: «ربِّ اغْفِرْ لي ولأخي» لِيُرْضِيَ أخاه، ويُظْهِرَ لأهل الشماتة رضاه عنه، فلا تَتِمَّ لهم شماتَتُهم، واستَغْفَر لنفسه ممَّا فَرَط منه إلى أخيه، ولأخيه أنْ عسى فرَّط في حين[4] الخلافة، وطلب أن لا يتفرَّقا عن رحمته، ولا تزالَ متضمِّنةً لهما في الدنيا والآخرة. انتهى.

---

(١) المحتسب ١/ ٢٥٩، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٥٧، وهي في القراءات الشاذة ص٤٦ عن مالك بن دينار.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٧.
(٣) في الكشاف ٢/ ١١٩.
(٤) في الكشاف: في حُسْن.

وقوله: ولأخيه أن عسى فرَّط، إنْ كانت «أنْ» بفتح الهمزة فتكونُ المخفَّفةَ من الثقيلة، ويَقْرُبُ معناه، وإن كانت بكسر الهمزة فتكونُ للشرط، ولا يصحُّ إذ ذاك دخولُها على «عسى» لأنَّ أدوات الشرط لا تدخلُ على الفعل الجامد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ الظاهرُ أنه من كلام الله تعالى إخبارًا عمَّا ينالُ عُبَّادَ العِجل، ومخاطَبةً لموسى بما ينالُهم.

وقيل: هو من بقية كلام موسى إلى قوله: «في الحياة الدنيا»، وصَدَّقَه الله تعالى بقوله: «وكذلك نجزي المفترين».

والأولُ هو الظاهرُ؛ لقوله: «وكذلك نجزي المفترين» في نسقٍ واحدٍ مع الكلام قبله.

والمعنى: اتَّخذُوه إلهًا؛ لقوله: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨]، قيل: والغضبُ في الآخرة والذلَّةُ في الدنيا.

وهم فرقةٌ من اليهود أُشربوا حبَّ العِجْلِ فلم يتوبوا.

وقيل: هم مَن مات منهم قبل رجوع موسى من الميقات.

وقال أبو العالية وتبعه الزمخشريُّ: هو[(١)] ما أُمِروا به مِن قَتْلِ أنفسِهم، وقال الزمخشريُّ: والذلَّةُ خروجُهم من ديارهم؛ لأن ذلَّ الغُربة مَثَلٌ مضروبٌ[(٢)]. انتهى، وينبغي أن يقول: استمرارُ انقطاعهم عن ديارهم؛ لأنَّ خروجه كان سَبَقَ على عبادة العجل.

وقال عطيَّةُ العَوْفيُّ: هو في قَتْلِ بني قُريظةَ وإجلاءِ بني النَّضير لأنهم تولَّوا متَّخذي العجل[(٣)].

وقيل: ما نال أولادَهم على عهد رسول الله ﷺ من السبي والجَلاء والجزية وغيرِها.

---

(١) أي: الغضب.

(٢) الكشاف ٢/ ١١٩-١٢٠. وقول أبي العالية ذكره الثعلبي ٣/ ٧٥، والبغوي ٢/ ٢٠٢.

(٣) تفسير الثعلبي ٣/ ٧٥-٧٦، وتفسير البغوي ٢/ ٢٠٢، وزاد المسير ٣/ ٢٦٦.

وجَمَعَ هذين القولين الزمخشريُّ فقال: هو ما نال أبناءَهم وهم بنو قُرَيظةَ والنضير من غضب الله تعالى بالقتل والجلاء، ومن الذِّلة بضَرْبِ الجزية[١]. انتهى.

والغضبُ إنْ أُخذ بمعنى الإرادة فهو صفةُ ذاتٍ، أو بمعنى العقوبة فهو صفةُ فِعْلٍ.

والظاهرُ أنَّ قوله: «في الحياة الدنيا» متعلِّقٌ بقوله: «سينالُهم»، «وكذلك» أي: مِثْلَ ذلك النَّيْلِ من الغضب والذلَّة نجزي مَن افترى الكذبَ على الله، وأيُّ افتراءٍ أعظمُ من قولهم: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾.

و«المفترين» عامٌّ في كلِّ مُفْتَرٍ، وقال أبو قِلابةَ ومالكٌ وسفيانُ بن عُيينة: كلُّ صاحب بدعةٍ أو فِرْيةٍ ذليلٌ، واستدلُّوا على ذلك بالآية[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣﴾

«السيئات» من[٣] الكفر والمعاصي وغيرها، «ثم تابوا» أي: رجعوا إلى الله، «مِن بَعْدِها» أي: من بعد عَمَلِ السيئات، «وآمنوا» أي: داموا على إيمانهم وأخلصوا فيه، أو تكون الواو لا ترتِّب، أو تكون الواوُ حاليَّةً، أي: وقد آمنوا، «إنَّ ربَّك من بعدها»، أي: من بعد عَمَلِ السيئات، هذا هو الظاهرُ، ويحتمل أن يكون الضمير في «من بعدها» عائدًا على التوبة، أي: إنَّ ربك من بعد توبتهم، فيعود على المصدر المفهوم من قوله: «ثم تابوا»، وهذا عندي أَوْلَى؛ لأنك إذا جعلتَ الضميرَ عائدًا على «السيئات» احْتَجْتَ إلى حذفِ مضافٍ وحذفِ معطوفٍ، إذ يصير التقدير: مِن بعد عَمَلِ السيئات والتوبةِ منها.

وخبر «الذين» قولُه: «إنَّ ربَّك» وما بعده، والرابطُ محذوفٌ، أي: لغفورٌ رحيمٌ لهم.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٢٠.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٨ عن أبي قلابة وسفيان، وأخرجه عنهما الطبري ١٠/ ٤٦٤-٤٦٥، وذكره عن مالك ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٦٦، والرازي ١٥/ ١٣، والقرطبي ٩/ ٣٤٥.

(٣) في (د١) والمطبوع: هي.

قال الزمخشري[١]: لغفورٌ: لستُورٌ عليهم مَحّاءٌ لِمَا كان منهم[٢]، «رحيم» منعِمٌ عليهم بالجنة، وهذا حُكْمٌ عامٌّ يدخل تحته متَّخِذو العجلِ ومَن عَدَاهم، عظَّم جنايتهم أولًا ثم أردفها بعِظَم رحمته؛ ليُعْلَمَ أنَّ الذنوبَ وإنْ جَلَّت وإنْ عَظُمَتْ فإنَّ عفوَه تعالى وكرمَه أعظمُ وأجلُّ، ولكنْ لا بدَّ من حِفْظِ الشريطة، وهي وجوبُ التوبة والإنابةِ، وما وراءه طمعٌ فارغٌ وأشْعَبيةٌ باردةٌ لا يَلتفت إليها حازمٌ، وهذا على طريقَةِ الاعتزال.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ سكوتُ غضبه كان ـ واللهُ أعلم ـ بسبب اعتذارِ أخيه، وكونِه لم يقصِّر في نهي بني إسرائيلَ عن عبادة العجل، ووَعْدِ الله إياه بالانتقام منهم.

وسكوتُ الغضب استعارةٌ؛ شبَّه خمودَ الغضب بانقطاع كلام المتكلِّم، وهو سكوتُه، قال يونس بن حبيب: تقول العرب: سال الوادي يومين ثم سَكَتَ[٣].

وقال الزجَّاج: مصدر «سَكَتَ الغضبُ»: سَكْتٌ، ومصدر «سَكَتَ الرجلُ»: سُكوتٌ، وهذا يقتضي أنه فِعْلٌ على حِدَةٍ وليس من سكوت الناس، وقيل: هو من بابِ القَلْب، أي: ولمَّا سكت موسى عن الغضب، نحو: أدخلتُ فمي في الحجر، وأدخلتُ القلنسوةَ في رأسي[٤]. انتهى.

ولا ينبغي هذا؛ لأنه من القَلْب، وهو لم يقع إلا في قليلٍ من الكلام، والصحيحُ أنه لا ينقاس.

وقال الزمخشري: هذا مَثَلٌ، كأنَّ الغضب كان يُغريه على ما فَعَلَ، ويقول له: قل لقومك كذا، وألْقِ الألواحَ، وخُذْ برأس أخيك إليك، فتَرَكَ النطقَ بذلك وتَرَكَ

(١) في الكشاف ٢/ ١٢٠.

(٢) في النسخ عدا (د١): لما كان عليهم منه، والمثبت من (د١) والمطبوع، وهو الموافق لما في الكشاف.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٩، وكلمة «يومين» سقطت من (أ) و(ب) و(ع) والمطبوع.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٧٩ بنحوه، والكلام من المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٩. وقوله: وهذا يقتضي أنه فعل على حدة وليس من سكوت الناس، هو من كلام ابن عطية، وليس من كلام الزجاج.

الإغراءَ، ولم يَسْتَحْسِنْ هذه الكلمةَ ولم يَسْتَفْصِحْها كلُّ ذي طبعٍ سليم وذوقٍ صحيح إلا لذلك، ولأنه من قَبيل شُعَب البلاغة، وإلَّا فما لقراءة معاويةَ بن قُرَّةَ: «ولمَّا سَكَنَ عن موسى الغضبُ» لا تجدُ النفسُ عندها شيئًا من تلك الهزَّة وطرفًا من تلك الروعة[١].

وقرئ: «أُسْكِتَ» رباعيًا مبنيًّا للمفعول[٢]، وكذا هو في مصحف حفصةَ[٣]، والمَنُوبُ عنه اللهُ، أو أخوه باعتذارِه إليه أو تنصُّلِه، أي: أَسْكَتَ اللهُ أو هارونُ.

وفي مصحف عبد الله: «ولمَّا صبر»، وفي مصحف أبيٍّ: «ولمَّا انشقَّ»[٤].

والمعنى: ولمَّا طَفِئَ غضبُه أخذَ ألواحَ التوراةِ التي كان ألقاها من يده، رُوي عن ابن عباس أنه ألقاها فتكسَّرت، فصام أربعين يومًا فرُدَّت إليه في لوحين ولم يفقد منها شيئًا[٥].

«وفي نسختها» أي: فيما نُسِخَ من الألواح المكسَّرة[٦]، أو: فيما نُسخ فيها، أو: فيما بقي منها بعد المرفوع وهو سُبُعها، والأظهَرُ أنَّ المعنى: وفيما نُقِلَ وحُوِّلَ منها.

واللامُ في «لربهم» مقوِّيةٌ لوصول الفعل إلى مفعوله المتقدِّم، وقال الكوفيون: هي زائدة. وقال الأخفش: هي لامُ المفعول له، أي: لأَجْلِ ربِّهم يرهبون لا رياءً ولا سمعةً. وقال المبرِّد: هي متعلِّقةٌ بمصدرٍ، المعنى: الذين هم رهبتُهم لربِّهم[٧].

---

(١) الكشاف ٢/ ١٢٠، وقراءة معاوية بن قرة في القراءات الشاذة ص٤٦.

(٢) القراءات الشاذة ص٤٦، والكشاف ٢/ ١٢٠.

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٩، ووقع في مطبوعه: وفي مصحف حفصة: «ولما سكت». اهـ. ولعلها من الرباعي المضعف المبني للمجهول ـ أي: «سُكِّت»، وهي قراءة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٦ ـ أو هي مصحفة عن «أسكت».

(٤) القراءتان في المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٩، ووقع في مطبوعه: اشتق، بدل: انشق.

(٥) تفسير الثعلبي ٣/ ٧٦، وتفسير البغوي ٢/ ٢٠٣، وتفسير الرازي ١٥/ ١٥.

(٦) أي: فيما نسخ منها ونُقل إلى الألواح الجديدة، والنسخ: نقل ما في كتاب إلى كتاب آخر، ويقال للأصل الذي كُتبت منه: نسخة، وللفرع: نسخة. تفسير القرطبي ٩/ ٣٤٦.

(٧) ذكر هذه الأقوال النحاس في إعراب القرآن ٢/ ١٥٤، والقرطبي ٩/ ٣٤٧، وقول الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٥٣٥.

وهذا على طريقة البصريين لا يتمشَّى؛ لأنَّ فيه حذفَ المصدر وإبقاءَ معموله، وهو لا يجوزُ عندهم إلَّا في الشعر، وأيضًا فهذا التقديرُ يُخرِجُ الكلامَ عن الفصاحة.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾«اختار»: افْتَعَلَ، من الخير، وهو التخيُّرُ والانتقاء، و«اختار» من الأفعال التي تعدَّت إلى اثنين: أحدُهما بنفسه، والآخَرُ بوساطة حرف الجرِّ، وهي مقصورةٌ على السماع، وهي: اختار، واستغفر، وأمر، وسمَّى، وكَنَى، ودعا، وزوَّج، وصَدَق[١]، ثم يُحذف حرفُ الجرِّ ويتعدَّى إليه الفعلُ فتقول: اخترتُ زيدًا من الرجال، واخترت زيدًا الرجالَ، قال الشاعر:

اخْتَرْتُكَ النـاسَ إذ رثَّـتْ خلائقُهـم ... واعْتَلَّ مَن كان يُرْجَى عنده السُّولُ[٢]

أي: اخترتُك من الناس.

و«سبعين» هو المفعولُ الأول، و«قومَه» هو الثاني، وتقديره: من قومه. ومَن أَعْربَ «قومَه» مفعولًا أولَ و«سبعين» بدلًا منه بَدَلَ بعضٍ من كلٍّ وحُذِفَ الضمير، أي: سبعين رجلًا منهم، احتاج إلى تقديرِ مفعولٍ ثانٍ، وهو المختارُ منه، فإعرابُه فيه بُعدٌ وتكلُّفُ حذفٍ في رابط البدل وفي المختارِ منه.

واختلفوا في هذا الميقات: أهو ميقاتُ المناجاة ونزولِ التوراة، أو غيره؟

فقال نوفٌ البَكَاليُّ، ورواه أبو صالح عن ابن عباس: هو الأولُ[٣]، بُيِّنَ فيه بعضُ ما جرى من أحواله، وأنه اختار من كلِّ سبطٍ ستةَ رجالٍ فكانوا اثنين وسبعين، فقال: لِيَتَخلَّفِ اثنان فإنما أُمِرْتُ بسبعين، فتشاحُّوا فقال: مَن قَعَدَ فله أجرُ مَن حَضَرَ، فقعد كالب بن يوقنا ويوشع بن نون، واستَصْحَبَ السبعين بعد أن أمرهم أن يصوموا ويتطهَّروا ويُطهِّروا ثيابهم، ثم خرج بهم إلى طُورِ سيناءَ لميقاتِ ربِّه، وكان أَمَرَه ربُّه أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل، فلمَّا دنا موسى من الجبل وقع عليه عمودُ الغمام حتى تغشَّى الجبلَ كلَّه، ودنا موسى ودخل فيه وقال للقوم:

---

(١) تنظر شواهد هذه الأفعال في الدر المصون ٥/ ٤٧٤، وزاد السمين: «حدَّث، وأنبأ، ونبَّأ، وأخْبَر، وخبَّر» إذا لم تضمَّن معنى: أَعْلَمَ.

(٢) البيت للراعي النميري، وهو في ديوانه ص١٩٤، وتفسير الطبري ١٠/ ٤٧٣.

(٣) زاد المسير ٣/ ٢٦٨، وما بعده نقله المصنف عن الكشاف ٢/ ١٢١، وروى بعضَه الطبريُّ ١٠/ ٤٦٨ عن ابن إسحاق، والبعضَ الآخرَ الثعلبيُّ ٣/ ٧٨ عن الكلبي.

ادنوا، فدَنَوا حتى إذا دخلوا في الغمام وَقَعوا سُجَّدًا، فسمعوه وهو يكلِّم موسى يأمره وينهاه: افْعَلَ، ولا تَفْعَلْ. ثم انكشف الغمامُ فأقبَلوا إليه فطلبوا الرؤيةَ، فوعَظَهم وزجرهم وأنكر عليهم، فقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، قال الزمخشريّ: فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] يريد أن يسمعوا الردَّ والإنكارَ من جهته، فأجيب بـ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾، ورَجَفَ الجبلُ بهم وصَعِقوا[١]. انتهى.

وقيل: هو ميقاتٌ آخَرُ غيرُ ميقات المناجاة ونزولِ التوراة، فقال وهب بن منبِّه: قال بنو إسرائيل لموسى: إن طائفةً تزعم أنَّ الله لا يكلِّمك، فخذْ منَّا مَن يذهبُ معك ليسمعوا كلامَه فيؤمنوا، فأوحى الله تعالى إليه أن يختار سبعين من خِيارهم، ثم ارْتَقِ بهم الجبلَ أنت وهارونُ واستَخْلِفْ يوشع، ففعل[٢]، فلمَّا سمعوا كلامه سألوا موسى أن يُرِيَهم الله جهرةً فأخذتهم الرجفة.

وقال السُّدِّي: هو ميقاتٌ وقَّته الله تعالى لموسى ليلقاه في ناسٍ مِن بني إسرائيل ليَعْتَذروا إليه من عبادة العجل[٣].

وقال ابن عباس فيما رَوَى عنه علي بن [أبي] طلحة: هو ميقاتٌ وقَّته الله لموسى وأمره أن يختار من قومه سبعين رجلًا ليدعوا ربَّهم، فدَعَوْا فقالوا: اللهمَّ أَعْطِنا ما لم تُعْطِ أحدًا قبلنا ولا أحدًا بعدنا، فكَرِه الله ذلك فأخذتهم الرجفة[٤].

وعن عليٍّ ﷺ فيما روى ابنُ أبي شيبة[٥]: أن موسى وهارون وابناه شَبَّرٌ وشَبِيرٌ انطلقوا حتى انتهوا إلى جبلٍ فيه سريرٌ، فقام[٦] عليه هارون فقبض روحه، فرجع

(١) الكشاف ٢/ ١٢١.
(٢) تفسير الثعلبي ٣/ ٧٧، وزاد المسير ٣/ ٣٦٨.
(٣) أخرجه الطبري ١٠/ ٤٦٨، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٣٦٨.
(٤) تفسير الطبري ١٠/ ٤٦٩، وزاد المسير ٣/ ٣٦٨، وعنه نقل المصنف، وما بين حاصرتين منهما.
(٥) في المصنف (٣٢٥٠٢)، وأخرجه أيضاً الطبري ١٠/ ٤٧٠، وابن أبي حاتم ٥/ ١٥٧٣، والضياء في المختارة (٦٨٦)، ونقله المصنف عن القرطبي ٩/ ٣٤٨، وهو من طريق عُمارة بن عبد السلولي عن علي ﷺ.
(٦) كذا في النسخ وبعض نسخ القرطبي كما ذكر في حاشيته، والذي في المصادر: فنام.

موسى إلى قومه فقالوا: أنت قَتَلْتَه، حسدتنا على خُلُقه ولِيْنه، فقال: كيف أقتلُه ومعي ابناه؟! قال: فاختاروا مَن شئتم، فاخْتِيرَ سبعون، فانتهوا إليه فقالوا: مَن قتلك يا هارون؟ قال: ما قتلني أحدٌ، ولكن الله تَوفَّاني. قالوا: يا موسى ما نعصي[(١)] بعدُ، فأخذتهم الرجفةُ فجعلوا يتردَّدون يمينًا وشمالًا[(٢)]. انتهى.

ولفظ «لميقاتنا» في هذا القولِ الذي رُوي عن عليٍّ؛ لأنه يقتضي أنه كان عن توقيتٍ من الله تعالى، وقال ابن السائب: كان موسى لا يأتي ربَّه إلا بإذنٍ منه[(٣)].

والذي يظهر أنَّ هذا الميقاتَ غيرُ ميقاتِ موسى الذي قيل فيه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ لظاهر تغايُرِ القصتين وما جرى فيهما؛ إذ في تلك أن موسى كلَّمه الله، وسأله الرؤيةَ، وأحاله في الرؤية على تجلِّيه للجبل وثبوته، فلم يَثْبُتْ وصار دكًّا وصَعِقَ موسى، وفي هذه اختيرَ السبعون لميقات الله، وأخذَتْهم الرجفةُ ولم تأخذ موسى، وللفصل الكثير الذي بين أجزاء الكلام لو كانت قصةً واحدة.

﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾ سببُ الرجفة مختلَفٌ فيه، وهو مرتَّبٌ على تفسير الميقات، فهل الرجفةُ عقوبةٌ على سكوتهم وإغضائهم على عبادة العجل، أو عقوبةٌ على سؤالهم الرؤيةَ، أو عقوبةٌ لتشطُّطهم في الدعاء المذكور، أو سببه سماعُ كلام هارون وهو ميتٌ؟ أقوال.

وقال السُّدي: عقوبةٌ على عبادة هؤلاء السبعين بأنفسهم[(٤)] العجلَ، وخَفيَ ذلك عن موسى في وقت الاختيار حتى أَعْلَمه الله.

---

(١) عند ابن أبي شيبة والقرطبي: ما تُعْصَى.

(٢) كذا في النسخ ونسخ القرطبي، وعند ابن أبي شيبة والضياء: فجعل يتردد يميناً. . .، وعند الطبري: فجعل موسى يرجع يميناً. . .، وهذا الخبر أورده ابن كثير عند تفسير هذه الآية وقال: «هذا أثر غريب جدًّا وعمارة بن عبد هذا لا أعرفه، وقد رواه شعبة، عن أبي إسحاق، عن رجل من بني سلول، عن علي». قلت: وهذه الرواية أخرجها الطبري ١٠/ ٤٧١، وروى نحو هذا الخبر الطبري ١٩/ ١٩٤ من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس عن علي ﷺ، وقوَّى إسناده الحافظ في الفتح ٨/ ٥٣٤، لكن ليس فيه كلام هارون بعد الموت.

(٣) زاد المسير ٣/ ٢٦٨.

(٤) في (أ) و(ب) و(ع) والمطبوع: باختيارهم، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٢/ ٤٥٩، وعنه نقل المصنف.

وأخذُ الرجفة يحتملُ أن نشأ عنه الموتُ، ويحتملُ أن نشأ عنه الغَشْيُ، وهما قولان.

قال السدي: قال موسى: كيف أرجعُ إلى بني إسرائيلَ وقد أهلكْتَ خيارَهم، فماذا أقول، وكيف يأمنونني على أحدٍ؟ فأحياهم الله[(١)].

وقيل: أخذتهم الرِّعْدةُ حتى كادت تَبِيْنُ مفاصِلُهم وتَنْتَقِضُ ظهورُهم، وخاف موسى الموتَ، فعند ذلك بكى ودعا فكُشف عنهم[(٢)].

قال الزمخشريُّ: وهذا تمنٍّ منه للإهلاك قبل أن يرى ما رأى من تَبِعةِ طلبِ الرؤية، كما يقول النادم على الأمر إذا رأى سوءَ المَغَبَّةِ: لو شاء الله لأهلكني قبل هذا[(٣)]. انتهى، فمعنى قوله: من قبل، أي: من قبل[(٤)] سؤال الرؤية، وهذا بناء من الزمخشريِّ على أنَّ هذا الميقاتَ هو ميقاتُ المناجاة وطلبِ الرؤية، وقد ذكرنا أنَّ الأظهر خلافُه.

وقال ابن عطية[(٥)]: لمَّا رأى موسى ذلك أَسِفَ عليهم، وعلم أنَّ أمر بني إسرائيل سيتشَعَّبُ إن لم يأتِ بالقوم، فجعل يستَعْطِفُ ربَّه، أي ربِّ[(٦)] لو شئتَ أهلكتهم قبلَ هذه الحالِ وإياي لكان أخفَّ عليَّ، وهذا وقتُ هلاكهم فيه مَفْسَدةٌ عليَّ مُؤْذٍ لي. انتهى.

ومفعولُ «شئتَ» محذوفٌ تقديره: لو شئتَ إهلاكَنا، وجوابُ «لو»: «أهلكتهم»، وأتى دون لام وهو فصيحٌ، لكنه باللام أكثر كما قال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَنَخَذْتَ﴾ [الكهف: ٧٧]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ﴾ [يونس: ٩٩] ولا نَحْفَظه[(٧)] جاء بغيرِ

---

(١) قطعة من خبر طويل أخرجه الطبري ١/ ٦٩٥، وهو بلفظ المصنف في تفسير الرازي ١٥/ ١٨.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٢٠٣، وتفسير الرازي ١٥/ ١٨، وعنه نقل المصنف، وعزاه البغوي لوهب.

(٣) الكشاف ٢/ ١٢١.

(٤) قوله: أي من قبل، ساقط من (أ) و(ب) و(د١) و(ع)، وقوله: أي، من (ز١) وسقط من باقي النسخ، وعبارة الكشاف ليس فيها كلمة «من».

(٥) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٠.

(٦) في (د١) والمطبوع: أن يا رب، وفي باقي النسخ: أي يا رب، والمثبت من المحرر.

(٧) في (أ) و(د١) و(ع): ولا يصح، وفي المطبوع: ولا يحفظ.

لام في القرآن إلَّا هذا، وقولُه: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم﴾ [الأعراف: ١٠٠] ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠].

والمحذوفُ في «من قبلُ»، أي: من قبلِ الاختيار وأخذِ الرجفة، وذلك زمانَ إغضائهم على عبادة العجل، أو عبادتِهم هم إياه، وقوله: «وإياي»، أي: وقتَ قتلي القِبْطيَّ، فأنت قد سترتَ وغفرتَ حينئذٍ، فكيف الآن إذ رجوعي دونهم فسادٌ لبني إسرائيلَ؟ قال أكثره ابن عطية[١].

وعُطِفَ «وإياي» على الضمير المنصوب في «أهلكتهم»، وعَطْفُ الضمير ممَّا يوجبُ فَصْلَه، وبدأ بضميرهم لأنهم الذين أخذتهم الرجفةُ فماتوا أو أُغمي عليهم، ولم يَمت هو ولا أُغْمي عليه، ولم يكتفِ بقوله: «أهلكتهم من قبل» حتى أشرك نفسَه فيهم ـ وإن كان لم يَشْرَكهم في مقتضَى الإهلاك ـ تسليمًا منه لمشيئة الله تعالى وقدرته، وأنه لو شاء إهلاكَ العاصي والطائعِ لم يَمْنَعه من ذلك مانعٌ.

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ قيل: هذا استفهامٌ على سبيل الإدلاء بالحجة في صيغة استعطافٍ وتذلُّلٍ، والضميرُ المنصوبُ في «أتهلكنا» له وللسبعين، و«بما فعل السفهاء» فيه الخلافُ مرتَّبًا على سبب أخذ الرجفة: مِن طَلَبِ الرؤية، أو عبادةِ العجل، أو قولِهم: قتلتَ هارون، أو تشطُّطِهم في الدعاء، أو عبادتهم بأنفسهم العجلَ.

وقيل: الضمير في «أتهلكنا» له ولبني إسرائيل، و«بما فعل[٢] السفهاء»، أي: بالتفرُّق والكفر والعصيان يكون هلاكُهم.

وقال الزمخشريّ: يعني نفسه وإياهم؛ لأنه إنما طلبَ الرؤيةَ زجرًا للسفهاء، وهم طلبوها سفهًا وجهلًا[٣].

والذي يظهر[٤] أنه استفهامُ استعلام: أيقعُ إهلاكُ المختارين وهم خيرُ بني

---

(١) في المحرر ٢/ ٤٦٠.
(٢) في (أ) و(ز١) و(يه): فعله.
(٣) الكشاف ٢/ ١٢١.
(٤) بعدها في (د١) والمطبوع: لي.

إسرائيل بما فَعَلَ غيرُهم؟ إذ من الجائز في العقل ذلك، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]. وقوله عليه السلام وقد قيل له: أنهلكُ وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كَثُرَ الخَبَثُ»[(١)].

وكما ورد أنَّ قومًا يُخْسَفُ بهم، قيل: وفيهم الصالحون؟ فقيل: «يبعثون على نياتهم»[(٢)]؛ أو كلامًا هذا معناه.

ورُوي عن عليٍّ أنهم أُحْيُوا وجُعلوا أنبياءَ كلُّهم[(٣)].

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ أي: إن فتنتُهم إلا فتنتُك، والضمير في «هي» يفسِّره سياقُ الكلام، أي: أنت هو الذي فَتَنْتَهم، قالت فرقة: لمَّا أَعْلَمه الله أنَّ السبعين عبدوا العجل تعجَّب وقال: «إن هي إلا فتنتك».

وقيل: لمَّا أُعلم موسى بعبادة بني إسرائيلَ العجلَ وبصفته قال: يا رب، ومَن أخَارَه؟ قال: أنا، قال موسى: فأنت أَضْلَلْتَهم إنْ هي إلَّا فتنتُك.

قال ابنُ عطية[(٤)]: ويحتملُ أن يشير به إلى قولهم: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] إذ كانت فتنةً من الله أوجبت الرَّجفة، وفي هذه الآية ردٌّ على المعتزلة.

وقال الزمخشري: أي: محنتُك وبلاؤك حين كلَّمتني وسمعتُ كلامَك، فاستدلّوا بالكلام على الرؤية استدلالًا فاسدًا حتى افتُتِنوا وضَلّوا، «تُضِلُّ بها» الجاهلين غيرَ الثابتين في معرفتك، «وتَهدي» العالِمينَ الثابتين بالقول الثابت، وجَعَلَ ذلك إضلالًا من الله تعالى وهُدًى منه لأن محنته إنما كانت سببًا لأنْ ضلُّوا واهْتَدَوا فكأنه أضلَّهم بها وهداهم، على الاتِّساع في الكلام[(٥)]. انتهى.

وهو على طريقة المعتزلة في نفيهم الإضلالَ عن الله تعالى.

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ أي: القائمُ بأمرنا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ سأل

---

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠) من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٢١١٨)، ومسلم (٢٨٨٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٠.

(٤) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٠، وما قبله منه.

(٥) الكشاف ٢/ ١٢١.

الغفرانَ له ولهم والرحمةَ لمَّا كان قد انْدَرَجَ قومُه في قوله: «أنت ولِيُّنا»، وفي سؤال المغفرة والرحمة له ولهم ـ وكان قومُه أصحابَ ذنوبٍ ـ أكَّد استعطافَ ربِّه تعالى في غفران تلك الذنوب، فأكَّد ذلك ونبَّه بقوله: «وأنت خيرُ الغافرين»، ولمَّا كان هو وأخوه هارونُ عليهما السلام من المعصومينَ من الذنوب، فحين سأل المغفرةَ له ولأخيه وسأل الرَّحمة لم يؤكِّد المغفرة، بل قال: «وأنتَ أرحم الراحمين» فنبَّه على أنه تعالى أرحمُ الراحمين، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

وكان تعالى خيرَ الغافرين لأن غيره يَتَجاوزُ عن الذنب طلبًا للثناء أو الثواب، أو دفعًا للصفة الخسيسة عن القلب وهي صفةُ الحقد، والباري سبحانه وتعالى منزَّهٌ عن أن يكون غُفرانُه لشيءٍ من ذلك.

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: وأثبِتْ لنا عافيةً[1] وحياةً طيِّبةً، أو عملاً صالحًا يَسْتَعْقِبُ ثناءً حسنًا، و«في الآخرة»: الجنةَ والرؤيةَ والثوابَ على حسنة الدنيا. والأجودُ حملُ الحسنة على ما يَحْسُنُ من نعمةٍ وطاعةٍ وغيرِ ذلك، وحسنةُ الآخرةِ الجنةُ لا حسنةَ دونها.

و«إنا هُدْنا» تعليلٌ لطالب الغفران والرَّحمة وكَتْبِ الحسنة، أي: تبنا إليك؛ قاله ابنُ عباس ومجاهدٌ وابنُ جُبيرٍ وأبو العالية وقتادةُ والضحاك والسدِّيُّ[2]، من: هاد يهودُ.

وقال ابن بحر: تَقَرَّبْنا بالتوبة[3].

وقيل: مِلْنا، ومنه:

قد عَلِمتْ سلمى وجاراتُها أنِّي مِن الله لها هائدُ[4]

أي: مائل.

---

(١) في (د١) والمطبوع: عاقبة، وهو تصحيف، وينظر الكشاف ٢/ ١٢١.
(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٤٧٩-٤٨٢.
(٣) النكت والعيون ٢/ ٢٦٧.
(٤) أورده الثعلبي في التفسير ١/ ١٠٧-١٠٨ عند تفسير قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [البقرة: ٦٢]، وأورده أيضاً عند تفسير هذه الآية ٣/ ٧٩، وعزاه في الموضع الأول لامرئ القيس، وليس في ديوانه، وجاء عنده في الموضعين: من الناس، بدل من الله.

وقرأ زيد بن علي وأبو وَجْزَة: «هِذْنا» بكسر الهاء[١] من هادَ يَهِيدُ: إذا حَرَّك، أي: حرَّكْنا أنفسَنا وجَذَبْناها لطاعتك، فيكون الضمير فاعلاً، ويحتمل أن يكون مفعولاً لم يُسمَّ فاعلُه، أي: حُرِّكنا إليك وأُمِلْنا، والضمُّ في «هُدْنا» يحتَمِلُهما.

وتضمَّنت هذه الجملُ كونَه تعالى هو ربَّهم ووليَّهم، وأنهم تائبون عبيدٌ له خاضعون، فناسَبَ عزَّ الربوبية أن يُسْتَعْطَفَ للعبيد التائبين الخاضعين بسؤال المغفرة والرحمة والكَتْب.

﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ الظاهرُ أنه استئنافُ إخبارٍ عن عذابه ورحمته، ويندرجُ في قوله: «أصيب به مَن أشاء» أصحابُ الرَّجفة.

وقيل: العذابُ هنا هو الرجفةُ، و«مَن أشاء» أصحابُها.

والمعنى أنه لا اعتراضَ عليه، أي: من أشاءُ عذابَه. وقيل: مَن أشاء أنْ لا أعفوَ عنه. وقيل: مَن أشاء مِن خَلْقي كما أصبتُ به قومَك. وقيل: مَن أشاء من الكفار.

وقيل: المشيئة راجعةٌ إلى التعجيل والإمهال، لا إلى الترك والإهمال.

وقال الزمخشري: «مَن أشاء»: مَن وَجَبَ عليَّ في الحكمة تعذيبُه ولم يكن في العفو عنه مساغٌ لكونه مَفْسَدةً[٢]. انتهى، وهو على طريقة المعتزلة.

وقال ابن عباس: أصيبُ به من أشاء على الذَّنْب اليسير.

وقال أيضًا: وسعت كلَّ شيءٍ من ذنوب المؤمنين[٣].

وقال أبو روق: هي التعاطُف بين الخلائق[٤].

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٦، والمحتسب ١/ ٢٦٠، والكشاف ٢/ ١٢٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦٠، عن أبي وجزة.

(٢) الكشاف ٢/ ١٢٢.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٢٦٧ بلفظ: وسعت المؤمنين بي من أمة محمد. ولم أقف على القول الذي قبله.

(٤) تفسير الثعلبي ٣/ ٨٠ بنحوه.

وقال ابن زيد: هي التوبةُ على العموم[١].

وقال الحسن: هي في الدنيا بالرزق عامةً، وفي الآخرة بالمؤمنين خاصةً[٢].

وقال الزمخشريُّ: وأمَّا رحمتي فِمنْ حالِها وصفتها أنها واسعةٌ تبلغ كلَّ شيءٍ، ما مِن مسلمٍ ولا كافرٍ ولا مطيعٍ ولا عاصٍ إلَّا هو متقلِّبٌ في نعمتي[٣]. انتهى، وهو بسطُ قولِ الحسن: هي في الدنيا بالرزق عامةً.

وقرأ زيد بن علي والحسنُ وطاوسٌ وعمرو بن فائد: «مَنْ أساءَ» من الإساءة[٤].

قال أبو عمرو الداني: لا تصحُّ هذه القراءةُ عن الحسن وطاوسٍ، وعمرُو بنُ فائدٍ رجلُ سوء، وقرأ بها سفيانُ بنُ عُيينةَ مرَّةً واستَحْسَنَها، فقام إليه عبد الرحمن المقرئ وصاح به وأسمعه، فقال سفيان: لم أَدْرِ ولم أَفْطَنْ لمَا يقولُ أهلُ البِدَع[٥].

وللمعتزلة تَعَلُّقٌ بهذه القراءة من جهة إنفاذ الوعيد، ومن جهةِ خَلْقِ المرءِ أفعالَه وإن أساء لا فِعْلَ فيه لله تعالى، والانفصالُ عن هذا كالانفصال عن سائر الظواهر[٦].

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٢٦٧، وزاد المسير ٣/ ٢٧١، ولفظه فيهما: الرحمة: التوبة، فهي على العموم. فقوله: على العموم، ليس من كلام ابن زيد، وكذا أخرجه دون هذه الكلمة الطبري ١٠/ ٤٨٦.

(٢) تفسير الطبري ١/ ٤٨٦، وتفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٧٨، وتفسير أبي الليث ١/ ٥٧٣، وتفسير الثعلبي ٣/ ٧٩، والنكت والعيون ٢/ ٢٦٧، وتفسير البغوي ٢/ ٢٠٤، وزاد المسير ٣/ ٢٧١، جميعهم ذكره عن الحسن وقتادة بلفظ: وسعت في الدنيا البر والفاجر، وهي يوم القيامة للمتقين خاصة. وما ذكره المصنف من أنها الرزق في الدنيا عامة هو شرح لهذا القول، حيث قال ابن الجوزي إثر الخبر: فعلى هذا: معنى الرحمة في الدنيا للكافر أنه يُرزق ويُدفع عنه.

(٣) الكشاف ٢/ ١٢٢.

(٤) القراءات الشاذة ص٤٦، والمحتسب ١/ ٢٦١، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦١، والكشاف ٢/ ١٢٢.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦١، وتحرف في مطبوعه: المقرئ، إلى: المقبري، ولعل الصواب في الاسم: أبو عبد الرحمن، وهو عبد الله بن يزيد المقرئ، من أقران سفيان بن عيينة، توفي سنة (٢١٣هـ)، وتوفي سفيان سنة (١٩٨هـ)، وكلاهما من رجال التهذيب.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦١، وجاء فيه بدل قوله: والانفصال عن هذا. . .، قولُه: وهذان التعلُّقان فيهما احتمال ينفصل عنه كما ينفصل عن سائر الظواهر.

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ أي: أَقضيها وأُقدِّرها، والضميرُ عائدٌ على الرحمة لأنها أقربُ مذكورٍ، ويحتمل عندي أن يعود على «حسنة» في قوله: «واكتب لنا في هذه الدنيا حسنةً وفي الآخرة»، أي: فسأكتبُ الحسنة.

وقال ابنُ عباس ونوفٌ البكالي وقتادةُ وابنُ جُرَيْجٍ، والمعنى متقارِبٌ: لمَّا سمع إبليسُ: «ورحمتي وسعت كلَّ شيءٍ» تطاوَلَ لها إبليس، فلمَّا سمع: «فسأَكْتُبها للَّذين يتَّقون ويُؤتون الزكاة» يئس وبقيت اليهود والنصارى، فلمَّا تمادت الصفةُ تبيَّن أن المراد أمةُ محمد ﷺ، ويئس النصارى واليهود من الآية[١].

وقال أهل التفسير: عَرَضَ الله هذه الخِلالَ على قوم موسى فلم يتحمَّلوها، ولمَّا انطلق وفدُ بني إسرائيل إلى الميقات قيل لهم: خُطَّتْ لكم الأرضُ مسجدًا وطهورًا إلا عند مرحاضٍ أو قبرٍ أو حمَّامٍ، وجُعلت السكينةُ في قلوبهم، فقالوا: لا نستطيع، فاجعل السكينةَ في التابوت، والصلاةَ في الكنيسة، ولا نقرأ التوراة إلَّا نظرًا، ولا نصلِّي إلا في الكنيسة، فقال الله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ من أمةِ محمد ﷺ[٢].

وقال نوفٌ البِكَالي: إنَّ موسى عليه السلام قال: يا رب، جعلتَ وفادتي لأمة محمد؟ قال نوف: فاحمدوا الله الذي جعل وفادة بني إسرائيل لكم[٣].

ومعنى «يتقون»، قال ابنُ عباس وفرقةٌ: الشركَ. وقالت فرقةٌ: المعاصي[٤]. فَمَنْ قال: الشرك لا غير، خرج إلى قول المُرْجِئة، ويَرِدُ عليه من الآية شرطُ

---

(١) ينظر قولهم في تفسير الطبري ١٠/ ٤٨٣-٤٨٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦١، وتفسير البغوي ٢/ ٢٠٤، وزاد المسير ٣/ ٢٧٢، ولفظه من المحرر، وقوله: فلما تمادت الصفة، يعني به قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾.

(٢) أخرجه الطبري بنحوه ١٠/ ٤٨٩-٤٩٠ عن نوف البكالي، وقولهم: ولا نقرأ التوراة إلا نظراً، قالوه ردًّا على ما قيل لهم: وأجعلكم تقرؤون التوراة عن ظهر قلوبكم، كما جاء في الخبر.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦١، وأخرجه بنحوه الطبري ١٠/ ٤٩٠.

(٤) أخرجهما الطبري ١٠/ ٤٨٧، والثاني فيه عن قتادة، وذكرهما ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٦١ دون نسبة.

الأعمال بقوله: «ويؤتون الزكاة»، ومَن قال: المعاصي ولا بدَّ، خرج إلى قول المعتزلة، قال ابنُ عطية[١]: والصوابُ أنْ تكونَ اللفظةُ عامةً، ولكن لا نقول: لا بدَّ من اتِّقاء المعاصي، بل نقول: مُواقِعُ المعاصي في المشيئة، ومعنى «يتقون»: يجعلون بينهم وبين المتَّقَى حجابًا ووقايةً، فذكر تعالى الرتبةَ العاليةَ ليتسابَقَ السامعون إليها. انتهى.

و«يؤتون الزكاة» الظاهرُ أنها زكاةُ المال، وبه قال ابنُ عباس[٢]، ورُوي عنه: ويُؤتون الأعمال التي يزكُّون بها أنفسَهم[٣]. وقال الحسن: تزكيةُ الأعمال بالإخلاص[٤]. انتهى.

ولمَّا كانت التكاليف ترجعُ إلى قسمين: تُروكٍ وأفعالٍ، والأفعالُ قسمان: راجعةٌ إلى المال، وراجعةٌ إلى نفس الإنسان، وهذا قسمان: عِلْمٌ وعملٌ، فالعلمُ: المعرفةُ، والعملُ: إقرارٌ باللسان وعملٌ بالأركان، فأشار بالاتِّقاء إلى التروك؛ وبالفعل الراجع إلى المال بالزكاة، وأشار إلى ما بقي بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ وهذه شبيهةٌ بقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ الآية [البقرة: ٢-٣].

وفَهِمَ المفسِّرون من قوله: «الذين يتَّقون» إلى آخر الأوصاف أنَّ المتَّصفين بذلك هم أمةُ الرسول ﷺ، ويحتمل أن يكون من باب التغايُرِ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه، فيكون قوله: «للَّذين يتَّقون ويُؤتون الزكاة» لمن فَعَلَ ذلك قبل بعثة الرسول، ويكون قوله: «والذين هم بآياتنا يؤمنون» مَن فَعَلَ ذلك بعد البعثة، وفسَّر الآيات هنا بأنها القرآن، وهو الكتابُ المُعْجِزُ.

❁ ❁ ❁

(١) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٦١، وما قبله منه.
(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٢٦٧، وقال: هذا قول الجمهور. اهـ. ولم أقف عليه عن ابن عباس.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦١، وأخرجه بنحوه الطبري ١٠/ ٤٨٧-٤٨٨.
(٤) ينظر النكت والعيون ٢/ ٢٦٧.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ
وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ
وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ
إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ
وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ
ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب
بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ
وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ
وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ
ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ
خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ
ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ
يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟
يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ
قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ
عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟
عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ
مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ
سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ
إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ
يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾.

المفردات

التَّعْزير؛ قال يونسُ بنُ حَبيبٍ: التعزيرُ هو الثناءُ والمدحُ.

الانبجاس: العَرَق؛ قال أبو عمرو بن العلاء: انْبَجَسَتْ: عَرِقَتْ، وانفجَرَتْ: سالت[١]. وقال الواحدي: الانبجاس: الانفجار، يقال: بَجَسَ وانبجس[٢].

الحوت معروف، يجمع في القلّة على: أَحْواتٍ، وفي الكثرة على: حيتانٍ، وهو قياسٌ مطّردٌ في فعلٍ واويِّ العين، نحو: عُودٍ وأعوادٍ وعِيدانٍ.

* * *

التفسير

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ هذا من بقية خطابه تعالى لموسى عليه السلام، وفيه تبشيرٌ ببعثةِ محمدٍ ﷺ، وذِكْرٌ لصفاته، وإعلامٌ له أيضًا أنه يُنْزِلُ كتابًا يسمّى: الإنجيل.

ومعنى الاتِّباع: الاقتداء به فيما جاء به اعتقادًا وقولًا وفعلًا.

وجمع هنا بين الرسالة والنبوّة لأنَّ الرسالة في بني آدم[٣] أعظمُ شرفًا من النبوَّة، أو لأنها بالنسبة إلى الآدميِّ والمَلَكِ أعمُّ، فبُدئ به.

و«الأُمِّيُّ»: الذي هو على صفة أمة العرب «إنَّا أمةٌ أميةٌ لا نكتب ولا نحسب»[٤]، فأكثرُ العرب لا يَكْتُبُ ولا يقرأ؛ قاله الزجَّاج[٥]. وكونُه أمِّيًّا من جملة المُعْجِزِ.

---

(١) تفسير الثعلبي ٣/ ٨٤، وتفسير البغوي ١/ ٧٧.

(٢) الوسيط للواحدي ٢/ ٤١٩، وتفسير الرازي ١٥/ ٣٣.

(٣) في (أ) و(د١) و(ع): في بني إسرائيل.

(٤) أخرجه البخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) تفسير الرازي ١٥/ ٢٣، وعنه نقل المصنف، والذي في معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٨١، واللسان (أمم) نقلاً عنه: الأمي هو على خلقة الأمَّة لم يتعلَّم الكتاب، فهو على جِبِلَّته. ونقله عنه أبو الليث في تفسيره ١/ ٥٧٤ بلفظ: الأمي الذي هو على خلقةِ أمِّه لم يتعلَّم الكتابة...، فإن كان لفظ أبي الليث صحيحاً فهو مختلف عما نقله الرازي، يدل على ذلك أن السمين في الدر ٥/ ٤٧٨ ذكر في معنى «الأمي» الوجهين: أي: النسبة إلى أمة العرب، أو النسبة إلى الأم، كأن الذي لا يقرأ ولا يكتب على حالة ولادته من أمه. وينظر معاني

وقيل: نسبةً إلى أمِّ القُرى، وهي مكة[(١)].

ورُوي عن يعقوبَ وغيره أنه قرأ «الأَمِّي» بفتح الهمزة[(٢)]، وخرِّج على أنه من تغييرِ النَّسَب، والأصل الضمُّ، كما قيل في النَّسَب إلى أُمَيَّةَ: أَموي بالفتح، أو على أنه نَسَبَ إلى المصدر من «أَمَّ»، ومعناه: المقصود، أي: لأنَّ هذا النبيَّ مَقْصِدٌ للناس وموضعُ أَمٍّ؛ وقال أبو الفضل الرازي: وذلك مكةُ، فهو منسوبٌ إليها، لكنها ذُكِّرت إرادةً للحَرَم أو الموضع.

ومعنى «يجدونه»، أي: يجدون وَصْفَه ونَعْتَه، قال التبريزي: في التوراة. أي: سأُقيم لهم نبيًّا من إخوتهم مِثْلَكَ، وأجعلُ كلامي في فيه، ويقول لهم كلَّ ما أوصيتُه. وفيها: وأمَّا النبيُّ فقد باركتُ عليه جدًّا جدًّا، وسأدَّخِرُه لأمةٍ عظيمة. وفي الإنجيل: يعطيكم فارقليطًا آخَرَ يعطيكم معلِّمَ[(٣)] الدَّهر كلِّه. وقال المسيح: أنا أذهبُ وسيأتيكم الفارقليط، روحُ الحق الذي لا يتكلَّم من قِبَلِ نفسه، ويمدحُني ويشهدُ لي[(٤)].

ويحتمل أن يكون «يأمرهم بالمعروف» إلى آخره متعلِّقًا بـ«يجدونه»، فيكون في موضع الحال على سبيل التجوُّز، فيكون حالًا مقدَّرةً. ويحتمل أن يكون مِن وَصْفِ النبيِّ، كأنه قيل: الآمِرَ بالمعروف والناهيَ عن المنكر وكذا وكذا.

وقال أبو عليٍّ[(٥)]: «يأمُرُهم» تفسيرٌ لِمَا كُتب من ذكره، كقوله: ﴿خَلَقَهُۥ مِن

= القرآن للزجاج ١/ ١٥٩ عند قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨] وتهذيب اللغة ١٥/ ٦٣٦ نقلاً عنه، وفيهما: معنى الأمي في اللغة: المنسوب إلى ما عليه جبلته أمه، أي: لا يكتب، فهو في أنه لا يكتب على ما دل عليه.

(١) تفسير أبي الليث ١/ ٥٧٤، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦٢.

(٢) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٦ عن اليماني.

(٣) في (د٣): معكم، وجاء في النكت والعيون ٢/ ٢٦٨ (والكلام منه): فارقليطاً آخر يكون معكم.

(٤) النكت والعيون ٢/ ٢٦٨، وينظر الكتاب المقدس، إنجيل يوحنا ص٣٣٧-٣٣٨، وقد استخدمت فيه كلمة: المؤيد، ولكن أشير في الحاشية إلى أنها في الأصل اليوناني: البارا قليط.

(٥) في الإغفال ٢/ ٢٨٣-٢٨٤، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر ٢/ ٤٦٣.

تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩][1] ولا يجوزُ أن يكونَ حالًا من الضمير في «يجدونه»؛ لأنَّ الضمير للذِّكْر والاسم، والاسمُ والذِّكْرُ لا يَأمران.

وقال ابن عباس وعطاء: «يأمرهم بالمعروف» أي: بخَلْع الأنداد، ومكارِم الأخلاق، وصلة الأرحام. وقال مقاتل: الإيمان. وقيل: الحق[2].

وقال الزجَّاج: كلُّ ما عُرِفَ بالشرع[3].

و«المنكر» قال ابن عباس: عبادةُ الأوثان وقطعُ الأرحام. وقال مقاتل: الشرك. وقيل: الباطل[4].

وقيل: الفساد ومساوئ الأخلاق.

وقيل: القولُ في صفات الله بغير علمٍ، والكفرُ بما أنزل، وقطعُ الرَّحِم، والعقوق.

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ تقدَّم ذِكْرُ الخلاف في «الطيبات» في قوله: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ﴾ [البقرة: ٥٧] أهي الحلال، أو المستلَذُّ؟ وكلاهما قيل هنا.

وقال الزمخشري[5]: ما حُرِّمَ عليهم من الأشياء الطيبة كالشحوم وغيرها، أو ما طاب في الشريعة واللحم[6]، ممَّا ذُكِرَ اسمُ الله عليه من الذبائح وما خلا كَسْبُه من السُّحت. انتهى.

وقيل: ما كانت العرب تحرِّمه من البَحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

واستَبْعَد أبو عبد الله الرازي[7] قولَ مَن قال: إنَّها المحلَّلاتُ، لتقديره: ويُحِلُّ

---

(١) في الإغفال والمحرر: «كما أن قوله: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ تفسير للمثل»، يعني: في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾. ينظر الدر المصون ٥/ ٤٨٠.

(٢) زاد المسير ٣/ ٢٧٢، وقول عطاء لم يذكره ابن الجوزي، وذكره الثعلبي ٣/ ٨٢.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) زاد المسير ٣/ ٢٧٢.

(٥) في الكشاف ٢/ ١٢٢.

(٦) كذا في النسخ، وجاء في مطبوع الكشاف: والحكم، وهو الأشبه.

(٧) في تفسيره ١٥/ ٢٤.

لهم المحلَّلات، قال: وهذا محضُ التكذيب[١]، ولخروج الكلام عن الفائدة؛ لأنَّا لا ندري ما أُحِلَّ لنا وكم هو؟ قال: بل الواجبُ أن يراد: المُسْتَطابة بحسب الطبع؛ لأن تناوُلها يفيدُ اللذةَ، والأصلُ في المنافع الحِلُّ، فدلَّت الآيةُ على أنَّ كلَّ ما تستطيبُه النفسُ ويَسْتَلِذُّه الطبعُ حلالٌ إلَّا ما خرج بدليلٍ منفصل.

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ «الخبائث»؛ قيل: المحرَّمات. وقيل: ما تستخْبِثُه العربُ كالعقرب والحية والحشرات. وقيل: الدمُ والمَيْتةُ ولحمُ الخنزير.

وعن ابن عباس: ما في سورة المائدة إلى قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [الآية: ٣][٢].

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ قرأ طلحة: «ويُذْهِبُ عنهم إصرهم»[٣]، وتقدَّم تفسيرُ الإصر في آخر سورة البقرة، وفسَّره هنا قتادةُ وابنُ جُبيرٍ ومجاهدٌ والضَّحاكُ والحسن وغيرُهم بالثقل[٤].

وقرأ ابن عامر: «آصارهم» جمع إصرٍ[٥]، وقُرئ: «أصرهم» بفتح الهمزة وبضمِّها[٦]. فَمَن جَمَعَ فباعْتبارِ متعلَّقات الإصر إذ هي كثيرةٌ، ومَن وحَّد فلأنه اسمُ جنسٍ.

و«الأغلال» مَثَلٌ لمَا كلِّفوا من الأمور الصعبة، كقَطْعِ موضع النجاسة من الجِلْد والثوب، وإحراقِ الغنائم، والقصاصِ حتمًا من القاتل عمدًا كان أو خطأً، وتركِ الاشتغال يومَ السبت، وتحريمِ العروق في اللحم.

---

(١) كذا في النسخ، والذي في تفسير الرازي: وهو محض التكرير، وهو الأشبه.

(٢) تفسير الرازي ١٥/ ٢٤، وأخرجه بنحوه الطبري ١٠/ ٤٩٣.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٣.

(٤) كذا ذكر، والصواب أن من فسره بالثقل هم قتادة وابن جبير ومجاهد، أما الضحاك والحسن وكذلك ابن عباس فقد فسروه بالعهد. ينظر تفسير الطبري ١٠/ ٤٩٣-٤٩٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦٣، وتفسير القرطبي ٩/ ٣٥٦. والمقصود بالثقل التشديد الذي كان عليهم في دينهم، وما كلِّفوا به من الأمور الصعبة.

(٥) السبعة ص٢٩٥، والتيسير ص١١٣.

(٦) ذكرها مقيَّدةً بفتح الهمزة ابن عطية في المحرر ٢/ ٤٦٤، وكذا ضبطت في القراءات الشاذة ص٤٦.

وعن عطاء: أنَّ بني إسرائيل كانوا إذا قاموا إلى الصلاة لبسوا المُسوح، وغلُّوا أيديهم إلى أعناقهم وربما ثقب الرجلُ ترقُوَته وجَعَلَ فيها طرفَ السلسلة وأوثقها إلى السارية يحبسُ نفسَه على العبادة(١).

ورُوي أنَّ موسى عليه السلام رأى يومَ السبت رجلًا يحملُ قَصَبًا فضربَ عنقه(٢).

وهذا المثلُ كما قالوا: جَعَلْتُ هذا طَوْقًا في عُنقك، وقالوا: طُوِّقَها طَوْقَ الحمامة(٣). وقال الهُذَلي(٤):

وليس كعهد الدار يا أمَّ مالكٍ ... ولكنْ أحاطت بالرقاب السَّلاسلُ

وصار الفتى كالكهل ليس بقابلٍ ... سوى العَدْلِ شيئًا واستراحَ العواذِلُ

وليس ثَمَّ سلاسلُ، وإنما أراد أنَّ الإسلام ألزمه أمورًا لم يكن ملتزِمًا لها قبل ذلك، وكما قال: «الإيمانُ قَيَّدَ الفتكَ»(٥).

وقال ابن زيد: «الأغلال» يريدُ في قوله: ﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [المائدة: ٦٤] فَمَن آمَنَ زالت عنه الدعوةُ وتغليلُها(٦).

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ و«عزَّروه»: أَثْنوا عليه ومَدَحوه، قال الزمخشري: مَنَعوه حتى لا يَقْوَى عليه عدوٌّ(٧).

---

(١) الكشاف ٢/ ١٢٢.

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٢٩ من قول أبي مالك أو سعيد بن جبير.

(٣) يشير إلى بيت عبد الله بن جحش ﷺ من قصيدة يخاطب بها أبا سفيان، كما في سيرة ابن هشام ١/ ٥٠٠، والبيت هو:

اذهب بها اذهب بها ... طُوِّقْتَها طَوْقَ الحمامَهْ

(٤) هو أبو خراش، والبيتان في ديوان الهذليين ٢/ ١٥٠، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦٤.

(٥) أخرجه أحمد (١٤٢٦) من حديث الزبير ﷺ، و(١٦٨٣٢) من حديث معاوية ﷺ. والفتك: أن يأتي الرجل صاحبه وهو غارٌّ غافل، فيشد عليه فيقتله. النهاية (فتك).

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٤، وأخرجه بنحوه الطبري ١٠/ ٤٩٦-٤٩٧.

(٧) الكشاف ٢/ ١٢٢.

وقرأ الجحدريُّ وقتادةُ وسليمان التيميُّ وعيسى بالتخفيف(١). وقرأ جعفر بن محمد: «وعزَّزوه» بزايين(٢).

و«النور»: القرآن؛ قاله قتادة.

وقال ابن عطية: هو كنايةٌ عن جملة الشرع(٣).

قيل: و«مع» بمعنى: عليه، أي: الذي أُنزل عليه.

وقيل: هو على حذفِ مضافٍ، أي: أُنزل مع نبوَّته؛ لأنَّ استنباءه كان مصحوبًا بالقرآن مشفوعًا به.

وعلى هذين القولين يكون العاملُ في الظرف «أنزل».

ويجوز عندي أن يكون «معه» ظرفًا في موضع الحال، فالعاملُ فيه محذوفٌ تقديره: أُنزل كائنًا معه، وهي حالٌ مقدَّرة، كقولهم: مررتُ برجلٍ معه صقرٌ صائدًا به غدًا، فحالةَ الإنزال لم يكن معه لكنه صار معه بعدُ، كما أن الصيد لم يكن(٤) وقتَ المرور.

وقال الزمخشري: ويجوز أن يعلَّق بـ«اتبعوا»، أي: واتَّبعوا القرآنَ المنزلَ مع اتِّباع النبيِّ ﷺ والعملِ بسنَّته وبما أمر به ونهى، أو: واتَّبعوا القرآنَ كما اتَّبعه مُصاحِبِينَ له في اتِّباعه(٥).

وفي قوله: «فالذين آمنوا به» إلى آخره، إشارةٌ إلى مَن آمَنَ من أعقاب(٦) بني إسرائيلَ بالرسول، كعبد الله بن سَلَام وغيرِه من أهل الكتابَيْن.

(١) القراءات الشاذة ص٤٦، والمحتسب ١/ ٢٦١، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦٤، والكلام منه.
(٢) لم أقف عليها، وهي مروية عند قوله تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩] فقد ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٢٩ عن محمد بن السميفع اليماني وابن عباس أنهما قرأا: «وتعزِّزوه».
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٤.
(٤) في (د٣): لم يكن معه.
(٥) المصدر السابق.
(٦) في (د١) والمطبوع: أعيان، وهو تصحيف، وسقطت من (ب) و(د٣) و(يه)، والمثبت من (أ) و(ز١) و(ع).

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ لمَّا ذَكَر تعالى لموسى عليه السلام صفةَ محمدٍ ﷺ، وأخبر أنَّ مَن أدركه وآمَنَ به أَفْلَحَ، أمر تعالى نبيَّه بإشهارِ دعوته ورسالتِه إلى الناس كافةً، والدعاءِ إلى الإيمان بالله ورسوله وكلماته واتِّباعِه.

ودعوةُ رسول الله ﷺ عامةٌ للإنس والجنِّ؛ قاله الحسن(١)، وتقتضيه الأحاديثُ(٢).

و«الذي» في موضع نصبٍ على المدح أو رفعٍ، وأجاز الزمخشري أن يكون مجرورًا صفةً لـ«الله»، قال: وإنْ حِيلَ بين الصفة والموصوف بقوله: «إليكم»(٣).

وقال أبو البقاء: ويَبْعُدُ أن يكون صفة لـ«الله» أو بدلًا منه لما فيه من الفصل بينهما بـ«إليكم» وبالحال(٤).

و«إليكم» متعلقٌ بـ«رسول»، و«جميعًا» حالٌ من ضمير «إليكم».

وهذا الوصفُ يقتضي الإذعانَ والانقيادَ لمن أرسله إذ له المُلْكُ، فهو المتصرِّفُ بما يريد، وفي حصر الإلهية له نفيُ الشركة لأنَّ مَن كان له ملكُ هذا العالَم لا يمكن أن يَشْرَكَه أحدٌ، فهو المختصُّ بالألوهية. وذكَر الإحياءَ والإماتةَ إذ هما وصفان لا يقْدِرُ عليهما إلَّا الله، وهما إشارةٌ إلى الإيجاد لكلِّ شيءٍ يريده والإعدام.

والأحسنُ أن تكون هذه جملًا مستقلةً من حيث الإعرابُ، وإن كانت متعلِّقًا بعضُها ببعضٍ من حيث المعنى.

وقال الزمخشري: «لا إله إلا هو» بدلٌ من الصلة التي هي «له ملك السماوات والأرض»، وكذلك «يحيي ويميت»، وفي «لا إله إلا هو» بيانٌ للجملة قبلها؛ لأنَّ

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٤.
(٢) ينظر حديث جابر ﷺ عند البخاري (٣٣٥)، وفيه: «أُعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي...»، فذكر منها: «وبعثت إلى الناس عامة»، وأخرجه مسلم (٥٢١) بلفظ: «وبعثت إلى كلِّ أحمر وأسود»، وأخرج مسلم أيضاً (٥٢٣) من حديث أبي هريرة: «فضِّلتُ على الأنبياء بستٍّ... وأرسلت إلى الخلق كافة...».
(٣) الكشاف ٢/ ١٢٣.
(٤) الإملاء ١/ ٢٨٧.

مَن مَلَكَ العالَمَ كان هو الإلهَ على الحقيقة، وفي «يحيي ويميت» بيانٌ لاختصاصه بالإلهية لأنه لا يقدر على الإحياء والإماتة غيرُه[1]. انتهى.

وإبدالُ الجمل من الجمل غيرِ المشتركة في عاملٍ لا نعرفُه.

وقال الحَوْفي: «يُحيي ويميت» في موضع الخبر؛ لأنَّ «لا إله» في موضع رفعٍ بالابتداء، و«إلا هو» بدلٌ على الموضع، قال: والجملةُ أيضًا في موضع الحال من اسم الله تعالى. انتهى، يعني: من ضمير اسم الله، وهذا إعرابٌ متكلف.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ لمَّا ذكر أنه رسولُ الله أمرهم بالإيمان بالله وبه، وعَدَلَ عن ضمير المتكلِّم إلى الظاهر ـ وهو الالتفاتُ ـ لمَا في ذلك من البلاغة بأنه هو النبيُّ السابقُ ذِكْرُه في قوله: «الذين يتَّبعون الرسول النبيَّ الأميَّ» وأنه هو المأمورُ باتِّباعه الموجودُ بالأوصاف السابقة.

والظاهر أنَّ «كلماته» هي الكتبُ الإلهية التي أُنزلت على مَن تَقَدَّمه وعليه، ولمَّا كان الإيمانُ بالله هو الأصلَ يتفرَّعُ عنه الإيمان بالرسول والنبيِّ بدأ به، ثم أتبعه بالإيمان بالرسول، ثم أتبع بالإشارة إلى المُعْجِزِ الدَّالِّ على نبوَّته، وهو كونُه أميًّا وظَهَرَ عنه من المعجزات في ذاته ما ظَهَر من القرآن الجامعِ لعلوم الأوَّلين والآخِرين، مع نشأته في بلدٍ عارٍ من أهل العلم، لم يقرأ كتابًا ولم يخطَّ، ولم يصحب عالمًا، ولا غاب عن مكة غيبةً تقتضي تعلُّمًا.

وقيل: «وكلماته»: المعجزاتُ التي ظهرت من خارج ذاته، مثلَ انشقاق القمر[2]، ونَبْعِ الماء من بين أصابعه[3]، وهي تسمَّى بكلمات الله لمَّا كانت أمورًا خارقةً غريبةً، كما سمِّي عيسى عليه السلام ـ لمَّا كان حدوثُه أمرًا غريبًا خارقًا ـ كلمةً.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٢٣.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٣٦) و(٣٦٣٧) و(٣٦٣٨)، ومسلم (٢٨٠٠) و(٢٨٠٢) و(٢٨٠٣) من حديث ابن مسعود وأنس وابن عباس ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (١٦٦)، ومسلم (٢٢٧٩) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه البخاري (٣٥٧٦) من حديث جابر ﷺ.

وقرأ مجاهد وعيسى: «وكلمته»[١]، وحَّد وأراد به الجمعَ، نحو: «أصدقُ كلمةٍ قالتها العربُ قولُ لبيد»[٢]، وقد يقولون للقصيدة: كلمةٌ، وكلمة فلان.

وقال مجاهدٌ والسُّدِّي: المرادُ بـ«كلماته» و«كلمته»، أي: بعيسى[٣]، لقوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١].

وقيل: كلمة «كن» التي تكوَّن بها عيسى وسائرُ الموجودات.

وقرأ الأعمش: «الذي يؤمن بالله وآياته» بدل «كلماته»[٤].

ولمَّا أُمِروا بالإيمان بالله ورسوله ـ وذلك هو الاعتقادُ ـ أُمروا بالاتِّباع له فيما جاء به، وهو لفظٌ يدخل تحته جميعُ التزاماتِ الشريعةِ، وعلَّق رجاءُ الهداية باتِّباعه.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ لمَّا أَمَر بالإيمان بالله ورسوله، وأَمَر باتِّباعه، ذَكَر أنَّ مِن قوم موسى مَن وفِّق للهداية وعَدَلَ ولم يَجُرْ، ولا تكونُ له هدايةٌ إلَّا باتِّباعِ شريعة موسى قبل مَبْعَثِ رسول الله ﷺ، وباتِّباع شريعة رسولِ الله بعد مَبْعَثِه، فهذا إخبارٌ عمَّن كان من قوم موسى بهذه الأوصاف، فكأنَّ المعنى: إنَّهم كلَّهم لم يكونوا ضلَّالاً بل كان منهم مهتدون.

قال السائب[٥]: هم قومٌ من أهل الكتاب آمنوا بنبيِّنا ﷺ، كعبد الله بن سلام وأصحابه.

وقال قوم: هم أمةٌ من بني إسرائيلَ تمسَّكوا بشرع موسى قبل نَسْخِه، ولم يبدِّلوا ولم يقتلوا الأنبياء.

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦٥.
(٢) أخرجه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل».
(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٥٠٠، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦٤، وعنه نقل المصنف.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٥.
(٥) كذا في النسخ، ولعل الصواب: ابن السائب، فقد ذكر نحو هذا القول الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٢٧٠ عن الكلبي محمد بن السائب.

وقال الزمخشري: هم المؤمنون التائبون من بني إسرائيل، لمَّا ذَكَرَ الذين تزلزلوا منهم ذَكَر أمةً مؤمنين تائبين يَهْدُون الناسَ بكلمة الحق، ويَدلُّونهم على الاستقامة، ويُرْشِدونهم، وبالحقِّ يَعْدِلون بينهم في الحُكم ولا يَجُورون، أو أراد الذين وصفهم ممَّن أدرك النبيَّ ﷺ وآمَنَ به من أعقابهم[1]. انتهى.

وقال ابن عطية: يحتملُ أن يريد به الجماعةَ التي آمنت بمحمدٍ ﷺ على جهة الاستجلاب لإيمان جميعهم، ويحتمل أن يريد به وصفَ المؤمنين التائبين من بني إسرائيل، ومَن اهْتَدَى واتَّقَى وعَدَلَ[2]. انتهى.

وما رُوي عن ابن عباس والسدِّي وابن جُرَيج أنهم قومٌ اغْترَبوا من بني إسرائيل، ودخلوا سَرَبًا مشوا فيه سنةً ونصفًا تحتَ الأرض، حتى خرجوا وراء الصين، فهم هناك يقيمون الشرعَ[3]، في حكايات طويلة ذكرها الزمخشريُّ[4] وصاحبُ «التحرير والتحبير» يوقَفُ عليها هناك = لعلَّه لا يصحُّ.

وفي قوله: «ومن قوم موسى» إشارةٌ إلى التقليل، وأنَّ معظمهم لا يَهْدي بالحق ولا يَعْدِلُ به، وهم إلى الآن كذلك، دخل في الإسلام من النصارى عالَمٌ لا يَعْلَم عددَهم إلا اللهُ تعالى، وأمَّا اليهود فقليلٌ مَن آمَنَ منهم.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ﴾ أي: وقطَّعنا قومَ موسى، ومعناه: فرَّقناهم وميَّزناهم، وفي ذلك رجوعُ أمرِ كلِّ سبطٍ إلى رئيسه؛ ليَخِفَّ أمرُهم على موسى، ولئلَّا يتحاسدوا فيقعَ الهَرْجُ، ولهذا فجَّرَ لهم اثنتي عشرةَ عينًا لئلا يتنازعوا ويقتتلوا على الماء، ولهذا جَعَلَ لكلِّ سبطٍ نقيبًا ليرجع بأمرهم إليه، وتقدَّم تفسير الأسباط.

قرأ أبانُ بنُ تغلبَ عن عاصم بتخفيف الطاء، وابنُ وثابٍ والأعمشُ وطلحةُ بن سليمان: «عَشِرَةَ» بكسر الشين، وعنهم الفتحُ أيضًا، وأبو حَيْوةَ وطلحةُ بنُ مصرِّفٍ

---

(١) الكشاف ٢/ ١٢٣.

(٢) الكلام بنحوه مع تقديم وتأخير في المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٥.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٥، أخرجه الطبري ١٠/ ٥٠١-٥٠٢ عن ابن جريج، وقد روى ابن جريج بعضَه عن ابن عباس، فهو منقطع، وذكر ابن كثير عند تفسير هذه الآية أنه خبر عجيب.

(٤) في الكشاف ٢/ ١٢٣-١٢٤.

بالكسر وهي لغة تميم(١)، والجمهورُ بالإسكان وهي لغة الحجاز.

و«اثنتي عشرة» حالٌ، وأجاز أبو البقاء أن يكون «قطَّعنا» بمعنى: صيَّرنا، وأن ينتصِبَ «اثنتي عشرة» على أنه مفعول ثانٍ لـ«قطعنا»(٢)، ولم يَعُدَّ النحويُّون «قطَّعنا» في باب ظننتُ، وجزم به الحَوفي فقال: «اثنتي عشرة» مفعولٌ لـ«قطَّعناهم»، أي: جعلنا اثنتي عشرة.

وتمييز «اثنتي عشرة» محذوفٌ لفَهْم المعنى، تقديره: اثنتي عشرةَ فرقةً، و«أسباطًا» بدلٌ من «اثنتي عشرة»، و«أُمَمًا» قال أبو البقاء: نعت لـ«أسباطًا» أو بدلٌ بعد بدلٍ، ولا يجوزُ أن يكون «أسباطًا» تمييزًا؛ لأنه جمعٌ(٣)، وتميزُ هذا النوعِ لا يكون إلَّا مفردًا.

وذهب الزمخشريُّ إلى أن «أسباطًا» تمييزٌ، قال: فإن قلتَ: مميِّزُ ما عدا العشرة مفردٌ، فما وجهُ مجيئه مجموعًا، وهلا قيل: اثنتي عشر سبطًا؟ قلت: لو قيل ذلك لم يكن تحقيقًا؛ لأنَّ المراد: وقطَّعناهم اثنتي عشرةَ قبيلةً، وكلُّ قبيلةٍ أسباطٌ لا سِبْطٌ، فوَضَعَ «أسباطًا» موضعَ قبيلة، ونظيرُه:

بيـن رمـاحَـيْ مـالـكٍ ونَـهْـشَـلِ(٤)

و«أممًا» بدلٌ من «اثنتي عشرة» بمعنى: وقطعناهم أُممًا؛ لأنَّ كلَّ أسباطٍ كانت أمةً عظيمةً وجماعةً كثيفةَ العدد، وكلُّ واحدةٍ تَؤُمُّ خلافَ ما تَؤُمُّه الأخرى لا تكادُ تأتلِفُ(٥). انتهى.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٥، والقراءة بتخفيف الطاء ذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٦ عن أبي حيوة.
(٢) الإملاء ١/ ٢٨٦.
(٣) المصدر السابق.
(٤) الرجز لأبي النجم العجلي، وهو في ديوانه ص١٧٥-١٧٦، والأغاني ١٠/ ١٥١، وقبله: تَبَقَّلَتْ من أول التَّبَقُّل، ومعنى تبقَّلت: رعت البقل. يفتخر بأن الموضع الذي جاءت بنو عجل ترعى فيه إبلها، كان الجميع قد تحاموا الرعي فيه بسبب ما جرى بين بني مالك ونهشل من الحروب، أما قومه فلعزِّهم رعوا ذلك الموضع ولم يخافوا هذين الحيين، ذكره صاحب الأغاني.
(٥) الكشاف ٢/ ١٢٤.

وما ذهب إليه من أنَّ كلَّ قبيلةٍ أسباطٌ خلافُ ما ذكر الناسُ، ذكروا أنَّ الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب، وقالوا: الأسباط جمعُ سبطٍ وهم الفِرَقُ، والأسباطُ من ولد إسحاق بمنزلةِ القبائل من ولد إسماعيل، ويكون على زَعْمِه قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦] معناه: والقبيلة.

وقولُه: ونظيره:

بيـن رمـاحَـيْ مـالـكٍ ونَـهْـشَـلِ

ليس نظيرَه؛ لأن هذا من تثنية الجمع، وهو لا يَجوزُ إلا في الضرورة، وكأنه يشير إلى أنه لو لم يُلْحَظْ في الجمع كونُه أريدَ به نوعٌ من الرماح لم يصحَّ تثنيتُه، كذلك هنا لُحظ بالأسباط وإن كان جمعًا معنى القبيلةِ، فمُيِّزَ به كما يميَّزُ بالمفرد.

وقال الحَوْفي: يجوز أن يكون على الحذف، والتقدير: اثنتي عشرةَ فرقةً، ويكون «أسباطًا» نعتًا لـ«فرقة»، ثم حُذف الموصوفُ وأُقيمت الصفةُ مقامه، و«أممًا» نعتٌ لـ«أسباط»، وأنِّث العددُ وهو واقعٌ على الأسباط - وهو مذكَّر - لأنه بمعنى فِرقةٍ أو أُمَّة، كما قال:

ثـلاثـةُ أنـفـسٍ ....(١)

يعني رجالًا، و:

.... عَـشْـرُ أَبْـطُـنٍ(٢)

بالنظر إلى القبيلة. انتهى.

---

(١) قطعة من بيت للحطيئة، كما في الكتاب ٣/ ٥٦٥، والخصائص ٢/ ٤١٢، والإنصاف ٢/ ٧٧١، والخزانة ٧/ ٣٦٧، وتمامه:

ثـلاثـة أنـفـسٍ وثـلاث ذودٍ   لـقـد جـار الـزمـان عـلـى عـيـالـي

(٢) قطعة من بيت ورد دون نسبة في الجمل للخليل ص٢٧١، والكتاب ٣/ ٥٦٥، والمقتضب ٢/ ١٤٨، والأصول في النحو ٣/ ٤٧٧، والخصائص ٢/ ٤١٧، والإنصاف ٢/ ٧٦٩، وقال العيني في المقاصد ٤/ ٤٨٤: قائله رجل من بني كلاب يسمى النواح. وتمامه:

وإن كـلابًـا هـذه عـشـرُ أبـطُـنٍ   وأنـت بـريءٌ مـن قـبـائـلـهـا الـعـشـر

ونظيرُ وصف التمييز المفرَدِ بالجمع مراعاةً للمعنى قولُ الشاعر:

فيها اثنتان وأربعون حلوبةً سودًا كخافيةِ الغراب الأسْحَمِ[(١)]

ولم يقل: سوداء.

وقيل: جَعَلَ كلَّ واحدةٍ من اثنتي عشرة أسباطًا، كما تقول: لزيدٍ دراهمُ ولفلانٍ دراهمُ ولعمرٍو دراهم، فهذه عشرون دراهم.

وقيل: التقدير: وقطَّعناهم فرقًا اثنتي عشرةَ، فلا يحتاج إلى تمييز.

وقال البغوي[(٢)]: في الكلام تأخيرٌ وتقديمٌ، تقديره: وقطَّعناهم أسباطًا أممًا اثنتي عشرةَ.

وهذه كلُّها تقاديرُ متكلَّفةٌ، والأجْرَى على قواعد العربية القولُ الذي بَدَأنا به.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ تقدَّم تفسيرُ نظيرِ هذه الجُمل في «البقرة»[(٣)]. و«انبجست» إن كان معناه ما قال أبو عمرو بن العلاء[(٤)]؛ فقيل: كان يَظْهَرُ على كلِّ موضعٍ من الحجر يَضْرِبُه موسى مِثْلُ ثدي المرأة فيَعْرَقُ أوَّلًا ثم يسيل، وإن كان مُرادِفًا لـ«انفجرت» فلا فرق.

وقال الزمخشري[(٥)] هنا: الأناسُ اسمُ جمعٍ غير تكسير، نحو: رُخَالٍ وثُنَاءٍ وتُؤام[(٦)]، وأخواتٍ لها، ويجوزُ أن يقال: إنَّ الأصلَ الكسرُ والتكسيرُ، والضمةُ

---

(١) البيت لعنترة، وهو في ديوانه ص١٧.

(٢) في التفسير ٢/ ٢٠٧، وسبقه إليه الثعلبي ٣/ ٨٤.

(٣) الآية (٥٧) والآية (٦٠).

(٤) سلف عند شرح المفردات.

(٥) في الكشاف ٢/ ١٢٤.

(٦) تؤام واحده، توأم، وهو المولود مع أخيه، ورُخال واحده: رِخل أو رخلة، وهي أنثى ولد الضأن. حاشية الشهاب على البيضاوي ١/ ٣٠٢. أما ثُناء فهي جمع ثِنْي، للشاة تلد في

بدلٌ من الكسر، كما أبدلت في نحو: سُكارى وغُيَارى من الفتحة. انتهى.

ولا يجوز ما قال لوجهين:

أحدهما: أنه لم يُنطق بـ: إناس بكسر الهمزة فيكونَ جمعَ تكسيرٍ حتى تكونَ الضمةُ بدلًا من الكسرة، بخلافِ سُكارى وغُيارى فإن القياسَ فيه: فَعالى، بفتح فاء الكلمة، وهو مسموعٌ فيها.

والثاني: أن سُكارى وغُيارى وعُجالى ـ وما ورد من نحوها ـ ليست الضمةُ فيه بدلًا من الفتحة، بل نصَّ سيبويه في «كتابه» على أنه جمعُ تكسيرٍ أصْلٌ، كما أن فَعَالى جمعُ تكسيرٍ أصلٌ، وإن كان لا ينقاسُ الضمُّ كما ينقاسُ الفتح، قال سيبويه في حدِّ تكسير الصفات: وقد يكسِّرون بعضَ هذا على فُعالى، وذلك قولُ بعضهم: سُكارى وعُجالى[(١)].

وقال سيبويه في الأبنية أيضًا: ويكون فُعَالَى في الاسم، نحو: حُبَارَى وسُمَانَى ولُبَادَى، ولا يكون وصفًا إلا أن يكسَّرَ عليه الواحدُ للجمع، نحو: عُجَالَى وسُكارى وكُسالى[(٢)].

فهذان نصَّان من سيبويه على أنه جمعُ تكسيرٍ، وإذا كان جمعَ تكسيرٍ أصلًا لم يَسُغْ أن يُدَّعَى أنَّ أصله فَعالى، وأنه أُبدلت الحركةُ فيه.

وذهب المبرِّد إلى أنه اسمُ جمع ـ أعني فُعالى بضم الفاء ـ وليس بجمع تكسيرٍ، فالزمخشريُّ لم يذهب إلى ما ذهب إليه سيبويه ولا إلى ما ذهب إليه المبرِّد؛ لأنّه عند المبرِّد اسمُ جمعٍ، فالضمةُ في فائه أصلٌ ليست بدلًا من الفتحة، بل أَحْدَثَ قولًا ثالثًا.

وقرأ عيسى الهَمْداني: «من طيبات ما رزقتُكم» موحِّدًا للضمير[(٣)].

= السنة مرتين. وتحرفت في مطبوع الكشاف إلى: تناء، بالتاء. ينظر اللسان (عرق)، والمزهر للسيوطي ٢/ ٧٢.

(١) الكتاب ٣/ ٦٤٥.

(٢) الكتاب ٤/ ٢٥٤.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٦.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ تقدَّمت هذه القصةُ وتفسيرُها في البقرة، وكأنَّ هذه مختصرةٌ من تلك، إذ هناك[1]: «وإذ قلنا ادخلوا» وهنا: «وإذ قيل لهم اسكنوا»، وهناك: «رغدًا» وسقط هنا، وهناك: «وسنزيد»، وهنا «سنزيد»، وهناك: «فأنزلنا على الذين ظلموا» وهنا: «فأرسلنا عليهم».

وبينهما تغايرٌ في بعض الألفاظ لا تناقُضَ فيه، فقوله: «وإذ قيل لهم» وهناك: «وإذ قلنا»، فهنا حُذِفَ الفاعلُ للعلم به وهو الله تعالى، وهناك: «ادخلوا» وهنا: «اسكنوا»، والسُّكنى ضرورةٌ تتعقَّبُ الدخولَ، فأُمروا هناك بمبدأ الشيءِ وهنا بما تسبَّبَ عن الدخول.

وهناك: «فكلوا» بالفاء وهنا بالواو، فجاءت الواوُ على أحد محتملاتها من كون ما بعدها وقع بعد ما قبلها.

وقيل: الدخول حالةٌ مُنْقَضِيةٌ فحَسُنَ ذكرُ فاء التعقيب بعده، والسُّكنى حالةٌ مستمرةٌ فحَسُنَ الأمرُ بالأكل معه لا عقيبه، فحسُنَتِ الواوُ الجامعةُ للأمرين في الزمن الواحد وهو أحدُ محاملها، ويزعم بعضُ النحويين أنه أولى محامِلِها وأكثر.

وقيل: ثبت «رغدًا» بعد الأمر بالدخول لأنها حالةُ قدومٍ فالأكلُ فيها ألذُّ وأتمُّ، وهم إليه أحوجُ، بخلافِ السُّكنى فإنها حالةُ استقرارٍ واطمئنانٍ، فليس الأكل فيها ألذَّ، ولا هم إليه أحوجَ.

وأمَّا التقديم والتأخير في «وقولوا» «وادخلوا»، فقال الزمخشريّ: سواءٌ قدَّموا الحِطَّةَ على دخول الباب وأخَّروها فهم جامعون في الإيجاد بينهما[2]. انتهى.

(١) في (أ) و(د١) و(ع): إلا أن هناك، بدل: إذ هناك.
(٢) الكشاف ٢/ ١٢٥، وفيه: أو أخَّروها.

وقولُه: سواءٌ قدَّموا.. وأخَّروها، تركيبٌ غيرُ عربيّ، وإصلاحُه: سواءٌ أقدَّموا أم أخَّروها[١]، كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ [إبراهيم: ٢١].

ويمكن أن يقال: ناسَبَ تقديمُ الأمر بدخول الباب سجَّدًا وتركيب «ادْخُلوا هذه القريةَ» لأنه فِعْلٌ دالٌّ على الخضوع والذِّلة، و«حطَّة» قولٌ والفعلُ أقوى في إظهار الخضوع من القول، فناسَبَ أن يُذْكَر مع مبدأ الشيء وهو الدخول، ولأنَّ قبله: «ادخلوا» فناسَبَ الأمرُ بالدخول للقرية الأمرَ بدخول بابها على هيئة الخضوع، ولأنَّ دخولَ القرية لا يمكنُ إلَّا بدخول بابها، فصار بابُ القرية كأنه بدلٌ من القرية أُعيد معه العاملُ، بخلافِ الأمر بالسُّكنى.

وأمَّا «سنزيد» هنا فقال الزمخشري: مَوْعِدٌ بشيئين بالغفران والزيادة، وطرحُ الواوِ لا يُخِلُّ بذلك؛ لأنه استئنافٌ مرتَّبٌ على تقديرِ القائل: وماذا بعد الغفران؟ فقيل له: «سنزيد المحسنين»، وزيادةُ «منهم» بيانٌ، و«أرسلنا» و«أنزلنا» و«يظلمون» و«يفسقون»، من وادٍ واحد[٢].

وقرأ الحسن: «حِطَّةً» بالنصب على المصدر[٣]، أي: حُطَّ ذنوبَنا حِطَّةً، ويجوز أن ينتصب بـ«قولوا» على حذفٍ، التقدير: وقولوا قولًا حِطَّةً، أي: ذا حِطَّةٍ، فحذف «ذا» وصار «حطة» وصفًا للمصدر المحذوفِ، كما تقول: قلت حَسَنًا، وقلت حقًّا، أي: قولًا حسنًا، و: قولًا حقًّا.

وقرأ الكوفيون وابنُ كثير والحسن والأعمش: «نَغْفِرْ» بالنون «لكم خطيئاتكم» جمع سلامة، إلَّا أنَّ الحسن خفَّف الهمزةَ وأدْغَم الياءَ فيها.

وقرأ أبو عمرو: «نَغْفِرْ» بالنون «لكم خطاياكم» على وزن قضاياكم.

وقرأ نافعٌ ومحبوبٌ عن أبي عمرو: «تُغْفَرْ» بالتاء مبنيًّا للمفعول «لكم خَطِيْئاتُكم» جمع سلامة.

---

(١) يعني أن الزمخشري أتى بلفظ «سواء» مع «أو» دون «أم»، ولم يأت بهمزة التسوية بعد «سواء»، لكن ذكر السمين في الدر ٥/ ٤٩٠ أن ذلك جائز، وإن كان الكثير ما ذكره المصنف، وقال السمين: والردُّ بمثْلِ هذا غيرُ طائلٍ.

(٢) الكشاف ٢/ ١٢٥.

(٣) المحتسب ١/ ٢٦٤، والمحرر الوجيز ٢/ ٢٦٦.

وقرأ ابنُ عامر «تُغْفَرْ» بتاءٍ مضمومةٍ مبنيًّا للمفعول «لكم خَطِيئَتُكم» على التوحيد مهموزًا[١].

وقرأ ابنُ هُرْمُز: «تُغْفَرْ» بتاءٍ كنافعٍ «خطاياكم» كأبي عمرو، وعنه: «يُغْفَرْ» بياء مضمومة، ورُويت عن عاصم، ورُوِيَ عن ابن هُرْمُز: «تَغْفِرْ»[٢] بتاءٍ مفتوحةٍ على معنى أنَّ الحطة، تَغْفِرُ إذ هي سببُ الغفران.

قال ابن عطية: وبَدَّلَ: غيَّر اللفظَ دون أن يذهب بجميعه، وأبدل: إذا ذهب به وجاء بلفظ آخر[٣]. انتهى.

وهذه التفرقةُ ليست بشيءٍ، وقد جاء في القرآن بَدَّلَ وأَبْدَلَ بمعنًى واحدٍ؛ قُرئ: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ [الكهف: ٨١]، ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا﴾ [التحريم: ٥]، ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ [القلم: ٣٢] بالتخفيف والتشديد[٤]، والمعنى واحدٌ، وهو إذهابُ الشيءِ والإتيانُ بغيره بدلًا منه.

ثم التشديدُ قد جاء حيث يذهبُ الشيء كلُّه، قال تعالى: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، ﴿وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ: ١٦]، ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ [الأعراف: ٩٥] وعلى هذا كلامُ العرب نثرُها ونَظْمُها.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ الضمير في «واسألهم» عائدٌ على مَن بحضرة الرسول ﷺ من اليهود، وذُكِرَ أنَّ بعض اليهود المعارِضينَ للرسول ﷺ قالوا له: لم يكن مِن بني إسرائيلَ عصيانٌ ولا معانَدةٌ لمَا أُمروا به. فنزلت هذه الآيةُ موبِّخة لهم[٥]، ومقرِّرةً

---

(١) ذكر هذه القراءات ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/٤٦٧، وقراءةُ مَن ذُكِرَ من السبعة في السبعة ص٢٩٥-٢٩٦، والتيسير ص١١٤.

(٢) من قوله: بتاء كنافع، إلى هنا ساقط من (د١) والمطبوع، وهذه القراءة الأخيرة ذكرها ابن عطية في المحرر ٢/٤٦٧.

(٣) المحرر الوجيز ٢/٢٦٧.

(٤) قرأ في هذه المواضع بالتشديد من السبعة نافع وأبو عمرو، والباقون بالتخفيف. وسيرد كلٌّ في موضعه.

(٥) المحرر الوجيز ٢/٤٦٧.

كذبَهم، ومُعْلِمةً ما جرى على أسلافهم من الإهلاك والمسخ، وكانت اليهود تكتُم هذه القصةَ، فهي ممَّا لا يُعْلَم إلا بكتابٍ أو وحي، فإذا أَعْلَمهم بها مَن لم يقرأ كتابهم عُلِم أنه من جهة الوحي[١].

وقوله: «عن القرية» فيه حذفٌ، أي: عن أهل القرية، والقريةُ: أَيْلةُ، قاله ابنُ مسعود، وأبو صالح عن ابن عباس، والحسن وابن جبير وقتادة والسدي وعكرمة وعبد الله بن كثير والثوري[٢].

أو: مَدْينُ، رواه عكرمةُ عن ابن عباس. أو: ساحل مدينَ، ورُوي عن قتادة[٣]، وقال: هي مَقْنا، بالقاف ساكنةً[٤].

وقال ابن زيد: هي مقناة ساحل مدين، ويقال لها: معَنّى بالعين مفتوحةً ونونٍ مشدَّدة[٥].

أو: طبرية، قاله الزهري[٦].

أو: أريحا. أو: بيتُ المقدس، وهو بعيدٌ لقوله: «حاضرةَ البحر». أو: قرية بالشام لم تسمَّ بعينها، ورُوي عن الحسن.

ومعنى «حاضرة البحر»: بقُرْب البحر مَبْنيةٌ بشاطئه، ويحتمل أن يريد معنى الحضارة[٧] على جهة التعظيم لها، أي: هي الحاضرةُ في قرى البحر، فالتقدير: حاضرةَ قرى البحر، أي: يَحْضُرُ أهلُ قرى البحر إليها لبيعهم وشرائهم وحاجتهم.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٢٥.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٧، وزاد المسير ٣/ ٢٧٦، وأخرجه الطبري ١٠/ ٥٠٧ من طريق عكرمة، ومن طريق علي بن أبي طلحة، كلاهما يرويه عن ابن عباس، وأخرجه أيضاً عن السدي وعبد الله بن كثير ومجاهد.

(٣) أخرج القولين الطبري ١٠/ ٥٠٨ و٥٠٩، والكلام من زاد المسير ٣/ ٢٧٦.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٧.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٧، ووقع في مطبوعه: ... مغنى بالغَيْنِ مفتوحة...، وأخرج الطبري ١٠/ ٥٠٨، وابن أبي حاتم ٥/ ١٥٩٧-١٥٩٨ عن ابن زيد قال: هي قرية يقال لها: مَقْنا، بين مدين وعَيْنُونَى.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٥٩٧.

(٧) تحرفت في المطبوع إلى: الحاضرة.

«إذ يَعْدُون في السبت» أي: يُجاوِزُون أمرَ الله في العمل يومَ السبت، وقد تقدَّم منه تعالى النهيُ عن العمل فيه والاشتغالِ بصيدٍ أو غيرِه، إلا أنه في هذه النازلة كان عصيانُهم.

وقرئ: «يُعِدُّون» من الإعداد، وكانوا يُعِدُّون آلاتِ الصيد يومَ السبت، وهم مأمورون بأنْ لا يشتغلوا فيه بغير العبادة(١).

وقرأ شَهْرُ بن حَوْشَبٍ وأبو نَهِيكٍ «يَعَدُّون» بفتح العين وتشديدِ الدال، وأصله: يَعْتَدون، فأُدغمت التاء في الدال(٢)، كقراءة مَن قرأ: «لا تَعَدُّوا في السبت»(٣).

و«إذ» ظرف، والعاملُ فيه؛ قال الحوفي: «إذ» متعلِّقةٌ بـ«سَلْهم». انتهى.

ولا يتصوَّر؛ لأن «إذ» ظرفٌ لما مضى و«سلهم» مستقبلٌ، ولو كان ظرفًا مستقبَلًا لم يصحَّ المعنى؛ لأن العادِين وهم أهلُ القرية مفقودون، فلا يمكن سؤالهم، والمسؤولُ غيرُ أهل القرية العادِينَ.

وقال الزمخشري: «إذ يَعْدُون» بدلٌ من «القرية»، والمرادُ بالقرية أهلُها، كأنه قيل: وسَلْهم عن أهل القرية وقتَ عدوانهم في السبت، وهو من بدل الاشتمال(٤). انتهى.

وهذا لا يجوزُ؛ لأن «إذ» من الظروف التي لا تتصرَّفُ، ولا يدخل عليها حرفُ جرٍّ، وجَعْلُها بَدَلًا يجوِّز دخولَ «عن» عليها؛ لأنَّ البدل هو على نيةِ تكرارِ العامل، ولو أُدخلت «عن» عليها لم يَجُزْ، وإنما تُصرِّفَ فيها بأنْ أُضيف إليها بعضُ الظروفِ الزمانية نحو: يومَ إذ كان كذا، وأمَّا قولُ مَن ذهب إلى أنها يُتَصَرَّفُ فيها بأنْ تكونَ مفعولةً باذكر، فهو قولُ مَن عجز عن تأويلها على ما ينبغي لها من إبقائها ظرفًا.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٢٥.
(٢) المحتسب ١/ ٢٦٤، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦٧، والكشاف ٢/ ١٥٥، وضبطت في مطبوع القراءات الشاذة ص٤٦ بكسر العين، وهو خطأ.
(٣) هي قراءة ورش، وسلفت عند تفسير الآية (١٥٤) من سورة النساء.
(٤) الكشاف ٢/ ١٢٥.

وقال أبو البقاء: «عن القرية»، أي: عن خبر القرية، وهذا المحذوفُ هو الناصبُ للظرف الذي هو «إذ يعدون»، وقيل: هو ظرفٌ لـ«حاضرة»، وجوَّز ذلك أنها كانت موجودةً في ذلك الوقت ثم خَرِبَتْ[١]. انتهى.

والظاهرُ أنَّ قوله: «في السبت» و«يوم سبتهم» المرادُ به اليومُ، ومعنى اعتدوا فيه، أي: بعصيانهم وخلافهم كما قدَّمْنا. وقال الزمخشري: «السبت» مصدرُ سَبَتَتِ اليهودُ: إذا عظَّمَتْ سَبْتَها بترك الصيد والاشتغالِ بالتعبُّد، فمعناه: يَعْدُون في تعظيم هذا اليوم، وكذلك قوله تعالى: «يومَ سَبْتهم»: يومَ تعظيمهم، ويدلُّ عليه قوله: «ويومَ لا يَسْبِتُون»[٢].

«وإذ تأتيهم» العاملُ في «إذ» «يَعْدُون»، أي: إذ عَدَوا في السبت إذ أتتهم؛ لأن «إذ» ظرفٌ لِمَا مضى يَصْرِف المضارعَ للمُضِيِّ، وقال الزمخشري: ويجوزُ أن يكون بدلًا بعد بدلٍ[٣]. انتهى، يعني بدلًا من «القرية» بعد بدل «إذ يعدون»، وقد ذكرنا أنَّ ذلك لا يجوز.

وأضافَ السبتَ إليهم لأنهم مخصوصون بأحكام فيه.

وقرأ عمر بن عبد العزيز: «حيتانُهم يومَ إسباتهم»[٤]، قال أبو الفضل الرازي في كتاب «اللوامح» وقد ذَكَر هذه القراءة عن عمر بن عبد العزيز: وهو مصدرٌ من أَسْبَتَ الرجلُ: إذا دخل في السبت.

وقرأ عيسى بنُ عُمر وعاصمٌ بخلافٍ: «لا يَسْبُتون» بضم كسرة الباء قراءةِ الجمهور[٥]، وقرأ عليٌّ والحسنُ وعاصم بخلافٍ: «يُسْبِتون» بضم ياء المضارعة[٦]، من أَسْبَتَ: دخل في السبت.

---

(١) الإملاء ١/ ٢٨٧.
(٢) الكشاف ٢/ ١٢٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) القراءات الشاذة ص٤٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦٨، والكشاف ٢/ ١٢٥.
(٥) في (د١) والمطبوع: في قراءة الجمهور، والقراءة المذكورة في المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٨، والمشهور عن عاصم: «يَسْبِتون» بكسر الباء كقراءة الجمهور.
(٦) القراءات الشاذة ص٤٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦٨، والكشاف ٢/ ١٢٥.

قال الزمخشري: وعن الحسن: «لا يُسْبَتُون» بضم الياء على البناء للمفعول، أي: لا يُدَارُ عليهم السبتُ، ولا يؤمرون بأنْ يَسْبِتوا[١].

والعامل في «يوم» قولُه: «لا تأتيهم»، وفيه دليلٌ على أنَّ ما بعد «لا» للنفي يعمل فيما قبلها، وفيه ثلاثةُ مذاهبَ: الجوازُ مطلقًا، والمنعُ مطلقًا، والتفصيلُ بين أن يكون «لا» جوابَ قسمٍ فيمتنع، أو غيرَ ذلك فيجوز، وهو الصحيح.

«كذلك» أي: مِثْلَ ذلك البلاءِ بأمر الحوت نبلوهم، أي: بلوناهم وامتحنَّاهم، وقيل: «كذلك» متعلقٌ بما قبله، أي: ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك، أي: لا تأتيهم إتيانًا مِثْلَ ذلك الإتيان، وهو أن تأتي شُرَّعًا ظاهرةً كثيرةً، بل يأتي ما أتى منها وهو قليلٌ، فعلى القول الأول في «كذلك» ينتفي إتيانُ الحوت مطلقًا كما روي في القصص أنه كان يغيبُ بجملته، وعلى القول الثاني كان يغيبُ أكثرُه ولا يبقى منه إلا القليلُ الذي يُتْعَبُ بصيده، قاله قتادة[٢].

وهذا الإتيانُ من الحوت قد يكون بإرسالٍ من الله كإرسال السحاب، أو بوحي إلهامٍ كما أَوْحَى إلى النحل، أو بإشعارٍ في ذلك اليوم على نحوِ ما يُشْعِرُ الله الدوابَّ يومَ الجمعة بأمرِ الساعة حسبما جاء: «وما من دابةٍ إلَّا وهي مُصيخةٌ يومَ الجمعة حتى تَطْلُعَ الشمسُ فَرَقًا من الساعة»[٣]، ويحتمل أن يكون ذلك من الحوت شعورًا بالسلامة.

ومعنى «شرَّعًا»: مقبِلةً إليهم مصطفَّةً، كما تقول: أَشْرَعْتُ الرمحَ نحوه، أي: أقبلتُ به إليه.

وقال الزمخشريّ[٤]: «شرَّعًا»: ظاهرةً على وجه الماء، وعن الحسن تَشْرَعُ على

(١) الكشاف ٢/ ١٢٥.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٧.

(٣) قطعة من حديث طويل أخرجه مالك في الموطأ ١/ ١٠٨، وأحمد (١٠٣٠٣)، وأبو داود (١٠٤٦)، والنسائي في المجتبى ٣/ ١١٤ عن أبي هريرة ﷺ، وعندهم: شفقًا، بدل: فرقًا.

(٤) في الكشاف ١٠/ ١٢٥-١٢٦.

أبوابهم كأنها الكباشُ السُّمْنُ[١]، يقال: شَرَعَ علينا فلان: إذا دنا منَّا وأشرف علينا، وشَرَعْتُ على فلانٍ في بيته فرأيتُه يفعل كذا.

وقال رواة القصص: يَقْرُبُ حتى يُمكن أخذُه باليد، فساءهم ذلك وتطرَّقوا إلى المعصية بأنْ حفروا حفرًا يخرج إليها ماءُ البحر على أخدودٍ، فإذا جاء الحوتُ يوم السبت وحصل في الحفرة ألقوا في الأخدود حجرًا فمنعوه الخروجَ إلى البحر، فإذا كان الأحدُ أخذوه، فكان هذا أولَ التطريق[٢].

وقال ابن رومان[٣]: كانوا يأخذ الرجلُ منهم خيطًا ويضعُ فيه وَهقةً[٤]، وألقاها في ذَنَب الحوت، وفي الطرف الآخَرِ من الخيط وَتِدٌ مضروبٌ، وتَرَكَه كذلك إلى أن يأخذَه في الأحد، ثم تطرَّقَ الناسُ حين رأوا مَن يصنع هذا لا يُبْتَلَى، حتى كَثُر صيدُ الحوت ومُشِيَ به في الأسواق، وأَعْلَن الفسقةُ بصيده، وقالوا: ذهبت حرمةُ السبت.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ أي: جماعةٌ من أهل القرية من صُلَحائهم الذين جرَّبوا الوعظَ فيهم فلم يَرَوْه يُجْدي، والظاهرُ أنَّ القائلَ غيرُ المَقُول لهم «لم تَعِظون قومًا»، فيكون ثلاث فرق: فرقةٌ اعتدوا، وفرقةٌ وَعَظَتْ ونَهَتْ، وفرقةٌ اعتزلت ولم تَنْهَ ولم تَعْتَدِ، وهذه الطائفةُ هي[٥] القائلةُ للواعظة: «لم تَعِظون».

ورُوي أنهم كانوا فرقتين: فرقةٌ عَصَتْ، وفرقةٌ نَهَتْ وَوَعَظَتْ، وأنَّ جماعةً من العاصية قالت للواعظة على سبيل الاستهزاء: لم تعظون قومًا قد علمتُم أنتم أنَّ الله مُهْلِكُهم أو معذِّبهم.

---

(١) في الكشاف: الكباش البيض، وكلاهما مرويٌّ، فقد أخرج الطبري ٥١٥/١ عن ابن عباس ﷺ: ... كانت تأتيهم يوم السبت شرعاً بيضاً سماناً...

(٢) المحرر الوجيز ٤٦٧/٢، وفيه: ... أول التطرُّق. وهو الأنسب بالسياق.

(٣) كما في المحرر الوجيز ٤٦٧/٢، والكلام منه، وأخرجه بنحوه مطولًا الطبري ٥١٩/١٠.

(٤) في القاموس (وهق): الوَهَق محركة ويسكَّن: الحبل يرمى في أنشوطة، فتؤخذ به الدابة...، وجاء في المحرر: ويصنع فيه وهقة...

(٥) في (د١) والمطبوع: غير، وهو خطأ.

قال ابن عطية: والقولُ الأوّلُ أصوبُ، ويؤيِّدُه الضمائر في قوله: «معذرةً إلى ربّكم ولعلهم يتّقون» فهذه المخاطَبةُ تقتضي مخاطبًا[١]. انتهى، ويعني أنه لو كانت العاصيةُ هي القائلةَ لقالت الواعظةُ: معذرةً إلى ربِّهم ولعلهم، أو بالخطاب: معذرةً إلى ربّكم ولعلّكم تتّقون.

ومعنى «مُهْلكُهم»: مُخْتَرِمُهم ومطهِّرُ الأرضِ منهم، أو: معذِّبُهم عذابًا شديدًا لتماديهم في العصيان، ويحتمل أن يكون العذابُ في الدنيا، ويحتمل أن يكون في الآخرة، وإن كانوا ثلاثَ فرقٍ فالقائلةُ إنما قالت ذلك حيث علموا أنَّ الوعظ لا ينفعُ فيهم لكثرة تكرُّره عليهم وعدمِ قبولهم له.

ويحتمل أن يكونوا فرقتين: عاصيةً وطائعةً، وأنَّ الطائعة قال بعضهم لبعض لمَّا رأوا أنَّ العاصية لا يُجدي فيها الوعظُ ولا يؤثِّر شيئًا: «لم تعظون».

وقرأ الجمهور: «معذرةٌ» بالرفع، أي: موعظتُنا إقامةُ عذرٍ إلى الله، ولئلّا نُنْسَبَ في النهي عن المنكر إلى بعض التفريط، ولطَمَعِنا في أن يتّقوا المعاصي.

وقرأ زيد بن عليٍّ، وعاصمٌ في بعض ما رُوي عنه، وعيسى بن عمر، وطلحةُ بن مُصَرِّفٍ: «معذرةً» بالنصب[٢]، أي: وَعَظْناهم معذرةً، قال سيبويه: لو قال رجلٌ لرجلٍ: معذرةً إلى الله وإليك من كذا، لنَصَبَ[٣]. انتهى.

وهنا يَختارُ سيبويه الرفعَ، قال: لأنهم لم يريدوا أن يعتذروا اعتذارًا مستأنفًا من أمرٍ لِيْمُوا عليه، ولكنهم قيل لهم: «لم تعظون» قالوا: موعظتُنا معذرةٌ[٤].

وقال أبو البقاء: مَن نَصَبَ فعلى المفعول له، أي: وَعَظْنا للمعذرة، وقيل: هو مصدرٌ، أي: نعتذر معذرةً[٥]. وقالهما الزمخشري[٦].

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٨، وفيه: تَقتضي مخاطِباً ومخاطَباً ومكنيًا عنه.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٩، وهي رواية حفص عن عاصم كما في السبعة ص٢٩٦، والتيسير ص١١٤.
(٣) الكتاب ١/ ٣٢٠، والمحرر ٢/ ٤٦٩، ولفظ الكتاب: ... من كذا وكذا يريد اعتذاراً لَنَصَبَ. ففيه زيادة: يريد اعتذاراً، وعلى هذه العبارة مدار كلام سيبويه السابق واللاحق.
(٤) الكتاب ١/ ٣٢٠، وما بين حاصرتين منه.
(٥) الإملاء ١/ ٢٨٧.
(٦) في الكشاف ٢/ ١٢٦.

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ الضمير في «نسوا» للمَنْهِيِّين أي: تَرَكوا ما ذكَّرهم به الصالحون، وجَعَل التركَ نسيانًا مبالغةً إذ أقوى أحوالِ التركِ أن ينسى المتروكُ.

و«ما» موصولةٌ بمعنى الذي، قال ابنُ عطية: ويحتملُ أن يراد به الذِّكْرُ نفسُه، ويحتمل أن يراد به ما كان في الذِّكر[1]. انتهى، ولا يَظهر لي هذان الاحتمالان.

و«السوء» عامٌّ في المعاصي، وبحسب القصص يختصُّ هنا بصيد الحوت.

و«الذين ظلموا» هم العاصون، نبَّه على العلَّة في أَخْذِهم وهي الظلمُ.

قال مجاهد: «بئيس»: شديد مُوْجِع[2]. وقال الأخفش: مُهْلِك[3].

وقرأ أهلُ المدينة نافعٌ وأبو جعفر وشيبةُ وغيرهما: «بِيْسٍ» على وزن جِيْدٍ، وابنُ عامرٍ كذلك إلا أنه هَمَزَ كـ: بئر[4]، ووجِّهتا على أنه فعلٌ سمِّي به كما جاء: «أنهاكم عن قيلٍ وقالٍ»[5].

ويحتمل أن يكون وُضع وصفًا على وزن «فِعْل» كحِلْفٍ، فلا يكونُ أصله فِعْلًا.

وخرَّجه الكسائيُّ على وجهٍ آخَرَ، وهو أنَّ الأصل: بئِيس، فخفف الهمزة فالتقت ياءان، فحُذفت إحداهما وكُسر أولُه، كما يقال: رِغيف وشِهيد[6].

وخرَّجه غيرُه[7] على أن يكون على وزن فَعِلٍ، فكُسِرَ أوله إتْباعًا ثم حُذفت

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٩.
(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٢٨ بلفظ: أليم شديد.
(٣) لم أقف عليه.
(٤) تنظر القراءتان في السبعة ص٢٩٦، والتيسير ص١١٤، والنشر ٢/ ٢٧٢.
(٥) قطعة من حديث أخرجه مسلم (١٧١٥)، وابن حبان (٤٥٦٠) ـ واللفظ له ـ عن أبي هريرة ﷺ، وأخرجه بنحوه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٥٩٣): (١٤) كتاب الأقضية، من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ، وقوله: «قيل وقال» فيهما قولان: الأول أنهما فعلان أحدهما مبني للمجهول والآخر للمعلوم، والقول الثاني أنهما اسمان مجروران منوَّنان. ينظر شرح مسلم للنووي ١٢/ ١١، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦٩.
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥٩، ومعاني القرآن له ٣/ ٩٥، وتفسير القرطبي ٩/ ٣٦٧.
(٧) هو المبرد كما في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥٩، وأورده دون نسبة القرطبي ٦/ ٣٦٧.

الكسرةُ ـ كما قالوا: فِخْذ ـ ثم خفَّفوا الهمزة.

وقرأ الحسن: «بِئْسَ» بهمز وبغير همزٍ[(١)]، وعن نافعٍ وأبي بكرٍ مثلُه إلَّا أنه بغير همزٍ عن نافع[(٢)]، كما تقول: بيسَ الرجلُ، وضعَّفها أبو حاتم[(٣)]: وقال: لا وجهَ لها، قال: لأنه لا يقال: مررت برجلٍ بيسَ، حتى يقال: بيسَ الرجلُ، أو بيسَ رجلًا.

قال النحاس: هذا مردودٌ من كلام أبي حاتم، حكى النحويون: إن فعلْتَ كذا وكذا فَبِها ونِعْمَتْ، يريدون: ونعمت الخصلةُ، والتقدير: بيسَ العذاب[(٤)].

وقرئ: «بَئِسَ» على وزن شَهِدَ، حكاها يعقوب القارئ[(٥)]، وعزاها أبو الفضل الرازيّ إلى عيسى بن عمر وزيد بن عليٍّ.

وقرأ جؤيَّةُ بن عائذٍ ونصر بنُ عاصم في رواية: «بَأَسَ» على وزن ضَرَبَ فعلًا ماضيًا[(٦)].

وعن الأعمش ومالك بن دينار «بَأْسَ»[(٧)] أصله بأس[(٨)] فسكَّن الهمزة، جَعَلَه فعلًا لا يتصرَّف.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٩، والتي بغير همزٍ وردت في القراءات الشاذة ص٤٧، والتي بالهمز ذكرها النحاس في إعراب القرآن ٢/ ١٥٨.

(٢) وهي خلاف المشهور عنهما.

(٣) أي: بالوجهين: الهمز وعدمه، كما في الدر المصون ٥/ ٤٩٩، وكلام أبي حاتم في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥٩، وتفسير القرطبي ٩/ ٣٦٨. وكلام أبي حاتم هو في تضعيف القراءة بالوجهين كما ذكر السمين.

(٤) إعراب القرآن ٢/ ١٥٩، وتفسير القرطبي ٩/ ١٦٨ وفيهما: بعذابٍ بئسَ العذابُ.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٥٨، وتفسير القرطبي ٩/ ٣٦٨، وهي باء مفتوحة وهمزة مكسورة وسين مفتوحة، كما قُيِّدت في المصدرين المذكورين.

(٦) ذكرها عنهما ابن جني في المحتسب ١/ ٦٥، لكن بسكون الهمزة، أي: «بَأْسَ»، وسيوردها المصنف ـ أي: بسكون الهمزة ـ بعد هذه القراءة، قال ابن جني: هي تخفيف بَئِسَ، كقولك في سَئِمَ: سَأْمَ، وفي عَلِمَ: عَلْمَ. اهـ. وقد ضبطت في (ز١): «بَأَسَ» بفتح العين، وكذا: ضَرَبَ.

(٧) المحتسب ١/ ٢٦٥، والدر المصون ٢/ ٤٩٧.

(٨) كذا في النسخ، ولعل الصواب: بئِس، كما في الدر المصون والمحتسب، وينظر التعليق قبل السابق.

وقرأت فرقةٌ: «بَيَسَ» بفتح الباء والياء والسين.

وحكى الزهراويُّ عن ابن كثير وأهل مكة «بئس» بكسر الباء والهمزِ همزًا خفيفًا، ولم يبيِّن هل الهمزةُ مكسورةٌ أو ساكنة؟

وقرأت فرقة: «باسٍ» بفتح الباء وسكون الألف.

وقرأ خارجة عن نافع وطلحةُ «بَيْسٍ» على وزن كيلٍ لفظًا، وكأنَّ أصله فَيْعِلٌ مهموزًا، إلَّا أنه خفَّف الهمزة بإبدالها ياءً وأدْغَم ثم حَذَفَ[1] ك: مَيْتٍ.

وقرأ نصرٌ في رواية مالك بن دينارٍ عنه: «بأسٍ» على وزنِ جَبَلٍ، وأبو عبد الرحمن وابن مصرِّفٍ: «بَئِسٍ» على وزن كَبِدٍ وحَذِرٍ، وقال عبيد الله بنُ قيس الرُّقَيَّات:

ليتني ألقى رُقيَّة في خلوةٍ مِن غيرِ ما بَئِسٍ[2]

وقرأ ابن عباس، وأبو بكرٍ عن عاصمٍ، والأعمش: «بَيْأسٍ» على وزن ضَيْغَمٍ، وقال امرؤ القيس بنُ عابس الكندي:

كلاهما كان رئيساً بَيْأسَا يضربُ في يوم الهَيَاج القَوْنَسَا[3]

وقرأ عيسى بنُ عمر والأعمشُ بخلافٍ عنه: «بَيْئِسٍ» على وزن صَيْقِلٍ ـ اسم امرأة ـ بكسر الهمزة وبكسر القاف، وهما شاذَّان لأنه بناءٌ مختصٌّ بالمعتلِّ كسيِّدٍ وميِّتٍ.

وقرأ نصر بن عاصم في روايةٍ: «بَيِّسٍ» على وزن ميِّتٍ، وخرِّج على أنه من البُؤس ولا أصلَ له في الهمز، وخرِّج أيضًا على أنه خَفَّف الهمزة بإبدالها ياءً ثم أَدْغَم. وعنه أيضًا: «بئِّسٍ» بقَلْب الياءِ همزةً وإدغامِها في الهمزة، ورُوِيَتْ هذه عن الأعمش.

---

(١) في (دا): خفف، والمعنى واحد.

(٢) تفسير الطبري ١٠/٥٢٧، وتفسير الثعلبي ٣/٨٧، والمحرر الوجيز ٢/٤٦٩، والكلام منه، وهو في الديوان ص١٦٠ برواية: يئسٍ.

(٣) تفسير الثعلبي ٣/٨٧، والمحرر الوجيز ٢/٤٦٩، وأورده الطبري ١٠/٥٢٦ برواية: بَيْئِسا، شاهداً على القراءة التي سترد بعد هذه.

وقرأ فرقة: «بَأَّسَ» بفتح الثلاثة والهمزة مشدَّدة[١].

وقرأ باقي السبعة، ونافعٌ في روايةِ أبي قُرَّة، وعاصمٌ في رواية حفصٍ، وأبو عبد الرحمن ومجاهدٌ والأعرج، والأعمش في روايةٍ، وأهلُ الحجاز: «بَئِيسٍ» على وزن رَئِيسٍ[٢]، وخرِّج على أنه وصفٌ على وزن فَعِيلٍ للمبالغة من بائسٍ على وزن فاعلٍ، وهي قراءة أبي رجاء عن عليٍّ[٣]، أو على أنه مصدرٌ وُصف به كالنَّكير والعَذِير. وقال أبو الإصبع[٤] العَدْواني:

حَنَقاً عليَّ ولا أرى لِيَ منهما شرًّا بئيسا[٥]

وقرأ أهل مكة كذلك إلا أنهم كسروا الباء[٦]، وهي لغةُ تميم في فَعيلٍ حلقيّ العين يَكْسِرون أولَه، وسواءٌ أكان اسمًا أم صفةً.

وقرأ الحسن والأعمش فيما زعم عِصْمةُ: «بِئْيَسٍ» على وزن طِرْيَم وحِذْيم[٧].

فهذه اثنتان وعشرون قراءةً، وضبطُها بالتلخيص أنها قُرِئتْ ثلاثيةَ اللفظ ورباعيَّته، فالثلاثي اسمًا: بِئْسٍ، وبِيْسٍ، وبَيْسٍ وبأْسٍ وبَأَسٍ وبَئِسٍ وبِئِسٍ، وفعلًا:

---

(١) ذكر هذه القراءات جميعاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٩-٤٧٠، وكلها شاذٌّ عدا قراءة أبي بكر عن عاصم: «بيأسٍ» فهي أحد وجهين عن أبي بكر، والوجه الآخر كقراءة باقي السبعة التي سترد لاحقاً، أي: «بئيسٍ». ينظر السبعة ص٢٩٦، والتيسير ص١١٤.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٩، وهي عن ابن كثير وأبي عمرو وحمزة والكسائي وحفص، وأبي بكر في رواية (وهو الوجه الثاني عنه) في السبعة ص٢٩٦، والتيسير ص١١٤.

(٣) ذكرها عن أبي رجاء ابن جني في المحتسب ١/ ٢٦٥، وابن عطية في المحرر ٢/ ٤٧٠.

(٤) كذا ذكر المصنف، ومثله في الدر المصون ٥/٤٩٧، والذي في المصادر: ذو الإصبع، سمي بذلك لأن حيَّةً نهشت إصبعه أو لأنه كانت له إصبع زائدة، وهو شاعر جاهلي معمَّر مختلف في اسمه. ينظر الشعر والشعراء ٢/٧٠٨، والأغاني ٣/ ٨٩، والخزانة ٥/ ٢٨٤.

(٥) مجاز القرآن ١/ ٢٣١، وتفسير الطبري ١٠/ ٥٢٧، والأغاني ٣/ ١٠٢، وتفسير الثعلبي ٣/ ٨٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٦٩، وزاد المسير ٣/ ٢٧٨، وروايته في المصادر عدا المحرر: لي فيهم أثراً بئيسا، وفيها أيضاً: ترى، بدل: أرى. ورواية المصنف توافق ما في المحرر.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٦٩.

(٧) الطِّرْيَم: العسل، والسحاب الكثيف. والحِذْيم: القاطع. ينظر القاموس (طرم) و(حذم). والقراءة في المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٠ نقلاً عن أبي حاتم السجستاني، وقال ابن عطية: وضعفها أبو حاتم.

بِيْسَ وبِئْسَ وبَئِسَ وبَأَسَ وبَأُسَ وبَيَسَ، والرباعية اسمًا: بَيْأَسٍ وبَيْئِسٍ وبَيِّسٍ وبَئِّسٍ وبَئِيسٍ وبِئِيسٍ وبِئْيَسٍ وبائسٍ، وفعلًا: بأَّس.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ أي: اسْتَعْصَوا، والعتوُّ: الاستعصاءُ والتأبِّي في الشيء، وباقي الآية تقدَّم تفسيرُه في «البقرة»[١].

والظاهرُ أنَّ العذابَ والمَسْخَ والهلاك إنما وقع بالمعتدين في السبت، والأمةُ القائلةُ: «لم تعظون قومًا» هم من فريق الناهين الناجين، وإنما سألوا إخوانهم عن علَّةِ وَعْظِهم وهم لا يجدي فيهم شيئًا البتةَ إذ اللهُ مُهْلِكُهم أو معذِّبهم فيصير الوعظُ إذ ذاك كالعَبَثِ، كوَعْظِ المكَّاسين فإنهم يَسْخَرون ممَّن يَعِظُهم، وكَثُرَ ما يؤدِّي إلى تنكيل[٢] الواعظ.

وعلى قولِ مَن زعم أنَّ الأمة القائلة: «لم تعظون» هم من العصاةُ، قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء، أي: تزعمون أنَّ الله مهلكُهم أو معذِّبهم، تكونُ هذه الأمَّةُ من الهالكين الممسوخين.

والظاهر من قوله: «فلمَّا عتوا» أنهم أولًا أُخذوا بالعذاب حين نَسُوا ما ذكِّروا به، ثم لمَّا عَتَوْا مُسِخوا، وقيل: «فلمَّا عتوا» تكريرٌ لقوله: «فلمَّا نَسُوا»، والعذابُ البئيس هو المسخ.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ لمَّا ذَكَر تعالى قبح أفعالِهم واستعصاءَهم، أخبر تعالى أنه حَكَم عليهم بالذُّلِّ والصَّغار إلى يوم القيامة.

«تأذَّن»: أَعْلَمَ، من الأذان وهو الإعلام، قاله الحسن وابنُ قتيبة[٣]، واختاره الزجَّاج وأبو عليٍّ[٤].

---

(١) الآية (٦٥) منها.

(٢) في النسخ عدا (د١): يودي بتنكيل، والمثبت من (د١) والمطبوع.

(٣) زاد المسير ٣/ ٢٧٩، وقول الحسن ذكره أيضاً الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٢٧٣، وقول ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن ص١٧٤.

(٤) قول الزجاج في معاني القرآن ٢/ ٣٨٧، أما قول أبي علي فلم نقف عليه، وسيرد عنه غيره قريباً.

وقال عطاء: «تأذَّنَ»: حَتَم[(١)].

وقال قطرب: وَعَدَ[(٢)].

وقال أبو عبيدة[(٣)]: أَخْبَرَ. وهو راجع لمعنى أَعْلَمَ.

وقال مجاهد: أَمَرَ، وعنه: قال[(٤)].

وقيل: أَقْسَمَ، ورُوي عن الزجَّاج[(٥)].

قال الزمخشري: «تأذَّن»: عَزَمَ رَبُّك، وهو تَفَعُّلٌ من الإيذان وهو الإعلام؛ لأن العازم على الأمر يحدِّثُ به نفسَه ويُؤذِنُها بفعله، وأُجْرِي مُجْرَى فعل القسم كـ: عَلِمَ الله، وشَهِدَ الله، ولذلك أُجيبَ بما يُجاب به القسم، وهو قوله: «ليبعثن»، والمعنى: وإذ حَتَم ربُّك وكتب على نفسه[(٦)].

وقال ابن عطية: بِنْيةُ «تأذَّن» هي التي تقتضي التكسُّبَ من أَذِنَ، أي: عَلِم ومَكَّنَ، فإذا كان مُسْنَدًا إلى غير الله لَحِقَه معنى التكسُّبِ الذي يَلْحَقُ المُحْدَثين، وإلى الله كان بمعنى عَلِمَ، صفةً لا مكتسَبةً بل قائمةٌ بالذات، فالمعنى: وإذ عَلِمَ الله ليبعثنَّ، وتقتضي قوةُ الكلام أنَّ ذلك العلم منه مقترنٌ بإنفاذٍ وإمضاءٍ، كما تقول في أمرٍ قد عزمتَ عليه غايةَ العزم: عَلِمَ اللهُ لأبعثنَّ كذا، نحا إليه أبو عليٍّ الفارسيُّ، وقال الطبريُّ وغيره: تأذَّنَ معناه: أَعْلَم. وهو قَلِقٌ من جهة التصريف؛ إذ نسبةُ «تأذن» إلى الفاعل غيرُ نسبة أَعْلَم، وبَيْنَ ذلك فَرْقٌ من التعدِّي وغيرِه[(٧)]. انتهى، وفيه بعضُ اختصارٍ.

وقال أبو سليمان الدِّمشْقي: أي: أَعْلَم أنبياءَ بني إسرائيل[(٨)].

---

(١) تفسير الثعلبي ٣/ ٨٨، وزاد المسير ٣/ ٢٧٩.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) كذا في النسخ، والذي في تفسير الثعلبي ٣/ ٨٨: أبو عبيد.

(٤) أخرج القولين الطبري ١٠/ ٥٣٠.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٣٨٧، ولفظه: تألَّى، وهو بمعنى أقسم.

(٦) الكشاف ٢/ ١٢٧.

(٧) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧١، وقول الطبري في تفسيره ١٠/ ٥٢٩.

(٨) زاد المسير ٣/ ٢٧٩.

«لَيَبْعَثَن»: ليُرْسِلنَّ وليسلِّطنَّ، كقوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا﴾ [الإسراء: ٥].

والضمير في «عليهم» عائدٌ على اليهود، قاله الجمهور أو عليهم وعلى النصارى، قاله مجاهد(١).

وقيل: نسل الممسوخِينَ والذين بَقُوا منهم.

وقيل: اليهود الذين كانوا في زمان الرسول ودعاهم إلى شريعته.

وقيل: يهود خيبر وقُرَيظةَ والنضير. وعلى هذا ترتَّبَ الخلاف فيمَن يسومُهم:

فقيل: بختنصر ومَن أذلَّهم بعده إلى يوم القيامة.

وقيل المجوس، كانت اليهود تؤدِّي الجزيةَ إليهم إلى أنْ بعث الله محمدًا ﷺ فضربها عليهم، ولا تزالُ مضروبةً عليهم إلى آخِرِ الدهر.

وقيل: العرب، كانوا يَجْبُون الخراجَ من اليهود؛ قاله ابن جبير.

وقال السُّدِّي: بعث الله عليهم العرب يأخذون منهم الجزية ويقتلونهم.

وقال ابن عباس: المبعوثُ عليهم محمدٌ ﷺ وأمتُه(٢).

ولم يَجْبِ الخراجَ نبيٌّ قطُّ إلَّا موسى، جَبَاه ثلاثَ عَشْرةَ سنةً ثم أمْسك للنبيِّ ﷺ(٣).

و«سوء العذاب»: الجزية، أو: الجزيةُ والمَسْكَنةُ، وكلاهما عن ابن عباس(٤).

أو: القتالُ حتى يُسْلِموا أو يؤدُّوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون.

وقيل: الإخراجُ والإبعادُ عن الوطن، وذلك على قولِ مَن قال: إنَّ الضمير في «عليهم» عائدٌ على أهل خيبر وقريظةَ والنضير.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٠/ ٥٣٠-٥٣٢، وذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٧٩، وقول سعيد بن جبير جاء عند الطبري بلفظ: هم أهل الكتاب بعث الله عليهم العرب يَجْبُونهم. والكلام الذي سيرد لاحقًا هو قطعة من هذا الخبر كما في المصدرين المذكورين.

(٣) قوله: للنبي، كذا في النسخ، والذي في زاد المسير: إلى النبي، وعند الطبري: وإلَّا النبي - عطفاً على «إلا موسى» - وكلاهما أوضح من عبارة المصنف.

(٤) تفسير الطبري ١٠/ ٥٣٠-٥٣١، وزاد المسير ٣/ ٢٧٩.

وهذه الآيةُ تدلُّ على أنْ لا دولةَ لليهود ولا عزَّ، وأنَّ الذلَّ والصَّغارَ فيهم لا يفارِقُهم، ولمَّا كان خبرًا في زمانِ الرسول عليه السلام وشاهَدْنا الأمرَ كذلك، كان خبرًا عن مُغيَّبٍ صدقًا، فكان مُعْجِزًا.

وأمَّا ما جاء في أتباع الدجَّال أنهم هم اليهود[١]، فتسميةٌ بما كانوا عليه؛ إذ هم في ذلك الوقت دانوا بإلهيَّة الدجَّال، فلا تعارُضَ بين هذا الخبر ـ إن صحَّ ـ والآيةِ.

وفي كتاب ابن عطية: ولقد حدِّثت أنَّ طائفةً من الروم أَمْلَقتْ في صُقْعها فباعتِ اليهودَ المجاوِرةَ لهم وتملَّكوهم[٢].

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾إخبارٌ يتضمَّنُ سرعةَ إيقاع العذاب بهم.

﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٦٧﴾ تَرْجِيَةٌ لمن آمَنَ منهم ومِن غيرهم، ووعدٌ لمن تاب وأَصْلَح.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ﴾أي: فرَقًا متباينين في أقطار الأرض، فقلَّ أرضٌ لا يكونُ فيها منهم شرذمةٌ، وهذا حالُهم، وهم في كلِّ مكانٍ تحت الصَّغار والذِّلة سواءٌ أكان أهلُ تلك الأرض مسلمين أم كفارًا.

و«أممًا» حالٌ، وقال الحَوْفيُّ: مفعولٌ ثانٍ، وتقدَّم قولُه هذا في: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾ [الآية: ١٦].

و«الصالحون»: مَن آمَنَ منهم بعيسى ومحمدٍ عليهما السلام، أو: مَن آمَنَ بالمدينة. ومنهم منحطُّون عن الصالحين وهم الكفرة، و«ذلك» إشارةٌ إلى الصلاح، أي: ومنهم قومٌ دون أهلِ الصلاح؛ لأنه لا يعتدِلُ التقسيم إلَّا على هذا التقديرِ من حذفِ مضافٍ، أو يكونُ «ذلك» المعنيُّ به: أولئك، فكأنه قال: ومنهم قومٌ دون أولئك، وقد ذَكَر النَّحْويُّون أن اسم الإشارةِ المفرَدَ قد يُستعمَلُ للمثنَّى والمجموع،

---

(١) ينظر حديث جابر بن عبد الله ﷺ عند أحمد (١٤٩٥٤)، وحديث عثمان بن أبي العاص ﷺ عند أحمد أيضاً (١٧٩٠٠)، وحديث أبي أمامة الباهلي ﷺ عند ابن ماجه (٤٠٧٧)، وحديث ابن عمر ﷺ عند أحمد (٥٣٥٣)، وفي جميعها إشارة إلى اتِّباع اليهود للدجال، وحديث جابر قال عنه محققو المسند: إسناده على شرط مسلم.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧١.

فيكون «ذلك» بمعنى «أولئك» على هذه اللغة ويَعتدلُ التقسيم.

و«الصالحون» و«دون ذلك» ألفاظٌ محتملة، فإنْ أُريدَ بالصلاح الإيمانُ فـ«دون ذلك» يرادُ به الكفار، وإن أريدَ بالصلاح العبادةُ والخيرُ وتوابعُ الإيمانِ كان «دون ذلك» في مؤمنين لم يَبْلُغوا رتبةَ الصَّلاح الذي لأولئك.

والظاهرُ الاحتمالُ الأولُ ـ لقوله: «لعلهم يرجعون» إذ ظاهرُ: «وبلوناهم» أنهم القومُ الذين هم دون أولئك ـ وهو مَن ثبت على اليهودية وخرج من الإيمان.

و«دون ذلك» ظرفٌ أصلُه للمكان، ثم يُستعمل للانحطاط في المرتبة.

وقال ابن عطية: فإنْ أُريد بالصلاح الإيمانُ فـ«دون» بمعنى «غير» يراد بها الكفرة[١]. انتهى.

فإنْ أراد أنَّ «دون» تُرادِفُ غيرًا فهذا ليس بصحيحٍ، وإن أراد أنه يلزمُ ممن كان دون شيءٍ أن يكون غيرًا فصحيحٌ.

و«دون» ظرفٌ في موضع رفع نعتٍ لمنعوتٍ محذوفٍ، ويجوزُ في التفصيل بـ«مِن» حذفُ الموصوف وإقامةُ صفته مُقامَه نحو هذا، ومنه قولُهم: مِنَّا ظَعَنَ ومنَّا أقامَ.

﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: بالصحة والرخاء والسَّعة، والسيئاتِ مقابلاتها.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ إلى الطاعة، ويتوبون عن المعصية.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ أي: حَدَثَ من بعد المذكورين خَلْفٌ، قال الزجَّاج: يقال للقَرْنِ الذي يجيءُ بعد القرنِ: خَلْفٌ[٢].

وقال الفرَّاء: الخَلْفُ: القرنُ، والخَلَفُ مَن استَخْلَفْتَه[٣].

(١) المصدر السابق.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٨٨.
(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٩٩.

وقال ثعلب: الناسُ كلُّهم يقولون: «خَلَفُ صِدْقٍ» للصالح، و«خَلْفُ سوءٍ» للطالح، ومنه قولُ الشاعر:

ذهبَ الذين يُعاشُ في أكنافهم وبقيتُ في خَلْفٍ كجِلْدِ الأجْربِ[(١)]

والمَثَل: سَكَت ألفًا ونطق خَلْفًا[(٢)]، أي: سَكَت طويلًا ثم تكلَّم بكلامٍ فاسدٍ.

وعن الفرَّاء: الخَلْفُ يُذْهَبُ به إلى الذمِّ، والخَلَفُ صالحٌ[(٣)]، وقال الشاعر:

خلَّفْتَ خَلْفًا ولم تَدَعْ خَلَفًا ليتَ بهم كان لا بك التَّلفا[(٤)]

وقد يكون في الرديء: خَلَف، وعليه قوله:

أَلَا ذلك الخَلَفُ الأعورُ[(٥)]

وفي الصالح: خَلْف، وعلى هذا بيتُ حسان:

لنا القدمُ الأولى عليهم وخَلْفُنا لأوَّلنا في طاعة الله تابعُ[(٦)]

وقال ابن السِّكِّيت: يقال: هذا خَلَفُ صِدْقٍ، وهذا خَلْفُ سوءٍ، ويجوز: هؤلاء خَلَفُ صِدْقٍ وهؤلاء خَلْفُ سوءٍ، واحدُه وجَمْعُه سواءٌ، وقال الشاعر:

إنَّا وَجَدْنا خَلَفًا بئس الخَلَفْ

عبدًا إذا ما ناء بالحِمْل وَقَفْ[(٧)]

---

(١) البيت للبيد، وهو في ديوانه ص١٥٣، وأورده مع قول ثعلب الرازي ١٥/ ٤٣.

(٢) الأمثال لأبي عبيد ص٥٥، وجمهرة الأمثال ١/ ٥٠٩، ومجمع الأمثال ١/ ٣٣٠.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٧٠، وفيه: . . . والخلف: الصالح.

(٤) البيت في درة الغوَّاص ص٢١٥، والنكت والعيون ٢/ ٢٧٤، والدر المصون ٥/ ٥٠٣. ووقع في (د١) و(ز١): خُلقت، والمثبت من باقي النسخ والمصادر، وهو الصواب.

(٥) وصدره: تزوَّجْتِ داودَ مختارةً، والبيت أورده صاحب الأغاني ٣/ ٣٥٨ لموسى بن يسار المعروف بموسى شهوات، يخاطب فاطمة بنت عبد الملك، وكانت قد تزوجت بعد عمر بن عبد العزيز بداود بن سليمان بن مروان، وكان قبيح الوجه.

(٦) ديوان حسان ص٣١٠.

(٧) أنشده الرياشي لأعرابي يذم رجلاً اتخذ وليمة. ينظر الكامل ٣/ ١٣١١، والصحاح والأساس واللسان: (خَضف)، وجاء عندهم جميعًا بدل «وقف»: خضف، أي: ضرط، =

انتهى، وقد جَمَعَ في الرديء بين اللغتين في هذا البيت(١).

وقال النَّضْرُ بن شُمَيْلٍ: التحريكُ والإسكانُ معًا في القَرْن الرديء، وأمَّا الصالح فبالتحريك لا غير(٢). وأكثرُ أهل اللغة على هذا إلا الفرَّاءَ وأبا عبيدةَ، فإنهما أجازا الإسكان في الصالح(٣).

والخَلْفُ إمَّا مصدرُ «خَلَفَ» ولذلك لا يُثنَّى ولا يُجْمَع ولا يؤنَّث وإن ثُنِّي وجُمِعَ وأُنِّثَ ما قبله، وإمَّا جمعُ خالِفٍ كـ: راكب ورَكْب، و: شارِب وشَرْب، قاله ابن الأنباري(٤). وليس بشيءٍ؛ لجريانه على المفرد، واسمُ الجمع لا يجري على المفرد.

قال ابن عباسٍ وابنُ زيد هنا: هم اليهود(٥).

قال الزمخشري: وهم الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ، «وَرِثُوا الكتاب»: التوراةَ، بقيت في أيديهم بعد سَلَفهم يقرؤونها ويَقِفون على ما فيها من الأوامر والنواهي والتحريم والتحليل ولا يعملون بها(٦).

وقال الطبري: هم أبناءُ اليهود(٧).

وعن مجاهد: أنهم النصارى. وعنه: أنهم هؤلاء الأمة(٨).

= وهو برواية المصنف في تفسير القرطبي ٩/ ٣٧١. وكلام ابن السكيت دون الرجز في إصلاح المنطق ص١٤.

(١) لم يتوجه لي هذا الجمع في رواية المصنف، وهي الموافقة للمصادر، لكن أورده السمين في الدر ٥/ ٥٠٣ برواية إنا وجدْنا خَلْفنا. . .، فعلى هذه الرواية يستقيم كلام المصنف، يدل على هذا قول السمين إثرها: «فاستعمل الساكن والمتحرك في الرديء». لكن لم أقف على هذه الرواية عند غير السمين.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٢١٠، وقوله: القرن، تحرف في المطبوع إلى القرآن.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٧٠، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٣٢.

(٤) زاد المسير ٣/ ٢٨٠-٢٨١.

(٥) المصدر السابق.

(٦) الكشاف ٢/ ١٢٧-١٢٨.

(٧) تفسير الطبري ١٠/ ٥٣٥ بنحوه.

(٨) القولان في زاد المسير ٣/ ٢٨٠، والأول أخرجه الطبري ١٠/ ٥٣٥.

وقرأ الحسن: «وُرِّثوا» بضم الواو وتشديدِ الراء[١].

وعلى الأقوال يتخرَّج «الكتاب»: أهو التوراةُ، أو الإنجيلُ، أو القرآن؟

و«عَرَضَ هذا الأدنى» هو ما يأخذونه من الرُّشا والمكاسِبِ الخبيثة، والعَرَضُ ما يَعْرِضُ ولا يَثْبُتُ، وفي قوله: «عَرَضَ هذا الأدنى» تخسيسٌ لمَا يأخذونه وتحقيرٌ له، وأنهم مع عِلْمِهم بما في كتابهم من الوعيد على المعاصي يُقْدِمون لأجْل العامَّة على تبديلِ الكتاب وتحريفِه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩].

و«الأدنى» من الدُّنوِّ وهو القُرْبُ؛ لأنَّ ذلك قريبٌ منقضٍ زائلٌ، قال الزمخشريُّ: وإمَّا من دنوِّ الحال وسقوطِها وقلَّتها[٢].

«ويقولون سَيُغْفَرُ لنا» قَطْعٌ على الله بغفران معاصيهم، أي: لا يؤاخِذُنا الله بذلك، والمناسِبُ إذ وَرِثوا الكتابَ أن يَعْمَلوا بما فيه، وأنه إن قُضِيَ عليهم بالمعصية أن لا يَجْزموا بالمغفرة وهم مصرُّون على ارتكابها، و«لنا» في موضع المفعول الذي لم يُسمَّ فاعِلُه، وقيل: ضميرُ مصدر «يأخذون»[٣]، أي: سيُغْفَرُ هو ـ أي: الأَخْذُ ـ لنا.

﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ الظاهرُ أنَّ هذا استئنافُ إخبارٍ عنهم بانهماكِهم في المعاصي، أي: وإن أَمْكَنَتْهم الرُّشا والمكاسبُ الخبيثةُ لم يتوقَّفوا عن أَخْذِها ثانيةً ودائمًا، فهم مصرُّون على المعاصي غيرُ مكترثِينَ بالوعيد كما جاء: «والفاجرُ مَن أَتْبَعَ نفسَه هواها وتمنَّى على الله»[٤] والعَرَضُ بفتح الراء: متاعُ الدنيا؛ قاله أبو عبيدة[٥]، يقال: «إنَّ الدنيا عَرَضٌ حاضِرٌ يأخذُ منها البَرُّ

---

(١) القراءات الشاذة ص٤٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٧٢.
(٢) الكشاف ٢/ ١٢٨.
(٣) أي: المفعول الذي لم يسم فاعله هو ضمير مصدر «يأخذون».
(٤) أخرجه أحمد (١٧١٢٣)، والترمذي (٢٤٥٩) وحسنه، وابن ماجه (٤٢٦٠) من حديث شداد بن أوس ﷺ، وأوله: «الكيِّسُ مَن دانَ نفسَه...»، وفي إسناده أبو بكر بن أبي مريم، قال عنه الحافظ في التقريب: ضعيف، وكان قد سُرق بيته فاختلط.
(٥) مجاز القرآن ١/ ٢٥٠.

والفاجر»[١]. والعَرْضُ بسكون الراء: الدراهم والدنانيرُ التي هي رؤوسُ الأموال وقِيَمُ المُتْلَفات.

قال السُّدِّي: كانوا يُعيِّرون القاضي فإذا وُلِّي المعيِّر ارْتَشَى[٢].

وقيل: كانوا لو أتاهم من الحَنْتَم[٣] الآجُرِّ[٤] رشوةٌ أخذوها ونَقَضُوا بالرشوة الثانيةِ ما قَضَوْا بالرشوة الأولى. وقال الشاعر:

إذا ما صُبَّ في القنديلِ زيتٌ تحوَّلت القضيةُ للمُقَنْدِلْ[٥]

وقال آخر:

لم يَفْتَحِ الناسُ أبوابًا ولا عَرَفوا أَجْدَى وأَنْجحَ في الحاجات من طَبَقِ
إذا تعمَّم بالمنديل في طبقٍ لم يَخْشَ نَبْوةَ بوَّابٍ ولا غَلَقِ[٦]

ولهذه الأمَّةِ من هذه الآية نصيبٌ وافرٌ، قال رسول الله ﷺ: «لَتَسْلُكُنَّ سَنَنَ مَن قبلَكم»[٧]، ومَن اختبر حالَ علمائها قُضاتِها[٨] ومُفْتِيْها شاهَدَ بالعِيَان ما أَخْبَر به الصادق.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه الطبراني في الكبير (٧١٥٨) عن شداد بن أوس رضي الله عنه، وفي إسناده أبو مهدي سعيد بن سنان، قال الذهبي في الميزان ٢/ ١٣٧ وقد أورد له جملة أحاديث منها هذا الحديث: ولأبي مهدي أحاديث كثيرة منها هذا الحديث، وهو بيِّن الضعف.

(٢) أخرجه بنحوه الطبري ١٠/ ٥٣٨.

(٣) في (د١) والمطبوع: الخصم، وهو تحريف. والحنتم: الجرة، وقيل: الجِرار الخضر، وقيل: جرارٌ كانت تعمل من طين وشعر ودم. فتح الباري ١/ ١٣٤. وفي اللسان (حنتم): الحنتم جرار خضر تضرب إلى الحمرة.

(٤) قوله: الآجر، من (د١) و(ع)، وجاء في باقي النسخ والمطبوع: الأجر. والآجُر: طبيخ الطين. اللسان (أجر).

(٥) أورده الراغب في محاضرات الأدباء ١/ ٢٠٨ من قول أحد القضاة.

(٦) البيتان في عيون الأخبار ٣/ ١٢٣، والمثل السائر ١/ ٣٣٥، وبغية الطلب ٤/ ١٧٩٤، وقد عزاهما مؤلفه لأبي العتاهية عن أبيه، والرواية في هذه المصادر:

ما من صديقٍ وإن تمَّت صداقته يوماً بأنجحَ في الحاجات من طَبَقِ
إذا تلثَّم بالمنديل منطلقًا لم يَخْشَ نَبْوة بوَّابٍ ولا غَلَقِ

(٧) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ولفظه: «لتتَّبِعُنَّ سَنَنَ...».

(٨) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: وقضاتها.

وقال الزمخشريُّ: الواو للحال ـ يعني في «وإن يأتهم» ـ أي: يرجون المغفرةَ وهم مصرُّون عائدون إلى مِثْلِ قولهم غير تائبينَ، وغفرانُ الذنوب لا يصحُّ إلا بالتوبة، والمُصِرُّ لا غفرانَ له[1]. انتهى.

وحَمَلَه على جَعْلِ الواو للحال لا للعطف مذهبُ الاعتزال، والظاهرُ ما قدَّمناه، ولا يُرَدُّ عليه بأنَّ جملة الشرط لا تقع حالًا؛ لأن ذلك جائز.

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ هذا توبيخٌ وتقريعٌ وتقريرٌ لمَا تضمَّنه الكتابُ مِن أَخْذِ الميثاقِ: أنهم لا يكذبون على الله.

قال ابن زيد: كان يأتيهم المحِقُّ برشوةٍ فيُخْرِجون له كتابَ الله ويَحْكُمون له به، فإذا جاء المُبْطِلُ أخذوا منه الرشوةَ وأخرجوا كتابهم الذي كتبوه بأيديهم وحَكموا له[2].

وأضيف الميثاقُ إلى «الكتاب» لأنه ذُكِرَ فيه: «أنْ لا يقولوا على الله إلَّا الحقَّ»، و: «أنْ لا يقولوا على الله إلَّا الحق» قال بعضُهم: هو قولُهم: «سيُغْفَرُ لنا». ولا يتعيَّنُ ذلك، بل هو أعمُّ من هذا القولِ وغيرِه، فينْدَرِجُ فيه الجزمُ بالغفران وغيرِه.

و«أنْ لا يقولوا» في موضع رفع على البدل من «ميثاق الكتاب»، وقال الزمخشري[3]: هو عطفُ بيانٍ لـ«ميثاق الكتاب»، ومعناه: الميثاقُ المذكورُ في الكتاب، وفيه أنَّ إثباتَ المغفرة بغيرِ توبةٍ خروجٌ عن ميثاق الكتاب، وافتراءٌ على الله تعالى، وتقوُّلُ ما ليس بحقٍّ عليه، وإنْ فسِّر «ميثاق الكتاب» بما تقدَّم ذِكْرُه كان «أنْ لا يقولوا» مفعولًا له، ومعناه: لئلَّا يقولوا، ويجوز أن تكون مفسِّرة «ولا يقولوا» نهيًا، كأنه قيل: ألم يقل لهم: لا تقولا على الله إلا الحق.

وقال أيضاً قبل ذلك: «ميثاق الكتاب» يعني قوله في التوراة: مَن ارْتَكَبَ ذنبًا عظيمًا فإنه لا يُغفر له إلَّا بالتوبة، «ودَرَسوا ما فيه» أي: ما في الكتاب من اشتراطِ التوبة في غفران الذنوب، والذي عليه هَوَى المُجْبِرِ[4] هو مذهبُ اليهود بعينه

---

(١) الكشاف ٢/١٢٨.

(٢) تفسير الطبري ١٠/٥٣٦، وتفسير القرطبي ٩/٣٧٣، والكلام منه.

(٣) في الكشاف ٢/١٢٨.

(٤) في الكشاف: والذي عليه المجبِرةُ.

كما ترى، وقال مالك بن دينار رحمه الله: يأتي على الناس زمانٌ إنْ قصَّروا عمَّا أُمِروا به قالوا: سيُغْفَر لنا؛ لم[١] نُشرِكْ بالله تعالى شيئًا، كلُّ أمرهم على الطمع، خيارُهم فيه[٢] المُداهنةُ، فهؤلاء من هذه الأمَّة أشباهُ الذين ذكَرهم الله تعالى، وتلا الآية. انتهى، وهو على طريقة المعتزلة.

وقولُه: «إلا الحقَّ» دليلٌ على أنهم كانوا يقولون الباطلَ على تناوُلهم عَرضَ الدنيا.

و«دَرَسوا» معطوفٌ على قوله: «ألم يؤخَذْ»، وفي ذلك أعظمُ توبيخٍ وتقريعٍ، وهو أنهم كرَّروا على ما في الكتاب، وعَرَفوا ما فيه المعرفةَ التامَّة من الوعيد على قول الباطل والافتراءِ على الله، وهذا العطفُ على التقرير؛ لأنَّ معناه: قد أُخِذَ عليهم ميثاقُ الكتاب ودَرَسوا ما فيه، كقوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ﴾ [الشعراء: ١٨] معناه: قد ربَّيناكَ ولَبِثْتَ.

وقال الطبريُّ وغيرُه: هو معطوفٌ على قوله: «ورثوا الكتاب»[٣]. وفيه بُعْدٌ.

وقيل: هو على إضمارِ «قد»، أي: وقد دَرَسوا ما فيه.

وكونُه معطوفًا على التقرير هو الظاهرُ؛ لأنَّ فيه معنى إقامةِ الحجَّةِ عليهم في أخذِ ميثاق الكتاب، بكونهم حَفِظوا لَفْظَه وكرَّروه وما نَسُوه وفَهِموا معناه، وهم مع ذلك لا يقولون إلَّا الباطل.

وقرأ الجَحْدَري: «أنْ لا تَقُولوا» بتاء الخطاب، وقرأ عليٌّ والسُّلميُّ: «وادَّارَسُوا»[٤] وأصله: وتَدَارَسوا، كقوله: ﴿فَادَّارَءْتُمْ﴾ [البقرة: ٧٢] أي: تَدارَأْتُم، وقد مرَّ تقريرُه في العربية. وهذه القراءةُ توضِّح أنَّ معنى «ودَرَسُوا ما فيه» هو التكرارُ لقراءته والوقوفُ عليه، وأنَّ تأويل مَن تأوَّلَ «ودَرَسوا ما فيه» أن معناه: ومَحَوْه بترك العمل والفَهْمِ له، من قولهم: دَرَسَتِ الريح الآثارَ: إذا محتها[٥]، فيه بُعْدٌ، ولو

---

(١) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: لن. وجاء في الكشاف: لأنَّا لم.
(٢) في الكشاف: فيهم.
(٣) تفسير الطبري ١٠/ ٥٤٠، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٧٣، والكلام منه.
(٤) القراءتان في القراءات الشاذة ص٤٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٧٢-٤٧٣.
(٥) ذكره القرطبي ٩/ ٣٧٣ عن بعض العلماء.

كان كما قيل لقيل: رَبْعٌ مدروسٌ، و: خَطٌّ مدروسٌ، وإنما قالوا: ربعٌ دارِسٌ، و: خطٌّ دارِسٌ، بمعنى: داثِر.

﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾أي: ولَثوابُ دارِ الآخرة خيرٌ من تلك الرشوة الخبيثة الخسيسة المُعْقِبةِ خزيَ الدنيا والآخرة، ومعنى «يتقون»: [يتقون] محارم الله تعالى.

وقرأ أبو عمرو وأهل مكة: «يعقلون» بالياء[1] جريًا على الغيبة في الضمائر السابقة، وقرأ الجمهورُ بالخطاب على طريق الالتفات إليهم، وعلى طريق خطابِ هذه الأمَّة، كأنه قيل: أفلا تعقلون حالَ هؤلاء وما هم عليه من سوء العمل، وتتعجَّبون من تَماديهم[2] على ذلك.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾الظاهرُ أنَّ «الكتاب» هو السابقُ ذِكْرُه في «ورثوا الكتاب»، فيجيءُ الخلافُ فيه كالخلاف في ذلك، وهو مبنيٌّ على المراد بقوله: «خَلْفٌ وَرِثوا».

وقيل: «الكتاب» هنا للجنس، أي: الكتب الإلهية.

والتمسُّكُ بالكتاب يستلزمُ إقامةَ الصلاة، لكنها أُفرِدَتْ بالذِّكْر تعظيمًا لشأنها لأنها عمادُ الدِّين: «بين العبد وبين الشِّرك، تركُ الصلاة»[3].

وقرأ عمر وأبو العالية وأبو بكرٍ عن عاصم: «يُمْسِكون» من أَمْسَكَ[4]، والجمهورُ: «يمسِّكون» مشدَّدًا من مسَّك، وهما لغتان جَمَعَ بينهما كعب بنُ زهير فقال:

فما تُمسِّكُ بالعهد الذي زعمت إلَّا كما تُمْسِكُ الماءَ الغرابيلُ[5]

(١) السبعة ص٢٥٦، والتيسير ص١٠٢ عن أبي عمرو وابن كثير وحمزة والكسائي وشعبة، وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالتاء.
(٢) في (أ) و(د١) و(ع): عادتهم، وفي المطبوع: تجارتهم.
(٣) أخرجه أحمد (١٤٩٧٩)، ومسلم (٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٣، وهي عن أبي بكر في السبعة ص٢٩٦، والتيسير ص١١٤.
(٥) ديوان كعب ص٨٥. وقوله: تمسك، قال ابن هشام في شرح قصيدة بانت سعاد ص٣٥:
=

وأَمْسَكَ متعدٍّ؛ قال: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ﴾ [الحج: ٦٥] فالمفعولُ هنا محذوفٌ، أي: يُمْسِكون أعمالَهم، أي: يَضْبِطونها، والباءُ على هذا تحتملُ الحاليَّةَ والآلَةَ.

ومسَّك مشدَّدٌ بمعنى تَمسَّكَ، والباءُ معها للآلة، وفعَّل تأتي بمعنى تفعَّل، نصَّ عليه التصريفيُّون.

وقرأ عبد الله والأعمش: «اسْتَمْسَكوا»، وفي حرفِ أبيٍّ: «تَمسَّكوا»[(١)].

والظاهِرُ أنَّ قوله: «والذين» استئنافُ إخبارٍ؛ لمَّا ذكَر حالَ مَن لم يَسْتَمسك بالكتاب ذَكَر حالَ مَن اسْتَمْسَك به، فيكون «والذين» على هذا مرفوعًا بالابتداء، وخبرُه الجملةُ بعدَه، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] إذا جَعَلْنا الرابطَ هو في «مَن أَحْسَنَ عملًا»، وهو العمومُ، كذلك هذا يكونُ الرابطُ هو العمومَ في «المصلحين».

وقال الحَوْفيُّ وأبو البقاء: الرابطُ محذوفٌ تقديره: أجر الصالحين منهم[(٢)].

وأجاز الحوفيُّ أيضًا أن يكون الخبر محذوفًا، و«إنَّا لا نُضيع أجر المصلحين» اعتراضٌ، والتقدير: مأجورون، أو: نَأْجُرهم. انتهى، ولا ضرورةَ إلى ادِّعاء الحذف.

وأجاز أبو البقاء أن يكون الرابطُ هو «المصلحين»، وَضَعَه موضع المضمر، أي: لا نُضِيعُ أَجْرَهم[(٣)]. انتهى، وهذا على مذهب الأخفش، حيث أجاز الرَّبط بالظاهر إذا كان هو المبتدأ، فأجاز: زيدٌ قام أبو عمرو، إذا كان أبو عمرو كنيةَ زيدٍ، كأنه قال: زيدٌ قام، أي: هو.

= إما بضم التاء وكسر السين المشدَّدة، مضارع مسَّك بالتشديد، وإما بفتحها مضارع تَمَسَّكَ، والأصل: تتمسك، فحذفت إحدى التاءين، يقال: مسَّك بالشيء وتمسَّك وأمسك واسْتَمْسَكَ، بمعنًى.

(١) القراءتان في تفسير الثعلبي ٣/ ٩٠، والكشاف ٢/ ١٢٨-١٢٩، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٧٣، وقراءة أبيٍّ عندهم جميعاً: «مسَّكوا».

(٢) الإملاء ١/ ٢٨٨.

(٣) المصدر السابق.

وأجاز الزمخشريُّ أن يكون «والذين» في موضع جرٍّ عطفًا على «الذين يتقون»[(١)]، ولم يذكر ابنُ عطية غيرَه[(٢)]. والاستئنافُ هو الظاهرُ كما قلنا.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا
مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢)
أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)
وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ
مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى
الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ
مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ
بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ
هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا
بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَنْ
يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ
إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً
يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُلْ لَا
أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا
مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)﴾.

(١) الكشاف ٢/١٢٨.

(٢) المحرر الوجيز ٢/٤٧٣.

المفردات

النَّتْق: الجذبُ بشدة، وفسَّره بعضُهم بغايته وهو القلعُ، وتقول العرب: نتقتُ الزبدةَ من فم القِرْبةِ، والناتِقُ: الرَّحِم التي تَقْلَعُ الولدَ من الرَّجُل، وقال النابغة:

لم يُحْرَموا حُسْنَ الغذاءِ وأمُّهم طَفَحَتْ عليك بناتقٍ مِذْكارِ[(١)]

وفي الحديث: «عليكم بزواج الأبكار، فإنهنَّ أنتقُ أرحامًا، وأطيبُ أفواهًا، وأرْضَى باليسير»[(٢)].

الانسلاخ: التعرِّي من الشيء حتى لا يَعْلَقَ به منه شيء، ومنه: انسلخت الحيةُ من جلدها.

الكلب حيوانٌ معروفٌ، ويجمع في القلَّة على أكلبٍ، وفي الكثرة على كِلَابٍ، وشذُّوا في هذا الجمع فجمعوه بالألف والتاء، فقالوا: كِلاباتٌ. وتقدَّمت هذه المادّةُ في ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ [المائدة: ٤] وكرَّرْناها لزيادة فائدةٍ.

لَهَثَ الكلبُ يَلْهَثُ بفتح الهاءين ماضيًا ومضارعًا، والمصدر: لَهْثًا ولُهْثًا بالضم[(٣)]: أخرج لسانه، وهي حالةٌ له في التعب والراحة والعطش والريِّ، بخلاف غيره من الحيوان فإنه لا يلهثُ إلا من إعياءٍ أو عطشٍ.

لَحَدَ وأَلْحدَ لغتان، قيل: بمعنًى واحدٍ وهو العدولُ عن الحقِّ والإدخالُ فيه ما ليس منه، قاله ابن السِّكِّيت[(٤)]. وقال غيره: العدولُ عن الاستقامة. والرباعيُّ أشهَرُ في الاستعمال من الثلاثي، وقال الشاعر:

ليس الأميرُ بالشَّحيح المُلْحِدِ[(٥)]

---

(١) ديوان النابغة ص٦١. قوله: طفحت عليك بناتق، أي: هي نفسُها ناتقٌ، وطفحت فلانة بالأولاد، أي: فاضت وأكثرت. أساس البلاغة (طفح).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٨٦١) من طريق عبد الرحمن بن سالم بن عتبة بن عويم بن ساعدة، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ. وهو حديث ضعيف لاضطراب إسناده، وجهالة عبد الرحمن بن سالم، كما ذكر الحافظ في الإصابة ٦/ ٣٧٨-٣٧٩.

(٣) وذكره أيضاً السمين في الدر ٥/ ٥١٧، ولم أقف عليه في المعاجم، ولعله: لُهاثًا بالضم. ينظر إصلاح المنطق ص٢١٣، والصحاح واللسان والقاموس (لهث).

(٤) كما في تفسير البغوي ٢/ ٢١٧.

(٥) الرجز دون نسبة في الكتاب ٢/ ٣٧١، وقبله: قَدْني من نصر الخُبَيْبَيْن قَدِي، وقائله حميدٌ =

ومنه: لَحْدُ القبر، وهو الميلُ إلى أحد شِقَّيه[١]، ومن كلامهم: ما فَعَلَ الواحدُ؟ قالوا: لَحدَه اللَّاحِدُ[٢].

وقيل: ألحد بمعنى: مالَ وانحرف، ولَحَدَ بمعنى: رَكَنَ وانضوى، قاله الكسائي[٣].

مَتُنَ متانةً: اشتدَّ وقَوِيَ.

«أيان» ظرفُ زمانٍ مبنيٌّ لا يتصرَّفُ، وأكثرُ استعماله في الاستفهام، ويليه الاسمُ مرفوعًا بالابتداء، والفعلُ المضارع لا الماضي، بخلاف «متى» فإنهما يليانه، قال تعالى: ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١]، و﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧، والنازعات: ٤٢]. وقال الشاعر:

أيان تَقْضي حاجتي أيانا أَمَا ترى لِفِعْلِها إبَّانا[٤]

وتُستعمل في الجزاء فتَجْزِمُ المضارعَيْنِ، وذلك قليل فيها، ولم يَحْفَظْه سيبويه لكن حَفِظَه أصحابُه[٥]، وأنشدوا:

إذا النعجةُ الأذْناءُ كانت بقفرةٍ فأيَّان ما يَعْدِلْ بها الرِّئمُ تَنْزِلِ[٦]

= الأرقط، كما في الإنصاف ١/ ١٣١، والخزانة ٥/ ٣٩٣، وجاء في المصادر: ليس الإمام...

(١) أي: يمال بحفره إلى جانبه، بخلاف الضريح فإنه يُحفر في وسطه. الدر المصون ٥/ ٥٢٢.

(٢) ورد هذا في رسالة مشهورة كتبها الأديب الشاعر الحسين بن علي بن محمد المعروف بابن قُمٍّ الزَّبيدي اليمني إلى أبي حمير الصليحي اليماني بعد انفصاله عنه. ينظر معجم الأدباء ١٠/ ١٣٦.

(٣) كما في المحرر الوجيز ٢/ ٤٨١.

(٤) مجاز القرآن ١/ ٢٣٤، وتفسير الطبري ١٠/ ٦٠٦، وتفسير الثعلبي ٣/ ١٠١، والنكت والعيون ٢/ ٢٨٤، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٤، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٠٥، واللسان (أبن)، وفيه: إبَّان كل شيء: وقته وحينه الذي يكون فيه. وجاء في المصادر عدا المحرر: لنُجْحها، بدل: لفعلها.

(٥) في (د١) والمطبوع: غيره، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الارتشاف ٤/ ١٨٦٥، ولم نقف على كلام سيبويه في كتابه.

(٦) البيت لأمية بن أبي عائذ، وهو في شرح أشعار الهذليين للسكري ٢/ ٥٢٦، وديوان الهذليين ٢/ ١٩٤. قوله: الأذناء، أي: عظيمة الأذنين طويلتهما، ووقع بدلا منها في (أ) و(د١) =

وقال غيره:

أيَّـانَ نُـؤمِـنْـكَ تَـأْمَـنْ غـيـرنـا وإذا لـم تُدْرِك الأمنَ منَّا لـم تَزَلْ حَذِرا[١]

وكَسْرُ فتحةِ همزتِها لغةُ سليم، وهي عندي حرفٌ بسيطٌ لا مركَّبٌ، وجامدٌ لا مشتقٌّ.

وذكر صاحب كتاب «اللوامح» أنَّ «أيّان» في الأصل كان «أي أوان» فلمَّا كَثُر دَوْرُه حُذفت الهمزةُ على غيرِ قياسٍ ولا عِوَضٍ، وقُلبت الواوُ ياءً فاجتمعت ثلاثُ ياءاتٍ، فحذفَتْ إحداها فصارت على ما رأيتَ. انتهى.

وزعم أبو الفتح[٢] أنه فَعْلان وفِعْلان مشتقٌّ من «أي»، ومعناه: أيّ وقتٍ، و«أيّ» فعْلٌ من: أَوَيتُ إليه، لأن البعض آوٍ إلى الكلِّ متساندٌ إليه، وامْتَنَعَ أن يكون فَعَّالًا وفِعَّالًا من «أين»؛ لأنَّ «أيَّان» ظرفُ زمانٍ «وأين» ظرفُ مكانٍ، فأَوْجَبَ ذلك أن يكون من لفظ «أي»؛ لزيادة النون، ولأن «أيان» استفهامٌ كما أنَّ أيًّا كذلك.

والأصلُ عدمُ التركيب، وفي أسماء الاستفهام والشرط الجمودُ كمتى وحيثما وأنَّى وإذا.

رَسَا يَرْسو: ثَبَتَ.

الحفيُّ: المستَقْصِي للشيء المُهْتَبِلُ[٣] به المعتني، وفلانٌ حفيٌّ بي: بارٌّ مُعْتَنٍ، وقال الشاعر:

فلمَّا التقينا بيَّن السيفُ بيننا لسـائلـةٍ عنا حفـيٌّ سؤالُـها[٤]

= و(ع): الأدماء، وفي المطبوع: العجفاء، وفي شرح أشعار الهذليين: العيناء. وقوله: الرئم: هو الظبي الخالص البياض، ووقع بدلًا منها في المطبوع: الريح، وفي ديوان الهذليين: الدهر.

(١) شرح التسهيل لابن مالك ٣/ ٤٤٣ (القسم الذي أكمله ابنه)، وشرح الألفية لابن عقيل ٢/ ٣٦٦.

(٢) في المحتسب ١/ ٢٦٨ بنحوه.

(٣) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: المحتفل. والاهتبال: الاغتنام. الصحاح (هبل).

(٤) البيت لأُنَيْف بن زَبَّان النبهاني من طيئ كما في الحماسة بشرح التبريزي ١/ ٨٩، وجاء اسمه في شرح المرزوقي ١/ ١٦٩: أنيف بن حكم، وفي منتهى الطلب ٧/ ٧١: أنيف بن حكيم، ولم نقف له على ترجمة. وأورده دون نسبة ابن عطية في المحرر ٢/ ٤٨٥.

وقال آخر[١]:

سؤالَ حَفِيٍّ[٢] عن أخيه كأنه بِذِكْرَتِهِ وَسْنانُ أو متواسِنُ

والإحفاء: الاستقصاء، ومنه: إحفاءُ الشارب. والحافي، أي: حَفِيَتْ قَدَمُه للاستقصاء في السَّيْر، والحَفَارةُ: البِرُّ واللُّطْف.

* * *

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي: جَذَبْنا الجبلَ بشدَّةٍ، و«فوقهم» حالٌ مقدَّرةٌ ـ فالعاملُ فيها محذوفٌ تقديره: كائنًا فوقهم ـ إذ[٣] حالةُ النتقِ لم تقارِنِ الفوقيةَ، لكنه صار فوقهم.

وقال الحَوْفيُّ وأبو البقاء: «فوقهم» ظرفٌ لـ«نتقنا»[٤]. ولا يمكنُ ذلك إلَّا إنْ ضُمِّن «نتقنا» معنى فِعْلٍ يمكن أن يعمل في «فوقهم»، أي: رفعنا بالنتق الجبلَ فوقهم، فيكون كقوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾ [النساء: ١٥٤].

والجملةُ من قوله: «كأنه ظلَّة» في موضع الحال، والمعنى: كأنه عليهم ظلَّةٌ.

والظلَّةُ: ما أظلَّ من سقيفةٍ أو سحابٍ، وينبغي أن يُحمل التشبيهُ على أنه بظلَّةٍ مخصوصةٍ؛ لأنه إذا كان كلُّ ما أظلَّ يسمَّى ظلةً فالجبلُ فوقهم صار ظلةً، وإذا صار ظلةً فكيف يشبَّهُ بظلَّةٍ، فالمعنى والله أعلم: كأنه حالةَ ارتفاعه عليهم ظلةٌ من

---

(١) هو المعطَّل الهذلي كما في ديوان الهذليين ٣/ ٤٠-٤٥، ومالك بن خالد كما في شرح أشعار الهذليين للسكري ١/ ٤٤٤-٤٥٠، وفيه: ويقال: إنها للمعطل، هكذا قال أبو نصر. وذكر البيت دون نسبة الطبري ١٠/ ٦١٥، وابن عطية ٢/ ٤٨٥.

(٢) كذا عند الطبري وابن عطية، والذي في الديوان وشرح أشعار الهذليين: سؤال الغني، وهو الأنسب بمعنى البيت، لأن معناه كما شرحه السكري: يسأل سؤال المستغني عن أخيه ليست له إليه حاجة، وقوله: أو متواسن، أي: مُدخلٌ نفسه في الوَسَن من النعاس، أي: مفعل ذلك عمداً ولا يبالي، أي: يسأل سؤال رجل قد استغنى عن أخيه فهو يتذكره. اهـ. وهذا المعنى هو عكس المعنى المذكور في شرح الحفي.

(٣) في (د١) والمطبوع: إذ كانت.

(٤) الإملاء ١/ ٢٨٨.

الغمام، وهي الظلةُ التي ليست تحتها عَمَدٌ، بل إمساكُها بالقدرة الإلهية وإن كانت أجرامًا، بخلافِ الظلَّةِ الأرضية فإنها لا تكون إلَّا على عمدٍ، فلمَّا كانت هذه الظلَّة الأرضيةُ فوقهم بلا عَمَدٍ شُبِّهت بظُلَّةِ الغمام التي ليست بعَمَدٍ[١].

وقيل: اعتاد البشرُ هذه الأجرامَ الأرضيةَ ظُللًا إذا[٢] كانت على عَمَدٍ، فلمَّا كان الجبلُ مرتفعًا على غيرِ عمدٍ قيل: «كأنه ظلة»، أي: كأنه على عَمَدٍ.

وقرئ: «طُلَّة» بالطاء، من أَطَلَّ عليه: إذا أَشْرفَ[٣].

و«ظَنُّوا» هنا باقيةٌ على بابها من ترجيح أحد الجائزَيْنِ، وقال المفسِّرون: معناه: أَيْقَنوا[٤]. وقال الزمخشري: علموا[٥]. وليس كذلك بل هو غلبةُ ظنٍّ مع بقاءِ الرجاء، إلَّا إنْ قيِّد ذلك بقيدِ أن لا يقبلوا[٦] التوراةَ، فإنه يكون بمعنى الإيقان.

وتقدَّم ذكرُ سبب رفعِ الجبل فوقهم في تفسير قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ و﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ في «البقرة»[٧]، فأغنى عن إعادته. وقد كرَّره المفسرون هنا: الزمخشريُّ وابنُ عطيةَ[٨] وغيرُهما، وذكر الزمخشريُّ هنا عند ذكر السبب أنه: لمَّا نَشَرَ موسى عليه السلام الألواحَ وفيها كتابُ الله تعالى، لم يَبْقَ جبلٌ ولا شجرٌ

---

(١) في النسخ والمطبوع عدا (د١): بظلة الغمام التي ليست بلا عمد، والمثبت من (د١)، وهو الصواب. وجاء في (ز١) بين كلمة «الغمام» وكلمة «التي»: لاشتراكهما في كونهما بلا عمد، لكن ضرب عليها.

(٢) في المطبوع: إذ، وسقطت الجملة من (د١)، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٤، والكلام منه.

(٣) الكشاف ٢/ ١٢٩.

(٤) ذكره عن المفسرين ابن عطية ٢/ ٤٧٤، وتعقبه بما سيذكره المصنف قريباً بعد كلام الزمخشري.

(٥) الكشاف ٢/ ١٢٩.

(٦) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: يعقلوا، وهو تحريف، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في المحرر ٢/ ٤٧٤، والكلام منه.

(٧) الآية: (٦٣).

(٨) ينظر الكشاف ٢/ ١٢٩، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٧٣-٤٧٤.

ولا حجرٌ إلا اهتزَّ، فلذلك لا ترى يهوديًا يقرأ التوراةَ إلا اهتزَّ وأنْغَضَ لها رأسَه[١]. انتهى.

وقد سَرَتْ هذه النزعةُ إلى أولاد المسلمين فيما رأيتُ بديارِ مصرَ، تراهم في المكتب إذا قرؤوا القرآنَ يهتزُّون ويُحرِّكون رؤوسَهم، وأمَّا في بلادنا بالأندلس والغرب فلو[٢] تحرَّك صغيرٌ عند قراءة القرآن أدَّبه مؤدِّبُ المكتب، وقال له: لا تتحرَّك فتُشْبِهَ اليهودَ في الدراسة.

﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ قرأ الأعمش: «وادَّكِروا» بالتشديد من الادِّكار. وقرأ ابنُ مسعود: «وتَذَكَّروا»[٣]. وقرئ: «وتَذَّكَّروا» بالتشديد بمعنى: وتَذَكَّروا[٤]، وتقدَّم تفسير هذه الجملِ في «البقرة».

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ رُوي في الحديث من طرق: أَخَذَ من ظهر آدم ذرِّيته، وأَخَذَ عليهم العهدَ بأنه ربُّهم وأنْ لا إله غيرُه، فأقرُّوا بذلك والْتَزَموه[٥].

واختلفوا في كيفية الإخراج، وهيئة المُخْرَج والمكانِ والزمان، وتقريرُ هذه الأشياء محلُّها ذلك الحديث والكلامُ عليه، وظاهرُ هذه الآية ينافي ظاهرَ ذلك الحديث، ولا تلتئم ألفاظُه مع لفظ الآية[٦]، وقد رام الجمعَ بين الآية والحديثِ جماعةٌ بما هو متكلِّفٌ في التأويل.

---

(١) ينظر الكشاف ٢/ ١٢٩، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٧٤.

(٢) في (ب) و(د٣) و(ز١) و(يه): بلادنا بلاد الأندلس فلو.

(٣) الكشاف ٢/ ١٢٩.

(٤) قوله: «وتذَّكَّروا» بالتشديد بمعنى: وتَذَكَّروا. كذا وقع في النسخ، ولعل هناك تصحيف في الفعل الأول أو في الثاني، فقد جاء في الكشاف ٢/ ١٢٩، وروح المعاني ٩/ ٤٤٧: وقرئ: «واذَّكَّروا» بمعنى: وتَذَكَّروا. وفي الدر المصون ٥/ ٥١٠-٥١١: وقرئ: «وتَذَّكَّروا» بتشديد الذال والكاف، والأصل: ولِتَتَذكروا، فأدغمت التاء في الذال وحذفت لام الجر.

(٥) ينظر ما جاء من روايات بهذا المعنى في تفسير الطبري ١٠/ ٥٤٧-٥٦٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٧٤، وتفسير القرطبي ٩/ ٣٧٥-٣٧٨.

(٦) لعله يريد بهذه المنافاة وعدم الالتئام بين الآية وبين الأحاديث التي جاءت في تفسيرها: أن ألفاظ الآية تقتضي أن الأخذ إنما كان من بني آدم من ظهورهم، وليس لآدم ذكر فيها، =

وأحسنُ ما تُكُلِّم به على هذه الآية ما فسَّره به الزمخشريُّ؛ قال: من باب التمثيل والتخييل، ومعنى ذلك أنه تعالى نَصَبَ لهم الأدلَّةَ على ربوبيته ووحدانيته، وشَهِدتْ بها عقولُهم وبصائرُهم التي ركَّبها فيهم وجَعَلها مميِّزةً بين الضلالة والهدى، فكأنه سبحانه أَشْهدَهم على أنفسهم وقرَّرهم وقال: ألستُ بربِّكم، وكأنهم قالوا: بلى أنت ربُّنا شَهِدْنا على أنفسنا وأقررنا لوحدانيتك، وبابُ التمثيل واسعٌ في كلام الله تعالى ورسوله ﷺ، وفي كلام العرب، ونظيرُه قولُ الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وقوله:

إذ قالت الأنساعُ للبطن الحقِ(١)

قالت له ريح الصَّبا قرقارِ(٢)

ومعلومٌ أنه لا قولَ ثَمَّ وإنما هو تمثيلٌ وتصويرٌ للمعنى، «وأن تقولوا» مفعولٌ له، أي: فعلْنا ذلك مِن نَصْبِ الأدلة الشاهِدةِ على صحتها العقولُ كراهةَ أن تقولوا يومَ القيامة: إنَّا كنّا عن هذا غافلين لم نُنَبَّهْ عليه، أو كراهةَ أن تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبلُ وكنّا ذريةً مِن بعدِهم فاقْتَدَينا بهم، لأنَّ نَصْبَ الأدلة على التوحيد وما نبِّهوا عليه قائمٌ معهم، فلا عذرَ لهم في الإعراض عنه، والإقبال على التقليد والاقتداءِ بالآباء، كما لا عذرَ لآبائهم في الشرك وأدلةُ التوحيد منصوبةٌ لهم.

فإن قلتَ: بنو آدم وذرِّياتُهم مَن هم؟

قلت: عَنَى ببني آدمَ أسلافَ اليهود الذين أشركوا بالله تعالى، حيث قالوا:

= بينما جاءت الأحاديث في تفسيرها أن أخذ الذرية كان من ظهر آدم عليه السلام، كما ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٤-٤٧٥، وكلام المصنف إلى آخر هذه الفقرة مختصر منه، وينظر تفسير الرازي ١٥/ ٤٦ وما بعدها، وروح المعاني ٩/ ٤٥٤ وما بعدها.

(١) وبعده: قِدْماً فآضَتْ كالفَنيق المُحْنِقِ، وسلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

(٢) الرجز لأبي النجم العجلي، وهو في ديوانه ص٢٠٣، والكتاب ٣/ ٢٧٦، والخزانة ٦/ ٣٠٧. قوله: قرقارِ، هو اسم فعلِ أمرٍ من قرقر مبنيٌّ على الكسر، وَصَف سحاباً هبت له ريح الصبا فألقحته وهيَّجت رعده، فكأنها قالت له: قَرْقِرْ بالرعد يا سحاب، أي: صَوِّتْ.

﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] وبذرِّياتهم الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ من أخلافهم المقتدِينَ بآبائهم، والدليلُ على أنها في المشركين وأولادِهم قولُه تعالى: «أو تقولوا إنما أَشْركَ آباؤنا من قبلُ»، والدليلُ على أنها في اليهود الآياتُ التي عُطفت عليها هي والتي عُطفت عليها وهي على نمطها وأسلوبها، وذلك قولُه: «واسألهم عن القرية» «وإذ قالت أمّةٌ منهم» «وإذ تأذَّنَ ربُّك» «وإذ نَتَقْنا الجبلَ فوقهم» «واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا»(١). انتهى كلامُ الزمخشري، وهو بسطُ كلام مَن تقدَّمه.

قال ابن عطية(٢): قال قومٌ: الآيةُ مشيرةٌ إلى هذا التناسُلِ(٣) الذي في الدنيا، و«أَخَذَ» بمعنى: أَوْجَدَ، وأنَّ الإشهاد من(٤) عند بلوغ المكلَّف، وهو قد أُعطيَ الفهمَ ونُصبت له هذه الصَّنعةُ الدالةُ على الصانع، ونحا لهذا الزجَّاج(٥)، وهو معنًى تَحْتَمِلُه الألفاظ، انتهى.

والقولُ بظاهر الحديث يَطْرقُ إلى القول بالتناسُخ(٦)، فيجبُ تأويلُه.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٢٩-١٣٠.

(٢) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٥.

(٣) في النسخ والمطبوع: التأويل، وهو تحريف، والمثبت من المحرر.

(٤) في المحرر: هو، بدل: من.

(٥) ينظر معاني القرآن له ٢/ ٣٩٠.

(٦) هذه شبهة ذكرها المعتزلة الذين ينكرون أخذ الميثاق القاليِّ المشار إليه في الأخبار، من أن الله تعالى أخذ من ظهر آدم ذريته وأخذ عليهم العهد فأقروا، كما سلف في بداية تفسير هذه الآية، وقالوا: إن أولئك الذر إن لم يكونوا عقلاء لم يكن أخذ الميثاق منهم، وإن كانوا عقلاء وجب أن يتذكروا تلك الحالة في هذا العالَم، ولا يجوز للعاقل أن ينسى مثل هذه الواقعة العظيمة نسياناً كلِّيا، وبهذا الدليل يبطل التناسخ، قالوا: فإذا جوَّزتم النسيان فجوِّزوا أن يقال: إنا قبل هذا البدن كنا في أبدان أخرى على سبيل التناسخ، وإن كنا لا نتذكر الآن أحوال تلك الأبدان.
وأجاب الإمام الرازي بالفرق بين الأمرين، وذلك أنا إذا كنا في أبدان أخرى وبقينا فيها سنين امتنع في مجرى العادة نسيانها، وأما أخذ الميثاق فإنما حصل بأسرع زمان، فلم يَبْعُدْ حصول النسيان فيه.
ويتلخص من كلام المصنف وغيره من المفسرين في هذه الآية قولان: الأول هو الميثاق القالي الوارد في الأخبار، والثاني ما نقله المصنف عن الزمخشري، وأورده ابن عطية عن

ومفعولُ أَخَذَ: «ذرّياتهم»، قاله الحَوْفي، ويحتمل في قراءة الجميع أن يكون مفعول «أَخَذ» محذوفًا لفَهْم المعنى، و«ذرّياتهم» بدلٌ من ضمير «ظهورهم» كما أنَّ «من ظهورهم» بدلٌ من قوله: «بني آدم»، والمفعولُ المحذوفُ هو الميثاق، كما قال: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ١٥٤] ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٨٣] وتقدير الكلام: «وإذ أخذ ربُّك» من ظهور ذرياتِ بني آدم ميثاقَ التوحيد وإفرادِه بالعبادة، واستعار أن يكون أَخْذُ الميثاق من الظهر، كأنَّ الميثاق لصعوبته وللارتباط به والوقوفِ عنده شيءٌ ثقيل يُحمل على الظهر، وهذا من تمثيل المعنى بالجِرْم، «وأشهدهم على أنفسهم» بما نَصَبَ لهم من الأدلة قائلًا: «ألستُ بربّكم قالوا بلى».

وقرأ العربيان ونافع: «ذرياتهم» بالجمع، وتقدَّم إعرابُه، وقرأ باقي السبعة: «ذرِّيتَهم» مفردًا بفتح التاء[(١)]، ويتعيَّن أن يكون مفعولًا بـ«أُخذ»، وهو على حذف مضافٍ، أي: ميثاق ذرّياتهم، وإنما كان أخذُ الميثاق من ذرية بني آدم لأنَّ بني آدم لصُلبه لم يكن فيهم مشركٌ، وإنما حدث الإشراك في ذريتهم.

﴿شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ أي: قال الله: شهدنا عليكم. أو قال الله والملائكة؛ قاله السُّدي[(٢)]. أو قالت الملائكةُ. أو شَهِدَ بعضُهم على بعضٍ. أقوال. ومعنى «عن هذا»: عن هذا الميثاق والإقرارِ بالربوبية.

﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾المعنى أنَّ الكفرة لو لم يُؤخذ عليهم عهدٌ، ولا جاءهم رسولٌ مذكِّرٌ بما تضمَّنه العهدُ من توحيد الله وعبادته، لكانت لهم حجّتان: إحداهما: كنَّا غافلين، والأخرى: كنَّا أتباعًا

= قوم كما سلف، وأشار إلى أن الزجاج نحا إليه، وقال النيسابوري: وهذا القول الثاني غير منافٍ للقول الأول، ولا هو مطعون في نفسه. وذكر ابن عطية أنه معنى تحتمله الألفاظ، لكن يَرِدُ عليه ما جاء في الأخبار الواردة في تفسير الآية. ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٥، وتفسير الرازي ١٥/ ٤٧ و٥٠-٥١، وغرائب القرآن للنيسابوري ٩/ ٨١-٨٢، وروح المعاني ٩/ ٤٦٤-٤٦٥.

(١) السبعة ص٢٩٧-٢٩٨، والتيسير ص١١٤.

(٢) أخرجه الطبري مطولاً ١٠/ ٥٦١، ومختصراً ١٠/ ٥٦٣-٥٦٤.

لأسلافنا، فكيف نُهْلَكُ والذنبُ إنما هو لمن طرَّقَ لنا وأضلَّنا؟ فوقعت الشهادة لتنقطع عنهم الحججُ.

وقرأ أبو عمرو: «أن يقولوا» بالياء على الغيبة، وباقي السبعة بالتاء على الخطاب(١).

﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ هذا من تمام القول الثاني، أي: كانوا السببَ في شِرْكنا؛ لتأسيسهم الشركَ وتقدُّمهم فيه وتَرْكِه سُنَّةً لنا، والمعنى: أنه تعالى أزال عنهم الاحتجاجَ بتركيب العقول فيهم وتذكيرِهم ببعثة الرسل إليهم، فقطع بذلك أعذارَهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي: مثلَ هذا التفصيلِ الذي فصَّلْنا فيه الآياتِ السابقةَ نفصِّلُ الآياتِ اللاحقةَ، فالكلُّ على نمطٍ واحدٍ في التفصيل والتوضيحِ لأدلَّةِ التوحيد وبراهينه ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ عن شِرْكهم وعبادةِ غير الله إلى توحيده وعبادته بذلك التفصيل والتوضيح. وقرأت فرقةٌ: «يفصِّل» بالياء(٢)، أي: يفصِّلُ هو، أي: الله تعالى.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ أي: واتلُ على مَن كان حاضرًا من كفَّارِ اليهود وغيرِهم، ولمَّا كان تعالى قد ذَكَر أخذَ الميثاق على توحيده تعالى وتقريرِ ربوبيته، وذَكَر إقرارَهم بذلك وإشهادَهم على أنفسهم، ذَكَر حالَ مَن آمَنَ به ثُم بعد ذلك كَفَرَ، كحال اليهود كانوا مقرِّينَ منتظرينَ بعثةَ رسول الله ﷺ لمَا اطَّلعوا عليه من كتب الله المُنْزَلةِ وتبشيرِها به وذِكْرِ صفاته، فلمَّا بُعث كفروا به، فذَكَروا أنَّ ما صدر منهم هي طريقةٌ لأسلافهم اتَّبعوها.

واختلف المفسِّرون في هذا الذي آتاه اللهُ آياته فانسلخ منها:

فقال عكرمة: هو كلُّ مَن انْسَلَخَ من الحقِّ بعد أن أُعطيه من اليهود والنصارى والحُنَفاء(٣).

---

(١) السبعة ص٢٩٨، والتيسير ص١١٤.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٦.

(٣) زاد المسير ٣/ ٢٨٨، وأخرجه بنحو ابن أبي حاتم ٥/ ١٦١٨، وروي عنه خلافه، فقد أخرج الطبري ١٠/ ٥٦٩ عن عكرمة قال: هو بَلْعام. وفي رواية: هو بَلْعَم.

وقال عُبادةُ بنُ الصَّامت: هم قريشٌ أتتهم أوامرُ الله ونواهيهِ والمعجزاتُ فانسلخوا من الآيات ولم يقبلوها[١].

فعلى هذين القولين يكون «الذي» مفردًا أريد به الجمع.

وقال الجمهور: هو شخصٌ معيَّنٌ؛ فقيل: هو بَلْعَم. وقيل: هو بَلْعَام. وهو رجلٌ من الكنعانيين أُوتي بعضَ كتب الله. وقيل: كان يعلم اسمَ الله الأعظمَ.

واختُلف في اسم أبيه، فقال ابن مسعود: هو أَبْرَه[٢]. وقال ابن عباس باعوراء[٣]. وقال مجاهد والسدي: باعرويه[٤].

رُوي أنَّ قومه طلبوا إليه أن يَدْعُوَ على موسى ومَن معه، فأبى وقال: كيف أدعو على مَن معه الملائكة؟ فألَحُّوا عليه حتى فعل[٥].

وقد طوَّل المفسرون في قصته وذكروا ما اللهُ أعلم به.

وقيل: هو رجلٌ من علماء بني إسرائيل. قال ابن مسعود: بعثه موسى عليه السلام نحو مدين داعيًا إلى الله وإلى شريعته، وعلَّمه من آيات الله ما يدعو به، فكان مُجابَ الدعوة، فلمَّا فارق دينَ موسى سلخ الله منه الآيات[٦].

وقيل: اسمه ناعم، كان في زمن موسى، وكان بحيت اسم بلد كان إذا نظر[٧] رأى العرش، وكان في مجلسه اثنا عشر ألفَ محبرة للمتعلِّمين يكتبون عنه، وهو أولُ مَن صنَّف كتابًا أنَّه ليس للعالَم صانعٌ.

---

(١) تفسير الثعلبي ٣/ ٩٦، وتفسير القرطبي ٩/ ٣٨٥.

(٢) تفسير الثعلبي ٣/ ٦٣، وأسباب النزول للواحدي ص٢٢٣، وأخرجه الطبري ١٠/ ٥٦٧-٥٦٨ بلفظ: ابن أَبَرَ، وفي رواية: ابن أَبُرَ، بضم الباء.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص٢٢٣، وتفسير البغوي ٢/ ٢١٣، وأخرجه الطبري ١٠/ ٥٦٧ بلفظ: باعرا، و١٠/ ٥٧٣ بلفظ: باعر. وأخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٦١٧ بلفظ: باعورة.

(٤) لم أقف عليه، وأخرج الطبري عن مجاهد قال: بلعام بن باعر.

(٥) الكشاف٢/ ١٣٠، وأخرجه مطولاً الطبري ١٠/ ٥٧٩-٥٨١ عن سالم أبي النضر قوله، وأخرج نحوه ١٠/ ٥٧٥ عن ابن عباس موقوفاً.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٦ بنحوه. وأخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٦١٨ عن مالك بن دينار.

(٧) كذا وقعت العبارة في النسخ، والذي في تفسير القرطبي ٩/ ٣٨٣ (والكلام منه): وكان بحيث إذا نظر. . .، ولم أقف على الخبر عند غيره.

وقيل: هو رجلٌ من بني إسرائيل أُعطي ثلاثَ دعوات مستجابة يدعو بها في مصالح العباد، جعلها كلَّها لامرأته، وكانت قبيحةً، فسألته فدعا الله فجعلها جميلةً ففَرِكَتْه، فدعا الله عليها فصارت كلبةً نبَّاحةً، وكان له منها بنونَ فتضرَّعوا إليه فدعا الله فصارت إلى حالتها الأولى[(١)].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وابنُ المسيِّب وزيد بنُ أَسْلَمَ وأبو رَوْقٍ: هو أمية بنُ أبي الصلت الثقفي، قرأ الكتبَ وعلم أنه سيُبعَثُ نبيٌّ من العرب، ورجا أن يكون إياه، وكان يَنْظُمُ الشعرَ في الحِكَم والأمثال، فلمَّا بُعث الرسول ﷺ حَسَده، ووفد على بعض الملوك، ورُوي أنه جاء يريد الإسلام، فوصل إلى بدر بعد الوقعة بيومٍ أو نحوِه، فقال: مَن قَتَلَ هؤلاء؟ فقيل: محمد. فقال: لا حاجة لي بدينِ مَن قتلَ هؤلاء. فارتدَّ ورجع، وقال: الآن حلَّت لي الخمرُ، وكان قد حرَّم الخمر على نفسه، فلحق بقومٍ من ملوك حمير فنادمهم حتى مات، وقَدِمَتْ أختُه فارعةُ على رسول الله ﷺ واستَنْشَدَها من شعره، فأنشدته عدَّةَ قصائد، فقال ﷺ: «آمن شعرُه وكفر قلبُه»، وهو الذي قال فيه تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾[(٢)].

وقال سعيد بن المسيب أيضًا: هو أبو عامر بن النعمان بن صيفي[(٣)] الراهب، سمَّاه رسولُ الله ﷺ: الفاسق، وكان ترهَّب في الجاهلية ولبس المُسُوح، وهو الذي

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٦١٧ من طريق عكرمة عن ابن عباس ﵄، وأورده الواحدي في أسباب النزول ص٢٢٣-٢٢٤ عن عكرمة. وقوله: ففرِكته، أي: أبغضته، ووقع بدلا منها في (د١) والمطبوع: فمالت إلى غيره. وسقطت من (أ) و(ع).

(٢) تنظر القصة في عرائس المجالس للثعلبي ص٢٤١-٢٤٢، وتفسير الثعلبي ٣/ ٩٥-٩٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٧٧، وتفسير القرطبي ٩/ ٣٨٤. والحديث المرفوع أخرجه باللفظ المذكور ابن عبد البر في التمهيد ٤/ ٧، وأخرج مسلم (٢٢٥٥) من حديث الشريد بن سويد أن النبي ﷺ قال: «فلقد كاد يُسْلم من شعره».

(٣) كذا في تفسير الثعلبي ٣/ ٩٦، وعرائس المجالس ص٢٤٢، ومجمع البيان ٩ (تتمة)/ ٦٥، وقد ذكر أهل السير في اسمه أنه أبو عامر عبد عمرو - ويقال: عمرو - بن صيفي بن النعمان، وهو والد الصحابي حنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة. ينظر سيرة ابن هشام ١/ ٥٨٤-٥٨٥، وطبقات ابن خياط ص٢٣٦، والاستيعاب ٣/ ٩٢، وسير أعلام النبلاء ٣/ ٣٢١، والإصابة ٢/ ٢٨٩.

بَنَى له المنافقون مسجدَ الضِّرار، جرت بينه وبين النبيِّ ﷺ محاورةٌ فقال أبو عامر: أماتَ الله الكاذبَ منَّا طريدًا وحيدًا، وأرسل إلى المنافقين أن استعدُّوا بالقوة والسلاح، ثم أتى قيصرَ واستجاشَه ليُخرِجَ الرسول ﷺ وأصحابَه من المدينة، فمات بالشام طريدًا شريدًا وحيدًا.

وقيل غيرُ هذا، والأَوْلَى في مثل هذا إذا ورد عن المفسِّرين أن تُحمل أقاويلُهم على التمثيل لا على الحصر في معيَّنٍ، فإنه يؤدِّي إلى الاضطراب والتناقُض.

والخلافُ في «آياتنا»[(١)] مترتِّبٌ على مَن عُني بـ«الذي آتيناه»: أذلك اسمُ الله الأعظم، أو الآياتُ مِن كتب الله، أو حججُ التوحيد، أو من آيات موسى، أو العلم بمجيء الرسول؟

والانسلاخُ من الآيات مبالغةٌ في التبرِّي منها والبعدِ، أي: لم يَعْمَلْ بما اقتضته نعمتُنا عليه من إتيانه آياتنا، جُعِلَ كأنه كان مُلْتبِسًا بها كالثوب فانسلخ منها، وهذا مِن إجراء المعنى مُجرى الجَزْم. وقولُ مَن قال: إنه من المقلوب، أي: انسلخت الآياتُ منه لا ضرورة تدعو إليه.

وقال سفيان: إنَّ الرجل ليُذْنِبُ ذنبًا فينسى بابًا من العلم[(٢)].

وقرأ الجمهور: «فأتبعه الشيطان» مِن أَتْبَعَ رباعيًّا، أي: لَحِقه وصار معه، وهي مبالغةٌ في حقِّه إذ جُعل كأنه هو إمامٌ للشيطان يَتْبعه، وكذلك ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠] أي: عَدَا وراءه. قال القُتَبيُّ: تَبِعَه مِن خَلْفِه، وأتبعه: أدركَه ولحقه، كقوله: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠] أي: أدركوهم[(٣)].

فعلى هذا يكون متعدِّيًا إلى واحدٍ، وقد يكون «أَتْبَع» متعدِّيًا إلى اثنين، كما قال تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ ذُرِّيَّتَهُم بِإِيمَٰنٍ﴾[(٤)] [الطور: ٢١] فيقدَّر هذا: فأتْبعَه الشيطانُ خطواتِه،

---

(١) في النسخ والمطبوع عدا (د١): آتيناه آياتنا، والمثبت من (د١).
(٢) لم أقف عليه عن سفيان، وورد قطعة من حديث مرفوع أورده الديلمي في الفردوس ١/ ٣٨٣ عن ابن مسعود رضي الله عنه.
(٣) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١٧٤ و٣١٧.
(٤) هذه قراءة أبي عمرو كما في السبعة ص٦١٢، والتيسير ص٢٠٣.

أي: جَعَله الشيطانُ يَتْبَعُ خطواته، فتكون الهمزةُ فيه للتعدِّي؛ إذ أصلُه: تبع هو خطواتِ الشيطان.

وقرأ طلحةُ بخلافٍ، والحسنُ فيما روى عنه هارون: «فاتَّبَعه» مشدَّدًا[1] بمعنى تَبِعه. قال صاحب كتاب «اللوامح»: بينهما فُرَيْقٌ، وهو أن «تَبعه»: إذا مشى في أثره، وأتبعه: إذا وازاه مشيًا، فأمَّا «فأَتْبَعَهُ» بقطع الهمزة فممَّا يتعدَّى إلى مفعولين؛ لأنه منقولٌ مِن «تَبِعه»، وقد حُذف في العامَّة أحدُ المفعولين.

وقيل: «فأتبعه» بمعنى: اسْتَتْبَعه، أي: جَعَله له تابعًا فصار له مطيعًا سامعًا.

وقيل: معناه: تبعه شياطين[2] الإنس أهل الكفر والضلال.

«فكان من الغاوين» يحتمل أن تكونَ «كان» باقيةً للدلالة على مضمون الجملة واقعًا في الزمان الماضي، ويحتمل أن تكون بمعنى «صار»، أي: صار من الضالين الكافرين.

قال مقاتل: من الضالين.

وقال الزجَّاج: من الهالكين الفاسدين[3].

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: ولو أردنا أن نشرِّفَه ونرفعَ قَدْرَه بما آتيناه من الآيات لفعلنا «ولكنه أخلد إلى الأرض»، أي: تَرامَى إلى شهوات الدنيا ورَغِبَ فيها واتَّبع ما هو ناشئٌ عن الهوى.

وجاء الاستدراكُ هنا تنبيهًا على السبب الذي لأجله لم يُرْفَعْ ولم يُشَرَّفْ كما فُعِلَ بغيره ممَّن أُوتي الهدى فآثره واتَّبعه.

و«أَخْلَد» معناه: رمى بنفسه إلى الأرض، أي: إلى ما فيها من الملاذِّ والشهوات، قال معناه ابنُ عباسٍ ومجاهدٌ والسدِّي[4].

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٧.
(٢) في (د٣) و(يه): وشياطين.
(٣) القولان في زاد المسير ٣/ ٢٨٩، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٢/ ٣٩١.
(٤) أخرج أقوالهم الطبري ١٠/ ٥٨٤.

ويحتمل أن يريد بقوله: «أخلد إلى الأرض»، أي: مال إلى السَّفالة[١] والرَّذالة، كما يقال: فلانٌ في الحضيض، عبارةً عن انحطاطِ قَدْرِه بانسلاخِه من الآيات، قال معناه الكرمانيُّ.

قال أبو روق: غلب على عقله هواهُ فاختار دنياه على آخرته[٢].

وقال قوم معنى «لرفعناه بها»: لأَخَذْناه، كما تقول: رُفع الظالم: إذا هَلك، والضمير في «بها» عائدٌ على المعصية في الانسلاخ، وابتُدِئَ وصفُ حاله بقوله: «ولكنه أخلد»[٣].

وقال ابنُ أبي نَجيح «لرفعناه»: لتوفَّيناه قبل أن يقع في المعصية ورفعناه عنها[٤]. والضمير للآيات، ثم ابتدئ وصفُ حاله.

والتفسير الأولُ هو الأظهر وهو مرويٌّ عن ابن عباس وجماعةٍ[٥]، ولم يَذْكر الزمخشريُّ غيرَه[٦]، وهو الذي يقتضيه الاستدراكُ؛ لأنه على قول الإهلاك بالمعصية أو التوفي قبل الوقوع فيها لا يَتَّضِحُ معنى الاستدراك.

والضمير في «لرفعناه» في هذه الأقوال عائدٌ على الذي أوتي الآيات وإن اختلفوا في الضمير في «بها» على ما يعود.

وقال قوم: الضمير في «لرفعناه» عائدٌ على الكفر المفهوم ممَّا سبق، وفي «بها» عائدٌ على الآيات، أي: ولو شئنا لرفعنا الكفرَ بالآيات، وهذا المعنى رُوي عن مجاهد[٧]، وفيه بعدٌ وتكلُّفٌ.

قال الزمخشري: فإن قلتَ: كيف علَّق رَفْعُه بمشيئة الله تعالى ولم يعلَّق بفعله الذي يستحقُّ به الرفع؟ قلت: المعنى: ولو لزمَ العملَ بالآيات ولم ينسلخْ منها

---

(١) من (ب) و(د٣) و(يه): السفاهة.

(٢) ذكره الثعلبي ٣/ ٩٧ مختصراً بلفظ: اختار الدنيا على الآخرة.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٨، وزاد: فهي عبارة عن إمهاله وإملاء الله له.

(٤) المصدر السابق، وما بعده هو من كلام ابن عطية في شرحه لهذا القول.

(٥) المصدر السابق.

(٦) الكشاف ٢/ ١٣٠.

(٧) تفسير الطبري ١٠/ ٥٨٢-٥٨٣.

لرفعناه بها، وذلك أنَّ مشيئة الله تعالى رفعَه تابعةٌ للزومه الآيات، فذَكَر المشيئةَ والمرادُ ما هي تابعةٌ له ومسبَّبةٌ عنه، كأنه قيل: ولو لَزِمَها لرفعناه بها، ألا ترى إلى قوله: «ولكنه أَخْلَد إلى الأرض» فاستدرك المشيئةَ بإخلاده الذي هو فعلُه، فوجب أن يكون «ولو شئنا» في معنى ما هو فعلُه، ولو كان الكلامُ على ظاهره لوجب أن يقال: ولو شئنا لرفعناه ولكنَّا لم نشأ[(١)]. انتهى، وهو على طريقة الاعتزال.

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ أي: فصِفَتُه إنْ تَحمِلْ عليه الحكمةَ لم يَحْمِلها، وإنْ تَرَكْتَه لم يَحْمِلْها، كصفة الكلب: إن كان مطرودًا لَهَثَ، وإن كان رابضًا لَهَثَ، قاله ابن عباس[(٢)].

وقيل: شبَّه المتهالكُ على الدنيا في قلقه واضطرابِه على تحصيلها، ولزومِه ذلك، بالكلب في حالته هذه التي هي ملازِمةٌ له حالةَ تهيجه وتَرْكِه، وهي كونُه لا يزال لاهثًا، وهي أخسُّ أحواله وأرذلُها، كما أنَّ هذا المتهالِكَ على الدنيا لا يزال تَعِبًا قلقًا في تحصيلها.

قال الحسن: هو مَثَلُ المنافق لا يُنيب إلى الحقِّ دُعي أو لم يُدْعَ، أُعْطِي أو لم يُعْطَ، كالكلب يلهثُ طردًا وتركًا[(٣)]. انتهى.

وفي كتاب «الحيوان»: دلت الآية على أن الكلب أخسُّ الحيوان وأذلُّه؛ لضَرْب المَثَل في الخسَّة به في أخسِّ أحواله، ولو كان في جنس الحيوان ما هو أخسُّ من الكلب ما ضُرِبَ المَثَلُ إلا به[(٤)].

قال ابن عطية: وقال الجمهور: إنما شبه في أنه كان ضالًّا قبل أن يؤتَى الآيات ثم أُوتيها [فكان] أيضًا ضالًّا لم تنفعه، فهو كالكلب في أنه لا يفارق اللهثَ في حالِ حَمْلِ المشقَّة عليه أو تركِه دون حملٍ عليه[(٥)].

---

(١) الكشاف ٢/ ١٣٠-١٣١.
(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٨٧، وفيه بدل «وإن تركته لم يحملها»: وإن ترك لم يهتد لخير.
(٣) تفسير الثعلبي ٣/ ٩٨، وفيه بدل: «أُعطي أو لم يُعط»: وُعظ أو لم يُوعظ.
(٤) لم أقف عليه بهذا السياق، وينظر كتاب الحيوان ٤/ ٣٨.
(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٨، وما بين حاصرتين منه.

وقال السدِّي وغيره: هذا الرجلُ خرج لسانُه على صدره وجَعَلَ يلهثُ كما يلهثُ الكلب[١].

وقال الزمخشري[٢]: وكان حقُّ الكلام أن يقال: ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض فحطَطْناه ووضَعْنا منزلتَه، فوقع قولُه: «فمثله كمَثَل الكلب» موضعَ[٣] فحطَطْناه أبلغَ حطٍّ؛ لأن تمثيله بالكلب في أخسِّ أحواله وأذلِّها في معنى ذلك. انتهى.

وفي قوله: وكان حقُّ الكلام... إلى آخره، سوءُ أدبٍ على كلام الله تعالى، وأما قولُ: فوقع قولُه: «فمَثَلُه»... إلى آخره، فليس واقعًا موقع ما ذَكَر، لكن قوله: «ولكنَّه أَخْلَدَ إلى الأرض» وقع موقع: فحطَطْناه، إلَّا أنه تعالى لمَّا ذكر الإحسان إليه أسند ذلك إلى ذاته الشريفةِ فقال: «آتيناه آياتنا» «ولو شئنا لرفعناه بها»، ولمَّا ذكر ما هو في حقِّ الشخص إساءةٌ أسنده إليه فقال: «فانْسَلَخ منها»، وقال: «ولكنه أَخْلَد إلى الأرض»، والله تعالى في الحقيقة هو الذي سلخه من الآيات وأَخْلَده إلى الأرض، فجاء على حدِّ قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ﴾ [الكهف: ٨٢] في نسبة ما كان حَسَنًا إلى الله ونسبةِ ما كان بخلافه إلى الشخص.

وهذه الجملةُ الشرطيةُ في موضع الحال، أي: لاهثًا في الحالتين؛ قاله الزمخشريُّ وأبو البقاء[٤].

وقال بعضُ شرَّاح كتاب «المصباح»[٥]: وأمَّا الشرطيةُ فلا تكاد تقع بتمامها موضعَ الحال، فلا يقال: جاءني زيدٌ إنْ يسألْ يُعْطَ، على الحال، بل لو أُريد ذلك لجُعِلَت الجملةُ الشرطيةُ خبرًا عن ضمير ما أُريدَ الحالُ عنه، نحو: جاء زيدٌ وهو إنْ

(١) أخرجه بنحوه الطبري ١٠/٥٨٨.
(٢) في الكشاف ٢/١٣١.
(٣) في (د١) والمطبوع: موقع. وجاء في الكشاف: فوضع قوله: فمثله... موضع.
(٤) الكشاف ٢/١٣١، والإملاء ١/٢٨٩.
(٥) لعله: المصباح في النحو، لناصر الدين المطرِّزي النحوي المتوفى سنة (٦١٠هـ)، وعليه شروح كثيرة. ينظر كشف الظنون ٢/١٧٠٨.

يسأل يُعْطَ، فيكون الواقعُ موقعَ الحال هو الجملة الاسمية لا الشرطية، نعم قد أوقعوا الجُمَلَ المصدَّرة بحرف الشرط موقعَ الحال ولكن بعد ما أخرجوها عن حقيقة الشرط، وتلك الجملةُ لم تَخلُ من أن يُعْطَفَ عليها ما يناقِضُها أو لم يعطف؛ والأولُ تركُ الواو مستمرٌّ فيه، نحو: أتيتُكَ إنْ أتيتني وإنْ لم تأتني، إذ لا يَخْفَى أنَّ النقيضين من الشرطين في مِثْلِ هذا الموضع لا يبقيان على معنى الشرط، بل يتحوَّلان إلى معنى التسويةِ، كالاستفهامين المتناقضين في قوله: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦، ويس: ١٠]، وأمَّا الثاني: فلا بدَّ فيه من الواو، نحو: أتيتُك وإنْ لم تأتني، ولو ترك الواو لالْتَبَس بالشرط حقيقةً. انتهى.

فقوله: «إنْ تَحْمِلْ عليه يَلْهَثْ أو تَتْرُكه يَلْهَثْ» من قَبيل الأول؛ لأنَّ الحملَ عليه والتركَ نقيضان.

﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: ذلك الوصفُ وصفُ الذين كذَّبوا بآياتنا، صفتُهم كصفةِ الكلب لاهثًا في الحالتين، فكما شبَّه وصفُ المؤتى الآياتِ المنسلخِ منها بالكلب في أخسِّ حالاته، كذلك شبَّه به المكذِّبون بالآيات حتى أُوتُوها وجاءتهم واضحاتٍ تقتضي التصديقَ بها، فقابَلوها بالتكذيب وانْسَلَخوا منها.

واحتمل «ذلك» أن يكون إشارةً لمثَلِ المنسلخِ، وأن يكون إشارةً لوصف الكلب.

واحتمل أن تكونَ أداةُ التشبيه محذوفةً من «ذلك»، أي: صفةُ ذلك صفةُ الذين كذَّبوا، واحتمل أن تكون محذوفةً من «مَثَل القوم»، أي: ذلك الوصفُ ـ وصفُ المنسلخ أو وصفُ الكلب ـ كَمَثَل الذين كذَّبوا، ويكون أبلغَ في ذمِّ المكذِّبين حيث جُعلوا أصلًا وشبِّه بهم.

قال ابن عطية: أي: هذا المَثَلُ يا محمدُ مَثَلُ هؤلاء القوم الذين كانوا ضالِّين قبل أن تأتيهم بالهدى والرسالة، ثم جئتهم بذلك فبَقُوا على ضلالهم ولم ينتفعوا بذلك، فمَثَلُهم كَمثَلِ الكلب[(١)].

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٨.

وقال الزمخشريّ(١): «كذبوا بآياتنا» من اليهود بعد ما قرؤوا نَعْتَ(٢) رسول الله ﷺ في التوراة، وذِكْرَ القرآنِ المعجزِ وما فيه، وبشَّروا الناسَ باقتراب مَبْعَثِه، وكانوا يَسْتَفْتِحون به.

وقال ابن عباس: يريد كفارَ مكة؛ لأنهم كانوا يتمنَّوْن هاديًا يهديهم، وداعيًا يَدْعُوهم إلى طاعة الله، ثم جاءهم مَن لا يُشَكُّ في صدقه وديانته(٣) ونبوَّتِه فكذَّبوه، فحصَلَ التمثيلُ بينهم وبين الكلب الذي إنْ تَحْمِلْ عليه يَلْهَثْ أو تتركه يَلْهَثْ؛ لأنهم لم يَهْتدوا لمَّا تُركوا ولم يهتدوا لمَّا جاءهم الرسولُ، فبَقُوا على الضلال في كلِّ الأحوال، مِثْلَ الكلب الذي يلهثُ على كلِّ حالٍ. انتهى.

وتَلَخَّصَ: أهؤلاء القومُ المكذِّبون بالآيات عامٌّ، أم خاصٌّ باليهود، أم بكفارِ مكة؛ أقوالٌ ثلاثة، والأظهرُ العموم.

﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦﴾ أي: فاسْرُدْ أخبارَ القرون الماضيةِ كخبر بلعام، أو مَن فُسِّر به المنسلِخُ؛ إذ هو من القَصَص الذي لا يعلَمُه إلَّا مَن دَرَسَ الكتبَ، إذ هو من خفيِّ أخبارهم، ففي إخبارِكَ بذلك أعظمُ معجِزٍ، لعلهم يتفكَّرون فيما جرى على المكذِّبين فيكون ذلك عِبرةً لهم ورادِعًا عن التكذيب، وأن يكونوا أخبارًا شنيعةً تُقَصُّ كما قُصَّ خبرُ ذلك المنسلِخ.

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ «ساء» بمعنى: بئس، وتقدَّم لنا أنَّ أصلَها التعدِّي، تقول: ساءني الشيءُ يَسُوءُني، ثم لمَّا استُعْمِلت استعمال «بئس» بُنِيت على «فَعُلَ»، وجَرَتْ عليها أحكامُ «بئس»(٤)، و«مَثَلًا» تمييزٌ للمُضمَر المستكِنِّ في «ساء» فاعلًا، وهو مفسَّرٌ بهذا التمييز، وهو من الضمائر التي يفسِّرُها ما بعدها، ولا يثنَّى

---

(١) في الكشاف ٢/ ١٣١.

(٢) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: بعثة، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الكشاف.

(٣) في (د١): وأمانته، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في تفسير الرازي ١٥/ ٥٧، والكلام منه.

(٤) ينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٤٩]، وقوله: ﴿فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨]، وقوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

ولا يُجْمَعُ، هذا(١) مذهب البصريين، وعن الكوفيين خلافٌ مذكورٌ في النحو.

ولا بدَّ أن يكون المخصوصُ بالذمِّ من جنس التمييز، فاحتيج إلى تقديرِ حذفٍ: إمَّا في التمييز، أي: ساء أصحابُ مَثَلِ القوم، وإمَّا في المخصوص، أي: ساء مَثَلًا مَثَلُ القوم.

وهذه الجملةُ تأكيدٌ للجملة السابقة.

وقال أبو عبد الله الرازي: ظاهرُه يقتضي أن يكون ذلك المَثَلُ موصوفًا بالسوء، وذلك غيرُ جائزٍ؛ لأنَّ هذا المَثَلَ ذكره الله تعالى فكيف يكون موصوفًا بالسوء؟ فوَجَبَ أن يكون الموصوفُ بالسوء ما أفاده المَثَلُ من تكذيبهم بآيات الله وإعراضِهم عنها، حتى صاروا في التمثيل بذلك بمنزلة الكلب اللاهثِ(٢). انتهى.

وليس كما ذَكَر، ليس هنا ضَرْبُ مَثَلٍ، والمَثَلُ لفظٌ مشتَرَكٌ بين الوصف وبين ما يُضْرَبُ مثلًا، والمرادُ هنا الوصفُ، فمعنى «فَمَثَلُه كَمَثَلِ الكلب»، أي: وَصْفُه وصفُ الكلب، وليس هذا من ضَرْبِ المَثَلِ، بل(٣) كما قال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧] أي: صِفَتُهم كصِفَةِ الذي اسْتَوْقَد، وكقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥] أي: صِفَتُها، وإذا تَقرَّرَ هذا فقولُه: «ساء مثلًا» معناه: بئس وَصْفًا، فليس مِن ضَرْبِ المثل في شيءٍ.

وقرأ الحسن وعيسى بن عمر والأعمش: «ساء مَثَلُ» بالرفع «القومِ» بالخفض(٤)، واختُلف على الجحدريِّ فقيل: كقراءة الأعمش، وقيل: بكسر الميم وسكونِ الثاء وضمِّ اللام مضافًا إلى «القوم»(٥).

والأحسنُ في قراءة رفع المثل أن يُكْتَفَى به ويُجْعَلَ من باب التعجُّب، نحو: لَقَضُوَ الرجلُ، أي: ما أسوأ مَثَلَ القوم.

---

(١) في (د١) والمطبوع: على.

(٢) تفسير الرازي ١٥/٥٨.

(٣) كلمة: بل، من (د١) والمطبوع، وليست في باقي النسخ.

(٤) القراءات الشاذة ص٤٧ عن الجحدري والأعمش.

(٥) المحرر الوجيز ٢/٤٧٩.

ويجوز أن يكون كـ«بئس» على حذف التمييز على مذهب مَن يُجيزه، التقدير: ساء مثلًا[(١)] مَثَلُ القوم[(٢)]، أو على أن يكون المخصوصُ «الذين كذَّبوا» على حذف مضافٍ، أي: بئسَ مَثَلُ القوم مَثَلُ الذين كذَّبوا، فيكون «الذين» مرفوعًا إذا قام مقام «مَثَلُ» المحذوف[(٣)]، لا مجرورًا صفةً لـ«القوم» على تقديرِ حذفِ التمييز.

﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ يحتملُ أن يكون معطوفًا على الصلة، ويحتملُ أن يكون استئنافَ إخبارٍ عنهم بأنهم كانوا يظلمون أنفسَهم، والزمخشريُّ[(٤)] على طريقته في أنَّ تقديم المفعول يدلُّ على الحصر، فقدَّره: وما ظلموا إلَّا أنفسَهم بالتكذيب، قال: وتقديمُ المفعول به لاختصاصٍ[(٥)]، كأنه قيل: وخَصُّوا أنفسَهم بالظلم لم يتعدَّ[(٦)] إلى غيرها.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ لمَّا تقدَّم ذكرُ المهتدين والضالِّين أخبر تعالى أنه هو المتصرِّفُ فيهم بما شاء من هدايةٍ وضلالٍ، وتَقرَّرَ من مذهب أهل السُّنةِ أنه تعالى هو خالقُ الهداية والضلال في العبد، وللمعتزلة في هذا ونظائرِه تأويلاتٌ:

قال الجبَّائيُّ، وهو اختيارُ القاضي[(٧)]: مَن يَهْدِ اللهُ إلى الجنة والثواب في الآخرة فهو المهتدي في الدنيا، السالك طريقَ الرشد فيما كُلِّف فبيَّنَ أنه لا يهدي إلى الثواب في الآخرة إلَّا مَن هذا وَصْفُه، ومَن يُضْلِلْه عن طريق الجنة فأولئك هم الخاسرون.

(١) كلمة: مثلاً من (أ) و(ز١) و(ع).
(٢) وقوله: «مَثَلُ القوم» على هذا الوجه هو المخصوص بالذم، ولم يذكر السمين هذا الوجه في نقله لكلام المصنف.
(٣) وقوله: «مَثَلُ القوم» على هذا الوجه هو الفاعل، وقد وهم السمين رحمه الله فنقل عن المصنف أنه قدَّر تمييزًا في هذا الوجه، وليس كما ذكر. ينظر الدر المصون ٥/ ٥١٨. وقد نقل الآلوسي في روح المعاني ٩/ ٤٨٤ كلام السمين، ولم ننبه على الوهم ثمة، فليستدرك من هنا.
(٤) في الكشاف ٢/ ١٣١.
(٥) في مطبوع الكشاف: للاختصاص.
(٦) في مطبوع الكشاف: يتعدها.
(٧) هو القاضي عبد الجبار المعتزلي، والكلام من تفسير الرازي ١٥/ ٥٨.

وقال بعضهم: في الكلام حذفٌ، أي: مَن يَهْدِ الله فيَقْبَلُ ويهتدي بهداه فهو المهتدي، ومَن يُضْلِلْ بأنْ لم يَقْبَلْ فهو الخاسرُ.

وقال بعضهم: المراد: مَن وَصَفَه اللهُ بأنه مهتدٍ فهو المهتدي؛ لأنَّ ذلك مدحٌ، ومدحُ الله لا يَحْصُلُ إلَّا في حقِّ مَن كان موصوفًا بذلك، «ومَن يُضْلل»، أي: ومَن يَصِفُه بكونه ضالًّا فهو الخاسر.

وقال بعضهم: مَن آتيناه الألطافَ وزيادةَ الهدى فهو المهتدي، ومَن يُضللْ عن ذلك لمَا تقدَّمَ منه بسوءِ اختيارِه فأخرج لهذا السببِ تلك الألطافَ من أن تؤثِّر فيه، فهو الخاسرُ.

وهذه التأويلاتُ كلُّها متكلَّفةٌ بعيدةٌ، وظاهرُ الآيةِ يردُّ على القَدَرية والمعتزلة.

و«فهو المهتدي» حَمْلٌ على لفظ «مَن»، و«فأولئك هم الخاسرون» حملٌ على معنى «مَن»، وحسَّنه كونُه فاصلةً رأسَ آيةٍ.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ هذا إخبارٌ منه تعالى بأنه خَلَقَ لجهنم كثيراً من الصِّنفين.

ومناسَبةُ هذا لما قبلَه: أنه لمَّا ذَكَر أنه هو الهادي وهو المُضِلُّ أعقبه بذكرِ مَن خُلق للخُسْران وللنارِ، وذكَرَ من أوصافهم ما ذَكَر، وفي ضِمْنِه وعيدُ الكفار، والمعنى: لعذاب جهنم، واللامُ للصيرورة على قولِ مَن أثبت لها هذا المعنى، أو لمَّا كان مآلُهم إليها جُعِلَ ذلك سببًا على جهة المجاز، وقد ردَّ ابنُ عطيةَ قولَ من زعم أنها للصيرورة؛ فقال: وليس هذا بصحيحٍ، ولامُ العاقبة إنما يُتَصوَّر إذا كان فعلُ الفاعل لم يَقْصِدْ به ما يَصيرُ الأمرُ إليه، وأمَّا هنا فالفعلُ قُصِدَ به ما يَصيرُ الأمرُ إليه من سُكناهم بجهنم(١). انتهى.

وإنما ذَهَبَ مَن ذهب إلى أنَّها لامُ العاقبة والصيرورةِ لأنه قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فإثباتُ كونها للعلَّة ينافي قولَه: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وأنشدوا دليلًا على إثبات معنى الصيرورة للَّام قولَ الشاعر:

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٧٩. وجاء في (د١) والمطبوع: لجهنم، وفي المحرر: جهنم.

أَلَا كُلُّ مولودٍ فلِلْموت يُوْلَدُ ولستُ أرى حيًّا لحيٍّ يُخلَّدُ[(١)]

وقولَ الآخَر:

فلِلْموتِ تَغْذُو الوالداتُ سِخالَها كما لخراب الدَّهر تُبْنَى المساكنُ[(٢)]

ودعوى القَلْبِ فيه، وأنَّ تقديره: ولقد ذرأنا جهنَّمَ لكثيرٍ، غيرُ سديدٍ لأنَّ القلب لا يكون إلا في الشعر على الصحيح.

ولفظةُ «كثير» لا تُشْعِرُ بالأكثر، ولكن ثبت في الحديث أنَّ بعث النار أكثر؛ لقول الله لآدم: «أَخْرِجْ بعثَ النار من ذرِّيتك» فأَخْرجَ من كلِّ ألفٍ تسعةً وتسعين وتسعَ مئةٍ[(٣)]. وهؤلاء المخلوقون لجهنم هم الذين طَبَعَ الله على قلوبهم فلا يتأتَّى منهم إيمانٌ البتةَ، وتفسير ابنِ جُبيرٍ أنهم أولادُ الزنا[(٤)] ليس بجيِّدٍ.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ لمَّا كانوا لا يتدبَّرون شيئًا من الآيات، ولا ينظرون إليها نظرَ اعتبارٍ، ولا يسمعونها سماعَ تفكُّرٍ، جُعلوا كأنهم فَقَدوا الفِقْهَ بالقلوب، والإبصارَ بالعيون، والسماعَ بالآذان، وليس المرادُ نفي هذه الإدراكاتِ عن هذه الحواسِّ، وإنما المرادُ نفيُ الانتفاع بها فيما طلب منهم من الإيمان، وقال مسكينٌ الدارميُّ:

أعمى إذا ما جارتي خَرَجَتْ حتى يواري جارتي السِّترُ

وأَصَمُّ عن ما كان بينهما عَمْدًا وما بالسَّمْع لي وَقْرُ[(٥)]

وفسَّر مجاهدٌ هذا فقال: لا يفقهون بها شيئًا من أمور الآخرة، ولا يُبْصِرون بها الهدى، ولا يسمعون بها الحقَّ[(٦)]. انتهى.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في بستان الواعظين ص١٤٣.

(٢) البيت لسابق البربري كما في العقد الفريد ٢/ ٦٩، وفقه اللغة للثعالبي ص٣٢٤، وشرح شواهد المغني للبغدادي ٤/ ٢٩٦، وهو دون نسبة في زاد المسير ٤/ ٥٦، وتفسير القرطبي ١٦/ ٢٣٥، وشرح التسهيل لابن مالك ٣/ ١٨، ومغني اللبيب ص٢٨٢. وجاء في بعض المصادر الدور، بدل: الدهر.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٤) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٩١.

(٥) سلف البيتان عند تفسير قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨].

(٦) أخرجه الطبري ١٠/ ٥٩٤.

وفي قوله: «لهم قلوبٌ لا يفقهون بها» دليلٌ على أنَّ القلب آلةٌ للفِقْه والعلمِ كما أنَّ العين آلةٌ للإبصار، والأذنَ آلةٌ للسماع.

وقال الزمخشريّ[1]: وجَعَلهم لإغراقهم في الكفر وشدَّةِ شكائمهم فيه وأنه لا يتأتّى منهم إلا أفعالُ أهل النار مخلوقين للنار؛ دلالةً على توغُّلهم في المُوْجِبات، وتمكُّنهم فيما يؤهِّلُهم لدخول النار، ومنه كتابُ عمر إلى خالد بن الوليد: بلغني أنَّ أهل الشام اتَّخذوا لك دلوكًا عُجِنَ بخمرٍ، وإنِّي لأظنُّكم آلَ المغيرة ذرءَ النار[2]. ويقال لمن كان عَرِيقًا في بعض الأمور: ما خُلِقَ فلانٌ إلا لكذا، والمرادُ وصفُ حالهم[3] في عظم ما أَقْدَموا عليه في تكذيب رسول الله ﷺ مع عِلْمِهم أنه النبيُّ الموعود، وأنهم من جملة الكثير الذين لا يكاد الإيمان يتأتّى منهم، كأنهم خُلقوا للنار. انتهى، وهو تكثيرٌ في الشرح.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ في عدم الفقه في العواقب، والنظرِ للاعتبار، والسماعِ للتفكُّر، ولا يهتمُّون بغير الأكل والشرب.

﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ قال الزمخشريّ: بل هم أضلُّ سبيلًا من الأنعام عن الفقه والاعتبارِ والتدبُّر، وقيل: الأنعامُ تُبْصِرُ منافعَها ومضارَّها فتلزمُ بعضَ ما تبصِرُه، وهؤلاء أكثرُهم يعلم أنه معاندٌ فيُقْدِم على النار[4].

وقال ابن عطية: حَكَم عليهم بأنهم أضلُّ لأنَّ الأنعام رُكِّب في بِنْيَتها وخِلْقَتها أنْ لا تفكّر في شيءٍ، وهؤلاء هم مُعَدُّون للفهم، وقد خُلقت لهم قُوًى يصرفونها، وأُعْطُوا طُرُقًا من النظر، فهم بغفلتهم وإعراضِهم يُلْحِقون أنفسَهم بالأنعام، فهم أضلُّ على هذا[5]. انتهى.

وقيل: هم أضلُّ لأنهم يَعْصون، والأنعامُ لا تَعْصي.

---

(١) في الكشاف ٢/ ١٣١-١٣٢.

(٢) رواه أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٣٢٨، والدلوك: ما يُدلك به البدن عند الاغتسال من طِيْبٍ أو غيره. التاج (دلك).

(٣) في (د١) والمطبوع: أحوالهم، وفي الكشاف: حال اليهود.

(٤) الكشاف ٢/ ١٣٢.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٠.

وقيل: الأنعام تعرِفُ ربَّها وتسبِّح له، والكفارُ لا يعرفونه ولا يَدْعونه، ورُوي: كلُّ شيءٍ أطوعُ لله من ابْنِ آدمَ[١].

وقال أبو عبد الرازي[٢]: الإنسانُ وسائرُ الحيوان متشارِكةٌ في قوى الطبيعة الغاذية والنامية والمولِّدة[٣]، وفي منافع الحواسِّ الخمس الظاهرةِ والباطنةِ، وفي أحوال التخيُّلِ والتفكُّر والتذكُّر، وإنما حَصَلَ الامتيازُ بين الإنسان وغيرِه بالقوة العقلية والفكرية التي تَهْديه إلى معرفة الحق لذاته، والخيرِ لأَجْلِ العملِ به، فلمَّا أَعْرَضَ الكفارُ عن أغراض[٤] أحوال العقل والفِكْر ومعرفةِ الحق والعملِ بالخير، كانوا كالأنعام، ثم قال: «بل هم أضلُّ» لأن الحيوانات لا قدرةَ لها على تحصيل الفضائل، والإنسانُ أُعطيَ القدرة على تحصيلها، ومَن أَعْرَضَ عن اكتساب الفضائل العظيمة مع القدرة على تحصيلها كان أخسَّ حالًا ممن لم يكتسِبْها مع العجز، فلهذا قال تعالى: «بل هم أضلُّ». انتهى.

وقيل: الأنعام تَفِرُّ إلى أربابها ومَن يقومُ بمصالحها، والكافرُ يهربُ عن ربِّه الذي أَنْعُمُهُ عليه لا تُحْصَى.

وقيل: الأنعام تَضِلُّ إذا لم يكن معها مرشدٌ، وقلَّما تَضِلُّ إذا كان معها، وهؤلاء قد جاءتهم الرسلُ وأُنزلت عليهم الكتبُ وهم يزدادون في الضلال. انتهى.

وأقول: هذا الإضرابُ ليس على جهة الإبطال للخبر السابقِ من تشبيههم بالأنعام، ولا يجوز أن تكون جهةُ المبالغة في الضلال هي جهةَ التشبيه؛ لأنه يؤدِّي إلى كذب أحد الخبرين، وذلك مستحيلٌ في حق الله تعالى، وكلامُ مَن تقدَّم من المفسِّرين يدل على أنه تعالى شبَّههم بالأنعام فيما ذكروا، وأنهم أضلُّ من الأنعام فيما وقع التشبيهُ فيه، وهو لا يجوز لِما ذكرناه، فالمعوَّلُ عليه أنَّ جهة التشبيه مخالِفةٌ لجهة المبالغة في الضلال، وأنَّ هذا الإضرابَ ليس على سبيل الإبطال

---

(١) تفسير الثعلبي ٣/ ٩٩.

(٢) تفسير الرازي ١٥/ ٦٤.

(٣) في النسخ عدا (د١): والمتولدة، والمثبت من (د١) والمطبوع، وهو الموافق لما في تفسير الرازي.

(٤) في مطبوع الرازي: عن اعتبار.

لمدلول الجملة السابقة، «بل هم أضلُّ» إضرابٌ دالٌّ على الانتقال من إخبارٍ إلى إخبارٍ، فالجملةُ الأولى شبَّههم بالأنعام في انتفاء منافع الإدراكات المؤدِّيةِ إلى امتثالِ ما جاءت به الرسلُ، والجملةُ الثانية أثبت[1] لهم المبالغةَ في ضلال طريقهم التي يسلكونها، فالموصوفُ بالمبالغة في الضلال طريقُهم، وحُذف التمييزُ، وتقديره: بل هم أضلُّ طريقًا منهم، ويبيِّن هذا قولُه تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ أي: في انتفاءِ السمع للتدبُّر والعقل، ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، أي: بل سبيلُهم أضلُّ، فالمحكوم عليه أولًا غيرُ المحكوم عليه آخِرًا، والمحكومُ به أيضًا مختلف.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ هذه الجملةُ بيَّن تعالى بها سببَ كونهم أضلَّ من الأنعام، وهو الغفلةُ، وقال عطاءٌ: عمَّا أعدَّ الله لأوليائه من الثواب ولأعدائه من العقاب[2].

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ قال مقاتل: دعا رجلٌ اللهَ تعالى في صلاته، ومرةً دعا الرحمن، فقال أبو جهل: أليس يزعمُ محمدٌ وأصحابُه أنهم يعبدون ربًّا واحدًا، فما بال هذا يدعو اثنين؟! فنزلت[3].

ومناسَبتُها لما قبلها أنه تعالى لمَّا ذكر أنه ذرأ كثيراً من الجنِّ والإنس للنار ذكر نوعًا منهم وهم الذين يُلْحِدون في أسمائه، وهم أشدُّ الكفار عِتِيًّا أبو جهل وأضرابُه.

وأيضًا لمَّا نبَّه على أنَّ دخول جهنم هو للغفلة عن ذكر الله، والمخلِّصُ من العذاب هو ذكرُ الله، أَمَر بذكر الله بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا، والقلبُ إذا غفل عن ذكر الله وأَقْبَلَ على الدنيا وشهواتها وقع في الحرص، وانتقل من رغبةٍ إلى رغبةٍ، ومن طلبٍ إلى طلبٍ، ومن ظلمةٍ إلى ظلمةٍ، وقد وجدنا ذلك بالذوق حتى

---

(١) في (د١) والمطبوع: أثبتت.
(٢) تفسير الرازي ٢/ ٦٥.
(٣) تفسير الثعلبي ٣/ ٩٩، وزاد المسير ٣/ ٢٩٢.

إنَّ أحدهم ليصلِّي الصلوات كُلَّها قضاءً في وقتٍ واحدٍ، فإذا انفتح على قلبه بابُ ذكر الله تعالى تخلَّص من آفات الغفلة، وامْتَثَل ما أَمَره الله به، واجْتَنَبَ ما نهى عنه.

قال الزمخشري: التي هي أحسنُ الأسماء؛ لأنها تدلُّ على معانٍ حَسَنَةٍ من تحميدٍ وتقديسٍ وغيرِ ذلك(١). انتهى.

فـ«الحسنى» هنا تأنيثُ الأحسن، ووُصِفَ الجمعُ الذي لا يَعْقِلُ بما يوصفُ به الواحدةُ، كقوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨] وهو فصيحٌ، ولو جاء على المطابَقة للجمع لكان التركيبُ: الحُسَنُ، على وزن الأُخَر، كقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤] لأنَّ جَمْعَ ما لا يعقل يُخْبَرُ عنه ويُوْصَفُ بجمع المؤنَّثات وإن كان المفردُ مذكَّرًا.

وقيل: «الحسنى» مصدرٌ وُصِفَ به.

قال ابن عطية: والأسماءُ هاهنا بمعنى التسميات إجماعًا من المتأوِّلين، لا يمكِنُ غيرُه(٢). انتهى.

ولا تحرير فيما قال؛ لأنَّ التسمية مصدرٌ، والمرادُ هنا: الألفاظُ التي تُطلَقُ على الله تعالى، وهي الأوصافُ الدالةُ على تغايُرِ الصفات لا تغايُر الموصوف، كما تقول: جاء زيدٌ الفقيهُ الشجاعُ الكريم، وكونُ الاسم الذي أَمر تعالى أن يُدْعَى به حسنًا هو ما قرَّره الشرع ونصَّ عليه في إطلاقه على الله، ومعنى «فادعوه بها»، أي: نادُوه بها، كقولك: يا اللهُ، يا رحمنُ، يا رحيمُ، يا مالكُ، وما أَشْبَهَ ذلك.

وقال الزمخشري: فسمُّوه بتلك الأسماء(٣) جَعَله من باب: دَعَوْتُ ابني عبدَ الله، أي: سمَّيته بهذا الاسم.

واختُلف في الاسم الذي يقتضي مدحًا خالصًا ولا تتعلَّقُ به شبهةٌ ولا اشتراكٌ إلَّا أنه لم يَرِدْ منصوصًا: هل يُطْلَقُ ويسمَّى الله تعالى به، فنصَّ القاضي أبو بكر

(١) الكشاف ٢/ ١٣٢، وفيه: ... من تمجيد وتقديس...
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٠.
(٣) الكشاف ٢/ ١٣٢.

الباقلاني على الجواز، ونصَّ أبو الحسن الأشعريُّ على المنع، وبه قال الفقهاء والجمهورُ، وهو الصوابُ[١].

واختلف أيضًا في الأفعال التي في القرآن كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥] ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠] هل يُطلق عليه منه تعالى اسم فاعِلٍ مقيَّدٍ بمتعلقه، فيقال: الله مستهزئٌ بالكافرين وماكرٌ بالذين يمكرون، فجوَّز ذلك فرقةٌ، ومنعت منه فرقةٌ، وهو الصوابُ، وأمَّا إطلاقُ اسم الفاعل بغيرِ قَيْدِه فالإجماعُ على منعه[٢].

وروى الترمذي في «جامعه»[٣] من حديث أبي هريرةَ النصَّ على تسعةٍ وتسعين اسمًا مسرودةً اسمًا اسمًا؛ قال ابنُ عطية[٤]: وفي بعضها شذوذٌ، وذلك الحديثُ ليس بالمتواتر ـ وإن كان قد قال فيه أبو عيسى: هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح وهو ثقةٌ عند أهل الحديث[٥] ـ وإنما المتواترُ منه قولُ النبيِّ ﷺ: «إنَّ للهِ تسعةً وتسعين اسمًا، مئةً إلا واحدًا، مَن أحصاها دخل الجنة» ومعنى «أحصاها»: عدَّها وحَفِظَها، وتضمَّن ذلك الإيمانَ بها، والتعظيمَ لها، والرغبة فيها، والعبرةَ في معانيها، وهذا حديثُ البخاري[٦]. انتهى، وتسميةُ هذا الحديث متواترًا ليس على اصطلاح الناس[٧] في المتواتر، وإنما هو خبرُ آحادٍ[٨].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٠، وينظر شرح المواقف للجرجاني ٨/ ٢١٠.
(٢) المصدر السابق.
(٣) برقم (٣٥٠٧).
(٤) في المحرر ٢/ ٤٨١.
(٥) سنن الترمذي، إثر الحديث المذكور، وقوله: وإن كان قد قال فيه أبو عيسى، إلى هذا الموضع ليس في المحرر الوجيز، لكن ذكره القرطبي ٩/ ٣٩١ ضمن كلام ابن عطية، وسياق المصنف مطابق لما في القرطبي.
(٦) أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٧) في (د١) والمطبوع: المحدثين.
(٨) ينظر فتح الباري ١١/ ٢١٤-٢١٥، وقد نفى ابن حجر أيضاً كونَ هذا الحديث متواتراً بعد أن نقل كلام ابن عطية في تواتره، ثم قال: بل غاية أمره أن يكون مشهوراً.

وفي بعض دعاء رسول الله ﷺ: «يا حنَّان يا منَّان» ولم يَرِدا في «جامع» الترمذي[(١)].

وقد صنَّف العلماء في شرح أسماء الله الحسنى، كأبي حامدٍ الغزالي[(٢)]، وأبي الحَكَم بنِ بَرَّجَان[(٣)]، وأبي عبد الله الرازي[(٤)]، وأبي بكر بن العربي[(٥)]، وغيرهم.

قال الزمخشري: ويجوز أن يراد: ولله الأوصافُ الحسنى، وهي الوصفُ بالعدل والخير والإحسان، وانتفاءِ شَبَه الخَلْقِ، فصِفُوه بها وذَروا الذين يُلْحِدون في صفاته، فيَصِفونه بمشيئة القبائح، وخَلْقِ الفحشاء والمنكَرِ، وبما يدخل في التشبيه كالرؤية ونحوِها[(٦)].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨١، والحديث المذكور أخرجه أحمد (١٣٤١١) عن أنس ﷺ، وإسناده ضعيف جدًّا كما قال محققو المسند، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٤١٥٤) عن أبي هريرة ﷺ، وإسناده حسن كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٦٠.

(٢) واسمه: المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، وهو مطبوع.

(٣) واسمه: شرح الأسماء الحسنى، قال حاجي خليفة في كشف الظنون ٢/ ١٠٧١: وهو كتاب كبير جمع فيه من أسماء الله تعالى ما زاد على المئة والثلاثين كلها مشهورة مروية... إلى آخر كلامه. وابن بَرَّجان: هو عبد السلام بن عبد الرحمن بن أبي الرجال اللخمي المغربي الإفريقي، ثم الأندلسي الإشبيلي، شيخ الصوفية، توفي سنة (٥٣٦هـ). السير ٢٠/ ٧٢.

(٤) واسمه: لوامع البينات في تفسير الأسماء والصفات، وذكره الرازي في تفسيره ١٥/ ٦٦، وهو مطبوع.

(٥) واسمه: الأمد الأقصى، وقد أشار إليه في مواضع كثيرة من كتاب «أحكام القرآن» منها عند شرح هذه الآية ٢/ ٨٠٣.

(٦) الكشاف ٢/ ١٣٢. والعجب من المصنف كيف أورد هذا الكلام وذهل عن الرد عليه بشيء، وهو الذي ردَّ عليه فيما هو أقل من هذا بكثير، ففي هذا الكلام جرأة على أهل السنَّة، واتهام لهم بأنهم يُلحدون في صفات الله، وانتصارٌ لمذهب المعتزلة القائلين بأن الله تنزَّه عن خلق الفحشاء، ويكفي ردًّا عليه ما جاء في المناظرة بين الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني والقاضي عبد الجبار المعتزلي؛ قال القاضي في ابتداء جلوسه للمناظرة: سبحان مَن تنزَّه عن الفحشاء. فقال الأستاذ: سبحان مَن لا يقعُ في ملكه إلا ما يشاء. فقال القاضي: أَفَيَشاءُ ربُّنا أن يُعْصَى؟! فقال الأستاذ: أَيُعْصَى ربُّنا قهراً؟! فقال عبد الجبار: أفرأيت إن منعني الهدى وقضى عليَّ بالرَّدى، أَحْسَنَ إليَّ أم أساء؟ فقال الأستاذ: إن كان منعك ما هو لك =

وقيل: معنى قوله: «وذروا الذين يُلحدون في أسمائه»: اتركوهم ولا تحاجُّوهم ولا تَعْرِضوا لهم؛ قاله ابن زيد، فتكون الآيةُ على هذا منسوخةً بالقتال(١).

وقيل: معناه الوعيدُ، كقوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١]، وقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ [الحجر: ٣].

وقال الزمخشري: واتركوا تسميةَ الذين يَميلون عن الحقِّ والصواب فيها فيسمُّونه بغير الأسماء الحسنى، وذلك أن يُسمُّوه بما لا يجوز عليه، كما سمعنا البَدْوَ يقولون بجهلهم: يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، يا سنحي، أو أن يأبَوْا تسميتَه ببعض أسمائه الحسنى، نحو أن يقولوا: يا الله، ولا يقولوا: يا رحمن(٢).

وقيل: معنى الإلحادِ في أسمائه: تسميتُهم أوثانَهم اللاتَ نظرًا إلى اسم الله تعالى، والعزَّى نظرًا إلى العزيز؛ قاله مجاهد. ويسمُّون الله أبًا، وأوثانَهم أربابًا، ونحو هذا.

وقال ابن عباس: معنى «يُلْحِدون»: يكذِّبون.

وقال قتادة: يُشرِكون(٣).

وقال الخطابي(٤): الغلطُ في أسمائه والزيغُ عنها إلحادٌ.

وقرأ حمزة: «يَلْحَدون» بفتح الياء والحاء، وكذا في «النحل» [الآية: ١٠٣] و«السجدة» [الآية: ٤٠](٥)، وهي قراءةُ ابنِ وثّابٍ والأعمشِ وطلحةَ وعيسى(٦)، وقرأ باقي السبعةِ بضم الياء وكسرِ الحاء فيهنّ.

= فقد أساء، وإن منعك ما هو له فيَختصُّ برحمته مَن يشاء. فانقطع عبد الجبار. طبقات الشافعية الكبرى ٤/ ٢٦١. أما مسألة رؤية الله في الآخرة فقد سلف الكلام عليها عند قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٥٩٩، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨١، والكلام منه.

(٢) الكشاف ٢/ ١٣٢.

(٣) أخرج الأقوال الثلاثة عن مجاهد وابن عباس وقتادة الطبري ١٠/ ٥٩٧-٥٩٨.

(٤) كما في زاد المسير ٣/ ٢٩٣.

(٥) السبعة ص٢٩٨، والتيسير ص١١٤ و١٣٨، ويعني بالسجدة سورة فصلت.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨١.

و«سيُجْزَوْن» وعيدٌ شديدٌ، وانْدَرَج تحت قوله: «ما كانوا يعملون» الإلحادُ في أسمائه، وسائرُ أفعالهم القبيحة.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ لـمَّا ذَكَرَ مَن ذرأ للنار ذَكَر مقابِلَهم، وفي لفظةِ «وممن» دلالةٌ على التبعيض، وأنَّ المُعْظَم من المخلوقين ليسوا هداةً إلى الحقِّ ولا عادِلِينَ به.

قيل: هم العلماءُ والدُّعاةُ إلى الدِّين.

وقيل: هم مؤمِنو أهلِ الكتاب؛ قاله ابنُ الكلبيِّ[١].

ورَوَى قتادةُ وابنُ جُرَيْج[٢].

وقيل: هم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسانٍ[٣].

وقال ابن عباس: هم أمةُ محمدٍ ﷺ[٤] وعليه أكثرُ المفسِّرين، ورُوي في ذلك أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا قرأها قال: «هذه لكم، وقد أُعطي القومُ بين أيديكم مثلَها، ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٩]»[٥]، وعنه ﷺ: «إنَّ من أمَّتي قومًا على الحقِّ حتى ينزل عيسى ابنُ مريم»[٦].

---

(١) الكشاف ٢/ ١٣٣.

(٢) كذا وقع، ولم يذكر المصنف قولهما، ويجب أن تكون العبارة: وروى قتادة وابن جريج عن النبي ﷺ أنهم هذه الأمة. أخرج ذلك عنهما الطبري ١٠/ ٦٠٠، وذكره عنهما الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٢٨٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٩٤، وسيرد لفظ خبر قتادة قريباً. ووقع في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: وروي عن قتادة وابن جريج.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٢١٨، وزاد المسير ٣/ ٢٩٤ عن ابن عباس ﵄، وينظر التعليق الذي بعده.

(٤) هو مثل الذي قبله، فقد جاء لفظ الخبر عند البغوي: قال عطاء عن ابن عباس: يريد أمة محمد ﷺ وهم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان.

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٦٠٠ عن قتادة مرسلًا، وقد سلفت الإشارة إليه قريباً.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٢٣ عن الربيع بن أنس مرسلاً، وله شاهد من حديث عمران بن حصين عند أحمد (١٩٨٥١). وفي الباب عن المغيرة بن شعبة عند البخاري (٣٦٤٠)، ومسلم (١٩٢١)، وعن معاوية عند البخاري (٧١)، ومسلم ٣/ ١٥٢٤ (١٠٣٧): (١٧٤).

والظاهرُ أنَّ هذه الجملةَ أخبر فيها أنَّ ممن خَلَقَ أمةً موصوفون بكذا، فلا يدلُّ على تعيينٍ لا في أشخاصٍ ولا في أزمانٍ، وصَلَحت لكلِّ هادٍ بالحقِّ من هذه الأمة وغيرهم، وفي زمان الرسول وغيرِه، كما أنَّ مقابِلَها في قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] لا يدل على تعيينِ أشخاصٍ ولا زمانٍ، وإنما هذا تقسيمٌ للمخلوق للنار والمخلوقِ للجنة، ولذلك قيل: إنَّ في الكلام محذوفًا تقديره: وممَّن خلقنا للجنة، يدلُّ عليه إثباتُ مقابِلِهِ في قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾.

وقال الجبَّائي: هذه الآيةُ تدلُّ على أنْ لا يخلوَ زمانٌ البتةَ ممن يقومُ بالحق ويعملُ به ويهدي إليه، وأنهم لا يجتمعون في شيءٍ من الأزمنة على الباطل[١]. انتهى.

والآيةُ لا تدل على ما زعم الجبَّائي، وما قاله مخالفٌ لمَا رُوي من أنه «لا تقومُ الساعةُ إلَّا على شرار الخلق»[٢]، «ولا تقومُ الساعةُ حتى لا يقالَ في الأرض: الله»[٣]، و: لا تقوم الساعةُ حتى يُسْرَى على كتاب الله فلا يبقى منه حرفٌ[٤]. أو كما قيل[٥].

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ قال الخليل بن أحمد: سنطوي أعمارَهم في اغترارٍ منهم.

وقال أبو عبيدة: الاستدراج أن تَدْرُجَ إلى الشيء في خفيةٍ قليلًا قليلًا ولا تهجمَ عليه، وأصله من الدَّرجة، وذلك أنَّ الراقيَ والنازلَ يَرْقَى وينزلُ مرقاةً مرقاةً، ومنه دَرَجَ الكتابَ: طواه شيئًا بعد شيءٍ، ودَرَجَ القومُ: ماتوا بعضُهم في أثر بعض.

وقال ابن قُتيبة: هو أن يُذيقهم من بأسه قليلًا قليلًا من حيث لا يعلمون، ولا يباغتهم[٦] به، ولا يجاهرهم.

---

(١) تفسير الرازي ١٥/ ٧٢.
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٤٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٣) أخرجه مسلم (١٤٨) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٠٤٩)، والحاكم ٤/ ٤٧٣ و٥٤٥ من حديث حذيفة رضي الله عنه، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.
(٥) في (د١) والمطبوع: قال.
(٦) في النسخ: يتابعهم، وهو خطأ، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

وقال الأزهري: سنأخذُهم قليلًا قليلًا من حيث لا يحتسبون، وذلك أنَّ الله تعالى يفتحُ بابًا من النعمة يَغْتَبِطون به ويَرْكَنون إليه، ثم يأخذُهم على غِرَّتهم أغفلَ ما يكونون[١]. انتهى.

ومنه: دَرَجَ الصبيُّ: إذا قارَبَ بين خُطاه، والمعنى: سَنَسْتَرِقُهم[٢] شيئًا بعد شيءٍ ودرجةً بعد درجةٍ بالنعم عليهم والإمهالِ لهم، حتى يغترُّوا ويظنُّوا أنهم لا ينالُهم عقابٌ.

وقال الجبَّائي: سنستدرجهم إلى العقوبات حتى يقعوا فيها من حيث لا يعلمون، استدراجًا لهم إلى ذلك، فيجوز أن يكون هذا العذابُ في الدنيا كالقتل، ويجوزُ أن يكون عذابَ الآخرة[٣].

وقال الزمخشري: ومعنى «سنستدرجهم»: سَنَسْتَدْنيهم قليلًا قليلًا إلى ما يُهْلِكهم ويضاعِفُ عقابهم، «من حيث لا يعلمون» ما يراد بهم، وذلك أن يُوَاتِرَ الله نعمَه عليهم مع انهماكهم في الغيِّ، فكلما جدَّد عليهم نعمةً ازدادوا بطرًا وجدَّدوا معصيةً، فيتدرَّجون في المعاصي بسبب ترادُفِ النعم ظانِّينَ أنَّ مُواتَرةَ النعم أثرةٌ من الله وتقريبٌ، وإنما هي خذلانٌ منه وتبعيدٌ، فهو استدراجُ الله نعوذ بالله تعالى منه[٤].

«من حيث لا يعلمون»؛ قيل: بالاستدراج. وقيل: بالهلاك.

وقرأ النخعيُّ وابنُ وثَّابٍ: «سيَسْتَدْرِجُهم» بالياء[٥]، فاحْتملَ أن يكون من باب الالتفات واحتمل أن يكون الفاعلُ ضمير التكذيبِ المفهومَ من «كذَّبوا»، أي: سيستدرِجُهم هو، أي: التكذيب.

وقال الأعشى في الاستدراج:

---

(١) ذكر هذه الأقوال ابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٢٩٤-٢٩٥، وعنه نقل المصنف، وينظر قول أبي عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٢٣٣، وقول ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ص١٢٦، وتفسير غريب القرآن ص٤٨١، وقول الأزهري في تهذيب اللغة ١٠/ ٦٤٧.

(٢) كذا في النسخ، والذي في المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٢ (والكلام منه): سنسوقهم، وهو الأشبه.

(٣) تفسير الرازي ١٥/ ٧٤.

(٤) الكشاف ٢/ ١٣٣.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٢، وهي في القراءات الشاذة ص٤٧ عن بعضهم.

فلو كنتَ في جبٍّ ثمانين قامةً ورُقِّيْتَ أسبابَ السماء بسُلَّمِ
لَيَسْتَدْرِجَنْكَ القولُ حتى تَهِرَّه وتعلمَ أنِّي عنكمُ غيرُ مُفْحَمِ[١]

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ معطوفٌ على «سنستدرِجُهم»، فهو داخلٌ في الاستقبال، وهو خروجٌ من ضميرِ التكلُّم بنون العظمة إلى ضمير تكلُّم المفرَد، والمعنى: أُؤَخِّرُه[٢] مُلَاوَةً من الدَّهر، أي: مدَّةً فيها طولٌ، والملاوةُ بفتح الميم وضمِّها وكسرِها. ومنه: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] أي: طويلًا، وسمَّى فعلَه ذلك بهم كيدًا لأنه شبيهٌ بالكيد من حيث إنه في الظاهر إحسانٌ وفي الحقيقة خُذْلان.

قال ابن عباس: يريد: إنَّ مَكْري شديد[٣].

وقيل: إنَّ عذابي، وسمَّاه كيدًا لنزوله بالعباد من حيث لا يشعرون.

والمتين من كلِّ شيءٍ: القويُّ، يقال: مَتُنَ مَتانةً.

وهذا إخبارٌ عن المكذِّبين عمومًا، وقيل: نزلت في المستهزِئينَ من قُريشٍ؛ قَتَلهم الله في ليلةٍ واحدةٍ[٤] بعد أن أمهلهم مدةً.

وقرأ عبد الحميد عن ابن عامر: «أنَّ كيدي» بفتح الهمزة، على معنى: لأَجْلِ أنَّ كيدي[٥]، وقرأ الجمهور بكسرها على الاستئناف.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾ قال الحسن وقتادة: سببُ نزولها أنَّ رسول الله ﷺ صعد ليلًا على الصَّفا، فجعل يدعو قبائلَ قريش:

---

(١) ديوان الأعشى ص١٧٣، والكشاف ٢/ ٤٣١، ورواية الديوان: وتعلم أني عنك لستُ بمُلْجَمِ. قوله: تهرَّه، قال في القاموس (هرر): هرَّه يَهُرُّه ويَهِرُّه: كرهه، والمعنى: لئن خرقتَ الأرض أو طرت في الفضاء ليبلغنك قولي، وليتركنك تدرج في الأرض حتى تكره الكلام، وتعلم أني غير عاجز عن الانتقام. قاله شارح الديوان.

(٢) في (ب) و(د٣) و(يه): أؤخرهم.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٢١٨، وزاد المسير ٣/ ٢٩٥.

(٤) أي: يوم بدر، كما في روح المعاني ٩/ ٥٠٧، وهذا القول ذكره الثعلبي ٣/ ١٠١، والبغوي ٢/ ٢١٨، وابن الجوزي ٣/ ٢٩٤، وعزاه لمقاتل.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٢.

يا بني فلانٍ، يا بني فلانٍ، يحذِّرُهم ويدعوهم إلى الله تعالى، فقال بعض الكفار حين أصبحوا: هذا مجنونٌ باتَ يصوِّت حتى الصباح(١)!

وكانوا يقولون: شاعرٌ مجنون، فنفى الله عز وجل ما قالوه(٢)، ثم أَخبر أنه محذِّرٌ من عذاب الله، والآيةُ باعثةٌ لهم على التفكُّر في أمر الرسول ﷺ وانتفاءِ الجِنَّة عنه.

وهذا الاستفهامُ قيل: معناه التوبيخ. وقيل: التحريضُ على التأمُّل.

والجِنَّةُ: الجِنُّ، كما قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٦] والمعنى: من مسِّ جِنَّةٍ، أو: مِن تخبيطِ جِنَّة، وقيل: هي هيئةٌ كالجِلْسة والرِّكْبة أُريدَ بها المصدرُ، أي: ما بصاحبهم من جُنون.

والظاهر أنَّ «يتفكَّروا» متعلَّقٌ عن الجملة المَنْفيَّةِ، وهي في موضع نصبٍ «يتفكَّروا» بعد إسقاط حرف الجرِّ؛ لأنَّ التفكُّر من أفعال القلوب فيجوزُ تعليقه، والمعنى: أولم يتأمَّلوا ويتدبَّروا في انتفاءِ هذا الوصفِ عن الرسول، فإنه مُنْتَفٍ لا محالةَ، ولا يمكنُ لمن أَمْعَنَ الفكر أن يَنْسبَ ذلك إليه(٣).

وقيل: ثَمَّ مضمرٌ محذوفٌ، أي: فيَعْلَموا ما بصاحبهم من جِنَّةٍ؛ قاله الحَوْفي: وزعم أنَّ «تفكَّر» لا يُعلَّق؛ لأنه لا يدْخلُ على الجمل، قال: ودلَّ التفكُّرُ على العلم.

وقال أصحابنا: إذا كان فعلُ القلب يتعدَّى بحرف جرٍّ قدِّرتِ الجملةُ في موضع نصبٍ(٤) بعد إسقاط حرف الجرِّ، ومنهم مَن زَعَم أن يُضمَّنُ الفعلُ الذي تعدَّى بنفسه إلى واحدٍ أو بحرفِ جرٍّ إلى واحدٍ معنى ما يتعدَّى إلى اثنين، فتكونُ الجملة في موضع المفعولين، فعلى هذين الوجهين لا حاجة إلى هذا المضمَرِ الذي قدَّره الحَوْفي.

---

(١) زاد المسير ٣/٢٩٦، وأخرجه عن قتادة الطبري ١٠/٦٠٢.

(٢) في (د١) والمطبوع: عنه ما قالوه.

(٣) في النسخ: ولا يمكن لمن أنعم الفكر في نسبة ذلك إليه، والمثبت من النهر على هامش مطبوع البحر ٤/٤٣١.

(٤) في المطبوع: جر، وهو خطأ.

وقيل: تمَّ الكلامُ على قوله: «يتفكَّروا» ثم استأنف إخبارًا بانتفاءِ الجنة وإثباتِ النذارة.

وقال أبو البقاء: في «ما» وجهان:

أحدهما: أنها نافيةٌ، وفي الكلام حذفٌ تقديره: أولم يتفكَّروا في قولهم: به جنة.

والثاني: أنها استفهامٌ، أي: أولم يتفكَّروا أيُّ شيءٍ بصاحبهم[1] من الجنون مع انتظامِ أقواله وأفعاله.

وقيل: هي بمعنى الذي، تقديره: أولم يتفكَّروا في ما بصاحبهم، وعلى هذا يكون الكلامُ خَرَجَ على زَعْمِهم[2]. انتهى، وهي تخريجاتٌ ضعيفةٌ ينبغي أن ينزَّه القرآنُ عنها، و«تفكَّر» مما ثبت في اللسان تعليقُه، فلا ينبغي أن يُعْدَلَ عنه.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ لمَّا حضَّهم على التفكُّر في حال الرسول، وكان مفرَّعًا على تقرير دلائل التوحيد، أَعْقَبَ بما يدلُّ على التوحيد ووجودِ الصانع الحكيم، و«الملكوت»: المُلْكُ العظيم، وتقدَّم شرحُ ذلك في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥]، ولم يقتصر على ذِكْرِ النظر في الملكوت بل نبَّه على أنَّ كلَّ فردٍ فردٍ من الموجودات محلٌّ للنظر والاعتبارِ والاستدلالِ على الصانع ووحدانيته، كما قال الشاعر:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه واحدُ[3]

﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ «وأنْ» معطوفٌ على «ما» في قوله: «وما خَلَقَ»، وُبِّخوا على انتفاءِ نظرهم في ملكوت السَّماوات والأرض، وهي أعظمُ المصنوعات وأَدَلُّها على عظمة الصانع، ثم عَطَفَ عليه شيئًا عامًّا وهو قولُه: «وما خلق الله من شيء» فاندرج «السماوات والأرض» في «ما خلق»، ثم عَطَفَ عليه شيئًا يخصُّ أنفسَهم، وهو انتفاءُ نظرِهم وتفكُّرِهم في أنَّ أَجَلَهم قد اقترب، فيبادِرُهم الموتُ على حالة الغفلة عن النظر في ما ذكر، فيَؤُولُ أمرُهم إلى الخسار

(١) قوله: أي: مبتدأ، والخبر: بصاحبهم. الدر المصون ٥/ ٥٢٥.
(٢) الإملاء ١/ ٢٨٩.
(٣) سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨].

وعذابِ النار، نبَّههم على الفكر في اقتراب الأجَل لعلهم يبادرون إليه، وإلى طلب الحق وما يخلِّصهم من عذاب الله قبل مُغافصة[١] الأَجَل.

و«أجلُهم»: وقتُ موتهم، وقال الزمخشري: يجوزُ أن يراد باقتراب الأجل: اقترابُ الساعة[٢].

و«أنْ» هي المخفَّفةُ من الثقيلة، واسمُها محذوفٌ ضميرُ الشأن، وخبرُها «عسى» وما تعلَّقت به، وقد وقع خبرًا لها الجملةُ غيرُ الخبرية[٣] في مثل هذه الآية، وفي مثل: ﴿والخامِسَةُ أنْ غَضِبَ اللهُ علَيها﴾[٤] [النور: ٩] فـ«غَضِبَ اللهُ عليها» جملةُ دعاءٍ، وهي غيرُ خبريةٍ، فلو كانت «أنْ» مشدَّدة لم تقع «عسى» ولا جملةُ الدعاء خبرًا لها، لا يجوز: علمتُ أنَّ زيدًا عسى أن يخرج، ولا: علمتُ أنَّ زيدًا لَعَنه اللهُ، وأنت تريد الدُّعاء.

وأجاز أبو البقاء أن تكون «أن» هي المخفَّفةَ من الثقيلة، وأن تكون مصدريةً[٥]، يعني أن تكون الموضوعةَ على حرفين، وهي الناصبةُ للفعل المضارع، وليس بشيءٍ لأنهم نصُّوا على أنها تُوْصَلُ بفعلٍ متصرِّفٍ مطلقًا، يعنون ماضيًا ومضارعًا وأمرًا، فشَرَطوا فيه التصرُّفَ، و«عسى» فعلٌ جامدٌ فلا يجوزُ أن يكون صلةً لـ«أنْ».

و«عسى» هنا تامةٌ، «وأن يكون» فاعلٌ بها، نحو قولك: عسى أن تقوم، واسم «يكون» قال الحوفي: «أجلهم»، «وقد اقترب» الخبر.

وقال الزمخشري وغيره: اسم «يكون» ضميرُ الشأن[٦]، فيكون «قد اقترب أجلُهم» في موضع نصبٍ في موضعِ خبرِ «يكون»، «وأجلُهم» فاعلٌ بـ«اقترب».

---

(١) تحرفت في (د١) والمطبوع إلى: مقانصة. والمغافصة من غافَصَه: فاجأه، وأخذه على غِرَّة. القاموس (غفص).
(٢) الكشاف ٢/ ١٣٣.
(٣) في (ب) و(د٣) و(يه): الطلبية، وهو خطأ.
(٤) وهي قراءة نافع من السبعة كما سيرد عند تفسير الآية.
(٥) الإملاء ١/ ٢٨٩.
(٦) الكشاف ٢/ ١٣٣.

وما أجازه الحوفي فيه خلافٌ، فإذا قلتَ: كان يقومُ زيدٌ، فمن النحويين مَن زعم أنَّ «زيدًا» هو الاسمُ و«يقومُ» في موضع نصبٍ على الخبر، ومنهم مَن منع ذلك، ويَجْعَلُ في «كان» ضميرَ الشأن، والجوازُ اختيارُ ابنِ مالكٍ، والمنعُ اختيارُ ابنِ عصفورٍ[١]، وقد ذكرنا هذه المسألة مستوفاةَ التقسيم والدلائل في شرحنا لكتاب «التسهيل»[٢].

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ١٨٥﴾ معنى هذه الجملةِ وما قبلها توقيفُهم وتوبيخُهم على أنه لم يقع منهم نظيرٌ ولا تدبُّرٌ، في شيءٍ من ملكوت السماوات والأرض، ولا في مخلوقات الله تعالى، ولا في اقترابِ آجالهم، ثم قال: فبأيِّ حديثٍ أو أمرٍ يقعُ إيمانُهم وتصديقُهم إذ لم يقع بأمرٍ فيه نجاتُهم ودخولُهم الجنةَ، ونحوُه قول الشاعر:

فعَنْ أيِّ نفسٍ بعد نفسي أقاتلُ[٣]

والمعنى: إذا لم أُقاتِلْ عن نفسي فكيف أقاتل عن غيرها؟ وكذلك: إذا لم يؤمنوا بهذا الحديث الذي هو الصدقُ المحضُ وفيه نجاتُهم وخلاصُهم فكيف يُصدِّقون بحديثٍ غيرِه؟ والمعنى أنه ليس من طباعهم التصديقُ بما فيه خلاصُهم.

والضمير في «بعده» للقرآن، أو للرسول، أي: بعد الرسول وقصتِه وأمرِه، أو للأجَلِ إذ لا عملَ بعد الموت، أقوالٌ ثلاثة.

قال الزمخشري: فإنْ قلتَ: بم يَتعلَّق قوله: «فبأيِّ حديثٍ بعده يؤمنون»؟ قلتُ: بقوله: «عسى أن يكونَ قد اقْتَربَ أَجَلُهم»، كأنه قيل: لعل أجلَهم قد اقترب فما لهم لا يبادرون الإيمانَ[٤] بالقرآن قبل الفَوْتِ، وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق، وبأيِّ

(١) ينظر شرح التسهيل لابن مالك ١/ ٣٧١، والمقرب لابن عصفور ١/ ٩٦.
(٢) التذييل والتكميل في شرح التسهيل ٤/ ١٨٣.
(٣) وصدره: فجردت سيفي ثم قمت بنصله، والبيت لضرار بن الخطاب ﷺ، وهو في سيرة ابن هشام ١/ ٤١٥، وطبقات فحول الشعراء ١/ ٢٥٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٣، والكلام منه. وجاء في هذه المصادر: وعن، بالواو.
(٤) في المطبوع ومطبوع الكشاف: إلى الإيمان، والمثبت من النسخ، وهو الموافق لمَا في المصادر التي نقلت عن الكشاف، ينظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٤/ ٢٤١، وروح المعاني ٩/ ٥١١. وكلاهما صواب، ينظر اللسان (بدر).

حديثٍ أحقَّ منه يريدون أن يؤمنوا[١]؟

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ نَفَى نفيًا عامًّا أن يكون هادٍ لمن أضلَّه الله، فتضمَّن اليأسَ من إيمانهم والمقتَ لهم.

﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ قرأ الحسنُ وقتادةُ وأبو عبد الرحمن وأبو جعفر والأعرجُ وشيبةُ والحِرْميَّان وابنُ عامرٍ: «ونَذَرُهم» بالنون ورفع الراء، وأبو عمرٍو وعاصمٌ بالياء ورفعِ الراء[٢]، وهو استئنافُ إخبارٍ: قُطِعَ الفعل، أو أُضمر قبله: ونحن[٣]، فيكون جملةً اسمية.

وقرأ ابن مصرِّفٍ والأعمشُ والأخوان، وأبو عمرو فيما ذكر أبو حاتم بالياء والجزم[٤]، وروى خارجةُ عن نافعٍ بالنون والجزم[٥]، وخُرِّج سكونُ الراء على وجهين:

أحدهما: أنه سكِّن لتوالي الحركات كقراءة: «وما يشعرْكم»[٦] و«ينصركم»[٧] فهو مرفوعٌ.

والآخَر: أنه مجزومٌ عطفًا على محلِّ «فلا هادي له» فإنه في موضع جزمٍ، فصار مِثْلَ قوله: «فهو خيرٌ لكم ونكفرْ» في قراءةِ مَن جَزَمَ راءَ «ونكفِّرْ»[٨]، ومثْلَ قول الشاعر:

---

(١) الكشاف ٢/ ١٣٤.

(٢) ينظر السبعة ص٢٩٨، والتيسير ص١١٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٣، والنشر ٢/ ٢٧٣.

(٣) في (ب) و(د٣) و(يه): وأضمر...، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما قاله ابن عطية في المحرر ٢/ ٤٨٣، قال: وهذا على إضمار مبتدأ: ونحن نذرهم، أو على قطع الفعل واستئناف القول. اهـ. وتقدير «نحن» على قراءة النون، أما على قراءة الياء فيقدر: هو. ينظر الدر المصون ٥/ ٥٢٨.

(٤) قراءة الأخوين في السبعة ص٩٩، والتيسير ص١١٥، والكلام من المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٣، وهي خلاف المشهور عن أبي عمرو.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٤، وهي خلاف المشهور عن نافع.

(٦) الآية: (١٠٩) من سورة الأنعام، وقرأ بالجزم فيها أبو عمرو بخلف عن الدوري.

(٧) الآية: (١٦٠) من آل عمران، وقرأ بالجزم فيها أيضاً أبو عمرو بخلف عن الدوري.

(٨) الآية: (٢٧١) من البقرة، وقرأ بالجزم في «ونكفِّرْ» نافع وحمزة والكسائي.

أنّى سلكتَ فإنَّني لك كاشحٌ وعلى انتقاصِكَ في الحياة وأزْدَدِ[(١)]

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ الضميرُ في «يسألونك» لقريشٍ، قالوا: يا محمد، إنَّا قَرابَتُكَ فأخبِرْنا بوقتِ الساعة[(٢)].

وقال ابن عباس: الضمير لليهود؛ قال جَبَل[(٣)] بن أبي قُشَيْر وشَمْويل بنُ زيد: إن كنتَ نبيًّا فأَخْبِرْنا بوقت الساعة، فإنَّا نعرفُها، فإنْ صَدَقْتَ آمنَّا بك. فنزلت.

ومناسَبتُها لمَا قبلها: أنه لمَّا ذكر التوحيدَ والنبوَّةَ والقضاءَ والقَدَرَ، أَتْبَعَ ذلك بذِكْرِ المَعاد، وأيضًا فلمَّا تقدَّم قولُه: «وأنْ عسى أن يكونَ قد اقْتَربَ أَجَلُهم»، وكان ذلك باعثًا على المبادَرة إلى التوبة، أَتى بالسُّؤال عن السَّاعة ليُعْلم أنَّ وقتَها مكتومٌ عن الخَلْق، فيكون ذلك سببًا للمسارعة إلى التوبة.

و«الساعة»: القيامة، موتُ مَن كان حينئذٍ حيًّا وبَعْثُ الجميع يقعُ عليه اسمُ الساعة واسمُ القيامة. و«الساعة» من الأسماء الغالبة كالنجم للثريا.

وقرأ الجمهور: «أيان» بفتح الهمزة، والسُّلَميُّ بكسرها حيث وقعت، وتقدَّم أنها لغة قومه سُليم[(٤)]، و«مرساها» مصدرٌ، أي: متى إرساؤها: إثباتُها وإقرارُها، والرسُوُّ: ثباتُ الشيء الثقيل، ومنه: رسا الجبلُ، وأَرْسَيْتُ السفينةَ، والمَرْسَى: المكانُ الذي تَرْسُو فيه.

وقال الزمخشري: «مرساها»: إرساؤها، أو: وقتُ إرسائها، أي: إثباتها وإقرارها[(٥)]. انتهى.

---

(١) تهذيب اللغة ١٥/ ٦٥٣، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٤، واللسان (أيا). ورواية التهذيب واللسان: أيًّا فعلتَ فإنني...

(٢) أخرجه عبد الرزاق ١/ ٢٤٥، والطبري ١٠/ ٦٠٤ عن قتادة.

(٣) في (أ) و(د١) و(د٣) و(ع): حِسْل، وهي غير واضحة في باقي النسخ، والمثبت من المصادر. ينظر سيرة ابن هشام ١/ ٥٦٩، وتفسير الطبري ١٠/ ٦٠٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٤.

(٤) عند شرح مفردات الآية، وذكرها عنه في هذه الآية ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٨، وابن جني في المحتسب ١/ ٢٦٨، وابن عطية في المحرر ٢/ ٤٨٤، والزمخشري في الكشاف ٢/ ١٣٤.

(٥) الكشاف ٢/ ١٣٤.

وتقديره: أو وقتُ إرسائها، ليس بجيدٍ، لأنَّ «أيان» اسمُ استفهامٍ عن الوقت فلا يصحُّ أن يكون خبرًا عن الوقت إلا بمجازٍ؛ لأنه يكون التقدير: في أيِّ وقتٍ وقتُ إرسائها.

و«أيان مرساها» مبتدأ وخبر، وحَكَى ابنُ عطيَّةَ عن المبرِّد أن «مُرساها» مرتفِعٌ بإضمارِ فِعْلٍ[١]، ولا حاجةَ إلى هذا الإضمار.

و«أيان مُرساها» جملةٌ استفهاميةٌ في موضع البدل من «الساعة»، والبدلُ على نية تكرارِ العامل، وذلك العاملُ معلَّقٌ عن العمل؛ لأن الجملة فيها استفهامٌ، ولمَّا عُلِّقَ الفعلُ وهو يتعدَّى بـ«عن» صارت الجملة في موضع نصبٍ على إسقاط حرف الجر، فهو يدلُّ في الحقيقة على[٢] موضع «عن الساعة»؛ لأن موضع المجرور نصبٌ، ونظيرُه في البدل قولُهم: عَرَفْتُ زيدًا أبو مَن هو، على أحسن المذاهب في تخريج هذه المسألة، أعني في[٣] كون الجملة الاستفهامية تكونُ في موضع البدل.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ أي: اللهُ استأثر بعِلْمها، ولمَّا كان السؤالُ عن الساعة عمومًا، ثم خصِّص بالسؤال عن وقتها، جاء الجوابُ عمومًا عنها بقوله: «قل إنَّما علمُها عند ربِّي»، ثم خصِّصت من حيث الوقتُ فقيل: «لا يجلِّيها لوقتها إلَّا هو».

وعِلْمُ الساعة من الخمس التي نُصَّ عليها من الغيب أنه لا يعلمها إلا الله، والمعنى: لا يُظْهِرُها ويَكشفُها لوقتها الذي قدِّر أن تكون فيه إلا هو، قالوا: وحكمةُ إخفائها أنهم يكونون دائمًا على حذرٍ، فإخفاؤها أَدْعَى إلى الطاعة وأَزْجَرُ عن المعصية، كما أَخْفَى الأجَلَ الخاصَّ ـ وهو وقتُ الموت ـ لذلك.

وقال الزمخشري: «لا يجلِّيها لوقتها إلَّا هو»، أي: لا تزالُ خَفِيَّةً، ولا يُظْهِرُ أمرَها ولا يكشفُ خفاءَ عِلْمِها إلَّا هو وحده إذا جاء بها في وقتها بغتةً، لا يجلِّيها

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٤.

(٢) كذا في النسخ، ولعل الأنسب بالسياق: مِن، كما في الدر المصون ٥/ ٥٢٦.

(٣) في (ز١): من.

بالخبر عنها قبل مجيئها أحدٌ من خَلْقِه؛ لاستمرارِ الخفاءِ بها على[(١)] غيره إلى وقتِ وقوعها[(٢)]. انتهى، وهو كلامٌ فيه تكثيرٌ وعُجمةٌ.

﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن جريج: معناه: ثَقُلَتْ على السماوات والأرض أنفسِها؛ لتَفَطُّرِ السماوات، وتبدُّلِ الأرض، ونَسْفِ الجبال.

وقال الحسن: ثَقُلَتْ لهيبتها والفزعِ منها على أهل السماوات والأرض.

وقال السدِّي: معنى «ثقُلت»: خَفِيَتْ في السماوات والأرض، فلم يَعْلَم أحدٌ من الملائكة المقرَّبين والأنبياءِ المرسَلين متى تكونُ، وما خَفيَ أمرُه ثَقُلَ على النفوس[(٣)]. انتهى.

ويعبَّر بالثِّقل عن الشدة والصعوبة، كما قال: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۝٢٧﴾ [الإنسان: ٢٧]، أي: شديدًا صعبًا، وأصلُه أن يتعدَّى، بـ«على»؛ تقول: ثَقُلَ عليَّ هذا الأمرُ، وقال الشاعر:

ثقيلٌ على الأعداء ....[(٤)]

فإمَّا أن يُدَّعَى أنَّ «في» بمعنى «على»، كما قال بعضهم في قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أو يُضمَّن «ثقلت» معنى فعلٍ يتعدَّى بـ«في».

وقال الزمخشري[(٥)]: أي: كلُّ مَن أهلَها من الملائكة والثَّقلين أهَمَّه شأنُ

(١) في (ز١): عن، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في مطبوع الكشاف.
(٢) الكشاف ٢/ ١٣٤.
(٣) تنظر هذه الأخبار في تفسير الطبري ١٠/ ٦٠٨-٦٠٩، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٤.
(٤) قطعة من بيت أورده ابن الأنباري في الزاهر ١/ ٢٧٠، والقالي في أماليه ٢/ ٣ دون نسبة، وتمامه:
لنا جانبٌ منه لينٌ وجانبٌ   ثقيلٌ على الأعداء مركبه صعبُ
وأورده أبو تمام في الحماسة (بشرح التبريزي) ١/ ١٤٤ برواية:
لنا جانبٌ منه دَميثٌ وجانبٌ   إذا رامه الأعداء ممتنعٌ صعبُ
قال التبريزي: قال أبو رياش: هو لأبي الشغب العبسي، وقال أبو عبيدة: للأقرع بن معاذ القشيري.
(٥) في الكشاف ٢/ ١٣٤.

الساعة، وودَّ أن يتجلَّى له عِلْمُها، وشقَّ عليه خَفاؤها وثَقُلَ عليه، أو ثَقُلَتْ فيها لأنَّ أهلهما[١] يتوقَّعونها ويخافون شدائدها وأهوالها، ولأنَّ كلَّ شيءٍ لا يطيقها ولا يقوم لها، فهي ثقيلة فيهما.

﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي: فجأةً على غفلةٍ منكم وعدمِ شعورٍ بمجيئها، وهذا خطابٌ عامٌّ لكلِّ الناس، وفي الحديث «إن الساعة لتهجم والرجلُ يُصْلِحُ حوضَه، والرجلُ يسقي ماشيته، والرجلُ يسومُ سائمتَه، والرجلُ يخفضُ ميزانَه ويرفعُه»[٢].

﴿يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ قال ابن عباس والسدِّيُّ ومجاهد: كأنك حفيٌّ بسؤالهم، أي: محبٌّ له[٣].

وعن ابن عباسٍ أيضًا: كأنك يعجبُك سؤالُهم[٤].

وعنه أيضًا: كأنك مجتهدٌ في السؤال مبالِغٌ في الإقبال على ما تُسأل عنه[٥].

وقال ابنُ قُتيبة: كأنك طالبٌ عِلْمَها[٦].

وقال مجاهد أيضًا والضحاك وابن زيد: معناه: كأنك حفيٌّ بالسؤال عنها

---

(١) في النسخ عدا (د١): ألها، والمثبت من (د١) والمطبوع، وجاء في مطبوع الكشاف: أو ثقلت فيها لأن أهلها.

(٢) أخرجه الطبري ١٠/ ٦١٠ من طريق قتادة عن النبي ﷺ مرسلاً بلفظ: «إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح...»، وفيه: «والرجل يُقيم سلعته» بدل: «والرجل يسوم سائمته».
ويشهد لهذا الخبر حديث أبي هريرة ﵁ عند البخاري (٦٥٠٦)، ومسلم (١٩٥٤).

(٣) الذي في المصادر عن الأئمة المذكورين: حفيٌّ بهم، صديق لهم، على تقدير التقديم في «عنها»، أي: يسألونك عنها كأنك حفيٌّ بهم. ينظر تفسير الطبري ١٠/ ٦١١-٦١٢، والنكت والعيون ٢/ ٢٨٥، وزاد المسير ٣/ ٢٩٨. وسيرد هذا الوجه في «عنها» قريباً عند الكلام عن الإعراب.

(٤) تفسير الطبري ١٠/ ٦١٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ١٦٢٨، وزاد المسير ٣/ ٢٩٨.

(٥) ينظر المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٤-٤٨٥، وفيه: وقرأ ابن عباس فيما ذكر أبو حاتم: «كأنك حفي بها» لأن «حفي» معناه: مهتبلٌ مجتهدٌ في السؤال مبالغٌ...، وسترد القراءة قريباً عن ابن مسعود.

(٦) تفسير غريب القرآن ص١٧٥، ولفظه: أي: معنيٌّ بطلب علمها.

والاشتغالِ بها حتى حصلْتَ عليها[١]، أي: تحبُّه وتُؤْثِره، أو بمعنى أنك تكره السؤال لأنها من علم الغيب الذي استأثر الله به ولم يؤته أحدًا[٢].

وقال ابن عطية: أي: مُحْتَفٍ ومُهْتَبِلٌ[٣].

وقال الزمخشريّ[٤]: كأنك عالمٌ بها، وحقيقته: كأنك بليغٌ في السؤال عنها؛ لأنَّ مَن بالَغَ في السؤال عن الشيء والتنقير عنه استَحْكَم عِلْمُه فيه ورصن، وهذا التركيبُ معناه المبالغةُ، ومنه إحفاءُ الشارب، واحتفاء البقل[٥]: استئصالُه، وأحْفَى في المسألة: ألْحفَ، وحَفيَ بفلانٍ وتحفَّى به: بالغ في البِرِّ به. انتهى.

و«عنها» إما أن يتعلق بـ«يسألونك»، أي: يسألونك عنها، وتكون صلةُ «حفي» محذوفةً، والتقدير: كأنك حفيٌّ بها، أي: مُعْتَنٍ بشأنها حتى عَلِمْتَ حقيقتَها ووقتَ مجيئها، أو: كأنك حفيٌّ بهم، أي: مُعْتَنٍ بأمرِهم فتجيبُهم عنها، لزَعْمهم أنَّ علمها عندك، و«حفيّ» لا يتعدَّى بـ«عن»، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] فعدَّاه بالباء، وقال أبو علي: لا تُوصَلُ الحفاوة بـ«عن» كما توصَل بالباء.

وإمَّا أن يتعلَّق بـ«حفيّ» على جهة التضمين، لأنَّ مَن كان حفيًّا بشيءٍ أدركه وكشف عنه، فالتقدير: كأنك كاشفٌ بحفاوتك عنها.

وإمَّا أن تكون «عن» بمعنى الباء، كما تكون الباء بمعنى «عن» في قوله:

فإن تسألوني بالنساء فإنني[٦]

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٤، وفيه: ... حتى حصَّلت عِلْمَها، وهو الموافق لمعنى ما أخرجه الطبري عن الأئمة المذكورين ١٠/ ٦١٣-٦١٤.

(٢) ينظر الكشاف ٢/ ١٣٥.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٤. ومهتبل: مغتنم، وتحرف في المطبوع إلى: محتفل. وجاء في مطبوع المحرر: متحفٌ، بدل: مُحْتَفٍ، وهما بمعنى.

(٤) في الكشاف ٢/ ١٣٤-١٣٥.

(٥) في النسخ والمطبوع. النعل، والمثبت من الكشاف، وهو الصواب. ينظر الفائق ١/ ٩٤، (حفا)، والمغرب ١/ ٢١٥ (حفي)، واللسان والتاج (حفي). واحتفاء البقل: أخذه بأطراف الأصابع من وجه الأرض من قصره وقلَّته. تهذيب اللغة ٥/ ٢٦٠.

(٦) صدر بيت لعلقمة بن عَبَدة، وهو في ديوانه (بشرح الأعلم) ص٣٥، وعجزه: خبير بأدواء النساء طبيب.

أي: عن النساء.

وقرأ عبد الله: «كأنك حفيٌّ بها» بالباء[(١)] مكانَ «عن»، أي: عالمٌ بها بليغٌ في العلم بها.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: عِلْم مجيئها في علم الله، وظرفيةُ «عند» مَجازيَّةٌ، كما تقول: النحوُ عند سيبويه، أي: في عِلْمِه.

وتكريرُ السؤال والجواب على سبيل التوكيد، ولمَا جاء به من زيادةِ قوله: «كأنك حفيٌّ عنها».

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ قال الطبري: لا يعلمون أنَّ هذا الأمرَ لا يعلمُه إلا الله، بل يظنُّ أكثرهم أنه ممَّا يعلمُه البشر[(٢)].

وقيل: لا يعلمون أنَّ القيامة حقٌّ؛ لأن أكثر الخلق يُنكرون المَعَادَ، ويقولون: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ الآية [الأنعام: ٢٩].

وقيل: لا يعلمون أنِّي أخبرتُكَ أنَّ وقتها لا يعلمُه إلا الله.

وقيل: لا يعلمون السببَ الذي لأَجْلِه أخفيتُ معرفةَ وقتها.

والأظهرُ قولُ الطبري.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عباس: قال أهلُ مكة: أَلَا يُخْبِرك ربُّكَ بالسعر الرخيص قبل أن يلغوَ فتشتريَ وتربحَ، وبالأرض التي تُجْدِبُ فترحلَ عنها إلى ما أَخْصَبَ؟ فنزلت[(٣)].

وقيل: لمَّا رجع من غزوة المُصْطلِق جاءت ريحٌ في الطريق، فأَخْبَرَ بموت رفاعة، وكان فيه غيظُ المنافقين، ثم قال: «انظروا أين ناقتي»، فقال عبد الله بنُ أبيٍّ: أَلَا تَعْجَبون من هذا الرجل؛ يُخبر عن موت رجلٍ بالمدينة ولا يعرفُ أين

(١) القراءات الشاذة ص٤٧، والكشاف ٢/ ١٣٥.
(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٦١٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٥، والكلام منه.
(٣) تفسير البغوي ٢/ ٢٢٠، وزاد المسير ٣/ ٢٩٩، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص٢٢٥: عن الكلبي.

ناقتُه؟ فقال عليه السلام: «إن ناسًا من المنافقين قالوا كيت وكيت، وناقتي في الشِّعْب قد تعلَّق زمامُها بشجرةٍ» فوجدوها على ما قال، فنزلت[١].

ووجهُ مناسَبَتها لمَا قبلها ظاهرٌ جدًا، وهذا منه عليه السلامُ إظهارٌ للعبودية، وانتفاءٌ عمَّا يختصُّ بالربوبية من القدرة وعلمِ الغيب، ومبالغةٌ في الاستسلام، فلا أملك لنفسي اجتلابَ نفعٍ ولا دفعَ ضرٍّ فكيف أملكُ علمَ الغيب؟ كما قال في سورة يونس: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [يونس: ٤٨-٤٩].

وقدَّم هنا النفعَ على الضَّرِّ لأنه تقدَّم: «مَن يَهْدِ اللهُ فهو المهتدي ومَن يُضْلِل» فقدَّم الهداية على الضلال، وبعده: «لاستَكْثَرْتُ من الخير وما مسَّني السوء» فناسَبَ تقديم النفع، وقدَّم الضرَّ في «يونس» على الأصل؛ لأنَّ العبادة لله تكون خوفًا من عقابه أولًا ثم طمعًا في ثوابه، ولذلك قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] فإذا تقدَّمَ النفعُ فلِسابقةِ لفظٍ تضمَّنه.

وأيضًا ففي «يونس» موافقةُ ما قبله، ففيها: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [الآية: ١٨]، وفيها: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ [الآية: ١٢].

وفي «الأنعام»: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [الآية: ٧١] لأنه موصولٌ بقوله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ [الآية: ٧٠].

وفي «يونس»: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [الآية: ١٠٦] وتقدَّمه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الآية: ١٠٣].

وفي «الأنبياء»: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا

---

(١) ذكره بهذا السياق الرازي في التفسير ١٥/ ٨٣، لكن أورده البغوي في التفسير ٤/ ٣٥٠ في سبب نزول سورة المنافقين، وفيه أن القائل رجل من المنافقين، وأنه آمن عندما ظهرت معجزة الناقة، وأن الميت هو رفاعة بن زيد بن التابوت، وكان من عظماء اليهود. وأخرجه مطولًا ابن شَبَّة في أخبار المدينة ١/ ٣٤٩-٣٥٤ من طريق موسى بن عقبة عن الزهري، والبيهقي في الدلائل ٤/ ٥٩-٦٠ عن عروة وموسى بن عقبة، دون ذكر النزول.

يَضُرُّكُمْ﴾ [الآية: ٦٦] وتقدَّمه قولُ الكفار لإبراهيم في المحاجَّة: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الآية: ٦٥].

وفي «الفرقان»: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الآية: ٥٥] وتقدَّمه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الآية: ٤٥] ونعمٌ كثيرةٌ.

وهذا النوعُ من لطائف القرآن العظيم وساطعِ براهينه.

والاستثناءُ متصلٌ، أي: إلَّا ما شاء الله من تمكيني منه فإني أَمْلِكُه، وذلك بمشيئة الله.

وقال ابن عطية: وهذا الاستثناءُ منقطعٌ[1]. انتهى، ولا حاجة لدعوى الانقطاعِ مع إمكانِ الاتِّصال.

﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي: لكانت حالي على خلافِ ما هي عليه: من استكثارِ الخير، واستِغْزارِ المنافع، واجتنابِ السُّوء والمضارِّ حتى لا يمسَّني شيء منها.

وظاهرُ قوله: «ولو كنتُ أعلم الغيبَ» انتفاءُ العلم عن الغيب على جهةِ عمومِ الغيب كما رُوي عنه: «لا أَعْلَم ما وراء هذا الجدار إلا أن يُعْلِمَنيهِ ربِّي»[2] بخلافِ ما يذهب إليه هؤلاء الذين يدَّعون الكشفَ، وأنهم بتصفية نفوسهم يَحْصُلُ لها اطِّلاعٌ على المغيَّبات وإخبارٌ بالكوائن التي تحدث، وما أكثر ادِّعاءَ الناسِ لهذا الأمرِ، وخصوصًا في ديارِ مصرَ، حتى إنهم لينسبون ذلك إلى رجلٍ متضمِّخٍ بالنجاسة يَظَلُّ دهرَه لا يصلِّي ولا يستنجي من نجاسته، ويكشف عورتَه للناس حين يَبُولُ، وهو عارٍ من العلم والعملِ الصالح.

وقد خصَّص قومٌ هذا العمومَ، فحكى مكي عن ابن عباس: لو كنتُ أعلم السَّنَةَ المُجْدِبةَ لأَعْدَدْتُ لها من المُخْصِبة[3].

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٥.
(٢) لم أقف عليه، وسلف عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٥، وذكره بنحوه النحاس في معاني القرآن ٢/ ٢٧٦، وابن الجوزي في زاد المسير ٣/ ٣٠٠، وهو من رواية أبي صالح عن ابن عباس كما ذكر ابن الجوزي، =

وقال قوم: أوقاتَ النصر لتوخَّيْتُها.

وقال مجاهدٌ وابن جُريجٍ: لو كنتُ أعلم أَجَلي لاستكثرتُ من العمل الصالح[1].

وقيل: ولو كنتُ أعلم وقتَ الساعة لأخبرتُكم حتى تُوْقنوا.

وقيل: ولو كنت أعلم الكتبَ المنزلةَ لاستكثرتُ من الوحي.

وقيل: ولو كنت أعلم ما يريده الله مني قبل أن يُعرِّفنيه لفَعَلْتُه.

وينبغي أن تُجعل هذه الأقوالُ وما أشبهها مُثُلًا لا تخصيصاتٍ لعموم الغيب.

والظاهرُ أنَّ قوله: «وما مسَّني السوءُ» معطوفٌ على قوله: «لاستكثرتُ من الخير» فهو من جواب «لو»، ويوضِّح ذلك أنه تقدَّم قولُه: «قل لا أملكُ لنفسي نفعًا ولا ضرًّا» فقابَلَ النفعَ بقوله: «لاستكثرتُ من الخير» وقابَلَ الضرَّ بقوله: «وما مسَّني السوءُ»، ولأنَّ المترتِّبَ على تقدير علم الغيب كلاهما، وهما اجتلابُ النفع واجتنابُ الضرّ.

ولم تَصْحَبْ [اللامُ][2] «ما» النافيةَ جوابَ «لو» لأنَّ الفصيح أن لا تَصْحَبها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

والظاهرُ عمومُ «الخير» وعدمُ تعيين «السوء»، وقيل: «السوء»: تكذيبُهم له مع أنه كان يُدْعَى الأمين. وقيل: الجدب. وقيل: الموت. وقيل: الغلبةُ عند اللقاء. وقيل: الخسارةُ في التجارة. وقال ابن عباس: الفقر[3].

وينبغي أن تُجعَلَ هذه الأقوالُ خَرَجَتْ على سبيل التمثيل لا الحصرِ، فإنَّ الظاهر في «الغيب» و«الخير» و«السوء» عدمُ التعيين.

= وأخرج ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٢٩ من طريق الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه، فما أبيع شيئاً إلا ربحت فيه، ولا يصيبني الفقر.

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٦١٦.

(٢) زيادة يقتضيها السياق، مستفادة من كلام السمين في الدر ٥/ ٥٣٣.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٢٩.

وقيل: تمَّ الكلامُ عند قوله: «لاستَكْثَرْتُ من الخير» ثم أخبر أنه ما مسَّه السوءُ، وهو الجنونُ الذي رَمَوْه به، وقال مُؤَرِّجٌ السَّدُوسيُّ: «السوء»: الجنونُ بلغة هذيل[1].

وهذا القولُ فيه تفكيكٌ لنظم الكلام، واقتصارٌ على أن يكون جوابُ «لو» «لاستكثرتُ من الخير» فقط، وتقديرُ حصول علم الغيب يترتَّب عليه الأمران لا أحدُهما، فيكون إذ ذاك جوابًا قاصرًا.

﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ لمَّا نَفَى عن نفسه عِلْمَ الغيب أَخْبرَ بما بُعِثَ به من النذارة ومتعلَّقُها المَخُوفات، والبشارةِ ومتعلَّقُها المحبوبات، والظاهرُ تعلُّقهما بالمؤمنين لأنَّ منفعتهما معًا وجَدْواهما لا تَحْصُلُ إلا لهم، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وقيل: معنى «لقوم يؤمنون»: يُطْلَبُ منهم الإيمانُ ويُدْعَوْن إليه، وهؤلاء الناسُ أجمع.

وقيل: أخبر أنه نذيرٌ وتمَّ الكلامُ، ومعناه أنه نذيرٌ للعالَم كلِّهم، ثم أَخبر أنه بشيرٌ للمؤمنين به، فهو وعدٌ لمن حصل له الإيمان.

وقيل: حُذِف متعلَّق النذارةِ، ودَلَّ على حذفه إثباتُ مُقابِله، والتقدير: نذيرٌ للكافرين وبشيرٌ لقوم يؤمنون، كما حُذف المعطوفُ في قوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: والبرد.

وبدأ بالنذارة لأن السائلين عن الساعة كانوا كفارًا: إمَّا مشركو قريش، وإما اليهودُ، فكان الاهتمامُ بذكر الوصف من قوله: «إن أنا إلَّا نذير» آكَدُ وأَوْلَى بالتقديم، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٥.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا
حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾
أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾
وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾
أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ
يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾
وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ
بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾
وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ
إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا
قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا
وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ
رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾.

المفردات

صَمَتَ يَصْمُتُ ـ بضم الميم ـ صَمْتًا وصُماتًا: سكت، وإِصْمِتُ: فلاةٌ معروفةٌ، وهي مسمَّاةٌ بفعل الأمر قُطِعَتْ همزتُه، إذ ذاك قاعدةٌ في تسميةٍ بفعلٍ فيه همزةُ وصلٍ، وكُسرت الميم لأنَّ التغيير يأنسُ بالتغيير، ولئلَّا يَدخلَ في وزنٍ ليس في الأسماء.

البَطْش: الأخذُ بقوةٍ، بَطَشَ يبطُشُ بضمِّ الطاء وكسرها.

النَّزْغ: أدنى حركةٍ تكون، ومن الشيطان أدنى وسوسةٍ، قاله الزجَّاج[1].

وقال ابن عطية: حركةٌ فيها فسادٌ، وقلَّما تُستعمل إلَّا في فِعْلِ الشيطان؛ لأنَّ حركاته مسرعةٌ مفسدةٌ[2].

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٣٩٦.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٥.

وقيل هو لغةً: الإصابةُ تَعْرِضُ عند الغضب. وقال الفرَّاء: الإغراء والإغضاب(١).

الإنصات، قال الفرَّاء: هو السُّكوت للاستماع(٢). يقال: نَصَتَ وأَنْصَتَ وانْتَصَتَ بمعنًى واحدٍ، وقد ورد الإنصاتُ متعدِّيًا في شعر الكُمَيْت(٣) قال:

أبوك الذي أَجْدَى عليه بنصره فأَنْصَتَ عنِّي بعده كلَّ قائلِ

قال(٤): يريد: فأَسْكَتَ عنِّي(٥).

الآصال: جمع أُصُلٍ، وهو العَشِيُّ، كعُنُقٍ وأعناق، أو: جمعُ أصيلٍ، كيَمينٍ وأيمان، ولا حاجةَ لدعوى أنه جمعُ جمعٍ كما ذهب إليه بعضُهم؛ إذ ثبت أنَّ أُصُلًا مفردٌ وإن كان يجوزُ جمعُ أصيلٍ على أُصُل فيكون جمعًا ككَثيبٍ وكُثُب، وممَّن ذهب إلى أنَّ آصالًا جمعُ أُصُلٍ ومفردُ أُصُلٍ أَصيلٌ: الفرَّاء(٦). ويقال: جئناهم مُؤْصِلينَ، أي: عند الأَصِيلِ.

* * *

التفسير ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ مناسبةُ هذه الآيةِ لِما قَبْلَها أنه لمَّا تقدَّمَ سؤالُ الكفار عن الساعة ووقتِها، وكان فيهم مَن لا يؤمنُ بالبعث، ذَكر ابتداءَ خلق الإنسان وإنشائه تنبيهًا على أنَّ الإعادة ممكنةٌ كما أنَّ

(١) لم أقف عليه، وقد فسر الفراء قوله تعالى: «ينزغنك» في معاني القرآن ٣/ ١٨ بقوله: يصدنَّك عن أمرنا إياك.

(٢) لم أقف عليه عن الفراء، وقاله القاضي عياض في مشارق الأنوار ٢/ ١٤، والزمخشري في الفائق ٣/ ٤٣١.

(٣) كذا ذكر، والذي في المصادر أنه للراعي النميري. ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٤٧، والاشتقاق لابن دريد ١/ ١١٠، ومنتهى الطلب ٦/ ٢٧، وهو في ديوانه ص٢٠٩. وورد دون نسبة في الزاهر لابن الأنباري ٢/ ٧، وتهذيب اللغة ١٢/ ١٥٥، واللسان والتاج (نصت).

(٤) في تهذيب اللغة واللسان والتاج القائل هو الأصمعي.

(٥) وهذه رواية الديوان والاشتقاق ومنتهى الطلب، وفي باقي المصادر مثل رواية المصنف، وقال الأزهري: ويروى: كلُّ قائل.

(٦) تفسير الرازي ١٥/ ١٠٩، ونقل النحاس في إعراب القرآن ٢/ ١٧٣ عن الفراء: أُصُل: جمع أصيل، وقد يكون «أُصُل» واحدًا.

الإنشاء كان ممكنًا، وإذا كان إبرازُه من العَدَم الصِّرْف إلى الوجود واقعًا بالفعل فإعادتُه أَحْرَى أن تكون واقعةً بالفعل.

وقيل: وجهُ المناسَبةِ أنه لمَّا بيَّن الذين يُلْحِدون في أسمائه ويشتقُّون منها أسماءً لآلهتهم وأصنامهم، وأمر بالنظر والاستدلال المؤدِّي إلى تفرُّده بالإلهية والرُّبوبية، بيَّن هنا أنَّ أصل الشرك من إبليس لآدم وزوجته حين تمنَّيا الولدَ الصالحَ وأجاب الله دعاءهما، فأدخل إبليسُ عليهما الشركَ بقوله: سمِّياه عبدَ الحارث فإنه لا يموت. فَفَعَلَا ذلك[١].

وقال أبو عبد الله الرازي ما ملخَّصه: لمَّا أَمَر بالنظر في الملكوت الدَّالِّ على التوحيد، وقَسَم خَلْقَه إلى مؤمنٍ وكافرٍ، ونَفَى قدرةَ أحدٍ من خَلْقِه على نفع نفسه أو ضرِّها، رجع إلى تقرير التوحيد[٢]. انتهى.

والجمهورُ على أنَّ المراد بقوله: «من نفسٍ واحدة» آدمُ عليه السلام، فالخطابُ بـ«خلقكم» عامٌّ، والمعنى: إنكم تفرَّعْتُم من آدمَ عليه السلام، وأنَّ معنى «وجَعَلَ منها زوجَها» هي حواء، و«منها»: إمَا من جسم آدم من ضلعٍ من أضلاعه، وإمَّا أن يكون المعنى: من جنسها، كما قال تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ وقد مرَّ هذان القولان في أول «النساء» مشروحَيْنِ بأكثرَ مِن هذا، ويكونُ الإخبارُ بعد هذه الجملة عن آدمَ وحواءَ، ويأتي تفسيرُه إن شاء الله تعالى، وعلى هذا القولِ فسَّر

---

(١) ينظر ما ورد من أخبار في هذه القصة في تفسير الطبري ١٠/ ٦٢١-٦٢٨، وقال عنها ابن كثير عند تفسير هذه الآية: وهذه الآثار يظهر عليها ـ والله أعلم ـ أنها من آثار أهل الكتاب. اهـ. وقد روي فيها حديث مرفوع عن النبي ﷺ أخرجه أحمد (٢٠١١٧)، والترمذي (٣٠٧٧)، والطبري ١٠/ ٦٢٣ من طريق الحسن، عن سمرة بن جندب، عن النبي ﷺ، وأعله ابن كثير رحمه الله بعلل؛ منها: أنه روي موقوفًا من قول سمرة؛ أخرجه الطبري ١٠/ ٦٢٤، ومنها أن الحسن نفسه روي عنه بأسانيد صحيحة تفسيرُ الآية بغير هذا، قال: ولو كان الحديث عنده محفوظًا لمَا عَدَل عنه هو ولا غيره، فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب مَن آمن منهم. اهـ. وينظر أيضًا ما قاله محققو المسند في تضعيف هذا الحديث، وسيرد مزيد كلام على هذه القصة فيما سيأتي من تفسير الآية.

(٢) ورد الكلام بنحوه مختصراً في تفسير الرازي ١٥/ ٨٥.

الزمخشريُّ الآية[١]، وقد ردَّ هذا القولَ أبو عبد الله الرازيُّ وأَفْسَدَه من وجوه:

الأول: «فتعالى الله عمَّا يشركون» فدلَّ على أنَّ الذين أتوا بهذا الشرك جماعةٌ.

الثاني: أنه قال بعده: «أيُشْرِكون ما لا يخلق شيئًا وهم يُخلقون»، وهذا ردٌّ على مَن جعل الأصنام شركاءَ، ولم يَجْرِ لإبليسَ في هذه الآية ذكرٌ.

الثالث: لو كان المرادُ إبليسَ لقال: أيشركون مَن لا يخلق.

ثم ذكر الرازي ثلاثةَ وجوهٍ أُخَرَ من جهة النظر يُوْقَفُ عليها من كتابه[٢].

وقال الحسن وجماعةٌ: الخطابُ لجميع الخلق، والمعنى في «هو الذي خلقكم من نفسٍ واحدة» من هيئةٍ واحدةٍ وشكلٍ واحدٍ، «وجَعَل منها زوجَها» أي: من جنسها، ثم ذكر حالَ الذَّكَر والأنثى من الخلق، ومعنى «جَعَلا له شركاء» أي: صَرَفاه عن الفطرة إلى الشرك، كما جاء: «ما مِنْ مولودٍ إلَّا يُوْلَدُ على الفطرة، فأَبَواه هما اللذانِ يُهوِّدانِه وينصِّرانه ويمجِّسانه»[٣].

وقال القفَّال نحوَ هذا القولِ، قال: هو الذي خَلَقَ كلَّ واحدٍ منكم من نفسٍ واحدةٍ، وجَعَلَ من جنسها زوجَها، وذكر حال الزوج والزوجة، و«جَعَلَا» أي: الزوجُ والزوجةُ لله تعالى شركاءَ فيما آتاهما؛ لأنهما تارةً ينسبون ذلك الولدَ إلى الطبائع كما هو قولُ الطَّبائعيين، وتارةً إلى الكواكب كما هو قولُ المنجِّمين، وتارةً إلى الأصنام والأوثان كما هو قولُ عَبَدةِ الأصنام[٤]. انتهى، وعلى هذا لا يكونُ لآدمَ وحواءَ ذكرٌ في الآية.

وقيل: الخطاب بـ«خَلَقكم» خاصٌّ، وهو لمشركي العرب، كانوا يقرِّبون المولودَ للَّات والعُزَّى والأصنام تبرُّكًا بهم في الابتداء، وينقطعون بأملهم إلى الله تعالى في ابتداءِ خلق الولد إلى انفصاله، ثم يُشْرِكون، فحصَلَ التعجُّبُ منهم.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٣٦.

(٢) تفسير الرازي ١٥/ ٨٦.

(٣) معنى هذا القول أخرجه عن الحسن الطبريُّ ١٠/ ٦٢٩، ولفظه في القرطبي ٩/ ٤١١ لكن دون نسبة. والحديث المرفوع أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) وتفسير الرازي ١٥/ ٨٦-٨٧.

وقيل: الخطابُ خاصٌّ أيضًا، وهو لقريشٍ المعاصرين للرسول ﷺ، و«نفسٍ واحدةٍ» هو قُصيٌّ، «منها» أي: من جنسها زوجةً عربيةً قُرشيةً «ليسكن إليها»، والصالح: الولدُ السويُّ، «جَعَلَا له شركاءَ» حيث سمَّيا أولادهما الأربعةَ: عبد مَنافٍ، وعبد العُزَّى، وعبد قصيٍّ، وعبد الدار، والضمير في «يشركون» لهما ولأعقابهما الذين اقتَدَوا بهما في الشرك[١]. انتهى.

﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَاۖ﴾ ليطمئنَّ ويميلَ ولا يَنْفِرَ؛ لأنَّ الجنس إلى الجنس أَمْيَلُ، وبه آنَسُ، وإذا كان «منها» على حقيقته فالسكونُ والمحبَّةُ أبلغُ، كما يسكنُ الإنسانُ إلى ولده ويحبُّه محبةَ نَفْسِه أو أكثر لكونه بعضًا منه، وأنَّث في قوله: «منها» ذهابًا إلى لفظ النفس، ثم ذكَّر في قوله: «ليسكن» حملًا على معنى النفس؛ ليبيِّن أنَّ المراد بها الذَّكَرُ آدمُ أو غيرُه على اختلاف التأويلات، وكان الذَّكَر هو الذي يسكنُ إلى الأنثى ويتغشَّاها، فكان التذكيرُ أحسنَ طِباقًا للمعنى.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦۖ﴾ إن كان الخبرُ عن آدم فخلْقُ حواءَ كان في الجنة، وأمَّا التغشِّي والحملُ فكان في الأرض، والتغشِّي والغشيانُ والإتيانُ كنايةٌ عن الجماع، ومعنى الخفَّة: أنها لم تَلْقَ به من الكَرْب ما يَعْرِضُ لبعض الحبالَى، ويحتملُ أن يكون «حَمْلًا» مصدرًا وأن يكون ما في البطن، والحَمْلُ بفتح الحاء: ما كان في بطنٍ أو على رأسِ الشجرة، وبالكسر ما كان على ظهرٍ أو على رأسِ غير شجرةٍ، وحكى يعقوبُ[٢] في حمل النخلة الكسرَ، وحكى أبو سعيدٍ[٣] في حمل المرأة: حَمْلٌ وحِمْلٌ.

وقال ابن عطية: الحَمْلُ الخفيفُ هو المنيُّ الذي تحمله المرأة في فَرْجِها[٤].

وقرأ حَمَّاد بن سَلَمة عن ابن كثيرٍ: «حِمْلًا» بكسر الحاء[٥].

---

(١) الكشاف ٢/ ١٣٧، وتفسير الرازي ٥/ ٨٧.

(٢) هو ابن السكيت، وذكر كلامه النحاس في إعراب القرآن ٢/ ١٦٧، وينظر إصلاح المنطق ص٣.

(٣) الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي، نحويُّ بغداد، قرأ القرآن على ابن مجاهد، وتصدر لإقراء القراءات واللغة، وجوَّد شرح كتاب سيبويه، وله: ألِفاتُ القطع والوصل، توفي سنة (٣٦٨هـ). السير ١٦/ ٣٤٧. وذكر كلامه القرطبي في التفسير ٩/ ٤٠٨-٤٠٩.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٦.

(٥) المصدر السابق.

وقرأ الجمهور: «فمرَّت به»، قال الحسن: أي: استمرَّت به[١]. وقيل: هذا على القلب، أي: فمرَّ بها، أي: استمرَّ بها. وقال الزمخشري: فمضتْ إلى وقتِ ميلاده من غيرِ إخداجٍ[٢] ولا إزلاق، وقيل: «حملت حملًا خفيفًا» يعني النطفة، «فمرَّت به»: فقامت به وقعدت فاستمرَّت به[٣]. انتهى.

وقرأ ابن عباس فيما ذكر النقَّاشُ وأبو العالية ويحيى بن يَعْمَرَ وأيوب: «فَمَرَتْ به» خفيفةَ الراء من المِرْيَة[٤]، أي: فشَكَّتْ فيما أصابها: أهو حملٌ أم[٥] مرضٌ؟ وقيل: معناه: استمرَّت به لكنهم كرهوا التضعيفَ فخفَّفوه، نحو ﴿وَقَرْنَ﴾ [الأحزاب: ٣٣] فيمَن فتح من القَرار[٦].

وقرأ عبد الله بن عمرو بن العاصي والجَحْدَريُّ: «فمارَتْ به» بألفٍ وتخفيفِ الراء[٧]، أي: جاءت وذهبت وتصرَّفت به، كما تقول: مارت الريحُ مَوْرًا، ووزنه: فَعَلَ.

وقال الزمخشري: من المِرْيَة، كقوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ و﴿أَفَتَمْرُونَهُۥ﴾[٨] [النجم: ١٢] ومعناه ومعنى المخفَّفة «فمَرَتْ»: وَقَعَ في نفسها ظنُّ الحمل وارتابت به[٩]. ووزنُه فاعَلَ.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ١/٢٤٨، والطبري ١٠/٦١٨.
(٢) تصحفت في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع إلى: إخراج، والمثبت من باقي النسخ والكشاف، والإخداج: مجيء الولد ناقصًا وإن كان أيامه تامة. ينظر القاموس (خدج).
(٣) الكشاف ٢/١٣٦، وفيه: . . . فقامت به وقعدت، وقرأ ابن عباس: «فاستمرت به».
(٤) القراءات الشاذة ص٤٧، والمحتسب ١/٢٦٩، والمحرر الوجيز ٢/٤٨٦، وزاد المسير ٢/٣٠١.
(٥) في (أ) و(د١) و(ز١) و(ع) والمطبوع: أو.
(٦) هي قراءة عاصم ونافع من السبعة كما سيرد عند تفسير الآية.
(٧) القراءات الشاذة ص٤٧-٤٨، والمحتسب ١/٢٧٠، والكشاف ٢/١٣٦، والمحرر الوجيز ٢/٤٨٦، وزاد المسير ٣/٣٠١.
(٨) هي قراءة حمزة والكسائي كما سيرد عند تفسير الآية، وقصد الزمخشري تشبيه القراءتين في سورة النجم بالقراءتين هنا، وهما: «مَرَتْ» و«مارَتْ».
(٩) الكشاف ٢/١٣٦.

وقرأ عبد الله: «فاستمرَّتْ بحَمْلِها»[١]. وقرأ سعد بن أبي وقَّاص وابنُ عباس أيضًا والضحاكُ: «فاستمرَّتْ به»[٢]. وقرأ أبي بن كعب والجَرْميّ[٣]: «فاستمارتْ به» والظاهرُ رجوعُه إلى المرية، بُنِيَ منها اسْتَفْعَلَ كما بُني منها فاعَلَ في قولك: مارَيْتُ.

﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩﴾ أي: دخلت في الثِّقل، كما تقول: أصبح وأمسى، أو: صارت ذاتَ ثِقْلٍ، كما تقول: أَتْمَرَ الرجلُ وأَلْبَنَ: إذا صار ذا تَمْرٍ ولَبَنٍ.

وقال الزمخشري: أي: حان وقتُ ثقلها، كقوله: أَقْرَبَت[٤].

وقرئ: «أُثقلت» على البناء للمفعول[٥].

«ربَّهما» أي: مالك أمرِهما، الذي هو الحقيقُ أن يُدْعَى، ومتعلَّقُ الدعاء محذوفٌ يدلُّ عليه جملةُ جواب القسم، أي: دَعَوَا الله ورَغِبَا إليه في أنْ يُؤْتِيَهما صالحًا، ثم أقسما على أنهما يكونان من الشاكرين إنْ آتاهما صالحًا؛ لأنَّ إيتاءَ الصالح نعمةٌ من الله على والديه، كما جاء في الحديث أن عملَ ابنِ آدمَ ينقطعُ إلا من ثلاثٍ، فذَكَر الولدَ الصالح يَدعو لوالده[٦]، فينبغي الشكرُ عليها إذ هي من أجلِّ النعم.

ومعنى «صالحًا»: مطيعًا للهِ تعالى، أي: ولدًا طائعًا، أو: ولدًا ذَكَرًا؛ لأن الذكورةَ من الصلاح والجودة. قال الحسن سمَّياه[٧] غلامًا. وقال ابن عباس: بشرًا سويًّا سليمًا[٨].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٦.
(٢) القراءات الشاذة ص٤٨، والمحتسب ١/ ٢٧٠، والكشاف ٢/ ١٣٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٦، وزاد المسير ٣/ ٣٠١.
(٣) كذا في النسخ، والذي في زاد المسير ٣/ ٣٠١ (والكلام منه): والجوني. وهو أبو عمران عبد الملك بن حبيب البصري.
(٤) الكشاف ٢/ ١٣٦، وفيه: ... ثقل حملها كقولك: أقربت. وأقربت الحامل فهي مُقْرِب: دنا وِلادُها. اللسان (قرب).
(٥) القراءات الشاذة ص٤٨ عن اليماني.
(٦) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٧) كذا في النسخ، وفي المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٦ (والكلام منه): معناه، وهو الصواب. والخبر بذلك عن الحسن أخرجه عبد الرزاق ١/ ٢٤٨، والطبري ١٠/ ٦٢٠، وابن أبي حاتم ٥/ ١٦٣٣.
(٨) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٦.

و«لنكوننَّ» جوابُ قسمٍ محذوفٍ، تقديره: وأقْسَما لئن آتيتنا، أو: مُقْسِمينَ لئن آتيتنا. وانتصابُ «صالحًا» على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ«آتيتنا»، وفي «المُشْكِل» لمكّي أنه نعتٌ لمصدرٍ، أي: إيتاءً صالحًا[١].

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَآ﴾ مَن جعَلَ الآيةَ في آدم وحواء جَعَلَ الضمائر والأخبار لهما، وذكروا في ذلك محاوراتٍ جرت بين إبليس وآدمَ وحواءَ لم تثبت في قرآنٍ ولا حديثٍ صحيحٍ فاطَّرحْتُ ذكرها.

وقال الزمخشري: والضميرُ في «آتيتنا» و«لنكوننَّ» لهما ولكلِّ مَن تناسَلَ مِن ذرِّيتهما، «فلما آتاهما» ما طَلَبا من الولد الصالح السَّويِّ «جَعَلا له شركاء» أي: جَعَل أولادُهما له شركاءَ، على حذف المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مقامَه، وكذلك «فيما آتاهما» أي: آتى أولادَهما، وقد دلَّ على ذلك بقوله تعالى: «فتعالى اللهُ عما يشركون» حيث جمع الضميرَ، وآدمُ وحواءُ بريئان من الشرك، ومعنى إشراكهم فيما آتاهم اللهُ: تسميةُ أولادِهم بعبد العُزَّى وعبدِ مَنَافٍ وعبدِ شمسٍ، وما أشبه ذلك، مكانَ: عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم[٢]. انتهى.

وفي كلامه تفكيكٌ للكلام عن سياقه، وغيرُه ممَّن جَعَلَ الكلام لآدم وحواءَ جعل الشركَ تسميتَهما الولدَ الثالثَ عبد الحارث؛ إذ كان قد مات لهما ولدان قبله كانا سمَّيا كلَّ واحدٍ منهما عبد الله، فأشار عليهما إبليسُ في أن يسمِّيا هذا الثالثَ عبد الحارث، فسمَّياه به[٣] حرصًا على حياته[٤]، فالشركُ الذي جَعَلا لِله هو في التسمية فقط، ويكونُ الضميرُ في «يشركون» عائدًا على آدم وحواء وإبليس؛ لأنه مدبِّرٌ معهما تسميةَ الولد عبدَ الحارث.

وقيل: «جَعَلا»، أي: جَعَل أحدُهما يعني حواءَ، وأمَّا مَن جعل الخطابَ

---

(١) مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٠٧.

(٢) الكشاف ٢/ ١٣٧.

(٣) قوله: فسمَّياه به، من (د١) والمطبوع، وليس في باقي النسخ.

(٤) أخرج هذه القصة عن جمع الطبري ١٠/ ٦٢١-٦٢٨، وقد سلف الكلام على ما ورد فيها من أخبار في بداية تفسير الآية، ولعل هذه الأخبار هي المقصودة بما سلف قريباً من قول المصنف: لم تثبت في قرآنٍ ولا حديث صحيح.

للناس وليس المرادُ في الآية بالنفس وزوجِها آدمَ وحواءَ، أو جَعَل الخطابَ لمشركي العرب، أو لقريش، على ما تقدَّم ذكرُه، فيتَّسِقُ الكلام اتِّساقًا حسنًا من غير تكلُّفِ تأويلٍ ولا تفكيكٍ.

وقال السدِّي والطبري: تَمَّ خبرُ آدم وحواء في قوله: «فيما آتاهما»، وقولُه: «فتعالى الله عمَّا يشركون» كلامٌ منفصلٌ يرادُ به مشركو العرب. قال ابن عطية[١]: وهذا تَحَكُّمٌ لا يساعدُه اللفظ. انتهى.

والضميرُ في «له» عائدٌ على الله، ومَن زَعَم أنه عائدٌ على إبليس[٢] فقولُه بعيدٌ؛ لأنه لم يَجْرِ له ذِكْرٌ، وكذا يَبْعُدُ قولُ مَن جَعَلَه عائدًا على الولد الصالح، وفسَّر الشركَ بالنصيب من الرزق في الدنيا، وكانا قبله يأكلان ويشربان وحدَهما، ثم استأنف فقال: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ يعني الكفار.

وقرأ ابن عباس وأبو جعفر وشيبةُ وعكرمةُ ومجاهدٌ وأبان بن تَغْلِبَ ونافعٌ وأبو بكرٍ عن عاصم: «شِرْكًا» على المصدر[٣]، وهو على حذف مضافٍ، أي: ذا شِرْكٍ، ويمكن أن يكون أطلق الشِّرك على الشريك، كقولك: زيدٌ عَدْلٌ.

قال الزمخشري: أو أَحْدَثا لله شِركًا[٤] في الولد. انتهى.

وقرأ الأخوان وابنُ كثير وأبو عمرٍو «شركاء» على الجمع، ويَبْعُدُ توجيهُ الآية أنها في آدم وحوَّاءَ على هذه القراءة، وتظهر باقي الأقوال عليها.

وفي مصحف أبيٍّ: «فلمَّا آتاهما صالحًا أشركا فيه»[٥].

وقرأ السُّلمي: «عمَّا تُشرِكون» بالتاء التفاتًا من الغيبة للخطاب[٦].

(١) في المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٧، وما قبله منه، وكلام الطبري والسدي في تفسير الطبري ١٠/ ٦٣٠.

(٢) والمعنى عليه: جعلا لإبليس شركاء في اسمه حيث سمَّيَا ولدهما بعبد الحارث.

(٣) ينظر السبعة ص٢٩٩، والتيسير ص١١٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٧، والنشر ٢/ ٢٧٣.

(٤) في (أ) و(دا) و(زا) و(ع): إشراكًا، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الكشاف ٢/ ١٣٧.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٧.

(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٨.

وكان الضميرُ بالواو انتقالًا من التثنية للجمع، وتقدَّم توجيهُ ضمير الجمع على مَن يعود.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١﴾ أي: أيُشرِكون الأصنامَ وهي لا تَقدِرُ على خَلْق شيءٍ كما يَخْلُقُ الله، «وهم يُخلقون» أي: يَخلقُهم الله تعالى ويُوجِدُهم كما يُوْجِدُكم، أو يكون معناه: وهم يُنْحَتون ويُصْنَعون، فعَبَدَتُهم يَخْلُقونهم وهم لا يقدرون على اختلاق[١] شيءٍ، فهم أعجزُ من عَبَدَتهم. و«هم» عائدٌ على معنى «ما»، وقد عاد الضمير في «يخلق» على لفظ «ما».

وعبَّر عن الأصنام بقوله: «وهم» ـ كأنها تعقلُ ـ على اعتقادِ الكفار فيها، وبحسب أسمائهم[٢].

وقيل: أتى بضميرِ مَن يَعْقِلُ لأنَّ من جملةِ مَن عُبِدَ الشياطينُ والملائكةُ وبعضُ بني آدم، فغلَّب مَن يعقلُ، وكلٌّ مخلوقٌ للهِ تعالى.

ويحتملُ أن يكون «وهم» عائدًا على ما عاد عليه ضميرُ الفاعل في «أيشركون»، أي: وهؤلاء المشركون يُخلقون، أي: كان يجبُ أن يَعتبروا بأنَّهم مخلوقون فيَجْعَلوا إلههم خالِقَهم لا مَن لا يخلقُ شيئًا. وقرأ السُّلميُّ: «أيشركون» بالتاء من فوق[٣]، فيظهرُ أن يكون «وهم» عائدًا على «ما» على معناها.

ومَن جَعَلَ ذلك في آدم وحوَّاءَ قال: إنَّ إبليس جاء إلى آدم وقد مات له ولدٌ اسمُه عبدُ الله، فقال: إن شئتَ أن يعيش لك الولدُ فسمِّه عبدَ شمسٍ، فسمَّاه كذلك، فإياه عنى بقوله: «أيُشْرِكون ما لا يَخْلُقُ شيئًا وهم يُخلقون» عائدٌ على آدم وحواء والابنِ المسمَّى عبدَ شمسٍ[٤].

(١) في (د١) والمطبوع: خلق.

(٢) أي: بحسب تسميتهم إياها آلهة. ينظر الكشاف ٢/ ١٣٧، وروح المعاني ٩/ ٥٣٩.

(٣) القراءات الشاذة ص٤٨، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٨.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٨، وأخرجه بنحوه ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٣٥، وهذه الرواية تخالف غيرها من الروايات الواردة في القصة، والتي فيها أن الشيطان أوعز إليهما أن يسمياه بعبد الحارث، وقد تقدم الكلام عليها قريباً.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ أي: ولا تَقْدِرُ الأصنامُ لِمَن يعبدُهم على نصرٍ ولا لأنفسهم إن حَدَث بهم حادثٌ، بل عَبَدَتُهم هم الذين يدفعون عنها ويَحْمُونها، ومَن لا يقدرُ على نصرِ نفسه كيف يقدرُ على نصرِ غيرِه.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾ الظاهرُ أن الخطاب للكفار؛ انْتَقَلَ من الغيبة إلى الخطاب على سبيلِ الالتفاتِ والتوبيخِ على عبادةِ غيرِ الله، ويدلُّ على أنَّ الخطاب للكفار قولُه: بعدُ: «إنَّ الذين تَدْعون من دون الله عبادٌ أمثالُكم».

وضميرُ المفعول عائدٌ على ما عادت عليه هذه الضمائر قبلُ، وهي الأصنامُ، والمعنى: وإنْ تَدْعوا هذه الأصنامَ إلى ما هو هدًى ورشادٌ أو إلى أن يَهْدُوكم كما تطلبون من الله الهدى والخير، لا يتَّبعوكم على مُرادِكم ولا يُجيبوكم، أي[1]: ليست فيهم هذه القابليةُ؛ لأنها جمادٌ لا تعقل، ثم أكَّد ذلك بقوله: «سواءٌ عليكم»، أي: دعاؤكم إياهم وصمتُكم عنهم سِيَّان، فكيف يُعبدُ مَن هذه حالُه؟!

وقيل: الخطابُ للرسول والمؤمنين، وضميرُ النصب للكفار، أي: وإن تدعوا الكفارَ إلى الهدى لا يقبلوا منكم، فدعاؤكم وصمتُكم سِيَّان، أي: ليست فيهم قابليةُ قبولٍ ولا هدًى.

وقرأ الجمهور: «لا يتَّبعوكم» مشدَّدًا هنا وفي «الشعراء»: ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الآية: ٢٢٤] من اتَّبع، ومعناها: لا يقتدوا بكم. وقرأ نافعٌ فيهما: «لا يَتْبعوكم» مخفَّفًا من تَبِعَ[2]، ومعناه: لا يَتْبعوا آثاركم.

وعُطفت الجملة الاسميةُ على الفعلية لأنها في معنى الفعلية، والتقدير: أم صمتُّم.

وقال ابن عطية: وفي قوله: «أَدَعَوْتُموهم أم أنتم» عطفُ الاسم على الفعل؛ إذ التقدير: أم صمتُّم، ومِثْلُ هذا قولُ الشاعر:

سواءٌ عليك النفرُ أم بِتَّ ليلةً ... بأهلِ القباب مِن نمير بنِ عامرِ[3]

---

(١) في (يه): إذ.

(٢) السبعة ص٢٩٩، والتيسير ص١١٥.

(٣) المحرر الوجيز ٢/٤٨٨، وذكر البيت أيضًا الفراء في معاني القرآن ١/٤٠١، والطبري

انتهى، وليس من عَطْفِ الاسم على الفعل، إنما هو مِن عَطْفِ الجملة الاسمية على الجملة الفعلية، وأمَّا البيتُ فليس من عَطْفِ الاسم على الفعل بل من عَطْفِ الجملة الفعلية على الاسم المقدَّر بالجملة الفعليّة، إذ أصلُ التركيب: سواءٌ عليك أنفرْتَ[١] أم بتَّ ليلةً، فأَوْقَع «النَّفر»[٢] موقعَ: أَنَفَرْتَ، وكانت الجملةُ الثانية اسميةً لمراعاة رؤوس الآي، ولأنَّ الفعل يُشعر بالحدوث واسمَ الفاعل يُشعِرُ بالثبوت والاستمرار، فكانوا إذا دَهَمهم أمرٌ مُعْضِلٌ فزعوا إلى أصنامهم، وإذا لم يحدث بَقُوا ساكتين، فقيل: لا فَرْقَ بين أن تُحْدِثوا لهم دعاءً وبين أن تستمرُّوا على صمتكم فتبقَوْا على ما أنتم عليه من عادة صمتكم، وهي الحالةُ المستمرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ هذه الجملةُ على سبيل التوكيد لمَا قبلها في انتفاء كونِ هذه الأصنام قادرةً على شيءٍ من نفعٍ أو ضرٍّ، أي: الذين تَدْعونهم وتسمُّونهم آلهةً من دون الله[٣] الذي أوجدها وأوجدكم هم عبادٌ، وسمَّى الأصنامَ عِبادًا وإن كانت جماداتٍ لأنهم كانوا يعتقدون فيها أنها تَضُرُّ وتنفعُ، فاقتضى ذلك أن تكونَ عاقلةً. و«أمثالكم» قال الحسن: في كونها مملوكةً لله[٤].

وقال التبريزي: في كونها مخلوقةً.

وقال مقاتل: المرادُ طائفةٌ من العرب من خُزاعةَ كانت تعبدُ الملائكةَ، فأَعْلَمهم تعالى أنهم عبادٌ أمثالُهم لا آلهةٌ[٥]. انتهى، فعلى هذا جاء الإخبارُ إخبارًا عن العقلاء.

= ١٠/ ٦٣٥. ووقع في النسخ والمحرر ونسخ الطبري: الفقر؛ قال الأستاذ محمود شاكر في تحقيق الطبري ١٣/ ٣٢١: وهو خطأ محض، صوابه في المعاني. اهـ. ويعني معاني القرآن للفراء، والمثبت منه، وهو الموافق لما في مطبوع النهر على هامش البحر ٤/ ٤٤١.

(١) في النسخ: أفتقرت، وكذا في الموضع الثاني، والمثبت من المطبوع ومطبوع النهر ٤/ ٤٤١.

(٢) في النسخ: الفقر، والمثبت من المطبوع ومطبوع النهر.

(٣) لفظ الجلالة من (د١) والمطبوع.

(٤) ذكر عنه الجصاص في أحكام القرآن ٣/ ٣٧، والقرطبي ٩/ ٤١٥ قوله في تفسير الآية: مخلوقة أمثالكم. وهو عين القول الذي سيذكره المصنف عن التبريزي.

(٥) المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٦.

وقال الزمخشري[١]: «عبادٌ أمثالُكم» استهزاءٌ بهم، أي: قُصارى أمرهم أنْ يكونوا أحياءً عُقلاءَ، فإنْ ثَبَتَ ذلك فهم عبادٌ أمثالُكم لا تفاضُل بينكم، ثم أَبْطَلَ أن يكونوا عبادًا أمثالَكم[٢] فقال: «ألهم أرجلٌ يمشون بها». انتهى.

وليس كما زَعَم؛ لأنه تعالى حَكَم على هؤلاء المدعوِّين من دون الله أنهم عِبَادٌ أمثالُ الدَّاعينَ، فلا يقال في الخبر من الله: فإنْ ثَبَتَ ذلك؛ لأنه ثابتٌ، ولا يصحُّ أن يقال: ثم أبطل أن يكونوا عبادًا أمثالكم فقال: «ألهم أرجلٌ»؛ لأنَّ قولَه: «ألهم أرجلٌ» ليس إبطالًا لقوله: «عبادٌ أمثالُكم»؛ لأن المِثْليَّةَ ثابتةٌ: إمَّا في أنهم مخلوقون، أو في أنهم مملوكون مقهورون، وإنما ذلك تحقيرٌ لشأن الأصنام، وأنهم دونكم في انتفاءِ الآلات التي أُعدَّت للانتفاع بها مع ثبوتِ كونهم أمثالَكم فيما ذكر، ولا يَدُلُّ إنكارُ هذه الآلات على انتفاءِ المِثْليَّة فيما ذكر، وأيضًا فالإبطالُ لا يُتصوَّرُ بالنسبة إليه تعالى، لأنه يدلُّ على كذب أحد الخبرين، وذلك مستحيلٌ بالنسبة إلى الله تعالى، وقد بيَّنَّا ذلك في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقرأ ابنُ جبير: «إنْ» خفيفةً، و«عبادًا أمثالَكم» بنصب الدال واللام[٣]، واتَّفق المفسِّرون على تخريجِ هذه القراءةِ على أنَّ «إنْ» هي النافيةُ أُعملت عملَ «ما» الحجازية فَرَفعت الاسمَ ونصبت الخبر، فـ«عبادًا أمثالَكم» خبرٌ منصوبٌ[٤]، قالوا: والمعنى بهذه القراءة تحقيرُ شأن الأصنام ونَفْيُ مماثلَتِهم للبشر، بل هم أقلُّ وأحقرُ إذ هي جماداتٌ لا تفهم ولا تعقلُ.

وإعمالُ «إنْ» إعمالَ «ما» الحجازيةِ فيه خلافٌ؛ أجاز ذلك الكسائيُّ[٥] وأكثر الكوفيين، ومن البصريين ابنُ السرَّاج[٦] والفارسيُّ وابنُ جنِّي[٧]، ومَنَع من إعماله

---

(١) في الكشاف ٢/ ١٣٨.

(٢) في الكشاف: أمثالهم، وهو الأشبه.

(٣) القراءات الشاذة ص٤٨، والمحتسب ١/ ٢٧٠، والمحرر ٢/ ٤٨٩، والكشاف ٢/ ١٣٨.

(٤) ينظر معاني القرآن للنحاس ٣/ ١١٧، والكشاف ٢/ ١٣٨، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٩، والإملاء للعكبري ١/ ٢٩٠-٢٩١.

(٥) كما في الأزهية ص٤٦، وأمالي ابن الشجري ٣/ ١٤٤، ومغني اللبيب ص٣٥.

(٦) في الأصول في النحو ١/ ٢٣٥-٢٣٦.

(٧) ذكره عنهما ابن مالك في شرح التسهيل ١/ ٣٩٣، وقول ابن جني في المحتسب ١/ ٢٧٠.

الفرَّاءُ[١] وأكثرُ البصريين، واختلف النقلُ عن سيبويه[٢] والمبرِّد[٣]، والصحيحُ أنَّ

(١) كما في الأزهية ص٤٦، وأمالي ابن الشجري ٣/ ١٤٤، ومغني اللبيب ص٣٥.

(٢) نُقل عنه المنع في المقتضب ٢/ ٣٦٢، والأصول في النحو ١/ ٢٣٥، والأزهية ص٤٥، وأمالي ابن الشجري ٣/ ١٤٣، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٨٩، والإملاء للعكبري ١/ ٢٩١، ومغني اللبيب ص٣٥. ونقل جواز الإعمال عنه السهيلي كما ذكر المصنف في التذييل والتكميل ٤/ ٢٧٧، ونقل ذلك عن سيبويه أيضاً ابن مالك في شرح التسهيل ١/ ٣٩٣، وقد استنبطه من عبارة قالها سيبويه في الكتاب، قال ابن مالك: وأكثر النحويين يزعمون أن مذهب سيبويه في «إنْ» النافية الإهمال، وكلامه مشعر بأن مذهبه فيها الإعمال، وذلك أنه قال في باب «عدة ما يكون عليه الكلام» [الكتاب ٤/ ٢٢١]: «وأما «إنْ» مع «ما» في لغة أهل الحجاز فهي بمنزلة «ما» مع «إنَّ» الثقيلة، تجعلها من حروف الابتداء، وتمنعها أن تكون من حروف ليس»، فعُلم بهذه العبارة أن في الكلام حروفاً مناسِبة لـ«ليس» من جملتها «ما»، ولا شيء من الحروف يصلح لمشاركة «ما» في هذه المناسبة إلا «إنْ» و«لا» فتعيَّن كونهما مقصودَين. اهـ. وتعقبه المصنف في التذييل ٤/ ٢٨٠ بأن القواعد الكلّية لا تؤخذ من مثل قوله: «وتمنعها أن تكون من حروف ليس». وينظر تتمة كلامه ثمة. وجاء في الكتاب ٤/ ٢٢ أيضاً عبارة أخرى وقع الاختلاف في تأويلها، وهي قوله: «وتكون «إن» كـ«ما» في معنى ليس» وهذه العبارة جعلها الأستاذ أبو بكر بن طاهر كما في التذييل ٤/ ٢٨٠ نصًّا على أنَّ «إنْ» كـ«ما» تعمل عمل «ليس»، وقال الأستاذ أبو علي: هذا الكلام ليس بنص على ذلك؛ لأنه يحتمل أن يريد أنَّ «إنْ» تكون كـ«ما» في النفي. إلى آخر كلامه.
قلت: والظاهر أن الصواب مع من نقل عنه المنع؛ لأنه لم يَرِدْ عنه تصريح بالجواز، وقد نقل المصنف في التذييل ٤/ ٢٧٧ عن ابن عصفور أن الذي يعطيه كلام سيبويه أنها لا تعمل، قال: لأنه لم يذكرها في نواسخ الابتداء والخبر. اهـ. والذين نقلوا عنه الجواز إنما اعتمدوا على احتمالات واستنباطات من كلامه قد رُدَّ عليها كما تقدم، أضف إلى ذلك أن ممَّن نقل عنه المنع أبو العباس المبرد، وكان أعلم الناس في زمانه بكتاب سيبويه، وقد أخذه عن تلامذة أبي الحسن الأخفش، وكان الأخفش تلميذ سيبويه، وكان كما ذكروا الطريق إلى كتاب سيبويه. ينظر مقدمة الكتاب للأستاذ عبد السلام هارون ١/ ١٥، وفهرسة أبي بكر ابن خير الإشبيلي ص٣٠٥-٣٠٧.

(٣) نقل المصنف في التذييل والتكميل ٤/ ٢٧٧ القول بالمنع للمبرد عن السهيلي، لكن كلامه في المقتضب ٢/ ٣٦٢ صريح في جواز الإعمال، ونقله عنه ابن السراج في الأصول في النحو ١/ ٢٣٦، والهروي في الأزهية ص٤٦، وابن الشجري في أماليه ٣/ ١٤٤، وابن عطية في المحرر ٢/ ٤٨٩، والعكبري في الإملاء ١/ ٢٩١، وابن مالك في شرح التسهيل ١/ ٣٩٣، وابن هشام في المغني ص٣٥. ولعل إطلاق المصنف للخلاف عند سيبويه وأبي العباس المبرد سببه عدم وقوفه على صريح كلام المبرد في مقتضبه.

إعمالها لغةٌ، ثبت ذلك في النثر والنظم، وقد ذكرنا ذلك مُشْبَعًا في «شرح التسهيل»(١).

وقال النحاس: هذه قراءةٌ لا ينبغي أن يُقْرأ بها لثلاثِ جهاتٍ:

إحداها: أنها مخالِفةٌ للسَّوَاد.

الثانية: أنَّ سيبويه يختارُ الرفع في خبر «إنْ» إذا كانت بمعنى «ما» فيقول: إنْ زيدٌ منطلقٌ؛ لأنَّ عمل «ما» ضعيفٌ، و«إنْ» بمعناها فهي أضعفُ منها.

والثالثة: أنَّ الكسائيَّ رأى أنَّها في كلام العرب لا تكون بمعنى «ما» إلا أن يكون بعدها إيجابٌ(٢). انتهى.

وكلامُ النحَّاس هذا هو الذي لا ينبغي؛ لأنها قراءةٌ مَرْوِيةٌ عن تابعيٍّ جليلٍ، ولها وجهٌ في العربية، وأمَّا ثلاثُ الجهاتِ التي ذكرها فلا يَقْدَحُ شيءٌ منها في هذه القراءة:

أمَّا كونُها مخالِفةً للسَّواد فهو خلافٌ يسيرٌ جدًّا لا يضرُّ، ولعله كُتِبَ المنصوبُ على لغةِ ربيعةَ في الوقف على المنوَّن المنصوبِ بغير ألفٍ، فلا تكونُ فيه مخالَفةٌ للسواد.

وأمَّا ما حَكَى عن سيبويه فقد اختلف الفهمُ عن(٣) كلام سيبويه في «إنْ».

وأمَّا ما حكاه عن الكسائيِّ فالنقلُ عن الكسائيِّ أنه حَكَى إعمالَها وليس بعدها إيجابٌ.

والذي يَظْهرُ لي أنَّ هذا التخريجَ الذي خرَّجوه من أنَّ «إنْ» للنفي ليس بصحيحٍ؛ لأنَّ قراءة الجمهور تدلُّ على إثبات كونِ الأصنام عبادًا أمثالَ عابديها، وهذا التخريج يدلُّ على نفي ذلك، فيؤدِّي إلى عدم مطابقةِ أحد الخبرين الآخَرَ(٤)، وهو لا يجوزُ بالنسبة إلى الله تعالى.

---

(١) وهو التذييل والتكميل، والكلام فيه ٤/ ٢٧٧-٢٨١.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١٦٨.

(٣) في (د١) والمطبوع: في.

(٤) كلمة: الآخر، من (د١) والمطبوع، وجاء في (أ): الجزأين، بدل: الخبرين.

وقد خرَّجتُ هذه القراءةَ في «شرح التسهيل»[١] على وجهٍ غيرِ ما ذكروه، وهو أنَّ «إنْ» هي المخفَّفةُ من الثقيلة، وأعمْلَها عملَ المشدَّدة، وقد ثبت أنَّ «إنْ» المخفَّفةَ يجوزُ إعمالُها إعمالَ المشدَّدة في غير المضمَر بالقراءة المتواترة: ﴿وإنْ كلًّا لَمَا﴾[٢] [هود: ١١١]، وبنقلِ سيبويه عن العرب[٣]، لكنه نصبَ في هذه القراءة خبرها كما نَصَبَه عمر بن أبي ربيعة المخزومي في قوله:

إذا اسْوَدَّ جُنْحُ الليل فلتأتِ ولتكن ... خُطاكَ خِفافًا إنَّ حرَّاسنا أُسْدَا[٤]

وقد ذهب جماعةٌ من النحاة إلى جواز نصبِ أخبار «إنَّ» وأخواتها، واستدلُّوا على ذلك بشواهِدَ ظاهرةِ الدلالة على صحة مذهبهم، وتأوَّلها المخالفون[٥]، فهذه القراءةُ الشاذةُ تتخرَّجُ على هذه اللغة، أو تُتأوَّلُ على تأويل المخالفين لأهل هذا المذهب، وهو أنهم تأوَّلوا المنصوبَ على إضمارِ فعلٍ، كما قالوا في قوله:

يا ليت أيامَ الصِّبا رواجعا[٦]

إن تقديره: أقبلتْ رَوَاجِعا، فكذلك تُؤوَّل هذه القراءةُ على إضمار فعلٍ تقديره: إنِ الذين تَدْعون من دون الله خلقناهم[٧] عبادًا أمثالَكم، وتكونُ القراءتان قد توافَقَتا

---

(١) التذييل والتكميل ٤/ ٢٧٨.
(٢) هي قراءة نافع وابن كثير من السبعة، كما سيرد عند تفسير الآية.
(٣) الكتاب ٢/ ١٤٠.
(٤) البيت دون نسبة في شرح المقدمة الجزولية الكبير للشلوبين ٢/ ٨٠٠، وشرح التسهيل لابن مالك ١/ ٤٢٦، ومغني اللبيب ص٥٥.
(٥) ينظر تفصيل هذه المسألة في شرح المقدمة الجزولية ٢/ ٨٠٠-٨٠٦، وشرح التسهيل لابن مالك ١/ ٤٢٦، والتذييل والتكميل ٥/ ٢٦-٣٢، وشرح شواهد المغني للبغدادي ١/ ١٨٤، وذكر ابن سلام في طبقات فحول الشعراء ١/ ٧٨ أنها لغة رؤبة وقومه، لكن قال المصنف في الارتشاف ٣/ ١٢٤٢: وكثر ذلك في خبر ليت، ولم يحفظ في خبر «إنَّ» ولا خبر «لكنَّ».
(٦) الرجز للعجاج كما في طبقات فحول الشعراء ١/ ٧٨، وهو دون نسبة في الكتاب ٢/ ١٤٢، والأصول في النحو ١/ ٢٤٨، وأسرار العربية ص٢٥٩، وشرح المقدمة الجزولية ٢/ ٨٠٢، والتذييل والتكميل ٥/ ٢٨. وجعله البغدادي في الخزانة ١٠/ ٢٣٦ من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعرف قائلها، ولعله لم يقف عليه في طبقات فحول الشعراء.
(٧) في (د١) و(ع): تدعون، بدل: خلقناهم، وسقطت من (أ)، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الدر المصون ٥/ ٥٤١.

على معنًى واحدٍ، وهو الإخبارُ أنهم عبادٌ، ولا يكونُ تَنَافٍ بينهما وتخالُفٌ لا يجوز في حقِّ الله تعالى.

وقُرئ أيضاً «إنْ» مخفَّفةً ونصب «عبادًا» على أنه حالٌ من الضمير المحذوف العائد من الصِّلة على «الذين»، و«أمثالُكم» بالرفع على الخبر[١]، أي: إن الذين تدعونهم من دون الله في حال كونهم عبادًا أمثالُكم في الخلق أو في الملك، فلا يمكن أن يكونوا آلهةً.

«فادعوهم» أي: فاختَبِروهم بدعائكم: هل تقعُ منهم إجابةٌ أو لا تقع، والأمرُ بالاستجابة هو على سبيل التعجيز، أي: لا يمكن أن يُجيبوا، كما قال: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] ومعنى «إنْ كنتم صادقين»: في دعوى إلهيتهم واستحقاقِ عبادتهم، كقول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢].

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ هذا استفهامُ إنكارٍ وتعجبٍ وتبيينِ أنهم جمادٌ لا حراكَ لهم، وأنهم فاقدون لهذه الأعضاءِ ومنافِعِها التي خُلقت لأجْلها، فأنتم أفضلُ من هذه الأصنام إذ لكم هذا التصرُّفُ.

وهذا الاستفهامُ الذي معناه الإنكار قد يتوجَّه الإنكارُ فيه إلى انتفاءِ هذه الأعضاءِ وانتفاءِ منافعها، فيَتَسَلَّطُ النفيُ على المجموع كما فسَّرناه؛ لأنَّ تصويرهم هذه الأعضاءَ للأصنام ليست أعضاءً حقيقةً، وقد يتوجَّهُ النفيُ إلى الوصف، أي: وإن كانت لهم هذه الأعضاءُ مصوَّرةً فقد انتفت المنافعُ[٢] التي للأعضاء، والمعنى: إنكم أفضلُ من الأصنام بهذه الأعضاء النافعة.

و«أم» هنا منقطعةٌ، فتتقدَّر بـ«بل» والهمزة وهو إضرابٌ على معنى الانتقال لا على معنى الإبطالِ، وإنما هو تقريرٌ[٣] على نفي كلِّ واحدةٍ من هذه الجمل.

(١) الإملاء للعكبري ١/ ٢٩١.
(٢) في المطبوع: هذه المنافع، وسقطت الجملة من (ب) و(د٣) و(يه).
(٣) تحرفت في (ب) والمطبوع إلى: تقدير.

وكان ترتيبُ هذه الجملِ هكذا لأنه بُدئ بالأهم ثم أُتْبِعَ بما هو دونه إلى آخرها.

وقرأ الحسن والأعرج ونافعٌ بكسر الطاء، وقرأ أبو جعفر وشيبةُ ونافعٌ أيضًا بضمِّها(١).

وقال أبو عبد الله الرازي: تعلَّق بعضُ الأغمار بهذه الآية في إثباتِ هذه الأعضاء لله تعالى فقالوا: جُعِلَ عدمُها للأصنام دليلًا على عدم إلهيتها، فلو لم تكن موجودةً له تعالى لكان عدمُها دليلًا على عدم الإلهية، وذلك باطلٌ، فوجب القولُ بإثباتها له تعالى.

والجواب من وجهين:

أحدهما: أنَّ المقصود من الآية بيان أنَّ الإنسان أفضلُ وأكملُ حالًا من الصنم؛ لأنه له رِجْلٌ ماشيةٌ ويدٌ باطشةٌ وعينٌ باصِرةٌ وأُذنٌ سامعةٌ، والصنم ـ وإن صوِّرَتْ له صورةُ هذه الأعضاءِ ـ بخلافِ الإنسان، فالإنسانُ أكملُ وأفضلُ، فلا يشتغل بعبادة الأخسِّ الأدْوَنِ.

والثاني: أن المقصود تقريرُ الحجَّة التي ذكرها قبلُ، وهي: «ولا يستطيعون لهم نصرًا ولا أنفسَهم ينصرون» يعني كيف تَحْسنُ عبادةُ مَن لا يقدر على النفع والضرِّ، ثم قرَّر أنَّ هذه الأصنامَ انتفت عنها هذه الأعضاءُ ومنافعُها، فليست قادرةً على نفع ولا ضرٍّ، فامتنع كونُها آلهةً، أمَّا الله تعالى فهو وإن كان متعاليًا عن هذه الأعضاء، فهو موصوفٌ بكمال القدرة على النفع والضر، وبكمال السمع والبصر(٢). انتهى، وفيه بعضُ تلخيص.

﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾ لـمَّا أنكر تعالى عليهم عبادةَ الأصنام، وحقَّر شأنَها، وأظهر كونَها جمادًا عاريةً عن شيءٍ من القدرة، أمر تعالى نبيَّه أن يقول لهم ذلك، أي: لا مبالاةَ بكم ولا بشُرَكائكم فاصنعوا

(١) والمشهور عن نافع الكسر، وقراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٢٧٤، والكلام من المحرر الوجيز ٢/ ٤٨٩.

(٢) تفسير الرازي ١٥/ ٩٣.

ما تشاؤون، وهو أمرُ تعجيزٍ، أي: لا يمكنُ أن يقع منكم دعاءٌ لأصنامكم ولا كيدٌ لي، وكانوا قد خوَّفوه آلهتَهم، ومعنى: «ادعوا شركاءكم»: استعينوا بهم على إيصال الضرِّ إليَّ «ثم كيدون» أي: امكروا بي ولا تؤخِّرون عمَّا تريدون من الضرِّ، وهذا كما قال قومُ هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوٓا أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤-٥٥] وسمَّى الأصنامَ شركاءَهم من حيث[١] لهم نسبةٌ إليهم بتسميتهم إياهم آلهةً وشركاءَ الله تعالى.

وقرأ أبو عمرو وهشامٌ بخلافٍ عنه: «كيدوني» بإثبات الياء وصلًا ووقفًا، وقرأ باقي السبعة بحذف الياء اجتزاءً بالكسرة عنها[٢].

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ لمَّا أحالهم على الاستنجاد بآلهتهم في ضرِّه، وأراهم أنَّ الله هو القادرُ على كلِّ شيءٍ، عقَّب ذلك بالاستناد[٣] إلى الله تعالى والتوكُّلِ عليه، والإعلام أنه تعالى هو ناصرُه عليهم، وبيَّن جهةَ نصرِه عليهم بأنْ أوْحَى إليه كتابَه وأعزَّه برسالته، ثم أنه تعالى يتولَّى الصالحين من عباده وينصرُهم على أعدائهم ولا يخذلهم.

وقرأ الجمهور: «إنَّ وليِّي الله» بياءٍ مشدَّدة، وهي ياءُ «فَعيلٍ» أُدغمت في لام الكلمة، وبياءِ المتكلِّم بعدها مفتوحةً، وقرأ أبو عمرو في روايةٍ عنه بياءٍ واحدةٍ مشدَّدةٍ مفتوحةٍ ورفعِ «الله»[٤].

قال أبو علي: لا يخلو من أن تُدْغَم الياءُ التي هي لامُ الفعل في ياء الإضافة،

---

(١) في المطبوع: من حيث إن.

(٢) ينظر السبعة ص٢٩٩، والتيسير ص١١٥، والنشر ٢/ ٢٧٥، وفيها جميعاً أن إثبات الياء عن أبي عمرو هو في الوصل خاصة، ولم يذكر عنه الداني في جامع البيان ٢/ ١٧١ سواها.

(٣) في (ب) و(د٣) و(ز١) و(يه): بالإسناد، والمثبت من باقي النسخ والنهر على هامش مطبوع البحر ٤/ ٤٤٦.

(٤) في (د١) والمطبوع: الجلالة. وهذه القراءة أوردها ابن مجاهد في السبعة ص٢٩٦، وذكرها أبو عمرو الداني في جامع البيان ٢/ ١٦٨-١٧٠ ولم يذكرها في التيسير، وذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٨.

وهو لا يجوزُ لأنه ينفكُّ الإدغام الأول، أو تُدْغَم ياءُ فعيلٍ في ياء الإضافة ويُحذف لامُ الفعل، فليس إلَّا هذا[(١)]. انتهى.

ويمكنُ تخريجُ هذه القراءةِ على وجهٍ آخَر، وهو أنْ لا يكونَ «وليّ» مضافًا إلى ياءِ متكلِّم بل هو اسمٌ نكرةٌ اسمُ «إنَّ» والخبر «الله»، وحُذف من «وليّ» التنوينُ لالتقاء الساكنين، كما حُذف من قوله: «قل هو الله أحدُ الله»[(٢)]، وقوله:

ولا ذاكـــرَ الله إلَّا قـــلـــيـــلا[(٣)]

والتقدير: إنَّ وليًّا حقَّ وليّ اللهُ الذي نزَّل الكتاب، وجَعْلُ اسم «إنَّ» نكرةً والخبرُ معرفةً فصيحٌ في الكلام، قال:

وإنَّ حـرامًـا أن أسـبَّ مُـجـاشِـعًـا بـآبـائي الـشُمِّ الكرامِ الـخَـضَـارِمِ[(٤)]

وهذا توجيهٌ لهذه القراءة سهلٌ.

واختَلَفَ النقلُ عن الجَحْدَريِّ، فنقل عنه صاحبُ كتاب «اللوامح في شواذِّ القراءات»: «إنَّ وليِّ اللهُ» بياءٍ مكسورةٍ مشدَّدةٍ، وحُذفت ياءُ المتكلم لمَّا سكِّنَتْ، الْتَقَى ساكنان فحذفت، كما تقول: إنَّ صاحبي الرجلُ الذي تَعْلَم.

ونَقَلَ عنه أبو عمرٍو الداني[(٥)] «إنَّ وليَّ اللهِ» ياءٍ واحدةٍ مشدَّدةٍ منصوبةٍ مضافةٍ إلى «الله»، وذَكَرها الأخفش وأبو حاتم غيرَ منسوبةٍ، وضعَّفها أبو حاتم[(٦)]، وخرَّج

(١) الحجة ٤/ ١١٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٩٠.

(٢) أي: بضم «أحد» دون تنوين حتى في الوصل، وهي قراءة نصر بن عاصم، ورواها هارون عن أبي عمرو. ينظر السبعة ص٧٠١، والقراءات الشاذة ص١٨٢.

(٣) وصدره: فألفيته غير مُسْتَعْتِبٍ، والبيت لأبي لأسود الدؤلي، وهو في الكتاب ١/ ١٦٩، ومجالس ثعلب ١/ ١٢٣، والمقتضب ٢/ ٣١٣، والأصول في النحو ٣/ ٤٥٥، والخصائص ١/ ٣١١، وأمالي ابن الشجري ٢/ ١٦٤، والخزانة ١١/ ٣٧٤. وسلف في تفسير الآية (١٨١) من آل عمران.

(٤) البيت للفرزدق، وسلف بهذه الرواية عند تفسير الآية (٩٦) من سورة آل عمران، وهو في الديوان ٢/ ٣٠٠ برواية أخرى ليس فيها محل الشاهد.

(٥) كما في المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٠، وذكرها أيضاً النحاس في إعراب القرآن ٢/ ١٦٩.

(٦) كما في المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٠.

الأخفشُ وغيرُه هذه القراءةَ على أن يكون المرادُ جبريل[1]؛ قال الأخفش: فيصيرُ «الذي نزَّل الكتاب» من صفة جبريل بدلالة: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢] وفي قراءة العامَّة من صفة الله تعالى. انتهى، يعني أن يكون خبرُ «إنَّ» هو قوله: «الذي نزَّل الكتاب».

قال الأخفش: فأمَّا «وهو يتولَّى الصالحين» فلا يكون إلا من الإخبار عن الله تعالى.

وتفسيرُ هذه القراءة: بأنَّ المراد بها جبريلُ وإن احْتَملَها لفظُ الآية لا يناسِبُ ما قبل هذه الآية ولا ما بعدها، ويحتملُ وجهين من الإعراب، ولا يكون المعنيُّ جبريلَ:

أحدهما: أن يكون «وليَّ اللهِ» اسمُ «إنَّ»، «والذي نزَّل الكتاب» هو الخبر، على تقدير حذف الضمير العائدِ على الموصول، والموصولُ هو النبيُّ ﷺ، والتقدير: إنَّ وليَّ اللهِ الشخصُ الذي نزَّل الكتاب عليه، فحذف «عليه» وإن لم يكن فيه شرطُ جواز الحذف المَقيس، لكنه قد جاء نظيرُه في كلام العرب، قال الشاعر:

وإنَّ لسـانـي شُـهْـدةٌ يُـشْـتَـفَـى بـهـا ... وهـو عـلـى مَـن صبَّـه الله عـلـقـمُ[2]

التقدير: وهو على مَن صبَّه الله عليه عَلْقمُ، وقال الآخَر:

فـأصبـح مـن أسـمـاءَ قـيسٌ كـقـابـضٍ ... على الماء لا يَدْري بما هو قابضُ[3]

التقدير: بما هو قابضٌ عليه، وقال الآخر:

لـعـلَّ الـذي أَصْـعَـدْتِـنـي أنْ يَـرُدَّنـي ... إلى الأرض إنْ لم يَقْدِرِ الخبرَ قادِرُه[4]

يريد: أَصْعَدْتِني به، وقال الآخر:

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ١١٧.

(٢) البيت في الجمل للخليل ص٢٦٧، وشرح التسهيل لابن مالك ١/ ٢٢٥، والخزانة ٥/ ٢٦٦، وسلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤].

(٣) البيت لقيس بن جَرْوةَ الطائي، كما في نوادر أبي زيد ص٦٢، والمستقصى للزمخشري ٢/ ٢٠٩، وفيهما: أصبح، دون الفاء، وهو برواية المصنف في ضرائر الشعر ص١٧٥.

(٤) البيت للفرزدق، وهو في ديوانه ١/ ٢١٢، وشرح التسهيل لابن مالك ١/ ٢٢٥، وفيهما: الحين، بدل: الخير. والحَيْن بفتح الحاء: الهلاك. القاموس (حين).

فأَبْلِغَنْ خالد بن نَضْلةٍ والـ ... مَرْءُ معنيٌّ بِلَوْمِ مَن يَثِقْ[1]

يريد: يثق به، وقال الآخر:

ومِن حَسَدٍ يجورُ عليَّ قومي ... وأيُّ الدهر ذو لم يَحْسُدوني[2]

يريد: لم يحسدوني فيه، وقال الآخر:

فقلتُ لها لا والذي حجَّ حاتمٌ ... أخونُك عهدًا إنَّني غيرُ خَوَّانِ[3]

قالوا يريد: حجَّ حاتم إليه.

فهذه نظائرُ من كلام العرب يمكنُ حملُ هذه القراءة الشاذَّة عليها.

والوجهُ الثاني: أن يكون خبر «إنَّ» محذوفًا لدلالةِ ما بعده عليه، التقدير: إن وليَّ اللهِ الذي نزَّل الكتاب مَن هو صالحٌ، أو: الصالح، وحُذف لدلالة: «وهو يتولَّى الصالحين» عليه، وحَذْفُ خبر «إنَّ» وأخواتها لفهم المعنى جائزٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ الآية [فصلت: ٤١]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ الآية [الحج: ٢٥]، وسيأتي تقديرُ حذفِ الخبر فيهما إن شاء الله.

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧﴾ أي: من دون الله، ويتعيَّنُ عَوْدُ الضمير في «مِن دونه» على الله، وبذلك يُضعَّفُ مَن فسَّر «الذي نزَّل الكتاب» بجبريل عليه السلام، وهذه الآيةُ بيانٌ لحال الأصنام، وعجزِها عن نُصْرةِ أنفُسِها فضلًا عن نُصرة غيرها.

وتقدَّم قولُه: ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرًا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٢]،

---

(١) شرح التسهيل ١/ ٢٢٥ برواية: فأبلغ الحارث بن نضلة...

(٢) البيت لحاتم في شرح التسهيل ١/ ٢٢٥، وليس في ديوانه.

(٣) البيت للعُريان بن سهلة الجرمي كما في نوادر أبي زيد ص٦٥، وروايته: فقال مجيباً والذي حج حاتم...، ومثله في الإفصاح للفارقي ص٣٠٤، وهو في كتاب الشعر لأبي عليٍّ الفارسي ٢/ ٣٩٤، والخزانة ٦/ ٥٦ برواية: فقلت له، وجاء برواية المصنف في ضرائر الشعر لابن عصفور ص١٧٥.

قال الواحدي[١]: أُعيد هذا المعنى لأنَّ الأول مذكورٌ على جهةِ التقريع، وهذا مذكورٌ على جهة الفرق بين مَن تجوزُ له العبادةُ وبين مَن لا تجوز، كأنّه قيل: الإلهُ المعبودُ يجب أن يكون يتولّى[٢] الصالحين، وهذه الأصنامُ ليست كذلك فلا تكون صالحةً للإلهية. انتهى.

ومعنى قوله: على جهة التقريع، أنَّ قوله: «ولا يستطيعون» معطوفٌ على قوله: «ما لا يخلقُ شيئاً»، وهو في حيِّز الإنكار والتقريع والتوبيخ على إشراكهم مَن لا يمكنُ أن يُوْجِدَ شيئًا ولا يُنْشِئَه، ولا ينصر نفسَه فضلًا عن غيره، وهذه الآية كما ذَكَر جاءت على جهة الفَرْق، ومندرِجةً تحت الأمر بقوله: «قل ادعوا»، فهذه الجملُ مأمورٌ بقولها وخطابِ المشركين بها؛ إذ كانوا يخوِّفون الرسولَ عليه السلام بآلهتهم، فأُمِرَ أن يخاطبهم بهذه الجملِ تحقيرًا لهم ولأصنامهم، وإخبارًا لهم بأنَّ وليَّه هو الله، فلا مبالاةَ بهم ولا بأصنامهم.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ تناسُقُ الضمائر يقتضي أنَّ الضمير المنصوبَ في «وإنْ تدعوهم» هو للأصنام، ونَفَى عنهم السماعَ لأنها جمادٌ لا تحسُّ، وأثبت لهم النظر على سبيل المجاز، بمعنى أنهم صوَّروهم ذوي أعينٍ، فهم يشبهون مَن يَنظُرُ ومَن قلَّب حَدَقَتَه للنظر، ثم نَفَى عنهم الإبصارَ كقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢].

ومعنى «إليك»، أي: إليك أيها الدَّاعي، وأَفْرَدَ لأنه اقْتَطَعَ قولَه: «وتراهم ينظرون إليك» من جملة الشرط، واستأنَفَ الإخبارَ عنهم بحالهم السَّيِّئ في انتفاء الإبصار كانتفاءِ السماع.

وقيل: المعنى في قوله: «ينظرون إليك» أي: يُحاذونك، من قولهم: المنازلُ تتناظَرُ، إذا كانت متحاذيةً يقابلُ بعضُها بعضًا[٣].

(١) كما في تفسير الرازي ١٥/ ٩٥، ولعله في تفسيره: البسيط، فإنه لم يَرِد في الوسيط ولا في الوجيز.

(٢) في تفسير الرازي: أن يكون بحيث يتولى. . .

(٣) ذكره الطبري في التفسير ١٠/ ٦٣٨.

وذهب بعضُ المعتزلة إلى الاحتجاج بهذه الآية على أنَّ العباد ينظرون إلى ربِّهم ولا يرونه، ولا حجَّةَ لهم في الآية؛ لأنَّ النظر في الأصنام مجازٌ محضٌ[(١)].

وجَعْلُ الضمير للأصنام اختاره الطبري[(٢)]؛ قال: ومعنى الآيةِ تبيينُ جمودِها وصغرِ شأنها[(٣)].

قال[(٤)]: وإنما تكرَّرَ القولُ في هذا وتردَّدت الآياتُ فيه؛ لأنَّ أمر الأصنام وتعظيمَها كان متمكِّنا من نفوس العرب في ذلك الزمن، ومستوليًا على عقولهم لطفًا[(٥)] من الله تعالى بهم.

وقال مجاهدٌ والحسن والسدِّي: الضميرُ المنصوبُ في «تدعوهم» يعود على الكفار، وَوَصَفهم بأنهم لا يسمعون ولا يُبْصِرون إذ لم يتحصَّلْ لهم عن الاستماع والنظرِ فائدةٌ، ولا حَلَوا منه بطائلٍ[(٦)].

وهذا تأويلٌ حَسَنٌ، ويكون إثباتُ النظر حقيقةً لا مجازًا، ويُحسِّنُ هذا التأويلَ الآيةُ بعد هذه؛ إذ في آخِرها: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ أي: الذين من شأنهم إن تَدْعُهم[(٧)] لا يسمعوا، وينظرون إليك ولا يبصرون[(٨)]، فيكون قد نبَّه[(٩)] على العلَّة

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٠.
(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٦٣٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٩٠.
(٣) هذا من قول ابن عطية، وليس من قول الطبري.
(٤) والقائل أيضًا هو ابن عطية.
(٥) كذا وقعت العبارة في النسخ، والذي في المحرر: ومستوليًا على عقولها فأوعب القول في ذلك لطفًا...
(٦) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٠، والضمير في «تدعوهم» على هذا القول يعود أيضاً على الكفار كما هو ظاهر من الكلام، وينظر تفسير الطبري ١٠/ ٦٣٧-٦٣٨. وقوله: ولا حَلَوا منه بطائل، أي: ولا ظفروا بفائدة، قال الجوهري في الصحاح (حلا): وقولهم: لم يَحْلَ منه بطائل، أي: لم يستفِدْ منه كبير فائدة، ولا يتكلم به إلا في الجَحْد. اهـ. وتحرف حلوا في المطبوع إلى: حصلوا.
(٧) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: أن تدعوهم، وهو خطأ.
(٨) في (د١) والمطبوع: وهم لا يبصرون.
(٩) في (د١) والمطبوع: فتكون مرتبة، وفي (أ): فتكون مدنية، وفي (ع): فتكون مدلية. وكلها تحريف.

الموجِبة لذلك وهي الجهل.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ هذا خطابٌ لرسول الله ﷺ ويعمُّ جميعَ أمته، وهي أمرٌ بجميع مكارم الأخلاق.

وقال عبد الله بنُ الزبير ومجاهدٌ وعروةُ والجمهورُ: أي: اقْبَلْ من الناس في أخلاقهم وأموالهم ومُعاشرتهم بما أتى عفوًا دون تكلُّفٍ ولا تحرُّجٍ[١]. والعفوُ ضدُّ الجهد، أي: لا تطلُبْ منهم ما يَشُقُّ عليهم حتى لا يَنْفِروا، وقد أَمَر بذلك رسولُ الله ﷺ بقوله: «يسِّروا ولا تعسِّروا»[٢] وقال حاتم:

خُذي العفوَ منِّي تستديمي مودَّتي ... ولا تنطقي في سَوْرتي حين أغضبُ[٣]

وقال آخر:

إذا ما بُلْغَةٌ جاءتك عفوًا ... فخذها فالغِنَى مَرْعًى وشِرْبُ
إذا اتَّفقَ القليلُ وفيه سِلْمٌ ... فلا تَرِدِ الكثيرَ وفيه حَرْبُ[٤]

وقال الشعبي: سأل الرسولُ ﷺ جبريلَ عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ فأخبره عن الله تعالى أنه يأمرُك أن تعفوَ عمَّن ظَلَمكَ، وتُعطيَ مَن حَرَمَكَ، وتَصِلَ مَن قَطَعَك[٥].

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٠-٤٩١، وأخرجه عنهم بنحوه الطبري ١٠/ ٦٣٩-٦٤١، وقول عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أخرجه البخاري (٤٦٤٣) و(٤٦٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩)، ومسلم (١٧٣٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) عزاه لحاتم الطائي ابن عطية في المحرر ٢/ ٤٩١، وهو في الأغاني ٢٠/ ٣٦٢ منسوب إلى أسماء بن خارجة الفزاري، وفي عيون الأخبار ٣/ ١١ إلى شريح بن الحارث القاضي، ونسب في عيون الأخبار ٤/ ٧٧ أيضاً إلى أبي الأسود الدؤلي، وقال صاحب الأغاني: وليس ذلك بصحيح. وهو في الكشاف ٢/ ١٣٨ دون نسبة.

(٤) البيتان من قصيدة لأبي الحسن البُصْروي محمد بن محمد بن أحمد، كما في تاريخ بغداد ٤/ ٣٨٥.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٣٨، وهو مرسل كما قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وقال: وقد روي له شواهد من وجوه أُخر. اهـ. قلت: وقوله: أن تعفو عمن ظلمك... إلخ، له شاهد من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه عند أحمد (١٧٤٥٢).

وقال ابن عباس والضحَّاك والسُّدِّي: هي في الأموال قبل فرض الزكاة، أُمر أن يأخذ ما سَهُلَ من أموال الناس، أي: ما فَضَلَ وزاد، ثم فُرِضت الزكاة فنُسخت هذه، وتؤخذُ طَوْعًا وكَرْهًا[١].

وقال مكي عن مجاهد: إنَّ العفو هو الزكاةُ المفروضة[٢].

وقال ابن زيد: الآيةُ جميعُها في مُداراةِ الكفار وعَدَمِ مُؤاخَذَتهم، ثم نُسِخَ ذلك بالقتال[٣]. انتهى.

والذي يَظْهَرُ القولُ الأولُ من أنه أُمِرَ بمكارِمِ الأخلاق، وأن ذلك حُكْمٌ مستمرٌّ في الناس ليس بمنسوخٍ، ويدلُّ عليه حديثُ الحُرِّ بن قيسٍ حين أدخل عُيينةَ بن حِصْنٍ على عمر، فكلَّم عُمرَ كلامًا فيه غلظةٌ، فأراد عمر أن يَهُمَّ به، فتلا الحرُّ هذه الآيةَ على عمر، فقرَّرها ووقف عندها[٤].

و«العرف» المعروفُ والجميلُ من الأفعال والأقوال، وقرأ عيسى بن عمر: «بالعُرُف» بضم الراء[٥].

والأمرُ بالإعراض عن الجاهلين حضٌّ على التخلُّق بالحِلْم والتنزُّهِ عن منازَعةِ السُّفهاء، وعلى الإغضاء على ما[٦] يَسُوءُ، كقولِ مَن قال: إنَّ هذه قسمةٌ ما أُرِيدَ بها وجهُ الله[٧]. وقولِ الآخَر: «أنْ كان ابنَ عمَّتك»[٨]. وكالذي جذب رداءه حتى حزَّ في عنقه وقال: أعطني من مال الله[٩].

---

(١) بنحوه في تفسير الطبري ١٠/ ٦٤١.
(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩١.
(٣) أخرجه مطولاً الطبري ١٠/ ٦٤٢.
(٤) أخرجه البخاري (٤٦٤٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٥) القراءات الشاذة ص٤٨، والمحرر ٢/ ٤٩١.
(٦) في (د١) والمطبوع: الإغضاء عما، وكلاهما بمعنى.
(٧) أخرجه البخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٨) أخرجه البخاري (٢٣٥٩، ٢٣٦٠)، ومسلم (٢٣٥٧) من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما.
(٩) أخرجه أحمد (١٢٥٤٨) ـ واللفظ له ـ والبخاري (٣١٤٩)، ومسلم (١٠٥٧) من حديث أنس رضي الله عنه، ولفظه في الصحيحين: مُرْ لي من مال الله الذي عندك.

وخرَّج البزَّار في «مسنده»[1] من حديث جابر بن سُلَيم ما وصَّاه به الرسول ﷺ: «اتق الله ولا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئًا، وأنْ[2] تَلْقَى أخاك بوجهٍ مُنْبَسِطٍ، وأنْ تُفرِغَ من فَضْلِ دَلْوِكَ في إناء المُسْتَسْقي، وإن امرؤٌ سبَّك بما لا يَعْلَم[3] منك فلا تسبَّه بما تَعْلَم فيه، فإنَّ الله جاعلٌ لك أجرًا وعليه وِزْرًا، ولا تسبنَّ شيئًا مما خوَّلك الله».

وقال جعفر الصادق: أَمَر اللهُ تعالى نبيَّه بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آيةٌ أجمعُ لمكارِم الأخلاق منها[4].

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ أي: يَنْخَسَنَّك بأنْ يَحْمِلَكَ بوسوسته على ما لا يليق، فاطْلُب العياذةَ بالله منه وهي اللِّواذ والاستجارة.

قيل: لمَّا نزلت ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ الآية قال رسول الله ﷺ: «كيف، والغضب؟»، فنزلت[5].

ومناسَبتُها لما قبلها ظاهرةٌ. وفاعِلُ «ينزغنَّك» هو «نَزْغٌ»، على حد قولهم: جَدَّ جَدُّه، أو على إطلاق المصدر والمرادُ به: نازغٌ.

وختم بهاتين الصفتين لأنَّ الاستعاذة تكون باللسان، ولا تُجْدي إلَّا باستحضار معناها، فالمعنى: سميعٌ للأقوال عليمٌ بما في الضمائر.

قال ابن عطية: الآيةُ وصيةٌ من الله تعالى لنبيِّه ﷺ تعمُّ أمَّته رجلًا رجلًا، ونَزْغُ الشيطان عامٌّ في الغضب وتحسينِ المعاصي واكتسابِ الغوائل وغيرِ ذلك، وفي

---

(١) كما في تفسير القرطبي ٩/١٦٨-١٦٩، ولم أقف عليه في مطبوعه، وأخرجه أحمد (٢٠٦٣٢)، وأبو داود (٤٠٨٤)، والنسائي في الكبرى (٩٦١٦)، وابن حبان (٥٢٢).

(٢) في المصادر عدا أبي داود والقرطبي: ولو أن.

(٣) كذا نقل عن القرطبي، والذي في المصادر: بما يعلم، دون كلمة «لا»، وهو الصواب، وقد جاء في رواية الطيالسي في مسنده (١٢٠٨): «وإن امرؤ شتمك وعيَّرك بأمرٍ هو فيك».

(٤) تفسير الثعلبي ٣/١٠٧، والكشاف ٢/١٣٨-١٣٩، وتفسير البغوي ٢/٢٢٤، وتفسير القرطبي ٩/٤٢٠.

(٥) أخرجه الطبري ١٠/٦٤٦ عن ابن زيد، وهو مرسل.

مصنف الترمذيِّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ للمَلَكِ لَمَّةً وإنَّ للشيطان لَمَّةً»[١]، وبهذه الآية تعلَّق ابن القاسم في قوله: إنَّ الاستعاذة عند القراءة: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم[٢]. انتهى.

واستنباطُ ذلك من الآية ضعيفٌ؛ لأنَّ قوله: «إنه سميعٌ عليم» جَرَى مجرى التعليلِ لطلبِ الاستجارة بالله، أي: لا تَسْتعِذْ بغيره فإنه هو السميعُ لما تقول، أو: السميعُ لما يقولُه الكفارُ فيك حين يَرُومون إغضابَكَ، العليم بقصدك في الاستعاذة، أو: العليم بما انْطَوَتْ عليه ضمائرُهم من الكيد لك، فهو ينصرُك عليهم ويُجيرك منهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ النَّزْغُ من الشيطان أخفُّ من مسِّ الطائف من الشيطان؛ لأنَّ النَّزْغَ: أدنى حركةٍ، والمسَّ: الإصابة، والطائف: ما يطوفُ به ويدورُ عليه، فهو أبلغُ لا محالةَ، فحالُ المتَّقين تزيدُ في ذلك على حال الرسول.

وانظر لحُسْنِ هذا البيانِ، حيث جاء الكلامُ للرسول كان الشرطُ بلفظ «إنْ» المحتمِلةِ للوقوع ولعَدَمه، وحيث كان الكلام للمتقين كان المجيءُ بـ«إذا» الموضوعةِ للتحقيق أو للترجيح، وعلى هذا فالنزغُ يمكن أن يقع ويمكن أنْ لا يقع، والمسُّ واقعٌ لا محالةَ أو يرجَّحُ وقوعُه، وهو إلصاقُ البشرة بالبشرة، وهو هنا استعارةٌ.

وفي تلك الجملة أُمِرَ هو ﷺ بالاستعاذة، وهنا جاءت الجملة خبريةً في ضمنها الشرطُ، وجاء الخبر «تذكَّروا» فدلَّ على تمكُّن مسِّ الطائف حتى حصل نسيانٌ فتذكَّروا ما نَسُوه، والمعنى: تذكَّروا ما أَمر به تعالى وما نَهَى عنه، وبنفس التذكُّرِ حصل إبصارُهم وفاجأهم إبصارُ الحق والسداد، فاتَّبعوه وطردوا عنهم مسَّ الشيطانِ[٣] الطائفِ.

---

(١) سنن الترمذي (٢٩٨٨) من حديث ابن مسعود ﷺ، وجاء في مطبوعه: حسن غريب، وفي بعض نسخه: حسن صحيح غريب، كما ذكر الشيخ أحمد شاكر في حاشية الطبري ٥/ ٥٧٢. واللمة: الخَطْرة تقع في القلب. النهاية (لمم).

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩١.

(٣) كلمة: الشيطان، من (د١) والمطبوع، وليست في باقي النسخ.

و«اتقوا» قيل: عامَّةٌ في كلِّ ما يُتَّقى. وقيل: الشرك والمعاصي. وقيل: عقاب الله.

وقرأ النحويان وابن كثير: «طَيْفٌ»(١)، فاحتمل أن يكون مصدرًا من طاف يَطِيفُ طَيْفًا، أنشد أبو عبيدة:

أنَّى ألمَّ بكَ الخيالُ يَطيفُ ومَطافُه لك ذِكْرةٌ وشغوفُ(٢)

واحتمل أن يكون مخففًا من طيِّفٍ، كميْتٍ من مَيِّتٍ أو كلَيْنٍ من لَيِّنٍ؛ لأنَّ طيِّفًا المشدَّدَ يحتمل أن يكون من طاف يَطِيفُ، ويحتمل أن يكون من طاف يَطُوف(٣).

وقرأ باقي السبعة: «طائفٌ» اسم فاعلٍ من طاف.

وقرأ ابن جبير: «طيِّفٌ» بالتشديد، وهو فَيْعِلٌ(٤).

وإلى أنَّ الطَّيْفَ مصدرٌ مال الفارسيُّ، جَعَل الطَّيْفَ كالخَطْرة والطائفَ كالخاطر(٥).

وقال الكسائي: الطيف: اللَّمم، والطائف: ما طاف حولَ الإنسان؛ قال ابن عطية(٦): وكيف هذا وقد قال الأعشى:

وتُصْبِحُ عن غِبِّ السُّرى وكأنها ألمَّ بها من طائفِ الجنِّ أولقُ(٧)

(١) السبعة ص٣٠١، والتيسير ص١١٥. والنحويان هما أبو عمرو والكسائي.

(٢) مجاز القرآن ١/ ٢٣٧، والبيت لكعب بن زهير، وهو في ديوانه ص٥٨، وإصلاح المنطق ص٢٩٠، والزاهر لابن الأنباري ١/ ٢٩٣، وتفسير الطبري ١٠/ ٦٤٨، ومقاييس اللغة ٣/ ٤٣٢، والكشاف ٢/ ١٣٦، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٩٢، واللسان (ذكر) و(شغف) و(طيف). قوله: وشغوف، كذا في النسخ والمحرر الوجيز، وجاء في باقي المصادر: وشعوف، قال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص٤٥١: الشُّعوف مصدر شعفه الحب: إذا أحرق قلبه شَعَفًا، ويجوز أن يكون جمع شَعْفٍ.

(٣) يعني أنَّ طيِّفًا إن كان من: طاف يطوف، فهو ك: مات يموت، وإن كان من: طاف يطيف، فهو ك: لان يلين.

(٤) وهي في القراءات الشاذة ص٤٨، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٩٢.

(٥) الحجة ٤/ ١٢١، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٩٢، والكلام منه.

(٦) في المحرر ٢/ ٤٩٢، وعنه نقل المصنف قول الكسائي.

(٧) البيت في ديوان الأعشى ص٢٧١ برواية: وتصبح من غِبِّ السُّرى وكأنما. وسيأتي شرحه قريبًا للمصنف.

انتهى. ولا يُتعجَّبُ من تفسير الكسائيِّ الطائفَ بأنه ما طاف حول الإنسان بهذا البيت؛ لأنه يصحُّ فيه معنى ما قاله الكسائيُّ؛ لأنه إن كان تعجُّبُه وإنكارُه من حيث خَصَّصَ الإنسانَ، فالذي قاله الأعشى تشبيهٌ؛ لأنه قال: كأنها، وإن كان تعجُّبه من حيث فسَّر بأنه ما طاف حول الإنسان، فطائفُ الجنِّ يصحُّ أن يقال: طاف حول الإنسان، وشبَّه هو الناقةَ في سرعتها ونشاطِها وقَطْعِها الفيافيَ عَجِلةً بحالتها إذا ألَمَّ بها أَوْلَقُ من طائفِ الجن.

وقال أبو زيد: طاف: أَقْبَلَ وأَدْبرَ، يطوفُ طَوْفًا وطَوافًا، وأطاف: استدار القومَ وأتاهم من نواحيهم، وطاف الخيال: ألمَّ، يَطِيفُ طَيْفًا[١].

وزعم السهيليُّ أنه لم يُقَلْ اسم فاعل من: طاف الخيال، قال: لأنه تخيُّلٌ لا حقيقةٌ، وأمَّا ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [القلم: ١٩] فلا يقال فيه: طيفٌ؛ لأنه اسمُ فاعلٍ حقيقةً[٢]. انتهى. وقال حسان:

جِـنِّـيَّـةٌ أرَّقَـنـي طَـيْـفُـهـا تَـذْهَـبُ صُبْحًا وتُرى في المنامْ[٣]

وقال ابن عباس: هما بمعنى النَّزْغ.

وقال السُّدي: الطيف: الجنون، والطائف: الغضب.

وقال أبو عمرو: هما بمعنى الوسوسة.

وقيل: هما بمعنى اللَّمم والخيال.

وقيل: الطيف: التخيُّل، والطائف: الشيطان.

وقال مجاهد: الطيف: الغضب، ويُسمَّى الجنونُ والغضبُ والوسوسةُ طيفًا لأنه لمَّةٌ من الشيطان.

وقال عبد الله بن الزبير والسّدي: إذا زلُّوا تابوا.

---

(١) الحجة للفارسي ٤/ ١٢٠، وتفسير الرازي ١٥/ ٩٩، وفيهما: . . . وأطاف إذا جعل يستدير بالقوم. . .

(٢) الروض الأنف ٤/ ١١٧، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٢٦، وعنه نقل المصنف.

(٣) ديوان حسان ص٤٣٦.

وقال مجاهد: إذا همُّوا بذنبٍ ذكروا الله فتركوه.

وقال ابن جبير: إذا غَضِبَ كَظَم غيظَه.

وقال مقاتل: إذا أصابه نزغٌ تَذَكَّر وعَرَفَ أنها معصيةٌ، نَزَع عنها مخافة الله تعالى.

وقال أبو روق: ابتهلوا[١].

وقال ابن بحر: عاذوا بذكر الله[٢].

وقيل: تفكَّروا فأبصروا.

وهذه كلُّها أقوالٌ متقارِبةٌ.

وسَبَّ عصام بن المُصْطَلِق الشاميُّ الحسينَ بن عليٍّ وأباه - رضي الله عنهما - سبًّا مبالغًا؛ إذ كان مبغضًا لأبيه، فقال الحسين بن عليٍّ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾، ثم قال: خَفِّضْ عليك، أستغفرُ الله لي ولك. ودعا له، في حكايةٍ فيها طولٌ ظهر فيها من مكارم أخلاقه وسعةِ صدره وحوالةِ الأشياء على القَدَر ما صيَّر عصامًا أشدَّ الناسِ حبًّا له ولأبيه، وذلك باستعماله هذه الآيَةَ الكريمة وأَخْذِه بها[٣].

و«مبصرون» هنا من البَصِيرة لا من البَصَر، وقرأ ابن الزبير: «من الشيطان تأمَّلوا»، وفي مصحف أبيٍّ «إذا طاف من الشيطان طائفٌ تأمَّلوا فإذا هم مُبْصِرون»[٤]، وينبغي أن يُحمل هذا وقراءةُ ابنِ الزبير على أنَّ ذلك من باب

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٠/٦٤٨-٦٥٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٥/١٦٤٠-١٦٤١، وتفسير الثعلبي ٣/١٠٨، والنكت والعيون ٢/٢٨٩، وتفسير البغوي ٢/٢٢٥، وتفسير القرطبي ٩/٤٢٦، وقد اختلف النقل عن أبي عمرو، فنقل عنه الماوردي مثلما ذكر المصنف من أن المعنى واحد وهو الوسوسة، ونقل البغوي والثعلبي عنه التفريق، وأن الطائف: ما يطوف حول الشيء، والطيف: اللَّمَّة والوسوسة.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) ذكر القصة كاملة القرطبي ٩/٤٢٦-٤٢٧.

(٤) القراءتان في المحرر الوجيز ٢/٤٩٢.

التفسير، لا أنَّه[١] قرآنٌ؛ لمخالفتِه سوادَ ما أَجْمَعَ المسلمون عليه من ألفاظ القرآن.

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ الضميرُ في «وإخوانهم» عائدٌ على الجاهلين أو على ما دلَّ عليه قولُه: «إنَّ الذين اتَّقوا»، وهم غيرُ المتَّقين؛ لأنَّ الشيء قد يدلُّ على مُقابِلِه فيُضْمَرُ ذلك المقابلُ لدلالةِ مُقابِله عليه. وعُني بالإخوان على هذا التقديرِ: الشياطين، كأنه قيل: والشياطينُ الذين هم إخوانُ الجاهلين أو غيرِ المتقين، يَمدُّون الجاهلين أو غيرَ المتقين في الغي، قالوا: وفي «يمدونهم» ضميرُ الإخوان، فيكونُ الخبرُ جاريًا على مَن هو له، والضميرُ المجرورُ والمنصوبُ للكفار، وهذا قولُ قتادة[٢].

وقال ابن عطية: ويحتمل أن يعودوا جميعًا على الشياطين، ويكون المعنى: وإخوانُ الشياطين في الغيِّ بخلاف الإخْوة في الله يَمدُّون الشياطينَ، أي: بطاعتهم لهم وقبولهم منهم، ولا يترتَّبُ هذا التأويلُ على أنْ يتعلَّق «في الغي» بالإمداد؛ لأنَّ الإنس لا يُغْوون الشياطين[٣]. انتهى.

ويمكن أن يتعلَّق «في الغَيِّ» على هذا التأويلِ بقوله: «يمدُّونهم» على أنْ تكون «في» للسببية، أي: يَمُدُّونهم بسببِ غوايتهم، نحو: «دخلت امرأةٌ النارَ في هرة»[٤] أي: بسببِ هرَّةٍ، ويحتمل أن يكون «في الغي» حالًا فيتعلَّقُ بمحذوفٍ، أي: كائنين ومستقرِّين في الغيّ، فيبقى «في الغيّ» في موضعه ولا يكون متعلِّقًا بقوله: «وإخوانهم»، وقد جوَّز ذلك ابن عطية[٥]، وعندي في ذلك نظرٌ، فلو قلتَ: مُطْعِمُكَ زيدٌ لحمًا، تريد: مُطْعِمُك لحمًا زيدٌ، فتفصل بين المبتدأ ومعموله بالخبر، لكان في جوازه نظرٌ؛ لأنك فَصَلْتَ بين العامل والمعمول بأجنبيٍّ لهما معًا وإن كان ليس أجنبيًّا لأحدهما الذي هو المبتدأ.

(١) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: لا على أنه.
(٢) تفسير عبد الرزاق ١/ ٢٤٥، وتفسير الطبري ١٠/ ٦٥٢، والمحرر الوجيز ٢/ ٤٩٢، والكلام منه.
(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٣.
(٤) أخرجه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٢) من حديث ابن عمر ﵄.
(٥) يعني جوَّز تعلّق «في الغي» بقوله: «وإخوانهم» المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٢.

ويحتمل أن يختلف الضمير، فيكون في «وإخوانهم» عائدًا على الشياطين الدالِّ عليهم الشيطانُ، أو على الشيطان نفسِه باعتبارِ أنه يراد به الجنس، نحو قوله: ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧] المعنى: الطواغيت، ويكون في «يمدُّونهم» عائدًا على الكفار والواو في «يمدُّونهم» عائدةٌ على الشياطين، أي: وإخوانُ الشياطين يمدُّهم الشياطين، ويكون الخبر جرى على غيرِ مَن هو له، لأن الإمداد مسندٌ إلى الشياطين لا لإخوانهم، وهو نظيرُ قوله:

قومٌ إذا الخيلُ جالوا في كواثبها[(١)]

وهذا الاحتمالُ هو قولُ الجمهور، وعليه فسَّر الطبري[(٢)].

وقال الزمخشري: هو أوجَهُ؛ لأن «إخوانهم» في مقابَلَةِ «الذين اتقوا»[(٣)].

وقرأ نافع: «يُمِدُّونهم» مضارع أَمَدَّ، وباقي السبعة: «يَمُدُّونهم» مِن مَدَّ[(٤)]، وتقدَّم الكلامُ على ذلك في قوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

وقرأ الجحدري: «يُمادُّونهم» من مادَّ على وزن فاعَلَ[(٥)].

(١) وصدره: فوارسُ الخيل لا مِيلٌ ولا قَزَمُ، والبيت في الصحاح واللسان (قزم) والخزانة ٥/ ٢٥٠ منسوب لزياد بن منقذ، وهو من قصيدة في ذم صنعاء أوردها أبو تمام في الحماسة، وجاء في شرحها للمرزوقي ٣/ ١٣٩٢، وللتبريزي ٣/ ١٨١: وقال زياد بن حمل، ويقال: زياد بن منقذ. وهو دون نسبة في الخصائص ٣/ ٢٢٧، والكشاف ٢/ ١٣٩ ولم يذكر عجزه، والرواية في المصادر عدا الكشاف: وهم إذا الخيل...، وقَزَمُ بفتح القاف والزاي: رذال الناس وسفلتهم، يطلق على الواحد والجمع والذكر والأنثى، والكواثب جمع كاثبة، وهي في عرف الفرس، ما تقدم من قربوس السرج حيث يقع عليه يد الفارس، وقوله: جالوا، أي: وثبوا. قاله صاحب الخزانة. وقال ابن جني: إنما يجول الراكب في صهوة الفرس لا في كاثبته، لكنهما لما تجاورا جريا مجرى الجزء الواحد. اهـ. والرواية في الحماسة: حالوا، قال المرزوقي والتبريزي: يقال: حال في ظهر دابته إذا ركبها. ومحل الشاهد عود الضمير في «جالوا» إلى القوم لا إلى الخيل، كما ذكر صاحب الخزانة، وينظر مناقشة ذلك في شرح شواهد الكشاف ٤/ ٥٢٥.

(٢) في تفسيره ١٠/ ٦٥٠.

(٣) الكشاف ٢/ ١٣٩.

(٤) السبعة ص٣٠١، والتيسير ص١١٥.

(٥) القراءات الشاذة ص٤٨، والمحتسب ١/ ٢٧١.

وقرأ الجمهورُ: «ثم لا يُقْصِرون» من أَقْصَرَ، أي: كفَّ، قال الشاعر:

لَعَمْرُكَ ما قلبي إلى أهلِه بِحُرّ ولا مُقْصِرٍ يومًا فيأتيني بِقُرّ[1]

أي: ولا نازعٍ عمَّا هو فيه.

وقرأ ابنُ أبي عَبْلَةَ وعيسى بنُ عمر: «ثم لا يَقْصُرون» مِن «قَصَرَ»[2]، أي: ثم لا ينقصون من إمدادهم وغوايتهم.

وقد أَبْعَدَ الزجَّاجُ في دَعْواه أنَّ قوله: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ الآيةَ متصلٌ بقوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الآية: ١٩٢][3] ولا حاجة إلى تكلُّفِ ذلك، بل هذا كلامٌ متناسِقٌ آخِذٌ بعضُه بعنق بعضٍ؛ لمَّا بيَّنَ حالَ المتقين مع الشياطين بيَّنَ حال غيرِ المتقين معهم، وأنَّ أولئك بنفس ما يمسُّهم من الشيطان ماسٌّ أقلعوا على الفور، وهؤلاء في إمدادٍ في الغيِّ وعدمِ نزوعٍ عنه.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ روي أنَّ الوحي كان يتأخَّر عن النبيِّ ﷺ أحيانًا، فكان الكفارُ يقولون: هلا اجتبيتها. ومعنى اللفظة في كلام العرب: تخيَّرْتَها واصْطَفَيْتَها.

وقال ابن عباس ومجاهدٌ وقتادةُ وابنُ زيدٍ وغيرُهم: المراد: هلا اخْتَرَعْتَها واختلقْتَها من قِبَلِكَ ومن عندِ نفسك[4]. والمعنى: إنَّ كلامك كلَّه كذلك، على ما كانت قريشٌ تدَّعيه، كما قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾.

قال الفرَّاء[5]: تقول العرب: اجْتَبَيْتُ الكلامَ واخْتَلَقْتُه وارْتَجَلْتُه: إذا افْتَعَلْتَه مِن قِبَل نفسِك.

وقال الزمخشري: اجْتَبَى الشيء بمعنى: جَبَاه لنفسه، أي: جمعه، كقولك:

---

(١) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٠٩.
(٢) القراءات الشاذة ص٤٨، وضبطت فيه صاد المضارع بالكسر، لكن قيَّدها السمين في الدر ٥/ ٥٥٠ بضم الصاد.
(٣) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٩٧.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٣.
(٥) كما في تفسير الطبري ١٠/ ٦٥٧، وينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٤٠٢.

اجْتَمَعه، أو: جُبِيَ إليه فاجتباه، أي: أَخَذه، كقولك: جَلَيْتُ إليه العروسَ فاجْتَلَاها، والمعنى: هلا اجْتَمَعْتَها افتعالًا من عند نفسك(١).

وقال ابنُ عباس أيضًا والضحاك: هلَّا تَلَقَّيتَها(٢).

وقال الزمخشري: هلَّا أخذْتَها مُنزلةً عليك مقترحة(٣). انتهى.

وهذا القولُ منهم من نتائج الإمداد في الغيِّ، كانوا يطلبون آياتٍ معيَّنةً على سبيل التعنُّت، كقلب الصَّفا ذهبًا، وإحياءِ الموتى، وتفجيرِ الأنهار، وكم جاءتهم من آيةٍ فكذَّبوا بها واقترحوا غيرها.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ بيَّن أنه ليس مجيءُ الآيات إليه إنما هو متَّبعٌ ما أوحاه الله تعالى إليه، ولستُ بمفتعِلِها ولا مقترِحِها.

﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: هذا الموحَى إليَّ الذي أنا أتَّبِعُه لا أبتدعُه، وهو القرآن، «بصائر» أي: حججٌ وبيناتٌ يُبْصَرُ بها وتتَّضِحُ الأشياءُ الخَفِيَّاتُ، وهي جمعُ بصيرة، كقوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ أي: على أمرٍ جليٍّ منكشِفٍ، وأخبر عن المفرد بالجمع لاشتماله على سورٍ وآياتٍ.

وقيل: هو على حذفِ مضافٍ، أي: ذو بصائر.

﴿وَهُدًى وَرَحۡمَةٌ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠٣﴾ أي: دلالةٌ إلى الرشد ورحمةٌ في الدارين(٤)، وفي الدِّين والدنيا، وخصَّ المؤمنين لأنهم هم الذين يَستبصِرون، وهم الذين ينتفعون بالوحي يتَّبعون ما أمر به فيه، ويَجتنبون ما يُنْهَوْن عنه فيه، ويؤمنون بما تضمَّنه.

وقال أبو عبد الله الرازي: أصل البصيرة: الإبصار، لمَّا كان القرآنُ سببًا لبصائر العقول في دلالة التوحيد والنبوَّة والمعاد أطلق عليه اسم البصيرة تسميةً للسبب باسم المسبَّب، والناسُ في معارِفِ التوحيد والنبوة والمعاد ثلاثةُ أقسام:

---

(١) الكشاف ٢/ ١٣٩.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٣، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ١٠/ ٦٥٦ بلفظ: لولا تقبلتها من الله. وقول الضحاك فيه بلفظ: لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء.

(٣) الكشاف ٢/ ١٣٩.

(٤) قوله: في الدارين، من (د١) والمطبوع.

أحدها: الذين بالغوا في هذه المعارف إلى حيث صاروا كالمشاهِدين لها، وهم أصحاب عينِ اليقين، فالقرآنُ في حقِّهم بصائرُ.

والثاني: الذين وصلوا إلى درجاتِ المستدِلِّين، وهم أصحابُ علم اليقين، فهو في حقِّهم هدًى.

والثالث: مَن اعتقد ذلك الاعتقادَ الجزم وإن لم يبلُغْ مرتبةَ المستدلِّين، وهم عامةُ المؤمنين، فهو في حقِّهم رحمةٌ.

ولمَّا كانت هذه الفرقُ الثلاث من المؤمنين قال: «لقومٍ يؤمنون»[١]. انتهى، وفيه تكميلٌ وبعضُ تلخيصٍ.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ لمَّا ذكر أنَّ القرآن بصائرُ وهدًى ورحمةٌ أَمَر باستماعه إذا شُرِعَ في قراءته، وبالإنصات وهو السكوتُ مع الإصغاء إليه؛ لأن ما اشتمل على هذه الأوصافِ من البصائر والهدى والرحمةِ حَرٍ بأنْ يُصْغَى إليه حتى يَحْصُلَ منه للمنْصِتِ هذه النتائجَ العظيمةَ، وينتفعَ بها فيَسْتَبْصِرَ من العَمَى ويَهْتديَ من الضلال، ويُرْحَمَ بها.

والظاهر استدعاءُ الاستماعِ والإنصاتِ إذا أخذ في قراءة القرآن ومتى قُرئ، وقال ابنُ مسعود وأبو هريرةَ وجابرٌ وعطاءٌ وابنُ المسيِّب والزهريُّ وعبيد الله بن عمر[٢]: إنها في المشركين، كانوا إذا صلَّى الرسولُ ﷺ يقولون: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] فنزلت جوابًا لهم[٣].

---

(١) تفسير الرازي ١٥/ ١٠١-١٠٢ بنحوه.

(٢) كذا في النسخ، والصواب: عبيد بن عمير. ينظر تفسير الطبري ١٠/ ٦٥٩، وتفسير الثعلبي ٣/ ١١٠، وتفسير ابن كثير عند هذه الآية، وجاء في تفسير القرطبي ٩/ ٤٣١: عبيد الله بن عمير، والصواب ما قدمناه. ينظر التهذيب ٣/ ٣٨.

(٣) هذا الخبر أورده الثعلبي ١٠/ ٦٥٩، وابن الجوزي ٣/ ٣١٢، والقرطبي ٦/ ٤٣١ عن سعيد بن المسيب وحده، لكن دون قوله: إنها في المشركين، والمروي عن الأئمة المذكورين أنها نزلت تأمر بالإنصات والاستماع للإمام أثناء الصلاة كما سيرد نحوه عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم. ينظر المصادر المذكورة في هذا التعليق والذي قبله، ويقارن كلام المصنف بكلام القرطبي.

وقال عطاءٌ أيضًا وابنُ جُبيرٍ ومجاهدٌ وعمرو بن دينار وزيد بنُ أَسْلَم والقاسم بن مُخَيْمرة ومسلم بنُ يسارٍ وشهرُ بن حَوْشَبٍ وعبد الله بن المبارك: هي في الخطبة يوم الجمعة[١]. وضعِّف هذا القولُ بأنَّ ما يُقرأ في الخطبة من القرآن قليلٌ، وبأنَّ الآية مكيةٌ والخطبةُ لم تكن إلّا بعد الهجرة من مكة[٢].

وقال ابن جُبيرٍ: إنها في الإنصات يومَ الأضحى، ويومَ الفِطْرِ، ويومَ الجمعة، وفيما يَجْهَرُ فيه الإمامُ من الصلاة[٣].

وقال ابن مسعود أيضًا: كان يسلِّم بعضُنا على بعضٍ في الصلاة ويكلِّمه في حاجته، فأُمِرْنا بالسكوت في الصلاة بهذه الآية[٤].

وقال ابن عباس: قَرَأَ في الصلاة المكتوبة، وقرأ الصحابةُ رافعي أصواتِهم فخلَّطوا عليه، فالآيةُ فيهم[٥].

وقيل: هو أمرٌ بالاستماع والإنصات إذا أدَّى الوحي.

وقال جماعة منهم الزجَّاج: ليس المراد الصلاةَ ولا غيرَها، وإنما المرادُ بقوله: «فاستمعوا له وأنصتوا»: اعملوا بما فيه ولا تجاوزوه، كقولك: سمع الله دعاءك، أي: أجابك[٦].

وقال الحسن: هي على عمومها، ففي أيِّ موضع قُرئ القرآنُ وَجَبَ على كلِّ حاضرٍ استماعُه والسُّكوت[٧].

---

(١) تفسير الثعلبي ٣/ ١١٠، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٣١، وأخرجه عن بعضهم الطبري ١٠/ ٦٦٤-٦٦٦.

(٢) تفسير القرطبي ٩/ ٤٣١، وقد نقل القرطبي الرد الأول عن ابن العربي، وهو في أحكام القرآن له ٢/ ٨١٧، ونقل الرد الثاني عن النقاش.

(٣) أخرجه الطبري ١٠/ ٦٦٦.

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ١٠/ ٦٥٨، وأخرج نحوه أيضاً البخاري (٤٥٣٤)، ومسلم (٥٣٩) من حديث زيد بن أرقم ﷺ، وذلك في نزول قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

(٥) أخرجه الطبري ١٠/ ٦٦٤.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٣٩٨.

(٧) تفسير الرازي ١٥/ ١٠٢، وأخرجه الطبري ١٠/ ٦٦٦ بنحوه مختصراً بلفظ: في الصلاة المكتوبة وعند الذكر.

والخطابُ في قوله: «فاستمعوا» إن كان للكفار فتُرْجَى لهم الرحمةُ باستماعه والإصغاءِ إليه بأنْ يكونَ سببًا لإيمانهم، وإن كان للمؤمنين فرحمتُهم هو ثوابُهم على الاستماع والإنصاتِ والعملِ بمقتضاه، وإن كان للجميع فرحمةُ كلٍّ منهم على ما يناسبه.

و«لعل» باقيةٌ على بابها من توقع الترجِّي، وقيل: هي للتعليل بمعنى «كي».

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ لمَّا أمرهم تعالى بالاستماع والإنصات إذا شُرع في قراءة القرآن ارْتَقى من أمرهم إلى أمرِ[1] الرسول ﷺ أنْ يذكُرَ ربَّه في نفسه، أي: بحيث يراقبه ويذكرُه في الحالة التي لا يَشْعُر بها أحدٌ، وهي الحالةُ الشريفةُ العُلْيا، ثم أَمَره أن يَذْكُرَه دون الجهر من القول، أي: يذكره بالقول الخفيِّ الذي يُشْعِرُ[2] بالتذلُّل والخشوع من غير صياحٍ ولا تصويتٍ شديدٍ، كما تُناجَى الملوك وتُستجلب منهم الرغائبُ، وكما قال للصحابة وقد جَهَروا بالدعاء: «إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، اربَؤوا على أنفسكم»[3]، وكان كلامُ الصحابة ﷺ للرسول ﷺ سِرَارًا، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤] وقال تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الحجرات: ٢] لأنَّ في الجهر عَدَمَ مبالاةٍ بالمخاطَب، وظهورَ استعلاءٍ وعدمَ تذلُّلٍ.

والذكرُ شاملٌ لكلِّ ذكرٍ من تهليلٍ وتسبيحٍ وغيرِ ذلك.

وانتصب «تضرُّعًا وخيفةً» على أنهما مفعولان من أَجْلهما لأنهما يتسبَّبُ عنهما الذكرُ، وهو التضرُّع في اتِّصال الثواب والخوفِ من العقاب، ويحتمل أن ينتصبا على أنهما مصدران في موضع الحال، أي: متضرِّعًا وخائفًا، أو: ذا تضرُّعٍ وخيفةٍ. وقرئ: «وخُفْية»[4].

---

(١) في النسخ عدا (د١): ارتقى من أمره تعالى إلى أمر، والمثبت من (د١) والمطبوع.
(٢) في (ب) و(د٣) و(يه): يشرع، وهو تحريف، ووقع في (د١) والمطبوع: لا يشعر، وهو خطأ.
(٣) أخرجه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، وجاء فيهما وفي غيرهما من المصادر: اربعوا، أي: ارفقوا. الفتح ٦/ ١٣٥.
(٤) تفسير الرازي ١٥/ ١٠٨.

والظاهرُ أن قوله: «واذكر» خطابٌ للرسول ﷺ، وقيل: خطابٌ لكلِّ ذاكرٍ.

وقال ابن عطية: خطابٌ له ويعمُّ جميعَ أمَّته[١].

والظاهرُ تعلُّقُ الذكر بالرب تعالى؛ لأن استحضار الذات المقدَّسة استحضارٌ لجميع أوصافها.

وقيل: هو على حذف مضافٍ، أي: واذكر نِعَمَ ربِّك في نفسك باستدامة الفكر حتى لا تنسى نِعَمَهُ الموجبةَ لدوام الشكر.

وفي لفظة «ربِّك» من التشريف بالخطاب والإشعارِ بالإحسان الصادر من المالك للمملوك ما لا خفاءَ فيه، ولم يأتِ التركيبُ: واذكر الله، ولا غيرَه من الأسماء.

وناسَبَ أيضًا لفظُ الربِّ قولَه: «تضرُّعًا وخفيةً» لأنَّ فيه التصريحَ بمقام العبودية.

والظاهرُ أنَّ قوله: «ودون الجهر من القول» حالةٌ مغايرةٌ لقوله: «في نفسك» لعطفها عليها، والعطفُ يقتضي التغايرُ.

وقال ابنُ عطية: والجمهورُ على أنَّ الذكر لا يكونُ في النفس، ولا يراعَى إلا بحركة اللسان، قال: ويدلُّ عليه من هذه الآية قولُه تعالى: «ودون الجهر من القول» فهذه مرتبةُ السرِّ والمخافَتة باللفظ[٢]. انتهى.

ولا دلالةَ في ذلك كما[٣] زعم، بل الظاهرُ المغايرةُ بين الحالتين، وأنهما ذِكْرانِ: نفسانيٌّ ولسانيٌّ، ولذلك قال الزمخشري: ومتكلِّمًا كلامًا دون الجهر؛ لأنَّ الإخفاء أدخلُ في الإخلاص وأقربُ إلى جنس التفكُّر[٤]. انتهى.

ولمَّا ذكر حالتي الذِّكر وسببهما وهما التضرُّعُ والخِيفةُ ذكر أوقاتَ الذكر؛ فقيل: أراد خصوصيةَ الوقتين؛ لأنهم كانوا يصلُّون في وقتين قبل فرض الخمس.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) في (د١) والمطبوع: لما.

(٤) الكشاف ٢/ ١٤٠.

وقال قتادة: «الغدوُّ»: صلاة الصبح، و«الآصال»: صلاة العصر[١].

وقيل: خصَّهما بالذِّكر لفضلهما.

وقيل: المعنى: جميع الأوقات، وعبَّر بالطرفين المُشْعِرَيْن بالنهار والليل.

و«الغدوّ»؛ قيل: جمعُ غُدْوة، فعلى هذا تَظْهَرُ المقابَلةُ لاسم جنسٍ بجمعٍ، ويكونُ المرادُ: بالغدوات والعشايا، وإن كان مصدرًا لـ«غدا» فالمرادُ: بأوقات الغدوِّ، حتى يقابَلَ زمانٌ مجموعٌ بزمانٍ مجموعٍ.

وقرأ أبو مجلز لاحِقُ بنُ حُميدٍ السَّدُوسيُّ البصري: «والإيصال»[٢] جَعَله مصدرًا لقولهم: آصَلْتُ، أي: دخلتُ في وقت الأصيل، فيكون قد قابَلَ مصدرًا بمصدرٍ، ويكون كـ«أَعْصَرَ» أي: دخل في العصر، وهو العشيُّ، «وأَعْتَم» أي: دخل في العتمة.

ولمَّا أَمَره بالذكر أكَّد ذلك بالنهي عن أن يكون من الغافلين، أي: استَدِم[٣] الذِّكر ولا تَغفلْ طرفةَ عينٍ، ومعلومٌ أنه عليه السلام تستحيلُ عليه الغفلةُ لعصمته، فهو نهيٌ له ﷺ والمرادُ أمتُه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ هم الملائكةُ عليهم السلام، ومعنى العندية: الزُّلْفى والقُرْبُ منه تعالى بالمكانة لا بالمكان، وذلك لتوفُّرهم على طاعته وابتغاءِ مرضاته.

ولمَّا أَمَر تعالى بالذكر ورغَّب في المواظبة عليه، ذَكَر مَن شأنُهم ذلك، فأخبر عنهم بأخبارٍ ثلاثةٍ:

الأولُ نَفْيُ الاستكبار عن عبادته، وذلك هو أصلُ[٤] إظهارِ العبودية، ونفيُ

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٤، وأخرجه عبد الرزاق ١/ ٢٤٦، والطبري ١٠/ ٦٧٠-٦٧١، وفيه: العشي، بدل: العصر، وصلاة العشي هي صلاة العصر، وقيل: الظهر والعصر. تفسير البيضاوي ٣/ ٢٦٧.

(٢) القراءات الشاذة ص٤٨.

(٣) في (أ) و(د١) و(ع) والمطبوع: استلزم.

(٤) كلمة: أصل، ساقطة من (د١) والمطبوع.

الاستكبارِ هو المُوْجِبُ للطاعات كما أنَّ الاستكبارَ هو الموجبُ للعصيان؛ لأنَّ المستكبِر يرى لنفسه شفوفًا[١] ومَزِيَّةً، فيمنعُه ذلك من الطاعة.

الثاني: إثباتُ التسبيح منهم له تعالى، وهو التنزيهُ والتطهيرُ عن جميع ما لا يليق بذاته المقدَّسة.

والثالث: السجودُ له.

قيل: وتقديم المجرور يُؤْذِنُ بالاختصاص، أي: لا يسجدون إلَّا له، والذي يَظهر أنه إنما قدَّم المجرورُ ليقع الفعلُ فاصلةً، فأخَّره لذلك ليناسِبَ ما قبله من رؤوس الآي.

ولمَّا كانت العبادةُ ناشئةً عن انتفاء الاستكبار، وكانت على قسمين: عبادة قلبية، وعبادة جسمانية، ذكَرهما، فالقلبيةُ: تنزيهُ الله تعالى عن كلِّ سوءٍ، والجسمانيةُ: السجودُ، وهو الحالُ التي يكونُ العبد فيها أقربَ إلى الله تعالى، وفي الحديث: «أطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضعُ شبرٍ إلا وفيه ملكٌ قائمٌ أو راكعٌ أو ساجدٌ»[٢].

وقوله: «وله يسجدون» هو مكانُ سجدةٍ، فقيل: سجودُ التلاوة أربعُ سجداتٍ: «الم تنزيل» و«حم تنزيل» و«النجم» و«العلق»[٣].

وذُكِرَ عن ابن عباس أنها عشرٌ؛ أسقط آخِرَ «الحج»، و«صٓ»، وثلاثًا في المفصَّل.

ورُوي عن مالك: إحدى عَشْرَةَ؛ أَسْقَطَ أخيرة[٤] «الحج» وثلاثَ المفصَّل.

---

(١) أي: فضلًا وزيادة، من شَفَّ: إذا زاد. ينظر اللسان (شفف).

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢١٥١٦)، والترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠) من حديث أبي ذر ﷺ. قال الترمذي: حديث حسن غريب. وله شاهد من حديث حكيم بن حزام ﷺ أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (١١٣٤)، وإسناده قوي كما ذكر محققو المسند في حاشية الحديث الأول.

(٣) أورده القاضي عياض في إكمال المعلم بفوائد مسلم ٢/ ٥٢٣ عن عليٍّ وابن مسعود وابن عباس ﷺ.

(٤) في (أ) و(د١) والمطبوع: آخرة.

وعن ابن وهب: أربعَ عَشْرةَ؛ أسقط ثانيةَ «الحج»، وهو قولُ أبي حنيفةَ والشافعيِّ، لكن أبو حنيفة أسقط ثانيةَ «الحج» وأثبت «ص»، وعَكَسَ الشافعيُّ.

وعن ابن وهب أيضًا وابنِ حبيبٍ: خمسَ عَشْرةَ آخِرُها خاتمةُ «العلق».

وعن بعض العلماء: ستَّ عشرةَ، وزاد سجدةَ «الحجر»[١].

والجمهورُ على أنه ليس بواجبٍ، وقال أبو حنيفة: هو واجبٌ.

ولا خلافَ في أنَّ شرطَه شرطُ الصلاة من طهارةِ خَبَثٍ وحَدَثٍ، ونيةٍ، واستقبالٍ، ووقتٍ، إلَّا ما رَوَى البخاريُّ[٢] عن ابن عمر، وابنُ المنذر عن الشعبيِّ[٣]، أنه يسجد على غير طهارةٍ.

وذهب الشافعيُّ وأحمد وإسحاق إلى أنه يكبِّر ويرفع اليدين، وعن مالك: يكبِّر لها في الخفض والرفع في الصلاة. وأمَّا في غير الصلاة فاختُلف عنه.

ويسلِّم عند الجمهور، وقال جماعةٌ من السلف وإسحاقُ: لا يسلِّم[٤].

ووقتُها سائر الأوقات مطلقًا؛ لأنها صلاةٌ بسببٍ، وهو قولُ الشافعيِّ وجماعةٍ، وقيل: ما لم يُسْفِر ولم تصفرَّ الشمسُ[٥]. وقيل: لا يسجد بعد الصبح ولا بعد

---

(١) تنظر هذه الأقوال في إكمال المعلم ٢/ ٥٢٢-٥٢٣، والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي ٢/ ١٩٤-١٩٥، وتفسير القرطبي ٩/ ١٣٦-١٣٧.

(٢) تعليقًا قبل الحديث (١٠٧١)، ووصله ابن أبي شيبة (٤٣٥٤).

(٣) وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة (٤٣٥٧)، وتحرف «المنذر» في (د١) والمطبوع إلى: المنكدر. والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في تفسير القرطبي ٩/ ٤٣٨، والكلام منه.

(٤) كذا وقع في النسخ، وهو عكس ما جاء في إكمال المعلم ٢/ ٥٢٤، والمفهم ٢/ ١٩٦-١٩٧، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٣٩، واللفظ عندهم: ولا سلام لها عند الجمهور، وذهب جماعة من السلف وإسحاق إلى أنه يسلم. اهـ. والتحقيق أن القولين منصوصان للشافعي، أصحهما عند العلماء من مذهبه اشتراط التسليم. وعن أحمد أيضاً روايتان. وينظر تفصيل ذلك في المغني لابن قدامة ٢/ ٣٦٢-٣٦٣، والمجموع للنووي ٣/ ٥٦٢، والتبيان في آداب حملة القرآن له ص١٤٠، وينظر أيضاً مختصر اختلاف العلماء للجصاص ١/ ٢٤٢-٢٤٣.

(٥) أي: ما لم يسفر الصبح أو ما لم تصفر الشمس بعد العصر. ينظر المعلم بفوائد مسلم للمازري ١/ ٢٨٢، وإكمال المعلم ٢/ ٥٢٣، والمفهم ٢/ ١٩٦، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٣٩.

العصر. وقيل: الصبح[١] لا بعد العصر. وثلاثة الأقوال هذه في مذهب مالك.

وفي «سنن» ابن ماجه عن ابن عباس أنه عليه الصلاةُ والسلام كان يقول في سجود التلاوة: «اللهم احْطُطْ عنِّي بها وِزْرًا، واكْتُبْ لي بها أجرًا، واجْعَلْها لي عندكَ ذُخْرًا»[٢].

ومشهورُ مذهبِ مالكٍ أنه لا يسجد في الفريضة سرًّا كانت أو جهرًا، ومذهبُ أبي حنيفةَ أنه واجبٌ على السامع قَصَدَ الاستماعَ أو لا[٣].

والحمد لله أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

❁ ❁ ❁

تمَّ الجزء العاشر من البحر المحيط، ويتلوه الجزء الحادي عشر

وأوَّله تفسير قوله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾

الآية الأولى من سورة الأنعام

---

(١) أي: ما لم يُسْفر. ينظر المصادر المذكورة في التعليق السابق.

(٢) سنن ابن ماجه (١٠٥٣)، وأخرجه أيضاً الترمذي (٥٧٦) و(٣٤٢٢) وقال: غريب من حديث ابن عباس، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. اهـ. وفي إسناده حسن بن محمد بن عبيد الله، قال العقيلي في الضعفاء ١/٢٤٣: لا يتابع على حديثه. وقال غيره: فيه جهالة. الميزان ١/٤٧٥.

(٣) ينظر تفصيل هذه المسائل في مختصر اختلاف العلماء للجصاص ١/٢٣٨-٢٤٤، وإكمال المعلم ٢/٥٢٢-٥٢٤، والمفهم ٢/١٩٤-١٩٧، وتفسير القرطبي ٩/٤٣٦-٤٤٠.

فهرس الآيات